

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد الخامس: الأعراف والأنفال


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ الأَعْرَافِ (٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأعراف هي السورة السابعة في ترتيب المصحف، والتاسعة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلتْ بعد سورة (ص)، وقبل سورة (الجن).

وهي مئتان وست آيات في العدد المدني الأول والثاني والكوفي[١].

وهي ثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمس وعشرون كلمة.

وسورة الأعراف أربعة عشر ألفًا وثلاث مئة وعشرة أحرف.

وسُمِّيت سورة الأعراف؛ لعدم ورود هذا اللفظ في غيرها.

وسمَّاها بعضُهم[٢] **سورة الميقات**؛ لاشتمالها على ذكر ميقات موسى عليه السلام.

وتُسمَّى **سورة الميثاق**؛ لاشتمالها على الميثاق المأخوذ على بني آدم وهم في عَالم الذَّر.

وهي سورة مكية عدا الآيات من [١٦٤-١٦٧] وآية رقم [١٧٢] فهي مدنية.

وهي من السور السبع الطوال في أول القرآن.

وأخرج النسائي وغيرُه عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فرَّقها في ركعتين[٣].

وعن ابن أبي مليكة عن عروة عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال لمَرْوان بن الحكم: ما لي أراكَ تقرأ في المغرب بقصار المفصل، وقد رأيتُ رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطوليين، قال مَرْوان: يا أبا عبد الله، ما أطول الطُّوليَيْن؟ قال: الأعراف[٤].

---

(١) ومئتان وخمس آيات في العدد البصري والشامي.

(٢) وهو الفيروزآبادي في كتاب «بصائر ذوي التمييز».

(٣) صححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» برقم (٩٤٧).

(٤) «المسند» (٢١٦٤١، ٢١٦٤٦) وإسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير مروان بن الحكم فمن رجال البخاري، (محققوه) والبخاري (٧٦٤) مختصرًا وأخرجه أبو داود (٨١٢) والنسائي (٩٨٩) وفي «الكبرى» (١٠٢٢) وابن خزيمة (٥١٥، ٥١٦) والطبراني في «الكبير» (٤٨١١، ٤٨١٢) وصحيح النسائي (٩٤٦) وصحيح سنن أبي داود (٧٢٨).

وفي لفظ آخر من حديث زيد بن ثابت أيضًا أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في المغرب بطولى الطوليين (المص)[١].

وسورة الأعراف هي أطول سورة في القرآن الكريم الذي نزل بمكة على رسول الله ﷺ، وهي أطول من سورة الأنعام المكيَّة التي قبلها.

وسورة الأعراف كسورة الأنعام، كلاهما يعالج قضيةَ العقيدة والتوحيد، ولكن سورة الأنعام تعالج قضيةَ العقيدة ذاتها، وتعالج أوضاع الجاهلية في كلِّ زمان ومكان، الجاهلية التي كانت عند مَبْعَثِ الرسول ﷺ، وجاهلية الأمم التي لم تتشرف بالوقوف على معالم الرسالة الخاتمة إلى يوم القيامة، فتبيِّن للناس العقيدة الصحيحة، وما أحلَّه الله لهم، وما حرَّمه عليهم من الذبائح وغيرها.

وسورة الأعراف تعالج موضوع العقيدة والتوحيد من زاوية أخرى، تعالجها في رحلة الرسل الكرام مع التاريخ البشري الطويل، رحلة الموكب الإيماني مع رسل الله الكرام، الذي يبدأ من لدن آدم إلى محمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهي سورةٌ تُفصِّلُ بتوسُّع قصص الأنبياء والمرسلين، وقد سبق قبل ذلك إشارات عابرة في سُور القرآن المكي الذي نزل قبل هذه السورة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل] إلى آخر الآيات، وكما في سورة الفجر، وسورة القمر، وهي إشارات عابرة إلى قصص الأنبياء والمرسلين، وجاءت هذه السورة؛ لتُفصِّلَ وتُوسِّع الحديث عنها.

وفي هذا الصدد تتناول السورة سبع قصص؛ هي: قصة آدم، وقصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة لوط، وقصة شعيب، وتتناول بالإطناب قصة موسى بما لم يُذْكَر في غيرها، ففي هذه السورة بيانُ أن الله سبحانه أنزل الكتاب على موسى؛ لهداية أهل مصر، ولهداية بني إسرائيل، وتَذْكُر السورة عشر حَلْقَاتٍ من قصة موسى مع بني إسرائيل لا يوجد غيرُها في القرآن الكريم، وتتحدث عن الفراعنة، وعن اليهود بإسهاب وإطناب.

اشتملتْ سورةُ الأعراف على مقاصدِ السور المكية، وهي إقامة الأدلة على وحدانية الله

---

(١) ينظر: «الدر المنثور» (٦/ ٣١١).

تعالى، وعلى صِدْقِ محمدٍ ﷺ، وعلى أن يوم القيامة حقٌّ لا رَيْبَ فيه.

واهتمتِ السورةُ **بأسلوبين** بارزين:

أحدهما: أسلوب التذكير بنعم الله تعالى؛ فتلفت أنظار الناس إلى نعمة خَلْقِهم، وتصويرهم وتمكينهم في الأرض، وتمتُّعِهم بما في هذا الكون من خيراتٍ سَخَّرَها الله تعالى لهم.

وثانيهما: أسلوب التخويف من العذاب والنقم؛ فتستعرض سورة الأعراف في أكثر من نصفها ما نزل بالأمم الذين لم يستجيبوا لنصائح الرسل من سوء المصير.

وتبدأ السورة بافتتاحية عن القرآن العظيم ألَّا يكونَ في صَدْرِ الرسول ﷺ حرجٌ من إبلاغه للناس، فيخوِّفُ به الكافرين، ويذكِّرُ به المؤمنين، وأن تتَّبع الأمةُ ما أنزل الله فيه، ولا تتَّبع غيرَه.

ثم تشير السورة في بدايتها إلى ما جاء فيها من الأمم التي كذَّبت رسلها؛ فأهلكها الله ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ وأعقبتْ ذلك بأن الله تعالى سيسأل الأمم ويسأل الرسل، وسوف يقص على الجميع أخبارهم، ويزن أعمالهم، فمنهم أهل الجنة، ومنهم أهل النار.

وبعد هذه المقدِّمة تَذْكُرُ السورة قصة بدء الخلق بآدم وحواء، وما كان من إغواء الشيطان لهما، وتحذِّر بني آدم من كيده وعداوته في أربعة نداءات متوالية.

وتنتقل السورة من المنشأ إلى المعاد، فتَذْكُر أهل النار وهم يتلاحقون فيها جماعة بعد جماعة، الضالين والمضلين، وتبيِّن استحالة دخولهم الجنة، وعدم خروجهم من النار.

ثم تعرض مشاهد الفِرَقِ الثلاث يوم القيامة: وهم أهل النار، وأهل الجنة، وأصحاب الأعراف، وتعقِّب على ذلك بذِكْرِ شيء من صفحات الكون وتسخيره للإنسان؛ السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والرياح، والماء، والزروع والثمار؛ للاستدلال بها على وحدانية الخالق سبحانه، وقدرته على البعث والنشور، وتضرب مثلًا للمؤمن بالأرض الطيبة الخصبة، ومثلًا للكافر الذي لا ينتفع بالحجج والبراهين بالأرض الرديئة السبخة.

ثم تأخذ السورة في ذكر الأمم التي تمردت على وحي الله؛ فصرعها بغيها، ويُلاحظ أن أغلب هذه الأمم في المناطق العربية؛ فقوم نوح بالعراق، وقوم عاد باليمن وما جاورها، وقوم ثمود بأطراف الحجاز، وقوم مدين بين سيناء والأردن، وقوم لوط في شرق فلسطين، وهؤلاء جميعًا قاوموا المرسلين، وجحدوا ما جاؤوا به من عند الله.

ويعرض السياق إلى قصة موسى في مواجهته لفرعون، وفي تحدِّيه للسحرة، وفي أخذ آل فرعون بالسنين، وفي إغراق فرعون وقومه.

كما يعرض لدعوة بني إسرائيل، وطلبهم من نبيهم أن يجعل لهم إلهًا صنمًا كغيرهم، بعد أن نجَّاهم الله من الغرق، ويعرض أيضًا إلى ميقات موسى مع ربِّه؛ لنزول التوراة عليه، وطلبه الرؤية من ربه، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ...﴾ [الأعراف: ١٤٣] وإلى ميقاته مع نقباء بني إسرائيل السبعين الذين قالوا له: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]

وتتحدث السورة عن مخالفة بني إسرائيل لأمر ربهم في دخول القرية، وفي صيد السمك يوم السبت، وعن رَفْعِ جبل الطور فوقهم؛ حتى يقبلوا التوراة و يعملوا بما أنزله الله فيها على موسى عليه السلام.

ومن ثَمَّ يأتي ذِكْرُ الميثاق الفِطْري الذي أخذه الله على بني آدم لتوحيد الله ﷻ، ويَتْبَع ذلك مثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها؛ كبني إسرائيل، وكلٌّ مَن تأتيه هدايةُ الله فيزهد فيها ويُعرض عنها.

إن الأمم التي أبادها الله تعالى -ممَّن جاؤوا في هذه السورة وغيرها- هي التي حفرت قبرها بيدها ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

ولقد كان الجدير بمَن أتى بعدهم أن يتعظوا بمصارع الآباء والأجداد، ولكنهم لم يعتبروا ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

إن الصهاينة من يهود اليوم معتدون ظالمون مضادون لله تعالى في إقامة الكيان الصهيوني، وقد كَتَبَ الله عليهم التشردَ في البلاد؛ بسبب تقاعسهم عن نُصْرَةِ نبيهم موسى ﷺ، فخالفوا ذلك، وأقاموا وطنًا لهم، وهم كافرون برسولين بعد موسى، مقاتلون للعرب، محتلون لأرضهم، وإن الطغاة من النصارى ملؤوا الأرض ظلمًا وفسادًا واستعبادًا واستبدادًا، ونصَّبوا أنفسهم شُرْطيًا على العالَم، يولُّون مَن شاؤوا، ويعزلون مَن شاؤوا، ويحتلُّون ما شاؤوا.

وإن جُلَّ المسلمين معطِّلون لحدود الله، مستبيحون لحرماته، تاركون لواء محمدٍ ﷺ، سائرون تحت ألوية الغدر والعصيان، فلا عجب أن ينطبق على هؤلاء وأولئك ما انطبق على غيرهم؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إن كلَّ أمةٍ يبتليها الله تعالى بالمحن، ثم لا تلجأ إلى الله تعالى وترجع إليه؛ يأخذها ربُّها على غِرَّةٍ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف] ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

هذا هو شأن الأمم التي خذلت أنبياءها ممَّن قص الله علينا قصصهم في هذه السورة ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف].

فالقلوب المحجوبة والعيون المغلقة تقود أصحابها إلى جهنم، وعلى كلِّ مَن يريد النجاة من النار أن يفتح قلبَه وعينَه؛ فيفكر وينظر ويتأمل في ملكوت السموات والأرض، ويتدبر ما جاء به رسولُ الله ﷺ، فإن حرية الإرادة البشرية لا جدالَ فيها، وإلا سقط تكليفُ الله لخَلْقِه، ولم يعُد هناك حاجة للثواب والعقاب في الآخرة.

وقد نصح الله المسلمين أن يتجنبوا مصارع الأولين، وأن يُحسِّنوا عَلاقَتَهم بالله تعالى؛ فيدعونه بأسمائه الحسنى، ويبتعدون عن الشرك والضلال والإلحاد ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف].

وعلى المسلم ألا يحاول كشف المجهول من الأمور الغيبية، وقد أخفى الله تعالى

موعد قيام الساعة؛ لأن قيامها يهم المعاصرين لها، ولو علموها لاستعدُّوا لها ساعة قيامها، أما غير المعاصرين لها، فإن قيامتهم تقوم لحظة وفاتهم، ومعرفة وقت قيامها لا يفيدهم في قليلٍ ولا كثيرٍ، وكما بدأت سورةُ الأعراف بالحديث عن آدم، فإنها تعود قرب نهايتها فتتحدث عن ذرية آدم؛ لتبين أن الله تعالى قد غمر أبناء آدم بأَنْعُمِه، فبدل أن يشكروه أشركوا به ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف].

ثم يتجه الخطاب إلى الدعاة إلى الله، وإمامِهم ﷺ، فيندِّدُ بجمود المكذِّبين بالرسالة الخاتمة، ويبيِّنُ كيفية التعامل معهم، وأن على سيِّدِ الدعاة وكلِّ مَن قام بالدعوة أن يصبر ويتحمل الأذى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] ففي هذا استعانة على متاعب الطريق، واقتحام لأصعب المسالك وُصولًا إلى النجاح، وإذا كان الشيطان يحاول إضلال بني آدم فإنه لا يملك إلا الوسوسة، والإنسان المؤمن يَدْحَرُ الشيطان، ويهزم هذه الوساوس ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

إن هذا الذِّكْرَ يعصم من الزلل، ويستبقي الإيمان في قلب العبد، ويجعله أهلًا لرحمة الله ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف].

وذِكْرُ الله تعالى يجب أن يكون موصولًا غير منقطع، ومسيطرًا على السرِّ والعلانية، وباعثًا على الرغبة والرهبة؛ حتى ينتظم العابد مع الكون كلِّه، وهو يسبح بحمد الله ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ وهكذا ملائكة الله لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون.



تَفْسِيرُ السُورَةِ

الْحُرُوفُ الْهِجَائِيَّةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ

١ - ﴿الٓمٓصٓ[1] ①﴾

تبدأ سورةُ الأعراف بحروف الهجاء (ا ل م ص) هذه الحروف الهجائية التي يتكون منها نَظْمُ القرآن الكريم، والسور التي تبدأ بهذه الحروف الهجائية في القرآن الكريم تسع وعشرون سورة؛ ثلاث منها نزلت بمكة قبل سورة الأعراف؛ وهي: سورة (ن والقلم)، وسورة (ص) و سورة (ق).

ومن هذه السور ما هو على حرف واحد؛ وهي: ص، ق، ن.

ومنها ما هو على حرفين مثل: (طه)، (يس)، (حم).

ومنها الثلاثي مثل: (الم)، ومنها الرباعي مثل: (المر)، ومنها الخماسي مثل: (كهيعص).

١- وهي للإعجاز القرآني لمَن يتحداهم القرآن إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثله في ألفاظه ومعانيه ومعارفه، وهو يتكون من هذه الحروف التي تنطقون بها مثل: الألف، واللام، والميم، والصاد، وقد قال المكذبون: إن هذا القرآن نزل من عند محمدٍ ﷺ.

وغالبًا ما يكون الحديث بعد هذه الحروف عن القرآن الكريم، سواء بالاسم الصريح نحو: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] أو باسم الإشارة ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [لقمان: ٢] ويكون هدف السورة غالبًا إثباتُ الرسالة عن طريق هذا القرآن.

ولم يثبت في تفسير هذه الحروف شيءٌ عن النبي ﷺ،

٢- وهذه الحروف الهجائية تجذب وتشدُّ انتباه غيرِ المؤمنين؛ للاستماع إلى القرآن، وتُجْبرهم على التأمل في معانيه، ففيها إيقاظ وتنبيه؛ إذ إنها كلام غير مألوف ولا معروف لديهم، فيحملهم هذا إلى الإنصات والتفكر فيه؛ فيتأثرون به وينجذبون إليه فيؤمنون به، وهذا هو

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على (ألف) و(لام) و(ميم) و(صاد) من (المص) سكتة يسيرة بدون تنفس، على أن كلا منها حرف مستقل منقطع عن غيره، وقرأ غيره بعدم السكت.

هذا: وقد عدّ (المص) آية، الكوفي، وتركها غيره فلم يعدها آية.

هدف الإسلام، سِيَّمَا أن المشركين الأوائل الذين كانوا يمتنعون من سماع القرآن مخافة أن يُؤَثِّرَ في نفوسهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت].

فهاتان **فائدتان** لهذه الحروف:

أولًا: كونها للتحدي والإعجاز.

ثانيًا: حمل غير المؤمنين على الاستماع إلى القرآن الكريم.

والمراد من هذه الحروف أسماؤها، لا مسمياتها وأشكالها، وفيها تعريضٌ بعجز الذين ينكرون نزول القرآن من عند الله، وقد كُتِبَتْ هذه الحروف في المصحف بصورتها وشكلها الهجائي، ولم تُكتب بما تُنطق به وَفْقًا للرسم العثماني.

خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَخِطَابٌ لِلْبَشَرِ

٢- ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

وتبدأ سورة الأعراف بعد حروف التهجي بتوجيه **خطابين**:

١- خطاب إلى الرسول ﷺ.

٢- وخطاب إلى البشر جميعًا إلى يوم الساعة.

أما خطاب النبي ﷺ فهو قوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن العظيم الذي أَنْزَله الله عليه، من جنس الكتب المنزَّلة على الأنبياء، اشتمل على كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع الأوامر والنواهي الإلهية والمقاصد الشرعية، محكمًا مفصلًا ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ هذا **الحرج**: هو الضيق الذي ينتاب رسل الله الكرام؛ بسبب ما يَلْحَقُ بهم؛ من الأذى والعنت والتكذيب الذي يكون من أقوامهم الذين يُبعثون فيهم، وهم يبلغون إليهم دعوة الله سبحانه.

أي: لا يكن في صدرك حرجٌ وضيقٌ؛ بسبب ما تَلْقاه من عنَتٍ ومشقة وتكذيب من القوم؛ لأنك تجابه عقائدَ وتقاليدَ، وتُعارض نُظُمًا وأوضاعًا، وتُواجه ظلمًا وطغيانًا، وفِرَقًا وأحزابًا، ومجتمعاتٍ تحكمها نظم بشرية، وكلٌّ ذلك يحتاج إلى إصلاح وتقويم

وجَهْدٍ وعناء، ولا يكن في صدرك شك واشتباه، بل لِتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وأنه أصدق الكلام، فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، فاصدع به ولا تخش لائمًا ولا معارضًا.

فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولا يكن في صدرك أدنى شكٌّ في أنه نَزَلَ من عند الله ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ الخلق فتعظهم وتذكّرهم لتقوم الحجة على المعاندين منهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] بأن تنذر وتبلغ هذا القرآن الكريم للناس، ولا تتحرج في إبلاغه والإنذار به، فبشر به المؤمنين، وخوِّف به الكافرين، وهو ذِكْرَى قائمة بين يدي البشر إلى يوم الساعة، يرجعون إليه بين الحين والحين، فهو ذكرى متجددة للناس أجمعين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم الذين ينتفعون بما فيه، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وفي هذا تعريضٌ بغير المؤمنين الذين لا ينتفعون بما فيه مع أنه نزل لهداية الناس جميعًا، فهو ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]

ويوضح هذه الآية قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود].

وفي الآية تقويةٌ لقلب النبي ﷺ، وتثبيتٌ لفؤاده، وتسليةٌ له عمَّا يقوله المكذِّبون المعارضون.

والإنذار: هو الإعلام مع تخويف، وقد أُمر النبي ﷺ أن يخوِّف بهذا القرآن المكذِّبين والمعاندين وينذرهم به، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]
وهذا الإنذار يكون للكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠] ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل].

أما الذكرى والانتفاع بها فهو خاص بالمؤمنين، يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعمالهم الظاهرة والباطنة، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات] ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩] ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق]

وقد يقتصر ذِكْرُ البشرى على المؤمنين دون غيرهم؛ لأنهم المنتفعون به، وما لا نفع فيه كالعدم، وقد جمع الله بينهما، كما في الآية التي معنا، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ

بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم]. قال تعالى:

٣- ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ[1] ﴿٣﴾﴾

والخطاب الآخَر للبشر، جاء في قوله تعالى فيما أوحاه الله لرسوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ أيها الناس جميعًا في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو هذا القرآن الذي نَزَلَ على رسوله من عند الله لهدايتكم، فيه الهُدَى والنور، فامتثلوا أمرَه واجتنبوا نهيه، واتركوا ما أنتم عليه من الكفر، ولا تَخرُجوا عمَّا جاءكم به الرسول إلى غيره، واتبعوا السُّنَّةَ المبيِّنة له، التي جاءت على لسان الرسول ﷺ، فامتثلوا ما فيها من الأوامر واجتنبوا ما فيها من النواهي ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. فإن اتبعتموه حسُنت تربيتكم، وتمت عليكم النعمة، وهُديتم لأحسن الأعمال والأقوال والأخلاق.

قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ كالشياطين والأحبار والرهبان؛ أي: لا تتبعوا في تحليل ما أحل الله، ولا في تحريم ما حرم الله شرعًا غير شرع الله، ولا تتبعوا أولياء آخرين من البشر يُضلونكم؛ منهم الملاحدة الذين لا يعترفون بوجود الله، ومنهم الوثنيون، ومنهم المشركون الذين يقرون بوجود الله ويشركون معه غيره، ومنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين ينسبون الولد إلى الله ﷻ، ومنهم المسلمون الذين يُقلِّدُون اليهود والنصارى في نُظُمِهم وقوانينهم ويتبعونها حذو القذة بالقذة، فاحذروا أن تتركوا شريعته، واحذروا أن تتخذوا معه شركاء يزينون لكم الباطل، فتتبعون أهواءكم وتتركون الحق لأجلها.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتعتبرون وترجعون إلى الحقِّ، ولو تذكّرتُم لما آثرتم الشر على الخير والضلال على الهدى، وإيمان القليل يفيد كفر الكثير، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]

وقال جل شأنه ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

---

(١) قرأ ابن عامر (يتذكرون) بياء قبل التاء وتخفيف الذال على الغيبة والالتفات، والتخفيف على الأصل، وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بحذف الياء وتخفيف الذال (تذكرون)، وقرأ الباقون بإدغام التاء في الذال مع تشديدها، وأصلها (تتذكرون).

والذي أمركم باتباع أمره هو ربُّكم، خالقكم ورازقكم ومدبر أموركم، العليم بما فيه صلاحكم وسعادتكم، فاحذروا أن تتركوا شَرْعَه وتتبعوا شَرْعَ غيره ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦] لا يخفَى عليه فعلُهم، وسيجازيهم عليه.

وفي النهي عن اتباع غير ما أنزل الله إقامةٌ للحجة على المشركين، وقطعٌ لمعاذيرهم؛ لئلا يقولوا: ما نعبد أولياءنا إلا ليقربونا إلى الله زُلفى، فقد كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك، وإذا كان يُمْلَك ولا يَمْلِك فلا تتبعوا ما يأتيكم من دون الله.

وقد كان المشركون يعترفون بوجود الله، ويتبعون أمرَ غيره في بعض عبادتهم؛ في مناسك الحج، والحلف بغير الله، والتقرب إليهم بالذبح والنذر، ويسألونهم النفع والضَّرَّ والإعانة والمدد، وهكذا يفعل بعضُ الناس في هذا العصر، ولو أنهم لم يضيِّعوا النظر والتذكُّر لَمَا اتّبعوا غير هُدَى الله، ولَمَا احتاجوا إلى النهي عن ذلك.

الْإِشَارَةُ إِلَى مَصِيرِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِ اللهِ

٤- ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا[1] بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾

والله ﷻ في أول سورة الأعراف، يبيّن ما حلَّ بالمكذِّبين للرسل على مرِّ الأزمنة والأمكنة، من عذاب الله في الدنيا، وما يحلُّ بهم من عذاب الله في الآخرة، قبل تفصيل ما حَدَثَ من هذه الأمم في هذه السورة وغيرها، فاعتبروا يا أولي الألباب، واحذروا أن تُشابهوهم حتى لا يحلّ بكم ما حل بهم.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أردنا إهلاكها؛ أي: كثيرًا من القرى؛ وهي المدن الكبرى التي أردنا إهلاك أهلها؛ بسبب مخالفة الرسل وتكذيبهم، فأورثهم ذلك خزيُ الدنيا موصولًا بذل الآخرة ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابُنا الشديد، وانتقامُنا بعد ذلك على حين غفلة، مرة وهم نائمون ليلًا، ومرة وهم قائلون نهارًا، في وقت التعب، وفي وقت السكون والراحة

---

(١) أبدل الهمزة من (بأسنا) ألفًا أبو عمرو بخلْف عنه، وأبو جعفر، وحمزة عند الوقف هنا وكذا في الآية التالية.

﴿بَيَـٰتًا﴾ ليلًا ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ وقت القيلولة، ومجيء العذاب في هذين الوقتين أفظع وأشد، حيث يأتيهم على غرة وهم في غفلة، فلا يستطيعون دفعه عن أنفسهم، ولا ينصرهم منه ناصر، ولا يدفعه عنهم دافع.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص]

وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل].

وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء].

وهلاكُ الأمم يكون بسبب بغيها وفسادها وانحرافها عن الطريق المستقيم، وهذه سُنة الله في كلِّ زمان ومكان، والعاقل هو الذي لا يغتر برخاء العيش وصفو الليالي، وإنما يكون بين الخوف والرجاء، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، وهذا يشمل الأفراد والأُمَم والجماعات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام].

وقال سبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج].

وقال جل شأنه: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة]

وقال تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنبياء].

والمراد بالإهلاك في الآية: عذابُ الاستئصال والإبادة، ومعنى ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ أردنا

إهلاكها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت قراءة القرآن، وقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟﴾ [المائدة: ٦] أي: إذا أردتم القيام للصلاة.

والبأس: هو العذاب، وقد أخبر تعالى عن كيفية إهلاكهم بعد أن أخبر بإهلاكهم، فهو تفصيلٌ بعد إجمالٍ، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر].

فالمعنى: وكم من أهل قرية أهلكناهم؛ لتكذيبهم رسل الله، وجحودهم أوامر الله، وإشراكهم بالله، فاحذروا - أيها المسلمون - أن تكونوا مثلهم؛ فيصيبكم ما أصابهم.

وفي الآية وعيدٌ وتهديدٌ لكل مَن لم يؤمن بخاتَم الرسل، كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد].

٥- ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾

فما كان قولُهم حين يرون نزول العذاب بهم إلا أن يعترفوا بذنوبهم وظلمهم قائلين: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ويندموا وقت لا ينفع الندم ولا الاعتراف، فيقروا بالشرك والكفر، ويعترفوا أنهم جديرون بالعذاب الذي نزل بهم في الدنيا، وما مِن قوم أَهْلَكَهم الله تعالى إلا ندموا واعتذروا وهم يعاينون بأسَ الله، وبأسُ الله لا يكفه ندمٌ ولا توبةٌ، فقد كان الأجدر بهم أن يتوبوا من ذنوبهم قبل حلول العذاب بهم.

ولفظ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ في الآية له معنيان:

الأول: بمعنى الدعاء؛ أي: فما كان دعاؤهم واستغاثتهم -لرفع العذاب عنهم، حين نزل بهم بأس الله وظهرت علاماته- إلا أن جأروا إلى الله تعالى، ولجؤوا إليه، وسألوه أن يكشف عنهم ما حاق بهم من نعمة، قائلين: إنا كنا ظالمين؛ أي: مشركين بالله تعالى، وهذا الاعتراف يكون مقدمة للتوبة، ولكن دعاءهم هذا كان آخر قولهم في الدنيا قبل أن تشهد عليهم ألسنتهم في يوم الحشر، وهذا من شأنه أن يخفف العذاب عنهم.

وهم قد ظلموا أنفسهم بالعناد، وتكذيب الرسل، والإعراض عن آيات الله، وصموا آذانهم عن الوعد والوعيد، فلمَّا رأوا العذاب ندموا وأقروا على أنفسهم إقرارًا مشوبًا بالحسرة والندم والشعور بالويل والثبور، ومِن شأن مَن يقع في شدة أن يجري على لسانه كلام، فإن كان ممَّن اعتاد قولَ الخير نَطَقَ به، وإن كان ممَّن اعتاد ضده؛ جرى على لسانه

التسخطُ ومُنْكَرُ القول.

واستعمال (دعوى) بمعنى الدعاء كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] وهذا المعنى هو المراد من الآية التي نحن بصددها على الأرجح، قال تعالى ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]

المعنى الثاني: أنها بمعنى الادعاء؛ أي: أنه قد انقطعت كل الدعاوَى التي كانوا يدَّعونها في الدنيا من تعدد الآلهة وغيرها، ولم يبق لهم دعوى؛ فانقطعت حُجَّتُهم واعترفوا أنهم مبطلون(١).

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى العذاب الأخروي بعد بيان العذاب الدنيوي، من الآية السادسة إلى الآية التاسعة.

سُؤَالُ الرُّسُلِ وَالْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٦- ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ(٢) وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾

والعذاب الأخروي يكون بعد البعث والسؤال والحساب، ويكون في يوم القيامة مواقفُ؛ فتارة يُسْأَلُ الناس، كما في هذه الآية، وتارة لا يُسألون، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] والجميع يُسأل يوم القيامة، الرسل يُسألون عن تبليغهم الدعوة إلى خَلْقِ الله، ويُسألون عن إجابة الأمم لهم؛ لإقامة الحجة على الكفار ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء] ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٩] والبشر يُسألون عن قيامهم بواجب الدعوة، وبماذا أجابوا الرسل ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص].

وربما يكون السؤال المثبَتُ في الآية وأمثالها هو السؤال عن تبليغ الرسل، والسؤال المنفي في مثل قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرحمن] هو

(١) ينظر: «تفسير ابن جرير» وابن عطية وابن كثير وابن عاشور للآية.

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهم) و(عليهم) في الآية التالية، وكسرها الباقون.

السؤال عن تفاصيل الذنوب، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ فلا مجالَ للمغالطة ولا الجدال ولا الكذب ولا التعريض.

وسؤال الكفار تقريعٌ وتوبيخٌ، وسؤالُ الأمم للتقرير والاستشهاد، وسؤالُ الرسل للمؤانسة لهم وإرهاب أممهم، ويعقب سؤال الكفار النكال والعقاب، ويعقب سؤال المؤمنين والأنبياء الكرامة والثواب[١].

ومن فوائد السؤال الردُّ على مَن أنكر مِن المشركين أن الرسل قد بلغوهم؛ لئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، وجاء في الحديث[٢] أن كل راع مسؤول عن رعيته، فالحاكم راع، والرجل راع في بيته وأهله، والمرأة راعية في بيت زوجها وولده، وكلكم مسؤول عن رعيته، والله سبحانه أعلم، يعلم ما حدث وما يحدث، وقد أحاط عِلْمُه بكلِّ شيء قبل السؤال وبعده.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك قولُه ﷺ فيما يرويه ابن عمر رضي الله عنهما: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يُسأل عن الناس، والرجل يُسأل عن أهله، والمرأة تُسأل عن بيت زوجها، والعبد يُسأل عن مال سيده»**[٣].

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن الله سائِلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه حفظ ذلك أم ضيعه، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»**[٤].

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فأعدوا للمسائل جوابًا»** قالوا: وما جوابها؟ قال: **«أعمال البر»**[٥].

---

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/ ٢٧٠).

(٢) عن عبد الله بن مسعود وعبدالله بن عمر ﷺ في «صحيح البخاري» (٨٩٣، ٢٥٥٤) و (٥٢٠٠) و«صحيح مسلم» (١٨٢٩) بنحوه، والمسند (٤٤٩٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٣) البخاري (٥١٨٨) ومسلم (١٨٢٩) بنحوه والترمذي (١٧٠٥).

(٤) ابن حبان (٤٤٩٢) قال محققه: إسناده صحيح على شرطهما، وأخرجه أبو نعيم (٦/ ٢٨١) (٩/ ٢٣٥) وعند النسائي في عشرة النساء (٢٩٢).

(٥) في صحيح البخاري (٢٥٥٤) وصحيح مسلم (١٨٢٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٥٧٦) وفي «الصغير» (١/ ١٦١) قال الهيثمي: أحد إسنادي الأوسط رجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٠٧). وهو في مسند أحمد عن ابن عمر برقم (٤٤٩٥) بنحوه.

٧- ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

فلنسرُدنَّ على الخلق كلهم، أعمالهم عن علم ويقين، كلَّ قليل وكثير، وجليل وحقير، والله تعالى لا يغيب عنه شيءٌ، وسوف نَقُصُّ على الخَلْقِ ما عملوه في دنياهم بعِلْمٍ من الله تعالى لأعمالهم، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] فيسألهم أولًا ثم يخبرهم بتفصيل ما أجمله جوابهم، والله ﷻ محيطٌ بشؤون خلقه، لا تخفى عليه خافية.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] ولا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

وهذا السؤال؛ ليقيم الله عليهم الحجة يوم لقائه ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة]

وهو سبحانه لا يجهل شيئًا من أحوالهم ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]

وهكذا يقص الله على عباده ما عملوه في الدنيا، ولم يكن سبحانه غائبًا عمَّا فعلوه، بل هو رقيبٌ على خَلْقِه، محيطٌ بكلِّ ما قالوه وما فعلوه، لا يغيب عنه شيءٌ. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

ثم ذكر سبحانه الجزاء على الأعمال.

الرِّبْحُ وَالْخَسَارَةُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٨- ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾

ووزن الأعمال يوم القيامة، يكون بالعدل والقسط الذي لا ظلم فيه ولا جور، فمن رجحت كفت حسناته على سيئاته فهم الناجون من كل مكروه المدركون لكل محبوب، الحاصلون على السعادة الأبدية.

وبعد السؤال والتعريف بالأعمال يكون وزن هذه الأعمال، حيث يُنصب الميزان، ويكون الجزاء عليها جزاءً لا غبن فيه لأحدٍ.

وهو ميزانٌ حسيٌّ حقيقيٌّ، له كفتان ولسان على ما عليه أهل السنة والجماعة، تُوزن فيه

الأعمال بالعدل والقسط الذي لا ظُلْمَ فيه، ويُردُّ على المظلوم من الظالم ما وُجِدَ له من حسنات، فإن لم يكن حسنات أُخِذَ من سيئاته فطُرحت على الظالم.

فالأعمال تُجَسَّمُ حتى يكون لها ثِقَلٌ، أو تُوزن صحف الأعمال، ويُعبَّرُ بخفة الوزن عن الرجل الذي لا قيمة له عند الله، كما في الحديث: **«يُؤْتَى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة»**[١].

ويُعبر بثقل الوزن عن رفع قَدْرِ العبد عند الله تعالى، كما ذكر النبي ﷺ عن ابن مسعود ﷺ حينما نظر بعض الصحابة إلى ساقيه وهما دقيقتان رفيعتان فقال ﷺ: **«أتعجبون من دقة ساقيه، فوالذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أُحُدٍ»**[٢] أي: أنهما أثقل عند الله تعالى من جبل أُحُدٍ.

وبالجملة: فهناك وزن للأعمال، والجزاء يكون على مقدارها، والله تعالى يعلم مقادير أعمال العباد، ومع ذلك فإنها تُوزن يوم القيامة؛ إظهارًا لعدل الله تعالى، وإقامة للحجة على الخَلْقِ، وتعريفًا للعباد بأعمالهم، وإظهارًا لعلامة السعادة والشقاء، وبيانًا لعدم ظلم الله تعالى للناس جميعًا، ومنهم الفائزون في يوم الجزاء، قال تعالى ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]

وقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ [النساء: ٤٠]

وقال جل شأنه ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة]

وقال أيضًا: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون] إنه ميزانٌ لا يظلم، ولا يخطئ، ولا

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٢٩) ومسلم (٤/ ٢١٤٧) من حديث أبي هريرة برقم (٢٧٨٥).

(٢) «المسند» (١/ ٤٢٠). برقم (٣٩٩١) صحيح لغيره، وإسناده حسن من أجل عاصم بن النجود، وبقية رجاله ثقات (محققوه)، وأخرجه الطيالسي (٣٥٥) وابو يعلى (٥٣١٠) والطبراني في الكبير (٨٤٥٢) والبزار (٢٦٧٨) زوائد.

يَزيد في حسنات مسيءٍ، ولا يُنقص من حسنات محسِنٍ.

وهذه جملة من الأحاديث تتحدث عن الميزان، ومنها حديث البطاقة:

١- عن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيِّ قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: **«يُصاح برجلٍ من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيُنشر له تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل مدُّ البصر، ثم يقول الله ﷻ: هل تُنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يارب، فيقول: أظلمتْكَ كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذرٌ؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، قال: فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلم، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثَقُلتْ البطاقة»**[1] والبطاقة: هي الرقعة.

٢- وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«توضع الموازين يوم القيامة، فيُؤتى بالرجل، فيوضع في كِفَّةٍ، ويوضع ما أُحصي من عمله في كِفَّة، فيتمايل به الميزان، فيُبْعثُ به إلى النار، فإذا أُدْبِر به إذا صائحٌ يصيح من عند الرحمن: لا تَعْجَلُوا، لا تَعْجَلُوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها: لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كِفَّة، حتى يميل به الميزان»**[2].

والمعنى: أن الشهادتين تكونان في ميزان العبد يوم القيامة أثقل من جميع سيئاته؛ وعلى هذا فإن الصحائف التي كتبتْها الملائكة لإحصاء أعمال العباد، توضع في هذا الميزان.

٣- كما قال ﷺ: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى**

---

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (٤٣٠٠) كتاب الزهد، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٥٥٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٦٩) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٢١٢٧) وفي «السنن» برقم (٢١٣٩) وهو في «المسند» برقم (٦٩٩٤) قال محققه: إسناده صحيح، وهو في السلسلة الصحيحة (١٣٥) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، «المستدرك» (١/ ٥٢٩) وأخرجه أيضًا ابن حبان (٢٢٥) والبيهقي في «الشعب» (٢٨٣).

(٢) أخرجه أحمد بإسناد قوي ورجال ثقات (٧٠٦٦). وانظر (٦٩٩٤) وأخرجه الترمذي برقم (٢٦٣٩) وابن حبان (٢٢٥) والبغوي (٤٣٢١) وابن ماجه (٤٣٠٠) والبيهقي في الشعب (٢٨٣).

الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[١].

٤- وعن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من شيء يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خُلُق حسن»**[٢].

٥- ولمَّا سأل أنس بن مالك ﷺ رسول الله ﷺ قائلًا: يا رسول الله، أين أجدك في القيامة؟ فقال: **«اطلبني أول ما تطلبني على الصراط»** قال: فإن لم ألقك على الصراط، قال: **«فاطلبني عند الميزان»** قال: فإن لم ألقك عند الميزان، قال: **«فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاثة مواطن يوم القيامة»**[٣].

ولو لم يكن الميزان حسيًّا حقيقيًّا لَمَا أحال عليه رسول الله ﷺ طلبه عنده.

حقيقة الميزان:

والكلام في الميزان من عقائد الإسلام السمعية التي يجب الإيمان بها، وهو من الأمور الغيبية التي أخبرنا عنها الكتاب والسنة، وهو ميزانٌ له عمود وكِفَّتَان على هيئة موازين الدنيا، كما صرحت بذلك الأحاديث الصحيحة، وقد تظاهرت الآثار على أن صحائف الحسنات والسيئات تُوضع في كِفَّتي الميزان؛ فيحدث الثقل والخفة، ومعنى ذلك: أن الحسنات والسيئات تكون في صورة محسوسة لها جسم ووزن، كما ورد أن كلمة التوحيد ترجِّح ميزان مَن وُضعت في ميزانه، وإن كانت الأعمال أعراضًا فإنها تكون يوم القيامة أجسامًا.

الأعمال هي التي توزن: وعلى هذا، فالذي يُوزن هو الأعمال كما في حديث البطاقة، أما وزن صاحب العمل أو فاعله كما في حديث وزن الرجل السمين، فمعناه أنه لا يساوي عند الله شيئًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤) والترمذي (٣٤٦٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦٦٦) وابن ماجه (٣٨٠٦).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٤٠١٤) والترمذي (٢٠٠٢) وابن حبان (٥٦٣٩)، والمسند (٢٧٥١٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات وأخرجه الطيالسي (٩٧٨) وأبوداود (٤٧٩٩) والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٠) وابن أبي عاصم في السنة (٧٨٣) وابن حبان (٣٨١).

(٣) من حديث أنس في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٨١) و«مشكاة المصابيح» (٥٥٩٥). والمسند (١٢٨٢٥) قال محققوه: رجاله رجال الصحيح، ورقم الترمذي (٢٤٣٣).

وقد بيَّنت الآيات أن الذين تُوزن أعمالهم **فريقان**؛ هما: المؤمنون العاملون للصالحات، فهم الذين تثقل موازينهم، **وغير المسلمين** تخف موازينهم، وبقي بعد ذلك فريق من المؤمنين ممَّن خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، تعرضت له آيات أخرى كآيات الأعراف.

٩- ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

أي: ومَن خفت موازينُ أعماله، وكثرت سيئاته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ هذا هو الخسران الحقيقي، فقد أضاعوا حظَّهم من رضوان الله تعالى، وفاتهم النعيم المقيم، وحصل لهم العذاب الأليم، وهو أعظم خسران، لا خسران مال، ولا خسران منصب، ولا وظيفة ولا جاه ولا ولد، إنما الخسران الأبدي المستمر هو ما يكون بسبب جحودهم لأدلة التوحيد، وعدم الانقياد لها، وتجاوزهم حدود الله تعالى بما كانوا يجحدون بآيات الله، ولعدم إيمانهم بها.

ورد أن أبا بكر الصديق ﷺ قال في وصيته لعمر بن الخطاب ﷺ حين حضرته الوفاة: إنما ثقلت موازين مَن ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا، وإنما خفت موازين مَن خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحُق لميزان يُوضع فيه الباطل غدًا أن يكون خفيفًا، وحُق لميزان يُوضع فيه الحق غدًا أن يكون ثقيلًا[1].

ولا يوجد أثقل في ميزان العبد من كلمة التوحيد، حيث يطيش مقابلها كلُّ باطل، والكافر لا إيمان له، حتى يعتبر معه عمل صالح، فلا يكون في ميزانه خيرٌ؛ وعلى هذا فإن مَن ثقلت موازينه قد أفلح ونجا وفاز بجنات نعيم، فهو في عيشة راضية، في جنة عالية، ومَن خفت موازينه؛ فقد خاب وخسر وعُذِّبَ في نار حامية ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون].

والإنسان لا يذكر أقرب الناس إليه يوم القيامة في ثلاثة مواطن: عند وزن الأعمال، وعند تطاير الصحف، وعند المرور على الصراط.

---

(١) «تفسير البغوي» والخازن للآية.

قِصَّةُ الْوُجُودِ الْبَشَرِيِّ

١٠- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

وبعد هذه المقدمة عن وجوب اتباع ما أَنْزَلَ الله على رسوله، وبيان عقوبة مَن خالف أَمْرَ الله ورسوله في الدنيا والآخرة، يأتي التمهيد لقصة الوجود البشري بامتنان الله على عباده جميعًا أنْ خلقهم على وجه الأرض، وخَلَق عيشهم الذي به بقاءُ وجودِهم إلى أجل معلوم، ومكَّن لهم في الأرض، وجعلها مقرًّا صالحًا لنشأته، فيها معاشه وأرزاقه، يحرثها ويزرعها ويبنى فوقها وينتفع بما فيها، فيخرج منها الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصناعات والتجارات.

فأنعم الله عليهم بأن خَلَقَ لهم الزروع والثمار وأنواع المآكل والمشارب، وهيأ لهم سبل العيش والكسب عن طريق الزراعة والصناعة والتجارة، وجعل لهم الأرض قرارًا، فسخرها وذللها للسعي في مناكبها، والأكل من رزقه، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس] وقال سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك].

لقد امتنَّ الله عليكم - أيها البشر - فخَلَق لكم هذه الأرض، وجعلها مستقرًّا لكم، وهيأها للزراعة، وللعيش فوقها، وجعل مناخها يصلح لإقامة الإنسان فيها، بمقدار قربها وبعدها عن الشمس والقمر دون سائر الكواكب، فقد هيأها لكم لتشكروا نِعَمَ الله عليكم، فتوحدوه ولا تشركوا به شيئًا، ففيها وسائل لتحسين الأرزاق، وفيها الطاقات والقوى والأقوات، وفيها الزراعة والثمر والفاكهة وغير ذلك، ومع ذلك فـ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله على منِّه وكَرَمِه ونعمه، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

آدَمُ وَإِبْلِيسُ

١١- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ[١] ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

ثم تأتي قصة آدم وإبليس وحواء، وقد سبق في سورة البقرة شيءٌ من هذه القصة؛ حيث خَلَقَ الله آدم من تراب، ثم صار التراب طينًا لازبًا، ثم صار الطين صلصالًا كالفخار، ثم نَفَخَ الله فيه من روحه، وصوَّرَه في أحسن صورة، وجعله في أحسن تقويم، وبنو آدم تبعًا لأبيهم، فالذرية تبعٌ للأب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أنعمنا عليكم بخَلْقِ أبيكم آدم من العدم، وخلقنا المادة التي خرجتم منها ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ في أحسن صورة وأحسن تقويم أي: وخَلَقَ الله الذرية من النطفة التي في أصلاب الرجال، وصوَّرهم في أرحام النساء، و أخرجهم في هيئة مفضلة.

قال عكرمة والأعمش: المراد خلقناكم في ظهور الآباء، وصورناكم في أرحام النساء، ومن ذلك خَلْقُ مشاعر الإدراك والتدبير.

ولمَّا خَلَق الله تعالى آدم عليه السلام، أَمَرَ مَن في الملأ الأعلى من الملائكة، ومَن يسكنون في زمرتهم (وهو إبليس) أن يسجدوا تكريمًا واحترامًا لهذا المخلوق العظيم الجديد سجودًا حقيقيًّا؛ لأن الله تعالى هو الذي أَمَرَهم به، فالسجود لله في الحقيقة، وليس لآدم، وكان آدمُ بمثابة القِبْلَة التي يتوجهون إليها، فامتثلوا أمر ربهم، وسجدوا كلهم إلا إبليس، فقد أبى أن يسجد تكبرا وإعجابًا بنفسه.

وقد وجَّه الله الأمر إلى الملائكة، وإبليس معهم؛ لأنه كان يقيم معهم في الملأ الأعلى، فالأمر والخطاب مُوجَّهٌ إليه أيضًا.

أو أن المراد بالسجود سجودُ تحية وتعظيم بالانحناء، وليس سجودًا حقيقيًّا، قيل هذا، وقيل هذا، ولكن الأَوْلَى أن يُؤخذ اللفظ على ظاهره، فالسجود لآدم، والله سبحانه هو

---

(١) قرأ أبو جعفر بخلف عن ابن وردان بضم التاء وصلًا من (للملائكة اسجدوا)، وقرأ الباقون بكسرها والوجه الثاني لابن وردان هو إشمام كسرة التاء للضم.

الذي أَمَرَ به، فهو سجود اعترافٍ لله تعالى بمظهر قدرته العظيمة في خَلْقِ آدم أصل النوع البشري، ولم يمتثل إبليسُ أمر الله تعالى مستندًا إلى أفضلية العنصر الذي خُلق منه على العنصر الذي خُلق منه آدم.

وإبليس مخلوق آخر، ليس من الملائكة في أصح القولين، ولكنه كان يقيم معهم، فامتنع من السجود حسدًا لآدم على هذا التكريم والتعظيم.

ومن دواعي السجود لآدم إظهارُ فضله بتعليم الله له أسماء المسميات التي لا تعلمها الملائكة.

واستثناء إبليس من الملائكة يدلُّ على أنه كان في عدادهم، وكان مختلطًا بهم، وقد خلق الله في إبليس جبلَّة تدعوه وتدفعه إلى العصيان ومخالفة ما لا يوافق هواه، وقد ظهر هذا العصيان الكامن في نفسه لأول مرة حين دُعي إلى السجود لآدم مع الملائكة؛ فامتنع أشد الامتناع، وظهرت جبلَّته المخالفة لجبلة الملائكة.

وإبليس هو أصل الجن، والجن منهم المردة الطغاة؛ وهم الشياطين، ومنهم العفريت خفيف الحركة، ومنهم المؤمنون والكافرون والصالحون والطالحون.

ويدور حوار بين رب العالمين مع إبليس اللعين:

١٢ - ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ تعالى موبخًا ومنكرًا على إبليس ترك السجود، وعدم الامتثال لأمره تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أيُّ شيءٍ صدَّك وكفَّك ومنعك من امتثال الأمر؟ قال إبليس: منعني فضلي عليه، أنا أفضل من آدم خَلْقًا؛ لأني مخلوق من نار، وهو مخلوق من طين، والنار أشرف من الطين - على حدِّ زعمه - ولا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، فكيف تأمرني بالسجود له؟

هذا: والأفضلية إنما تكون بحسب الطاعة وقبول الأمر، فالمؤمن الحبشي خيرٌ من الكافر القرشي.

وقد خَلَقَ الله آدم من تراب، والملائكة خلقهم من نور، وإبليس خُلق من مارج من نار.

في صحيح مسلم عن عائشة مرفوعًا: «**خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج**

من نار، **وخلق آدم مما وُصِفَ لكم**»[١]، وقد جاء هذا مصرَّحًا به في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠] ولو كان إبليس ملَكًا من الملائكة ما عَصَى الله سبحانه طرفة عين؛ لأن الملائكة ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فهو خلْقٌ آخر.

لقد رأى إبليس أنه خُلق من عنصر أفضل من العنصر الذي خُلق منه آدم، رأى أنه خُلق من نار، وأن النار أفضل من الطين الذي خُلق منه آدم لعلُوّ النار على الطين وصعودها في الهواء، **والطين**: هو التراب المختلط بالنار، والماء عنصرٌ آخر تتوقف عليه الحياة.

قال قتادة: حسد عدوُّ الله إبليس آدمَ على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناريٌّ، وهذا طينيٌّ، فكان من بدء الذنوب الكِبْر، استكبر عدوُّ الله أن يسجد لآدم؛ فأهلكه الله بكرهه وحسده[٢].

وقال أهل العلم: إبليس أول مَن قاس، حين قاس النار على الطين، وهو قياس فاسد؛ لأنه في مقابلة نصٍّ، والقياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل لأن القياس يكون فيما لم يأت فيه نص، وما عُبد الشمس والقمر إلا بالمقاييس، فمَن قاس أمْرَ الدين برأيه قُرن يوم القيامة بإبليس، وفي قول إبليس ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ تقوّل على الله تعالى بلا علم، وفيه برهان على النقص وتكبر وإعجاب بالنفس.

والطين منافعه كثيرة، فوقه يحيا الإنسان، ومنه خُلق، ومنه يعيش، ومنه الزرع والثمر والفاكهة، وفيه الماء يجري، وهو متواضع يجري في جداول من الأرض، **أما النار** فهي مرتفعة إلى أعلى، ففيها صفة العلو والارتفاع، كما فعل إبليس، وللنار دُخَان ولهب وحريق ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ وهذه معصية صريحة ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ وهذا كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب، ففي الطين الخشوع والسكون والرزانة ومنه تخرج بركات الأرض من الأشجار والنبات على اختلاف أجناسه وأنواعه، أما النار ففيها الخفة والطيش والإحراق.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٢٩٤) برقم (٢٩٩٦).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة.

والسماء والجنة مقرٌّ للمطيعين من الملائكة، وليست مقرًّا للعصاة، والمتكبر لا يسكن الجنة، والأرض هي التي يكون فيها الطاعة والمعصية، أما السماء فليس فيها إلا طاعة، و نتيجة لهذا العصيان فقد انحط إبليس من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين.
ويمضي الحوار ليبيّن عاقبة التكبر والعصيان:

١٣- ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

وقد عاقب الله إبليس بإخراجه من المكان الذي كان فيه مع الملائكة، فإن الجنة لا مكان فيها لعاصٍ متكبرٍ، فهي دار الطيبين الطاهرين ولا تليق بالمتكبرين الخبثاء وقد طرد الله إبليس من الجنة مرة حين امتنع عن السجود لآدم، وأخرجه منها مرة ثانية حين أغوى آدم وحواء فأكلا من الشجرة، ويراد بالهبوط: النزول من مكان مرتفع، أو مجرد التحول من مكان إلى مكان قال تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١].

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة أو في السماء ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: من الذليلين الحقيرين، لقد طرد الله سبحانه إبليس من سمائه، ومن جنته، ومن رحمته، وحقت عليه اللعنة، وكتب عليه الذل إلى يوم القيامة.

قال البغوي: جاء لإبليس مَلَكُ الأرض فأخرجه منها إلى جزر البحر، وعرشه في **البحر الأخضر**، فلا يدخل الأرض إلا خائفًا على هيئة السارق.

وقد طُرِد إبليس من الجنة، وطُرِد من رحمة الله، وحُقت عليه اللعنة، وكُتب عليه الصغار والذل؛ عقوبة استكباره عن السجود، وذلك أن الله تعالى قد عامل إبليس بنقيض قصده، حيث كان قصدُه التعاظم والتكبر، فأخرجه الله صاغرًا حقيرًا ذليلًا متصفًا بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، كما قال تعالى: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].

والمتكبر لا يحصل له ما أراد من العظمة والرفعة، قال تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]

ومن عواقب الكبر أنه يصرف صاحبه عن فَهْم آيات الله والاهتداء بها، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا

وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ [الأعراف]

والمتكبر لا يحبه الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

والكبر من أسباب دخول النار والإقامة فيها، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] وقد نهى الله عن الكِبْرِ في كلِّ زمان ومكان؛ لأن فيه منازعة لله تعالى في صفة من صفاته، كما قال تعالى في الحديث القدسي: **«الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمَن نازعني واحدًا منهما قصمته ولا أبالي»**[1].

ولما أعلن إبليس عداوته لله تعالى ولآدم وذريته سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم.

١٤، ١٥- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

حَقَدَ إبليسُ على آدمَ؛ لأنه كان السبب في هبوطه من الجنة، فطلب من ربِّه أن يمهل عمره إلى يوم البعث، فقد عَلِمَ أن الموت ينقطع بالبعث؛ بحيث يتخطى فترة الموت فلا يموت ويبقى إلى يوم البعث؛ أي: إلى النفخة الثانية التي يقوم فيها العباد لربِّ العالمين، طلب ذلك لمَّا يئس من رحمة الله؛ ليتمكن من إغراء مَن يقدر عليه من بني آدم.

ولمّا كانت حكمة الله تعالى تقتضي ابتلاء العباد، ليتبيّن الصادق من الكاذب، والطائع من العاصي، حتى تُحصى الملائكة أعمال العباد.

لما كان الأمر كذلك: أجاب الله سؤاله، ولكن هذا الإنظار وهذا الإمهال، ليس إلى النفخة الثانية، وإنما إلى النفخة الأولى نفخةِ الصعق، حيث يموت الخَلْقُ أجمعون، ويموت إبليس معهم كما قال تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: وص: ٨١] حيث تموت يا إبليس كما يموت سائر الخَلْقِ؛ أي: إنك ممَّن كتبتُ عليهم تأخيرَ الأجل

---

(١) حديث قدسي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ في «المسند» برقم (٩٥٠٨) حديث صحيح وإسناد حسن، وانظر (٧٣٨٢) وأخرجه الحميدي (١١٤٩) والبخاري في الأدب المفرد (٥٢٩ ومسلم (٢٦٢٠)، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٣٤٤٦) وفي أبي داود (٤٠٩٠) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤١٧٤) وغيرهم.

إلى النفخة الأولى في الصور إذ يموت الخَلْقُ أجمعون.

وقول الله تعالى له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ يفيد أن إنظار إبليس أَمْرٌ قد قضاه الله تعالى وقدره من قَبْلِ سؤاله، وأنه من جملة المنظَرين قبل حدوث المعصية منه، فقد خلق الله تعالى خلقًا وقدَّر في الأزل بقاءهم إلى هذا اليوم، ويدلُّ على ذلك أن الله تعالى لم يجب إبليس بقوله: (أنظرتك) أو (أجبتك) ولكن أعلمه أن سؤاله تحصيلُ حاصل، وأنه قد سأل أمرًا محققًا.

أخرج الطبري بسند حسن عن السدي: فلم ينظره إلى يوم البعث، ولكن أنظره إلى يوم الوقت المعلوم؛ وهو يوم النفخ في الصور النفخة الأولى، فصعق مَن في السموات ومَن في الأرض فماتوا جميعًا.

إِبْلِيسُ يَقْعُدُ لِابْنِ آدَمَ بِكُلِّ طَرِيقٍ

١٦- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ[١] ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾

أخذ إبليس على نفسه عهدًا هو وقبيله في هذه المدة الطويلة أن يغوِيَ ابن آدم، وأن يضله، وأن يقعد له في كلِّ طريق يوصِّلُه إلى الجنة، ويعرقله عن سبيل النجاة، وعن الوصول إلى الفوز والفلاح، وأن يسعى جاهدًا في صد الناس عن صراط الله المستقيم، ومنْعهم من سلوكه.

وقد أخذ إبليسُ هذا العهد على نفسه بعدما أَعْلَمَهُ الله تعالى أنه سيبقى إلى وقت النفخ الأول في الصور، قال: فبسبب ما أضللتني لأجتهدنَّ في إغواء بني آدم، وإخراجهم عن طريقك القويم، ولأصدنَّهم عن الإسلام الذي فطَرْتهم عليه.

عن سبرةَ بن أبي فَاكِهٍ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأَطْرُقِه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أَتُسْلِم وتذر دينك ودين آبائك؟ قال: فعصاه وأسلم، قال: وقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَلِ؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد (وهو جهاد النفس**

---

(١) قرأ قنبل ورويس بالسين في (صراطك)، وأشمها صوت الزاي خلف عن حمزة، وقرأها بالصاد الخالصة الباقون.

والمال) فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتُقتَل، فتُنكَحُ المرأة ويُقْسَم المال؟ قال: فعصاه وجاهد» فقال رسول الله ﷺ: **«فمن فعل ذلك كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، وإن غَرِق كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصَتْه دابته كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة»**[1].

وإغواء الشيطان: وسوسته وتزيينه الباطل والعمل على اكتساب المآثم، وقد دلَّ هذا على أن الله تعالى خَلَقَ في نفس إبليس مَقدِرَةً على إغواء الناس، وأنه جعله باقيًا متصرفًا بقواه الشريرة إلى انتهاء الدنيا، وقد عَلِمَ إبليسُ أنه سيكون داعيةَ ضلال وكفر، فصدر منه هذا القول، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر] تصريحٌ بأنه يريد إغواءَ أهلِ الأرض كلهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وقد عَلِمَ إبليسُ أن الله تعالى خَلَقَ في ابن آدم استعدادًا فطريًّا لقَبُول الخير والشر، فأراد أن يستغلَّ جانب الشر في الإنسان، وكان عدوًّا له بسبب هذا، وقد أفصح الله تعالى عن هذه العداوة في قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]

وهذه العداوة تنقلب إلى ولاية بينه وبين مَن يستحب الضلال والكفر على الإيمان والصلاح ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

١٧ - ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ[2] وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

ثم أخبر إبليسُ أنه أخذ على نفسه عهدًا أن يأتي البشر من كلِّ جهة؛ ليَحُولَ بينهم وبين الإيمان والطاعة، فيأتيهم من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك مقصوده فيهم، ويصدهم عن الحق، ويزين لهم الباطل، ويرغِّبهم في الدنيا، ويشككهم في الآخرة، ويجعل أكثرهم غير شاكرين لنِعَمِ الله تعالى عليهم.

---

(١) الحديث في «المسند» (٣/ ٤٨٣) برقم (١٥٩٥٨) بسند قوي، وأخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٩٣) والبيهقي في الشعب (٤٢٤٦)، وهو عند النسائي (٦/ ٢١) والطبراني في الكبير برقم (٦٥٥٨) وابن حبان برقم (٤٥٩٣) قال محقق الإحسان لابن حبان: إسناده قوي، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» برقم (٢٩٣٧).

(٢) ضم يعقوب الهاء من (أيديهم) وكسرها غيره من القراء.

قيل: يأتيهم من بين أيديهم: أي فيما بقي من أعمارهم، فلا يقدِّمون فيه طاعة. ومن خلفهم: أي فيما مضى من أعمارهم، فلا يتوبون ممَّا أسلفوا فيه من معاصٍ. وعن أيمانهم: أي من قبل الغِنى، فلا ينفقون ولا يشكرون، ومن خلفهم: أي من قبل الفقر، فلا يمتنعون فيه من محظورٍ ارتكبوه.

وقال شقيق البلخي: ما من صباح إلا ويأتيني الشيطان من الجهات الأربع، من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي:

أما من بين يدي فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه]

وأما من خلفي فيخوفني من وقوع أولادي في الفقر، فأقرأ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]

وأما من قبل يميني فيأتيني من جهة الثناء، فأقرأ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]

وأما من قبل شمالي فيأتيني من الشهوات، فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

هذا، والإنسان مع الشيطان ليس مغلوبًا على أمره، وإنما هو مخدوع خداعًا كبيرًا، أو مستغفَل مغرر به، إن الشيطان يوسوس للإنسان مجرد وسوسة فحسب، كأنه يملك إذاعة ذات أمواج طويلة أو قصيرة، والإنسان يستطيع أن يسمع أو لا يسمع، ومَن ضبَط جهازه على محطة إرسال معينة، سمع ما يريد، وإلا فهو ليس بمنجى ممَّا يقال فيها، وليس للشيطان قدرةٌ إلا على البث، ولا يقدر على الإضلال بالقوة، ولا ينبغي على الإنسان أن ينسى ما وقع لأبيه آدم عندما طُرد من الجنة، ولا يبالي من تكرار المأساة، إن الشيطان أفَّاك خدَّاع، واللوم لا يوجَّهُ إليه، إنما يوجه إلى مَن انخدع به، ووقع في مصيدته.

عن ابن جُبير بن مُطْعِم ﷺ أنه سمع عبد الله بن عمر ﷺ يقول: لم يكن رسول الله يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «**اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي،**

وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي» قال وكيع: يعني الخسف[١].

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ قال: أتاهم من بين أيديهم؛ فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ من أمر الدنيا؛ فزينها لهم ودعاهم إليها ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ من قبل حسناتهم بطَّأهم عنها ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ زيَّن لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يابن آدم من كلِّ جهة، غير أنه لم يأتِك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله، وقد عَلِمَ الشيطان أن الله من فوقهم، وأن الرحمة تَنْزِلُ من فوقهم.

فالمعنى:

١- أن الذي بين أيديهم هو الأمام؛ يعني: يوم القيامة والدار الآخرة، أُشككهم في البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار.

٢- والذي خَلْفَهم هو الدنيا، أُرغِّبهم وأُحبِّبهم فيها.

٣- والذي من جهة اليمين هو الحسنات، فأبطِّئُهُم عنها، وأجعلهم يتكاسلون ويعزفون عن اكتسابها والرغبة فيها.

٤- والذي من جهة الشمال هو السيئات، فأُرغبهم في المعاصي، وأزين لهم الشهوات والشبهات؛ فيرتكبون المعاصي والذنوب، ولكن الشيطان ليس بإمكانه أن يحجبهم من رحمة الله سبحانه، فلا يأتي من فوقهم، إنما يأتي من هذه الجهات الأربع.

قال الطبري: لآتينهم من جميع وجوه الحقِّ والباطلِ، فأصدهم عن الحقِّ، وأُحَسِّنُ لهم الباطلَ.

قال ابن عباس: ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم؛ لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله[٢].

وقد ذَكَرَ إبليس أنه سيوقع بني آدم فيما قاله ظنًّا منه أنهم سيطيعونه فيما يدعوهم إليه حتى يهلكهم، وقد بيَّن سبحانه أن ظنَّه صدَق فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٠﴾ [سبأ].

فجعل أكثر العالم كَفَرَةً، وبيَّن ذلك قولُ النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: **«يقول الله تعالى**

---

(١) «المسند» (٢/ ٢٥) برقم (٤٧٨٥) إسناده صحيح ورجاله ثقات و«سنن أبي داود» برقم (٥٠٧٤) والنسائي (٨/ ٢٨٢) برقم (٥٥٤٥) وابن ماجه برقم (٣٨٧١) و«المستدرك» (١/ ٥١٧) وابن حبان (٢/ ١٥٥) برقم (٩٦١) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٢٣٩) وصحيح ابن ماجه (٣١٢١) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٤٠) والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠).

(٢) «تفسير الطبري» (١٢/ ٣٤١).

يوم القيامة: يا آدم، أَخْرِجْ بعث النار، فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ فيقول: مِن كلِّ ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، وواحدًا إلى الجنة»[١].

وقال ﷺ عن أمته فيما يرويه أبو سعيد ﷺ: **«ما أنتم يومئذ في الأمم إلا كالشَّعَرَةِ البيضاء في الثور الأسود»**[٢].

وهكذا يحاول الشيطان بكل وسيلة يتوصل بها إلى إغواء بني آدم كهيئة الباحث الحريص على أخذ العدو، يأتيه من كلِّ جهة حتى يصادفَ الجهة التي يتمكن فيها من أخذه بعد أن تخور قواه ومدافعته، وليس للشيطان مسلكٌ للإنسان إلا من قبل نفسه وعقله بإلقاء الوسوسة في نفسه، وقد نبهنا الله على ذلك لنأخذ حذرنا ونستعد لعدونا، ونبتعد عن الطرق التي يأتينا منها، ونسدّ عليه منافذه ومداخله.

وقد اقتضتْ حكمةُ الله تعالى أن يشق الإنسان طريقه إلى الخير أو الشر، بما أودع فيه من عقل مرجِّح، وما أمده به من التذكير والتحذير عن طريق الرسل، وكثيرًا ما حذرنا سبحانه من كيد الشيطان في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر].

وكأن الله سبحانه قال لإبليس: مَن استطعت أن تغويَه من بني آدم فافعل، أما عبادي المخلصون، أصحاب العقيدة الصحيحة، والإيمان الراسخ القوي -فليس لك عليهم سلطان، لا تستطيع أن تفعل معهم شيئًا ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ أما مَن اتبعك من الغاوين؛ فمأواهم النار وبئس المصير ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحجر]، بعد ذلك جاء الأمر من الله تعالى إلى إبليس بالخروج من الجنة، وتوعده الله ومن تبعه من بني آدم بعذاب جهنم وبئس المصير.

١٨- ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

ثم أَمَرَ الله تعالى إبليس بالخروج من الجنة مرة ثانية؛ تأكيدًا للأمر السابق في الآية

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣) ومسلم (٢٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٢، ٣٨٠) والبخاري في صحيحه (٣٣٤٨، ٤٧٤١) من حديث طويل عن أبي سعيد الخدري وهو في «المسند» (١١٢٨٤) والنسائي في الكبرى (١١٣٣٩).

الثالثة عشرة: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ وهنا ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة ممقوتًا مطرودًا؛ بسبب مخالفتك وعصيانك لأمري، ثم أقسم سبحانه على ملء جهنم منه وممَّن تبعه، وهذا قسم من الله تعالى أن النار دار العصاة، لابدّ أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس، فقال: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: أُقسم لك ولِمَنْ أطاعك من الإنس والجن ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: منك ومنهم، وفي الآية قسم من الله تعالى أن النار دار العصاة، لا بدّ أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

واللام في ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ ﴾ موطئة للقسم، وهي شرطية، واللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب القسم، والجواب سد مسدّ جواب الشرط.

آدَمُ وَحَوَّاءُ يَأْكُلَانِ مِنَ الشَّجَرَةِ

١٩- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا[1] وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

أي: قال الله تعالى لإبليس: اخرج من الجنة مذؤومًا مدحورًا، وقال لآدم محذرا من شره وفتنته: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهذا العطف لبعض الكلام على بعض كقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ [يوسف: ٢٩] هبط إبليس من الجنة، وهذه الجنة في الأرض، كما يقول أبو مسلم الأصفهاني، وكما يرى جمهور المعتزلة أنها بستان بمكان مرتفع من الأرض، قيل: بالعراق أو فلسطين، خلقه الله لإسكان آدم وحواء؟

وجمهور أهل السنة على أن المراد بها دار الثواب والعقاب التي أعدَّها الله للمؤمنين يوم القيامة، وأنها في السماء؟ ثم أهي جنة السلام، أم هي جنة الخلد؟ الله أعلم، وما يقال في ذلك ليس عليه دليل، ولا يصل الإنسان فيه إلى حقيقة، وإنما أخبر الله تعالى أن آدم هبط من الجنة، والجنة حين تُطلق فهي التي في السماء.

وبعد هبوط إبليس من الجنة، وجَّه الله سبحانه الخطاب إلى آدم، وأمره أن يأكل هو وزوجه حواء مما في الجنة، فقال لهما: كلا من ثمارها حيث شئتما، ولا تأكلا من ثمر شجرة معينة، فإن فعلتما كنتما من المتجاوزين لحدود الله، ولكن الله ﷻ يُعِدُّ آدم لمهمة،

(١) قرأ أبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر بإبدال الهمزة ياء من (شئتما) وحمزة عند الوقف، وحققها الآخرون.

هذه المهمة هي مهمة الخلافة في الأرض، وآدم خَلْقٌ متميز هو وذريته، فهو ليس بحيوان، وليس بملَك، إنما هو خلق أودع الله فيه استعدادًا للخير والشر، وأودع فيه عقلًا مُرَجِّحًا، وأرسل له الرسل يبينون له الخير والشر، والهدى والضلال، وأنزل عليه الكتب، وجعله يختار طريقه بنفسه، فهو غير مجبرٍ على الطاعة كالملائكة، وغير مسؤول عن تصرفاته كالحيوان، ولذلك كان هذا الابتلاء هو الأول بالنسبة لآدم حين نهاه ربُّه عن أول محظور، من باب التعليم والتدريب، فأمره أن يأكل من جميع الأشجار إلا من هذه الشجرة؛ ليتعلم امتثال الأمر واجتناب النهي.

والمهمة التي سيقوم بها آدم في الأرض هي أوامر ونواهٍ يقوم بها، وهذا أول امتحان فيها؛ وذلك للإعداد للخلافة والمهمة التي سيقوم بها الإنسان في الأرض، فالمنع من الشجرة ليس مقصودًا لذاته، إنما ليتعلم منه بنو آدم الوقوف عند حدود معينة وعدم تجاوزها، وأنهم إن فعلوا ذلك عوقبوا على مخالفتهم، كما يقطع الإنسان الإشارة الحمراء ويعاقب عليها، ويسبب إضرارًا للآخرين.

لقد عيَّن الله ﷻ شجرة معينة، أو نوعًا معينًا من الشجر، ما اسم هذه الشجرة؟ الله أعلم، لو أراد الله ذِكْرَها في القرآن لذَكَرَها، هل هي شجرة الحنطة (السنبلة)؟ أو غير ذلك - ليس هناك من ضرورة لمعرفة اسمها - لا تأكلا من هذه الشجرة، فقد نهاهما ربهما أن يأكلا من شجرة معينة، وقد جاءت الآية التي في سورة البقرة بالواو ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا﴾ [البقرة: ٣٥] والتي هنا جاءت بالفاء ﴿فَكُلَا﴾ والعطف بالواو أعم.

وذلك أن هذه الآية أفادت أن يتمتع آدم بالأكل من ثمار الجنة عقب الأمر بالسكنى فيها، وهي منة عاجلة لآدم وزيادة تنغيص لإبليس؛ لأن هذا كان في حضرته، فاقتضى المقام إعلامَ السامعين بغضب الله تعالى على إبليس وطرده من الجنة، أما آية البقرة فقد أفادت السامعين أن الله تعالى امتن على آدم بسكنى الجنة والتمتع بثمارها.

والمقام هناك مقامُ تذكيرٍ لبني إسرائيل بفضل آدم وبذنبه وتوبته، وزادت آية البقرة كلمة ﴿وَقُلْنَا﴾ لإفادة زيادة التكريم لآدم؛ فحصل من مجموع الآيتين عدة مكارم لآدم موزعة على الآيتين[١].

---

(١) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٨/ ٥٤).

ولم يزل آدم وحواء ممثلين لأمر الله تعالى حتى تغلغل إبليس إليهما فخدعهما ووسوس إليهما بالأكل من الشجرة.

ولمَّا ظهر من آدم المخالفة بالأكل من الشجرة المنهي عنها أعقب ذلك شعور آدم بما فيه من نقائص وعيوبٍ، وذلك بانكشاف عورته وظهور شهوته له:

٢٠، ٢١- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

وهنا جاء دَوْرُ إبليس يريد من آدم أن ينزل من الجنة، إذ كيف يُنَعَّمُ آدم؟ وإبليس قد حقت عليه اللعنة، وطُرد من رحمة الله، فلْيهبط آدم وحواء من الجنة كما هبط منها إبليس، وسوس لهما الشيطان بأن ألقى في قلبيهما كلامًا خفيًّا؛ لإيقاعهما في معصية الله بالأكل من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها؛ لتكون العاقبة انكشاف ما ستر من عوراتهما، وقال لهما وهو يمكر بهما، مركِّزًا على نقطة الضعف فيهما، ومنتقلًا من الوسوسة إلى الخداع: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

ثم بيَّن سبحانه علة النهي على لسان إبليس فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ أي:

١- لكيلا تكونا ملَكين من جنس الملائكة؛ لطول أعمارهم، واطلاعهم على ما لم يعلمه الإنسان، مما أطلعهم الله عليه كالخير والشر.

٢- أو تكونا من الخالدين في هذه الحياة، كما قال تعالى ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]

وكان آدم وزوجه قد شاهدا تفضيل الملائكة، فأطمعهما إبليس أن يصيرا من الملائكة إذا أكلا من الشجرة، فالآكل من الشجرة يكون ملَكًا وخالِدًا - كما يزعم - فجعل النهي عن الأكل من الشجرة لا يعدو أحد هذين الأمرين، وكان هذا قبل نبوة آدم عليه السلام، وقرئ ﴿مَلَكَيْنِ﴾ بفتح اللام[1] أي: أن يكون لكما خصائص الملائكة؛ من القوة والبطش والبقاء والخلود، وقرىء بكسر اللام (ملكين)[2] من الملك والجاه والنفوذ والعمر الطويل، ونظير

---

(١) وهي القراءة المتواترة للقراء العشرة.

(٢) وبها قرأ ابن عباس ويحيى بن كثير والضحاك كما في «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٨٥) وهي قراءة شاذة.

هذه الآية، قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه].

ولم يكتفِ إبليس بالوسوسة لآدم وحواء، ولم يكتفِ بخداعه لهما في القول، فأضاف إلى ذلك القسم المؤكد أنه يسعى في نفعهما وأنه مخلِص لهما، فحلف لهما بما يُوهِمُ صِدْقَه، وآدم أول مخلوق لا يعرف الكذب ولم يسمع به، ولا يَتصوَّر أن مخلوقًا يحلف بالله كذبًا، ومَن حُلف له فليصدق «**من خدعنا بالله خُدعنا له**»، ومن حلف كاذبًا فإن عقابه عند رب العالمين، وقد أقسم الشيطان لمَّا رأى من آدم أنه غرَّر به، وأنه متبع لمشورته هو وحواء، أقسم لهما ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ قال: إني خُلقتُ قبلكما، وأنا أعلم منكما فاتبعاني أُرْشِدكما.

اغتر آدم بهذا القسَم، وظن أن إبليس صادق، وكان ذلك قبل أن يُوحى إلى آدم؛ أي: قبل النبوة؛ لأن الله تعالى قال عنه بعد ذلك: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه] يعني: بعد الأكل من الشجرة، وبعد وقوع هذه المخالفة المرادة لله سبحانه؛ لتعمير الأرض وسكناها. قال تعالى:

٢٢- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا[1] مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

ونجح إبليس في خداع آدم وحواء؛ فأنزلهما من رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: أغواهما الشيطان فغرهما بقوله، وخدعهما بمَكْرِه، وأوقعهما في الطمع؛ فنسيا بدافع الشهوة، وأكلا من الشجرة، وفعلا ما وسوس به لهما، وخالفَا ما أُمرا به ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ نتج عن المعصية وارتكاب الخطيئة أن ظهرت لهما العورة بعد أن كانت مستورة، وهذا دَرْسٌ يتعلم منه الإنسان وبالَ المعصية وآثارها عليه حيث ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ بعد ما كانت مستورة، وكان ذلك بسبب أن تعرية الباطن من التقوى يترتب عليه تعرية الظاهر من اللباس.

و **السوءة**: هي العورة، قيل: كان آدم طويلًا طول نخلة، وكان شعره كثيرًا وكثيفًا،

---

(١) ضم يعقوب الهاء من (عليهما)، وكسرها الباقون.

وكان لا يرى عورته، ولا عورة حواء، وحواء كذلك لا ترى عورتها، ولا عورة آدم، وكان يكسوهما نورٌ من الله سبحانه، وهذا النور يحجب رؤية العورة، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما؛ أي: انحسر هذا النور، وكُشفت العورة؛ جزاءَ ارتكاب الخطيئة[1].

ولما ظهرت لهما العورة أصابهما الخجل، وأخذا يسترانها بأوراق شجر الجنة.

﴿وَطَفِقَا﴾ أي: أخذا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أي: يلزقان ويلصقان ويضعان ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قيل: إنه ورق شجر التين، أو غير ذلك ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ نداء وحي بواسطة ملَك قال لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه].
ثم امتن الله على آدم وحواء بالتوبة وقبولها فاعترفا بالذنب وسألا الله المغفرة:

٢٣- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

التمس آدم وحواء من ربهما الصفح والمغفرة، وإذا كان إبليس قد سأل ربه النظرة، فإن آدم سأل ربه التوبة، وشأن الإنسان أن يرجع ويتوب إلى الله سبحانه، إذا وقع في ذنب أو ألمَّ بخطيئة فإنه يعترف ويندم كما قال آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ هذا الكلام هو الموحَى به إلى آدم في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة]

هذه الكلمات هي: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ بالأكل من الشجرة ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الذين أضاعوا عواطفهم في الدنيا والآخرة، وقد غفر لهما وقبل توبتهما كما قال تعالى ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]

وعن ابن عباس ﵄ قال: لمَّا أكل آدم من الشجرة قيل له: لِمَ أكلتَ من الشجرة التي نهيتُك عنها؟ قال: حواء أمرتْني، قال: فإني قد أعقبتها أن لَّا تحمل إلا كرهًا، ولا تضع إلا كرهًا، قال: فرنَّت عند ذلك حواء، فقيل لها: الرنَّة عليك وعلى ولدك[2]؛ ورنَّت أي: صاحت وصرخت.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن جرير» بسند صحيح موقوف على أبي بن كعب ووهب بن منبه (١٢/ ٣٥٤).

(٢) «تفسير الطبري» بسند ضعيف؛ لضعف الحسين بن داود.

قال قتادة: قال آدم: يا رب أرأيت إن تبت إليك واستغفرتُك، قال: أُدخِلَك الجنة، وأما إبليس فلم يسأل التوبة وسأله أن يُنظره؛ فأعطي كل واحد منهما ما سأل[١].

وهنا تتم تَجْرِبة مخالفة الإنسان بارتكابه المحظور، وتتكشف خصائصه ودخوله المعركة مع الشيطان عدوِّه؛ كي يزاول الخلافة في الأرض.

٢٤- ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

قال تعالى مخاطبًا آدم وحواء وإبليس: اهبطوا من السماء إلى الأرض، أو اهبطوا من الجنة، وسيكون بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مكان تستقرون فيه، وتتمتعون فيه إلى انقضاء آجالكم.

وقال سبحانه في سورة أخرى: ﴿ٱهْبِطَا﴾ [طه: ١٢٣] بضمير التثنية؛ لأن إبليس كان قد هبط من قبل، والخطاب في هذه السورة لآدم وحواء بصيغة الجمع ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أو أن المراد آدم وحواء وإبليس ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ مكان إقامة لك ولذريتك، ﴿وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت انتهاء آجالكم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

قيل: إن آدم لما حضرتْه الوفاة، حضرت الملائكة فغسَّلتْه بماء وسدر وحَنوط، وكفنتْه، وصلَّت عليه، ودُفن في الهند بسرنديب.

قال ابن عطية: ورُوي أن آدم عليه السلام أُهبط بالهند، وحواء بجدة، وتمناها بمنى، وعرف حقيقة أمرها بعرفة، ولقيها بجمْع - أي مزدلفة - وأهبط إبليس بميسان، وقيل: بالبصرة، وقيل: بمصر، فباض فيها وفرخ[٢].

وفي بعض الكتب: لما أُهبط إبليس قال: أي رب، أين مسكني؟ قال: مسكنك الحمام، ومجلسك الأسواق، ولهوك المزامير، وطعامك ما لم يذكر عليه اسمي، وشرابُك المُسْكِر، ورسلك الشهوات، وحبائلك النساء[٣].

وقد طوت هذه السورة توبة آدم؛ لأن المقصود من الآيات هنا هو التذكير بعداوة الشيطان، وتحذير الناس من اتباع وسوسته، وإظهار ما يترتب على ذلك من العقوبة

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٩٨).

(٢)، (٣) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٨٨).

والخسران بعد ذكر أسباب هذا الخسران.

أما آيات سورة البقرة فقد ذكرت توبة آدم؛ لأن المقصود منها بيان فضل آدم وكرامته عند الله، ولكلٍّ مقامٍ مقالٌ.

والمقصود من الآيات في السورتين تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ولأصلهم، وبيان أن هذه العداوة نشأت من حسد إبليس لآدم، كما يتضح ذلك من قول الله تعالى على لسان إبليس: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء] وهنا ينتهي الحوار ببيان المصير الدنيوي والأخروي:

٢٥- ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ[١] ﴿٢٥﴾﴾

ولما أهبط الله آدم وحواء من الجنة أخبرهما بمكان إقامتهما وذرياتهما، وأنه قد جعل الأرض لهما دار إقامة، مليئة بالامتحان والابتلاء، ويرسل الله إليهم فيها رسلا وينزل عليهم كتبًا حتى يأتيهم الموت فيدفنون فيها، حتى إذا تكاملوا في جوفها بعثهم الله منها إلى دار النعيم والجحيم:

﴿قَالَ﴾ تعالى لآدم وحواء وذريتهما: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ أي: في الأرض تعيشون أنتم وآباؤكم ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ تُقبرون عند انتهاء آجالكم ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي: يوم القيامة تبعثون للحشر والنشر والحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه] وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات].

أَرْبَعُ نِدَاءَاتٍ إِلَى بَنِي آدَمَ

النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: وُجُوبُ سَتْرِ الْعَوْرَةِ

٢٦- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ[٢] ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ

(١) (تَخْرُجون) قرأ ابن ذكوان وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بفتح التاء وضم الراء، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الراء.

(٢) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر بنصب سين (ولباس التقوى) عطفًا على (لباسا)، وقرأ الباقون برفعها على أنها مبتدأ.

ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

والقرآن الكريم بعد نهاية هذه القصة يُعَقِّب عليها، ويقف وقفة تحذير وتأمل مع ذرية آدم، فيشير إلى التعري وانكشاف عورتهم عند ارتكاب المعصية، فالتعرِّي صفةٌ حيوانيةٌ، ومحبته انتكاس وتخلف، كما في أواسط إفريقيا ونوادي العراة في الدول المتقدمة في هذا. والتستر مظهرٌ حضاري وارتقاءٌ إنساني، والقرآن يحذِّرُهم من ذلك في عشر آيات من هذه السورة، جاء فيها **أربع نداءات** إلى بني آدم جميعًا؛ كي يحذروا كيد الشيطان، ولا يقعوا في حبائله وأساليبه ومداخله كما وقع أبوهم آدم.

ففي **النداء الأول** منها يمتنُّ الله على عباده بما خَلَقَه لهم من اللباس الذي يستر عوراتهم ويجمِّلهم، وما أفاض به عليهم من لباس التقوى الذي يجمِّلُ باطنهم.

وفي **النداء الثاني** يحذرهم الله تعالى من كيد الشيطان وفتنته لهم؛ كي لا يُطردون من رحمة الله تعالى.

وفي **النداء الثالث** يأمرهم سبحانه بأن يتجملوا ويتزينوا عند ذهابهم إلى بيوت الله سبحانه.

وفي **النداء الرابع** يأخذ الله عليهم العهد أن يصدقوا الرسل وينتفعوا بهديهم.

وهكذا: تبدأ هذه النداءات الأربع بنداء يتعلق بالعقاب الأول للإنسان الذي يضله الشيطان، أو بالسلاح الذي يستخدمه الشيطان في إغواء الإنسان وإضلاله، عندما يتلطخ العبد بالذنوب، ومنها العُرْي وإظهار المفاتن بالنسبة للمرأة، فالمرأة حين تكون كاسية عارية يكون هذا دليلًا على عقوبة الله لها؛ لِمَا هي عليه من المعاصي، ولو كانت مطيعة لله تعالى لكانت من أهل الاحتشام والتستر.

فهذا العري وكشف العورة بالنسبة لآدم وحواء كان العقاب الأول للمعصية التي عوقبَا به حين أكلا من الشجرة، ولم يقفا عند نهي الله لهما، فكان أن نزع الله عن آدم ثوب الجنة الذي كان يستر به عورته هو وحواء، وكان ذلك ثمرة للخطيئة ونتيجة للمعصية، بمجرد أن أكلا من الشجرة، وفي الآية أمرٌ بستر العورة المغلظة، أما ستر ما عداها فيؤخذ من السنة.

وكان بعض العرب يطوفون بالبيت عراة؛ فأنزل الله سبحانه ينادي ذرية آدم إلى يوم القيامة ممتنًا عليهم بأن هذا اللباس الذي يستر عورتهم نعمةٌ خَصَّ الله بها الإنسان عن

سائر الحيوان، وقد سخَّر الله هذه الأرض للإنسان وخلق ما فيها له، وعلَّمه كيف يصنع الثياب وسائر الملبوسات من منتجات هذه الأرض؛ ليستر بها عورته، وليتزين بها ويتجمل.

وهذه الآية مقدمة لآية ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

واللباس على **نوعين**: منه الضروري الذي لا بد منه لحفظ العورة وسترها، وهو المراد بقوله تعالى ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ .

واللباس الآخر: هو لباس الزينة والتجمل، وهو لباس كمالي، فوق ستر العورة، مما يلبسه الإنسان فوق ثيابه، من بِشْتٍ أو غُترة، أو ما يتجمل به من شملة وكوفية ونحوهما، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾.

وهكذا سائر الأمور، منها الضروري ومنها الكمالي في الطعام والشراب والمراكب والزواج وغيرها.

قالوا: إن الله سبحانه لمَّا أهبط آدم وزوجه إلى الأرض علَّمه أسماء الأشياء، وأنزل عليه ما يُصلح به دينه ودنياه؛ كي يستطيع العيش فوق هذه الأرض، وهو أول مخلوق ينزل عليها، ومما أنزل الله عليه اللباس أو الثياب يستر به عورته ويصلح به دينه؛ لأن ستر العورة شرطٌ في صحة الصلاة، ويُصلح به دنياه؛ لأن اللباس يقي الإنسان من الحر والبرد، ففيه منفعة لدينه ومنفعة لدنياه، وقد عبر القرآن عن تيسير اللباس للإنسان بالإنزال؛ تشريفًا لهذا المظهر الحضاري الذي سخره الله تعالى لخَلْقِه وألهمهم صنعه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ [النحل: ٨١] فهو منفعة في السلم والحرب وهو من الفطرة الإنسانية.

والناس بالنسبة للملابس قد تتجاوز ما شرع الله، فبعض الناس لهم تجاوزات في هذه الملابس، فمثلًا: الرجل الذي يُظهر فخذه في حلبة المصارعة، أو في ملعب الكرة ونحوهما -متجاوزٌ لشرع الله سبحانه؛ لأنه قد كشف عن عورته أو سوأته التي هي من السرة إلى الركبة.

والرجل الذي يلبس الثوب الطويل مسبلًا له؛ إعجابًا بنفسه وتفاخرًا وخيلاء بما يبعث في نفسه الكبر والزهو -متجاوز لشرع الله سبحانه.

والمرأة التي تقصِّر ثيابها حتى تكاد عورتها تبدو منها، أو التي تلبس ثيابًا ضيقة تصف أو تبرز وتكشف عن مفاتن جسمها، والتي تلبس ثيابًا يُظهر ذراعيها وشعرها وثغرها ونحرها وساقيها، كل ذلك من مداخل الشيطان، ومن انتكاس الإنسان عن فطرته وتردِّيه إلى الحيوانية، كمن كانوا يطوفون بالبيت عرايا، وربما جعلت المرأة على فرجها شيئًا يستر بعضه، كما كانوا في الجاهلية يتعبدون بالتعرِّي في الطواف؛ فأمرهم الله تعالى بستر العورة، وبيَّن سبحانه أن سترها من التقوى، والله جميل يحب الجمال، كل هذه تجاوزاتٌ نَهَى عنها الشرع في مقام اللباس.

والرجل الذي يُقوِّم الناس بمقدار ما يلْبسون قد اختلت عنده الموازين، فقيمة الرجل عنده في غلاء ثوبه، أو في ملبسه، أو سيارته، أو منزله، فإن كان يلبس لباسًا غاليًا فهو رجل ذو قيمة في نظره وإلا فلا، هذا كله تجاوزٌ لشرع الله والمرأة مثل الرجل في ذلك.

والله سبحانه يبيِّنُ أن شرَف الإنسان ليس فيما يلبس، ولا فيما يأكل ولا ما يرتدي، إنما شرفه في لباس آخر، وهذا اللباس الآخر بينتْه الآية، إنه لباس التقوى.

وملابس الإنسان عون له على عبادة الله وطاعته، ولباس التقوى يستمر مع العبد، لا يبلى ولا يبيد، وهو جمال للقلب والروح، وانكشاف العورة الظاهرة أيسر وأهون من انكشاف العورة الباطنة، فلباس التقوى أفضل من لباس ستر العورة ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ﴾ لباس التقوى يُصلح باطن الإنسان ونفْسيته، ويستر عورات قلبه، كما أن اللباس الظاهرة تستر عورة الإنسان الظاهرة وسوأته الجسدية.

وكما أن لباس التقوى يزين القلب فإن لباس الجسم يزين البدن ويستره ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ما ينفعهم ومايضرهم، وما أنعم الله به عليهم.

ومجمل معنى الآية: يا بني آدم قد جعلنا لكم لباسًا يستر عوراتكم، وهو لباس الضرورة، ولباس للزينة والتجمل، وهو من الكمال والتنعُّم، ولباس تقوى الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي هو خير لباس للمؤمن، ذلك الذي منَّ الله به عليكم من الدلائل على وحدانية الله تعالى وفضله ورحمته بعباده، رجاءَ أن تتذكروا هذه النعم فتشكروا الله

عليها، وفي ذلك امتنانٌ من الله تعالى على خَلْقِه بهذه النعم[١].

النِّدَاءُ الثَّانِي: فِي التَّحْذِيرِ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَمَكْرِهِ

٢٧- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يا بني آدم لا يخدعنكم الشيطان فيزين لكم المعصية، ويرغبكم فيها وتنقادوا له كما زينها لآدم وحواء؛ فأخرجهما بسببها من دار النعيم، لقد نجح الشيطان في إغواء آدم وإخراجه من الجنة، فهل ينجح في أن يحول بين ذرية آدم وبين دخولهم الجنة؟
وكان الله تعالى قد حذَّر آدم من مكر إبليس قبل أن يقع فيما وقع فيه ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه].

وقد بيَّن الله سبحانه أن العبد المؤمن قوي الإيمان بالله ليس للشيطان عليه مدخل ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] فاحذروا وسوسته وإيماءاته، ولا تستسلموا له؛ لأن المعركة قائمةٌ بين الإنسان وعدوه اللدود.

وفي الآية إشارة إلى أن الشيطان يهم بكشف سوأة ابن آدم؛ لأنه يَسُرُّهُ أن يراه في حالة سوء وفظاعة، فهو ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ هذا هو العقاب الأول على الخطيئة الأولى، وهو لبيان أن من قدر على إخراج أبويكم من الجنة، فمن باب أَوْلَى يقدر على فتنتكم وإضلالكم، فاحذروا غروره بتزيين القبائح وتحسين الرذائل.

والتعري هو سلاح الشيطان الذي يستعمله في إغواء الإنسان وإضلاله، وهو السلاح الذي تعرَّف عليه اليهود واستخدموه في مخططاتهم وفي بروتوكولاتهم التي وضعوها؛ للقضاء على البشرية دونهم، وللفتك بأبناء المسلمين على وجه الخصوص، وتبديد طاقاتهم وقواتهم عن طريق المرأة والوقوع في حبائلها، بوسائل الإغراء والعري والفن والخلاعة والمجون، وهلم جرًّا، فهم يستخدمون المرأة للحصول على أغراضهم السياسية، والتعرف على المعلومات العسكرية، والتجسس، والاقتصاد، والاجتماع،

---

(١) من «التفسير الميسر» للآية، نخبة من العلماء.

وغير ذلك بالطرق المباشرة، وعن طريق الأفلام والصور والمجلات والمسلسلات، وسائر الأحوال.

إن المرأة وكشف عورتها هو سلاح الشيطان الأول، وسلاح اليهود الذي يستخدمونه للفتك والقضاء على شباب الإسلام، سِيَّمَا أبناء العرب المحيطون بهم.

وما مسابقات الجمال النسائية في العالم، وبيوت الأزياء، وأماكن التجميل، وغير ذلك - مما يتعلق بالمرأة - إلا ضرب من ضروب الأسلحة التي يقبع وراءها اليهود، ويروّجونها للقضاء على شباب المسلمين وفتنتهم.

يقول الله سبحانه عن الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ لقد خَلَقَ الله في الشيطان قوة إبصار ينفذ منها إشعاع يزيد عن القوة البصرية للإنسان، ورزقه قُدرة على سرعة التنقل والتشكل، ولذلك فالشيطان يراكم هو وذريته وأنتم لا ترونهم لا من قريب ولا من بعيد، فأجسام الشياطين خفيفة رقيقة لطيفة، ليست في كثافة جسم الإنسان، وهي تنتقل وتتشكل بألوان مختلفة في غير صورتها الحقيقية بتسخير الله تعالى، فيرى الإنسان ما يتمثل به الشيطان أو الجن، ولا يرى صورته الحقيقية، كما حدث لأبي هريرة ﷺ حينما رأى شيطانًا يسرق من حبوب الزكاة، وكما همَّ النبي ﷺ أن يُوثِق بسارية المسجد عفريتًا من الجن تفلَّت عليه في صلاته، ولذلك كانت لهم المقدرة على نقل الأخبار ونقل المعلومات بسرعة في طرفة عين، بما أودع الله فيهم من طاقات وقدرات تزيد على ما أودعه الله في الإنسان.

والشياطين أولياءُ للذين لا يوحدون الله، ولا يصدقون رسله، ولا يعملون بهديه ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠]. وعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل]. قال تعالى:

٢٨- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ثم ذَكَرَ سبحانه ما يتعلل به مرتكبو القبائح التي نهى الله عنها من أن آباءهم كانوا يفعلون ذلك، وفي هذا كشف لباطلهم وأعذارهم الفاسدة، ومن الخطأ الفادح أن يقع

المسلم في معصية أو خطيئة ويرتكب قبائح ومساوئ مخالفة لشرع الله تعالى، ثم يتعلل بأنه يفعلها كما يفعلها آباؤه وأجداده؛ لأنه رأى المجتمع الذي يعيش فيه؛ ورأى أهل البلد وأباه يفعلون هذا، رآه يطوف بالقبر، رآه ينذر ويذبح ويلتمس النفع والضر من غير الله سبحانه، فيقول: هؤلاء خلق كثير وأنا مثلهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] هذه علته، وهو يظن أن هذا شرعُ الله، فينسبه إليه، وهذا تديُّنٌ فاسد مزيف، ليس له حقيقة في الإسلام، وهذا صنف جاهل من الناس، لم يتعرف على الإسلام الصحيح، إنما قلَّد المجتمع الذي حوله، واعتذر إلى الله تعالى بالتقليد، ونسب ارتكاب الذنب إليه تعالى.

وهذا هو شأن أهل الجاهلية الذين عاب عليهم القرآن في كثير من آياته ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ **الفاحشة**: هي كل فعل قبيح، وما يبالَغ في قبحه من الذنوب، مما يستفحش ويُستقبح، ويدخل فيها جميع الكبائر والمعاصي، وغلبت الفاحشة على الأفعال شديدة القبح، التي تنفر منها الفطرة السليمة، أو ينشأ عنها ضر وفساد يأباه العقل الراجح، ويستحي فاعلها من الناس، ويتستَّر من فعلها، وذلك مثل البغاء والزنى، ومثل التعري في الحج، كما كان يفعله أهل الجاهلية.

فإذا نُهي الإنسان عن فعل الفاحشة وأُنكر عليه قال: هذا ما وجدنا عليه غيرنا، والله تعالى لم يحرِّم ذلك، ولم يبلُغنا نهيٌ من الله في ذلك، ثم نقض الله دعواهم في أنه سبحانه لم يأمر بتلك الفواحش، وأنه تعالى متصفٌ بالكمال، فلا يأمر بما هو نقص يُنكره كلُّ عاقل، فكون العقل قد وصف فعلهم بالفاحشة، كافٍ في الدلالة على أن الله تعالى لا يأمر بها، واعتذارهم بذلك جهلٌ فاضح لا مستند لهم عليه، والتقليد المنهي عنه في الآية هو تقليد مَن ليسوا أهلًا للتقليد، فهو تقليدٌ في الفساد والضلال.

وقد ذَكَرَ الله تعالى أن الكفار إذا فعلوا فاحشة استدلوا على أنها حق وصواب بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، وأنهم ما فعلوها إلا لأنها صواب ورشد، وهذا أمر واقع في جميع الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف]

وقد ردَّ الله عليهم هذا التقليد الأعمى في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا

وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]

وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤] وغير ذلك من الآيات.

أما اتباع آثار السلف الصالح ممَّن أُمرنا بالتأسِّي والاقتداء بهم فهو ممَّا أمر الله به، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤]

وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال ﷺ: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»**[1].

وفي حديث حذيفة ﷺ عند ابن حبان **«إني لا أدري ما قدْر بقائي فيكم إلا قليلا، فاقتدوا باللذيْن من بعدي - وأشار إلى أبي بكر وعمر - واهتدُوا بهدْي عمّار، وما حدّثكم ابن مسعود فاقبلوه»**[2].

وقد أخرج الطبري بسند حسن عن السدي في معنى الآية قال: كان قبيلة من العرب من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا قيل لهم: لِمَ تفعلون ذلك؟ قالوا ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فهم يحتجون بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله الكذب، - بأن الله أمرهم بذلك - فأعرض الله تعالى عن الأول في هذه الآية لأنهم صادقين فيه؛ لظهور فساده، ورد على الثاني بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ لأنهم كاذبين فيه.

ومن الفاحشة: التعري، ونادي العراة، وطواف العراة حول البيت، ومنه الكاسيات العاريات المائلات المميلات، ومنه الرقص الشرقي والغربي، والتكسر والتغنج والابتذال، والغناء المثير للغرائز، وفيديو كليب، ونحو ذلك.

---

(١) من حديث العرباض بن سارية في «المسند» (١٧١٤٢، ١٧١٤٤، ١٧١٤٥) حديث صحيح، رجاله ثقات (محققوه) وأبي داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٣) وابن أبي عاصم في السنة (٣٣).

(٢) هذا لفظ ابن حبان (٦٩٠٢) وصححه، وهو عند الترمذي (٣٦٦٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٩٦) وانظر صحيح ابن ماجه (٢٨٩٥) وهو في المسند (٢٣٢٧٦)، حديث حسن بطرقه وشواهده، وأخرجه البزار في مسنده (٢٨٢٩) وابن أبي عاصم في السنة (١١٨٤) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٢٢٤).

فقل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين يفترون على الله الكذب: إن كلامكم هذا يناقض العقل والنقل ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أين لكم هذا؟ هل أخبركم بهذا رسول من عند الله؟ هل نزل عليكم وحي أخبركم أن هذا من الله؟ إنه تقليد للجهل، وافتراء على الله تعالى، وأي افتراء أعظم فيه؟ فهم لم يسمعوا كلام الله، ولم يأخذوه عن أنبيائه، فكيف يتقولون على الله بغير علم؟ وكيف يعتذرون إليه بفعل آبائهم وهو باطل لا أصل له؟ قال تعالى:

٢٩- ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ[1] كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ[2] ﴿٢٩﴾﴾

وبعد أن أخبر سبحانه أنه لا يأمر بالفحشاء، بيَّن جل شأنه أنه أمر بنقيض ذلك؛ وهو القسط والعدل، ولم يأمر بالظلم والجور، وفي ذلك جماع مقومات الدين الحق.

فالقسط: هو الوسط بين الإفراط والتفريط في كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وفي هذا إبطال لكل ما ليس من القسط في العبادات والمعاملات.

والتوحيد عدل بين الشرك والتعطيل، فالله سبحانه لا يأمر إلا بالحق والعدل، يأمر بما جاء في كتبه، وبما أرسل به رسله، وهو سبحانه ينكر دعواهم في أنه تعالى يأمر بالفحشاء، ويبين لهم أن أَمْرَ الله تعالى في اتجاه معاكس، فهو سبحانه يأمر بالعدل والاعتدال والاستقامة على المنهج، ولا يأمر بالفحش والتجاوز.

وأَمَرَكم - أيها الناس - أن تخلصوا له العبادة في كل موضع من مواضعها، وبخاصة في المساجد، فوجِّهوا وجوهكم في صلاتكم لله في كل مسجد تجاه الكعبة، وأَخْلِصوا الطاعة والعبادة لله وحده، وفي هذا كمال الإقبال على الله تعالى، والأمر بالشيء نهيٌ عن ضده.

وفي الأمر بإقامة الوجوه عند المساجد تعظيمٌ للمعبود سبحانه، وتعظيمٌ لمكان العبادة، ولم يأمر سبحانه بتعظيم ما سوى ذلك، والتعري و الشرك بالله تعالى ينافي إقامة الوجوه عند التوجه إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

ومظاهر الشرك في العصر الحاضر كثيرة؛ ومنها أن أحدهم إذا قيل له: اسأل الله وحده

(١) قوله تعالى (مخلصين له الدين) عدّها البصري والشامي آية، ولم يعدّها غيرهما.

(٢) وقوله تعالى (كما بدأكم تعودون) أثبتها آية العدد الكوفي ولم يعدها غيره آية.

وتوجه إليه بالدعاء، قال: إن سيدي السيد البدوي أقرب مني إلى الله، والله يقبل منه ولا يقبل مني؛ لأني مدنس بالمعاصي، وهذا هو عين ما كان السابقون يقولونه بالنسبة إلى الأصنام ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].
ومسلم اليوم كمشرك الأمس إذا توسط إلى الله بالسيد البدوي ونحوه، فالآية تشملهما.

أما في العصر الجاهلي فقد كان المشركون يضعون هُبل على سطح الكعبة؛ ليكون الطواف لله ولهُبل، ويضعون إساف ونائلة على الصفا والمروة؛ ليكون السعي لله ولهما، وكان فريق من المشركين يلبُّون بالحج عند صنم مناة بالمشلل.

ونقطة البداية للإنسان في الأرض آدم وحواء والشيطان وقبيله، فمَن سار على درب آدم وزوجه حواء، أي: على منهج الله تعالى، وما أوحى به إلى آدم، وإلى رسل الله المتتابعين من بعده فهو من الذين هدى الله، وممَّن فازوا بالفلاح والسعادة الدنيوية والأخروية، ومَنْ سار على درب الشيطان وقبيله فهو من الأشقياء الذين أضلهم الله سبحانه، والكل يرجع ويعود إلى الله تعالى خالقه كنقطة البداية ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ وفي هذا إعلام بالبعث؛ أي: كما أوجدكم من العدم يعيدكم بعد الموت، وأهل الإيمان في الدنيا هم أهل السعادة في الآخرة، وأهل الكفر في الدنيا هم أهل الشقاء في الآخرة، فكل فريق يموت على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه، والقادر على بدء خلقكم قادر على إعادته، والإعادة أهون من البداية.

وفي الآية إنذارٌ لكل مَن كذَّب باليوم الآخر، وبيانُ أن الله تعالى باعثه ومجازيه يوم القيامة، وفيها إثباتٌ للبعث الذي ينكرونه، كما قال تعالى عن هذا الصنف من الناس: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات] وفي هذا بيان أن إعادة الخَلْقِ ليس بأعجب من بدئه، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق]
وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]
وفيه تذكير بأن الله تعالى منفردٌ بالخَلْقِ الثاني، كما انفرد بالخلق الأول، وهو سبحانه المنفرد بجزائهم يوم لقائه؛ فيجازي الضالين المرتدين على أعقابهم بما عملوه في الدنيا.

في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «**يأيها**

الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا» ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾» [الأنبياء: ١٠٤] ثم قال: **«ألا وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم، إلا وإنه يُجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح:** ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[١]. قال تعالى:

٣٠- ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ[٢] ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ[٣] أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ثم إنكم - أيها الناس - تعودون إلى الله في الآخرة **فريقين**: منكم مؤمن ومنكم كافر ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢] وكما خلقناكم في الدنيا نعيدكم مرة ثانية، ونبعثكم للحساب والجزاء ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وفقهم الله للهداية، ويسر لهم أسبابها، وصرف عنهم موانعها، وهم السعداء الذين اتبعوا رسل الله ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: ثبتت عليهم الضلالة بثبوت أسبابها الكسبية، فجُعلت غريزة لهم، لأنهم تسببوا فيها وعملوا بأسباب الغواية، وهم الذين اتبعوا الشيطان واكتسبوا السيئات، فهم الأشقياء؛ لأنهم الذين وجبت عليهم الضلالة لانحرافهم عن الطريق المستقيم، فقد هدى الله منهم فريقا وأضل فريقا.

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حين انسلخوا من ولاية الرحمن واتّبعوا ولاية الشيطان فحصل لهم النصيب الأوفر من الخذلان، فخسروا أشد الخسران، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩] إنهم أطاعوهم في

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٩، ٤٦٢٥) و«صحيح مسلم» (٤/ ٢١٩٤) برقم (٢٨٦٠) كتاب الجنة، باب فناء الدنيا والترمذي (٤/ ٦١٦) وتفسير الطبري (١٢/ ٣٨٦).

(٢) قرأ ابن عمرو بكسر الهاء والميم من (عليهم الضلالة) وصلًا، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بضم الهاء والميم وصلًا أيضًا، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم، وقرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء سكون الميم وقفًا، والباقون بكسر الهاء وسكون الميم وقفًا كذلك، قرأ حمزة بإسكان ياء الإضافة وصلًا من (حرم ربي الفواحش) وفتحها غيره.

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر، بفتح السين من (ويَحْسِبُون) والباقون بكسرها.

كل ما زينوه لهم من الفواحش والمنكرات.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيما تلقنهم الشياطين إياه من الشهوات والشبهات، فقد انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقًا والحق باطلًا، والسبب أنهم أطاعوا الشياطين جهلًا منهم، وظنًا بأنهم قد سلكوا سبيل الهداية، وكل فريق من أهل السعادة والشقاء يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، فيعودون كما بدؤوا.

١- عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن العبد ليعمل -فيما يرى الناس- بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل -فيما يرى الناس- بعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم»**(١).

٢- وعن جابرٍ ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«يحشر الناس على نياتهم»** هذا لفظ ابن ماجه.

٣- ولفظ مسلم: **«يُبعث كل عبد على ما مات عليه»**(٢).

ومع أن الله تعالى فطر خَلْقَه على التوحيد، وأودعه في غرائزهم وطبائعهم، إلا أن الشياطين تجتالهم، فيتحولون بسعيهم ويتوجهون بإرادتهم نحو الخير أو الشر، كما قال ﷺ:

أ- في حديث أبي مالك الأشعري **«كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»**(٣).

أي: كل واحد من الناس يسعى، فإما أن يعتق نفسه من النار، وإما أن يوردها المهالك:

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل] وقال: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

---

(١) قطعة من حديث البخاري برقم (٢٨٩٨، ٦٤٩٣، ٦٦٠٧) ورواه البغوي في تفسيره (٣/ ٢٢٤) وهو في «صحيح مسلم» برقم (١١٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٢٠٦) برقم (٢٨٧٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٣٠) وصحيح ابن ماجه (٣٤٠٨) وظلال الجنة (٨٦٥) و«تفسير الطبري» (١٢/ ٣٨٤).

(٣) جزء من حديث في «صحيح مسلم» (١/ ٢٠٣) برقم (٢٢٣) و«المسند» (٥/ ٣٤٢) عن أبي مالك الأشعري برقم (٢٢٩٠٢، ٢٢٩٠٨) وابن أبي شيبة (٦/١) (١١/ ٤٥) وأبو عوانة (٦٠٠) والبيهقي في «السنن» (١/ ٤٢) والطبراني في «الكبير» (٣٤٢٣) وابن ماجه (٢٨٠) وأول الحديث (الطهور شطر الإيمان) قال محققو «المسند»: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح إلا أن فيه انقطاعًا بين ممطور الحبشي فهو لم يسمع من أبي مالك الأشعري، وبينهما في هذا الحديث عبد الرحمن بن غَنْم، وهو ثقة.

هدى كل مخلوق لوظيفته التي خُلق لأجلها، ويسّر له أسبابها، ووفقه لأدائها:

ب - وفي الحديث عن علي ﷺ: «**فأما مَن كان منكم من أهل السعادة فييسَّر لعمل أهل السعادة، وأما من كان منكم من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة**»[١].

وقد فطر الله الخَلْقَ جميعًا على معرفته وتوحيده، وأخذ عليهم الميثاق بذلك ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]

ج - وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**»[٢].

د- وعن عياض بن حمار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: إني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتْهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[٣].

فمَن وحَّد الله تعالى وترك الشرك فهو ممَّن هداهم الله، وهم ممَّن قال الله فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]

ومَن داوم على الضلال ولازم الشرك فهو الفريق الخاسر، الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وبعد هذه الآية قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]

والذين حق عليهم الضلالة، لمَّا سمعوا الدعوة إلى التوحيد والإسلام، طابت نفوسُهم بوسوسة الشياطين وائتمروا بأمرهم، فثبتوا على الضلالة ولزموها، ولم يمعنوا النظر في

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٦٢) ومسلم (٢٦٤٧) (٤/٢٠٣٩) وانظر المسند (١٠٦٧، ٦٢١) وأبو داود (٤٦٩٤) والترمذي (٢١٣٦) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٣٨٥، ٦٥٩٩، ٦٦٠٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) وهذا لفظه، و«المسند» (١٧٤٨٤) والطبراني في الكبير (١٧ (٩٩٥) والأوسط (٢٩٥٤) والطيالسي (١٠٧٩).

صِدْقِ محمدٍ ﷺ، وظنوا أنهم مهتدون.

فموالاة الشيطان طاعته فيما يخالف شرع الله، ومن ذلك أنهم يظنون أنفسهم على هدى، وهم أخسر الناس عملًا ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف].

وكلُّ هذه النصوص تشير إلى أن العبد يصير من أهل السعادة أو الشقاء، وييسَّر للعمل لأحدهما، فيكتسبه ويقدَّر عليه.

والمعنى في كل ذلك: أن العبد يكون في هذه الحياة وَفْقَ ما سبق في علم الله، ويصير إليه، وعِلْمُ الله تعالى علمٌ مسبَقٌ، وهذا العلم المسبق مُسجل في اللوح المحفوظ، فهو مكتوب، وعلم الله لا يتخلف، ولا يُجبر أحدًا على الفعل أو الترك، والله تعالى يأمر بالخير وينهى عن الشر، وفيه دليل على أن الهداية تكون بفضل الله ومَنِّه، وأن الضلالة تكون بخذلان الله للعبد إذا تولى الشيطان، فتسبب لنفسه في الضلال وظن أنه على هدى.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ: التَّزَيُّنُ لِلْعِبَادَةِ وَالتَّمَتُّعُ بِالْحَلَالِ دُونَ إِسْرَافٍ

٣١- ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾

يا بني آدم: استروا عوراتكم عند الصلاة، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، وكشفها يجعل البدن قبيحًا مشوَّهًا، والْبسُوا أحسن الثياب وتجمَّلُوا بنظافة البدن والثياب من الأدناس والأنجاس، وتطيبوا، وتخلّقوا بمكارم الأخلاق.

هذا: وقد كانت قريش قد سمَّتْ نفسَها في الجاهلية بالحُمْس، وميزت نفسها وأحلافها بخصائص ليست لغيرهم من سائر العرب؛ لأنهم يخدمون البيت، ويقومون على رعايته وصيانته، ومن هذه الأشياء التي خصوا بها أنفسهم، أنهم كانوا وحدهم يطوفون حول البيت في ثيابهم العادية، وغير قريش من سائر القبائل والبلاد المجاورة إما أن يستعير الواحد منهم ثيابًا من قريش؛ ليطوف فيها إن وَجَدَ، فإن لم يجد فإنه يطوف عريانًا، ويقولون: نحن لا نطوف بالبيت في ثياب عَصَيْنا الله فيها، هكذا زيَّن لهم الشيطان، فيخلعون الثياب، ويطوفون عرايا ويصفِّرون ويصفقون، وكانت النساء تطوف عرايا ليلًا، والرجال يطوفون عرايا نهارًا، وربما طافت المرأة حول البيت وهي عارية، ووضعت

بعض أصابعها أو سيورًا على فرجها فيظهر بعضه، وكانت تقول: مَن يُعِيرُنِي تطْوافًا تجعله على فرجها وتقول:

الْـيَـوْمَ يَـبْـدُو بَـعْـضُـهُ أَوْ كُـلُّـهُ وَمَـا بَـدَا مِـنْـهُ فَـلَا أُحِـلُّـهُ[1]

قال ابن عباس ﷺ: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة، وأبطل الإسلام بهذه الآية ما كان يزعمه بعض المشركين من لزوم التعري في الطواف، وعند مساجد معينة.

وفي صحيح مسلم وغيره عن هشام عن عروة عن أبيه ﷺ قال: **«كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحُمْس، والحُمْس قريش وما ولدتْ، فكان غيرهم يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحُمْس ثيابًا، فيعطي الرجال الرجال، والنساء النساء»**[2].

وعنه ﷺ قال: كانوا إذا وصلوا إلى منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة.

وكانت الحُمْس لا يخرجون من المزدلفة، وكان الناس يبلُغون عرفات، ويقولون: نحن أهل الحرم، فلا ينبغي لأحدٍ من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا.

فمَن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوبًا، ولا يجد ما يستأجره به، كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عريانًا، وإما أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسَّه أحد.

وقال مجاهد: كان حيٌّ من أهل اليمن إذا قدم أحدهم حاجًا أو معتمرًا يقول: لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب عصيتُ الله فيه، فيقول: مَن يعيرني مئزرًا، فإن قدر عليه وإلا طاف عريانا.

وقال الزهري: إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحُمْس، وهم قريش وأحلافهم، فمَن جاء من غير الحُمْس وضع ثيابه، وطاف في ثوب أحمسى، ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه، فإن لم يجد من يعيره من الحمس فإنه يُلْقِي ثيابه ويطوف عريانًا، فإن طاف في ثيابه ألقاها، ورأى أنها محرَّمَةٌ عليه بعد الطواف.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» برقم (٣٠٢٨) و«سنن النسائي» (٥/ ٢٣٣) و«تفسير الطبري» (١٢/ ٣٩).

(٢) الحديث في البخاري (٤٥٢٠) ومسلم (١٢١٩) وأبي داود (١٩١٠) والترمذي (٨٨٤) والنسائي (٣٠١٢).

لذلك: فإن الله سبحانه أنزل على رسوله ﷺ ما يصحح هذه الأوضاع، فأمر عباده بالتزين لأداء العبادة، فضلًا عن ستر العورة، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ أي: عند أداء كل عبادة ومنها الصلاة والطواف، فلا تستروا عوراتكم فحسب، بل تجملوا وتزينوا والبسوا أحسن ملابسكم عند كل صلاة، سِيَّمَا في الجمعة والعيدين.

كان الحسن بن علي إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه، فقيل له في ذلك فقال: إن الله جميل يحب الجمال، فأنا أتجمل لربي.

والإسلام يأمر بالاغتسال والنظافة والطِّيب والسواك في كل حال؛ لأن ذلك من تمام الزينة، ومنها الثياب البيض.

وعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثمد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر**»[١].

وعن سمرة بن جندب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**عليكم بالثياب البياض فالبسوها؛ فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم**»[٢].

ولمَّا نزلت هذه الآية تأمر بأخذ الزينة المشروعة من ثياب ساترة للعورة، ونظافة، وطهارة، ونحو ذلك، سِيَّمَا في أوقات العبادة؛ أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ: لا يطوفن بالبيت عريان، وقد أبطل الإسلام ذلك حين أمر النبي ﷺ أبا بكر ﷺ سنة تسع من الهجرة أن يناديَ في الناس: لا يحج بعد العام مُشرِكٌ، ولا يطوف بالبيت عريان.

وكلوا واشربوا من الطيبات من غير إسراف ولا تبذير، فقد نهى سبحانه عن الإسراف في الطعام والشراب، ويكون ذلك إما بالزيادة على القدر الكافي، وإما بالزيادة في الترف والكماليات، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام، والله تعالى لا يحب السرف لأنه يضر بالإنسان بدنًا ومعيشة.

---

(١) «المسند» (١/ ٢٤٧) برقم (٢٢١٩، ٣٤٢٦) حديث صحيح ورجاله ثقات، (محققوه) ومشكاة المصابيح بتصحيح الألباني (١٦٣٨) والروض النضير (٤٠٧) وصحيح أبي داود (٣٢٨٤) وأبو داود (٤/ ٣٣٢) برقم (٤٠٦١) والترمذي (٣/ ٣١٠) برقم (٩٩٤) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١١٨١) برقم (١٤٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٧) برقم (٢٠١٤٠، ٢٠٢٣٥) حديث صحيح ورجال ثقات (محققوه) و«سنن النسائي» (٨/ ٢٠٥) وفي الكبرى (٩٦٤٣) وصحيح «سنن النسائي» (٢٣٩٨) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٢٦) والطبراني في الكبرى (٦٩٧٧) وصحيح الترمذي (٢٢٥٣) وابن ماجه (١٤٧٢).

في سبب النزول:

والعلاقة بين هذه الجملة من الآية وما قبلها: أن بعض القبائل -كبني عامر- كان يزعم أنه إذا عزم على حج البيت، لا ينبغي له أن يأكل دسمًا، ولا يأكل إلا قوتًا؛ أي: يكتفي بما هو ضروري، ويقلل ما استطاع من الطعام، وكانوا يحرِّمون الشاة ولبنها وسمنها، ويزعم الحاج منهم أنه يعظم حجَّه بذلك، فقال المسلمون: نحن أحق بذلك؛ فأنزل الله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: من اللحم والدسم وغيرهما ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾ فالإسلام ينهى عن الإفراط والتفريط في الأكل والشرب وغيرهما؛ أي: لا تكن مسرفًا مبذرًا متجاوزًا للحد، ولا تقتِّر على نفسك، فتكن شحيحًا بخيلًا، أو متقشفًا متنطعًا، لا تتجاوز الحدود في كلِّ حال.

يقول علي بن الحسن بن واقد: إن رب العالمين جمع الطب كلَّه في نصف آية فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: لا تتجاوز حدود الاعتدال في كلِّ شيء، فالله تعالى لا يحب المتجاوزين في الطعام والشراب وغيرهما، ولا تحرِّموا على أنفسكم ما لم يحرمه الله، **وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:**

١- عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: **«كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مَخِيلَة ولا سرف، فإن الله يحب أن يَرَى أثر نعمته على عبده»**[١].

٢- وعن المقدام بن معدي كرب الكندي قال: سمعتُ رسول الله ﷺ قال: **«ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان فاعلًا لا محالة؛ فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنفَسه»**[٢].

وقد جمعتِ الآية أصولَ حفظ الصحة من جانب الغذاء، ونهت عن الإسراف، فهي إرشاد واستحباب، وليست نهي تحريم بقرينة الآية التالية ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ

---

(١) «المسند» (٢/ ١٨٢) برقم (٦٦٩٥، ٦٧٠٨) بإسناد حسن وانظر «سنن النسائي» (٥/ ٧٩) برقم (٢٥٥٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٦٠٥) وابن أبي شيبة (٨/ ٤٠٥).

(٢) «المسند» (٤/ ١٣٢) برقم (١٧١٨٦) رجاله ثقات و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٦٧٦٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٣٤٩) و«المستدرك» (٤/ ٣٣١) وابن حبان (٢/ ٤٤٩) و«سنن الترمذي» (٤/ ٥٩٠) برقم (٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٩٣٩).

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ ولأن مقدار السرف لا ينضبط، وهو يختلف باختلاف أحوال الناس، والمظهر الحسن والملابس الجميلة ليست من الكبر في شيء.

٣- فعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(١).

٤- وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صلى أحدكم فلْيلْبس ثوْبيه، فإن الله ﷻ أحق مَن تُزيّن له، فإن لم يكن له ثوبان فليأتزر إذا صلَّى، ولا يشتمل أحدكم في صلاته اشتمال اليهود**»(٢).

٥- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يُصلينَّ أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء**»(٣).

٦- وعن بريدة ﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ أن يصلي الرجل في لحاف لا يتوشح به، ونهى أن يصلي الرجل في سراويل وليس عليه رداء(٤).

٧- وفي حديث الأحوص عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ في ثوب دون، فقال: ألك مال؟ قال: نعم، قال: من أيِّ المال؟ قال: قد أتاني الله الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: «... **فإذا آتاك الله مالًا فلْيُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته**»(٥).

٨- وأخرج الإمام أحمد وغيره عن أبي أمامة ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ على مشيخة من الأنصار بيض لحاهم، فقال: «**يا معشر الأنصار، حمِّروا وصفِّروا وخالفوا أهل الكتاب**» فقلنا: يا رسول الله، إن أهل الكتاب يتسَرْوَلُون ولا يأتزرون، فقال رسول الله

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٤٧).

(٢) الطبراني في «الأوسط» (٩٣٦٨) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٢٣٦) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٦٩).

(٣) البخاري (٣٥٩) ومسلم (٥١٦) وأبو داود (٦٢٦) والنسائي (٧٦٨) وغيرهم.

(٤) «صحيح سنن أبي داود» (٥٩٤) والبيهقي (٢/ ٢٣٦)، وهو في سنن أبي داود (٦٣٦) وإسناده حسن.

(٥) «صحيح سنن أبي داود» (٣٤٢٨). والنسائي (٥٢٢٣) وصحيح النسائي (٤٨١٩) ومشكاة المصابيح (٤٣٥٢) والروض النضير (٨٥٢).

ﷺ: «**تسرْوَلُوا وائتزروا وخالفوا أهل الكتاب**» قلنا: يا رسول الله، إن أهل الكتاب يتخفَّفون ولا ينتعلون، فقال: «**(تخففوا وانتعلوا وخالفوا أهل الكتاب**» قلنا: يا رسول الله، إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم (أي: لحاهم) ويوفرون سابلهم (أي: شواربهم) فقال: «**قصوا سبالكم، ووفروا عثانينكم، وخالفوا أهل الكتاب**»[1].

الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ حَرَّمَ الطَّيِّبَاتِ

٣٢- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً[2] يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

هذا إنكار من الله تعالى على من تعنَّت وحرَّم على نفسه وعلى غيره اللباس المشروع والطيبات من الرزق، لأن التحليل والتحريم حق لله وحده، وقد وسع الله على عباده ليستعينوا بالمآكل والمشارب والملابس على طاعته وعبادته، ومن استعان بها على معصية الله فإنه يُسأل عنها يوم القيامة ويُعاقب، والمؤمنون ينتفعون - بفضل الله تعالى - ويعلمون أن هذه الطيبات، من نعم الله عليهم، وهكذا:

فبعد أن بيَّن سبحانه أولًا أن اللباس نعمةٌ من الله تعالى، وثَنَّى بإيجاب التستُّر عند كل مسجد، ثَلَّثَ بالإنكار على من حرَّم الزينة والتمتع بالطيبات، ولا يجوز لأحد أن يحرم - برأيه- ما خلقه الله للناس من الزينة ولا من الطيبات؛ لأن التحليل والتحريم من خصائص الله وحده، وقد عاب المشركون على المسلمين لما ستروا عوراتهم وهم يطوفون بالبيت، فقال الله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: مَن حرم عليكم اللباس الحسن، الذي جعله الله زينة لكم، من كل ما زينته الشريعة واستحسنته؟ ومَن حرم عليكم التمتع بالحلال الطيب من رزق الله ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾؟

لقد أحل الإسلام للمسلم أن يتجمل ويتزين ويلبس كلَّ ما أحله الله له، وحرَّم من اللباس: الحرير ولباس الشهرة، والملابس الخاصة بالكفار، والذهب بالنسبة للرجل، كما

---

(١) «المسند» (٢٢٢٨٣) قال محققوه: إسناده صحيح، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٩٢٤) مختصرًا.

(٢) قرأ نافع برفع التاء من (خالصة) على أنها خبر (هي) و (للذين آمنوا) متعلق بخالصة، وقرأ الباقون بالنصب على الحال من الضمير المستتر في الظرف.

جاء النص بتحريم ذلك على الرجال، وما عدا ذلك فهو حلال، يلبس المسلم ما شاء الله له، ويأكل ما شاء الله له، من كل ما أحله الله، ويترك وما حرم الله من الذبائح كالميتة ونحوها من غير سرف ولا تبذير ولا بخل ولا تقتير ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس: ٥٩].

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أن هذه الطيبات وهذه الزينة خلقها الله بالأصالة للمؤمنين في الدنيا، والكفار يشاركونهم فيها بالتبع، فإذا كان يوم القيامة فإنها تكون للمؤمنين وحدهم، لا يشاركهم فيها أحدٌ، فهي ﴿خَالِصَةً﴾ لهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فكل ما أحله الله من المطاعم والمشارب والملابس حقٌّ للمؤمنين في الدنيا يشاركهم فيه غيرُهم، وهو حقٌّ خالصٌ لهم يوم القيامة، قد خلقه الله تعالى لمَن آمن به وعَبَدَه.

وبمثل ذلك نبيِّن الحلال والحرام لمَن يفقهون ما يُبيَّن لهم ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى صِدْقِ محمدٍ ﷺ، وقد ميَّزنا ذلك ووضحناه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتدبرون حِكْمَةَ الله ويفقهون تشريعه.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طَلحة عن ابن عباس ﷺ في معنى الآية قال: شارك المسلمون الكفار في الطيبات؛ فأكلوا من طيبات طعامها، ولبسوا من خيار ثيابها، ونكحوا من صالح نسائها، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء[1]، وليس على المؤمنين تبعات يوم القيامة من جراء تناول الطيبات في الدنيا، بخلاف الكفار فإنهم يُسألون عنها، ويُعاقبون على تناولها؛ لأنهم كفروا بنعم الله عليهم.

والمعنى: قل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين يطوفون بالبيت عرايا، ويحرمون على أنفسهم ما أحله الله من الطيبات: مَن حرم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لكم لنفعكم، والمستلذات من المآكل والمشارب؟ فإن هذه الزينة وهذه الطيبات مخلوقة بالأصالة للمؤمنين، وستكون خالصة لهم يوم القيامة، لا يشاركهم فيها أحدٌ؛ لأن الله تعالى حرَّم الجنة على الكافرين، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) الطبري (١٠/١٥٨) وابن أبي حاتم (٨٣٩٢).

تَحْرِيمُ الْفَوَاحِشِ وَالشِّرْكِ وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

٣٣- ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ[١] ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ[٢] بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ذكرت هذه الآية خمسة أمثلة لِمَا حرّمه الله تعالى على خلقه وهي:

١- فواحش الذنوب. ٢- والإثم. ٣- والبغي.

٤- والشرك بالله تعالى. ٥- والقول على الله بدون علم.

وبدأت الآية بذكر الفواحش، لأنها تردّ على ما جاء في الآية السابقة ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ وزاد على ذلك فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم بينت الآية أن الله تعالى قد حرّم ما هو دون الفواحش: كالإثم وصغائر الذنوب واللمم، وحرّم ما هو أكبر من الفواحش، كالشرك بالله تعالى، والكذب عليه، وتحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، وكله تقوُّل على الله تعالى بغير علم ولا دليل.

والمعنى: أما الذي حرَّمه ربُّ العالمين على خَلْقِه في كل شريعة من الشرائع، فهو: **أولًا**: الفواحش، كالزنى والربا واللواط، فهو من الفواحش، سواء في ذلك ما ظهر منها وما بطن، من كبائر الذنوب التي لها حدٌّ شرعيٌّ، والتي لا حدَّ لها، يستوي في ذلك المعلَن منها، مما يتعلق بحركات البدن، والخافي مما يتعلق بحركات القلوب.

ومن الفواحش الخفية: الضغينة والكبر والعُجْب والرياء والنفاق والحسد والبغضاء واتخاذ الخليلة، وسائر الذنوب التي لا يطلع عليها إلا ربُّ العالمين.

ومن الفواحش الخفية أيضًا: ازدراء الناس، إذ ربما تجد إنسانًا قصير الثياب، كثّ اللحية، ذا مظهر إسلامي، ويحمل في قلبه كِبْرَ فرعون، إذا ألْقيتَ عليه السلام لا يحرك

---

(١) سكن الياء من (ربي الفواحش) حمزة، وفتحها الباقون، والجميع بإسكانها عند الوقف عليها.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمر ويعقوب (يُنَزِّلَ) بتشديد الزاي، والباقون بالتخفيف.

شفتيه، وإذا كان كتفه بجوار كتفك في مصعد أو مكتب أو درَج، لا يتفوَّه بإلقاء السلام عليك، ويصعِّر خده عنك، فهذه فواحش خفية تنطوي عليها النفس البشرية.

أما الفواحش الظاهرة فهي واضحة معلومة، كالسبع الموبقات ونحوها، والإسلام يأخذ بظواهر الأمور، لنا ما ظهر منها، وعند الله ما خفي، وهو يحاسب عباده على أقوالهم وأفعالهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾

ثانيا: ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ وهو صغائر الذنوب، أو ما يعم الذنوب كلها مما يؤثِّم فاعلها، وتوجب له العقوبة من حقوق الله تعالى.

ثالثًا: ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: وحرم الإسلام البغي، وهو الظلم وتجاوز الحد، والتعدي على الناس، وأكل حقوقهم، والبغي عليهم في دمائهم وأعراضهم وأموالهم، فيدخل في هذا كل الذنوب المتعلقة بحق الله تعالى وحق العباد.

رابعًا: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ وحرّم الإسلام الشرك بالله، وهو أعظم الفواحش وأعظم الآثام، وأعظم الظلم.

وليس في الشرك بالله تعالى حجة ولا سلطان يُحتج به، وإنما أنزل الله تعالى الحجة والبرهان على التوحيد، وقد أفرد الشرك بالذِّكر؛ للتنبيه على عظم قبحه.

خامسًا: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي وحرم الإسلام عليكم أن تقولوا على الله بغير علم في أسمائه وصفاته، وأن تحرموا ما أحل الله، أو تُفْتُوا بغير علم ولا دليل، وأن تنسبوا إلى الله الشريك والولد، وتشرعوا لأنفسكم ما لم يشرعه ا لله سبحانه.

أي: وكما حرَّمَ سبحانه قبائحَ الأعمال الظاهرة والخفية، وحرَّم جميع المعاصي، وكل ما يجانب الحق؛ كالاعتداء على الناس، وظلم النفس والآخرين، حرم كذلك أن تنسبوا إلى الله تعالى ما لم يشرعه افتراء وكذبًا؛ كنسبة الولد والشريك إلى الله تعالى، وتحريم بعض الحلال من الملابس والمآكل وغيرهما، قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقد جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا أحد أغير**

من الله تعالى، فلذلك حرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن»[١].

وفي حديث المغيرة بن شعبة أن سعد بن عبادة ﷺ قال: لو رأيتُ رجلًا مع امرأتي لضربْتُه بالسيف، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني؛ ومن أجله حرَّم الفواحش ما ظهر وما بطن، ولا شخص أغير من الله»**[٢].

ومن أصاب شيئًا من الفواحش فلْيستتر بستر الله، ولا يجهر بمعصيته، ويسارع في التوبة إلى الله تعالى.

وأصل الغيرة ثوران القلب وهيجان الحفيظة؛ بسبب المشاركة فيما يختص به الإنسان، ولا يرضى أن يشاركه فيه أحدٌ، وغيرة الله تعالى مَنْعُهُ لهذا الفعل وتحريمه إياه.

وهذه الآية تبين ما حرمه الله تعالى على الناس، بعد بيان ما حرمه الناس على أنفسهم، فهي تجمع أصول أحوال الناس فيما يرتكبونه من الخطايا في مقابلة ما كان يفعله أهل الجاهلية من الفواحش والذنوب.

وهكذا: قل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين ضيقوا على أنفسهم ما وسَّعه الله: إن ما حرَّمه الله عليكم في كتبه، وعلى ألسنة رسله هو **خمسة أنواع** من الذنوب؛ سبق بيانها، وهي:

أولًا: كل ما كان قبيحًا من الأقوال والأفعال في السر والعلن، ما ظهر للناس وما خفي عنهم.

ثانيًا: المعاصي كلها، من الصغائر والكبائر، فالإثم أعم من الفاحشة، وقُدِّمت الفواحش للاهتمام بالتحذير منها، قبل التحذير من جميع الذنوب، ولأن سياق الآيات يتطلب ذلك.

ثالثًا: البغي؛ وهو الاعتداء على حق الناس وظلمهم والتطاول عليهم؛ بسلب أموالهم أو الكبر والتحقير والتنقيص من شأنهم، وما كان بوجه حقٍّ لا يُسمى بغيًا، ولكنه أذى.

---

(١) البخاري برقم (٤٦٣٤، ٥٢٢٠، ٧٤٠٣) ومسلم (٤/٢١٣) برقم (٢٧٦٠) و«المسند» (١/٣٨١) (٣٦١٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في «الكبرى» (١١١٨٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٢٠، ٦٢١) من حديث ابن مسعود، والدارمي (٢/١٤٩) والبغوي (٢٣٧٣) وابن حبان (٢٩٤).

(٢) البخاري (٦٨٤٦، ٧٤١٦) ومسلم (١٤٩٩) وابن أبي شيبة (٤/٤١٩).

رابعًا: الشرك بالله تعالى في عبادته؛ إذ لا دليل يشتبه على الناس في عدم استحقاق غير الله تعالى بالعبادة، فَذِكْرُ السلطان في الآية بيان للواقع.

خامسًا: القول على الله بغير علم؛ بتحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، أو الكذب والافتراء على الله

. قال تعالى مبيِّنًا مصير الأمم والأفراد الذين ارتكبوا الفواحش والآثام، وأشركوا بالله، وبَغَوْا في الأرض بغير الحق، وقالوا على الله بغير علم:

٣٤- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ[١] سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

لقد خلق الله الإنسان وأسكنه الأرض، وجعل له أجلًا لا يتقدم عليه ولا يتأخر، سواء في ذلك الأفراد أوالأمم.

وقد كان الكفار يستعجلون نزول العذاب بهم؛ فأخبرهم الله تعالى بأن لكل جماعة اجتمعت على الكفر بالله، وكذَّبت رسل الله، وقتًا معينًا لحلول العقوبة بإهلاكهم واستئصالهم، فينتهي بذلك الأمد المقدر لقوتها في الأرض واستخلافها فيها، فإذا حان هذا الوقت المحدد المرسوم؛ فإنهم لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

ويصح أن يكون المراد بالأجل هو الحياة و العمر حين تحضر الوفاة و ينتهي الأجل؛ وذلك لتستيقظ النفوس، وتتنبه القلوب الغافلة، فبيَّن سبحانه أن لكل فرد، ولكل جيل، ولكل أمة أجل ينتهي إليه، لا يتأخر لحظة ولا يتقدم، فكما ينطبق هذا على الأمم والجماعات ينطبق على الأفراد، والساعة مَثَلٌ يراد به أقل مدة وأقل زمن، ثم يحاسبهم رب العالمين على ما قدمت أيديهم، وما أنتم إلا أمة من الأمم، لكم أجل سيأتي حينه.

والمراد بالأمة في الآية: الجماعة التي اشتركت في عقيدة الشرك بالله تعالى، أو في تكذيب الرسل، وليس المراد بالأمة الجماعة التي يجمعها نسب أو لغة أو زمان أو مكان، وإنما المراد: جماعة يجمعها رسول أُرسل إليهم فكذبوه، وقد أمهل الله هذه الأمة؛ فلم يهلكها عن بَكْرَةِ أَبِيهَا كما حدث لبعض الأمم قبلهم؛ رحمةً من الله تعالى، وإجابة لدعوة

---

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه وحمزة عند الوقف بإبدال الهمزة ألفًا من (يستأخرون)، والباقون بتحقيقها ساكنة.

نبيها «بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبده الله لا يشرك به شيئا»[(١)].

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف]

وقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]

وفي هذا إشارةٌ إلى ما جاء في أول السورة من قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف]

وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء].

النِّدَاءُ الرَّابِعُ: أَخْذُ الْعَهْدِ عَلَى بَنِي آدَمَ بِتَصْدِيقِ الرُّسُلِ

٣٥- ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ[(٢)] رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ[(٣)] عَلَيْهِمْ[(٤)] وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أخرج الله آدم من الجنة، فتناسل وكثرت ذريته، وأرسل الله إليهم رسلا وأنزل عليهم كتبا، يقصُّون عليهم آيات الله ويبيِّنون لهم أحكامه، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وقد وعد الله المؤمنين بالجنة، وتوعد الكافرين بالنار.

وهذا النداء موجَّهٌ إلى البشرية جميعًا، كالنداءات السابقة، فأبناء آدم مخاطبون جميعًا في هذه الآيات؛ الأسود والأبيض، العجمي والعربي، الشريف والوضيع، الرئيس والمرؤوس.

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ إذا جاءكم رسلي من أقوامكم وجنسكم يتلون عليكم آيات ربكم، ويبينون لكم البراهين على صِدْقِ ما جاؤوكم به، فأطيعوهم واستجيبوا لهم، وهذا عَهْدٌ من الله لأبناء آدم، وهو شرطُ الخلافة في الأرض

﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: حين يرسل الله لكم رسلًا، يقصون عليكم آياته، فتتلو الرسل كتاب الله على الأمم، وخاتمهم محمدٌ ﷺ حين يبلغ القرآن إلى أمته.

---

(١) من حديث عائشة في البخاري (٣٢٣١، ٧٣٨٩) ومسلم (١٧٩٥) من حديث طويل.

(٢) أبدل همزة (يأتينكم) ألفًا ورش وأبو عمرو بخلْف عنه وأبو جعفر، وحققها غيرهم.

(٣) قرأ يعقوب بفتح الفاء من (خوفَ)، والباقون برفعها منونة.

(٤) ضم الهاء من (عليهم) حمزة والكسائي وخلف ويعقوب، وكسرها الباقون.

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ أي: فإن مَن اتقى الشرك، وعمل الطاعات، واجتنب المحرمات، وأصلح ما أفسد بالإيمان والعمل الصالح -فإنه لا يحزن على ما فاته في الدنيا، ولا يخاف على مستقبله في الآخرة

﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لا يخافون من الشر الذي يخاف منه غيرهم، لا يخافون من المستقبل وما يحدث فيه من أحداث، ولا يحزنون على ما مضى وما كان فيه من أعمال وأقوال، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام والسعادة الأبدية.

وقد أبلغ الله تعالى الناس هذا الخطاب على لسان كلِّ نبي من لدن آدم إلى محمدٍ ﷺ، والرسالة بعده منتفية؛ إذ هو الخاتَم الحاشر العاقب، وما من نبي إلا قد بلَّغ أمته وأمرهم أن يُبلغ الشاهد منهم الغائب. وقال تعالى عن الفريق الآخر، المقابل للمتقين المصلحين:

٣٦- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أما الكفار المكذبون بدلائل التوحيد المتكبرون على اتباعها، فلا آمنت قلوبهم ولا انقادت جوارحهم، فإن مصيرهم إلى النار، يمكثون فيها ولا يخرجون منها أبدًا، لأنهم استهانوا بآيات الله وكذبوها ولم يعملوا بما فيها.

وفي الآيتين إخبارٌ لبني آدم أن رسل الله قد بلَّغوا الرسالة وأدوا الأمانة، فعلى المرسَل إليهم أن يطيعوهم؛ حتى يفوزوا برضى خالقهم، فالخطابُ لجميع الأمم قديمها وحديثها، وآخرهم محمدٌ ﷺ وأمته.

المُشْرِكُونَ وَالمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللهِ يَأْخُذُونَ حَظَّهُمْ فِي الدُّنْيَا

٣٧- ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا(١) يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

لا أحد أظلم ممن نسب لله الشريك والولد، وقال عَلَى الله بغير علم، وكذّب بآيات الله، وظل كذلك حتى إذا جاءتهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وسألوهم موبخين

---

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا)، والباقون بضمها.

لهم: أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها في الدنيا من دون الله، إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة عنكم؟ فأجابوهم قائلين: لقد غابوا عنا في ساحة المحشر، فلم نرهم، وليسو مُغْنِين عنا من عذاب الله من شيء، وشهدوا على أنفسهم أنهم مستحقين للعذاب المهين الدائم.

هذا: وقد كان المشركون يطوفون بالبيت وهم عرايا، ويقولون: وجدنا آباءنا كذلك، والله أمرنا بهذا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وهكذا سائر المشركين والعصاة إلى يوم القيامة، ممَّن يحللون ما حرم الله، أو يحرمون ما أحل الله، ويشرِّعون في دين الله ما ليس منه، وينسبون ذلك إلى آبائهم، أو ينسبونه إلى الله ﷻ، وكذلك اليهود والنصارى الذين يفترون على الله الكذب؛ فينسبون له سبحانه الشريك والولد؛ افتراءً وكذبًا على الله سبحانه.

والآياتُ بعد ذلك تبيِّن أن افتراء الكذب على الله قد يكون بتحريم ما أحل الله، أو بتحليل ما حرم الله، أو بتحكيم غير شرع الله، أو بنسبة الشريك والولد إلى الله سبحانه، وهذه الأخيرة أبشع الجرائم وأقبح الذنوب، فلا يوجد أحد أظلم ممَّن يفتري على الله الكذب؛ فيُشرِّعُ في دين الله ما ليس منه، أو يَنْسِبُ إلى الله سبحانه ما لا يليق بجلاله.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أشد ظلمًا ولا أعظم جُرمًا ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ اختلقه بنسبة الشريك والولد إليه سبحانه، فقال: عيسى ابن الله، أو قال: عزير ابن الله أو شرع في دين الله ما ليس منه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ المنزَّلة على نبيه محمدٍ ﷺ، فلم يؤمن بها ولم يعمل بمقتضاها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ يفيد أن أهل الظلم والشرك **فريقان**:

١- فريق منهم افترى على الله الكذب، وهم السادة والكبراء الذين شرعوا لغيرهم من الدين ما لم يأذن به الله، ونسبوه إلى الله تعالى وهم يعلمون، وهذا الفريق من السابقين مثل: عمرو بن لُحي، وأبي كبشة.

٢- وفريق آخر كذَّبُوا بآيات الله، ولم يفتروا على الله الكذب، وهم عامة أهل الضلال والكفر في كلِّ زمان ومكان.

وكلا الفريقين لا أحد أشد ظلمًا منهما، سِيَّمَا مَن جَمَعَ بين تشريع الضلال للناس،

وتكذيب محمدٍ ﷺ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]

فلا شك في أن مَن جَمَعَ بين الثلاث هو أظلمُ مِن كلِّ مَن انفرد بخَصْلَةٍ منها.

وهؤلاء الذين كذبوا على الله، أو كذبوا بآياته، يصيبهم يوم القيامة ما يكرهونه من العذاب الذي يفرُّون منه، وَفْق ما أخبر الله به بمقتضى علمه الأزليّ أنهم يخلدون في نار جهنم دائمًا وأبدًا، بعد أن أمهلهم الله في الدنيا، وأخذوا نصيبهم من الرزق والعمل والأجل.

فمع كفر الكافرين فإن الله تعالى قد أنعم عليهم بالمال والبنين ومُتَع الحياة، وهم لا يستحقون هذه الحياة، ولا يستحقون ما أودع الله فيها من نِعَمٍ على خَلْقِه، ولكن الله سبحانه يعطيهم هذه النعم، ويعطيهم ما قُدِّر لهم في الدنيا من رزق، ومِنْ عَمل، ومِن أجل؛ كي يتوبوا ويعودوا إلى الله جل شأنه، وهذا معنى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حيث يُكتب للإنسان رزقه وأجله وشقي أو سعيد، وهو جنينٌ في بطن أمه، كما صحَّ ذلك في الحديث.

فالكتابُ: هو اللوح المحفوظ، وما تكتبه الملائكة من أعمال الخَلْقِ، **والنصيب**: هو ما سبق في علم الله من أعمال الخير أو الشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ لَا مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس]

حال الكفار عند قبض الأرواح:

أي: أنهم مع كفرهم يأخذون ما قُدر لهم في الدنيا من أعمال، ومن أرزاق، ومن آجال، ويظلون كذلك حتى تأتيهم ملائكة الموت، ويكون المشهد عند الاحتضار للموت وانقضاء الأجل أسوأ ما يكون.

وهذا تصويرٌ لحالهم عند قبض أرواحهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ قالوا: وهم ملَك الموت وأعوانه، حيث يدور بين الكافر وبين رسل الله هذا الحوار، تقول لهم الرسل: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ أين دعواكم الكاذبة التي نسبتموها إلى الله سبحانه؟ وأين آلهتكم وأولياؤكم في الدنيا الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم عند الله يوم

القيامة؟ أين هم في هذا الموقف الحاسم وهذا الظرف العظيم؟ حين يُسأل المشركون في ساحة الحشر والنشر هذا السؤال؛ فيجيبونهم قائلين: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ فلا نراهم في هذا الموقف، وهم لا يعلمون لنا مكانًا، ولا نعتقد أنهم ينفعوننا أو يضروننا.

لقد غابوا عن أعيننا؛ فلم نرهم في ساحة الحشر، وفي هذا اعترافٌ منهم بأنهم عبدوهم في الدنيا، وفي موقف آخر يَكْذِبُون ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وفي هذا الموقف يشهدون على أنفسهم بالكفر ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ اعترفوا بالكفر بعد أن علموا أنه لا محيصَ من الاعتراف به، وحينئذٍ يصل إليهم حَظُّهم من العذاب الأخروي، الذي قُدِّر لهم وكتب عليهم في اللوح المحفوظ.

الْكُفَّارُ يَتَلَاوَمُونَ وَهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ

٣٨- ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا[١] فَـَٔاتِهِمْ[٢] عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ[٣] قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ[٤] ﴿٣٨﴾﴾

ثم ذكر الله سبحانه ما يقوله للكفار يوم القيامة بواسطة ملائكة العذاب، والقرآن الكريم يطوي الزمان، ويطوي المكان، ويأخذنا من مشهد الاحتضار للموت إلى مشهد الدخول في النار، كأنما يُؤخذ هؤلاء الكفار من الدار إلى النار، يطوي القرآن الكريم قصة الموت، وقصة البعث، وقصة الحشر والحساب، وينتقل إلى مشهد حضور الكفار عند النار.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ﴾ أي يُقال لهؤلاء الكفار يوم القيامة، الذين افتروا على الله الكذب،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة ياء مفتوحة من (هؤلاء أضلونا)، والباقون بتحقيقها.

(٢) قرأ رويس بضم الهاء من (فآتهم)، والباقون بكسرها، وقرأ ورش من طريق الأزرق بالقصر والتوسط والمد في الهمزة، وقصرها الباقون.

(٣) عدّ قوله تعالى (من النار) آية، المدني الأول والأخير والمكي، وتركها بقية علماء العدد وهم: البصري والكوفي والشامي.

(٤) قرأ شعبة بياء الغيبة في (لا يعلمون) والضمير يعود على الطائفة السائلة، أو عليهما معًا، وقرأ الباقون بتاء الخطاب، والمخاطَبُ هم السائلون.

وجعلوا له شريكًا من خَلْقِه، وكذبوا بآيات الله، يقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾ أي: مضت على ما مضت عليه من الكفر والتكذيب والاستكبار، فاستحق الجميع الخزي والبوار، فالأمة المتبوعة تتبرأ من الأمة التابعة؛ لأنها زادت ضلالها، والأمة التابعة تلعن الأمة المتبوعة؛ لأنها كانت سببًا في عذابها؛ أي: ادخلوا النار في جملة جماعات من أمثالكم في الكفر، قد سلفت من قبلكم، فانضموا إلى زملائكم ممَّن سبقوكم في الكفر ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ ودخلوا النار قبلكم، الحقوا بهم وانضموا إليهم ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ وادخلوها جميعًا، فكلكم سواء.

وقدم الجن على الإنس؛ لأنهم أعرق في الكفر، وإبليس أصل الضلال والإغواء.

وهذه الآية نَصٌّ في أن كَفَرَةَ الجن في النار، ومعنى ذلك: أن المؤمنين منهم في الجنة، وأنهم مُكلفون مبعوثون مُثابون على أعمالهم.

ويراد بالأمم: الجماعات والأحزاب، وأهل الملل الكافرة من الجن والإنس.

ثم وصف الله أحوالهم في النار فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ﴾النار ﴿أُمَّةٞ﴾ من الأمم الكافرة، وكلما دخلت النار جماعة من الجماعات الكافرة ﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ السابقة عليها في دخول النار؛ أي: كلما دخلت النار جماعة من أهل ملة لعنت نظيرتها التي ضلت بسبب الاقتداء بها، فيلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والصابئون الصابئين، والعلمانيون العلمانيين، والملحدون الملحدين، . . . وهكذا.

لقد أغوى إبليس آدم عليه السلام، وأغوى ذريته، فدخل إبليس النار معهم، وكذا مَن أغواهم من ذرية آدم من الكفار، وهؤلاء منهم القادة والرؤساء، ومنهم الكبار والأغنياء، الذين كانوا قدوة سيئة لغيرهم، فهم يدخلون النار أوَّلًا؛ لأنهم المتبوعون من الأمم أو الجماعات أو الأفراد الذين زينوا لهم طاعة الشيطان؛ فأضلوهم عن الهدى، واتبعوا طريق الكفر والضلال الذي كانوا عليه، وهذه الأمم تتلاحق وتتتابع، حتى إذا اجتمعوا في النار وتلاحقوا واستقروا فيها جميعًا: القادة والرؤساء، والمقلّدين الأتباع، يبدأ التلاوم بينهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ أي: أدْرَكَ بعضهم بعضًا في النار، واجتمعوا جميعًا فيها، بدأ الخصام والجدال بين الأتباع والمتبوعين ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ أي المتأخرون منهم في

الدخول، وهم المقلدون التابعون، ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي الذين دخلوا النار أوّلًا وهم القادة والرؤساء من الأمم أو الجماعات، يقولون﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ إنهم يشكُون إلى الله إضلالهم إياهم، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

وهكذا تبدأ المهزلة والمأساة، فيكشف الموقف عن أحباب الدنيا أعداء الآخرة، حين يلعن بعضهم بعضًا، ويشمَتُ بعضهم في بعض، ربنا هؤلاء كانوا قدوة سيئة لنا، اتَّبعناهم في الكفر، واتبعناهم في الضلال، وكانوا كبارًا وأغنياء، أو كانوا رؤساء وقادة لنا، ربنا ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إنهم يطلبون من الله سبحانه أن يضاعف للمتبوعين الجزاء في النار؛ لأنهم أضلوهم وتسببوا في إغوائهم، وزينوا لهم الأعمال الخبيثة.

﴿قَالَ﴾ سبحانه ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أنتم وهم، لكل منكم عذاب مُضاعَف ومشدد في النار، والضعف يصْدُق على عشرة أمثال ودونها، كما بيَّن سبحانه في سورة غافر ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم القادة والمتبوعون ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨] فالجميع: التابع والمتبوع، الكل في النار، سابقون ولاحقون ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أن لكل ضعفًا، ولا تدركون أيها الأتباع ما لكل فريق منكم من العذاب والآلام، فإن مَن دعا إلى ضلالة كان عليه وزره ووزر مَن أضله بما لا ينقص من أوزارهم شيء.

ولا يعلم كلا الفريقين قَدْرَ ما أُعِدَّ لهم من عذاب الله، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء]

وقال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت]

وقال جل شأنه: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل].

وفي يوم القيامة يتبرأ هؤلاء من أولئك ويلعن كلٌّ منهم الآخر ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

[العنكبوت: ٢٥] وذلك لأن السبب الذي يمكِّنهم من إضلالهم، كونهم سادتهم وكبراءهم، والفقراء والضعفاء يُطيعون السادة والكبراء فيما يأمرونهم به.

وفي يوم القيامة يسأل الأتباع ربهم أن يضاعف العذاب للمتبوعين، مع أن مضاعفة العذاب لهم لا تنفعهم في شيء، ولا تخفف عنهم شيئًا من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف] قال تعالى:

٣٩- ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

أي قال الرؤساء للاتباع، وهم الذين دخلوا النار أوّلًا، أو قال المتبوعون للأتباع: أنتم لا فضل لكم علينا يقتضي تخفيف العذاب عنكم، فلم تنتفعوا حين جاءتكم الرسل، بل دمتم على الكفر، فنحن وأنتم سواء، نستوي في العذاب كما استوينا في البلاغ، لقد ضللتم كما ضللنا، وكفرتم كما كفرنا، مع وجود الرسل والكتب والعقل لنا ولكم، فلماذا لم تؤمنوا؟ فلا فضل لكم علينا، بل نستوي في الاستحقاق لعذاب الله، يقول سبحانه: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي بسبب ما ارتكبتم من المعاصي.

ومن المعلوم أن عذاب أئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى أعظم من ثواب الأتباع، قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

و المعنى: أن الله تعالى يذكر قول القادة لأتباعهم يوم القيامة، ويذكر قول الأتباع للقادة فيقولون لهم ذلك في مشهد التلاحم والعتاب، أو مشهد الخصام والجدال والتبرؤ، يوم يتبرأ كلٌّ من الآخر، ويتنصَّل منه، ويلقي بالتبعة واللوم على غيره.

هذا المشهد ذكره القرآن الكريم نحو عشر مرات، وهو مشهد التلاوم والتبرؤ بين أهل النار يوم القيامة؛ حيث قال تعالى:

١- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة].

٢- وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا

دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف].

٣- وقال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم].

٤- وقال جل شأنه: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

٥- وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ].

٦- وقال جل وعلا: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات]

٧- وقال أيضًا ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات].

٨- وقال ﷻ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص].

٩- وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر].

والمشهد نفسه يُذْكَر بإيجاز وبإسهاب من موقف لآخر، ومن سورة لأخرى، وهو يصور حالة الكفار حين يدخلون النار.

ويتلخص من مجموع هذه المواقف:

(أ) أن الكافر بعد دخوله جهنم يبحث كيف يخرج من النار، فهو يريد أن يُردَّ للدنيا مرة ثانية؛ ليتدارك ما فاته، ويعمل عملًا صالحًا ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧]

﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]

هل من عودة إلى الدنيا مرة أخرى؟ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أهل النار يتعاوَنَ في النار، ويصطلون بلهيبها ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أعدنا إلى الدنيا نعمل عملًا صالحًا ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾؟ فيكون الجواب ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: أعطيناكم عُمرًا وأجلًا طويلًا، اعتَبر فيه مَن اعتبر، وانتفع فيه مَن انتفع، واتعظ فيه مَن اتعظ، فلم تعتبروا ولم تنتفعوا ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ وهو الشيب، فالشعر حين يشيب يكون نذيرًا للموت، وحين يأتي نذيرُ الموت فإنه يكون علامةً للإنسان أنه قد دنا أجله، وعليه أن يقترب من الله سبحانه.

وقيل: إن النذير هو رسول الله ﷺ وكتابه الذي بين أيديكم ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن

نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] لقد تقطعت بهم أسباب العودة إلى الدنيا.

(ب) وبعد هذه المحاولة للخروج من النار، يذهبون إلى خزنة جهنم، كما يذهب السجين إلى حراس السجن يطلب منهم المساعدة، أن يخفِّفُوا عنه شيئًا من العذاب، بعد فَقْدِ الأمل في الخروج من السجن، فيذهب أهل النار إلى خزنة جهنم يسألونهم ذلك ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر] يطلبون منهم التخفيف من العذاب عنهم ولو للحظة، ولو لساعة، ولو ليوم واحد، أي شيءٍ يخفَّف عنهم من العذاب ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؟ فبلَّغوكم هذا وأخبروكم به ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠]

لا ينفعكم شيءٌ في هذا اليوم، وكلامكم لا يفيد، لقد انتهى وقته، وانتهى أوانه.

(ج) وبعد هذه المحاولة يذهب أهل النار إلى كبير الحراس، أو كبير الخزنة، يذهبون إلى (مالك) خازن النار، وحارسها الأكبر ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ما دام الأمر كذلك، ولا مفرَّ من عذاب الله، فإننا نريد أن نموت موتة واحدة، نريد أن نُهلَك، ولا يتجدد فينا العذاب بصفة مستمرة؛ فيجيبهم (مالك) بعد عام كامل ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف].

(د) ثم يحاول الكفار أن يَفْدوا أنفسهم من عذاب الله، كما يدفع الإنسان كفالة في الدنيا؛ فيفدي نفسه من الحبس بشيءٍ من المال أو نحوه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ [الزمر: ٤٧] أي: لو أنهم كانوا يملكون الدنيا في أيديهم، وكانت أموالها وجبالها ذهبًا؛ ليفدوا بها أنفسهم من عذاب الله لفعلوا ذلك، ولكنه لا جدْوى فيه.

(هـ) ثم يكون الجواب الأخير والمصير المحتوم كما صوره ربنا في قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج] ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]

لقد كنتم في الدنيا لا تصدِّقون باليوم الآخر وما فيه، وكنتم في غفلة حين تُتلى عليكم هذه الآيات، فتمرون عليها وكأن شيئًا لم يكن.

وفي هذا التلاوم بين المتبعين والمبتدعين موعظةٌ وتحذيرٌ لقادة المسلمين وكبرائهم ألا يكونوا قدوةً لغيرهم في الضلال والطغيان، والخروج على منهج الله، وتحذيرٌ لعامة الناس ألا يقلدوا غيرهم في الضلال، وأن يتبعوا سبيل الهدى والرشاد.

اسْتِحَالَةُ دُخُولِ الْجَنَّةِ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ

٤٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ[1] لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

تبيِّنُ هذه الآية استحالة دخول الجنة لمَن مات على كفره، فتسد عليهم أبواب الخير، وتبين أسباب حرمانهم من النجاة، والله سبحانه يبين أن الكافر الظالم المكذِّب بآيات الله، الذي افترى على الله الكذب، لا يُقبل منه عملٌ صالحٌ، ولا يُفتح لعمله الصالح أبواب السماء؛ لأن الأصل غير موجود، -وهو الإيمان- فما يترتب على الكفر من عمل صالح لا فائدةَ منه ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

فهو إذا دعا لا تُجاب دعوته، وإذا قال كلامًا حسنًا لا يُقبل منه، وإذا مات فإن روحه الخبيثة لا يُفتح لها أبواب السماء، إن العمل الصالح الذي يقدمه الكافر يُلَفُّ كالخرقة البالية، ويُضرب به وجهه، فإذا مات لا يدخل الجنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ فكفروا بها، وجحدوها واستكبروا عن الإيمان بها، ولم يصدقوا بالبراهين الدالة على وحدانية الله تعالى، ولم يعملوا بشرعه كِبْرًا واستعلاء، هؤلاء ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ بل تغلق دون أعمالهم، ودون أقوالهم، ودون دعائهم، فلا يُقبل منهم شيء، وتغلق السماء دون صعود أرواحهم إليها عند الممات كما في الحديث، فالله تعالى لا يصعد إليه من الأعمال إلا ما كان صالحًا طيبًا صادرًا من عبد مؤمن ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ولا يصعد إليه سبحانه إلا كل روح طيبة مؤمنة، فالأرواح الخبيثة كالأعمال الخبيثة، لا تفتح لها أبواب السماء، فالكافر إذا مات فإن روحه تصعد تريد العروج إلى ربها

---

(١) قرأ أبو عمرو بتاء التأنيث والتخفيف في (لا تفتح لهم)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بياء التذكير والتخفيف، وقرأ الباقون بتاء التأنيث والتشديد.

فتستأذن فلا يؤذن لها؛ وبالمقابل فإن أرواح المؤمنين تفتح لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله وتصل إلى حيث أراد في العالم العلوي، فتبتهج بالقرب من ربها وتحظى بجنته ورضوانه.

ففي حديث البراء بن عازب ﷺ ذِكْرُ قبض الروح الفاجرة والصعود بها إلى السماء، قال رسول الله ﷺ: «... **فَيَصعدون بها، فلا يَمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا، حتى يُنتهى بها إلى السماء الدنيا، فيُستفتح له، فلا يفتح**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا» ثم قرأ: «﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملَكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك ...» الحديث[(١)].

وأخرج ابن ماجة عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحًا، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فيفتح لها، فيقال: مَن هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ، وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فلا يُفتح لها، فيقال: من هذا؟**

---

(١) من حديث طويل أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧) برقم (١٨٥٣٤-١٨٥٣٦) إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح (محققوه) وأبو داود في الجنائز (٣٢١٢) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٧٥١) والطيالسي (٧٨٩) وابن أبي شيبة (٣/ ٣١٠) والنسائي (٤/ ٧٨) وابن ماجه في الجنائز (١٥٤٨) وابن أبي حاتم (٨٤٦٥) و«تفسير الطبري» (١٢/ ٤٢٤) وبرقم (١٤٦١٤) و«المستدرك» (١/ ٣٧) قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٣١٦): هذا حديث صحيح الإسناد، وصححه القرطبي وابن القيم والألباني.

فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنها لا تُفتح لك أبواب السماء، فيرسل بها إلى السماء، ثم تصير إلى القبر»(١).

وقد علَّق الله سبحانه دخول الكافر الجنة على أمرٍ مستحيلٍ؛ وهو دخول الجمل في ثقب الإبرة، وهو أضيق المنافذ، والجمل أكبر الحيوانات جسمًا عند العرب؛ ودخوله في ثقب الإبرة أمر مُحال، فكانَ هذا نفيًا لدخول الكافر الجنة على وجه التأبيد، حتى يدخل الجمل في خرم الإبرة، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾.

وقيل: إن المراد بالجمل هو الحبل الغليظ الذي تُجرُّ به السفن، بناءً على قراءة شاذة بضم الجيم وتشديد الميم مفتوحة(٢).

قال تعالى ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثم قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الظالمين الكافرين المكذِّبين الذين كَثُرَ إجرامهم واشتد طغيانهم. قال تعالى في وصف عذاب المجرمين الظالمين:

٤١- ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه عذابَ مَن ماتوا على الكفر والتكذيب، فبيَّن جل شأنه أنهم يفترشون نار جهنم ويلتحفون بها، فهي لهم فَرْشٌ وغطاء ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراشهم النار، وغطاؤهم أيضًا النار يلتحفون بها، فهي لهم فراش ومسكن ومضجع يتمهدونه، وهي لهم غطاء وستر، تغشاهم وتحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِن

---

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٦٢) كتاب الزهد، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، ورواه النسائي في التفسير برقم (٤٦٢) وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» برقم (٣٤٣٧) وأخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٤) برقم (٨٧٦٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وقال الشيخ أحمد شاكر في «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٢٤): وهذا خبر صحيح، ورقمه (١٤٦١٥، ١٤٦١٦) وصححه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧) ووافقه الذهبي وهو في «السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٤٤٢) وابن حبان (٣٠١٤).

(٢) وهي قراءة شاذة لابن محيصن، كما في «إتحاف فضلاء البشر» (١/ ٢٢٤).

فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

وهذا تصوير لهيئة أهل النار فيها، وهم يفترشونها ويلتحفونها، فهم مخلَّدون فيها أبدًا، وبمثل هذا العقاب الشديد نعاقب كلَّ مَن كفر بالله وأشرك به ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **والظالمون** في الآية: هم المشركون الذين عبدوا غير الله سبحانه.

دُخُولُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ وَنَزْعُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ ضَغَائِنَ

٤٢- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

وشأن القرآن الكريم أن يذكر الجنة إلى جوار النار، ويذكر الوعد إلى جوار الوعيد، والترهيب إلى جوار الترغيب، وقد ذكر القرآن في الآيات السابقة أحوال الكفار يوم القيامة، فناسب هذا أن يذكر سبحانه أحوال المؤمنين، وما أعدَّه لهم في جنات النعيم، فإذا كان أصحاب النار هم فيها خالدون، فإن المؤمنين الذين يعملون الصالحات في حدود طاقاتهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وجمعوا بين فعل الواجبات والمستحبات وترك المنهيات، هؤلاء هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون، ماكثون فيها أبدًا؛ لأنهم أقروا بوحدانية الله تعالى، وصدَّقوا رسوله ﷺ، وامتثلوا أمر الله واجتنبوا نهيه.

وجملة ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ جملة معترضة بين العمل الصالح وبين الجزاء المعد لهم في الآخرة وهو الجنة، وهذه الجملة تفيد أن الله سبحانه لم يكلف المؤمنين أن يعملوا فوق طاقتهم، وأن هذا العمل الذي أوصلهم إلى الجنة، هو في قدرتهم وطاقتهم ووسعهم، ودخولهم الجنة إنما هو بفضل الله ورحمته.

وقال سبحانه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]

وقال جل شأنه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج: ٧٨]

وقال عز وجل ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦ فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة. قال تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد استحق المؤمنون الصالحون الجنة وورثوها دون غيرهم؛ بسبب أعمالهم الصالحة قدر طاقتهم؛ جزاءَ طاعتهم لله تعالى وعصيانهم للشيطان، ولولا فضل الله ورحمته ما كان عملهم الصالح مكافئًا لنعمة واحدة من نعم الله عليهم في الدنيا؛ كنعمة السمع أو البصر، ومع هذا فقد قَبِلَ الله منهم جُهد المقلِّ، وكَتَبَ لهم الجنة برحمته.

قال أبو حيان: وفائدة التنبيه على أن ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم، فيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم ما فيها يُتَوَصَّلُ إليها بالعمل السهل من غير مشقة[١].

والمتصفون بالإيمان والعمل الصالح مخلدون في الجنة لا يحولون عنها ولا يزولون، ولا يبغون عنها حولا، لأنهم يرون فيها من ألوان النعيم ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه. قال تعالى:

٤٣- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ[٢] الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا[٣] وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا[٤] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ثم أخبر سبحانه عن نقاء قلوب أهل الجنة من الغل والحقد والحسد الذي كان موجودا في الدنيا حتى يكونوا إخوة متحابين، فإذا كان أهل النار يتلاعنون فيها، ويتبرأ بعضهم من بعض، وصدورهم تغلي بالأحقاد والضغائن، بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء أصدقاء، فإن أهل الجنة يكونون أُخْوَةً متحابين، ليس في قلوبهم غِلٌّ ولا حقدٌ ولا حسدٌ لبعضهم، كما

(١) «البحر المحيط» (٤/٢٩٨).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (تحتهم الأنهار) وضمهما حمزة والكسائي وخلف، وكسر الهاء وضم الميم الباقون، والجميع بسكون الميم عند الوقف على (تحتهم).

(٣) قرأ ابن عامر بحذف الواو، وفق رسم المصحف الشامي، من قوله تعالى: (وما كنا لنهتدي) على أن الجملة الثانية موضحة ومبينة للأولى، وقرأ الباقون بإثبات الواو على الاستئناف أو الحال.

(٤) قرأ أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وابن ذكوان بخلف عنه بإدغام الثاء في التاء من (أورثتموها)، والباقون بالإظهار، وهما لغتان.

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف] وكما جاء في الآية التي معنا.

قال الشيخ الشنقيطي: ذَكَرَ الله سبحانه في هذه الآية أنه جل وعلا ينزع ما في صدور أهل الجنة من الحقد والحسد الذي كان في الدنيا، وأنهم تجري من تحتهم الأنهار في الجنة، وذَكَرَ تعالى في موضع آخر أن نَزْعَ الغل من صدورهم يقع حال كونهم إخوانًا على سرر متقابلين آمنين من النَّصَبِ والخروج من الجنة، وهو قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر].

أحاديث وآثار في معنى الآية:

١- عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خَلَصَ المؤمنون من النار، حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيَتَقَاصُّون مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أَذِنَ الله لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده، إن أحدكم بمسكنه في الجنة أدلُّ منه بمنزله كان في الدنيا**»[١].

٢- وعن علي ﷺ قال: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[٢].

٣- وعن قتادة عن علي ﷺ قال: إني لا أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[٣].

٤- وعن السدي عن ابن عباس ﷺ قال: إن أهل الجنة إذا سبقوا إلى الجنة فبلَغوا، يجدون عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فيشربون من إحداهما -وهي عين السلسبيل- فينزع الله ما في صدورهم من غل، فهو الشراب الطهور، ويغتسلون من العين الأخرى -وهي عين التسنيم- فلن يشعَثُوا، ولن يشحبوا بعدها أبدًا[٤]

---

(١) «صحيح البخاري» بشرح الفتح ورقمه (٢٤٤٠) وانظر (٦٥٣٥) والطبري (١٤/٣٨).

(٢) أخرجه الطبري وعبد الرزاق بإسناد حسن «تفسير عبد الرزاق» (٢١٧/١) والطبري (١٠/١٩٩) وابن أبي حاتم (٨٤٦٧).

(٣) «تفسير الطبري» (١٢/٤٣٨) بإسناد مرسل؛ لأن قتادة لم يسمع من علي.

(٤) «تفسير البغوي» وابن الجوزي عن ابن عباس.

فتُشرق ألوانهم، وتصفو وجوههم، وتجري عليهم نضرة النعيم.

٥- وأخرج الطبري بسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ في قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡا۟ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: ٧٣] قال: حتى إذا انتهَوْا إلى بابها، إذا هم بشجرة يخرج من أصلها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فشربوا منها كأنما أُمروا بها، فخرج ما في بطونهم من قَذَرٍ أو أذًى أو قذى، ثم عمدوا إلى الأخرى، فتوضؤوا منها كأنما أمروا به، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلن تشعث رؤوسهم بعدها أبدًا، ولن تبلى ثيابهم بعدها، ثم دخلوا الجنة، فتلقتْهم الولدان كأنهم اللؤلؤ المكنون، فيقولون: أبشر، أعدَّ الله لك كذا، وأعد لك كذا وكذا، ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه جندل اللؤلؤ الأحمر والأصفر والأخضر، يتلألأ كأنه البرق، فلولا أن الله قضى أن لا يذهب بصره لذهب، ثم يأتي بعضهم إلى بعض أزواجه، فيقول: أبشري قدْ قدِم فلان ابن فلان، فيسميه باسمه واسم أبيه، فتقول: أنت رأيته، أنت رأيته! فيستخفها الفرح حتى تقوم، فتجلس على أسكفة بابها، فيدخل فيتكئ على سريره، ويقرأ هذه الآية ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾[1].

ومن آثار نزع الغل والحقد من صدور أهل الجنة أن أهل الدرجة الدنيا في الجنة لا يحسدون أهل الدرجة العليا، وذلك من تمام النعمة عليهم، حتى تكتمل لهم اللذة والسرور، ولا يحصل هذا إلا إذا رضي الإنسان بما هو فيه، ولم يتطلع إلى مَن هو أعلى منه درجة أو درجات ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ **والنزع**: قلع الشيء من موضعه، ونزع الغل من قلوب أهل الجنة إزالة ما كان في قلوبهم في الدنيا من الغل عند تلقِّي ما يسوؤهم من الناس، بحيث يُطهِّر الله نفوسهم عن الانفعال بالخواطر الشريرة، فلا تخطر لهم على بالٍ.

وليس الحسد من الغل، بل هو إحساس باطني آخر، وهذا التطهير من فضل الله تعالى ورحمته، فالغل والحقد والحسد والبغضاء، مرضٌ ينغِّص النفوس، وينغِّص القلوب ويشغلها، ويجعل الإنسان في هم وغم من إخوانه، وينكِّد عليه حياته، وهذا الأمر ينزعه الله ﷻ من قلوب عباده المؤمنين يوم القيامة، فلا يلج الغل على القلب المؤمن في

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٥) والضياء المقدسي برقم (٥٤١) قال محقق «المختارة»: إسناده صحيح، وقال ابن حجر في «المطالب العالية» (١٩٨): هذا حديث صحيح، وحكمه حكم الرفع؛ إذ لا مجال للرأي في هذه الأمور، وأخرجه ابن المبارك في الزهد ص٥٠٨ وما بعدها، وعبد الرزاق في تفسير سورة الزمر.

الآخرة، ولا يلج الحسد أو البغضاء على قلب مَن دخل الجنة.

جاء في الأثر: الغل على أبواب الجنة كمَبارِك الإبل، قد نزعه الله من قلب المؤمن.

فلا يجد في نفسه ضغينة أو حقدًا لأخيه المؤمن، وهذه نعمة من الله سبحانه، يسبغها على أهل الجنة، فقد أذهب الله ما في صدورهم من حقد وضغائن.

ومن كمال نعيمهم أنهم ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهذا نوعٌ من نعيم أهل الجنة، يفجرونها تفجيرًا حيث شاؤوا وأين أرادوا، إن شاؤوا في القُصور أو في الغرف أو في رياض الجنة من تحت الحدائق والأزهار في غير أخاديد، وهم في خيرات ونعيم لايحدها حدود.

أما أهل النار فإن ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: يفترشون النار ويلتحفون بالنار، وأهل الجنة تجري من تحت قصورهم الأنهار، وهم يلهجون بالحمد والثناء والاعتراف لله سبحانه، حيث وفقهم لهذا العمل الصالح، الذي كان مثوبته هذا الجزاء، وهو الجنة التي هداهم الله لها، إنهم يحمدون الله تعالى، ويعترفون بنعمته عليهم.

وأهل النار يتخاصمون ويتجادلون فيها، وكلٌّ منهم يُلْقِي بالتُّهمة والتبعة والمسؤولية على غيره، ويعترفون على أنفسهم بكفرهم ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ في حين يقول أهل الجنة وهم في الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ العمل الصالح الذي مثوبته الجنة، فقد من الله علينا بالإيمان وصالح الأعمال الموصلة إلى الجنان، وهدانا إلى جنة عدنان فأوحى إلى قلوبنا بمعرفة مكانها ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: ما كنا لنوفق إلى هذا الطريق المستقيم لولا هداية الله لنا ببعثة الرسل وإنزال الكتب.

ولهذا قال أهل الجنة: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأخبرونا بوعد أهل الطاعة، ووعيد أهل المعصية، وهذا صِدْقُ ما أخبر به الرسل، فمرجع الفضل منه وإليه سبحانه، هذا قولُ أهل الجنة.

والملائكة تنادي أهل الجنة؛ إكرامًا لهم ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: كنتم الوارثين لها بما قدمتموه من الإيمان والعمل الصالح.

والميراث: هو ما يأتي للإنسان بدون عوض، وحين ترث أباك فأنت لا تعطيه شيئًا على هذا الميراث، وهذا الميراث منحة وهِبَةٌ، يأتيك هكذا، دون جهد، وبدون مشقة، وبدون أن تقدم له عوضًا.

وكذلك الجنة، ميراث من الله سبحانه يمنحك إياها بلا عوض، وإلا فإن العمل الصالح الذي يعمله المؤمن، لا يقابِل نعمة واحدة أنعم الله بها على العبد من نعم الدنيا؛ لا يقابل نعمة البصر، ولا يقابل نعمة اللسان، ولا يقابل نعمة السمع، ولا يقابل حاسة الشم وهكذ.. ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[١].

قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف]

وفي هذا ثناءٌ من الله تعالى على أهل الجنة بأنه سبحانه أعطاهم هذا النعيم الخالد؛ لأجل أعمالهم الصالحة في الدنيا فرضى الله تعالى عنهم ورضوا عنه، وسلّمهم من عقابه.

و دخول المؤمن الجنة يكون بفضل الله تعالى ورحمته.

قال ﷺ فيما صح عنه من رواية عائشة ﷺ: «**سددوا وقاربوا، واعلموا أن أحدكم لن يُدخله عمله الجنة**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[٢].

و الإيمان مع العمل الصالح هو السبب لدخول الجنة، وهو سببُ ميراث المؤمن لمكان الكافر في الجنة، كيف؟

إن الله ﷻ جعل لكل إنسان مكانًا في الجنة ومكانًا في النار، فقد خَلَقَ الله الإنسان

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٣٢٤٤، ٤٧٧٩) وفي مسلم (٢٨٢٤).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٣، ٦٤٦٧) ومسلم (٤/ ٢١٦٩) برقم (١٧٧، ٢٨١٦، ٢٨١٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأحمد (٢/ ٢٥٦) برقم (٨٢٥٠، ١١٠١٠) وعن عائشة برقم (٢٦٣٤٣) والدارمي (٢/ ٣٠٥) وابن ماجه في «الزهد» (٤٢٠١).

مستعدًا بفطرته للخير والشر، وجعله حُرًّا مختارًا، فإن اختار طريق الخير فله الجنة، وإن اختار طريق الشر فله النار.

فإذا مات على الكفر ودخل النار -والعياذ بالله- فإن مكانه الذي كان مُعدًّا له في الجنة يأخذه المؤمن، فالمؤمن يرث الكافر في هذه الحالة، وكذلك الكافر يأخذ مكان المؤمن في النار، هذا هو الميراث الأخروي، وهذا هو الغبن الذي قال الله عنه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] أي: الذي يغبن فيه الكفار، ويأخذ المؤمنون نصيبهم في الجنة.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكرًا، وكل أهل النار يرى مقعده في الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فيكون عليه حسرة**»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ما من أحد إلا وله منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة**» زاد في رواية: «**فذلك قوله تعالى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**»(٢).

والقرآن يَعتبر المؤمن حيًّا، والكافر ميتًا؛ ولذا صح للمؤمن الحي أن يرث الكافر الميت، وقد جُعلت الجنة للمؤمنين ثوابًا لهم وجزاءً مستديمًا على أعمالهم.

جاء في صحيح مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، نادى منادٍ: إن لكم أن تَحْيَوْا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم**

---

(١) النسائي في تفسير سورة الزمر آية (٦٧) برقم (٤٧٤) وهو في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٥٤) وفي «تحفة الأشراف» برقم (١٢٤٩٢) و«تفسير الطبري» (٢/ ٤٤٠) برقم (١٤٦٦٥) وصححه الحاكم (٢/ ٤٣٥) ووافقه الذهبي وأخرجه أحمد (٢/ ٥١٢) برقم (١٠٦٥٢) بإسناد صحيح على شرط البخاري (محققوه) وهو في صحيح الجامع برقم (٤٥١٤)، والبخاري (٦٥٦٩).

(٢) الطبري (٦/ ١٨) وابن أبي حاتم وأحمد كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٩) وقال عنها: ورجاله رجال الصحيح، وقد سبق نحوه.

أن تَصِحُّوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تَشُبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قول الله ﷻ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»[١].

ودخول الجنة للمؤمنين بفضل الله تعالى ورحمته، وتقسيم المنازل والدرجات في الجنة يكون على قَدْرِ أعمالهم الصالحة في الدنيا التي يوفقهم الله إليها، ويهديهم إلى طريقها، فالكلُّ يدركه العبد برحمة الله تعالى وفضله.

قال القرطبي: ورثتم منازلها بعملكم، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله[٢].

وقال بعض السلف: أهل الجنة نجَوْا من النار بعفو الله، وأُدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته تعالى.

---

(١) أخرجه أحمد بنحوه دون الآية في «المسند» (٣/ ٩٥) برقم (٨٢٥٨) إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، والدارمي (٢/ ٣٣٤) ومسلم في الجنة برقم (٢٨٣٧) والترمذي في التفسير (٣٢٤٦) والنسائي في التفسير (٢٠٤) وابن جرير (٨/ ١٣٤) وابن أبي حاتم (٨٤٧٧) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١١٨٤) وصححه الحاكم (١/ ٢١٧) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٠٩).

ثَلَاثَةُ حِوَارَاتٍ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ

الْحِوَارُ الْأَوَّلُ: أَهْلُ الْجَنَّةِ يُحَاوِرُونَ أَهْلَ النَّارِ

٤٤- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ[(١)] فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ[(٢)] بَيْنَهُمْ أَن[(٣)] لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ثم أخبر سبحانه عما يحدث بين أهل الجنة وأهل النار من حوار، ففي سورة الأعراف أطول مشهد من مشاهد يوم القيامة في القرآن الكريم، وفي هذا المشهد حوارٌ بين أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف، الذين ذُكروا مرة واحدة في هذه السورة وحدها، وهذا الحوار يكون بعد أن يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ويجدوا صدق ما أخبرت به الرسل والكتب من الثواب والعقاب.

وقد ذكر الله ﷻ هذا المشهد في كتابه العزيز؛ ليبين لنا ونحن في دار الدنيا، في وقت السعة والمهلة قيمة الإيمان وأهميته، وخطر الكفر ووباله، وعاقبة كل منهما، حتى يتدارك العبد نفسه قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله.

فالحوار الأول يدور بين أهل الجنة وأهل النار بعدما استقر كل منهم في مكانه، فأهل الجنة يعلمون أن ما وعدهم به ربهم على ألسنة الرسل في كتبه المنزَّلة عليهم حقٌّ

---

(١) قرأ الكسائي بكسر عين (نعم) على لغة كنانة وهذيل، وقرأ الباقون بفتح العين، وهي لغة بقية قبائل العرب، وقد وردت (نعم) بكسر العين عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ وفي كتاب أبي حاتم عن الكسائي عن شيخ من ولد الزبير، قال: ما كنت أسمع أشياخ قريش يقولون: إلا (نعِم) بكسر العين ثم فقدتها بعده، وفيه عن قتادة عن رجل من خثعم قال: قلت للنبي ﷺ: أنت تزعم أنك نبي؟ قال: (نعِم) بكسر العين، وفيه عن أبي عثمان النهدي قال: سأل عمر عن شيء فقالوا: نعم، فقال عمر: النعم الإبل والشاء، قولوا: (نعِم) بكسر العين، «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٠٤).

(٢) قرأ الأزرق عن ورش وأبو جعفر بإبدال الهمزة واوًا مفتوحة وصلًا ووقفًا، ووافقهما حمزة عند الوقف، وذلك في كلمة (مؤذن).

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم ويعقوب وقنبل في أحد وجهيه بإسكان النون ورفع (لعنة) من قوله تعالى: (أن لعنة الله) على أن (أن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، و (لعنة) مبتدأ، وقرأ الباقون بتشديد النون ونصب لعنة على أنها اسم إن، والجار والمجرور متعلق بمحذوف.

وصدقٌ، وقد تحقق لهم ذلك النعيم الذي وعدهم الله إياه في الدنيا، ورأوه بأعينهم في الآخرة، وهم فيه يتمتعون، ويسألون أهل النار سؤال توبيخ وتقريع؛ ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ لأنهم كانوا في الدنيا يكذِّبونهم، ويكذِّبون لقاء الله تعالى في اليوم الآخر، ويكذِّبون البعث والحساب والجزاء.

ويكون هذا النداء بعد قيام الحجة على الكافرين، وثبوت فوز المؤمنين، وهو نداء يُسجل على أصحاب النار الخزي والحسرة والندامة حين يرون ما كذبوه في الدنيا أمرًا واقعًا، وحين يرون نعيم أهل الجنة بعدما وجد كلٌّ من الفريقين ما وعدهم ربهم حقًّا.

والمقصود من ذكر هذه الحوارات في القرآن الإعلام بما يكون في الآخرة من أمور الغيب، وفيها النعيم المقيم لأهل الجنة، والنهاية الأليمة لأهل النار، بما يهز المشاعر ويحرك النفوس؛ لسلوك الطريق القويم، وتجنب الطريق المعوجة.

فبعد نداء الله تعالى لأهل الجنة بما فيه سعادتهم وحسن مستقبلهم في قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يأتي نداء أهل الجنة لأهل النار حينما يشاهدونهم، والظاهر أنه نداء لكل أهل النار من كل أهل الجنة، وفيه إعلام من الله تعالى بأن أهل النار مطرودون مبعدون من رحمة الله تعالى.

ولذلك فإن الملائكة توبخهم حين تدفعهم إلى النار دَفْعًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ وتقول لهم الملائكة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ كما كنتم تصفون قول محمدٍ ﷺ في الدنيا ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؟ [الطور] فلا ترون جهنم وهي ماثلة أمام أعينكم ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [يس] ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور].

بدء الحوار:

وفي دار الثواب والعقاب يدور هذا الحوار: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ أي: أنَّ ما وعدنا الله إياه في الدنيا على ألسنة الرسل من النعيم المقيم، **على الإيمان والعمل الصالح**، وجدناه حقًّا وصدقًا فأدخلَنا الله الجنة، ورأينا ما وصفَه لنا في الدنيا ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم﴾ أيها الكفار ﴿مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب في نار جهنم، على كفركم بالله وتكذيبكم رسله؟ ﴿حَقًّا﴾؟ السؤال مُرٌّ، والجواب عليه أمرُّ منه.

ولذلك فإن هذا الحوار لا مجال فيه للاعتراض، وليس هناك مجال للنقاش أو الاعتذار، فالأمر قد انتهى، والجنة ماثلة، والنار ماثلة، وهم فيها حقيقة، فلا وجه للمراء ولا للنزاع، ولذلك فإن هذا الحوار ينتهي بكلمة واحدة ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ أي: وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا من العذاب، وانتهى الأمر، فلاشك ولاشبهة، بل صار الأمر حق اليقين، ومن أصدق من الله قيلا، لقد فرح المؤمنون بتحقيق وعد الله، وأيس الكافرون من نعيم الله، وأقروا على أنفسهم أنهم مستحقون لعذاب الله.

ومثل هذا التقريع جاء في القرآن الكريم عن الذي كان له قرين من الكفار، فالمؤمن الذي فاز يوم القيامة بدخول الجنة، ينكر على قرينه الكافر الذي كان معه في الدنيا ما قاله له من التشكيك في اليوم الآخر، وما فيه من بعث وحساب وجنة ونار، كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الصافات].

وهكذا وبَّخ الرسولُ ﷺ قتلى القليب يوم بدر حين ناداهم بأسمائهم وقال: **«فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا»** قال عمر: يا رسول الله، تخاطب قومنا قد جَيَّفُوا؟ فقال: **«والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»**[١].

وبعد وجود الأقمار الصناعية والمذياع والتلفاز والهاتف والناسوخ ... إلخ، لا يستبعد أحد قدرة الله تعالى على تبليغ أصوات أهل الجنة لأهل النار وبالعكس، مهما بَعُدت المسافات، ومهما كان الحاجز حصينًا، أو كانت الجنة في العالم العلوي والنار في العالم السفلي.

وبعد هذا الحوار ينادي منادٍ من الملائكة -بين أهل الجنة وأهل النار- فيعلن أن لعنة

(١) الحديث بنحوه في «صحيح البخاري» برقم (٣٩٨٠) و (١٣٧٠) وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٧٧) ومسلم (٤/ ٢٢٠٣) برقم (٩٣٢) من حديث عبد الله بن عمر، وعن أبي طلحة (٢٢٠٤) عن أنس رضي الله عنه.

الله وغضبه قد حلَّت على الكافرين الظالمين، الذين تجاوزوا حدود الله وكفروا بالله ورسله، فهم إلى جوار دخولهم النار في مقت الله وغضبه ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **والظلم**: هو الكفر في هذه الآية، فهم مطرودون مبعدون من رحمة الله سبحانه، فقد فتح الله لهم أبواب رحمته فصدوا عنها وصرفوا غيرهم عنها فضلوا وأضلوا كما قال تعالى في وصفهم:

٤٥- ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

وهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك وصفهم القرآن **بثلاثة أوصاف**:

الوصف الأول: أنهم كانوا في الدنيا يصدون الناس ويفتنونهم عن دين الله، ويمنعونهم من اتباع شرعه ومنهجه، أو يمنعون الناس من الدخول في الإسلام، فهم ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وكانوا في الدنيا ينفقون أموالهم؛ ليصدوا الناس عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويحولون بين الناس وبين طريق الله المستقيم ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي: هذه الأموال ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

الوصف الثاني: أنهم يبغون سبيل الله طريقًا معوجًا غير مستقيم، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تابعًا لأهوائهم على غير منهج الله وشرعه، يُحلون ما حرم الله، ويحرِّمُون ما أحل الله.

الوصف الثالث: أنهم كفروا باليوم الآخر، ولم يؤمنوا به، وهم جاحدون ومنكرون له، ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ والذي حملهم على الانحراف عن الصراط والإقبال على شهوات الدنيا وشبهاتها، هو عدم الإيمان بالبعث والنشور، وعدم الخوف من العقاب ورجاء الثواب، هذا هو الحوار الأول بين أهل الجنة وأهل النار.

الْحِوَارُ الثَّانِي: حِوَارُ أَهْلِ الْأَعْرَافِ

٤٦- ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وبين أهل الجنة وأهل النار حجاب أو سور، يقال له: الأعراف، يشرف على الدارين،

ينظُر مَنْ عليه إلى حال الفريقيْن، وهذا الحجاب ليس في الجنة ولا في النار، وعليه رجال يعرفون أهل الجنة وأهل النار بعلاماتهم التي يُميَّزُون بها، فإذا نظروا إلى أهل الجنة حيّوْهم وطمعوا في دخولها معهم، وإذا نظروا إلى أهل النار استجاروا بالله من حالهم.

فالأعراف: هو حجاب أو سور، يفصل بين الجنة والنار وبين أهل النار وأهل الجنة يوم القيامة؛ فيمنع أهل النار من دخول الجنة، وهو حاجز مرتفع سماه القرآن الأعراف كعُرف الديك المرتفع، وهو نفسه السور الذي جاء ذكره في سورة الحديد، حين يُعطي الله المؤمنين نورًا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون في ضوء هذا النور، ويسيرون على الصراط، فإذا كانوا فوقه فإن هذا النور يُسلب من المنافق، بقَدْرِ ما أظهر من إيمان في الدنيا و ما أخفى من كُفر، فإذا سُلب منه هذا النور فإنه يتخبط في الطريق، وحين يراهم المؤمنون فإنهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾.

ذلكم قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ وحينئذٍ يتوسل المنافقون إلى المؤمنين، ويقولون لهم: انتظرونا نقتبس من نوركم، ونسير في ضوئكم، فيقولون لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فيرجعون ليلتمسوا النور الذي يسيرون فيه، فيُضرب بين أهل الجنة وأهل النار بسور، هذا السور ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ من جهة الجنة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ من جهة النار ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد]

فالحجاب إذن: هو السور الحاجز العظيم، وفي أعلى هذا الحاجز رجال، مَن هؤلاء الرجال؟

من هم أهل الأعراف؟

١- يُرجح بعض السلف أنهم مَن استوت حسناتهم وسيئاتهم، حيث يكونون فوق الأعراف، حتى يَقضي الله بينهم، ثم يكون مصيرهم إلى الجنة.

يقول ابن مسعود ﵁: يحاسب الناس يوم القيامة، فمَن كانت حسناته أكثر بواحدة دخل الجنة، ومَن كانت سيئاته أكثر بواحدة دخل النار، وإن الميزان يخف ويثقل بمقدار مثقال

حبة من خردل، ومَن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف[١].

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أُحُدًا جَبَلٌ يحبنا ونحبه، وإنه يقوم القيامة، يمثُل بين الجنة والنار، يحتبس عليه أقوام يعرفون كُلًّا بسيماهم، هم إن شاء الله من أهل الجنة»**[٢].

قال ابن عباس ﷺ: إن أصحاب الأعراف قومٌ استوت حسناتهم وسيئاتهم، فَوُقِفُوا هنالك على السور، فإذا رأَوْا أصحاب الجنة عرفوهم ببياض وجوههم، وإذا رأَوْا أصحاب النار عرفوهم بسواد وجوههم، وهم يطمعون في دخولها، فأدخلهم الله الجنة[٣].

٢- وجاء عن حذيفة ﷺ: أنهم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فبينما هم كذلك، اطلع عليهم ربك فقال لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم[٤].

وقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يرشح هذا المعنى، فهو الأليق بمَن كان مصيره مجهولًا، ينظر إلى أهل الجنة برغبة وتطلُّع إلى حسن المصير.

ومن فضل الله علينا أن الحسنة بعشر أمثالها؛ كالحرف من كتاب الله، والخطوة إلى المسجد، وإلقاء السلام على أخيك، والصلح بين الناس، وهكذا الأبواب كثيرة.

وجاء في الأثر: (هلك مَن كانت آحاده أكثر من عشراته) والآحاد هي السيئات، والسيئة تجازى بمثلها، والعشرات هي الحسنات، والحسنة الواحدة تجازى بعشر أمثالها، وهذا الذي تغلب آحاده عشراته، يستحق أن يكون من الهالكين.

---

(١) أثر طويل في «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٥٤) بسند ضعيف، قال المحقق: فيه أبو بكر الهذلي ليس بثقة، ولا يحتج بحديثه.

(٢) «المسند» (٨٤٥٠، ٩٠٢٥) مختصرًا إلى (ونحبه) وهو صحيح لغيره، وإسناده حسن، وأخرجه ابن أبي شيبة في تاريخ المدينة (١/ ٨٢).

(٣) ينظر ابن أبي حاتم (٨٥٠١).

(٤) «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٥٢، ٤٥٣).

واستدل بعضهم على هذا بما رواه جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«توضع الموازين يوم القيامة، فتوزن الحسنات والسيئات، فمَن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة، ومَن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار»** قيل: يا رسول الله، فمَن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: **«أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون»**(١).

٣- قال أبو مِجْلَز: الأعراف مكان مرتفع عليه رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة بسيماهم، وأهل النار بسيماهم، وهذا قبل أن يدخل أهل الجنة الجنة(٢).

٤- وقال مجاهد: هم قومٌ صالحون فقهاء علماء(٣).

٥- وقال الزهراوي: إنهم عدول القيامة، الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم من كل أمة(٤).

٦- وقال عبد الرحمن المزني ومالك الهلالي وغيرهما: هم قوم استشهدوا في سبيل الله بعد أن خرجوا للجهاد بغير إذن آبائهم(٥).

٧- وقيل إنهم من رَضِيَ عنهم أحدُ والديهم ولم يرضَ الآخر.

٨- أو أنهم أولاد المشركين الذين ماتوا وهم أطفال.

٩- أو أنهم أهل الفترة، وذكر القرطبي فيهم اثني عشر قولًا.

والآثار الواردة في تعيينهم ليس فيها نصٌّ صحيحٌ صريحٌ.

---

(١) ذكره ابن عطية (٢/ ٤٠٤) نقلًا عن مسند خثيمة بن سليمان في آخر الجزء الخامس عشر، وأقول: فإن صح هذا الحديث فهو نص في الموضوع ولا معدل عنه، وقد ذكر ابن كثير (٢/ ٤١٨) آخر هذا الحديث وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، ونقله السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٣) عن تاريخ ابن عساكر وابن مردويه وأبي الشيخ وهو في تاريخ ابن عساكر (٤/ ٣١٣).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٩٥٨) في التفسير، والبيهقي في البعث (١٢١) وابن الأنباري ص٣٦٩ وابن أبي حاتم (٨٥٠٧).

(٣) ابن أبي حاتم (٨٥٠٦) وهناد (٢٠٣).

(٤) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٤٠٤).

(٥) ينظر الطبراني في «الأوسط» (٣٠٥٣) والبيهقي في البعث (١١٥) و«المطالب العالية» (٣٩٨٥) وغيرهم.

١٠- وأورد ابن الجوزي تسعة أقوال في تعيينهم؛ من أبرزها قال:

وهناك قول آخر هو قول مجاهد وابن الأنباري وأبي مجلز وغيرهم.

وهو أن المراد بأصحاب الأعراف هم **الأنبياء وأولو العلم وكبار الدعاة** إلى الله تعالى، وأنهم يكونون فوق هذا السور، ينظرون إلى أهل الجنة تارة، وينظرون إلى أهل النار تارة، فيعرفون أهل الجنة بعلاماتهم، ويعرفون أهل النار بعلاماتهم، وينظرون من فوق السور إلى مصير الأمم التي بلَّغوها دعوة الله تعالى، وماذا أثمرتْ نتائج الدعوة، ثم ينادى أهل الأعراف أهل الجنة فيجيبونهم ويبشرونهم بالجنة بعد أن اطمأنوا على ثمرة جهدهم، حيث يكون الناس فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

وممَّا يؤيد هذا ما نقله البغوي عن ابن الأنباري أن أهل الأعراف هم الأنبياء، قال: إنما جعلهم الله على ذلك المكان العالي؛ تمييزًا لهم على سائر أهل القيامة، وإظهارًا لفضلهم وعُلُوِّ مرتبتهم، وليكونوا المشرفين على أهل الجنة والنار، و المطلعين على أحوالهم، ومقادير ثواب أهل الجنة، وعقاب أهل النار.

ثم عقَّب عليه بقوله: وحاصل هذه الأقوال أن أصحاب الأعراف من الأنبياء والدعاة أفضلُ من أهل الجنة؛ لأنهم أعلى منهم منزلة وأفضل، وإنما أحلهم الله في هذا المكان العالي؛ ليميزوا بين أهل الجنة وأهل النار.

ويرشح هذا القول ما جاء في الآية حكاية عن أهل الأعراف أنهم يقولون لأناس من أهل النار كانوا عظامًا في الدنيا: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ فإن هذا لا يصدُر إلا عن أرباب المعرفة، ولا يصدر ممَّن هم أدنى منزلة من أهل الجنة، فضلًا عن قومٍ لم يتحدد مصيرهم بعد، ولم يعرفوا أنهم من أهل الجنة أو من أهل النار[1].

هذا: ولكل فريق أدلةٌ تُرشح قوله، لم تبلغ مبلغ الصحة، روى بعضها ابن ماجه؛ وبعضها رواه ابن مردويه، وبعضها رواه الطبري وهكذا.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٤٠٤).

والأعراف جعلها الله مكانًا يقف عليه مَنْ هو من أهل الجنة؛ قبل دخوله إياها، وقد يكون هذا ضربًا من العقاب الخفيف قبل دخول الجنة، لتفاوت أهل الجنة في السبق إليها وقد يكون لإلقاء نظرة فاحصة على مَن أثمرت فيهم جهود الدعوة فكان مصيرهم الجنة، ومَن لم تثمر فيهم هذه الجهود، فكانت النار مصيرهم، نسأل الله العافية والسلامة.

ولعل تخصيص أهل الأعراف بأنهم رجال يفيد أنهم الأنبياء والشهداء وكبار الدعاة إلى الله تعالى، أو كما قال بعضهم: إنهم الملائكة.

ونمضي مع الآية: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي: بين أهل الجنة وأهل النار ﴿حِجَابٌ﴾ سور حاجز ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي: فوق السور الفاصل ﴿رِجَالٌ﴾ هم الدعاة إلى الله في كلِّ زمان ومكان ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة والنار ﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾ يعرفون أهل الجنة بعلاماتهم كبياض الوجوه، وأهل النار بعلاماتهم كسواد الوجوه، وهذه العلامات جاء ذِكْرُها في قوله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس]

وهم أهل الجنة الذين تبيض وجوههم ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]

وهم من قال الله فيهم: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين]

وقال عنهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة: ٢٢].

وأهل النار وجوههم مسودة، كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ [عبس]

نعوذ بالله ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس]

ووصفهم ربنا بقوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]

وقال فيهم: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] سواد الوجوه معروف، أما زرقة العيون فليست من المحاسن في الآخرة، كهذه الزرقة التي تكون في أعين بعض الناس في الدنيا، وإنما هي زرقة العيون في الآخرة، وتكون هذه الزرقة من الكد والألم الذي يأتي نتيجة العذاب، حين تحمر العينان وتزرق.

وأهل الأعراف يكون أكثر نظرهم إلى أهل الجنة؛ فيحيُّونهم، ويهنئونهم، وينادونهم

ويقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ يقول الله سبحانه: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا﴾ أي: أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد، وهم على الأعراف، يرقبون الأمم وينظرون إليهم، وهم يطمعون في دخولها، ولم يحصل الله الطمع في قلوبهم إلا لأنهم من أهل كرامته، وهم داخلوها إن شاء الله. قال تعالى عن أصحاب الأعراف أيضًا:

٤٧- ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ[1] أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

أي: إذا تحولت وجوه أهل الأعراف من جهة أهل الجنة عفوًا تجاه أصحاب النار، ورأوا سواد وجوههم؛ وشفاعة منظرهم، استعاذوا بالله أن يكونوا أمثالهم، وتضرعوا إليه ألا يجعلهم منهم، وقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بشركهم وكفرهم. ثم ذكر سبحانه حوار أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار، فقال:

٤٨- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

بين سبحانه أن أهل الأعراف يوجهون نداءين إلى أهل النار وأهل الجنة، فيقولون لأهل النار: أي شيئ نفعكم من أموالكم وجاهكم واستكباركم عن الإيمان بالله، ونداء آخر إلى قوم مؤمنين كانوا ضعفاء في الدنيا بأن يدخلوا الجنة، وأصحاب الأعراف في اختيارنا هم الأنبياء والشهداء وأولوا العلم والفضل والدعاة إلى الله تعالى على مدى التاريخ لجميع الأمم، ينادون رجالًا في النار، كانوا عظماء في الدنيا، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ الذين هم فوق السور المضروب بين الجنة والنار، ويحتمل أن يكون هذا النداء وأهل النار في النار، فينادون ﴿رِجَالٗا﴾ في النار ﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ أي: بأوصافهم المميزة كسواد الوجوه وزرقة العيون، وهم رجال من رؤساء الكفر، وكبار الطواغيت في سائر الأمم، وهم من الذين يصدون الناس عن سبيل الله، أمثال أبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأمية بن خلف، وأضرابهم ممَّن يتزعمون الكفر إلى يوم الساعة،

---

(١) قرأ قالون والبزي وأبو عمرو ورويس بإسقاط الهمزة الأولى من (تلقاء أصحاب) مع المد والقصر، وقرأ ورش وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية، ولورش من طريق الأزرق إبدالها ألفًا مع إشباع المد في وجهه الآخر، ولقنبل ثلاثة أوجه هي: إسقاط الهمزة الأولى، وتسهيل الهمزة الثانية، وإبدالها ألفا مع المد المشبع كالأزرق، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين معًا.

يعرفهم أهل الأعراف بعلاماتهم.

ومنهم مَن له وَسْمٌ خاص يُعرف به، كما قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم] أي: سنجعل علامة مميزة على أنف الوليد بن المغيرة يُعرف بها يوم القيامة، حيث يعرف أصحاب الأعراف هؤلاء الرجال بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم، وظهور الذلة على وجوههم، يقولون لهم: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

والمعنى: ونادى أولئك الرجال الذين على الأعراف رجالًا عرفوا أنهم من أهل النار حين صرفت أبصارهم إليها، كانوا أصحاب وجاهة وغنى وسلطان، وكانوا جبارين في الدنيا، فيقولون لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ما أغنت عنكم كثرتكم التي كنتم تعتزون بها، وما أغنى عنكم استكباركم في الأرض بغير الحق، فقد صرتم في الآخرة في هذا الوضع المهين؛ بسبب كفركم وعنادكم.

وفي الآية إنذارٌ وموعظةٌ لجبابرة الأرض وطغاتها، وكل مَن كذب القرآن والرسول الخاتم ﷺ.

قال ابن الكلبي: يُنادِي أهل الأعراف وهم على السور: يا وليد بن المغيرة، يا أبا جهل بن هشام، يا فلان ويا فلان، فهؤلاء من الرجال الذين يعرفونهم بسيماهم، وكانوا من أهل العزة والكبرياء في الدنيا.

وبالمقابل فإن أهل الأعراف - وهم يحاورون أهل النار - يشيرون إلى أناس من أهل الجنة، كانوا في الدنيا ضعفاء فقراء يستهزيء بهم أهل النار، فيقولون لأهل النار:

٤٩ - ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ[(١)] ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

أشار سبحانه إلى خطاب أهل الأعراف لأهل النار؛ زيادةً في توبيخهم وتبكيتهم، وهم يشيرون يوم القيامة إلى ضعفاء المسلمين الذين سخر منهم أهل النار في الدنيا، الغني يحتقر الضعيف، ويسْخَر منه لضعفه وفقره، كما حدث من كبار القوم بالنسبة إلى بلال وصهيب وخباب وسلمان وآل ياسر وغيرهم،

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب وعاصم وحمزة وابن ذكوان بخلف عنه بكسر التنوين وصلًا من (رحمة ادخلوا)، والباقون بالضم وهو الوجه الآخر لابن ذكوان.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين]

أي: وفي يوم القيامة يقول أهل الأعراف لأهل النار.

أهؤلاء الذين حلفتم في الدنيا أنهم لن يعطوا في الآخرة خيرًا، ولن ينالهم الله برحمة؛ أي: لا يدخلون الجنة، هؤلاء الضعفاء يقال لهم يوم القيامة: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب فيما يستقبل من الزمان ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، فأنتم آمنون مطمئنون فرحون بما أنتم فيه من خير ونعيم.

وها هم أمامكم يتمتعون بالنعيم في الجنة، ولا يخافون من عذاب الله، ولا يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا، وهكذا كذَّب الله قَسَمَهم، وخيَّب ظنهم؛ فأدخلهم الجنة، وأمَّنَهم على ما فاتكم من حطام الدنيا وما هو آتٍ، والكلام كله من أهل الأعراف.

وقال الربيع بن أنس: كان رجال في النار قد أقسموا بالله لا ينال أصحاب الأعراف من الله رحمة؛ فأكذبهم الله، فكانوا آخر أهل الجنة دخولًا فيما سمعنا عن أصحاب رسول الله ﷺ[١].

---

(١) ابن أبي حاتم (٨٥٣١) وأخرجه أيضًا أبو الشيخ.

الْحِوَارُ الثَّالِثُ: أَهْلُ النَّارِ يُحَاوِرُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ

٥٠- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾

هذا هو النداء الثالث وهو من أهل النار إلى أهل الجنة، بعد أن يبلغ العذاب بهم مبلغه ويمسهم الجوع المفرط والظمأ الموجع، فيستغيثون بهم بأن يفيضوا عليهم شيئا من الماء أو الطعام، فيجيبوهم: إن الله حرم طعام الجنة وماءها على الكافرين.

وأهل النار هم كل مَن لم يدخل في دين الإسلام من أمة الدعوة بالنسبة لآخر الأمم وآخر الرسالات، وفي يوم القيامة وجوه أهل النار تتغير من العذاب، فلا يعرفهم ذووهم وأبناؤهم وإخوانهم وأهلوهم؛ لأن أشكالهم من عذاب النار قد تغيَّرت، ووجوه أهل الجنة ازدادت بهاء ونضرة.

ولذلك فإن أهل النار حين يرون أهل الأعراف قد دخلوا الجنة يطمعون في الفرج عنهم؛ فينظرون إلى أهل الجنة، ويتعرفون على أقاربهم منهم، فلا يعرفون أشكالهم، ويقولون لهم مستغيثين بهم طالبين منهم النجدة: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ إنه رجاء واستجداء واستغاثة بأقاربهم في الجنة، يقولون لهم بذلة وانكسار: لقد احترقنا؛ فأفيضوا علينا بشيء من الماء أو مما رزقكم الله من طعام نستعين به على ما نحن فيه من سَمُوم وحميم.

فأجابوهم قائلين: إن الله حرَّم الطعام والشراب على مَن جحد توحيد الله وكذب رسله، إنه جواب مرير وأليم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حُرمة أبدية، كما حرم على القرية أو الأمة التي أهلكها الله أن تعود إلى الدنيا ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ [الأنبياء].

عن سعيد بن جبير قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول: قد احترقت، أَفِضْ عليَّ من الماء، فيقال لهم: أجيبوهم، فيقولون: إن الله حرمهما على الكافرين[1].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٧٣).

ولذا: جاء في الأثر عن ابن عباس ﷺ: أن الماء هو أفضل الصدقة؛ لأنه طلب أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة[١].

وأخرج أحمد وغيره عن سعد بن عبادة ﷺ أن أمه ماتت، فقال: يا رسول الله، أتصَدَّق عليها؟ قال: «**نعم**» قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «**سقي الماء**»[٢].

وعن عَقِيل بنِ سُميْرٍ الرياحيِّ قال: شرب عبد الله بنُ عمر ﷺ ماء باردًا فبكى، فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرتُ آية في كتاب الله ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] فعرفتُ أن أهل النار لا يشتهون شيئًا إلا الماء البارد، وقد قال الله ﷻ: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾[٣].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يَلْقَى إبراهيم أباه يوم القيامة وعلى وجهه قترة وغبرة فيقول: يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد في النار، فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين**»[٤].

ولمَّا مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلتَ إلى ابن أخيك يرسل لك بعنقود من جنته لعله أن يشفيك به، فجاءه الرسول وأبو بكر عنده، فقال أبو بكر: إن الله حرمهما على الكافرين[٥].

ثم وصف الله سبحانه أهل النار بأنهم أعرضوا عن دين الله وهم في الدنيا، وسخروا من المسلمين، واستعاضوا بالدين، اللهو واللعب.

---

(١) رواه البيهقي مرفوعًا في «شعب الإيمان» برقم (٣٣٨٠) والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٤/ ٢٢٤) قال الذهبي: وفيه موسى بن المغيرة مجهول، وشيخه أبو موسى الصفار لا يعرف، وقد جاء هذا المعنى من طرق أخرى صحيحه كما في الحديث التالي.

(٢) «المسند» (٢٢٤٥٩) و (٢٣٨٤٥) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه النسائي (٦/ ٢٥٥) والحاكم (١/ ٤١٤) وأبو داود (١٦٨٠) وابن ماجه (٣٦٨٤) وابن خزيمة (٢٤٩٦).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (١٩٠) والبيهقي في «الشعب» (٤٦١٤).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٧٦٩) و(٣٣٤٩).

(٥) أخرجه أحمد عن أبي صالح (تابعي) بسند مرسل، وهو عند ابن أبي شيبة برقم (٨٥٣٦).

مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ النَّارِ

٥١- ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

وبعد أن حكى الله سبحانه كلامَ أهل الجنة عن أهل النار، الذين حَرَمَهم الله من نعيم الآخرة، وصف أهل النار بأنهم كانوا في الدنيا قد ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ ويضاف الدين إلى الله تعالى؛ لأنه أَمَرَ به، ويضاف إلى الناس؛ لأنهم أُمروا به، فتلاعبوا بالدين وسخروا منه وشُغلوا عنه، واستبدلوا به لهو القلوب ولعب الأبدان، وغرتهم الحياة الدنيا بزخارفها عن العمل للآخرة، فيوم القيامة يُتركون في عذاب الله الموجع، ويُنْسون فيه، كما تركوا العمل للقاء الله ونسوا هذا اليوم.

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ نتركهم في النار، إنه كلامُ الله سبحانه تصديقًا لكلام أهل الجنة، فيه تحذير وتعقيب وعظة واعتبار لكل مَن كذَّب الله ورسوله، وجحد أدلة توحيد الله وبراهينه ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ فكأنهم لم يُخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم حساب ولا جزاء، والحال أن جحودهم ليس قصورا في آيات الله، وإنما لفساد فطرتهم ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

جاء في الحديث القدسي، أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «**ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخِّر لك الخيل والإبل؟ وأذَرْك ترأس وتَرْبع، فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله: فاليوم أنساك كما نسيتني**»[1].

ونسيانهم تَرْكُهم في النار؛ لأنهم أعرضوا عن الإيمان، وتركوا العمل به، ولم يستعدوا لليوم الآخر، فكان الجزاء من جنس العمل.

ولذا: فإن الله تعالى لا يجيب دعاء أهل النار، ولا يرحم ضعفهم، بل يتركهم في العذاب جياعًا عطاشًا، كما تَرَكُوا العمل للقاء الله تعالى، فحرمانهم من رحمة الله كان مماثلًا لعدم تصديقهم بالثواب والعقاب.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذه الآية يحتمل أن تكون حكاية لكلام أهل الجنة عن أهل النار، ويكون قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ تصديقًا من الله تعالى لكلام أهل الجنة، ويحتمل أن تكون الآية مستأنفة لكلام الله تعالى، وليست تفريعًا عن كلام أهل الجنة.

وقد أمرنا الله تعالى ألا نخالط الذين يهزؤون بالدين ويسخرون منه، لعدم نهيهم عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

عَدَمُ إِعْذَارِ الْكُفَّارِ فِي دُخُولِ النَّارِ

٥٢- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ثم ذكر سبحانه ما يُوجب عقاب الكفار في الآخرة، بعد أن أعذرهم الله في الدنيا؛ بإنزال هذا القرآن على خاتم النبيين ﷺ، فلا حُجة لأحد في عدم اعتناق الإسلام بعد بلوغ الدعوة إليه.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ أي: أنزل الله على الكفار قرآنًا عظيم الشأن، فصَّل الله فيه كل شيء من الأحكام تفصيلًا حكيمًا، وبيَّن فيه الحلال والحرام، والقصص والمواعظ، والوعد والوعيد، وأحوال الدنيا والآخرة، وفيه أحوال الأمم سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا ودينيًّا، مشتملًا على عِلْمٍ عظيم، محتويًا على كل شيء ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عِلْمٍ منا بما بيناه وفصلناه، تفصيل عالم بالأمور، وبجميع أحوال العباد، في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، لا يخفي عليه شيء من أحوالهم، ولا يجهل شيئا منها، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء، وفيه بيان الهداية من الضلال إلى الرشد، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وبهذا التفصيل والبيان يزول العذر عن كل مَن لم يؤمن بخاتم الرسل ﷺ وبما أنزل عليه من كتاب، وفيه الرحمة والهداية لمن يؤمنون به، ويعملون بما فيه، وخص الله المؤمنين دون غيرهم؛ لأنهم المنتفعون بما فيه من الهدى ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ لقمان: ٣] كما قال تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] ومَن لم يؤمن به يُحْرَم الاهتداء.

ثم إن هؤلاء الذين حق عليهم العذاب ممن لم يؤمنوا بكتاب الله، ولم ينقادوا لأمره ونهيه، ليس أمامهم إلا أن يحلّ بهم ما أخبر الله به:

٥٣- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

وبعد أن أخبر سبحانه أن الموجب لعقاب الكفار في الآخرة هو عدم إيمانهم بهذا القرآن، عقَّب على ذلك بالسؤال عمَّا يؤخر المكذبين عن التصديق بالقرآن.

الجواب: ليس هناك ما ينتظرونه سوى ظهور ما توعَّدهم به القرآن؛ من نزول العذاب بهم يوم لقاء الله في دار الثواب والعقاب، وهم غير مصدقين بوقوعه.
قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزخرف]

وقال: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ [يونس: ١٠٢]

وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فمعنى ﴿تَأْوِيلِهِۦ﴾ في الآية ظهور يوم القيامة، وما فيه من بعث وحساب وجزاء، مما توعَّدهم به القرآن فكذبوه، واعتبروا ذلك أمرًا محالًا، وهو اليوم الذي نسوه وضيعوه، ولم يستعدوا له.

ثم إنهم عند مشاهدة العذاب ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ نادمين متأسفين وهم يعترفون بصدق ما جاءت به الرسل، وعلى رأسهم محمد ﷺ فيقولون: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ ولكنه اعتراف لا ينفع؛ لأنه جاء بعد فوات الأوان، وبهذا تتحقق الخسارة لهم في الدنيا والآخرة، وإن كانوا لا يشعرون.

والمعنى: هل ينتظر الكفار إلا ما وُعدوا به في القرآن من العقاب الذي يؤول أمرهم إليه، ويوم يأتي هذا الحساب والعقاب يعترف الذين كذبوا بلقاء الله أنَّ رسل الله كانوا

على حقٍّ، ويتلمسون مَن يشفع لهم عند الله للخلاص من العذاب، أو العودة إلى الدنيا للعمل بما يُرضي الله سبحانه.

فماذا ينتظر هؤلاء؟ وماذا يمنعهم من الإيمان بخاتم الرسل ﷺ؟ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾؟ وهو حقيقة وقوع ما جاء في القرآن ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ عند قيام الساعة ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ فضيعوه وتركوا العمل للقاء الله في الدنيا، وهم يقرون ويعترفون به عند معاينة العذاب ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فبلَّغونا رسالة الله ونصحوا لنا، ولكنهم اعترفوا بعد فوات الآوان، ثم يطلبون ويتمنون أحد **أمرين**:

الأمر الأول: وجود شفعاء يشفعون لهم عند الله ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾؟ أي: شفعاء ينقذونهم من عذاب الله، يقول سبحانه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر].

والأمر الآخر: هو العودة إلى الدنيا ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ نرجع إلى الدنيا؛ لنتدارك ما فاتنا من العمل الصالح فيها ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] قال جل شأنه قاطعًا بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ذهب عنهم في ساحة الموقف ما كانوا يعبدونه من دون الله، وتبين باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءت به الرسل.

أَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ وَمُقْتَضَاهُ

٥٤- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى[1] ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ[2] بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

وبعد أن تهيأت القلوب والأسماع لقبول الحجة على أن الله تعالى واحد، وأن كل ما يُعْبَدُ من دون الله ضلال وباطل، وبعد بيان عظيم قدرة الله تعالى في خَلْقِه، وبعد هذه

---

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، بفتح الغين وتشديد الشين من (يغشى الليل والنهار) مضارع غشي المضاعف، وقرأ الباقون بإسكان الغين وتخفيف الشين مضارع أغشى.

(٢) قرأ ابن عامر برفع هذه الألفاظ الأربعة (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) على أن الشمس مبتدأ ومسخرات خبر، وما بينهما عطف، وقرأ الباقون بالنصب عطفًا على السموات، ومسخرات حال.

الجولة في مشاهد القيامة جاءت النتيجة الحتمية لهذه الأدلة والبراهين، وهي أن يَعْلَمَ الخَلْقُ أن الله واحد أحد، لا رب غيره، ولا معبود سواه.

إن ربكم وسيدكم -أيها الناس- الذي يجب أن تعبدوه وتوحدوه هو الذي أوجد السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، من العدم على غير مثال سَبَق، وخَلَقَ هذا الكون وما فيه في مقدار أيام ستة، أولها يوم الأحد وأخرها يوم الجمعة، والأيام الستة غيب ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

والعرب كانت تقول: يوم بعاث يوم البسوس، فيسمون السنوات العديدة يومًا، فلعل هذه الأيام الستة من هذا القبيل، وفي القرآن الكريم ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]

وكل ما يقال عن مقدار هذه الأيام السنة، ليس عليه دليل صحيح صريح؛ إذ لم يكن قبلهما شمس ولا قمر يقدر بهما الأيام والليالي، ولا يتحقق اليوم إلا بعد تمام خلق السموات والأرض؛ حتى يمكن ظهور نور الشمس على نصف الكرة الأرضية، وظهور الظلمة على النصف الآخر، والله أعلم إن كانت هذه الأيام من أيام الدنيا أو الآخرة، وهو سبحانه قادرٌ أن يخلق الكون في لحظة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] ولكنه سبحانه يعلمنا التثبت والتأني في الأمور.

وقد ثبت أن الله تعالى خلق السموات في يومين، وخلق الأرض في يومين، وقدَّر فيها أقواتها في يومين، كما جاء ذلك في سورة فصلت [٩-١٢] حيث بارك في الأرض، وقدَّر فيها أقواتها في مجموع أربعة أيام، وانتهى بخلق آدم يوم الجمعة.

قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: علا وارتفع، استواء يليق بجلاله، وثَبَتَ في الأحاديث أن عرش الرحمن محيطٌ بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما، فالعرش

أعظم من السموات والأرض، وقد ذُكر العرش في القرآن الكريم في إحدى وعشرين آية، وذكر الاستواء في سبع آيات في سور يونس والرعد [٢] وطه [٥] والفرقان [٥٩] والسجدة [٤] والحديد [٤] وفصلت [١١].

فاستوى على العرش واحتوى على الملك، ودبره، وأجرى عليه أحكامه الكونية والدينية.

وحقيقة العرش هو الكرسي المرتفع الذي يجلس عليه المَلِك، وقد خلق الله العرش فوق الماء قبل خلق السموات والأرض، واستواءُ الله تعالى على العرش استواءٌ يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، يعلم حقيقته رب العالمين.

سأل رجل مالك بن أنس عن معنى الاستواء فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وقيل: إن مالكًا قال له: وإني لأظنك ضالًا، وفي لفظ: وأظنك رجل سوء، أخرجوه عني[1].

قال ابن عيينة: كلُّ ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه.

ونحن نؤمن بما جاء في كتاب الله، وبما صَحَّ به حديث رسول الله ﷺ، فهو سبحانه مُنزه عن مشابهة المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وجاء عن أم سلمة ﵂ أنها قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به من الإيمان، والجحود به كُفْرٌ، وليس لنا أن نشبِّه أو نمثِّل أو نعطِّل أو نحرِّف أو نؤوِّل.

ثم قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ﴾ المظلم ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ المضيء، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الخلق وتأوى المخلوقات إلى مساكنها، فتستريح من التعب والذهاب والإياب الذي حدث لهم في النهار، وإضاءة الليل بالأنوار والكهرباء، لا يخرجه عن وظيفته، إذ لا بد للإنسان أن ينام ويستريح، وإلا فلا يستطيع أن يؤدي وظيفته في الحياة.

والمعنى: يُدخل الليل على النهار فيلبسه إياه ويغطيه ويستره حتى يذهب نوره، ويجعل الكون مظلمًا، ويدخل النهار على الليل فيذهب ظلامه، فالليل يغطي النهار بظلمته، ويطلبه حثيثًا، وفي ذلك منافع للناس وبه تتم الحياة، وكُلٌّ من الليل والنهار يطلب الآخر

---

(١) أخرجه البيهقي عن عبد الله بن وهب (٨٦٦) قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/٤٠٦): سنده جيد، وأخرجه الكسائي عن جعفر بن عبد الله.

سريعًا باستمرار، ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ يذهب هذا ويأتي هذا، فيذهب الضوء وتأتي الظلمة، والعكس، وهكذا حتى تنتهي هذه الدنيا وينتقل العباد إلى دار القرار.

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان].

فاللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: وخلق الشمس والقمر والنجوم وسخرهن كما شاء سبحانه، مذللات خاضعات لتصرفه، منقادات لمشيئته تعالى، وهذا الكون وما فيه سخَّره الله سبحانه في خدمة الإنسان، وهو مذلل له بأمر الله جل شأنه، والشمس والقمر والنجوم من آيات الله العظيمة الدالة على سعة ملكه وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ المتضمن للأحكام الكونية والقدرية، وله الأمر المتضمن للشرائع والنبوات، وله أحكام الثواب والعقاب في دار البقاء.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالخلق كله له، والأمر كله له، فتعالى وتعاظم وتَنَزَّه عن كلِّ نقص، وهو رب الخلق أجمعين في العالم العلوي والسفلي.

عن الحسن بن علي ﷺ قال: أنا ضامن لمَن قرأ عشرين آية في كل ليلة أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم، ومن كل شيطان مارد، ومن كل سبع ضارٍ، ومن كل لص عادٍ: آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ وما بعدها [٥٤-٥٦] وعشر آيات من أول الصافات، وثلاث آيات من الرحمن ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وما بعدها [٣٣-٣٥] وخاتمة الحشر[١].

وورد أن قراءة آية ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ عند النوم تحفظ من السرقة وتشفي من المرض[٢].

---

(١) ابن أبي الدنيا في «الدعاء» والخطيب في تاريخه (٤/ ١٢٧).

(٢) ينظر: أبو الشيخ عن عبيد بن أبي مرزوق كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٨).

وأسند الطبري إلى النبي ﷺ أنه قال: **«مَن زعم أن الله تعالى جعل لأحد من العباد شيئًا من الأمر فقد كَفَرَ بما أنزَل الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾»**[1].

ولما ذكر سبحانه ما يدل على عظمته وجلاله، أمر بما يترتب على ذلك من عبادة الله وحده، والتوجه إليه جل شأنه بالدعاء فقال:

٥٥- ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ[2] إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾

ثم أَمَرَ سبحانه عباده أن يعبدوه ويتضرعوا له بالدعاء بما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أيها الناس، واطلبوا الخير منه وحده، وتوجهوا له سبحانه بأنواع العبادة دون سواه، ادعوه دعاء عبادة ودعاء مسألة، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ أي: تذللًا ومسكنة وانكسارًا وخشوعًا وخضوعًا.

فالتضرع: هو التذلل والإلحاح في المسألة.

والخفية: هو السر والإخلاص، لا جهرا ولا علانية يخاف منها الرياء.
وقد مدح الله نبيَّه زكريا بقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣﴾ [مريم].

فاسألوا ربكم -أيها الناس- حوائجكم بتذلل واستكانة وإسرار وضراعة، واتجهوا إليه سبحانه بقلب سليم وإخلاص ويقين، فإنه سبحانه يسمع الدعاء، ويجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويمنح الخير، ويدفع المكروه، ويعين على نوائب الدهر، فالدعاء من أشرف أنواع العبادة، وفيه الخضوع لله الواحد القهار.

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: **«أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب»**[3].

وفيه دليلٌ على عدم استحباب رفع الصوت بالدعاء، وأنه الأصل في الذِّكرِ والدعاء،

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٨٤).

(٢) قرأ شعبة بكسر الخاء من (وخفية)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) البخاري برقم (٤٢٠٢، ٤٢٠٥، ٤٩٩٢) ومسلم (٤/ ٢٠٧٦) برقم (٢٧٠٤).

إلا ما ورد الدليل برفع الصوت فيه؛ كالتكبير في الصلاة، وكان السلف يجتهدون بالدعاء ولا يسمع لهم صوت.

ورَفْعُ الصوت بالدعاء، ودعاء غير الله تعالى، والتوسط بالصالحين - كله اعتداءٌ في الدعاء نهى عنه ربُّ العالمين ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ كما نهى النبي ﷺ عن التجاوز في الدعاء برفع الصوت والصياح والنداء والتقعُّر، وعدم الحزم والجزم في المسألة، أو سؤال ما لا يصلح للعبد، أو يتنطع في السؤال ويبالغ فيه، كل ذلك من الاعتداء في السؤال.

وإظهار الفرائض في العبادات أفضلُ من إخفائها، وإخفاء النوافل أبعدُ عن الرياء، وما دام الأمر كذلك فاعبدوا ربكم، وادعوه خوفًا من ناره، وطمعًا في جنته، ادعوه خوفًا وطمعًا، وخفية وسرًّا بخشوع، وبُعدٍ عن الرياء، والله لا يحب المتجاوزين شرعه بدعاء غيره من الأموات والأوثان.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف].

وفي المسند وغيره أن سعد بن أبي وقاص ﷺ سمع ابنًا له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت الله خيرًا كثيرًا، وتعوذت بالله من شرٍّ كثيرٍ، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء**» وقرأ هذه الآية: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وإن حَسْبَكَ أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل[1].

وعن عبد الله بن مغفَّل أنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتُها، فقال: يا بني، سل الله الجنة، وعُذ به من النار، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطهور**»[2].

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ١٧٢) برقم (١٤٨٣، ١٥٨٤) حسن لغيره و«سنن أبي داود» برقم (١٤٨٠) و«صحيح سنن أبي داود» (١٣١٣) والطيالسي (١٩٧) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٨) وابن أبي حاتم (٨٥٩٥). و أبي يعلى (٧٦٥).

(٢) ينظر: «المسند» (٥/ ٥٥) برقم (١٦٨٠١) حسن لغيره، و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٨٦٤) و«سنن أبي داود» برقم (٩٦) و«صحيح سنن أبي داود» (٨٧) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٨) وابن حبان (٦٧٦٣) والحاكم (١/ ١٦٢) والبيهقي في السنن (١/ ١٩٦).

وتَرْكُ الدعاء تكبرٌ على عبادة الله تعالى، ودعاء الله تعالى دليل على محبته، فادعوا ربكم؛ لأنه يحبكم ولا يحب المعتدين ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

والله تعالى لا يجيب دعاء الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠].

وليس في الآية ما ينهى عن الجهر بالدعاء، وإنما النهي عن شدة المبالغة بالجهر بالدعاء، فقد جهر النبي ﷺ بالدعاء على المنبر بمسمع من الناس في دعاء الاستسقاء وغيره فقال: **«اللهم اسقنا»** وقال: **«اللهم حوالينا ولا علينا»**(١) وقال: **«اللهم عليك بقريش»**(٢). قال تعالى:

٥٦- ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ(٣) ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

وبعد أن أَمَرَ الله تعالى عباده بالدعاء نهاهم عن الإفساد في الأرض واتباع الشهوات والشبهات؛ ليكون صلاحُهم خاليًا من الفساد لأنفسهم ولغيرهم فقال ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بأي لون من ألوان الفساد، قلَّ هذا الفساد أو كثُر، لا تفسدوا بالشرك بعد الإيمان، لا تفسدوا في الأرض بعد أن أصلحها الله؛ بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتقرير الشرائع ووضوح ملة محمدٍ ﷺ، ولا تفسدوا في الأرض بأدنى درجات الفساد؛ كاحتكار الطعام والماء وقطع الشجر المثمر وغير ذلك، ولا تفسدوا بالمعصية بعد الطاعة، والإفساد مذمومٌ ومنهي عنه في كل حال.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] فالمعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، والطاعات تصلح الأخلاق والأعمال والأرزاق وأحوال الدنيا والآخرة.

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا﴾ من ناره ﴿وَطَمَعًا﴾ في جنته، فإن الرجاء والخوف كالجناحين للطائر

---

(١) ينظر حديث جابر في أبي داود (١١٧٥، ١١٧٤) وصحيح أبي داود (١٠٤٢، ١٠٤١) وانظر حديث أنس في البخاري (١٠١٣، ١٠١٩) ومسلم (٨٩٧).

(٢) من حديث عبدالله بن مسعود في البخاري (٢٤٠، ٥٢٠) ومسلم (١٧٩٤).

(٣) لفظ (رحمة) رسم بالتاء ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، والباقون بالتاء.

يحملانه على الاستقامة، فإن انفرد أحدهما هلك الإنسان، ولا بأس أن يتغلب جانب الخوف على جانب الرجاء، فإذا جاء الموت تغلَّب جانب الرجاء على الخوف، وهذا من الإحسان في الدعاء وبذل الجهد والإخلاص فيه واخفائه والخوف من رده وعدم قبوله ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، في عبادة الله، المحسنين إلى خلق الله، وكلما كان العبد أكثر إحسانا كلما كان أقرب إلى رحمة ربه، وربه قريب منه.

وفي الآية السابقة بيانُ شرط صحة الدعاء ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ والخوف يكون من غضب الله وعقابه، وعدم قبول الدعاء، والطمع يكون في رضى الله وثوابه، ودعاء الخوف نحو الدعاء بمغفرة الذنوب، ودعاء الطمع نحو الدعاء بالتوفيق والسداد، وليس المعنى أن الدعاء في حدِّ ذاته يشتمل على الخوف والطمع، وإنما المراد: ادعوا ربّكم من أجل الخوف ومن أجل الطمع، والخوف يشمل جميع المنهيات، والطمع يشمل جميع المأمورات؛ خوفًا من العقاب وطمعًا في الثواب، ورحمةُ الله مرجُوَّةٌ لمَن يطمع في ثوابه ويخاف من عقابه.

وفي هذه الآية بيانُ فائدة الدعاء ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وفيها أن رحمة الله قريبٌ من المطيعين الذين يعبدون الله، ويمتثلون أمره، ويجتنبون نهيه، كأنه يراهم أو كأنهم يرونه، فهم بين مقامي المراقبة والمشاهدة.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] فالجزاء من جنس العمل، ولفظ (رحمة) مؤنث مجازى، يجوز في خبره (قريب) التذكير والتأنيث.

٥٧- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ[١] بُشْرًا[٢] بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ[٣] سَحَابًا

(١) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف العاشر بإفراد لفظ (الريح)، والباقون بالجمع (الرياح).

(٢) قرأ عاصم (بُشْرًا) بالباء وسكون الشين، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (نَشْرًا) بنون مفتوحة وشين ساكنة، وقرأ ابن عامر بضم النون وسكون الشين، والباقون بضم النون والشين وقراءة الباء من البشرى، وقراءة النون من الانتشار والتفرق والبث.

(٣) أدغم التاء في السين من (أقلت سحابًا) أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف العاشر وهشام بخلف عنه، والباقون بالإظهار.

ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ[1] فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[2] ﴿٥٧﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه بعضًا من دلائل قدرته وبعْث الناس بعد موتهم، و أدلة توحيده وتدبيره شؤون خلقه؛ ومن ذلك أنه جل شأنه يَرْزُقُ العباد بأنواع الرزق المختلفة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] فهو الخالق الرازق.

ومن أنواع الرزق نزولُ المطر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: يرسل الرياح قبل نزول المطر؛ لتبشر عباده بالغيث الذي تثيره؛ فيستبشر الخَلْقُ برحمة الله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ﴾ حملت الرياح البخار و﴿أَقَلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا﴾ مثقلًا بالمياه حملته بإذن الله إلى أرض خربة لا تنبت كلأ ولا مرعًى ﴿سُقْنَٰهُ﴾ أي: سُقنا ذلك الماء ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أجدبت أرضه، ويبست أشجاره وزرعه، وكادت حيواناته وأهله أن تهلك.

وذلك أن الرياح تمر على سطح الأرض فيتجمع بها ما على السطح من بخار؛ فتحركه وتسوقه حتى يصل إلى نقطة باردة في أعلى الجو، فينقبض البخار ويتجمع أجزاؤه، حتى يصبح سحابًا كثيفًا فيثقل ثم ينزل المطر، وهذا معنى ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بهذا الماء الغزير ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جميع أنواع الثمار والزروع والأشجار والنبات، فأصبحوا مستبشرين برحمة الله.

روى الشافعي بسنده إلى أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها، واسألوا الله من خيرها، واستعيذوا بالله من شرها»**[3].

قيل: إن الله تعالى يجعل الرياح تتحرك بشدة؛ فتثير السحاب، ثم ينضم بعضُها إلى

(١) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر بتشديد الياء من (البلد ميت)، وقرأ الباقون بالتخفيف.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

(٣) أخرجه الشافعي في «شفاء العيّ» (٥٠٤) وابن حبان (١٠٠٧) وأبو يعلى (٦١٤٢) وابن أبي شيبة (١/ ٢١٦) و«المسند» (٧٤١٣، ٩٦٢٩) صحيح لغيره، بإسناد حسن ورجال ثقات (محققوه) وأبو داود (٥٠٩٧) والنسائي (١٠٧٦٧) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٠٣) والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٠).

بعض، فيتراكم وينعقد ويحمل الماء، ثم تسوقه إلى حيث شاء الله.

وجاء في وجه الشبه بين إحياء الأرض وإحياء الموتى ما قاله ابن عباس وأبو هريرة ﷺ أن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى أمطر الله عليهم ماءً من تحت العرش (يُدْعَى ماء الحياة) أربعين سنة؛ فينبتون كما ينبت الزرع من الماء(١).

وقال مجاهد: إذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى تنشق الأرض، ثم يرسل الأرواح؛ فتعود كل روح إلى جسدها، فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر، كإحيائه الأرض به(٢).

هذا مَثَلٌ يضربه الله سبحانه لعباده؛ ليرتب عليه ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أيها المنكرون للبعث، فكما يخرج الله النبات من الأرض، ويحيي الأرض الميتة، يحييكم من قبوركم بعد موتكم يوم القيامة بعد ما كنتم رفاتًا ممزقين.

أخرج الطبري بسند حسن عن السُّدِّي قال: إن الله يرسل الريح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين، طرف السماء والأرض، من حيث يلتقيان، فيُخرجه من ثَمَّ، ثم ينشره فيبسطه في السماء كيف يشاء، ثم يفتح أبواب السماء؛ فيسيل الماء على السحاب، ثم يمطر السحاب بعد ذلك.

ويوضح معنى الآية قوله تعالى في الآيات التالية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وقوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]

وقوله ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠]

وقوله ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس]

وقوله ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]

وقوله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨].

وهكذا فإن جمع الريح يصاحب الخير والرزق ونزول المطر، كما أن إفراد الريح يصاحب العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات]

---

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» والخازن و«زاد المسير» والبغوي للآية.

(٢) الطبري (١٠/ ٢٥٦) وابن أبي حاتم (٨٦١٣).

وقال سبحانه ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة]

وقال جل شأنه ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف].

وفي الحديث عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا هبت الريح يقول: **«اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا، اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»**[1].

وكون ريح الصرصر والعذاب بالإفراد؛ لأنها شديدة مُهلكة، وشدة الاتصال بأجزائها تجعلها كأنها جسدٌ واحدٌ، أما الرياح فهي منفصلة الأجزاء متغيِّرة المهبِّ؛ ولذا وُصفت بالكثرة.

وذِكْرُ الرياح هو المقصود الأهم في الآية؛ لأنها لا تُرْسَلُ إلا لتبشر بنزول المطر، ولا ينزل المطر إلا بعدها؛ ولذا قُدِّمت على نزول الماء.

وفي الآية تعريضٌ بإنذار المكذِّبين بالله ورسله، وتحذيرٌ لهم أن تَكْثُر عليهم الأرزاق ابتلاء وفتنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧] ولو أنهم استقاموا على منهج الله لرزقهم الله من حيث لم يحتسبوا.

والمراد بالرحمة في الآية: المطر، كما وردت في آيات أخرى سَبَقَ ذِكْرُها، وفيها دَلالة على عِظَمِ قدرة الله تعالى بإنزال نعمة الماء؛ لإغاثة العباد والبلاد، مع أنه سبحانه قادرٌ على إخراج النبات من غير ماء، وفيها دلالة على أن الله تعالى قادرٌ على إحياء الموتى من قبورهم كما أحيا الأرض بوابل السماء.

مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

٥٨- ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ[2] إِلَّا نَكِدًا[3] ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾

---

(١) من حديث ابن عباس في «شفاء العيّ» للشافعي (٥٠٢) وأبي الشيخ (٨٧٣) والبيهقي في «المعرفة» (٢٠٢٩) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٤٦١).

(٢) قرأ ابن وردان بخلف عنه بضم الياء وكسر الراء من (لا يخرج)، والباقون بفتح الياء وضم الراء ومعهم ابن وردان في الوجه الآخر.

(٣) قرأ أبو جعفر بفتح الكاف من (نكدًا) على أنها مصدر، وقرأ الباقون بكسر الكاف اسم فاعل أو صفة مشبهة.

وبعد ذِكْرِ نزول الماء على الأرض الميتة فتحيا بإذن الله تبارك وتعالى، ذكرَ الله عز وجل في هذه الآية تفاوت الأراضي التي ينزل عليها المطر، فمنها طيبة التربة والماء يخرج نباتها بإذن ربها، ومنها أرض سبخة لا تُخرج إلا نباتًا لا نفع فيه ولا بركة، فيتدبرونها ويتأملونها، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي، وهو مادة الحياة، فكما أن الغيث مادة الحياة، فإن القلوب الطيبة تنتفع بالوحي، والقلوب الخبيثة لا يؤثر فيها شيئا بل يمر عليها كما يمر الماء على الرمال والصخور فلا يؤثِّر فيها.

وهكذا يَضرب الله مثلًا في هذه الآية للمؤمن والكافر بعد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وذلك لأن المؤمن الذي ينتفع بالموعظة والذكرى، وينتفع بالقرآن، وينتفع بالعلم -كالأرض الطيبة التي تتشرب الماء، وتنبت الزرع والثمر؛ لأنها أرضٌ خصبةٌ فيها فائدة.

أما الكافر فهو كالأرض السبخة التي لا تتشرب الماء، أو تتشربه ولكنها لا تنبت شيئًا؛ لأنها أرضٌ حجرية صخرية أو رملية.

والأرض الخصبة إذا نزل عليها المطر أخرجت نباتًا طيبًا، وكذلك المؤمن الذي ينتفع بالموعظة، والأرض الرديئة لا تخرج إلا نباتًا رديئًا، وكذلك الكافر الذي لا ينتفع بالدعوة.

ذلكم قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ كالقلب الطيب ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ أي: الأرض السبخة ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ وكذلك القلب الخبيث الكافر، قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي: بمثل هذا التنويع البديع ننوع الحجج والبراهين؛ لإثبات الحق لقوم يشكرون نعم الله ويطيعونه.

عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكانت منها نقية قبلت الماء؛ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس؛ فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل مَن فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثل مَن لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»**[1].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٩) ومسلم (٤/١٧٨٧) برقم (٢٢٨٢) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٥٨٤٣) و«المسند» (١٩٥٧٣)، إسناده صحيح على شرط الشيخين.

فهذا مثل للمؤمن الذي يقول طيبًا ويعمل طيبًا منتفعًا بالموعظة، كالأرض الطيبة التي تثمر طيبًا، أما الكافر فهو كالأرض السبخة التي لا تنتفع بالماء.

فالمعنى: أن الأرض كريمة التربة تخرج نباتًا حسنًا غزيرَ النفع والفائدة؛ بسبب انتفاعها بالماء النازل عليها، وهذا مثل المؤمن صاحب الفطرة الطيبة التي تقبل الهدى وتنتفع به، أما الأرض السبخة فلا يخرج نباتها إلا قليلًا عديم الفائدة؛ بسبب عدم انتفاعها بالماء الذي ينزل عليها كحال الكافر صاحب الفطرة الخبيثة فهو لا يقبل الهدى ولا ينتفع به.

وفيما يأتي ذِكْر لستّة من قصص الأنبياء والمرسلين:

سِتٌ مِنْ قَصَصِ الْمُرْسَلِينَ فِي السُّورَةِ

أَوَّلًا: قِصَّةُ نُوحٍ عليه السلام مَعَ قَوْمِهِ

٥٩- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ[١] إِنِّىٓ[٢] أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

ولما تحدثت الآيات السابقة عن دلائل التوحيد والربوبية، وأقامت الأدلة على صحة البعث بعد الموت، وبيَّنت بعض مظاهر قدرة الله تعالى بعد أن تحدثت عن قصة آدم، وما يدور بين أهل الجنة والنار من حوار، وهذا هو جوهر رسالات الرسل جميعًا، وكل منهم لقي إعراضًا من قومه، أتبع ذلك بذِكْرِ قصص الأمم الخالية، والقرون الماضية، وذكر مصارع المكذبين للرسل في هذه الأمم التي أشار الله سبحانه إلى هلاكها في مطلع السورة في قوله ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ لينبه بذلك على أن إعراض الناس عن قبول الحق هو شيءٌ حاصل في الأمم السابقة، وأن عاقبة المكذبين في كل زمان ومكان هو خسران الدنيا والآخرة، وأن الله تعالى يمهل ولا يهمل، وفي هذا دِلالة على صِدْقِ النبي ﷺ، وإلا فمَن أَعْلَمَهُ ذلك؟

---

(١) قرأ الكسائي وأبو جعفر بخفض الراء وكسر الهاء من (غيره) على أنها صفة أو بدل من (إله) لفظًا، وقرأ الباقون برفع الراء وضم الهاء على أنها صفة أو بدل أيضًا من (إله) محلًا؛ لأن (من) زائدة، و (إله) مبتدأ.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أخاف)، والباقون بإسكانها.

فسورة الأعراف تمثِّلُ صورة ناطقة ومشاهدَ حية من دعوة الرسل إلى أقوامهم، كيف بدأت هذه الدعوة؟ وكيف انتهت؟ وكيف كانت النتيجة؟ وما عاقبة المكذبين والمصدقين بدعوة رسل الله أجمعين؟ كي تعتبر أمةُ محمدٍ ﷺ، وتأخذ الدرس والعِبْرَةَ من قصص الأنبياء والمرسلين، وكيف أيد الله أهل التوحيد، وأهلك من عاندهم، وكيف اتفقت دعوة الرسل على دين واحد ومعتقد واحد.

وقد بدأت سورة الأعراف في أولها بقصة آدم عليه السلام، ثم حذَّرت بني آدم أن يقعوا في حبائل الشيطان، وبينتْ ما يترتب على ذلك من الجزاء يوم القيامة، من النعيم المقيم لمَن خالف الشيطان، والعذاب الأليم لمَن سار في فلك الشيطان.

وبعد ذلك تحدثت سورة الأعراف عن قصة ستة من رسل الله عليهم وعلى نبينا أفضل وأتم التسليم، وهؤلاء الرسل هم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام.

نُبْذَةٌ تَارِيخِيَّةٌ عَنْ رِسَالَةِ نُوحٍ ﷺ

وابتدأت السورة بعد آدم بقصة نوح عليه السلام؛ لأن نوحًا عليه السلام هو شيخ الأنبياء، وأكبر المعمرين، وأكثرهم تحملًا للأذى، وصبرًا على دعوة قومه، وجدُّ نوح الثاني هو إدريس عليه السلام، وينتهي نسبه بشيث بن آدم عليهما السلام.

وبين نوح وآدم عشرة قرون، كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام؛ أي: أن الناس في هذه الفترة بين آدم ونوح كانوا يعبدون الله تعالى وحده، ولا يعرفون الشرك ولا عبادة الأصنام، وكانوا في هذه الفترة على التوحيد الخالص.

ويذكر الباحثون بالاستقراء والتتبع أن بين الطوفان ووقتنا هذا يقدر بثمانين قرنًا من الزمان.

وجاء ذِكْرُ نوحٍ في القرآن الكريم في ثلاثة وأربعين موضعًا من القرآن؛ فقد ذُكرت قصته في سبعة مواضع من القرآن: في سورة الأعراف [٥٩، ٦٤] وهود [٢٥، ٤١] والمؤمنون [٢٣، ٣٠] والشعراء [١٠٥، ١٢٢] والصافات [٧٥، ٨٢] والقمر [٩، ١٧] وسورة نوح كاملة، وجاءت إشاراتٌ طفيفة إلى نوح عليه السلام وقصته مع قومه في سبعة وثلاثين موضعًا في القرآن الكريم.

أول رسول: وقد بيَّن الله سبحانه أن رسالة نوح هي أولُ رسالة هامة واجهت الشرك والمشركين، فهو الذي أُمر أن يُنذر قومه ويخوفهم عذاب يوم أليم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فقد ابتدأ الله سبحانه بنوح في هذه الآية، ثم قال: ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وفي حديث الشفاعة العظمى في الصحيحين وغيرهما أن الناس يوم القيامة، يشتد عليهم الموقف، فيهرعون إلى أبيهم آدم عليه السلام؛ كي يشفع لهم عند الله تعالى، حتى يقضي أو يفصل بينهم، فيشير عليهم أن يذهبوا إلى نوح عليه السلام، فيذهبون إليه، ويقولون له: أنت أول رسول . . . إلخ[1].

ولفظ مسلم أن النبي ﷺ يقول: «**ولكن ائتوا نوحًا أول رسول بعثه الله. . .**»[2].

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث -ومن الآية السابقة- أن نوحًا أول رسول أُرْسِلَ إلى الناس، والصحيح أنه أول رسول أرسل إلى أمة أَشْرَكَتْ بالله تعالى، وقبله كان الناس على التوحيد، وهذا لا ينافي وجود أنبياء قبل نوح عليه السلام.

فقبله كان إدريس عليه السلام، وقد جاء ذِكْرُه في القرآن مرتين في سورة مريم ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم].

وفي سورة الأنبياء ذُكر اسمه ضمن رسل الله سبحانه ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء].

وقبل إدريس كان (شيث) ولد آدم من صلبه، كان نبيًّا، وقد نزلت عليه صحف.

وآدم تلقَّى كلمات من ربه أوحى بها إليه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧] وقد أرسله الله إلى بنيه وذريته وأهله، فهؤلاء الأنبياء -آدم وشيث وإدريس- كانوا قبل نوح، ونوح عليه السلام هو أول أولي العزم الخمسة من الرسل، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا، وقد جاء ذكرهم في آية سورة الشورى [١٣] وهم الذين قال الله فيهم: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]

---

(١) من حديث الشفاعة العظمى في «صحيح البخاري» برقم (٦٥٦٥) من حديث أنس.

(٢) ينظر: الحديث في «صحيح مسلم» برقم (١٩٣).

لأنهم لَاقُوا -أكثر من غيرهم- العنت والأذى من أقوامهم، وفي مقدمتهم نوح ﷺ،

ظهور الشرك: وقد كان الناس قبل نوح على التوحيد الخالص يعبدون الله تعالى وحده، ولمَّا ظهر الشرك وعبادة الأوثان في قوم نوح أرسل الله إليهم نوحًا.

وهكذا كل رسول من رسل الله حين يطغى الشرك على التوحيد، وتذهب معالمه، يُرسل الله تعالى إليهم رسولًا؛ ليردهم إلى عبادة الواحد الديان.

جاء في صحيح البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح] أن آلهة قوم نوح أسماء جماعة صالحين، فلما ماتوا قال قومهم: لو اتخذنا في مجالسهم أنصابًا، فاتخذوها وسموها بأسمائهم حتى إذا هلك أولئك نُسِيَ العلم وعُبدت .

إذن فقوم نوح كانوا يعبدون الله سبحانه، وظهر فيهم قومٌ صالحون، ومن شدة محبة الناس لهم زيَّن الشيطان لهم أن يضعوا لهم صُورًا مجسدة يقيمونها في مجالسهم بعد موتهم، ويُطْلِقُون عليها أسماءهم تشجيعًا لهم على التشبه بهم في عبادة الله تعالى؛ لكي يكون هذا أدعى إلى عبادة الله سبحانه على حدِّ زعمهم.

ثم ذهب هذا الجيل، وجاء الجيل الذي بعده وهكذا؛ فعبدت هذه الصور من دون الله، ونسي الناس أَصْلَ هذه الأصنام، فقبور هؤلاء الأقوام، تماثيل تُعبد من دون الله، وهكذا نَهَى الإسلام عن الصورة المجسدة لأي غرض كان، سواء أكان ذلك تخليدًا لذكرى زعيم، أو أديب، أو حاكم، أو شخصية معروفة، أو غير ذلك، ممَّا يكون في المتاحف، أو الميادين العامة، أو غيرها.

وقد بيَّن النبي ﷺ في حديثه لأم سلمة ؓ أن النصارى هم شرارُ الخَلْقِ عند الله؛ لأنهم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح أقاموا على قبره مسجدًا وصَوَّرُوا فيه هذه الصور، فإن هذا هو الطريق إلى عبادة الأوثان.

لذلك فإن النبي ﷺ شدَّد في هذا الأمر، وقال في حديث ابن مسعود ؓ: «**أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة المصورون**»[1] وهم الذين ينحتون الصور ويجسِّدونها ويجعلونها تماثيل، فإذا نُسي

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في «صحيح مسلم» برقم (٢١٠٩) و«صحيح البخاري» (٥٩٥٠).

التاريخ، فإنها تُعبد من دون الله، وبيَّن عليه الصلاة والسلام أنهم يُؤمرون بنفخ الروح فيها تعجيزًا لهم، فيقال لهم: «**أحيوا ما خلقتم**» وذلك لأنهم يضاهون بذلك خَلْقَ الله[(١)].

وكان من أَمْرِ النبي عليه الصلاة والسلام أن أَرْسَلَ عليَّ بن أبي طالب ﷺ وغيره من الصحابة، وأمرهم بطمس كل صورة وتمثال، وهَدْمِ كل قبر مشرف (أي: ظاهر) على وجه الأرض[(٢)].

وكان من آخر ما قال عليه الصلاة والسلام وهو يفارق الحياة: «**اللهم لا تجعل قبري من بعدي وثنًا يُعْبَدُ، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(٣)].

وقبر النبي عليه الصلاة والسلام إذا طاف الناس حوله، وطلبوا منه جلب النفع ودفع الضر، واعتقدوا ذلك فيه، وسألوه قضاء حاجاتهم، ونذروا له، وذبحوا عنده، فإنهم يكونون بذلك قد صرفوا العبادة إلى رسول الله ﷺ، ويكون قبرُه ﷺ في هذه الحالة وثنًا يعبد من دون الله؛ ومن هنا يظهر جليًّا خطورة الأضرحة والمقابر الموجودة في المساجد في بعض بلاد المسلمين، وخطورة الطواف حولها ودعائها والصلاة عندها، واعتقاد النفع والضر فيها، والذبح عندها، والنذر لها.

فهذا هو المحظور الأول الذي جاءت من أجله الرسالة الأولى رسالة نوح ﷺ، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: كانوا على التوحيد، على دين واحد، فاختلفوا، وعبدوا الأصنام، فلما عبدوا الأصنام أرسل الله الرسل ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] من عبادة هذه الأوثان والأصنام.

---

(١) جاء هذا المعنى في حديث ابن عباس في البخاري برقم (٢٢٢٥، ٥٩٥١، ٥٩٦٣، ٧٠٤٢، ٧٥٥٨) ومسلم (٢١٠٧، ٢١٠٨، ٢١١٠).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي الهيَّاج الأسدي (حيان بن حصين)، برقم (٩٦٩) والمسند (٧٤١، ١٠٦٤) وانظر (٦٨٣) وأخرجه أبو داود (٣٢١٨) والنسائي (٤/ ٨٨) وأبو يعلى (٦١٤) وعبدالرزاق (٦٤٨٧) والطيالسي (١٥٥) والحاكم (١/ ٣٦٩).

(٣) رواه مالك في «الموطأ» من رواية أبي يحيى برقم (١٢٤) ومن رواية الزهري برقم (٥٧٠) عن عطاء بن يسار بسند مرسل، وهو في «المسند» عن أبي هريرة برقم (٧٣٥٨)، بإسناد قوي (محققوه) والحميدي (١٠٢٥) وابن سعد (٢/ ٢٤١) وابن عبدالبر في التمهيد (٥/ ٤٣) والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٤٧).

أطول رسالة: ولمَّا ظهرت الوثنية في قوم نوح أرسله الله تعالى إليهم؛ فأخذ يدعوهم إلى توحيد الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتفنَّن في ذلك مدة طويلة، بلغت تسع مئة وخمسين عامًا بنص القرآن، وعاش نوح قبل الرسالة خمسين عامًا أو أكثر، وبعد الطوفان ظل مُعلمًا وهاديًا في قومه ثلاث مئة وخمسين عامًا، وقيل: ضِعْفُ هذه المدة أو نحوها، وعلى هذا فقد عمَّر نوح ألفًا وثلاث مئة وخمسين عامًا، أو ألفًا وسبع مئة وسبع وثمانين عامًا على قول ابن عباس، وهكذا فقد دعا نوح قومه ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهرًا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ [نوح].

وهذه آيات من سورة في القرآن الكريم سميت باسم (نوح) عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح].

ثمرة دعوة نوح الطويلة:

وبشتى الطرق ظل نوح يدعو قومه هذه المدة الطويلة ألف سنة إلا خمسين عامًا، وبدلًا من إجابته اتهموه بالجنون والضلال، والسفه والافتراء، وكثرة الجدال والحوار، وهددوه بالرجم والضرب؛ فكانوا يجتمعون عليه، ويضربونه ضربًا مبرِّحًا، ثم يخنقونه، وينتظرون أن يموت، ويُطلب منه أن يدعوَ عليهم؛ فيقول: أرجو أن يخرج من أصلابهم مَن يستجيب لدعوتي.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن جبينه ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

ولم يؤمن بنوح خلال هذه المدة الطويلة إلا ثمانون: أربعون رجلًا، وأربعون امرأة، على أكثر الأقوال، وقيل أقل من ذلك، ولكن أكثر الأقوال وأصحها أنهم ثمانون نفْسًا، آمنوا في ألفِ سنة إلا خمسين عامًا؛ أي: بمعدل شخص واحد في أكثر من مئة عام، وكان ممَّن نجا في السفينة (جُرْهُم)، وكان لسانه عربيًّا.

انظروا إلى الصبر، وإلى الجلَد والتحمل، وكيف صبر نوح هذه المدة ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] ثم أوحى الله تعالى إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾

(١) البخاري (٣٤٧٧، ٦٩٢٩) ومسلم (١٧٩٢) وابن ماجه (٤٠٢٥).

[هود: ٣٦] فقد انتهى الأمر، ولن يؤمن بك غير هذا العدد، بل إنهم إذا ولدوا فإنهم لن يلدوا إلا فاجرًا كفارًا، وهنا إخبارٌ من رب العالمين لرسوله نوح ﷺ، فكان الرجل منهم يجمع أولاده ويحذِّرُهم أن يتَّبِعوا هذا الرجل، ويرمونه بالسفه والجنون والضلال، ويحذِّرون أبناءهم من الإيمان به، وعندئذٍ دعا نوح عليهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر].

وفي سورة نوح يقول تعالى عنه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ۝٢٨﴾ [نوح].

الطوفان وسفينة النجاة: أوحى الله ﷻ إلى نوحٍ أنه مهلك قومه بالطوفان، وأمره أن يصنع سفينة النجاة التي ينجو فيها هو ومَن آمن معه، وذهب نوح بعيدًا عن قومه، وأخذ يصنع السفينة، وهم يمرون عليه يتهكمون به، ويسخرون منه ويقولون له: يا نوح، كنت نبيًّا بالأمس، وقد أصبحت اليوم نجارًا.

ولمَّا صنع نوح السفينة أوحى الله إليه أنه إذا جاء الطوفان، وظهرت العلامة الدالة على ذلك، فاركبْ أنت ومَن آمن معك السفينة، وهذه العلامة هي فَوَران التَّنُّور ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] **والتنور**: معروف وهو الفرن الذي يسوَّى فيه الخبز، ومعنى ذلك أن المياه تنْبع من فجاج الأرض، ومن أرجائها جميعًا، حتى يخرج الماء من مواقد النيران، من الأفران؛ أي: التنانير، فإذا ظهر الماء يا نوح، ورأيته يخرج من مواقد النيران، فاركب السفينة أنت ومَن معك، دعا نوح ربه قائلا: رب إني مظلوم، فلبى الله تعالى دعاءه قائلًا: ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ وكانت الإجابة من الله سبحانه على وجه السرعة: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾ [القم].

أمر الله نوحًا ومَن آمن معه أن يركب السفينة، ويحمل معه ذكرًا وأنثى من كلِّ صنف من الكائنات الحية؛ من الحيوانات والطيور والوحوش وغيرها؛ استبقاءً للنسل من هذه المخلوقات.

قالوا: إن نوحًا هو أبو البشر الثاني، وإن الناس قد أُهلكوا جميعًا في عهده، وبَقِيَ منهم هذه البقية التي ركبت السفينة مع نوح، وكان الطوفان قد عمَّ أرجاء المساحة المعمورة من الأرض آنذاك، قيل: إن الماء بلغ نحو خمسة عشر ذراعًا فوق سطح الأرض، وأنه استمر مئة وخمسين يومًا، هي مدة الطوفان.

أولاد نوح: وكان لنوح أربعةُ أولاد؛ هم: سام وحام ويافث وكنعان، قالوا: إن (سام) هو أبو العرب وأشكالهم، و(حام) أبو السودان، ومن على شاكلتهم في اللون، و(يافث) أبو الروم ومَن على شاكلتهم كالترك، وهؤلاء الثلاثة من أبناء نوح آمنوا به، وكانوا معه في السفينة.

أما ابنه الرابع (كنعان) فإنه لم يؤمن بأبيه، وناداه نوح قائلًا: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢] ولكنه أبَى وكان من الكافرين ﴿قَالَ﴾ له: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ﴾ وارتقى كنعان إلى أعلى قمم الجبال الشامخة؛ ليفر من الغرق، ولكن قَدَرُ الله وأمْرُه حال دون ذلك ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] حال الموج بين نوح وابنه ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ من صلبي ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وقد وعدتني بنجاة أهلي ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ﴾ فالإيمان يفرِّقُ بين المؤمن والكافر، ولو كان من صلبك.

لم ينفع ابن نوح أن أباه كان رسولًا، إنما حال بينهما الموج؛ فكان كنعان من المغرقين، وفرَّق الله بينهما ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٖۖ﴾ أو(إنهُ عَمِلَ) عملًا (غيْرَ صَالح) على القراءة الأخرى ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] والله تعالى نهى نوحًا أن يراجعه في غرق القوم، وألا يجادله فيهم، كما نهاه أن يشفع لقومه، وأن يحدثه في شأنهم؛ لأنهم مغرقون.

نجاة أهل السفينة يوم عاشوراء: وبعد هذا الطوفان لم يبقَ كافرٌ على وجه الأرض، فأمر الله سبحانه السماء أن تكف عن إنزال الماء، وأمر الأرض أن تبتلع ما على ظهرها ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ انتقص ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أغرق الله مَن أراد، واستوت السفينة على جبل الجودي قرب الموصل بالعراق، وهو ينتهي إلى أرمينيا، ويتصل بجبالها ﴿وَقِيلَ بُعْدٗا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وقال الله تعالى لنوح: انزل من السفينة أنت ومَن معك بسلام منا وبركات عليك، ونجَّى الله نوحًا ومَن معه، وكانت نجاته في يوم عاشوراء، وصام نوحٌ هذا اليوم شكرًا لله تعالى الذي نجاه وقومه من غرق الطوفان، وصام بنو إسرائيل هذا اليوم، وورثوه عن نوح عليه السلام، ولأن الله تعال نجى فيه موسى أيضًا من الغرق، وصامه أهل مكة، وصامه النبي ﷺ بمكة، وكانت قريش تصومه في الجاهلية، ولمَّا جاء الإسلام صامه المسلمون فرضًا

قبل أن يُفرض صيام رمضان، ثم بيَّن النبي ﷺ بعد أن فُرِضَ صيام رمضان أن مَن شاء صام، ومَن شاء أفطر؛ أي: أن صيام يوم عاشوراء صار سُنَّةً بعد وجوب صوم رمضان، وبيَّن عليه الصلاة والسلام أن صيام يوم عاشوراء يُكَفِّرُ السنة الماضية.

وبيَّن جل شأنه في نهاية قصة نوح من سورة هود أن هذه القصة وأمثالها من المعجزات الدالة على صِدْقِ محمدٍ ﷺ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ فمَن الذي أعلمك إيَّاها يا محمد ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الوحي، ومن قبل هذا القرآن ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

ونمضي مع آيات قصة نوح عليه السلام في هذه السورة:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: والله لقد بعثنا نوح بن لامك بن متوشلح بن إدريس، وهو ابن أربعين سنة -في أصح الأقوال- أرسلناه إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، بعد أن عبدوا الأصنام، وهم أول مَن عبدها، بعد عشرة قرون مضت كان الناس فيها على التوحيد الخالص، منذ آدم إلى نوح.

وكان نوح نجارًا، وسمي نوحًا؛ لكثرة ما ناح على نفسه، وهو أول رسول بعد إدريس، أرسله الله لقوم مشركين فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أخلصوا له الطاعة والعبادة، فهو الذي يستحق العبادة دون سواه، فإن سواه مخلوق مدبّر ليس له من الأمر شيء، فإن لم تخلصوا العبادة لله، وبقيتم على عبادة أوثانكم؛ فإني أخاف أن يحلَّ بكم عذابُ يوم عظيم إن لم تؤمنوا، حيث يكون عقابكم شديدًا يوم لقاء الله، وهذا من نصحه لهم وشفقته عليهم حيث خاف عليهم العذاب الأبدي والشقاء السرمدي، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود]. فلما نصح نوح قومه ردّوا عليه أقبح رد:

٦٠- ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ[1] فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾

أي: ولمَّا حذَّر نوح قومه من عاقبة التكذيب، وأظهر شفقته عليهم إن لم يؤمنوا، قال

(١) أمال الراء حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو، وابن ذكوان بخلْف عنه، وقللها ورش، وفتحها باقي القراء.

أشراف القوم، وهم السادة والكبراء والقادة من قومه: نحن نعتقد أنك يا نوح في دعوتك إيانا لِتَرْكِ عبادة ما وجدنا عليه آباءنا في خطأ بيِّنٍ عن طريق الصواب، وانحراف عن طريق الحق والرشاد، فأنت منغمس في الضلالة، فلم يكفهم أنهم استكبروا عن اتباعه بل نسبوه إلى الضلال، حتى لا تروج دعوته على ضعاف الناس.

والملأ: هم أصحاب الرأي الواحد، ولم تصفهم الآية بالكفر أو التكذيب أو الاستكبار؛ استغناءً بدلالة المقام عليه، ولم يكن هذا جواب قوم نوح عامة، وإنما هو جواب السادة والأشراف الذين امتلأت نفوسهم بحب الرئاسة والجاه والسمعة، وهم المترفون في كل أمة، الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ] فالمترفون والسادة والأشراف هم عقبة الإصلاح في كلِّ زمان ومكان، وهذا حالهم مع الرسل جميعًا، فبمثل هذا قال الملأ من قوم عاد لنبيهم هود، وبمثله قال قوم ثمود لنبيهم صالح، وقال قوم مدين وأصحاب الأيكة لنبيهم شعيب وهكذا ..

أما جمهور الشعب الذين سلمت قلوبهم من الحسد والضغائن، فهم أتباع الرسل في كل زمان، وهم أنصار كل داعٍ إلى الحقِّ، وبهذا أجاب أبو سفيان هرقل حين سأله عمَّن يتبع محمدًا ﷺ أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم، قال هرقل: كذلك أتباع الرسل[1].

فصناديد قريش هم الذين ناصبوا النبي ﷺ العداء، وقلَّبوا له الأمور، وتآمروا على قَتْلِه؛ فخذلهم الله، واستقرت الدعوة، وظهر أَمْرُ الله وهم كارهون.

وفي سورة هود وصف الملأ أتباع نوح بأنهم ضعاف القوم وأراذلهم، ووصفوه بالكذب، وأنه لا يتميز عليهم بشيء ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود].

وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ

---

(١) القصة في «صحيح البخاري» عن ابن عباس برقم (٧) و«صحيح مسلم» (١٧٧٣) مختصرًا.

أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون] فوصف الله الملأ من قوم نوح في سورة هود بالكفر، وفي سورة المؤمنون بالاستكبار، ولم يصِفْهم بشيء في سورة الأعراف؛ لأن هذا أمر معروف لا يحتاج إلى بيان.

نُوحٌ يَصِفُ نَفْسَهُ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ

٦١- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾

نَفَى نوح عليه السلام الضلال عن نفسه في أيِّ مسألة من المسائل، وبأي وجه من الوجوه، ووقف موقف المدافِعِ عن نفسه، ولم يوغر صدره بما اتهموه به من ضلال، بل تلطّف في جوابهم وترفق، لعلهم ينقادون له ﴿قَالَ﴾ نوح مستميلًا لقومه ومدافعًا عن نفسه: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ ثم كشف عن حقيقة دعوته، فوصف نفسه **بصفات أربع**:

الأولى: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أَرْسَلَني ربي وربُّكم ورب العالمين أجمع لهدايتكم وإنقاذكم من الشرك والكفر، وهو الذي ربَّى أجسامكم بنعمه، وربَّى أرواحكم بشرائعه، وأوجب عليَّ تبليغ الرسالة إليكم، وهي تأمركم بالتوحيد والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة وتنهاكم عن ضدها. قال تعالى:

٦٢- ﴿أُبَلِّغُكُمْ[1] رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

الثانية: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ فقد أوحى الله إليَّ بالأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، والمواعظ والزواجر، والبشائر والنُّذُر، والعبادات والمعاملات، وأمرني أن أبلغ دعوة الله إليكم على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم.

والثالثة: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي: أمحض لكم النصيحة، وأحب لكم ما أحبه لنفسي؛ فأبشركم بالثواب والأجر الجزيل إن آمنتم، وأحذركم عذاب الله إن لم تؤمنوا، وهذا شأْنُ رسل الله جميعًا أن يكونوا ناصحين لأقوامهم، كما قال ﷺ لأصحابه يوم عرفة: «**وأنتم**

---

(١) قرأ أبو عمرو بسكون الباء وتخفيف اللام من (أبلغكم) مضارع أبلغ، وقرأ الباقون بفتح الباء وتشديد اللام مضارع بلَّغ.

تسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: «نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرات»[1]، فمهمتي أن أرغبكم في قبول دعوة ربي إليكم، وأعلمكم وجه المصلحة فيها.

الرابعة: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ﴾ أمر ﴿ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأنا أعلم جميع التكاليف والشرائع، وأعلم عاقبة أمركم إن لم تعملوا بها؛ من الغرق بالطوفان في الدنيا، والعذاب يوم لقاء الله، وأعلم من صفات الله قوته الباهرة وبطشه بأعدائه ما تجهلون، وأعلم أن بأسه لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين، فيتعين عليكم أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

والفَرْقُ بين تبليغ الرسالة والنصح أن تبليغ الرسالة هو التعريف بالتكاليف الشرعية، أما النصح فهو الترغيب في قبول هذه التكاليف.

تَعَجُّبُ جَمِيعِ الْأُمَمِ مِنْ بَشَرِيَّةِ جَمِيعِ الرُّسُلِ

٦٣- ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾

وهل أثار عجبكم - أيها المكذبون بالرسالة - أن الله تعالى قد اصطفى رجلًا منكم؟ أوحى إليه بالرسالة؛ ليذكركم ما فيه خيركم؛ لتتقوا محارم الله، وتخشَوْا عذابه؛ فتنالوا رضوانه ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هو الوحي والرسالة التي جاء بها نوح من عند ربه، فنزلت هذه الرسالة ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ تعرفون حسبه ونسبه وصِدْقَه وأمانته ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ويخوفكم عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ سخط الله تعالى، وتخافوا بأسه وعقابه فتؤمنوا به ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فإنكم إن اتقيتم الله تعالى فزتم بالرحمة في الدار الآخرة، وظفرتم بها، وحصل لكم الثواب الجزيل.

وهكذا: فقد ذَكَرَ نوح ﷺ ثلاث علل في هذه الآية لرسالته لقومه؛ وهي: التحذير من العقاب، ولتوجد فيهم التقوى والخشية، وليشملهم الله برحمته.

وكما عجب قوم نوح من كونه رسولًا لهم -وهو رجل منهم- عجب جميع الأمم من رسلهم، قال تعالى عن رسل الله جميعا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ

---

(١) جزء من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (١٢١٨) عن جابر رضي الله عنه في باب حجة الوداع، كتاب الحج.

يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن].

وقال عن قوم صالح: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر].

وقال عن قوم شعيب: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء].

وقال قوم هود عن نبيهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون].

وقد عجب المكذِّبون الأوائل لخاتم الرسل ﷺ من ذلك، فقال الله تعالى عنهم:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ [يونس: ٢]

وقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص]

وقال: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ [ق].

والعجب: انفعال نفسي يحصل عند إدراك شيءٍ غير مألوف، وقد يكون مصحوبًا بالإنكار، قال تعالى:

٦٤- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾

أي فكانت النتيجة بعد هذا النصح الخالص والرد المتواضع من نوح لقومه أن كذبوا نوحًا واتهموه بالجنون؛ فأغرقهم الله تعالى بالطوفان، وأنجى نوحًا ومَن آمن معه في سفينة النجاة ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ وجحدوا حجج الله الواضحة، قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح].

ووصف قومَ نوح بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أعمى الله قلوبهم عن رؤية الحق، وقوم هذا حالهم يستحقون من عذاب الله ما حلَّ بهم؛ بسبب تغافلهم عن الحجة، وتكذيبهم لرسول الله نوح عليه السلام، وأنجى الله المؤمنين الذين انتفعوا بالموعظة والتذكير، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وعاش نوح بعد الطوفان نحو ستين سنة، وهذه سُنَّةُ الله

في خَلْقِه: حسن عاقبة المؤمنين، وسوء عاقبة المكذبين، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن نوحًا لمَّا حضرتْه الوفاة، قال لابنه: إني قاصٌّ عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وُضعتْ في كِفَّة، ووضعت لا إله إلا الله في كِفَّة لرجحت بهن، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كُن حَلْقَةً مبهمة قَصَمَتْهُن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يُرزق كلُّ شيء، وأنهاك عن الشرك والكبر»** قيل: يا رسول الله، ما الكِبْرُ؟ أهو أن يكون للرجل حلة حسنة، وفرس جميل يعجبه جماله؟ قال: **«لا، الكبر سَفَهُ الحق، وغَمْصُ الناس»**(١).

ثانيًا: قِصَّةُ هُودٍ ﷺ مَعَ قَوْمِهِ

٦٥- ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ(٢) ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

نُبْذَةٌ تَارِيخِيَّةٌ عَنْ هُودٍ وَعَادٍ:

وبعد قصة شيخ الأنبياء نوح ﷺ تأتي قصة نبي الله هود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وقد ذُكرت قصة هود في القرآن الكريم بإيجازٍ أحيانًا، وبتفصيل أحيانًا، وبإشارات سريعة أحيانًا أخرى، فهي كالحلقات المتصلة يكمل بعضها بعضًا.

ذُكرت هذه القصة في سورة الأعراف[٦٥،٧٢] وفي السورة التي سُمِّيت باسمه سورة هود [٥٠،٦٠] وفي سورة المؤمنون [٣١،٤١] وفي سورة الشعراء [١٢٣،١٤٠] والذاريات [٤١، ٤٥] والقمر [١٨، ٢٢] والحاقة [٦، ٨] عدا الإشارات السريعة المتفرقة في سور أخرى.

---

(١) «المسند» (٦٥٨٣، ٧١٠١) إسناده صحيح (محققوه) والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨) والبزار في «الكشف» (٣٠٦٩) والحاكم (٤٨/١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٨٦) وصحيح الأدب المفرد (٤٢٦) وينظر «السلسلة الصحيحة» (١٣٤).

(٢) قرأ أبو جعفر بإخفاء تنوين (إله) في غين (غيره) مع الغنة، والباقون بالإظهار، وقرأ أبو جعفر أيضًا بخفض راء (غيره)، والباقون برفعها.

وذكر اسم (هود) في القرآن الكريم سبع مرات، في ثلاث سور هي: الأعراف وهود والشعراء، مرة في الأعراف ومرة في الشعراء، وخمسة في هود.

وهود وصالح عليهما السلام نبيان مُرسَلان، أُرسلا في شبه الجزيرة العربية في قبيلة عاد، وقبيلة ثمود، من العرب البائدة، التي أُبيدت وأُهلكت ولم يبقَ لها أثرٌ، ولا سبيل لمعرفتهم ومعرفة تاريخهم إلا من القرآن الكريم، فقصة هود وصالح لم يُذكرا في التوراة ولا غيرها من الكتب السماوية، وإنما ذُكرا فقط في القرآن الكريم لكونهما في جزيرة العرب.

وهودٌ ينتمي إلى جَدِّه الأكبر عاد، الذي سُميت القبيلة باسمه وهي قوم عاد، الذين أُرسل فيهم نبي الله هود، فهو من القبيلة، أخوهم في النسب، وليست أُخُوَّةً في الدين.

وقوم هود هم عادًا الأولى، أما عادًا الثانية فهم قوم صالح، وبينهما مئة عام، وقوم عاد أمة كبيرة تتكون من ثلاث عشرة قبيلة، وقيل: عشر قبائل.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ فهم ينتمون إلى جدهم الأكبر عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد، وقيل: هو هود بن أرفخشد بن سام بن نوح، فهو على الأول من ذرية عاد، وعلى الثاني من ذرية سام[١].

وقوم عاد من ذرية مَن نجا في السفينة مع نوح، كانوا على التوحيد يعبدون الله سبحانه، فلمَّا ظهرتْ فيهم الأصنام، وعبادة الأوثان، بعد أن طال الأمد وتفرقوا في البلاد، أَرْسَلَ الله تعالى إليهم هودًا، يردُّهم إلى عبادة الواحد القهار ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فإن عبدتم غيره فأنتم مفترون ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وسخطه إن أقمتم على ما أنتم عليه من الكفر ولم تستجيبوا لي.

وهذه الدعوة قالها كل نبي إلى قومه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولعل عبادة الأصنام التي ظهرت بعد الطوفان، بعد أن كان الناس على التوحيد، لعل السبب في ظهورها مرة أخرى، أن الأجيال اللاحقة قد أفرطت في تعظيم وتقديس مَن نجا في السفينة مع نوح؛ فظهر فيهم بعد تعاقب الأجيال من يُعظِّم هؤلاء القوم؛ فتخيلوهم

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٨/ ٢٠٠).

في حجارة أو أشجار ونحوها؛ فعبدوها من دون الله.

وذكر ابن إسحاق أنها ثلاثة أصنام هي: صُداء، وصَمُود، وهُباء، وأشركوها مع الله سبحانه، واعتقدوا أنها تشفع لهم عند الله ﷻ.

فما من رسول أرسله الله سبحانه إلى قومه إلا بعد أن يَظْهر فيهم عبادة الأوثان أو الأصنام، فيرسله الله لهم ليردَّهم إلى التوحيد الذي فُطروا عليه، بعد أن تناستْه الأجيال، وانسلخ منها التوحيد في تعاقب الأمم.

والمكان الذي أُرسل فيه هود ﷺ هو الأحقاف، **والأحقاف**: الجبال الرملية، وهذا المكان معروف قديمًا في اليمن، وفيه قبر هود ﷺ، وهو حاليًا في جنوب الربع الخالي من السعودية، وشمال حضرموت، وشرق عمان.

جاء في الأثر أن علي بن أبي طالب ﷺ قال: إن قبر هود بحضرموت في كثيب أحمر عند رأسه سدرة(١).

الْحِوَارُ بَيْنَ هُودٍ وَقَوْمِهِ

٦٦- ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

أُرسل نبي الله هود إلى قوم عاد، أخوهم في النسب، دعاهم إلى توحيد الله سبحانه، فواجهه الملأ ووقفوا في وجه الدعوة، والملأ في القرآن كلمة تعني الأشراف وكبار القوم الذين يتعرضون للدعوة؛ لأنهم يخافون على كراسيهم ومناصبهم ومكانتهم، وكان من بين الملأ في قوم عاد مَن آمن بهود، ولذلك فإن القرآن الكريم يقول: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: قال الكفار من قومه، وهم الكبراء، وفي قصة نوح قال سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وليس فيه ذكر للكفار؛ لأنه لم يؤمن به منهم أحد، وهؤلاء الكفار اتهموا هودًا ﷺ بالكذب، ورمَوْهُ بالسفاهة والضلال والجنون، وأنه قد أصيب بمس من الآلهة فهو يهذي ويتخبط.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ٥٠٧) وتفسير البغوي للآية وابن كثير عن ابن إسحاق، وقد أخرجه البخاري في تاريخه (١/ ١٣٥) وابن عساكر (٣٦/ ١٣٨).

يا سبحان الله! قوم يصفون نبيهم هذه الأوصاف! كم كان صبر الأنبياء! وكم كان جلَدهم على دعوة أقوامهم وتحملهم في سبيل الله! لم يزد هود على أن قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود] فكان ردهم أن قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما تقول؛ أي: نعتقد أنك كاذب وفيك سفاهة وعقل ناقص، والسفيه هو الذي يردّ الحق ويتكبر عليه، ويسير في ركب الشيطان، ويضع العبادة في غير موضعها.

وقالوا له أيضًا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ [هود: ٥٤] يعني: أن آلهتنا أصابتك بمس فأنت تهذي وتتخبط وبك جنون ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥].

ويرد عليهم نوح ﷺ نافيًا عن نفسه السفاهة ومثبتًا أنه رسول رب العالمين.

٦٧- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

ثم كشف لهم هودٌ عن مصدر الرسالة بعد رميه بالسفه والضلالة ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ لست ناقص العقل وليس بي ضلال ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أمرني ربي أن أدعوكم إلى توحيده وعبادته، وقد جئتكم بالحق من ربي وربكم، ولست كما تزعمون. وقال هود لقومه:

٦٨- ﴿أُبَلِّغُكُمْ[1] رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾

أبلغكم ما بعثني به ربي من الأوامر والنواهي من عند الله ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ فيما دعوتُكم إليه من توحيد الله والعمل بشريعته.

دعا نبي الله هودٌ قومَه، يذكرهم بما أنعم الله به عليهم، ولكنهم قالوا له: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] وعظك ودعوتك لا تجدي ولا تفيد، ثم ذكَّرَهم هود بنعم الله عليهم فقال:

---

(١) سبق ذكر ما في (أبلغكم) من قراءات في قصة نوح عليه السلام.

٦٩- ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً[1] فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

وهل أثار إعجابكم أن أنزل الله إليكم ما يذكّركم بما فيه من الخير لكم على لسان رجل منكم تعرفون نسبه وصدقه؛ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إذ جعلكم تخلفون في الأرض مَن سبقكم بعد هلاكهم، وفي هذا تعريض بقوم نوح الذين استأصلهم الله تعالى، فاعتبروا بالأمم السابقة، وبما حلَّ بمَن كذّبوا رسلهم، واحمدوا الله واشكروه وأطيعوا أمري حتى لا يصيبكم ما أصابهم.

وهكذا انتقل هود من أمرهم بالتوحيد إلى تذكيرهم بنعمة الله عليهم، تذكيرًا من شأنه أن يوصلهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة؛ لأن الإنسان ينسى النعم فيكفر بالمنعِم، فإذا تذكر رأى حقًّا عليه أن يشكر المنعِم، فقال لهم: لقد أنعم الله عليكم، حيث ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ في عمارة الأرض، فقوم عاد أول أمة صنعت الحضارة العمرانية بعد الطوفان، وكان بنو نوح قد تكاثروا وانتشروا في أرمينيا والعراق وبلاد العرب، وكانت عاد أعظم الأمم، ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ وقوة، وفضلكم على غيركم في الرزق والجسم والمال، فاذكروا نعم الله الكثيرة؛ رجاء أن تفوزوا بسعادة الدارين.

وقوم عاد كانوا أشداء أقوياء، بسط الله لهم في الخلق، وقوة البنية الجسدية، كانوا طوالًا عراضًا أقوياء أشداء، ولذلك فإنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ [فصلت: ١٥] ووصفهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء] فهم أهل قوة وبطش.

(١) قرأ الدوري عن أبي عمرو وهشام وخلف عن حمزة ورويس وخلف العاشر بالسين الخالصة في لفظ (بسطة) واختلف عن قنبل والسوسي وابن ذكوان وحفص وخلاد، فلكل منهم السين والصاد، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة، وقد رسمت في المصحف بالصاد، ووضع فوقها سين صغيرة إشارة إلى الراجح في رواية حفص،ومن يقرأ بقصر المد المنفصل لحفص يلزمه أن يقرأ بالسين فقط.

وقد بسط الله لهم في الرزق، فكانوا في ترف ونعيم لا نظير له، فقد فجر الله لهم الأرض عيونًا، وأخرج لهم الزروع والثمار، وكان من حضارتهم أنهم شيدوا القصور والمباني ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾؟ [الشعراء] فأنتم مقيمون بكل تَلٍّ مرتفع من الأرض على القمم العالية، آية في البناء، قصورًا فخمة مشيدة ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء].

تعجّب قوم نوح من عبادة الله وحده، وطلبوا نزول العذاب الذي توعّدهم به إن كان صادقًا:

٧٠- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا[(١)] لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾

قالت عاد لهود في إجابة أقل جفوة وغلظة من جوابهم الأول، وفي محاولة لإرجاعه عمّا دعاهم إليه: أدعَوْتنا لعبادة الله وهَجْر ما ورثناه عن آبائنا فأتنا بالعذاب الذي تُخوفنا به إن كنت صادقًا، وهم بهذا قد فضّلوا ما وجدوا عليه آباءهم من الضلال والشرك وعبادة الأصنام، على توحيد الله تعالى وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم.

وفي آية أخرى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] أي: تصرفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ وهذا كقول زعماء قريش لأبي طالب لما دعاه النبي ﷺ إلى التوحيد: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! وهكذا، فإن تقليد الآباء وتقليد مَن سبق من الأمم آفة كبرى، حتى إن هذا التقليد ليكون في العقيدة، وعلى المسلم في كل حال أن يرجع إلى كتاب الله، وإلى ما صح عن رسول الله ﷺ، وألّا يقلد أحدًا كائنًا مَن كان، إلا إذا كان قدوة صالحة على طريق الحق، فإنه يُتّبع، وما خالف الكتاب والسنة من فِعْل الآباء لا وزن له ولا قيمة.

قال هود عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود]

---

(١) أبدل همزة (أجئتنا) ياء أبو عمرو بخلْف عنه، وأبو جعفر وحمزة عند الوقف، وحققها الباقون ساكنة.

هود ينذر قومه الهلاك: قال سبحانه لهود: فإن تولوا وأعرضوا عنك فقل لهم: لقد ﴿أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧] وهذا إنذار لهم بالعذاب بأن الله تعالى مبيدهم ومدمرهم كما فعل بغيرهم.

وهذا شأن الله سبحانه في الأمم االتي تكذِّبُ رسلها، حيث كان الله سبحانه ينذرهم المرة تلو المرة، ويطلب منهم التوبة، فإذا استمروا على طغيانهم، فإن الله تعالى يستأصلهم؛ لأن مهمة هذه الرسالات كانت مؤقتة، لها وقت معين وزمان معين، وأن أمة محمدٍ ﷺ قد أراد الله لها البقاء إلى يوم القيامة؛ لأن رسالته ﷺ خاتمة الرسالات، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وليس هناك من نبي بعده، ولذلك فإن الله سبحانه رفع هذا النوع من عذاب الإبادة والاستئصال عن أمة محمدٍ ﷺ، وأرجأهم إلى يوم لقاء رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ يا محمدُ، باقيًا حيًّا، وأنت فيهم برسالتك بعد موتك ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

هلاك قوم هود ونجاته ﷺ: لما أَبَى قوم هود أن يدخلوا الإسلام دعا هود ربه ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون].

وكان بَدْءُ العذاب والهلاك الذي حصل لقوم عاد أن حبس الله عنهم المطر ثلاث سنوات، والناس قديمًا لم تكن تعرف مياهًا مخزنة أو جوفية أو غير ذلك، ولم يكن بأيديهم الحصول على الماء في أي وقت، وإنما كان سبيلهم الوحيد هو الماء الذي ينزل من السماء، لا يشربون منه فقط، وإنما تحىٰ به بهائمهم وزراعتهم، وبه يعيشون، وبدونه الحياة تتوقف، حبس الله عنهم المطر ثلاث سنوات، وكان من عادة السابقين الأولين من المشركين إذا أصابهم كرب وضر لجؤوا إلى الله تعالى بالدعاء، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٦٧]

يتعرفون على الله في الشدة، وينسونه في الرخاء ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨]

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم].

إن المشرك يرجع إلى الشرك بعد زوال الشدة، فهو يلجأ إلى الله تعالى في الشدة، وينساه في وقت الرخاء، وهذا شأن المشركين، وهم أفضل من بعض الناس في زماننا، فإنهم لا يلجؤون إلى الله تعالى لا في الرخاء ولا في الشدة، نسأل الله العافية وحسن الخاتمة والعاقبة.

جاء في الأثر[1] أن قوم عاد كانوا إذا أصابهم ضر؛ دعوا الله بحرمة بيته، وكان البيت معروفًا في جميع الملل، فيذهبون إليه ويسألون الله عنده رفع الضر عنهم، وقد أرسل قوم عاد وفدًا منهم مكونًا من سبعين رجلًا؛ ليستسقوا لهم عند الحرم، وفيهم رجل مسلم يكتم إسلامه، اسمه (مرثد بن سعد)، ثم نزلوا على (معاوية بن بكر)، وكانت أمه من قبيلة عاد، وكان يقيم خارج حدود الحرم قريبًا من مكة، فلما وصلوا إليه بعد شهر من مسيرهم، أقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر ويسمعون الغناء، ثم ملَّ منهم الرجل، وأنشد فيهم شعرًا؛ ليرحلوا عنه.

فذهبوا إلى بيت الله الحرام، ودعا (قيل بن عنز) ربه يطلب نزول المطر من السماء؛ فأرسل الله سبحانه ثلاث سحابات: سحابة بيضاء، وسحابة سوداء، وسحابة حمراء، ونودي من السماء عند نزول المطر: أن اختر لنفسك ولقومك واحدة من بين هذه السحابات الثلاث، فاختار السحابة السوداء؛ اعتقادًا أو ظنًّا منه أنها مليئة بالماء والمطر، فنودي: أن اخترت سحابة لا تُبقي من قوم عاد أحدًا، لا والدًا ولا ولدًا.

فأرسل الله سبحانه هذه السحابة على قوم عاد، وهم ينظرون إلى السماء ويتطلعون إلى نزول المطر، فنظروا فوجدوا سحابة في الأفق سوداء كأنها مليئة بالأمطار فاستبشروا وفرحوا ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ هذه سحابة قادمة لتمطر علينا، قال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤]

وكان قوم عاد قد قالوا لهود: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

لم يطلبوا رحمة الله وثوابه وعفوه عنهم، بل قالوا كما قال مشركو مكة: ﴿إِن كَانَ

(١) ينظر: «مسند الإمام أحمد» بإسناد حسن (٣/ ٤٨٢) والنسائي في «السنن الكبرى» وابن إسحاق والترمذي برقم (٣٢٧٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٨١٦) و«تفسير الطبري» (١٢/ ٥١٣) و«تفسير ابن عطية» (٢/ ٤١٨).

﴿هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢] قال قوم عاد لهود عليه السلام: أنت تدَّعي أن الله معذبنا، فأتِ بهذا العذاب إن كنت صادقًا، قال الله سبحانه بل هذا العارض الذي في السحب، هو العذاب الذي استعجلتموه ﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأحقاف: ٢٤] هذه الريح ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

والريح جند من جند الله، يسخرها الله سبحانه لمن يشاء، وعلى مَن يشاء من عباده، إذا أراد الله جل شأنه أن يمحق أقوى القوى وأكبرها في العالم، فإنه سبحانه يرسل عليهم جندًا من جنوده كالريح ونحوها، وهذه الريح وحدها كافية أن تبيد أعتى الأمم، يسخرها الله جل شأنه لهزيمة قوم، ونُصرة آخرين.

وإذا أمسك الله هذه الريح ولو لمدة قليلة فلن يكون هناك هواء يتنفسه الناس، وكانت الريح تحمل الرجل القوي الجبار إلى أعلى، وترطمه في الأرض، وتقذف بالحجارة في وجهه، وكانت الريح تتعقبهم داخل المغارات وداخل الجبال والكهوف؛ لتخرجهم منها ثم تسقُط عليهم وتقتلهم ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾

إنها ريح صرصر عاتية، شديدة البرودة والهبوب، يقول الله سبحانه: ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾ كأنهم لفرط أجسامهم وقوتهم أصول نخل؛ أي: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧]

يقول سبحانه: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨﴾ [الحاقة] إنها ﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٥﴾ [الأحقاف].

وهذه هي الريح العقيم التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات].

وقد أهلك الله بها قوم عاد إلا بطنًا منهم كانوا يقيمون بمكة، يقال لهم: بنو اللوذية، وهم أصل عاد الأخرى، لقد كان العذاب من جنس افتراء القوم، ومن جنس جبروتهم وطغيانهم.

وهكذا يفعل الله بمَن يتجبر من كل أمة عاتية طاغية تعيث في الأرض فسادًا ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ قال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] فماذا كانت العقوبة؟

ذُكرت هذه العقوبة في قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦] هذا في الدنيا.

أما في الآخرة ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝﴾ [الفجر].

أخرج الطبري بسند حسن عن السدي: أن عادًا أتاهم نبي الله هود، فوعظهم وذكَّرهم بما قص الله في القرآن، فكذبوه وكفروا، وسألوه أن يأتيهم العذاب، فقال لهم: إنما العلم عند الله، ولما كفر قوم عاد أصابهم القحط والجدْب حتى جهدوا جهدًا شديدًا، فدعا عليهم هودٌ؛ فبعث الله عليهم الريح العقيم، وهي الريح التي لا تلقح الشجر، فلما نظروا إليه قالوا: هذا عارض ممطرنا، فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فلما رأوْها دخلوا البيوت، فدخلت عليهم، ثم أخرجتهم من البيوت فأصابتهم في يوم شؤم، واستمر عليهم العذاب سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، حسمت كلَّ شيء مرت به.

فأصبحوا كما قال تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تخرجهم من البيوت ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] انقعر من أصوله فخَوَى وسقط، فلما أهلكهم الله أرسل عليهم طيرًا سودًا؛ فنقلتهم إلى البحر فألقتهم فيه فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، ولم تخرج ريح قط إلا بمكيال إلا يومئذ، فإنها عتت على الخزنة فغلبتهم، فلم يعلموا كم كان مكيالها.

وقد أرسل الله عليهم الريح الدبور فأفناهم جميعًا، ولم يُبقِ منهم أحدًا، وهذا معنى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فقطع الله دابر الضلال في أول عصور إعمار الأرض؛ إعدادًا وتطهيرًا للرسالات التي تلي رسالة هود ﷺ.

فماذا قال هود لقومه بعد أن تحدّوْه أن يأتي لهم بالعذاب الذي توعدّهم به:

٧١- ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝﴾

أي: أن العذاب الذي وعدتكم به لابد من وقوعه، فإن أسبابه قد انعقدت، وحان وقت الهلاك، إذ كيف تجادلونني في أمور لا حقائق لها، وآلهة سمّيتوها بأنفسكم، ولو كانت صحيحة

لبيّن الله ما فيها من الحجج، فانتظروا ما يحل بكم من العقاب قريبًا فإني منتظر وقوعه بكم.

وهكذا في نهاية قصة قوم هود يأتي جوابه لقومه حاسمًا سريعًا منذرًا بحلول عذاب الله بهم، وغضبه عليهم، مع تصحيحه لانحراف فطرتهم، وبيان أن ما يعبدونه من دون الله ما هو إلا أسماء لآلهة اختلقوها وزعموها هم وآباؤهم دون أن يكون لها برهان ولا حجة، فهي مخلوقة لا تملك ضرًّا ولا نفعًا، والمعبود بحق هو ربُّ الخلق أجمعين، وهذه الأصنام مجرد أسماء ليست لها حقائق.

ثم هددهم وتوعدهم بقوله: فانتظروا نزول العذاب بكم، فإني منتظره معكم، قال ذلك تأدبًا مع الله تعالى كما لقنه ربه، ومن الجائز أن هودًا كان يخاف أن يشمله العذاب النازل بقومه، كما في الحديث عن زينب بنت جحش ﵂: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[1] وقد ورد أن الله تعالى أمر هودًا بمغادرة ديار قومه قبل نزول العذاب بهم، ولهذا فرّق الله بين الفريقين فقال:

٧٢- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾

أي: ولما أرسل الله عليهم الريح العاتية التي أتت عليهم؛ نجى الله هودًا ومَن آمن معه بفضل الله ورحمته، أما الكفار المكذِّبون من قومه فقد أهلكهم الله تعالى وأتى على آخرهم، وقطع دابرهم، والسبب في هذا أنهم جمعوا بين الكفر والتكذيب، وترك العمل الصالح، ولم يكونوا مؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وطويت صفحة من صفحات المكذبين، وتحقق النذير بعد عدم جدوى التحذير ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]

ثالثًا: قِصَّةُ صَالِحٍ ﵇ مَعَ قَوْمِهِ

٧٣- ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

---

(١) الحديث في البخاري (٣٣٤٦، ٣٥٩٨) ومسلم (٢٨٨٠).

نبذة عن نبي الله صالح وقومه:

تأتي قصة قوم ثمود بعد قصة قوم عاد وكان بينهما مئة عام، كما جاءت في سورة هود؛ لتذكُر لنا صفحة من صفحات البشرية، وقوم ثمود أُرسل فيهم نبي الله صالح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وثمود هو الجد الخامس للقبيلة، وهو ابن غاثن بن إرم بن سام بن نوح، وهود وصالح نبيان عربيان، وكذا إسماعيل وشعيب.

وصالح من قبيلة ثمود، ينتمي إلى إرم بن سام بن نوح.

قال ابن عباس: كان هود أول مَن تكلم بالعربية، ووُلد لهود أربعة: قحطان، ويقْحط، وقاحط، وفالغ، فهو أبو مُضَر، وقحطان أبو اليمن، والباقون ليس لهم نسل(١).

وقد أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة أن هودًا عمَّر أربع مئة واثنتين وسبعين سنة.

وقد ذُكرت قصته مع قومه في سور: الأعراف وهود والشعراء والنمل والقمر والذاريات وغيرها.

وجاء ذكر (صالح) في القرآن تسع مرات: ثلاثة في الأعراف، ومرة في الشعراء، ومرة في النمل، وأربعة في هود.

وثمود وصالح ينتسبان إلى سام بن نوح، وهو الجد الثاني لهما، وقوم ثمود هم قوم صالح وقوم عاد الآخرة، وقوم عاد الأولى هم قوم هود، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠﴾ [النجم] أي: قوم عاد، نبيهم هود عليه السلام، أما قوم صالح فهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١﴾ [النجم] ورسالة هود وصالح كانتا بعد نوح وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

عادًا الأولى وعادًا الأخرى: وكانت رسالة صالح عليه السلام في شمال الجزيرة العربية شمال المدينة النبوية في الحِجْرِ، قرب وادي القرى، وشرق الأردن في مدائن صالح.

ورسالة هود عليه السلام كانت في جنوب الجزيرة العربية في الربع الخالي، قرب حضرموت، أو الأحقاف، وقد أخبر النبي ﷺ أن هودًا وصالحًا حجًا البيت، ومرًا بوادي عُسفان على

(١) أخرجه إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق عطاء عن ابن عباس، كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٥).

بكرات حمر خطُمها الليف[1]، ولا يلزم أنهما حجًا في وقت واحد؛ لأن بينهما زمن طويل، وإنما حج كلٌّ منهما ومر بالوادي.

وقوم ثمود ورَّثهم الله سبحانه الأرض بعد قوم عاد، فكانوا أهل حضارة عمرانية لم يشهد لها التاريخ مثيلًا، كانوا يسكنون الصخور والجبال والهضاب، فاتخذوا من السهول قصورًا يقيمون فيها في الصيف، واتخذوا من الجبال بيوتًا ينحتونها ويقيمون فيها في الشتاء، وكانوا أهل ترف ونعيم ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ لَا وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء]

وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾ [الفجر] أي: نحتوا الصخر بوادي القرى، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحج] ومَن كذَّب رسولًا فقد كذَّب المرسلين جميعًا، والمراد هنا نبي الله صالح عليه السلام.

صالح يدعو قومه إلى عبادة الله: عَبَدَ قوم ثمود الأصنام بعد أن اندثرت رسالة هود والتوحيد الذي جاء به؛ فأرسل الله إليهم صالحًا ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ فدعاهم إلى التوحيد وأمرهم بما أمر به كل رسول قومه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

أي: ولقد بعثنا إلى قبيلة ثمود أخاهم في النسب صالحًا؛ لمَّا عبدوا الأوثان من دون الله، وعاثوا في الأرض فسادًا، فأمرهم أن يعبدوا الله وحده خالقهم ورازقهم، فهو سبحانه المستحق للعبادة دون سواه، فقد كان قوم ثمود موحدين، ولعلهم اتعظوا بما حلَّ بقوم عاد، فهم أبناء نسب واحد، ثم طالت مدتهم، واتسعت حضارتهم، ونعم عيشهم؛ فعثوا في الأرض فسادًا، ونسوا الله وعبدوا الأوثان التي كان يعبدها قوم عاد، فأرسل الله إليهم صالحًا يدعوهم إلى التوحيد، فلم يتبعه إلا قلة مستضعفة، وعصى أشرافهم وكبراؤهم، ولكنهم لم يُغلظوا له في القول كما أغلظ قوم نوح وقوم هود، بل قالوا له: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]، كنا نرجوا فيك رجاحة العقل قبل أن

---

(١) ينظر الحديث الذي أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٣٢) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٢٠): فيه زمعة بن صالح، وفيه كلام، وقد وُثق.

تأتينا بهذه الدعوة!

فأمهلهم الله مدة لينظروا ويتأملوا ما جاءهم به صالح قبل أن يؤيده الله بالناقة الدالة على صِدْقِ دعوته، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]

أي: جعلكم تعمرون الأرض بعد قوم عاد الذين أهلكهم الله وأبادهم.

وكلمة استعمار كلمة حسنة، وهي تخالف الاحتلال، ومن الخطأ إطلاقها عليه، فالاحتلال أن يحتل العدو أرضك، أما أن يستعمرها، فهذا مصطلح حسن، فمعنى استعمرها: عمَّرها بعد خراب، والأمر ليس كذلك بالنسبة للعدو الذي يحتل جزءًا من وطن المسلمين.

كان موقف قوم ثمود تجاه دعوة نبي الله صالح أن ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ كنا نظن أنك صاحب عقل وحكمة قبل أن تدعونا إلى هذه الدعوة، كنت فينا مرجوًّا نؤمل فيك خيرًا قبل هذه الدعوة ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؟ فقد وجدنا آباءنا كذلك يعبدون هذه الأصنام فجئت تنهانا عن عبادتها ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: أن هذا الذي تقوله نحن في شك منه، ولا نؤمن به، ولا نعتبره شيئًا مفيدًا.

قوم صالح يطلبون منه معجزة معينة تدل على صدق دعواه:

أَلحَّ صالح عليهم في الدعوة إلى الله سبحانه، قال لهم: لقد أرسلني الله إليكم وأمرني بذلك ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ وكتمتُ هذا الوحي وهذه الرسالة، ولم أبلِّغها لكم، مَن ينصرني من الله إن عصيته؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

قال سيد القوم (جندع بن عمرو) لصالح: إن كنت تريد أن نؤمن لك ونصدقك فأتِ لنا بمعجزة تدل على صدق دعواك، وعيَّنوا له معجزة بذاتها؛ فطلبوا منه أن يُخرج لهم ناقة عُشَراء (حامل) من صخرة معينة منفردة في ناحية الحِجْر، يقال لها: الكاتبة، قالوا له: أخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عُشَراء في بطنها مولود، قال لهم صالح: إن فعل الله لكم ذلك، تؤمنوا بي؟ قالوا: نعم، فأخذ عليهم العهد والميثاق إن أجاب الله مطلبهم أن يؤمنوا به ويصدقوه، وتوجه إلى الله ﷻ يدعوه ويطلب منه المعجزة التي طلبوها نصرة لدينه.

ثم توجه إلى الصخرة التي عينوها، ومعه القوم، فانفلقت الصخرة، وأخرج الله منها

ناقة يتحرك جنينها بين جَنْبَيْها أمام أعينهم كما سألوا، إنها معجزة تجعل قلب القاسي يلين، والكافر يؤمن، لقد تحقق لهم ما طلبوه في لحظة أمام أعينهم، وهم ينظرون ويرون خروج الناقة من الصخرة، خلقها الله بلا ذكر ولا أنثى خلقًا مميزًا، كما خلق سبحانه آدم بلا ذكر ولا أنثى، ولذلك أضافها الله سبحانه إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا.

قال لهم صالح: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهي البرهان الذي طلبتموه دليلًا على صدق رسالتي، ها هو ماثل أمامكم ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ خلقها بلا واسطة، بلا تلقيح ولا حمل، لقد جعل الله سبحانه لهذه الناقة خصائص مميزة عن سائر الحيوانات ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أمرهم ألا يمسوها بسوء، وقال لهم: اتركوها تأكل في أرض الله ولا تقربوها بأذى، فهي لا تُذبح كما تُذبح النياق، ولا تُطرد، ولا تُعذب، ولا يُحمل عليها، ولا تُضرب، إنكم إن فعلتم شيئًا من ذلك عرَّضتم أنفسكم لعقاب الله تعالى.

وهكذا دعا صالح قومه لتوحيد الله أوَّلًا، ثم أخبرهم بأن الله تعالى قد أيده بمعجزة بينة تُصَدِّق أنه مرسَلٌ من عند الله، وفي سورة هود جاء ذِكْرُ المعجزة بعد أن ردوا دعوته، وصرحوا له بأنهم شكوا في صدقه، وجاء في سورة الشعراء أن القوم تحدّوْه أن يأتي لهم بمعجزة تدل على صدقه بعد أن دعاهم إلى توحيد الله تعالى، ويستفاد من مجموع السور أن الدعوة إلى الله والتخويف من بطشه وعذابه كان أوَّلًا، وأن تأييده بالمعجزة كان ثانيًا بعد طلبهم لها.

صَالِحٌ يُذَكِّرُ قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ

٧٤- ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا[1] فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

ذكَّر صالحٌ قومَه بنِعَم الله تعالى عليهم، بعد أن بلَّغهم وأنذرهم، حيث جعلهم يخلفون قوم عاد في عمارة الأرض بعد أن أهلكهم الله تعالى، فمكَّن لهم في الأرض بعدهم،

---

(١) قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الباء من (بيوتًا)، والباقون بضمها.

وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها، وذللها الله لهم، بحيث يبنون البيوت العظيمة في سهولها، وينحتون بيوتًا أخرى في جبالها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون، وجعلكم خلفاء لهم في الحضارة والعمران والقوة والبأس، وبوأكم في الأرض وجعلها منازل لكم، وألهمكم فنون الصناعة والتجارة وهندسة البناء، وعلّمكم فن النحت وسُكْنَى الجبال والسهول؛ لأجل الزراعة والعمل ومعرفة وسائل العمران، فلا تلوثوا أنفسكم بالمعاصي ولا تدنسوها بالجرائم، واذكروا هذه النعم، ولا تسعَوْا بالإفساد في الأرض، بل اشكروا فضل الله عليكم واستعملوها لما فيه صلاحكم.

الحِوَارُ بَيْنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَالضُّعَفَاءِ:

٧٥- ﴿قَالَ[1] ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وهكذا عاشتِ الناقة فترة بين القوم، وكذا فصيلها التي أنجبَتْه معها، تشرب ماء البئر يومًا، ويشربه القوم يومًا، وكان عندهم بئر كبيرة تسمى بئر الناقة، يتناوبون شرب مائها، للناقة يوم تشرب فيه ماء البئر، ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يشربون ماء البئر والناقة لا تقربها فيه.

وكان سيد القوم قد آمن بصالح لمَّا رأى خروج الناقة، ومعه عدد كبير من المستضعفين، واستمر الملأ والكبراء -الذين يخافون على سلطانهم وعلى جاههم ومنزلتهم بين الناس- استمروا على كفرهم، فصار الناس بين مؤمن وكافر.

وهذا هو الحوار الذي دار بين المستكبرين والمستضعفين وسجَّلَتْه سورة الأعراف ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ وهم السادة الكبراء ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم عقبة الإصلاح في كل زمان، الذين يثقُل عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم، ويخضعوا للأوامر والنواهي، فالتَّكَبُّرُ هو الذي صرفهم عن طاعة نبيهم، وهو الذي منعهم من اتباعه، قالوا للمستضعفين الذين آمنوا منهم

---

(١) قرأ ابن عامر بزيادة واو قبل (قال الملأ) عطفًا على ما قبلها وموافقة لرسم المصحف الشامي، وقرأ الباقون بدون؛ اكتفاء بالربط المعنوي، وموافقة لرسم بقية المصاحف.

على سبيل الاستهزاء والسخرية: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ على وجه الحقيقة، أهو صادق أم كاذب؟

قال المستضعفون: نعم إنا مؤمنون به متبعون لشرعه ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فآمن به بعضُ قومه من المستضعفين، وقالوا: نحن نؤمن بوحدانية الله تعالى، ونمتثل أمره ونجتنب نهيه ونصدق خبره.

٧٦- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه موقف السادة والأشراف من دعوة صالح، وأنهم قد تنصَّلوا من إيمان الضعفاء، وثبتوا على كفرهم، وخالفوا مَن آمن به ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ واستعلوا على الإيمان بصالح ﷺ: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون غير مصدقين، لم يذكروا وصفًا لرسالة صالح، وإنما قالوا كما قال فرعون: إنه آمن بما آمنت به بنو إسرائيل، وهؤلاء قالوا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. لن نصدقه ولن ننقاد لدعوته.

عَقْرُ النَّاقَةِ وَنُزُولُ الْعَذَابِ بِقَوْمِ ثَمُودَ

٧٧- ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ[1] ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

ولمَّا صدع المستكبرون بتكذيب نبي الله صالح؛ عزموا على إغاظته هو ومَن آمن به، فاعتدَوْا على الناقة؛ لئلا يزداد عدد المؤمنين به، فاتفقوا على عقرها، ونفَّذ ذلك أحدهم وهو (قدار بن سالف)، وتحدّوْا صالحًا أن يأتيهم بعذاب الله، فأرسل الله عليهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين.

حديث البئر والناقة: وقد كان الماء قليلًا في قوم ثمود، **والثَّمْدُ:** هو الماء القليل،

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (يا صالح ائتنا) ياء حال وصل الكلمتين ببعضهما، وكذا حمزة عند الوقف على (ائتنا)، والباقون بهمزة ساكنة حال الوصل، وعند البدء بلفظ (ائتنا) ينطق بهمزة مكسورة بعدها ياء مدية، وهكذا كل همزة قطع ساكنة وقعت بعد همزة وصل، فإن همزة الوصل تثبت، وتبدل همزة القطع حرف مجانس لما قبلها.

فسميت القبيلة قبيلة ثمود؛ لأن الماء كان قليلًا، ولهم بئر يقال لها: بئر ثمود، يشربون منه.

والنبي ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك سنة تسع من الهجرة مرَّ بديارهم، ونزل عند بئر الناقة، ومنع أصحابه أن يشربوا من آبارهم ومياههم، وأمرهم أن يسكبوا العجين الذي خلطوه بمائهم، ويجعلوه علفًا للإبل، وأمرهم ألا يدخلوا منازلهم إلا وهم خاشعون باكون، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: **«لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم»** ثم قنع رأسه، وأسرع السير حتى جاوزوا الوادي(١).

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر رضي الله عنه قال: نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك، الحِجْر، عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود؛ فعجنوا منها، ونصبوا منها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين للإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبُوا، وقال: **«إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»**(٢).

ومن خصائص هذه الناقة أن الله جل شأنه جعل ماء البئر الذي هو ماء القبيلة قسمةً بين القبيلة كلها وبين الناقة، فهي تشرب وحدها يومًا، والقبيلة تشرب يومًا ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر]. فكان القوم وحيواناتهم ووحوشهم يشربون في يوم، والناقة لا تَرِدُ الماء من نفسها في هذا اليوم، واليوم الآخر تشرب الناقة وحدها، تدلي برأسها في البئر فتأتي عليه مرة واحدة، وفي هذا اليوم يحلبها القوم ويأخذون الحليب الذي يكفيهم يومهم ويملؤون أوانيهم، فكان اليوم الذي لا يشربون فيه من الماء يشربون فيه من حليب الناقة، معجزة عجيبة صحت عن رسول الله ﷺ ونطق بها القرآن الكريم، ومع هذا فقد أرادوا عقر الناقة.

---

(١) ينظر البخاري برقم (٤٣٣، ٣٣٨١، ٤٧٠٢) ومسلم (٤/ ٢٢٨٥) برقم (٢٩٨٠) و«المسند» (٢/ ٧٤) من حديث عبد الله بن عمر برقم (٥٣٤٢، ٤٥٦١، ٥٧٠٥)، بإسناد صحيح ورجال ثقات، (محققوه) وعبدالرزاق (١٦٢٤).

(٢) «المسند» (١٢٧١٢) الحلبي (٢/ ١١٧)، وانظر الحديث السابق وتخريجه.

عقر الناقة: ولعل بعض القوم تأذى من وجود هذه الناقة، وتأذى من دعوة صالح للتوحيد، وتأذى بعض أرباب الأغنام بناقة صالح، فدبَّروا المكيدة بعقر الناقة؛ استخفافًا منهم بوعيد الله تعالى، واستعلاء على امتثال أمره، وقالوا لصالح على سبيل استبعاد نزول العذاب بهم والاستهزاء بوعيده لهم: ائتنا بعذاب الله، وما تتوعدنا به، إن كنت من رسل الله صادقًا فيما تقول، ونفَّذوا مقالتهم، وقاموا بقتل الناقة معرضين بذلك عن أمر ربهم، واستغلُّوا النساء لإغواء الرجال أن يقتلوا الناقة.

فهذه امرأة ذات حسب ونسب ومال وجمال، اسمها (صدوف بنت المحيا) تَعْرِضُ نفسها على رجل منهم إن هو عقر الناقة، فإن عقرها يكون هذا العقر مهرها للزواج منه، فأَبَى.

وامرأة أخرى عجوز تُكْنَى (أم غنم) عندها أغنام كثيرة، وهي ممن كفرْن بصالح، وكان زوجها (ذؤاب بن عمرو) من رؤساء القوم، هذه المرأة كان عندها بنات حسان، عرضت أجملهن على رجل يقال له: (قدار بن سالف) وهو أشقى القوم الذي عقر الناقة، **والعقر**: هو قطع عرقوب البعير، والعقر أيضًا هو النحر، وقد وصفه ربنا بقوله: ﴿إِذِ انۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ قالت له (أم غنم): إن أنت عقرت الناقة أزوِّجك ابنتي هذه، وكشفت له عن وجهها الحسن، وتبعه في ذلك ثمانية من القوم، فكانوا تسعة تآمروا على قتل الناقة ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل] انتظَروا خروج الناقة ليعقروها.

وتآمر هؤلاء التسعة على قتل الناقة؛ فاختبؤوا لها، ومن خارج مورد الماء رُميت الناقة بسهم من رجل يقال له: (مصدع بن مهرج)، فخرجت (أم غنم) وأغرت (قدار) بابنتها إن هو أجهز على الناقة فرماها بسهم فأصابها في ساقها، ثم مال بسيفه على قوائمها فقطعها، ثم أجهز عليها من لابتها، وأرادوا قتل فصيلها، ولكن الله تعالى منعهم منه، ثم جاء الفصيل إلى نبي الله صالح، وهو يبكي، له رغاء بصوت مسموع ثلاث مرات، فقال الله لهم على لسان صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود: ٦٥] يأتيكم العذاب بعد أيام ثلاثة.

نزول العذاب بقوم ثمود: ولما قال لهم ذلك قالوا: نحن سنقضي على صالح أيضًا ونقتله، فيلحق بناقته، فتآمر هؤلاء التسعة على قتل صالح، وأخذوا على أنفسهم العهد المؤكد باليمين على الخلاص منه ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ أي: تآمروا على

قتله، وعلى قتل أهله وإخفاء جريمتهم ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أولياء الدم ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

ولما بيتوا النية على الفتك بصالح أمطرهم الله بحجارة من السماء، حالت بينهم وبين أن يمسوا صالحًا بسوء ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران] ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾ [النمل] قيل: إن المسافة التي أهلكتها الصيحة تبلغ ثمانية عشر ميلًا، هي بلاد الحِجْرِ ومراتعها إلى وادي القرى وما حوله[1]. قال تعالى:

٧٨- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾

قيل: إن عقر الناقة كان يوم الأربعاء، فلمَّا كان يوم الخميس اصفرَّت وجوههم وتغير لونها، ولما كان يوم الجمعة احمرت وجوههم، وكان بعض القوم ينادي بعضًا قائلًا: ذهب اليوم الأول، ذهب اليوم الثاني، ولمَّا كان يوم السبت اسودَّت وجوههم كالقار الأسود، فلما أشرقت الشمس في يوم الأحد، كانت الصيحة التي صاح بها جبريل؛ فارتجفت الأرض واضطربت، وزُلزلت تحت أقدامهم، وجاءتهم الصاعقة من السماء؛ فأزهقت أرواحهم في لحظة واحدة.

والقرآن الكريم عبَّر هنا بالرجفة، حيث أخذت الكفار الزلزلة الشديدة التي خلعت قلوبهم؛ فأصبحوا في بلدهم هالكين، لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم، ميتين هامدين.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت].

وعبَّر القرآن في سورة الذاريات[٤٤] بالصاعقة ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، وفي سورة هود[٦٧] بالصيحة ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، وفي سورة الحاقة [٥] بالطاغية ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ وكلها يكمل بعضها بعضًا؛ بمعنى: أن الرجفة أخذتهم من تحت أقدامهم، وصاح بهم جبريل من فوقهم فكانت

(١) ينظر في هذا: «تفسير الطبري» (١٢/ ٢٩٥) وما بعدها و«تفسير ابن عطية» (٢/ ٤٢٢) وما بعدها و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٤٠) وما بعدها و«تفسير الخازن» وابن الجوزي والبغوي للآية.

الطاغية؛ أي: الداهية والمصيبة العامة، وصُعقوا كما يصعق الإنسان بالكهرباء، **فالرجفة**: هي الزلزلة والاضطراب.

والصيحة: هي الصوت المرتفع المفزع، **والصاعقة**: هي الشرارة الكهربائية التي تتصل بالأرض فتحدث تأثيرات عظيمة، فهم قد سقطوا على ركبهم مصعوقين، وجثموا هامدين خامدين، وتلك عقوبة عامة لا تصيب الظالم وحده ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

قيل: لم ينجُ من لحظتها إلا جارية، ورجل ممَّن هم في الديار، قُتلا بعد ذلك؛ حيث إن هذه الجارية كانت مقعدة مشلولة، يقال لها: (الزريقة)، كانت كافرة شديدة العداوة لصالح ﷺ، فلما رأت هول العذاب انطلقت فأخذت تجري وذهبت إلى حيٍّ قومها، وهي تصف لهم العذاب الذي رأته ينزل بقومها، فطلبت منهم أن تشرب، فلما شربت ماتت، وقد حدث هذا لحكمة أرادها الله سبحانه، حتى يعتبر المعتبرون.

والرجل هو (أبو رِغال) والد ثقيف، وهي القبيلة التي سكنت الطائف، وكان أبو رغال وقت نزول العذاب في الحرم، فلم ينزل به العذاب لحظتها، ولمَّا خرج من الحرم أصابه ما أصاب القوم فجاءه حَجَرٌ من السماء فقتله.

١- عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ لمَّا نزل الحجر، قام فخطب الناس فقال: «**يأيها الناس، لا تسألوا نبيكم عن الآيات، فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية، فبعث الله إليهم ناقة، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يومَ وِرْدها، ويحتلبون من لبنها مثل الذي كانوا يأخذون من مائها يوم غِبِّها، وتصْدُر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام، وكان وعدًا من الله غير مكذوب، ثم جاءتهم الصيحة؛ فأهلك الله مَن كان منهم تحت مشارق الأرض ومغاربها، إلا رجلًا كان في حرم الله، فمنعه حرم الله من عذاب الله**» فقيل: يا رسول الله، من هو؟ قال: «**(أبو رِغال)، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومَه**»[1].

٢- وفي لفظ آخر عن جابر ﷺ أيضًا قال: لما مرَّ النبي ﷺ بالحِجْرِ قال: «**لا تسألوا**

---

(١) «المسند» (١٤١٦٠) والبزار (١٨٤٤) كشف والطبراني (٩٠٦٩) والحاكم (٢/ ٣٢٠) وابن أبي حاتم (٨٦٨٥) والطبري (١٠/ ٢٩٦) قال محققو «المسند»: حديث قوي، وهذا إسناد على شرط مسلم.

الآيات، فقد سألها قوم صالح، فكانت (يعني: الناقة) ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوْا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا، ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحة، أخمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله» قالوا: مَن هو يا رسول الله؟ قال: **«أبو رِغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»**[1].

٣- وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال: **«هذا قبر (أبي رغال)، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يَدْفَعُ عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن ومعه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه، فابتدره الناس، فاستخرجوا منه الغصن»**[2].

ولم يذكُر القرآن أن دابر قوم ثمود قد انقطع، ومن الجائز أن تكون قبيلة ثقيف من بقايا ثمود؛ أي: ممن نجا منهم، فقد رُوي أن صالحًا خرج قبل حلول العذاب بقومه ومعه مئة وعشرة من المؤمنين، فسكنوا فلسطين وما حولها، فلما هلك قوم ثمود رجع صالح ومَن آمن معه إلى ديارهم[3].

صَالِحٌ يُعَاتِبُ قَوْمَهُ عَلَى عَدَمِ إِيمَانِهِمْ

٧٩- ﴿فَتَوَلَّىٰ[4] عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾

أعرض صالح عن قومه حين عقروا الناقة وحل بهم الهلاك، وقال لهم: يا قوم لقد أبلغتكم ما أمرني ربي بإبلاغه لكم من الأوامر والنواهي، وقد بذلتُ لكم ما في وسعي من النصيحة

(١) «المسند» (٣/ ٢٩٦) برقم (١٤١٦٠) حديث قوي، إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩٤): رجال أحمد رجال الصحيح، وقال الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٢٠): صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي و«تفسير الطبري» (١٢/ ٥٣٧) وبرقم (١٤٨١٧) و«صحيح ابن حبان» برقم (٦١٩٧) وحسنه ابن حجر في الفتح (٦/ ٢٧٠) وهو عند البزار (١٨٤٤).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (٣٠٨٨) ورواه مرسلًا عبد الرزاق في «المصنف» برقم (٢٠٩٨٩) وفي التفسير (١/ ١١٩).

(٣) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٢٧١٨).

(٤) أمال حمزة والكسائي وخلف (فتولى) وقللها ورش بخلفه، وفتحها الباقون.

والترغيب والترهيب، وحرصتُ على هدايتكم، واجتهدتُ في الأخذ بيدكم إلى طريق النجاة، ولكنكم رددتم قولي، وأعرضتم عن النصيحة، وأطعتم الشيطان الرجيم.

وهذا تقريعٌ من صالح لقومه بعد موتهم لمَّا أهلكهم الله تعالى، وفيه تحسُّر وتفجُّع وتوجُّع عليهم، فهو يقول لهم: لقد بلغتكم الرسالة، وحذرتكم عذاب الله، وبذلت وسعي في نصحكم، ولكنكم تبغضون الناصحين وتعادونهم، ولم تزالوا كذلك حتى ألقيتم بأنفسكم إلى التهلكة، وتحقق ما قلته لكم، وهذا يشبه ما قاله النبي ﷺ لقتلى بدر وكان ﷺ قد حدّد أماكن دفنهم:

جاء في الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ وقف على قليب أهل بدر من قتلى المشركين وقال: «**هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا**» قال عمر: يا رسول الله، ما تُكلم من قوم قد جيفوا فقال: «**والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون**».

ومما قاله النبي ﷺ لأهل القليب: «**يا أهل القليب، بئس عشرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس**» ثم قال: «﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾»[1] [الأعراف: ٤٤].

والأَوْلَى من هذا أن صالحًا قد خاطب قومه بذلك وهم أحياء؛ لأن هذا الخطاب يليق بالأحياء، أما الفرقة المؤمنة من قوم صالح فقد خرج بهم صالح قبل نزول العذاب بالمكذبين.

وقيل: إن صالحًا قد تُوفي بمكة، وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وأقام في قومه عشرين سنة.

وبهلاك قوم ثمود تنطوي صفحة من صفحات التاريخ، كما انطوت صفحة من صفحاته بهلاك قوم عاد، وهم من العرب البائدة الذين انتهت آثارُهم، يقول سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل] وكل هذا بسبب الظلم والشرك، وتكذيب الرسل، وعدم الامتثال لما أمر الله سبحانه وما نهى عنه، فإن هذا يُؤدي إلى مثل هذا المصير.

---

(١) ينظر البخاري في المغازي (٣٩٧٩، ٣٩٨١) ومسلم (٩٣٢) وابن أبي شيبة (١٨٥٥٢) وابن إسحاق (٢/ ٢٠٤) و«سيرة ابن هشام» (١/ ٦٣٩).

والقرآن يحكي لنا مصارع الظلمة على مدى التاريخ؛ لنستفيد، ولنأخذ العبرة، حتى تقوم هذه الأمة بما جاء به رسول الله ﷺ، وبما جاءت به الرسل قاطبة، وهو الهدف الأساس الذي أرسل الله به جميع الرسل، والذي جاء في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ أي: في كل أمة من الأمم، ومهمة هذا الرسول جاءت في قوله تعالى عن كل منهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ اجتنبوا الشرك والكفر بأنواعه، وأخلصوا التوحيد والعبادة لله وحده ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦] مثل عاقبة قوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وآثارهم باقية ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات].

وقد وصف الله عذاب قوم ثمود بأنه عذاب أليم، وفي سورة (الشعراء) أنه عذاب عظيم، وفي سورة (هود) أنه عذاب قريب، وأنه سيقع بعد ثلاثة أيام، فهو عذاب أليم عظيم قريب.

رَابِعًا: قِصَّةُ لُوطٍ عليه السلام مَعَ قَوْمِهِ

٨٠- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

جاء ذكر (لوط) عليه السلام في القرآن سبعًا وعشرين مرة: مرة واحدة في سور: (الأنعام) و(الأعراف) و(الحج) و(الصافات) و(ص) و(ق) و(التحريم) ومرتين في كل من سور: (الحجر) و(الأنبياء) و(النمل) و(القمر)، وخمس مرات في سورة (هود)، وثلاث مرات في الشعراء، وأربع مرات في العنكبوت.

هذا: وقد هاجر إبراهيم عليه السلام من العراق إلى فلسطين ومعه مَن آمن به، بعد اضطهاد الملِك له ونَصْب منجنيق التحريق له، وكان معه أيضًا زوجه سارة، وابن أخيه لوط بن هاران بن آزر عليهما السلام.

ولمَّا حدثت مجاعة في فلسطين هاجر إبراهيم على إثرها ومعه زوجه وابن أخيه إلى مصر، وعاد من مصر -بعد أن قلَّت المجاعة في فلسطين- بأموال كثيرة، منحها إياه ملِك مصر، ومن بين هذه الأموال أغنام وأنعام كثيرة، وهذه الأنعام ضاق بها المكان، وأصبح

لا يتسع لأنعام إبراهيم وأنعام لوط معًا، وكثيرًا ما كان رعاة الغنم لإبراهيم ولوط يختصمان فيما بينهم، فاصطلح إبراهيم ولوط على أن يقتسموا الأرض، واختار لوط المكان الذي يناسبه، فاختار شرق الأردن، ونزل في سدوم وعامورة وضواحيهما أمورا وصبويَر، وهي خمس قرى يبلغ تعداد سكانها وقتئذٍ نحو أربع مئة ألف نسمة، أقام لوط في هذا المكان، وكان مقر إقامته مدينة سدوم.

وكان أهل هذه القرى يأتون الفاحشة المنكرة، وهم أول مَن فعل جريمة اللواط من بني آدم؛ حيث إن الفاحشة التي جاء ذكرها في هذه الآية فُسرت بفاحشة اللواط في قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء]

وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ [النمل: ٥٥]

وقوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فاذكر - أيها الرسول - لوطًا حين قال لقومه على سبيل الإنكار والتوبيخ: أتفعلون الفعلة المنكرة الشنيعة التي بلغت نهاية القبح، ولم يفعلها أحد قبلكم؟! زين لهم الشيطان إتيان الرجال دون النساء، وكانوا لا يفعلون هذا سرًّا، وإنما يجاهرون به، ويفعلونه عِيانًا في نواديهم العامة، ويقطعون الطريق على المارة والمسافرين فيسلبون أموالهم ويفعلون بهم الفاحشة، فوبخهم لوط وبيَّن لهم أنهم أول مَن فعلها.

عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط»**[1].

وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لعن الله مَن ذبح لغير الله، لعن الله مَن غيَّر تُخُوم الأرض، ولعن الله مَن كَمَهَ الأعمى عن السبيل، ولعن الله مَن سب والده (وفي رواية: والديه) ولعن الله مَن تولى غير مَواليه، ولعن الله مَن عمل عمل قوم لوط، ولعن**

(١) حسّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١١٧٨) وهو في «السنن» برقم (١٤٥٧) وعند عبد الرزاق (١٣٤٩٣) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٥٦٣) و«المسند» (٣/ ٣٨٢) برقم (١٥٠٩٣) بإسناد ضعيف كما قال محققوه، و«المستدرك» (٤/ ٣٥٧) والبيهقي (٥٣٧٤) وأبو يعلى (٢١٢٨).

الله مَن عمل عمل قوم لوط، ولعن الله مَن عمل عمل قوم لوط ثلاثا»[١].

وتغيير نجوم الأرض، يراد به تغيير حدودها ومعالمها.

ولم يكن لقوم لوط اسم يُعرفون به، كما لم يكن لقوم نوح اسم يعرفون به كذلك؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ أي: أرسلناه وقت أن قال لقومه: أتأتون الفاحشة، وقوم لوط كانوا خليطًا من الكنعانيين ومَن حولهم، ولم يكن بينه وبينهم قرابة.

ثم بيّن لوط عليه السلام هذه الفاحشة فقال:

٨١- ﴿إِنَّكُمْ[٢] لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

لقد فسر لوط لقومه هذه الفاحشة التي لم يسبِق إليها أحدٌ قبلهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي: الذكور في أدبارهم شهوة منكم، تاركين ما أحله الله لكم من النساء، فكيف تتركون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن الاستمتاع الموافق للشهوة والفطرة، وتُقبلون على أدبار الرجال وهي محل خروج الغائط، وهذا أمر في غاية الشناعة، ويستحي الإنسان مِنْ ذكره فضلا عن ممارسته أو ملامسته.

وقد وصف الله تعالى هؤلاء القوم هنا بأنهم قوم مسرفون، متجرئون على محارم الله، متجاوزون لحدود الإسراف، مبتدعون ما لم يفعله أحد من الخلائق، ووصفهم في سورة (النمل) بأنهم قوم يجهلون؛ أي: مصابون بفساد الفطرة وانحطاط الخلُق والسفه والطيش، فالإنسان إذا ألمَّ برذيلة من الرذائل فإنه يشعر بقبحها في أول مرة، ثم يستخف بها، ثم يداوم عليها؛ فيزول الشعور بقبحها، ثم يستحسنها ويتلذذ بها.

---

(١) «المسند» (١/٣٠٩) برقم (٢٩١٣) إسناده حسن ورجاله رجال الصحيح (محققوه) وانظر (١٨٧٥) وصحيح ابن حبان برقم (٤٤١٧) و«المستدرك» (٤/٣٥٦) صححه الحاكم ووافقه الذهبي من طرق مختلفة، وحسنه الأرناؤوط في حاشية المسند على شرط الشيخين.

(٢) قرأ نافع وحفص وأبو جعفر، بهمزة واحدة مكسورة على الخبر في قوله تعالى (إنكم لتأتون)، وقرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام، وكل حسب مذهبه في الهمزة، فابن كثير ورويس بتسهيل الهمزة الثانية مع عدم إدخال ألف بينهما، وأبو عمرو بالتسهيل مع الإدخال، وهشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

أرسل الله تعالى إلى هؤلاء القوم نبي الله لوطًا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، مهمته الأساس أن يدعوهم أولًا إلى عبادة الله وحده، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وبعد ذلك يقضي على هذه الفاحشة التي تضاد الفطرة البشرية، وتنتكس بالإنسانية إلى ما هو أحط من الحيوان، فالحيوان لا يأتي إلا الإناث من بني جنسه، ولا يأتي الذكور، وإنما يأتي الإناث قضاءً لشهوته، وإبقاءً للنسل وعدم تعطيله، هذا هو الحيوان، فما بالكم بالإنسان؟!

يقول الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله قَصَّ علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا، فلا بد له أن يقلع عن هذه الفاحشة أو يكون مصيره الهلاك والدمار.

وقد أرسل الله إليهم نبيه لوطًا عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده وإلى تقواه، ومن مقتضاها ترك اللواط، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء]

وأنا لا أسألكم أجرًا على تبليغ الدعوة والرسالة ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء].

والقاعدة أن كل رسول يهتم بالعقيدة والإيمان أولًا فيقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ثم يأتي على الجوانب الأخرى والمنكرات المتفشية في قومه.

ولكن إذا لاحظنا الآيات عن قصة لوط -في سورة الأعراف وهود والنمل والعنكبوت والقمر- فإنا نجدها تبدأ مباشرة بإنكار هذه الجريمة لأهميتها ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء] ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨]

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]

وهي مهمة لوط الأساس، التي أُرسل بها إليهم بعد تقوى الله سبحانه والإيمان به وحده، ولكن القوم هدَّدوا نبيّهم بالطرد من الديار:

٨٢- ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

ولم يكن لوط من القوم، وإنما كان وافدًا عليهم؛ ولذا فإن القرآن لم يقل: أخوهم

لوط، فهو ليس أخًا لهم في النسب، وإنما وَفَد عليهم من العراق، ولذلك فإنه لما دعاهم إلى الإقلاع عن هذه الفاحشة قالوا: هو غريب، اطردوه وأخرجوه من هذه الديار ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ حين أنكر عليهم فعلتهم الشنيعة إلَّا أن قالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية بلوط وقومه: أخرجوا لوطًا وأهله من دياركم، فهو ومَن تبعه أناس يتنزهون عن إتيان أدبار الرجال، إنهم أناس يتطهرون عن إتيان الذكور، عابوهم بما يُمْدَح به الإنسان!!

كما قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال جل شأنه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]

فقوم لوط يعتبرون أن هذا أمر طبيعي؛ لأن الموازين انقلبت عندهم، فأصبح المعروف منكرًا والمنكر معروفًا ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء]، هددوه بالضرب والإبعاد، بعد أن خوفهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا به.

وكان إبراهيم يأتي مدائن قوم لوط وينصحهم فيأبَوْن أن يقبلوا، وكان ينظر إلى سدوم ويقول: أيُّ يوم لك من الله سدوم، إنما أنهاكم ألا تتعرضوا لعقوبة الله، حتى بلغ الكتاب أجله.

ولما لم يستجيبوا لدعوته؛ أعلمهم بأن عذاب الله تعالى سينزل بهم، وعندئذٍ قالوا له ساخرين مستهزئين به: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] في أنك رسول من عند الله، فأتِ بهذا العذاب، فنحن ننتظره.

دعا لوط ربه ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت] فكان أن أرسل الله سبحانه ثلاثة من كبار الملائكة (جبريل وميكائيل وإسرافيل) لإنزال العقوبة بقوم لوط.

الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِعَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ يَنْزِلُونَ أَوَّلًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ:

وما كان لرسل الله أن ينزلوا مكانًا فيه إبراهيم خليل الرحمن وأبو الأنبياء قبل أن ينزلوا عليه.

وما كان لهم أن ينزلوا على أحد قبل إبراهيم عليه السلام؛ فنزلوا عليه أولًا.

وما كان لهم أن يمروا على إبراهيم قادمين عليه من عند ربهم دون أن يحملوا له تكريمًا وبشرى.

لقد بلغ إبراهيم من العمر المئة والعشرين، وبلغت زوجه التسعين من العمر، ولم يكن لهما ولدٌ، ولم يُنجبا، فكانت هدية الله لإبراهيم التي جاء بها الملائكة حين نزلوا ضيوفًا عليه في أول رحلتهم أن بشروه بغلام عليم.

والغلام العليم: هو إسحاق ﷺ، كما أن **الغلام الحليم**: هو إسماعيل ﷺ، وبشروه أيضًا بأنه سيرى حفيده يعقوب وَلَدَ إسحاق؛ أي: أنه سيرى أيضًا حفيده.

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] قالت زوجه متعجبة: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود]

أي: أهل بيت إبراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا محمد وآله وسلم.

وإبراهيم ﷺ كان رجلًا مضيافًا كريمًا، وحينما رأى الملائكة وهم في صورة رجال (شباب فتيان حسان) لم يعرف أنهم ملائكة، فقام على عادته، وصنع لهم طعامًا، وقدَّم لهم عجلًا سمينًا مشويًا حنيذًا، وضعه بين أيديهم، وقال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] ولكن أيديهم لم تمتد إلى هذا الطعام، فهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون.

هلاك قوم لوط:

أوجس إبراهيم في نفسه خيفة منهم، لماذا لا يأكلون؟ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الذاريات] والحجر ٥٧ قالوا ذلك لما قالوا له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] جئنا إلى قوم لوط؛ لننزل بهم عقابَ الله سبحانه، حيث لم يرتدعوا عن فعلتهم، ولم يستمعوا إلى قول نبيهم، قالت الملائكة: جئنا ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الذاريات] هذه الحجارة مطبوخة بالنار، حجارة حمراء مسوَّمة (أي: معلمة) كل حَجَر عليه اسم صاحبه، حتى ذُكر أن أحدهم وقت نزول الحجارة كان في الحرم، وظل الحجر مُعلقًا حتى خرج من الحرم فرُمي به ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات].

أخذ إبراهيم يحاول إثناء الملائكة عن إهلاك أهل هذه القرية، قال لهم: إن فيها مؤمنين، وفيها ماشية، وفيها خمسون مؤمنًا، وفيها عشر، وفيها خمس، إنه يخاف على

ابن أخيه لوط ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ [العنكبوت: ٣٢] فقد كفرت ولم تُؤمن به وكانت من الخائنين.

وخيانة امرأة لوط، وخيانة امرأة نوح -التي جاء ذكرها في سورة التحريم- هي خيانة في تَرْكِ اتباع الرسالة؛ أي: خانتا في دين الله، ولم يؤمنا بنوح ولا بلوط، وليست خيانة في الشرف ولا في العرض، فلم يحدث هذا لزوجة نبي من أنبياء الله أبدًا.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ واحد ﴿مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] هو بيت لوط وبناته.

والإيمان والإسلام هنا بمعنى واحد، فالإسلام إذا اجتمع مع الإيمان في آية واحدة كان معناهما واحدًا.

وخرج الملائكة وتوجَّهوا نحو بيت لوط في وقت الظهيرة، وحين رآهم لوط فزع وخاف عليهم، حين رآهم فتيانًا حسانًا خاف عليهم من قومه.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود]

ولما رأتهم امرأته، ذهبت لِتُعْلِم القوم بأن عند لوط فتيانًا حسانًا (وهذا معنى خيانتها) فجاؤوا إليه يهرعون مسرعين، يريدون هؤلاء الضيوف الأجانب، قال لهم لوط: ﴿يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أي: بنات المسلمين، فبنات المسلمين بنات النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وبنات الأمة بنات لرسول الله.

قال لهم لوط: إن بنات أبناء المسلمين ﴿أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فتزوجوهن على كتاب الله وسنة رسوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود].

أغلق لوط بيته، فأرادوا أن يقتحموه بقوة، ويدخلوا على الضيوف، ﴿قَالَ﴾ لهم لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود]، يحميني ويمنعني منكم؟

والركن الرشيد هم الأهل والعشيرة، ولم يكن للوط أقارب ولا أرحام في الأردن، لأنه قدم إليها مع عمه من العراق مهاجرًا.

قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي هريرة ﷺ: «**يغفر الله للوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»[1] هو الله رب العالمين يحميه ويمنعه منهم، قال ذلك وهم على الباب يتدافعون، فخرج إليهم جبريل، وضربهم بطرف جناحه، فأعمى الله أبصارهم جميعًا، وغارت عيونهم في وجوههم، وأصيبوا بالعمى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر].

وعد الله رسوله لوطًا أن العذاب نازل بهم بعد هذا العمى الذي أصابهم في الصباح الباكر، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]

ولما جاء وقت الإشراق أصبحوا يترقبون ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر]

حيث صاح بهم الملَك، وزُلزلت الأرض من تحت أقدامهم، ووضع جبريل جناحيه تحت هذه القرى فاقتلعها، ورفعها إلى السماء ثم قلبها، حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونهاق الحمير ﴿فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤] وأُمطروا بعد ذلك بحجارة من سجيل ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ﴾ [هود: ٨٣] أي: معلمة على كل منها اسم مَن رُمي بها.

وهذا المكان الذي اقتلعه جبريل، وحدث فيه هذا الخسف، بلغ عمقه في الأرض أربع مئة متر، ويُعرف الآن بالبحر الميت، أو بحيرة لوط بالأردن.

ولقد كانت هذه الأرض، قبل أن يقلبها الله عليهم أرضًا خصبة، فيها زرع وتمْر ونبات، وكانت أجود وأخصب بقاع الأرض في شرق الأردن ، ودلت الآثار الحديثة على وجود آثارٍ لقوم لوط في هذه المنطقة.

يقول سبحانه موجهًا الأنظار لأخذ العبرة مما أصاب هؤلاء: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]

وقال سبحانه ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات]

وقال جل شأنه ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر]

---

(١) من حديث أبي هريرة في «المسند» (٨٢٧٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه)، والبخاري (٣٣٧٢، ٣٣٧٥) ومسلم (١٨٤٠) و (١٥١) مطولًا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق]. قال تعالى:

٨٣- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ[1] وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

لقد نجى الله لوطًا وأهله الذين آمنوا به من العذاب، حيث أمره بمغادرة تلك البلد، إلا امرأته فقد كانت من الباقين الهالكين؛ لأنها كانت للوط خائنة، وبالله كافرة، فهلكت مع مَن هلك، وكان لوط قد أُمر بعدم إعلام امرأته عن وقت الخروج وعدم أخذها معه.

وقد وصف القرآن الكريم امرأة لوط بأنها ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وبيَّن ﷻ في آية سورة (التحريم) أنها كانت خائنة، وأنها من أهل النار، هي وامرأة نوح، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم] كما بيَّن تعالى أنه قد أصابها ما أصاب قومها من الهلاك فقال: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ﴾ [هود: ٨١].

وأهل لوط: هم زوجه، وابنتان بكران لم يتزوجا، وابنتان متزوجتان -كما جاء في التوراة- وقد امتنع زوجاهما عن الخروج مع لوط ﷺ، فهلكتا مع أهل القرية.

ولما خرج لوط بابنتيه وزوجه من القرية لم يلتفت منهم أحدٌ إلا امرأته، فالتفتت، فأصابها العذاب، وكانت تُسِرُّ الكفر وتُظهر الإيمان، والتفاتها كان بتقدير الله تعالى ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧] ولعلها كانت غير موقنة بنزول العذاب على قوم لوط.

والظاهر أن امرأة لوط هذه كانت من أهل سدوم، تزوجها لوط بعد هجرته، وكانت أم بناته قد ماتت قبل أن يرسَل نبيًا، فهي ليست أم بناته غالبًا.

قال تعالى في وصف عذاب أهل القرية جميعًا: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت]. وقال سبحانه:

٨٤- ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

(١) وصل ابن كثير هاء (فأنجيناه) بحرف مد، والباقون بالقصر.

وعذَّب الله الكفار من قوم لوط فأمطرهم بالحجارة بعد أن قلب ديارهم عليهم، فاعتبروا يا قوم، واتعظوا بما حدث لغيركم ممن اجترأ على معاصي الله، واستحل ما حرم الله، وقد بيَّن سبحانه هذا المطر الذي أهلكهم به بأنه حجارة من طين في قوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الذاريات] وأن هذا الطين حجارة من سجيل متتابعة؛ أي: من طين متحجر قد أُحمي عليه، ينزل الحجر تلو الحجر ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود].

وكانت هذه عقوبة جريمة اللواط؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان، وركب فيه الشهوة؛ لبقاء النسل وعمارة الدنيا، وجعل النساء محلًّا للشهوة وموضعا للنسل، فإذا عدل الإنسان عنهن إلى الرجال فقد أسرف وتجاوز وتعدى وأجرم؛ لأنه وضع الشيء في غير موضعه الذي خُلق له، وأدبار الرجال ليست محلًّا للولادة التي هي مقصود الشهوة.

والله ﷻ جعل لقضاء الشهوة طريقًا واحدًا معلومًا، **هذا الطريق**: هو الحياة الزوجية المشروعة بين الرجل والمرأة، أو مِلْكُ اليمين إن وُجد، ومَن ابتغى قضاء الشهوة في غير هذا الطريق الطبيعي، الذي فطر الله الناس عليه يكون قد تجاوز الحلال إلى الحرام، ويكون قد اعتدى وبغى، وانتكست فيه الفطرة البشرية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون].

ومن التعدي على شرع الله، الشذوذ الجنسي بأنواعه: رجل ورجل، امرأة وامرأة، رجل وامرأة ليست زوجة له، إتيان البهائم، الاستمناء، اللواط، السحاق، كل ذلك يدخل في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما عدا الزوجة ومِلْك اليمين ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الذين خرجوا على حدود الله تعالى.

عقوبة اللواط: وجريمة اللواط من أبشع الجرائم، فهي أبشع من الزنى، فيها انتكاسة للرجولة، وإذلال لها، وكَسْرٌ لما في الرجال من إباء وشيم، ومفسدة للنساء، وفيها تعطيل للنسل، وإزهاق لطاقات الشباب، وقضاء على النوع الإنساني، ومضادة للفطرة البشرية، وتجاوز لحدود الشريعة، وفيها ذريعة للاستمناء وإتيان البهائم، وتحسين القبيح، وتقبيح

الحسن، وفيها من الأمراض ما هو معلوم، وفيها من التخنث والمنكرات ما كُتب فيه مجلدات، ومن أجل بشاعتها كان عقابها في الإسلام صارمًا.

ففي الحديث عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**[١].

١- وعقوبة اللواط أشد من عقوبة الزنى بالنسبة لغير المتزوج، حيث يقتل الفاعل والمفعول رجمًا بالحجارة كما سبق.

٢- وعند الشافعي في أحد قوليه وأحمد: الرجم بالحجارة حتى الموت، كالزاني المحصن سواء أكان هذا اللائط (الفاعل أو المفعول) متزوجًا أم غير متزوج، وقد جاء ذلك عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن عمل عمل قوم لوط فارجموا الفاعل والمفعول به»**[٢]. ولفظ ابن ماجه **«ارجموا الأعلى والأسفل أرجموهما جميعًا»**[٣]

٣- والقول الآخر للشافعي أنه كالزاني، إن كان محصنًا رُجم، وإن كان غير محصن جُلد مئة جلدة.

عن سالم بن عبد الله، وأبان بن عثمان، وزيد بن حسن، أن عثمان بن عفان ﷺ أُتي برجل قد فجَر بغلام من قريش، فقال عثمان: أحْصَن؟ قالوا: قد تزوج بامرأة ولم يدخل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٦٠٧) برقم (٤٤٦٢) والترمذي عن أبي هريرة (٤/ ٥٧) برقم (١٤٥٥) وابن ماجه (٢/ ٨٥٦) برقم (٢٥٦١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٧٥) و«المسند» (١/ ٣٠٠) برقم (٢٧٣٢) بإسناد ضعيف لضعف عمرو بن أبي عمرو كما قال محققوه وقال الألباني في صحيح الترمذي: وروى محمد بن إسحاق هذا الحديث، عن عمرو بن أبي عمرو (ملعون من عمل عمل قوم لوط) ولم يذكر فيه القتل وذكر فيه (ملعون من أتى بهيمة) **قلت**: و بهذا يزول الإشكال بين تصحيح الألباني وتضعيف محققو المسند للحديث، وحديث ابن إسحاق في المسند برقم (١٨٧٥)، وهو في «المستدرك» (٤/ ٣٥٥) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١١٧٧) وفي مشكاة المصابيح (٣٥٧٥) وإرواء الغليل (٢٣٥٠)، وقد رُوي من طرق مختلفة منها النسائي في «السنن الكبرى» (٧٣٤٠) وعبد الرزاق (١٣٤٩٢) والبيهقي في «الشعب» (٥٣٨٦) وغيرهم.

(٢) الحاكم (٤/ ٣٥٥) وانظر معناه في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٧٦)، بتحسين الألباني، وفي الإرواء (١٧/٦)

(٣) سنن ابن ماجه (٢٥٦٢) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٧٦) وفي إرواء الغليل ((٦/ ١٧).

بها بعدُ، فقال علي لعثمان: لو دخل بها لحلَّ عليه الرجم، فأما إذ لم يدخل بأهله فاجلدْه الحدَّ، فقال أبو أيوب: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول الذي ذكره أبو الحسن، فأمر به عثمان، فجُلد مئة[1].

٤- وعند أبي حنيفة أنه يُلقى به من شاهق؛ أي: من مكان مرتفع كالمئذنة، ويُرمَى على الأرض أوَّلًا، ثم يقذف بالحجارة حتى الموت، وقد أُخذ هذا مما حدث لقوم لوط من عقوبة، فإن الله سبحانه جعل عالي القرية سافلها ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلَبها، ثم قُذفوا بحجارة من سجيل، فجعل أبو حنيفة عقوبة اللواط كما فُعل بقوم لوط، حيث يُلقَى به من شاهق، ثم يُتبع بالحجارة حتى الموت.

وقد حدثت هذه الفاحشة في خلافة أبي بكر ﷺ من رجل يُسمَّى الفجاءة، فكتب فيه خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق، أنه عمل عمل قوم لوط، فجمع أبو بكر أصحاب النبي ﷺ واستشارهم فيه، فقال عليٌّ: أرى أن يحرق بالنار، واجتمع رأي الصحابة على ذلك، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه فأحرقه.

وكذلك قضى ابن الزبير في جماعة عملوا الفاحشة في زمانه، وهكذا فعل هشام بن الوليد، وخالد القسْري بالعراق، ولعلهم قاسوا ذلك على أن الله تعالى أمطر عليهم نارًا، وهي الحجارة من سجيل، ولعل الحديث السابق لم يبلغهم، ولم يفرق الفقهاء في العقوبة بين الفاعل والمفعول.

المطالبة بتقنين الشذوذ الجنسي: ومن الأمور العجيبة ما نراه ونسمعه مؤخرًا في المؤتمرات العالمية التي تعقد بترحيب من بعض الدول وبموافقتها، تحت اسم (مؤتمر الأسرة والسكان) ونحو ذلك، ويطلب فيها الاعتراف قانونيًا بمختلف الممارسات والشذوذ الجنسي تحت اسم الحرية الشخصية، وتقنين ذلك في التشريعات الدستورية! والإنسان لا يستطيع أن يكون حرًّا في كل شيء، أنت حر، فهل في استطاعتك أن تمشي عاريًا في الشارع؟ أو هل هذه حرية؟ أنت مقيَّد في كل شيء بحدود معينة.

---

(١) الطبراني (٣٨٩٧) قال الهيثمي: وفيه جابر الجعْفي، وقد صرح بالسماع، وفيه من لم أعرفه «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٧٢).

وقد رأينا مَن ينادي بوجود نوع ثالث للبشر، غير الذكر والأنثى، شيء ثالث ليس بذكر ولا أنثى، يصلح أن يكون ذكرًا، ويصلح أن يكون أنثى، وجدنا في بلاد المسلمين والعرب مَن ينادي بهذا ويطالب أن يكون لهم حقوق، أسوة بغيرهم في الغرب، وأن تكون لهم مجالس نيابية!

ومن باب الحرية عندهم إطلاق الحرية للشهوة، بأن تأتي المرأة المرأة، أو يأتي الرجل الرجل، أو يتخذ الرجل خليلة، أو صديقة له، أو تتخذ لها كلبًا، إنها شهوة وقدر مشترك بين البهائم والإنسان.

قرأتُ في الصحف عن زواج بين رجل وكلبة، قطع لها تذكرة، وحجز لها في الطائرة الكرسي الذي بجواره، والكلبة مصورة في (الجريدة) وهي ترتدي ثوب الزفاف الأبيض!

وقرأت أن امرأة تكتفي بوجود كلب معها في البيت، وتفضل ذلك على الزواج، هل يوجد إنسان هكذا؟!

وعرفت رجالا يتركون نساءهم ويكتفون بالأفلام الجنسية أو ممارسة العادة السرية.

هذه ردة إلى أسوأ من الحيوان، إن الحيوانات لا تقبل هذا، فالحيوان الذكر يأتي الأنثى، والطائر يبني له عُشًّا للزوجية، والحشرة تحفر لها في الأرض لتقيم حياة للزوجية، بقاء للتناسل بينهما.

إن هذه الدعوة في المؤتمرات الخاصة بالأسرة والمرأة، وجَعْلُ ذلك حقًّا وحرية شخصية، إنها دعْوة صهيونية يهودية، وراءها بروتوكولات حكماء صهيون، الذين يخططون لتدمير النوع الإنساني، غير اليهود، لكي يحكموا العالم، وينفردوا بالأرض، ويَروْا أن واجبهم القضاء على الجنس البشري غيرهم، فهم من نطفة مميزة، وبقية البشر من نطفة أخرى! وهم من مستوى أعلى وأرقى من غيرهم كما يزعمون، ويجب عليهم القضاء على غيرهم عن طريق المرأة، وعن طريق الشذوذ، وعن طريق الجنس، وعن طريق العُرْي، وعن طريق الاختلاط، وعن طريق التفسخ، وغير ذلك.

وهناك دعوى أخرى تقابل هذه الدعوى -وهي صهيونية يهودية أيضًا- يقولون فيها: إن سبب الانحراف والشذوذ في المجتمعات الإسلامية هو عدم اختلاط المرأة بالرجل في المجتمع والتعليم والوظائف، والسبب أيضًا هو حجاب المرأة، فإن ذلك يؤدي إلى

الشذوذ في زعمهم! وهذه مضادة لحكم الله ورسوله، ودعاوى غير صحيحة.

إن الإحصائيات الواقعية تُكذِّبُ هذا تمامًا، فإن تعداد الجريمة في الدول الغربية يزيد أضعافًا مضاعفة عما هو في بلاد المسلمين، وإن في حجاب المرأة الصيانة والعفاف.

لقد وصف الله سبحانه الحور العين بأنهن ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن] ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦] لا ترى إلا زوجها، ولذلك فهي تعيش سعيدة، لا ترى غيره، فلا يحدث لها فساد.

إن معدل الجريمة يرتفع بمعدل كثرة الاختلاط، والخلوة بين الرجل والمرأة، وكثرة العري والفساد، وما جريمة اللواط إلا نتيجة لهذا التفسخ، واستجابة لهذه الدعوى الصهيونية التي تهدف إلى القضاء على البشرية.

خَامِسًا: قِصَّةُ شُعَيْبٍ عليه السلام مَعَ قَوْمِ مَدْيَن وَ أَصْحَابُ الْأَيْكَـةِ

٨٥- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ[1] قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

نبذة عن نبي الله شعيب: القصة الخامسة في ترتيب قصص سورة (الأعراف) قصة نبي الله ورسوله شعيب عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وشعيب عليه السلام جده لأمه لوط عليه السلام، فهو ابن بنت لوط عليهما السلام.

وقد ذكر شعيب في القرآن أحد عشر مرة: خمس مرات في الأعراف، وأربع مرات في هود، ومرة واحدة في كل من الشعراء والعنكبوت.

وشعيب ابن ميكيل بن يشجن بن مدين، ومدين بن إبراهيم، فقد كان لإبراهيم عليه السلام ولدان رسولان هما: إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، وولدان غير رسولين هما: مدين ومداين من قطوراء زوجة ثالثة تزوجها في آخر عمره، وتزوج مدين ابنة لوط، وولد له منها

---

(١) قرأ الكسائي وأبو جعفر بكسر راء (غيره)، وضمها الباقون.

أربعة أبناء، ومن ذريتهم تفرعت بطون مدين، بلغ تعدادهم نحو خمسة وعشرين ألفًا.

وبعدما خرج موسى من مصر نزل بلاد مدين التي تزوج فيها من صفورة بنت شعيب عليه السلام، وكان قد أقام عشر سنين أجيرًا عند شعيب مقابل زواجه من ابنته.

وقد سُمِّيَ المكان بمدين، وهو مكان بين الحجاز والشام من أرض معان، قرب بحيرة لوط، وقرب خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر.

تزوج شعيب في هذا المكان وجلس فيه، فسمي المكان بمدين، وسميت القبيلة قبيلة مدين، وهم الذين أرسل الله تعالى فيهم رسوله شعيبًا عليه السلام.

قوم مدين قبل الرسالة: وكان قوم مدين على التوحيد ملة أبيهم إبراهيم، فلما طال عليهم الأمد، أشركوا بالله سبحانه، وتفشى فيهم كثير من المنكرات، من أبرزها: تطفيف الكيل والميزان، وبخس الناس حقوقهم المادية والمعنوية.

وتطفيف الكيل والميزان نوعٌ مميزٌ من أنواع التعامل المادي لهذه القبيلة بحكم الموقع الجغرافي لهذا المكان، فأرض مدين تصل بين شمال الجزيرة وجنوبها، وجميع القوافل التجارية التي تمر بهذا المكان كانوا يتحكمون فيها، ويفرضون عليها جباية أو ضريبة، فيأخذون العُشْر من أموال القوافل التي تمر عليهم، وكانوا يسلبون الناس أمتعتهم، ويقطعون الطريق على المارة، وقد اعتادوا المكس، ونقص الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم.

والبخس: هو النقص، وقد نهينا عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ومن ذلك الكيل والميزان، فكانوا ينقصون من ثمن السلعة، يعيبونها ويلمزونها، ويحطون من ثمنها وقَدْرِها؛ ليأكلوا أموالَ الناس بالباطل، ويبخسون الناس أيضًا في الأمور المعدودة والمكيلة والمبيعة وغير ذلك.

فأرسل الله تعالى إليهم نبيه ورسوله شعيبًا عليه السلام ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيبًا، وهو أخوهم في النسب لا في الدين، ورسالته كانت بعد لوط وقبل موسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

دعوة شعيب لقومه: ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ دعاهم

أولًا إلى توحيد الله سبحانه، وعدم الإشراك به، فهو المستحق للعبادة دون سواه، ودعاهم إلى إيفاء الكيل والميزان، وألا يبخسوا الناس أشياهم، ولا يعثوْا في الأرض مفسدين بكثرة المعاصي، وكان شعيب يُسمَّى خطيب الأنبياء؛ لفصاحته وبلاغته وحسن دعوته لقومه، وتلطفه معهم، وملاينته ومسالمته لهم، والدعوة إلى التوحيد هي دعوة الرسل جميعًا.

ثم أقام الدليل على رسالته فقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جئتكم بآية وبرهان من ربكم تدل على صدق دعواي، وأني رسول من عند الله حقًّا، لكن ما هذه البينة أو الآية؟ القرآن الكريم لم يذكرها، وقد يراد بها الوحي والرسالة، وما يقيمه على قومه من الحجة التي تُبطِل ما هم عليه من شرك وسوء فعل وقول.

وقد بيَّن النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﵁ أنه: **«ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا»**[1].

أي: ما من نبي إلا وأيده الله بمعجزة أو بآية تدل على صِدْقِ دعواه ورسالته، ومنها المعجزات الكونية والعقلية، والنبي ﷺ يرجو الله أن يكون أكثر الرسل أتباعًا يوم القيامة.

والقرآن الكريم قد ذَكَرَ بعض هذه المعجزات وسكت عن بعضها، ولم يتناول القرآن معجزات الرسل جميعًا، وكل رسول أيده الله بمعجزة تدل على صدق دعواه، سواء أذكرها القرآن أم لم يذكرها، عرفناها أم لم نعرفها.

ولذلك فشعيب يقول لقومه: قد جئتكم ببينة من ربكم، فيها إقامة الحجة عليكم، ولم يذكر القرآن ما هذه البينة.

وبعد أن دعاهم شعيب إلى التوحيد التفت إلى المنكر المتفشي فيهم، وهو تطفيف الكيل والميزان، كتفشي اللواط في قوم لوط، وهو أبرز معالم المنكرات في قوم مدين، فقال لهم: أدوا للناس حقوقهم، ولا تنقصوهم شيئًا فتظلموهم ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ

(١) البخاري (٤٩٨١، ٧٢٧٤) ومسلم (١٥٢).

﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أعم من أوفوا الكيل والميزان، وهو تخصيص بعد تعميم.

وقد توعَّد الله المطففين بالويل والهلاك فقال: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين]

وفي هذه الآيات بيان نوع من الناس وأنهم إذا أخذوا حقهم يستوفونه كاملًا، وإذا أعطوه لغيرهم فإنهم يبخسون الناس حقهم، وربما كان عنده نوعان من الموازين والمكاييل، يعطي بكيل، ويأخذ بكيل آخر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أعم من الكيل والميزان، فلفظ ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ يشمل كل شيء من المال والمتاع والحيوان، وكل ما هو معدود أو مكيل أو موزون، والبخس يشمل البخس في المساومة، ويشمل الغش والحيل والحقوق المعنوية، وكل ما تنقص به الحقوق.

معالم دعوة شعيب وأصولها:

وهكذا: فإن شعيبًا دعا قومه أوَّلًا إلى توحيد الله تعالى ثم أمرهم **بثلاثة أصول**؛ هي:

١- حفظ الحقوق المالية.

٢- حفظ نظام الأمة ومصالحها.

٣- حفظ حقوق حرية العقيدة.

وقد جاء أمره لهم بالتوحيد في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾.

وجاء الأصل الأول في قوله: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

وجاء الأصل الثاني في قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾.

وجاء الأصل الثالث في قوله: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾.

أي: ولا تحذرون الناس من سلوك الطريق السوي وتهددنهم بالأذى، ولا تمنعوا مَن يرغب في إصلاح نفسه بالدخول في دين الله، وقد كانوا يصدون الناس عن دخول المدينة

التي فيها شعيب؛ لئلا يؤمن به أحدٌ.

ثم حذَّرهم شعيب من ارتكاب الرذائل عمومًا فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والظلم وأكل أموال الناس بالباطل والبغي والعدوان على الأنفس والأعراض وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، بعد أن أصلح الله حال البشر بنظام الفطرة وكمال الخِلْقَة، وما أعطاهم من الجوارح والقوى العقلية، فلا تفسدوا في الأرض بما ترتكبون فيها من ظلم وبغي وكفر وعصيان ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بشرائع الأنبياء السابقين، فإن الخروج عليها فتنة في الأرض وفساد كبير.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في دينكم ودنياكم، فالله تعالى لا يأمركم إلا بما فيه نفعكم، ولا ينهاكم إلا عما فيه ضرركم، وهو غني عنكم، ولو شاء لأعنتكم أي هذا الذي دعوتكم إليه هو خير لكم في دنياكم وأخراكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مصدقين دعوتي إليكم، عاملين بشرع الله.

قال ابن عباس ﷺ: كان شعيب حليمًا صادقًا وقورًا.

وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا يقول: «**ذاك خطيب الأنبياء**»[(١)] لحُسْن مراجعته قومَه فيما دعاهم إليه، وفيما ردُّوا عليه وكذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم.

وتواعَد كُبراؤُهم ضعفاءَهم، قالوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾.

واستمرّ شعيب في دعوتهم، فلما عتَوْا عن أمر الله أخذتهم الرجفة، وذلك أن جبريل نزل فوقف عليهم، فصاح صيحة رجفت منها الجبال والأرض، فخرجت أرواحُهم من أبدانهم، فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وذلك أنهم حين سمعوا الصيحة قاموا قيامًا وفزعوا لها، فرجفت بهم الأرض فرمتْهم مَيِّتين، فلما ردوا عليه النصيحة وأخذهم الله بعذابه قال: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

ثم نهاهم شعيب عن طرق الإفساد فقال:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن محمد بن إسحاق برقم (٤٠٧١) وسكت عليه، ومحمد بن إسحاق متكلّم فيه، وذكره القرطبي في التفسير (٩/ ٤) وسكت عليه أيضًا.

٨٦- ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

وكان القوم يقعدون على الطريق، ويقطعون السبيل، ويسلبون الناس أمتعتهم، ويحولون بينهم وبين الدخول في الإسلام، وكانوا يمنعون الناس من الذهاب إلى شعيب، ويجلسون على أفواه الطرق التي تؤدي إليه؛ فيمنعون الناس من لقائه، ويقولون: إنه كذاب، فيحولون دون الإيمان به، وكانوا يتوعدون ويتهددون بالعذاب مَن آمن بشعيب.

والله سبحانه يبين هذا في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ أي: بكل طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون الناس بالقتل وتهددونهم إن لم يعطوكم أموالهم.

عن ابن عباس ﷺ أنهم كانوا يجلسون في الطريق فيقولون لمن أتى عليهم: إن شعيبًا كذاب، فلا يفتننكم عن دينكم. وهذا صد عن سبيل الله، ودعوة إلى السلب وقطع الطريق، وطريق الحق واحد، وطرق الباطل متعددة، وإلى هذا الصراط يشير قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي تريدون أن تكون سبيل الله معوجّة كما قال تعالى: ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ ﴾ تبعًا لأهوائكم، وتنفِّرون الناس منها، وتريدون أن تكون طريقة الرسل معوجة، يشوبها الشرك في العبادة والتشكيك في العقيدة، وقد كان الواجب عليكم تعظيم الطريق التي رسمها الله لعباده وجعلها سبيلا موصلا إلى جنته ومرضاته.

ثم أخذ شعيب يذكِّرهم بنعم الله عليهم، فقد كانوا قلة فكثرهم الله وأصبحوا أقوياء أعزاء، وكانوا فقراء فأغناهم الله ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ﴾ إذا أنعم عليكم بالزوجات والنسل والصحة، ولم يسلط عليكم عدوا يستأصلكم ولا وباءً يقللكم. ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض، وما حل بهم من الدمار والهلاك، فقد أُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة خزي وندامة.

حوار بين شعيب وقومه: فماذا كان موقف القوم من دعوة شعيب؟ لقد فصلته سورة (هود)، قالوا في ردهم عليه: يا شعيب ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ أي: عبادتك وعقيدتك ورسالتك تحول بيننا وبين ما نحن عليه من عبادة ما يعبده آباؤنا، وهل لدعوتك هذه علاقة في التعامل بيننا وبين الناس من الأمور الاقتصادية والمالية؟

إنهم يَفْصِلون بين الدين وبين المعاملات المالية ونحوها، ولا يتصوَّرون أن هناك عَلاقة بين الدعوة التي جاء بها شعيب -من توحيد الله ﷻ وطاعته- وبين الأمور المالية الربوية والاقتصادية وغير ذلك، تمامًا كما يفصل بعض الناس بين الدين والسياسة، ويعتبرون أن الدين طريق، والدنيا طريق آخر، أو أن السياسة تختلف عن الدين، والدين لا دخل له فيها، وهذا جهل فاضح.

فالإسلام مصحف وسيف، دعوة وجهاد، دين ودنيا، والنبي ﷺ قد قامت دعوته وحُكْمُه وجهاده على ذلك؛ إذ ليس هناك أمر من أمور الدنيا: الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية والسياسية والشخصية وغيرها، ليس للدين فيه مدخل، إنما الدين يبين للناس المصير الأخروي للبشرية جميعًا، ويبين لهم الأحكام التشريعية في كل أمر من أمور الحياة، إلا ما سكت عنه الشرع فهو عفو كما بيَّن النبي ﷺ.

فالدين هو الذي يقوِّم السياسة، وإذا خرجت السياسة عن إطار الدين؛ فسد الحكم بين الناس، وفسدت العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وفسدت شؤون الحياة.

وهذا التصور الذي يتصوره أهل الجاهلية في زمن شعيب هو ما يردده بعضهم اليوم من الفصل بين الدين والسياسة.

هكذا قال قوم مدين لشعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ عبادتك وعقيدتك هذه ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ ونتبعك ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] قالوا ذلك له استهزاءً وتهكمًا وسخرية.

قال لهم شعيب: يا قوم، قد جاءتني بينة من ربكم، وأنا أبلغكم هذه الدعوة ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]

فهذه حجج واقعية، وبراهين ساطعة، وحُسْنُ عرض للدعوة، يقولها شعيب عليه السلام إلى قومه، لكنهم أَبَوْهُ قائلين: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: كلامك هذا لا نفهمه ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ﴾ ولولا جماعتك ورهطك ونسبك ﴿لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود]

قال لهم يا قوم: هل جماعتي ورهطي أعز عليكم من الله؟ أي: من توحيد الله وطاعته

﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أي: اتخذتم دعوة الله ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢]. ويمضي شعيب في حوار قوم مدين فيقول:

٨٧- ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

هذا جانب من حوار شعيب لقومه، بعد أن دعاهم إلى التوحيد وعدم الإفساد في الأرض، وصد الناس عن دين الله وتذكيرهم بنعم الله عليهم،حيث نصحهم شعيب في هذه الآية بالعدل وسَعَةِ الصدر وأن يتركوا أتباعه أحرارًا في عقيدتهم حتى يحكم الله بين الفريقين، وكان من قوم شعيب أن صاروا فريقين: منهم مَن آمن به ومنهم من كفر؛ ولذلك فإن شعيبًا ﷺ قال كما يحكيه القرآن على لسانه: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ أي: وإن كنتم قد اختلفتم عليَّ فآمنت طائفة وكفرت طائفة، فاصبروا - أيها الكفرة - حتى يأتي حكم الله بيننا وبينكم، وهؤلاء هم الذين آمنوا بربهم وصدَّقوا برسالة شعيب ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ وهم الذين كفروا به وبرسالته ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ﴾ أي: انتظروا - أيها المكذبون - قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم كما أنذرتكم.

والله - سبحانه - خير الحاكمين بين عباده، وهو الحكَم الفصل، يبين لنا مَن هو على الصواب؛ نحن أم أنتم، فإن عذاب الله سوف يحل بمَن كذَّب بالله ورسله.

فما كان من قوم مدين إلا أن هدّدوا شعيبًا ومَنْ آمَن به بالطّرْد والإبعاد، أو موافقتهم على دينهم:

٨٨- ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾

وفي هذه الآية رد من كبار القوم على نصيحة شعيب لهم بالصبر حتى يحكم الله بينه وبينهم:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ وهم الأشراف والسادة من قوم مدين الذين لم يؤمنوا بشعيب، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: تكبروا على الإيمان بالله واتباع رسله، وقد أقسموا على أحد أمرين:

١- إما أن نخرجك يا شعيب من ديارنا ومن بين أظهرنا أنت ومن آمن معك.
وهذا معنى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾.

٢- وإما أن تترك - يا شعيب - رسالتك ودعوتك، وتعود أنت ومَن آمن معك إلى ديننا وتوافقنا عليه، فتعْدِل عن ديانتك إلى ديانتنا وتنخرط فيها.

وخوطب شعيب مع القوم، من باب التغليب؛ لأن شعيبًا لم يكن في يوم من الأيام على دينهم، إنما كان على التوحيد، ولكنهم جعلوا شعيبًا من جملة القوم، فقالوا: إما أن تعودوا إلى ملتنا، وهذا معنى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾. أي توافقنا عليه وترجع إليه.

قال شعيب منكرًا ومتعجبًا من قولهم ومجيبًا على الخيار الثاني ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾؟ أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة ولو كنا كارهين؟

كان شعيب يطمع في إيمانهم ولكنه لم يَسْلَم من شرِّهم، حيث توعَّدُوه بالطرد من بلده أو يدخل في دينهم ويتّبع ملّتهم، ويرجع عن دينه إلى دينهم.

فيرد عليهم قائلا: إننا نكره أن ننخرط معكم في دينكم الباطل، ونكره أن يرجع قومنا في هذه الملة وهي الكفر بعد الإيمان؛ لأننا نعلم أنها باطلة، وهكذا في جميع الأمم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ [إبراهيم: ١٣] وهذا لون من ألوان الوصاية على الأمم والرقابة على الشعوب في كل زمان ومكان، وقد كُرِّرَ هذا الرفض بأبلغ وجه في الآية التالية:

٨٩- ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

قال شعيب مستدركًا: قد اختلقنا على الله الكذب، وأعظمنا الفِرية عليه في جعل المشركين معه أندادًا إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه، ونجانا من شره، فنحن نعلم أنه لا أحد أعظم جُرمًا وافتراءً ممَّن جعل لله شريكًا، وليس لنا أن نتحول إلى غير دين ربنا إلا أن يشاء الله ربنا، وهذا رد إلى المشيئة، فالله تعالى لا يشاء الشرك، ولكنا نقول: إلا أن يكون الله قد علم شيئًا، لا نعلمه، وهذا معنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ أي أنه من المحال أن نوافقكم على دينكم، ولا يمكننا أن نخرج عن مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، فكل شيء يرجع إلى مشيئة الله، وقد وَسِعَ عِلْمُه كل

شيء، وبهذا فإن شعيبًا قد آيسهم من موافقته لهم على دينهم من عدة وجوه:

فهو كاره لعبادتهم مبغض لها، وهو كاذب على الله إن اتبعهم فيما هم عليه من الشرك والفساد.

قال الحسن بن أبي الحسن: كلُّ نبي أراد الله هلاك قومه أمره بالدعاء عليهم ثم استجاب له فأهلكهم.

ويتوجه شعيب إلى ربه بالاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه، فهو الذي يكفيه أمرهم، ثم دعا شعيب ربه لمَّا يئس منهم فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ أي: احكم بيننا ﴿وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ الكفار ﴿بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين.

وفَتْحُ الله تعالى على عباده نوعان: فَتْحُ العلم، كي يتبيَّن الحق من الباطل والهدى من الضلال، وفَتْحُ الجزاء وإيقاع العقوبة بالظالم ونجاة الصالح، وقد سألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل.

فهو - سبحانه - يعلم ما يصلح شؤون العباد، وعليه وحده اعتمدنا في هدايتنا ونصرتنا، ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين.

ثم توجّه كبار الكفار بتهديد عامة الناس إن هم اتبعوا شعيبًا:

٩٠- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

هذا تهديد آخر من قوم مدين لمن يتبع دين شعيب:

قال السادة الكبراء المكذبون لشعيب، الرافضون لدعوة التوحيد، إمعانًا في العتوِّ والتمرد، ومحذرين قومهم من اتباع شعيب بأن ذلك سيؤدي بهم إلى الهلاك: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ والخسارة كل الخسارة فيما عليه قوم مدين من الضلال والإضلال، ولكنهم عكسوا الآية، فجعلوا الخسارة في اتباع الرشد والهدى!!

هلاك أصحاب الأيكة:

وفي سورة الشعراء طلب القوم من شعيب ﷺ قائلين له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء] إن كان هذا العذاب الذي تتوعدنا وتهددنا به حق وصدق، أسقطه علينا، فنحن في انتظاره، يقولون ذلك استهزاء واستبعادًا وسخرية من دعوة شعيب.

فكان من الله ﷻ أن حبس عنهم الريح سبعة أيام، بحيث لا يستطيعون أن يلتقطوا أنفاسهم، وأرسل عليهم حرًّا شديدًا كأنه باب من أبواب جهنم، فصاروا لا يمكنهم أن يشربوا ماءً، ولا يروي لهم ظمأ، ولا يظلهم ظل، حتى هربوا من مساكنهم إلى الخلاء، فرأوا سحابة كبيرة فتجمعوا تحت هذه السحابة؛ كي تأويهم من الحر الشديد، فأرسل الله سبحانه جبريل فصاح بهم صيحة.

وكان هذا التجمع تحت السحابة هو السبب في القضاء عليهم وإهلاكهم جميعًا؛ حيث رجفت الأرض تحت أقدامهم، وزلزلت، وصاح بهم جبريل من أعلى ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ﴾ يقول القرآن أصبحوا ميتين هلكى، كأنهم لا وجود لهم قبل ذلك، قال تعالى: ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود: ٩٥] وطويت صفحة من صفحات التاريخ على هؤلاء القوم الذين كذبوا رسولهم، وهكذا كل أمة تكذب رسولها، وتخرج على تعاليم الله - سبحانه -، يُنْزِلُ الله بهِم عقابه وعذابه، إنْ عاجلًا أو آجلًا، في الدنيا أو الآخرة.

قوم مدين وأصحاب الأيكة: وأكثر المفسرين على أن أصحاب الأيكة هم أنفسهم قوم مدين، وأن الدعوة الموجهة إليهم من شعيب دعوة واحدة، وهم أنفسهم الذين كانوا يطففون الكيل والميزان، وشعيب وجه دعوته إلى أهل مدين فقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ﴾ [هود ٨٤] وإلى أصحاب الأيكة ﴿ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣ ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣] فيرجح كثيرٌ من المفسرين أن قوم مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة، وأن الأيكة هي: الشجر الملتف بعضه حول بعض، وسُموا كذلك؛ لأنهم عبدوا هذا الشجر الملتف، فقيل لهم: أصحاب الأيكة؛ أي: الذين عبدوا هذه الأشجار من دون الله، فنُسِبُوا إليها لعبادتهم إياها.

ويذكر بعض التابعين كقتادة وبعض المفسرين أن أصحاب الأيكة غير قوم مدين، وأن الله تعالى بعد أن نجَّى شعيبًا ومَن آمن معه وأهلك قوم مدين، أرسله الله تعالى إلى أصحاب الأيكة، وهي مكان قريب جدًّا من أرض مدين، وأنهم كانوا أيضًا يطففون الكيل والميزان، وأن شعيبًا دعاهم إلى توحيد الله وتقواه، ثم دعاهم إلى ترك تطفيف الكيل والميزان، فاتهموه بالسحر والجنون ولم يؤمنوا به ولا بدعوته، وذكروا أن عذاب أصحاب الأيكة يختلف عن عذاب قوم مدين.

ففي سورة الأعراف وسورة هود أن الله - سبحانه - أرسل على قوم مدين صيحة زلزلت الأرض من تحت أقدامهم؛ فأصبحوا جاثمين، كما عذب قوم ثمود؛ فكان عذاب قوم مدين أو هلاكهم كهلاك قوم ثمود.

وأما أصحاب الأيكة فقد أُهلكوا بعذاب يوم الظلة، قالوا: وهذا عذاب يختلف عن العذاب الأول.

قلت: وهذا له دليل وسند من القرآن الكريم، فقد ذُكرت قصة أصحاب الأيكة في سورة (الشعراء) وحدها، وجاء ذِكْرُ الأيكة في أماكن أخرى، ولكن القصة ذُكرت في سورة (الشعراء) وجاء في نهايتها ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء]

والظلة: هي السحابة أو الغمامة التي فروا واحتموا تحتها، ثم أُمطروا نارًا من السماء؛ فأهلكهم الله سبحانه وأبادهم، قال - سبحانه -: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء]

وذُكرت قصة أهل مدين مع عذابهم المختلِف عن عذاب أصحاب الأيكة في عدد من السور.

قال السُّدِّي وعكرمة: إن شعيبًا أُرسل إلى أمتين: أهل مدين الذين أُهلكوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة[١]، وأنه لم يُبعث نبي مرتين إلا شعيب ﷺ، ويقال: إن الأيكة هي تبوك بين جَبَلَيْ حِسمَى وشرَوْرَى[٢].

والتحقيق: أن مدين تقع شرق خليج العقبة، وأن **الأيكة**: غيضة تنبت الشجر الناعم الملتف، وهي بادية مدين، فمدْين هي الحاضرة، والأيكة هي البادية، وكلاهما في طرف بلاد الحجاز مما يلي الشام[٣] وقد أرسل شعيب إلى كل منهما، وهما متجاوران.

قال تعالى في عذاب قوم مدين:

---

(١) «مختصر تاريخ دمشق» (١٠/٢٠٨) عن عكرمة.

(٢)، (٣) ينظر: أطلس القرآن، د. شوقي أبو خليل (ص٧١، ٧٢).

٩١- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

وفي هذه السورة يقرر - سبحانه - أن العذاب الذي لحق بقوم مدين هو الرجفة؛ أي: الزلزلة الشديدة التي صرعتْهم؛ فأصبحوا هلكى في ديارهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

وفي سورة - هود - عبر عنها بالصيحة ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود].

ولعل المراد أن جبريل صاح بهم، فرجعت الأرض تحت أرجلهم، فكلاهما أُعمل في العذاب. قال تعالى معقبًا على هلاكهم:

٩٢- ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

ثم عقب - سبحانه - على ما أصاب أهل مدين بأن العذاب لمَّا نزل بهم أتى عليهم فاستأصلهم كأنهم لم يكونوا في ديارهم، ولم يتمتعوا فيها لحظة من نهار، فلم يبقَ لهم أثر، وأصابهم الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، وكأنهم ما أقاموا في الدنيا، ولا نعمُوا بما فيها، ولا تفيَّؤُوا ظلالها، حين فاجأهم العذاب، فنقلهم من دار الشهوات والملذات إلى مستقر الأحزان والدركات، وهذا هو الخسران الحقيقي.

ولما أهلك الله قوم مدين، أعرض عنهم نبيهم شعيب وذكّرهم بنُصحه لهم وتبليغه لهم رسالة ربه، فلا موجب لِأَسَفِهِ عليهم.

٩٣- ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾

فما كان من شعيب حين تيقَّن أن العذاب نازل بهم لا محالة، إلا أن أعرض عنهم وذكَّرهم بما نصحهم به قائلًا لهم معاتبا ومؤنبا لهم بعد موتهم: لقد أبلغتكم رسالات ربي، وأرشدتكم إلى الدخول في دين الله، والإقلاع عمَّا أنتم عليه، فلم تسمعوا ولم تطيعوا، فكيف أحزن عليكم، وقد جحدتم وحدانية الله تعالى، وكذّبتم رسله، وتماديتم في الكفر والطغيان؛ بعد إبلاغكم وإقامة الحجة عليكم بعد نصحي لكم؛ لئلا يصيبكم مثل ما أصاب غيركم، كما قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن

يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود].

فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فلم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فكان عاقبة أمرهم خسرا.

أخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه: أن شعيبًا مات بمكة هو ومَن آمن معه من المؤمنين، فقبورهم في غرب الكعبة بين دار الندوة وبين باب بني سهم[1]، والله أعلم بصحة هذا.

التعقيب على هلاك الأمم المكذبة:

لقد اتبعت سورة (الأعراف) في حديثها عن رسل الله التسلسل التاريخي؛ لتبرز وحدة العقيدة في دعوة الأنبياء جميعًا، فكل منهم يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ثم يسوق لهم من الحجج والبراهين ما يدل على صدقه في تبليغ دعوة ربه.

وقصص هلاك المكذبين من جميع الأمم تشير إلى أن طبيعة الإيمان والكفر واحدة في نفوس الناس على مدى التاريخ، فهي متشابهة في كفر المستكبرين وإيمان المستضعفين.

والعاقبة التي حلَّت بكِلَا الفريقين واحدة لم تتغير، وكأنَّ الله تعالى يقول لنا: لقد سقتُ لكم الكثير من أخبار السابقين، وبينتُ لكم كيف تكون سعادة الأخيار وشقاء الأشرار، وهذه سنة الله في خلقه، فاجتهدوا في سلوك طريق الأخيار، فالله - سبحانه - يمهل ولا يهمل، ويبتلي بالسراء والضراء؛ كي يتضرع العباد إلى ربهم، فيفتح أبواب الخير والرحمة لمن آمن به واتقاه، وأبواب العقوبة لمن كفر به وعصاه.

والابتلاء بالسراء لا يقلُّ تمحيصًا عن الابتلاء بالضراء، فهو أشد وأعظم، والآيات التالية لا تروي حادثة معينة، وإنما تكشف عن سنة وناموس مُقدَّر تجري على وفقه الأحوال.

التَّعْقِيبُ عَلَى قَصَصِ الْمُرْسَلِينَ:

٩٤- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ[2] إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ[3] وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾

---

(١) ابن عساكر (٢٣/ ٨٠).

(٢) قرأ نافع (من نبيء) بهمزة بعد الياء، وتكون من باب المد المتصل عنده، وقرأ الباقون بياء مشددة.

(٣) قرأ السوسي وأبو جعفر بإبدال همزة (بالبأساء) ألفًا، والباقون بهمزة ساكنة.

ثم أخبر - سبحانه - أنه ما بعث نبيًا في مدينة من المدن إلا كذَّبه أهلها، فقد اقتضت سُنة الله في خَلْقِه أن يأخذ أهل كل أمة كذبت نبيها بالبأساء في أنفسهم وأرواحهم، والضراء في أبدانهم وأموالهم؛ كي تَصْحُوا ضمائرهم، وتستيقظ نفوسهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به إلا كَذَّبَهُ قومه، ومن هؤلاء الأنبياء (خالد بن سنان) بُعث نبيًا في بني عبس، و(حنظلة بن صفوان) أرسل إلى أصحاب الرس، وهما من الأمم المكذبة التي قال الله عنها: ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: ابتليناهما بالأمراض والأسقام في أبدانهم، وابتليناهم بالفقر والحاجة في أموالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: رجاء أن يستكينوا وينيبوا إلى الله سبحانه، ويرجعوا إليه إذا أصابتهم البأساء والضراء.

وفي هذا تخويفٌ وتحذيرٌ لكل مَن لم يؤمن بالله تعالى، ويصدِّق ما جاء به رسل الله تعالى لكل أمة من الأمم، فما يأخذ الله به الأمم من الشدائد يكون لأجل أن تَرِقَّ القلوب الجامدة، وتتعظ المشاعر الخامدة، ويتجه الخَلْقُ إلى بارئهم، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص].

والمعنى: وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بما يغير حالهم التي كانوا فيها من رخاء وصحة، عسى أن يعلموا أن سلب النعمة عنهم أمارة على غضب الله عليهم؛ بسبب تكذيبهم لرسول الله، ثم نمهلهم ونستدرجهم فيزدادون ضلالًا، فإذا رأَوْا ذلك قالوا: إن ما أصابهم من البؤس والضر هو عارض من عوارض الزمن كما حدث لأسلافهم من قبل، وليس بسبب تكذيبهم لرسل الله!!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام]

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ]. قال تعالى:

٩٥- ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾

أي: ولَمَّا لم يُفد في المرسل إليهم، ما ابتليناهم به من البؤوس والضر، واستمرَّ استكبارهم وازداد طغيانهم، أنزل الله عليهم الأرزاق، وعافي الأبدان، ورفع عنهم البلاء حتى كثُروا وكثرت أرزاقهم، وتقلّبوا في نعمة الله، نسوا ما كانوا فيه من بلاء، وقالوا: إنَّ ما حدث لهم سُنّة جارية في الخلق، مع تقلب الزمان وتداول الأيام، وليست للتذكير والموعظة، ولما فرحوا بما أُوتوا وظنوا أنهم أهلًا لهذه النعم، وأنها لن تزول عنهم، عندئذ أخذنا هم بغتة وأنزلنا بهم عقوبتنا.

وهكذا: لمَّا ابتلى الله بعض الأمم بالشدة والبؤس؛ ليتضرعوا إلى الله تعالى، ويرجعوا إليه فلم يفعلوا، غيَّرَ الله حالهم، فبدَّل أحوالهم السيئة إلى أحوال حسنة، وابتلاهم الله بالرخاء مكان الشدة، واليسر مكان العسر، والصحة مكان المرض، والغنى مكان الفقر، والأمن مكان الخوف؛ ليشكروا نعم الله عليهم، فيثوبوا وينيبوا إليه، وهذا معنى:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ ليس المراد بهما الطاعة والمعصية، وإنما المراد أبدلنا وحوَّلنا الحالة السيئة كالفقر والمرض، بالحالة الحسنة كالغنى والصحة.

﴿حَتَّى عَفَوا﴾ أي: حتى تحسنت أحوالهم، وكثرت أموالهم وأولادهم، فعفيت أبدانهم وأصبحوا في سَعَةٍ ورخاء؛ ليستشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين؛ إمهالًا لهم واستدراجًا لعلهم يشكرون الله تعالى، لكنهم لم يعتبروا ولم ينتفعوا، فلم يجدوا في أنفسهم حرجًا من قلة المبالاة والاستخفاف والاستهتار، بل قالوا: هذه عادة فيمَن سبقنا وليست عقوبة لنا.

أي: إن ما حلَّ بنا من السراء بعد الضراء هو عادة الدهر في الأجيال المتلاحقة، يوم خير، ويوم شر، وهذا ما جرى لآبائنا الأولين، فما أصابنا من ضر ليس عقوبة لنا على شيء، بل ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ قبلنا فكانت النتيجة أن أخذهم الله بالعذاب فجأة، على عدم شعور منهم، وهم آمنون مطمئنون، لم يخطر على بالهم هذا الهلاك ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما جاء في الحديث: **«موت الفجأة رحمة للمؤمن،**

وأخذة أسف للفاجر»[١].

وهذا ثمرة البعد عن منهج الله، وعدم الشكر في السراء والضراء ليست حال المؤمن، فالمؤمن يشكر الله على السراء، ويصبر على الضراء، كما قال النبي ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له»**[٢].

ثم بيّن سبحانه أن الإيمان والتقوى سببان لنزول الخيرات والبركات، وأن تكذيب الرسل والإعراض عنهم سببان لنزول العذاب، فقال تعالى:

٩٦- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا[٣] عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

أي: ولو أن الذين كذبوا رسل الله آمنوا بقلوبهم، وتركوا محارم الله، لفتح عليهم بركات من السماء والأرض، وأغدق عليهم النعم ظاهرة وباطنة، ولكنهم استمروا في كذبهم فأنزل الله بهم عقوبته.

والأمم التي أُبيدت هي التي حَفَرَتْ قبرها بيدها، فلم يلحق بها مثقال ذرة من ظلم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي: لو أنهم صدقوا بالله واتبعوا رسله، بدل التكذيب والاستخفاف، وامتثلوا ما أمر الله به، واجتنبوا ما نهى عنه بدلًا من العناد والمخالفة، لو أنهم فعلوا ذلك لفتح الله عليهم أبواب الخيرات والبركات من كل وجه، من فوقهم ومن تحت أرجلهم بلا حساب، وهذا معنى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولكنهم بدل أن يؤمنوا ويمتثلوا، كذَّبوا بالله ورسله؛ فعاقبهم الله

---

(١) أبو داود (٣/ ٤٨١) برقم (٣١١٠) وصحيح أبي داود (٢٦٦٧) عن عبيد بن خالد السلمي مرفوعًا وموقوفًا، ورواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٢٤) بلفظ (موتُ الفَجْأةِ أخذة أَسَفٍ) وهو برقم (١٥٤٩٦، ١٧٩٢٤) عن عبيد بن خالد، إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه البيهقي في السنن(٣/ ٣٧٨) وابن عدي في الكامل (٢/ ٦٤٩) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» وفي مشكاة المصابيح (١٦١١).

(٢) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٢٩٥) من حديث صهيب بن سنان برقم (٢٩٩٩).

(٣) قرأ ابن عامر وابن وردان وابن جماز ورويس بخلف عنهما (لفتَّحْنا) بتشديد التاء، والباقون بتخفيفها، وهو الوجه الثاني لابن جماز ورويس.

بالعذاب المهلِك؛ بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بالعقوبات ونزع البركات وكثرة الآفات والهزائم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: بسبب ما اكتسبوه من الإعراض عن دعوة الرسل، وكل هذا قد سَبَقَ به عِلْمُ الله تعالى، فقد عَلِمَ سبحانه أنهم لن يكتسبوا الإيمان والتقوى في حياتهم، وبالتالي فلن ينالوا خيرَ الله ورِزْقَه. ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

والمعنى: وما أرسلنا في قرية نبيًّا فكذبه أهلها إلا نبهناهم واستدرجناهم، ثم عاقبناهم، ولو أنهم آمنوا بما جاءهم به رسولهم واتقوا ربهم؛ لَمَا أصبناهم بالبأساء، ولأحييناهم حياة كلها خير وبركة، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم.

وهذه الآية من آخر ما نزل بمكة، وقد أصيب أهل مكة بالقحط والجوع بعد خروج المؤمنين منها، وبارك الله لأهل المدينة وأغناهم، ولنا **وقفتان** في هذه الآية:

الوقفة الأولى: أن غير المسلمين نراهم في واقع الحياة مفتوحًا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ، وأن المسلمين على العكس من ذلك، فهم على الأغلب في فقر وضعف وهوان، وهذا يدل على أن الإيمان والتقوى مسألة تعبدية بحتة لا عَلاقة لها بواقع الناس.

والجواب على هذا: أن الله تعالى يعطي الدنيا لمن يحب ومَن لا يحب، ولكنه لا يعطي الدين إلا لمن يحب، وأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فالكافر يأخذ حظه كاملًا في الدنيا، والمؤمن يؤجل له حظه إلى آخرته، على أن الذين يفتح الله عليهم في الرزق هم المؤمنون حق الإيمان، الذين يسيرون وَفْق منهج الله، ويحكِّمُون شرعه في جميع شؤونهم، وكذا أهل الإسلام المشوبون بالمعاصي، فإنهم يخضعون لأنواع الابتلاء والتمحيص.

الوقفة الثانية: أن هناك فَرْقًا بين الرزق في حد ذاته وبين البركة فيه، والله تعالى قال: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولم يقل خيرات أو أرزاق، فالبركات هي لأهل الإيمان والتقوى، فالشيء القليل مع الصلاح والرضى والارتياح، يكون كثير النفع متعدد الفوائد، غير منقطع الخير، يسلم من الآفات التي تنزل به، ويُحسِن صاحبه وجوه التصرف فيه، فيصرفه في مواضعه ووجوه الانتفاع به، ويكون متتابعًا مستمرًّا لا ينقطع، والمال الكثير مع عدم البركة فيه تأتيه وجوه المَحْقِ والزوال، وأنواع الآفات والمحن، وينفق في وجوه الشر، ويكون وبالًا على صاحبه، ويموت صفر اليدين. قال تعالى:

٩٧- ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

إن على المخاطَبين بهذا القرآن أن يتعظوا بمصارع الآباء والأجداد، فيعتبروا بما لَحِقَ بهم، ومعنى ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: أظن المكذبون لرسل الله، أنهم في منجاة ومأمن من عذاب الله، أن يأتيهم بأسنا وينزل عليهم عذابنا في أية لحظة من ليل أو نهار، وهم سادرون في غيهم وغفلتهم وقت راحتهم ونومهم؟ قال تعالى:

٩٨- ﴿أَوَ[1] أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾

أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله وانتقامه منهم في وقت الضحى، وهم غافلون متشاغلون بأمور دنياهم، لاهُون فيها، إن بأس الله وعذابه أعظم وأشد من أن يقف في وجهه اليقظ واللاهي، والهازل والجاد، ولكن القرآن يخص بالذِّكرِ لحظات الضعف الإنساني؛ لأن الإنسان فيها يكون أغفل ما يكون، فنزول العذاب به يكون أفظع وأشد، فليس هناك ما يؤمِّنهم من عذاب الله، وهم قد فعلوا أسبابه، وارتكبوا من الجرائم ما يوجب هلاكهم، قال تعالى مبيِّنًا أنه لا يأمن عقاب الله إلا من خسر دنياه وآخرته:

٩٩- ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

إن العبد يُستدرج من حيث لا يعلم، ويُبتلى بالخير والشر، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وما يصيبه من النِّعَم قد يكون استدراجًا له، وإمهالًا بما أنعم الله عليه في الدنيا، وعقوبة له، فعلى العبد ألا يأمن مكر الله تعالى بوقوع عقابه وعذابه في ساعة من ليل أو نهار، فالكافر والمكذِّبُ لا يأمن أن يكون ما أعطاه الله له من نعمة على كفره وتكذيبه استدراجًا له، إلا مَن خسر آخرته فهلك مع الهالكين، لأنه لم يُحقق الإيمان ولم يصدق بالبعث والجزاء، فلا ينبغي للعبد أن يكون آمنا من عذاب الله على ما معه من إيمان، بل لايزال خائفًا وجلًا داعيًا ربه أن يثبته على الإيمان ويسعى في كل ما يبعده عن الهلاك وسوء الخاتمة. قال تعالى موجِّهًا الأنظار إلى الاعتبار بما حدث للأمم المكذبة:

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (أَوْ أمِنَ) بسكون الواو على أن (أو) حرف عطف للتقسيم؛ أي: أفأمنوا إحدى العقوبتين، وقرأ الباقون بفتحها، على أن واو العطف دخلت عليها همزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: أفأمنوا مجموع العقوبتين.

١٠٠- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ[1] أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هذه دعوة وتحذير لمن بقى في الأرض بعد هلاك من هلك، حذرهم فيها ألا يفعلوا مثل ذنوبهم، فيصيبهم ما أصاب الأولين، ويعاقبهم بالطبع على قلوبهم فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، وسبب ذلك أنهم ذُكّروا فلم يتذكروا، ووُعظوا فلم يتعظوا، ولم يقبلوا هُدى الله، فعاتبهم الله على ذلك.

والمعنى: ألم يظهر لوارث الأرض بعد مَن كانوا فيها من الأمم المكذبة لرسل الله، أنَّا نقدر على إهلاكهم؛ بسبب معاصيهم، فنفعل بهم كما فعلنا بمَن سبقهم؟ أمَا كانت مَصارع الغابرين عبرةً لمن جاء بعدهم؛ فتهديهم وتنير لهم الطريق؟

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يتبين ويتضح ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي: الذين يسكنون الأرض ويقيمون فيها بعد هلاك مَن سبقهم مِن الأمم؛ بسبب معاصيهم، لو شئنا أهلكناهم وعاقبناهم؛ بسبب ذنوبهم وسيْرهم سيرة السابقين كما فعلنا بأسلافهم، ولو شئنا ختمنا على قلوبهم فلا يدخلها حق، ولا ينتفعون بموعظة ولا تذكرة، وفي هذا تنبيه وتذكير للاعتبار والاتعاظ.

الْاِعْتِبَارُ بِهَلَاكِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ

١٠١- ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم[2] بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

وفي ختام الحديث عن هلاك الأمم المكذِّبة برسل الله، والتعليق عليها، اتجهتِ الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ؛ لِتُطْلِعَهُ على النتيجة الأخيرة لابتلاء الأمم مع أنبياء الله ورسله فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ التي تقدم ذِكْرُها؛ وهي قرى قوم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَنبَائِهَا﴾ وأخبارها، وما كان من أمر رسل

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوًا خالصة من (نشاء أصبناهم)، والباقون بتحقيقها.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلهم)، والباقون بضمها.

الله الذين أُرسلوا إليهم؛ لتحصل العبرة للمعتبرين، والردع للظالمين، والموعظة للمتقين.

وفي هذا تحذير لكل كافر ومكذب برسالة محمدٍ ﷺ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ أي جاءت هؤلاء المكذبين لرسل الله ﴿رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج والمعجزات الظاهرة، الدالة على صدقهم، فما كانوا ليوفقهم الله إلى الإيمان؛ بسبب تكذيبهم لرسل الله واستمرارهم على ذلك؛ لأن البينات والبراهين الدالة على صدق الرسل لا تنفع الذين عميت قلوبهم؛ بسبب طغيانهم وتكذيبهم بالحق؛ وقد سَبَقَ في عِلْم الله أنهم لا يؤمنون، فما كان الله ليهديهم للإيمان، جزاء ردهم الحق وفساد فطرتهم ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود]

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر].

وبمثل هذا الختم على القلوب المكذِّبة، يختم الله على قلب الكافر بمحمدٍ ﷺ؛ فلا يدخله هُدًى ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهم الذين خالفوا الميثاق المأخوذ على بني آدم بالإيمان، وهم في أصلاب آبائهم، فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل كما سَبَقَ في عِلْمِ الله يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، قال تعالى:

١٠٢- ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ أن أغلب الناس وهم الذين كذبوا رسل الله، ولم يؤمنوا بالله ويوحِّدوه، قد خالفوا عهد الفطرة الذي أخذه الله على بني آدم في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

والله تعالى يخبرنا: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ من الأمم الخالية والقرون الماضية الذين قص الله علينا خبرهم ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ يوفونه مع أنفسهم، وهم من باب أَوْلَى ليس لهم وفاء بكل

عهد مع غيرهم، ولا أمانة لهم، ولاثبات لهم على دين، ولا التزام عندهم بوصية الله التي أوصى بها خلقه أجمعين، ولا انقياد منهم لأوامر الله تعالى نواهيه ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ أي: وما وجدنا أكثرهم إلا فسقة خارجين عن طاعة الله وأمره، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، ولقد امتحن الله عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب وأمرهم بالاتباع فلم يمتثل لأمره إلا قليل، وخرج أكثرهم عن طاعة الله، والمراد بالعهد في الآية هو ما فطرهم الله عليه من التوحيد والطاعة والامتثال وهم في أصلاب آبائهم.

سَادِسًا: الْقِصَّةُ الأَخِيرَةُ: قِصَّةُ مُوسَى عليه السلام

١٠٣- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

جاءت قصة موسى عليه السلام بعد قصص الأنبياء المذكورين قبله في هذه السورة؛ وهم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي من بعد الرسل السابق ذكرهم في السورة، بعثنا ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التسع وهي: العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؛ أي: أنه بعد هؤلاء الرسل الست، المذكورين كانت رسالة (موسى بن عمران)، من نسل يعقوب عليه السلام بعثناه إلى قوم عُتاة جبابرة، وهم فرعون وملأه، فلم يتبعوه، وظلموا أنفسهم بمخالفته.

وقد أَخَذَت هذه القصة مساحة كبيرة من هذه السورة، ومن سائر القصص في سور القرآن الكريم، وقد وردت قصة موسى في أكثر من ثلاثين موضعًا في القرآن الكريم، وفُصِّلت في أكثر من عشر سور؛ وهي: البقرة والمائدة والأعراف ويونس والكهف وطه والشعراء والنمل والقصص وغافر والدخان والنازعات.

وذكُر (موسى) عليه السلام في القرآن مئة وستًّا وثلاثين مرة، في أربع وثلاثين سورة.

وذُكر (هارون) عليه السلام في القرآن عشرين مرة في ثلاث عشرة سورة.

وقد بدأت قصة موسى في سورة (القصص) من مولده عليه السلام وبدأت في سورة (طه) من رسالته، وبدأت في هذه السورة من مواجهة فرعون وملئه بالرسالة، وهي في ذلك تتناسب مع جو كل سورة وهدفها، ومن المعلوم أنه في ذلك الزمان كان يقال لملِك

مصر فرعون، كما يقال لملِك الفرس كسرى، ولملك الروم قيصر، ولملك الحبشة النجاشي.

وكان اسم فرعون الذي في عهد موسى (الوليد بن مصعب)، وهو منفتاح بن رمسيس الثاني، الذي حكَم مصر في الفترة من سنة ١٢٣٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٢١٥ قبل الميلاد، وكانت عاصمة الفراعنة في (طِيبة الأقصر) بمصر[1] وهو أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر سنة ١٤٩١ قبل الميلاد.

ومعنى فرعون: نور الشمس؛ وذلك لأن (رع) اسم للشمس، وكان القوم يعبدون الشمس؛ فجعلوا مَن يملك مصر بمنزلة نور الشمس؛ لأنه يُصلح الناس، - على حد زعمهم - وبدأ ذلك في القرن الثالث عشر قبل الميلاد تقريبًا.

قصة موسى مع فرعون وقصته مع قومه:

وتتناول قصة موسى في سورة (الأعراف) **جانبين** من جوانب قصته المتكاملة في سور القرآن كلها:

الجانب الأول: قصة موسى مع فرعون والسحرة من: مواجهتهم بربوبية الله تعالى، إلى إغراقهم في اليمِّ، ومرورًا بإيمان السحرة بموسى ومعجزة العصا واليد.

والجانب الآخر: هو قصة موسى مع قومه، وهم بنو إسرائيل، ويأتي هذا الجانب بعد نهاية قصة السحرة من هذه السورة.

والجانبان يمثلان دعوة موسى فرعون إلى توحيد الله أوَّلًا، ثم تخليص بني إسرائيل من قهر فرعون ثانيًا.

وإلى الأول يشير قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وإلى الثاني يشير قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وبنو إسرائيل هم أول مَن واجه الدعوة: بالعداء، والحرب، والكيد، وبث الإشاعات، والتآمر على الإسلام.

وفي تجربة موسى مع فرعون من الدروس والعبر ما ينفع على مدار القرون.

---

(١) ينظر: أطلس القرآن للدكتور شوقي أبو خليل (ص ٧٩-٨١).

الْجَانِبُ الأَوَّلُ: قِصَّةُ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ

لقد أرسل الله ﷻ موسى، وأيده بالمعجزات، ومن أولها: العصا واليد، ولكنهم جحدوا وكفروا بها ظلمًا وعنادًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: ١٤] فانظر - يا محمد- متبصرًا كيف أغرقنا آل فرعون بمرأى مِن موسى ومَن معه، وتلك عاقبة المفسدين في كل زمان ومكان، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ والنظر والتدبر في عواقب المكذبين للاعتبار بهم والاستفادة مما حدث لهم.

وفي هذا الجانب من القصة: ثلاث مواجهات:

الْمُوَاجَهَةُ الأُولَى بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ

دعوة موسى لفرعون لها هدفان هما: الدعوة إلى التوحيد، وتخليص بني إسرائيل منه:

١٠٤- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

هذا تفصيل لما أجملته الآية السابقة، وفيه حوار موسى مع فرعون:

وقد كانت هذه المواجهة لبيان الحقيقة الكبرى التي جاء بها كل رسول إلى قومه؛ ألوهية واحدة، وعبادة شاملة لله وحده، حيث واجه موسى فرعون بقوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهي دعوة كل رسول لقومه، قال موسى لفرعون محاورًا ومبلغًا ما أُمر به: إني رسول من الله خالق الخَلْقِ أجمعين، ومدبر أحوالهم وأمورهم، وقوله: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يشمل فرعون ومملكته، فتبطل دعواه أنه مِلِك مصر بطريق اللزوم، ويدخل في ذلك جميع العباد والبلاد، وفيها بيان أن الله تعالى لم يترك عباده سدى، وأنه قد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، ومنهم موسى ﵇؛ وهو جدير بقول الحق، مؤيَّد بالمعجزات والدلائل الواضحة، يدعو الناس إلى وحدانية الله تعالى، ويخلص بني إسرائيل من بطش فرعون، وهذا معنى قوله:

١٠٥- ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ[1] أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ

---

(١) قرأ نافع بياء مشددة مفتوحة بعد اللام من (حقيق على) على أن (على) حرف جر دخل على ياء المتكلم، ثم قلبت الألف ياء وأدغمت الياء في الياء، وقرأ الباقون بألف بعد اللام على أنها حرف جر بمعنى الباء؛ أي: حقيق بقول الحق.

مَعِيَ[١] بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ[٢] ﴿١٠٥﴾﴾

قال موسى لفرعون: وإن الله قد اصطفاني واختارني لرسالته، وأنا جدير بعدم الكذب على الله، وحري بالتزام الحق، فالرسول لا يقول إلا حقًا، وقد جئتكم ببرهان من ربكم على صدق قولي، وحجة قاطعة أني رسول الله حقًا، ولو أني قلت غير ذلك لعاجلني الله بالعقوبة وأخذني أخذ عزيز مقتدر، وهذا أمر موجب لأن تتبعوني، فقد جئتكم بمعجزات دالة على صدق دعوتي لكم، فأطلق معي يا فرعون بني إسرائيل من أسرك وقهرك وخلِّ سبيلهم من الرق لعبادة الله وحده، ولما كان خروجهم من مصر متوقفًا على أمر فرعون ووزرائه؛ بعث الله موسى إليه يدعوه إلى التوحيد، ويطلب منه إطلاق سراح بني إسرائيل، وهما مقصود رسالتي إليكم.

وفي سورة (النازعات) قال الله له: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات] بلِّغه دعوة ربك، وادعه إلى التوحيد، وإلى عبادة الله وحده، وذهب موسى برفقة أخيه هارون - عليهما السلام - إلى فرعون يدعوه - أوَّلًا - إلى توحيد الله سبحانه، ويدعوه - ثانيًا - إلى إطلاق سبيل بني إسرائيل ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء]

وفي هذا إشارةٌ إلى أن موسى عليه السلام قد أرسله الله إلى فرعون وملأه، وأرسله أيضًا إلى بني إسرائيل، ولم يُوَجِّه موسى دعوته إلى أهل مصر، وكانوا يعبدون البقر وقتها، لأن الناس على دين ملوكهم، وإذا آمن فرعون وحاشيته الكبار، فإن الرعية سيتبعونهم حتمًا.

فِرْعَوْنَ يَطْلُبُ البَيِّنَةَ مِنْ مُوسَى عَلَى رِسَالَتِهِ وَاللهُ تَعَالَى يؤيِّدُهُ بِهَا:

١٠٦- ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

وبعد أن دعا موسى فرعون إلى توحيد الله تعالى، يأتي الحوار بينهما في شأن السحرة؛ حيث طلب فرعون من موسى دليلًا وبينة على أنه رسول من رب العالمين، قال فرعون لموسى: إن كنت جئت متمكنًا من ظهور المعجزات فأتِ بآية كما زعمت، وأحْضِرها عندنا؛ ليثبت صدقك عندي.

---

(١) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة وصلًا من (فأرسل معي)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ أبو جعفر بتسهيل همزة (إسرائيل) مع المد والقصر، والباقون بالتحقيق.

ردًّ موسى ﷺ ردًّا فعليًّا سريعًا، مُبينًا له البينة التي أيده الله بها، وهي العصا التي كانت في يده يهش بها على غنمه، وهي عصا يراها الرائي كالعصا العادية ليس فيها شيء قال تعالى مبيِّنًا تأييد الله له بمعجزتيْ: **العصا واليد**:

١٠٧- ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

فأظهر موسى هذه الآية وألقى عصاه، فتحولت حية عظيمة ظاهرة للعيان ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ووصُفت هنا وفي آية أخرى بأنها ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢] **والثعبان**: هو الذكر الضخم العظيم من الحيات، **والجان**: الحية الصغيرة، ألقاها موسى فإذا هي حية تسعى؛ أي: تدب فيها الحياة وتتحرك، حية عظيمة فاغرة فاها، اتجهت نحو فرعون بسرعة، ففزع من مكانه ودب الرعب في قلبه، وانقلب من فوق سريره، واستغاث بموسى أن يحول بينه وبينها، فأخذها موسى فصارت عصا، هذه هي المعجزة الأولى، قال تعالى:

١٠٨- ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

والمعجزة الثانية: معجزة اليد، فقد أمر الله موسى أن يجذب يده من جيبه أو جناحه، فإذا هي بيضاء كاللبن من غير برص، آية لموسى، فإذا ردها عادت كسائر بدنه؛ وكان موسى أسمر اللون.

عن عبد الله بن عمر ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**وأما موسى فآدم، جسيم سبط، كأنه من رجال الزُّط**»(١).

والزُّط: جنس من السودان والهنود، فأمره الله - سبحانه - أن يدخل يده في جيبه أي: من فتحة صدره، ويمدها إلى تحت إبطه، ويضغط عليها، ويُثْني بأعلى كتفه فوق يده تحت إبطه، ثم يخرج يده من جيبه، فإذا هي تخرج بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس، كأنها قطعة من القمر، من غير مرض، ومن غير برص، ولا تشوُّه، ولا سوء.

ثم يأمره الله - سبحانه - أن يعيد يده مرة ثانية، بحيث يُدخلها في جيبه ويضعها تحت إبطه، فإذا هي تعود كما كانت في لونها الأول، معجزتان أيد الله بهما موسى ﷺ، تدلّان على صدق دعواه وصحة رسالته.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن جرير» (١٠/ ٣٤٣) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٥٩)، والحديث في البخاري برقم (٣٤٣٨) عن ابن عمر.

ولما دخل موسى على فرعون، قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم، قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] فردَّ عليه موسى بما جاء في سورة الشعراء من أنه قتل القبطي خطأ قبل أن يبعث نبيًّا، وأنه فرَّ هاربًا منهم، فاصطفاه ربه وبعثه نبيًّا ورسولًا، فقال فرعون خذوه، فبادره موسى بإلقاء عصاه ونَزْعِ يده، قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [طه].

الْمُوَاجَهَةُ الثَّانِيَةُ بَيْنَ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ لِمُنَاظَرَةِ مُوسَى:

١٠٩- ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾

استشار فرعون قومه في شأن موسى حين ألقى بمعجزة العصا واليد أمام فرعون، فقال الملأ (وهم رجال الدولة وحاشية فرعون والأشراف والكبار منهم المستعبدون لبني إسرائيل، وقد بهرهم ما رأوْه من الآيات، وبدل أن يُصَدِّقُوها تلَمَّسُوا لها التأويلات الفاسدة فقالوا: إن موسى لساحر يأخذ بأعين الناس، بخداعه إياهم، حتى يخيل إليهم أن العصا حية، وهو ساحر عليم، ماهر بالسحر، وكان الساحر عندهم في أعلى المراتب، ومن أعظم الرجال.

ثم إن كبار قوم فرعون خوَّفُوا الضعفاء من قوم موسى، وطلب فرعون مشورة قومه في شأنه فقالوا:

١١٠- ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أي: أن موسى يريد أن يخرجكم - أيها القوم - من أرض مصر بسحره، وكان بنو إسرائيل قد استوطنوا أرض مصر أربعة قرون؛ ولذا قال بعضهم لبعض: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ فهي كالوطن بالنسبة لهم.

ويمكن أن يكون الخطاب في الآية موجهًا إلى أهل مصر الأصليِّين تخويفًا لهم من موسى وتأليبًا لهم عليه.

وهنا قال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ أشيروا عليَّ، وهذا موقف الحاكم الطاغية، حين يكون في موقف الضعيف، يتشاور معهم فيما يندفع به الضرر، فهو يقول للذين استعبدهم واستذلهم: ماذا تأمرون؟ يطلب منهم المشورة؛ أي: بماذا تشيرون عليَّ؟ وهو الذي يقول

لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ويقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] وهكذا أدرك فرعون وقومه خطورة الدعوة إلى الله، كما يدركها الطواغيت في كل زمان ومكان، فيحاولون أن يقابلوها بما يبطلها ويدحضها حتى لا تدخل في عقول أكثر الناس.

لقد قال الرجل العربي -بفطرته وسليقته- حين سمع رسول الله ﷺ يدعو إلى التوحيد: هذا أمر تكرهه الملوك! وقال آخر: إذن تحاربك العرب والعجم.

إذ لا يمكن أن يجتمع في قلب واحد، ولا في أرض واحدة، توحيد الله مع الحُكْم بغير شرع الله، ولا يجتمع تأليه الله تعالى وتأليه أحد من خلق الله بطاعته واتباع أمره من دون الله، ولا يصح أن يكون السلطان في حياة الناس لعبد من عباد الله، بتشريعه وقوانينه، ففرعون لم يدَّعِ الألوهية؛ بمعنى: أنه خالق الكون ومدبره، وإنما ادعاها بمعنى أنه حاكم الشعب ومستذله بشريعته وقانونه.

وعبادة الناس له معناها: الخضوع لإرادته، وعدم عصيان أمره، وعدم معاندتهم له، وكلا المعنيين (العابد والمعبود) بالمعنى اللغوي للربوبية والعبودية، كما أن المعنى اللغوي للألوهية: هو وضع التشريعات للناس وتنفيذها فيهم، وهذا هو الذي ادَّعاه فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وانعقد رأي الملأ على مناظرة موسى بأكابر سحرة الوقت والزمان:

١١١، ١١٢- ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ(١) وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ(٢) عَلِيمٍ﴾

---

(١) (أرجه) فيها ست قراءات:

١- قرأ قالون وابن وردان بخلف عنه بترك الهمزة وكسر الهاء من غير صلة.

٢- وقرأ ورش والكسائي وابن جماز وخلف العاشر وابن وردان في وجهه الثاني (أرجهي) بترك الهمزة وكسر الهاء مع الصلة.

٣- وقرأ حفص وحمزة وشعبة بخلف عنه (أرجه) بترك الهمزة وسكون الهاء.

٤- وقرأ ابن كثير وهشام بخلف عنه (أرجه) بهمزة وضم الهاء مع الصلة.

٥- وقرأ أبو عمر ويعقوب وهشام وشعبة في وجهه الثاني (أرجه) بالهمزة وضم الهاء من غير صلة.

٦- وقرأ ابن ذكوان بالهمز وكسر الهاء من غير صلة.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بألف بعد السين، وبفتح الحاء وتشديدها وألف بعدها (بكل سَحَّار) على وزن فعَّال للمبالغة، وقرأ الباقون (ساحر) بألف بعد السين وكسر الحاء مخففة.

أشار الملأ على فرعون أن يؤجل النظر في أمر موسى وأخيه، فيُمهلْهما بعض الوقت وأن يتوجه إلى جمْع السحرة من كل مكان لإبطال سحره، ولم يشيروا عليه بقتل موسى؛ لأن في قتله إدخال شبهة عليهم، والمطلوب أن يغلبه بالحجة ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: مَن حضر المناظرة بين موسى وفرعون ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أَمْهِلْ موسى وهارون، واعطهما موعدًا؛ لنجمع لموسى السحرة ونحشرهم له من صعيد مصر ومن سائر أرجائها؛ حتى يبطلوا سحره ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشعراء] وقالوا: نحن على ثقة من الفوز والنصر، فأرح نفسك واستسلم لنا.

أرسل فرعون الشرطة في أنحاء مصر؛ ليجمعوا له كل ساحر واسع العلم بالسحر ويحشروهم له، وجاء السحرة من المدائن، فحضروا عند فرعون، وكان السحر في ذلك الوقت قد بلغ شأنًا عظيمًا ومنزلة كبيرة، يتعلمه الناس في دور التعليم العليا في مصر، وفي: بابل، وفي الهند، وفي غيرها من البلاد، يتعلمون السحر، ويفعلونه ويحترفونه بين يدي الملوك والأمراء، فيكافئون عليه، ويعظمون مَن يفعله.

والسحرة: هم كهنة المعابد والديانات الوثنية التي كانت تؤلّه فرعون، وتمكنه من رقاب الناس.

والسحر أنواع: منه ما له حقيقة، ومنه ما فيه التخيل والتمويه وليس له حقيقة، وإنما هو ضَرْبٌ من الشعوذة ونحوها.

السَّحَرَةُ يَطْلُبُونَ الأَجْرَ عَلَى لِقَاءِ مُوسَى:

١١٣- ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ[١] لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾

أحضر الشرطة السحرة من أرجاء مصر، ومثَلوا بين يدي فرعون وسألوه جائزة مالية إذا هم غَلبوا موسى.

ولم يأتِ خبر صحيح بمعرفة عدد هؤلاء السحرة، ولكنهم كانوا كثرة، وأدنى مَنْ

(١) قرأ نافع وابن كثير وحفص وأبو جعفر (إن لنا) بهمزة واحدة مكسورة على الخبر، والباقون بهمزتين على الاستفهام (أئنَّ لنا)، وكل على أصله بالنسبة للتسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه.

عدَّهم، عدَّهم، بالعشَرات، وعدَّهم آخرون بالآلاف، والساحر أدنى مرتبة من السحار، وهو الماهر المداوم على السحر، العليم بصناعته.

قيل: وكان عدد السحرة اثنين وسبعين ساحرًا، وكان موسى قد نصحهم - أوَّلًا - بعدم الدخول معه في معركة هم الخاسرون فيها قطعًا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه: ٦١] صمم السحرة على لقاء موسى، وطلبوا من فرعون المكافأة، فلبَّى طلبهم، وزاد عليه قُربهم منه:

١١٤- ﴿قَالَ نَعَمْ[1] وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

أجابهم فرعون ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم أجر وجائزة كبيرة إن غلبتم موسى، وفوق ذلك فإنكم ستُقَرَّبون مني، وتحظَوْن بذلك عندي، وتكونون من أعز خاصتي وحاشيتي، فوعدهم الأجر والتقريب وعُلوّ المنزلة عنده ليجتهدوا ويبذلوا طاقتهم في مغالبة موسى بحضرة الناس كلهم في ساحة المناظرة، واتفقوا مع موسى على الموعد، وعلى الزمان والمكان، اتفقوا أن يكون الوقت وقت الضحى، حيث يكثر تجمعات الناس، ليس بالصباح الباكر، ولا بوقت الحر في الظهيرة، ولا بالمساء المتأخر، وإنما وقت الضحى حيث يكون التجمع أكثر، والناس كلها متيقظة، واتفقوا أن يكون ذلك في يوم الزينة، ويوم الزينة أعظم أيام اليهود، فهو يوم عيدهم، وهو ما نسميه بعيد الربيع، أو شم النسيم، وجاء الآلاف من كبار السحرة -كما جاء في بعض الروايات- ليبطلوا سحر فرعون.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه].

وورد أنهم في ليلة الموعد باللقاء اتفقوا على أن يسرقوا العصا، وقالوا: هذا اختبار لموسى، إن كانت هذه العصا عادية، فسوف نسرقها وينتهي الأمر، وإن كانت معجزة، فليس في إمكاننا أن نسرقها، وقد كان الأمر الثاني حيث لم يستطيعوا سرقة عصا موسى عليه السلام.

---

(١) قرأ الكسائي (نَعِمْ) بكسر العين، والباقون بفتحها.

الْمُوَاجَهَةُ الثَّالِثَةُ بَيْنَ مُوسَى وَالسَّحَرَةِ

١١٥- ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

ثم يأتي الحوار بين موسى والسحرة، فقد اطمأن السحرة على الأجر، واشرأبَّتْ أعناقهم للقرب من فرعون، واستعدُّوا للحَلْبة، وجاء الموعد، يوم الزينة في وقت الضحى، وحشر الناس، فقال السحرة على وجه التحدي لموسى: إما أن تلقي عصاك أوَّلًا، أو نلقي نحن أوَّلًا، قالوا ذلك على سبيل التأدب مع موسى أو على سبيل التحدي، أو أنهم قالوا ذلك على وجه عدم المبالاة بما جاء به، وكأنهم يقولون له: أنت مطلوب لا محالة.

١١٦- ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

قال موسى للسحرة: ﴿أَلْقُوا۟﴾ ليرى الناس ما معهم، وليظهرَ بطلان سحرهم، وأنه تمويه وتخيل، وتظهر معجزته ببطلان سحرهم وزواله، فألقوا حبالهم وعصيهم ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ فخيل إليهم أن ما فعلوه حقيقة، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: أرهبوا الناس إرهابًا شديدًا حيث أتَوْا بثلاث مئة وستين بعيرًا موقرة بالحبال والعصيِّ، فلما ألقوها تحركت وملأت الوادي وجعلوا فيها الزئبق، فتحركت بسرعة هائلة يركب بعضها فوق بعض؛ فأفزعت الناس وأرهبتهم ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ﴾ قوي التأثير.

قيل: إنهم جعلوها عصيًّا مجوفة مملوءة بالزئبق، وجعلوا تحتها أسرابًا من نار؛ لأن الزئبق يطير إذا أصابته النار، وكلها حيل صناعية، وفي سورة طه ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] وهي لا تسعى في الحقيقة، إنما هذا تمويه وشعوذة، وليس سحرًا حقيقيًّا.

والمعجزات التي أيد الله بها الرسل، منها ما هو في قدرة البشر، ولكن الله تعالى صرفهم عنها؛ لِيُظْهِر أنها من عند الله، ومنها ما ليس في قدرة البشر؛ كقلب العصا حية، وإحياء الموتى، ولما أَلْقَوْا سحرهم خاف موسى من تأثيرهم على الناس ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه] قال سبحانه مُطمئنًا له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨].

استسلام السحرة

١١٧- ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ[1] مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧﴾

أوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ يأمره بإلقاء عصاه التي في يمينه؛ ليفرق بها بين الحق والباطل، والحقيقة والخيال، فألقاها فإذا هي تبتلع ما أَلْقَوْه، مما يوهمون الناس به أنه حقٌّ، وهو باطل، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ [طه: ٦٩] ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف الحبال والعصي، ومعنى تلقف: تأكل بسرعة، وتلتهم حبالهم، وتأتي على الشيء سريعًا، فكانت عصا موسى تأكل العصيَّ والحبال التي ألقاها السحرة، وتلتهمها بسرعة منقطعة النظير، حتى أدركوا أن هذا ليس من فعل البشر، وليس بسحر، إنما هو قوة خارقة فوق طاقة العباد.

قيل: إن هذه عصا الأنبياء، كانت عند شعيب، فلما رَعَى موسى الغنم، قال له شعيب: اذهب فخذ لك عصا من مجموع عصيٍّ كانت عنده، فوقعت هذه العصا في يد موسى، فأمره شعيب أن يأخذ غيرها ثلاث مرات، وهي تقع في يده؛ فتركها له شعيب بعد أن أُمر بذلك.

١١٨، ١١٩- ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝١١٩﴾

ولما ألقى موسى عصاه ظهر الحق واضحًا ظهروا ستعلن، وتبين لمن حضره أن موسى رسول من رب العالمين، وبَطَلَ الكذب الذي فعله السحرة ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر واستبان.

وحينئذٍ غلب موسى جميع السحرة في مكان اجتماعهم ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ﴾ وانصرف فرعون وقومه أذلاء مقهورين، قد اضمحل باطلهم وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم ما أرادوه، وأكبر من تبيَّن لهم الحق وصِدْق موسى، أهل الصنعة، الذين يعرفون أنواع السحر وجزئياته، فعرفوا أن ما جاء به موسى ليس سحر، وإنما هو أمر خارق للعادة فوق قدرة البشر، وبينما هم كذلك؛ إذ بالمفاجأة الكبرى التي تُسْفر عن زيف السحرة،

---

(١) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا، وفتح اللام مع تشديد القاف من (تلقف) وعند الابتداء يخفف التاء، وقرأ حفص بسكون اللام وتخفيف القاف مضارع (لقف)، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف مضارع (تلقف) وهو الوجه الثاني للبزي.

واستسلامهم أمام معجزة موسى، وبطلان سحرهم. قال تعالى:

١٢٠- ١٢٢- ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾

انتهى اللقاء بين موسى والسحرة بإيمانهم واستسلامهم، فقد كان من السحرة حين رأوا معجزة موسى - التي ظنها فرعون ومن معه سحرا - أن خروا سُجدًا لله رب العالمين، وآمنوا بموسى نبيًّا مرسلًا من رب العالمين، وتضرعوا إلى الله تعالى بهذا الدعاء ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] وذلك نظرًا لما عاينوه من عظيم قدرة الله تعالى.

ذلكم أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، يصبح الإنسان مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويصبح كافرًا ويمسي مؤمنًا، إن الحق قد لامس قلوب السحرة في لحظة؛ فغيَّر ما فيها، وحوَّلهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، وأزال الركام الذي ران على قلوبهم؛ فحولها في لحظة من الكفر إلى الإيمان حين لامس الحق قلوبهم، وتحدوا فرعون لمَّا توعدهم أن يقطِّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فقالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

وحينئذٍ أعلن السحرة إيمانهم برب العالمين؛ لأن الحق أبهرهم، فكانوا في أول النهار كفارًا سحرة، وفي آخر النهار مؤمنين بررة، وكان من عادة القبط أنهم يسجدون لفرعون، وقد سجد السحرة لله رب العالمين.

وهو الذي يجب أن يُعبد وحده دون سواه، وورد أن السحرة خروا سجدا لله-اعترافًا منهم بأن ما أتى به موسى معجزة من عند الله، وليس بسحر- وعندئذ أراهم الله - سبحانه - منازلهم وقصورهم في الجنة، فأصروا على موقفهم من الإيمان بموسى، كما أصروا على عناد فرعون، وذلك أنهم لما رأوا عصا موسى تلقف حبالهم وعصيَّهم؛ جزموا بأن ذلك خارج عن طاقة الساحر، فعلموا أنه تأييد من الله لموسى عليه السلام، وأيقنوا أن موسى رسول من عند الله، وأن ما يدعوهم إليه حق.

فِرْعَوْنُ يَتَوَعَّدُ السَّحَرَةَ

١٢٣- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم[(١)] بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

لم يرُق لفرعون وملئه ما شاهدوه من إيمان السحرة، ولم يدركوا ما يفعله الإيمان في قلوب الناس؛ فأنكر فرعون على السحرة إيمانهم بموسى، وأخذ يتهددهم ويتوعدهم بالموت والصلب، وكان فرعون حاكمًا مستبدًّا يملك أبدان الناس وأقوالهم، فقوله هو المطاع، وأمره هو النافذ ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] وهكذا الأمم التي تضعف، فتنحط وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، وتقبل الضيم والذل والهوان، ولذلك قال فرعون للسحرة توبيخًا لهم: ﴿ءَامَنتُم﴾ بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ بالإيمان به؟

والإيمان في القلب لا يستأذن في الدخول، وإنما هذا موقف المتخاذِل، حيث قال لهم فرعون: إن إيمانكم ليس عن قناعة منكم، بل إن إيمانكم بالله وإقراركم بنبوة موسى لحيلة احتلتموها أنتم وموسى فتواطأتُم أنتم وهو على أن تنغلبوا له، حتى تظهر رسالته فتتبعوه ويتبعكم جمهور الناس: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينة مصر، لتخرجوا أهلها منها إلى الصحراء، وتستأثروا أنتم بخيراتها ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيها السحرة، ما يحل بكم من العذاب والنكال، وهذا وعيد وتهديد لهم، ومع أن موسى لم يلتق بالسحرة

---

(١) أصل كلمة (آمنتم) بثلاث همزات (أأأمنتم) الهمزة الأولى للاستفهام، والثانية همزة أفعل، والثالثة فاء الكلمة، فالهمزة الثالثة يجب قلبها ألفًا لجميع القراء، واتفق القراء على عدم الإدخال بين الهمزتين الباقيتين، وللقراء فيهما أربعة أوجه:

الأول: قرأ قالون والأزرق عن ورش والبزي وأبو عمرو وابن ذكوان وأبو جعفر وهشام بخلف عنه، بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الهمزة الثانية وألف بعدها.

الثاني: قرأ الأصبهاني عن ورش وحفص ورويس بإسقاط الهمزة الأولى، وتحقيق الهمزة الثانية وألف بعدها.

الثالث: قرأ قنبل بإبدال الهمزة الأولى واوًا خالصة حالة وصل (آمنتم) بما قبلها، وله في الهمزة الثانية التحقيق والتسهيل، وإذا ابتدأ بـ(آمنتم) فإنه يقرأ بتسهيل الهمزة الثانية كالبزي.

الرابع: قرأ شعبة وحمزة والكسائي وروح وخلف العاشر وهشام في وجهه الثاني بهمزتين محققتين وألف بعدهما.

ولم يتعرف عليهم، فإن فرعون اتهمهم بالتواطؤ معه؛ ليصرف الناس عن التأثر بهم، ويصرفهم عن اتباع موسى ﷺ بإدخال الشك في نفوسهم، ثم توعّدهم فرعون قائلًا:

١٢٤- ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

ولم يتوعدهم فرعون بالسجن، أو بالطرد من البلاد، أو بمصادرة أموالهم ونحو ذلك، إنما توعدهم بالقتل، وأن يمثِّل بهم بعد قتلهم؛ فيقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى أو العكس، ثم يعلقهم جميعًا على جذوع النخل، ولن أفعل هذا بأحد دون أحد، بل كلكم سيذوق هذا العذاب.

إِيمَانُ السَّحَرَةِ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُوسَى نَبِيًّا

١٢٥- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

وكان الإيمان الذي ألقاه الله تعالى في قلوب السحرة أقوى من هذا كله، فقد أعلنوا إيمانهم دون خوف ولا تردد، ولا مبالاة بعقوبته، فالله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض، وهل قطع فرعون أيديهم وأرجلهم من خلاف كما قال أم لا؟

قال الكلبي: إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم.

وقال غيره: إنه لم يقدر على ذلك؛ لقول الله تعالى عنه لموسى وهارون: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

قلت: ولعل هذا هو الأرجح؛ لأنه لو حدث لاستفاض وانتشر، وما يُنسب إلى ابن عباس أنهم أمسوا شهداء بررة غير ثابت عنه.

قالوا: لا بأس ولا ضير من الصلب والقتل، ولا مانع من العذاب والتنكيل والتمثيل، ولا حرج من الاستشهاد والموت في سبيل الله، وقالوا: إنا راجعون إلى الله، وإن عذابه أشد من عذابك، فلنصبر على عذابك ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء] لقد ثبتوا على إيمانهم، وقالوا لفرعون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ﴾ نحن أهل العلم بالسحر، ولن نفضلك على ما رأيناه بأعيننا.

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾ افعل ما تريد، حتى لو كان القضاء على إزهاق أرواحنا ﴿إِنَّمَا

نَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه]

إنه إيمان لا يتزعزع ولا يخضع، ولا يخنع ولا يداهن ولا يواري.

ويواصل السحرة تأكيد إيمانهم بالله، وعدم مبالاتهم بما يحدث لهم من فرعون وعقوبته لهم وانتقامه منهم، حيث قالوا:

١٢٦- ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

قال السحرة لفرعون: ليس هناك من سبب تعذبنا لأجله إلا إيماننا بالله ﷻ، وهو أعظم محاسننا، فلست تكره منا ولا تعيب علينا -يا فرعون- إلا إيماننا ببراهين ربنا وأدلته الساطعة، التي ظهرت على يد موسى واضحة جلية تدل على نبوته، وليس في استطاعتك أنت ولا غيرك من البشر الإتيان بمثلها.

ثم ختموا مناقشتهم لفرعون بالانصراف عنه، والتوجه إلى الله تعالى أن يثبتهم على دينه ويتوفاهم مسلمين ممتثلين لأمره ونهيه قائلين: أفض علينا يا رب صبرًا عظيمًا وثباتًا على الإيمان، وتوفنا منقادين لأمرك متبعين لرسولك، وفيها دليلٌ على أن الإسلام هو دين الخَلْقِ أجمعين.

حَاشِيَةُ فِرْعَوْنَ يُؤَلِّبُونَهُ عَلَى مُوسَى عليه السلام

١٢٧- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ[(١)] أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

قال الملأ، وهم حاشية فرعون ورجال دولته وقومه، تَهْييجًا له على الإيقاع بموسى عليه السلام وهم يزعمون أنه على باطل، قالوا لفرعون في عناد وتآمر وتحريض وإصرار، وتأليب له ضد موسى بعد الهزيمة والخذلان: أتدع موسى وقومه من بني إسرائيل ليفسدوا الناس

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بفتح النون وإسكان القاف وضم التاء مخففة من (سنقتل) مضارع قتل يقْتُل على الأصل، وقرأ الباقون بضم النون وفتح القاف وكسر التاء مشددة، مضارع قتل يُقتِّل للتكثير.

في أرض مصر؛ بتغيير دينهم بعبادة الله، وبتكاثر موسى وأتباعه، ويذرك فلا يطيعك، ويذر آلهتك فلا يطيعها؟

آلهة الفراعنة: وقد كان فرعون وقومه يعبدون أصنامًا من دون الله، فكانوا يعبدون آلهة شتى من الكواكب وغيرها، وأشهرها صنم: (فتاح)، وكان يُعبد في مدينة (منفيس)، ومنها (إزيريس) و(إزيس) و (هوروس) وهو ثالوث مجموع من أب وأم وابن، ومنها (توت) وهو القمر، وكان عندهم رب الحكمة، ومنها (آمون) وكانوا يعبدون الشمس، وإلها يسمى (رع)، وكانت لهم أصنام أخرى فرعية.

وورد عن ابن عباس أن فرعون كان إذا رأى بقرة حسناء يأمر قومه بعبادتها؛ ولذا فإن السامري صنع لهم عجلًا من الذهب.

وقيل: إن فرعون كان دهريًّا ينكر وجود الخالق سبحانه، فاتخذ أصنامًا على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها، ويقول لهم: أنا ربكم ورب هذه الأصنام؛ ولذا وصف نفسه بالأعلى في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]،

وكان القبط[2] يعتقدون أن فرعون قد حلت فيه الإلهية، على نحو عقيدة الحلول والاتحاد؛ فكانوا يعبدونه على أنه المنفذ للدين.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: سنفعل بهم كما حدث من قبل، فقد فعل فرعون ذلك ببني إسرائيل عند ولادة موسى، ولم يقدر على مس موسى بأذى؛ لِمَا أيده الله به من المعجزات، فتوجه إلى قومه وقال: سنقتل الذكور من بني إسرائيل، ونستبقي النساء للخدمة، وإنا فوقهم قائمون عليهم بالقهر والقوة.

---

(١) يراجع: «تفسير البغوي والخازن» و«التحرير والتنوير» وغيرها للآية.

(٢) لفظ (القبط) قديمًا، يراد به أهل مصر جميعًا، بخلاف ما يزعمه بعض الناس من أن الأقباط، هم المسيحيُّون فحسب، والمسيحيُّون يستغلُّون ذلك ليُضْفُوا على أنفسهم أنهم أصل مصر، لا سيما بعد مجيء الإسلام، وأنهم أصبحوا قلّة لا تّذكر إلى جوار المسلمين!

مُوسَى يُوصِي قَوْمَهُ بِالصَّبْرِ وَيُلَوِّحُ لَهَمْ بِالنَّصْرِ

١٢٨- ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾

بلغ موسى تهديدُ فرعون ووعيده له ولقومه، فلم يحفل به، بل أوصى قومه بالصبر، ولَوَّحَ لهم بالنصر؛ وحينئذٍ لجأ موسى إلى ربه، وطلب من بني إسرائيل أن يصبروا على ما نالهم من فرعون من المكاره في أنفسهم وأبنائهم، ويعتمدوا على الله في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم، ويلزموا الصبر على ما يحل بهم، وينتظروا فرج الله عز وجل، فهذه الأرض ليست ملكًا لفرعون وقومه حتى يتحكموا فيها، وإنما هي ملك لرب العالمين، يورثها مَن يشاء مِن عباده، وفق سنة الله في تداول الأيام بين الناس، وقد جرت سنة الله تعالى أن يجعل العاقبة الطيبة لمن يخشى الله ويخافه والمراد بالأرض في الآية، الدنيا كلها.

بَنُو إِسْرَائِيلَ يُسِيؤُونَ الرَّدَّ، وَمُوسَى يَتَلَطَّفُ مَعَهُمْ

١٢٩- ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

ولكن هذا لم يُهدئ من روع القوم، بل كان ردهم يدل على سفاهتهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ يا موسى، لقد وعدتنا بزوال ما نحن فيه من شدة ومشقة، وكانوا يظنون أن ما مكثوا فيه من عذاب فرعون سيزول عنهم فورًا، فلذا قالوا: لقد أصابنا الأذى من فرعون قبل أن تأتينا بالرسالة، فإن فرعون قتل الرجال واستبقى النساء، وأصابنا الأذى حاليًا كما ترى من سوء أحوالنا واشتغالنا بالمهن الحقيرة، وهو يفعل ذلك بنا بعد أن جئتنا، فيستعبدنا ويستذلنا.

قال لهم موسى في صورة الرجاء لئلا يكذبوه: لعل الله أن يهلك فرعون وقومه ويستخلفكم في الأرض بعده، فيمكنكم منها ويجعل لكم التدبير فيها، فينظر كيف تعملون هل تشكرون أم تكفرون؟ وفي هذا تحريض لهم على طاعة الله؛ ليصلحوا في الأرض بعد استخلافهم فيها، وقد حقق الله رجاء موسى؛ فأغرق فرعون وجنوده ونجى بني إسرائيل من الغرق ومن استعباد فرعون لهم.

مِنْ مُعْجِزَاتِ مُوسَى عليه السلام

١٣٠- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

ثم إن الله سبحانه أرسل على فرعون وملئه أنواعًا من العذاب بعدما تهددهم وتوعدهم بقتل الرجال واستبقاء النساء.

والمعنى: ولقد ابْتَلَيْنا فرعون وقومه بسبع عقوبات جاء ذكرها في هذه الآية وما بعدها؛ فقد ابتليناهم:

١- بالسنين والقحط والجدب والجوع.

٢- ونقص ثمارهم وغلاتهم ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ نتيجة الجفاف وقلة المياه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيرتدعون عن ضلالهم ويرجعون إلى ربهم.

وما حدث لآل فرعون من البلاء سنة من سنن الله في عباده أن يأخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون.

ثم إن الله تعالى أجاب على قولهم لموسى عليه السلام ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بأنهم قوم ينسبون الحسنة لأنفسهم، وينسبون السيئة لغيرهم:

١٣١- ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

أي: إن فرعون وقومه ينسبون الخير لأنفسهم وينسبون الشر لموسى، قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ أي: إذا جاءهم الرزق الواسع بعد هذا الاختبار والابتلاء، قال فرعون وملؤه: لنا هذه؛ أي: نحن مستحقون لهذا، نحن أهل خبرة، ونحن أهل لهذه النعمة ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جوع ومرض تشاءموا بموسى وقالوا هذا لموسى ومَن معه، يقول تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أن ما يصيبهم من الجدب والقحط والجوع إنما هو بقضاء الله وقدره؛ بسبب ذنوبهم وكفرهم، ولكن قوم فرعون لا يعلمون ذلك لانغماسهم في الجهل والضلال.

وبمثل هذا قال قوم ثمود لصالح عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ

أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل].

وهكذا قال أهل القرية عندما جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس].

وقد بيَّن تعالى في كل الأحوال أن ما يصيب القوم من بؤس وشؤم ليس من قبل الرسل، وإنما بسبب كفرهم ومعاصيهم، وقد نهى الإسلام عن التشاؤم، كما جاء في حديث عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا عدوى ولا طيرة، والشؤم في ثلاث: في المرأة، وفي الدار، وفي الدابة»**[1].

هذا: ولما عاقب الله آل فرعون بالقحط والجوع ونقص الثمرات؛ قالوا لموسى: إننا لن نتَّبع دعوتك، مهما أتيْتنا بآية، فما أنت إلا ساحر، ونحن لن نصدقك في دعواك:

١٣٢- ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

أي: قال قوم فرعون لموسى: لن نؤمن لك ولن نصدقك مهما أقمت لنا من حجة واضحة؛ لتصرفنا بها عما نحن فيه من دين فرعون، فقد تقرر عندنا أنك ساحر، وأن ما جئت به سحر، وقالوا: مهما جئتنا من آية تدل على صدقك وتأخذ بألبابنا لنترك آلهتنا ونتبعك ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا نفي قاطع من بني إسرائيل بعدم الإيمان بموسى ﷺ، وسموها آية من باب السخرية مع اعتقادهم أنها آية، وإلا فكيف يسمونها آية ثم يقولون ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾؟!

١٣٣- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

وهنا تتدخل القوة الإلهية؛ لعقوبتهم وتطاولهم على رسول الله ﷺ، حيث أرسل الله عليهم نتيجة هذا العناد والتكذيب والطغيان؛ أنواع العذاب المختلف، بالإضافة إلى ما سبق ذكره من الأخذ بالسنين ونقص الثمرات، فيتبع ذلك خمس عقوبات أخرى نذكرها تباعًا:

٣- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ أي: المطر الشديد الجارف، والسيل الشديد من السماء أو من فيضان النيل حتى عمَّ وطمَّ الأرض، وتراكم الماء فوقها، حتى كادوا أن يهلكوا، وأصبحوا لا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٩٩، ٢٨٥٨، ٥٧٥٣، ٩٣٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٤، ٢٢٢٥).

يمكنهم الخروج من بيوتهم، وأغرق أشجارهم وزروعهم، وأضرَّ بهم ضررًا كثيرا.

٤- وأعقب ذلك **الجراد** بعد أسبوع، فأرسل الله عليهم الجراد حتى غطَّى ضوء الشمس؛ فأكل ما اخضرَّ من زرعهم وثمارهم ونباتهم.

جاء في الحديث عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد[1].

وفي حديث ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ: «**أُحلّتْ لنا ميتتان ودمان، الحوت والجراد، والكبد والطحال**»[2].

٥- وأرسل الله عليهم **القمَّل** وهو القمل المعروف، حتى أقضَّ مضاجعهم، وأذهب نومهم وقضى على نباتهم وحيواناتهم، وقيل: هو السوس الذي يأكل الحبوب ويأتي عليها، أو هو البعوض والذباب، وقيل: هو الدّباء، أي صغار الجراد.

٦- ثم أعقب ذلك **الضفادع**، فملأت آنيتهم وأطعمتهم ومضاجعهم، وأقلقتهم، وآذتْهم إيذاءً شديدًا.

عن عبد الرحمن بن عثمان التيْمي أن طبيبًا ذكر ضِفدعًا في دواء عند رسول الله ﷺ؛ فنهى رسول الله ﷺ عن قتله[3].

وورد في التوراة أنها غطَّت أرض مصر؛ فملأت بيوتهم وأماكنهم وفراشهم ومجالسهم، وإذا تكلم الإنسان وجد الضفدعة على فمه حين يفتح فاه، وهكذا إذا أراد أحدهم أن ينام وجدها في نومه.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٤٩٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٥٢).

(٢) «مسند الشافعي» (١٧٣٤) و«مسند أحمد» (٢/ ٩٧) برقم (٥٧٢٣) حديث حسن، فيه عبدالرحمن بن زيد ابن أسلم وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٢١٨)، وعبد بن حميد في المنتخب (٨٢٠) والدار قطني في السنن (٤/ ٢٧١) والبغوي في شرح السنة (٢٨٠٣)

(٣) «المسند» (١٥٧٥٧، ١٦٠٦٩) إسناده صحيح ورجاله ثقات (محققوه) وأبو داود (٣٨٧١، ٥٢٦٩) والنسائي (٤٣٦٦) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٢٧٩). وابن أبي شيبة (٨/ ٩٢) والطيالسي (١١٨٣) وعبد بن حميد في المنتخب (٣١٣).

٧- وأرسل الله عليهم **الدم**، وهو الآية السابعة -بعد الجدب ونقص الثمرات في الآية ١٣٠ السابقة- فانقلب الماء إلى دم بالنسبة لفرعون وقومه، فلم يجدوا ماءً صالحًا للشرب، فكانوا إذا مدُّوا أيديهم في ماء بحر أو نهر أو بئر أو غير ذلك وجدوه دمًا، وكان الدم يسيل من أنوفهم بصورة متدفقة[1].

جاء في التوراة أن نهر النيل انقلب دمًا سبعة أيام، وهذا بالنسبة لفرعون وملئه، ولم ينقلب الماء دمًا بالنسبة لبني إسرائيل، فهذه آيات من آيات الله، لا يقدر عليها غيره، بعضها مفرق ومنفصل في الزمان عن بعض، ومع كل ذلك ترفَّع قوم فرعون واستكبروا عن الإيمان به، وكانوا قومًا مجرمين عاملين بما نهى الله تعالى عنه من المعاصي.

الْفَرَاعِنَةُ يَعِدُونَ بِالْإِيمَانِ وإِطْلَاقِ سَرَاحِ بَنِي إسرائيل وَيَنْكُثُونَ وَعْدَهُمْ

١٣٤- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾

وكل ما نزل على فرعون وقومه نوعٌ من أنواع العذاب، السابق ذكرها في الآيات السبع، أو أن الذي نزل علهيم وباء معين هو مرض الطاعون، فلما نزل بهم، استغاثوا وذهبوا إلى موسى يطلبون؛ منه أن يدعوَ ربه بما عهد عنده ويشفع لهم، قائلين له: أسعفنا يا موسى بالدعاء بما لك عند الله من عهد وكرامة ونبوة ورسالة، ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا﴾ هذا النوع من العذاب ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ وهذا وعد منهم بالإيمان به، والوعد الثاني ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهو طلبك الذي طلبته، ولكنهم قوم من شأنهم نقض العهد وخُلف الوعد، قال تعالى:

١٣٥- ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

قال سبحانه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ أي: كلما كشف الله عنهم نوعًا من أنواع العذاب بعد أن ظلوا فيه مدة معلومة قدّر الله بقاءهم إليها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ فهو كشف مؤقت وليس دائمًا، نكثوا ونقضوا عهدهم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾. العهد الذي عاهدوا

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٦٣، ٥٧).

عليه موسى، فلاهُمْ آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل بل استمروا على كفرهم وتعذيب بني إسرائيل.

والمعنى: فلما رفع الله عنهم العذاب الذي أنزله عليهم إلى أجل معيَّن نكثوا عهدهم؛ بمعنى أنهم عندما حل بهم الطوفان، راجعوا موسى فدعا ربه؛ فرفع عنهم عذاب الطوفان، ثم عادوا إلى ما كانوا فيه من الكفر والضلال، فأنزل الله بهم عذاب الجراد، فراجعوا موسى فدعا ربه فرفعه عنهم، فرجعوا إلى الكفر، فأرسل الله عليهم القمل وهكذا، فلم ينتفعوا بالإمهال ولا برَفْع العذاب عنهم.

ومن المعجزات الدالة على صدق موسى ﷺ، أن هذا العذاب كان مختصًّا بآل فرعون دون بني إسرائيل مع كونهم في موقع جغرافي واحد، فكيف كان آل فرعون في عذاب وبلاء وشدة، وبنو إسرائيل في أمان وعافية مع اتحادهم في المساكن؟! إنه أمر معجز، والله تعالى لا يُسأل عمَّا يفعل.

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله ﷺ: **«الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل -أو على من كان قبلكم- فإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»**[١].

هَلَاكُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ:

١٣٦- ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

ولما كشف الله عنهم العذاب مرة بعد مرة، ولم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم حتى بلغوا الأجل الذي أجله الله لهم، فكانت النتيجة الحتمية أن الله تعالى انتقم من فرعون وقومه بالغرق في الوقت المحدد لإهلاكهم؛ بسبب غفلتهم وتكذيبهم بالمعجزات التي جاء بها موسى من عند الله، وذلك أن الله تعالى أمر موسى ﷺ أن يسرى ببني إسرائيل ليلًا،

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢١٨) و«صحيح البخاري» برقم (٣٤٧٣، ٦٩٧٤).

وأخبره أن فرعون سيتْبعهم هو وجنوده، ولما وصل موسى إلى البحر، أمره ربه أن يضربه بعصاه، فانفلق البحر وجفّت مياهه، وعبرهُ موسى وقومه، ولما أدركه فرعون وجنده، وكان في وسط البحر، أمر الله البحر أن ينطبق على فرعون وقومه، وتم إخراج فرعون جثة هامدة، يعتبر بها المعتبرون إلى يوم الدين.

التَّمْكِينُ المُؤَقَّتُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ

١٣٧- ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ[1] رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[2] بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ[3] ﴿١٣٧﴾﴾

والآية التي ختم بها هذا المقطع من قصة موسى مع فرعون وقومه تحقق وعد الله سبحانه لموسى عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ حيث تم إغراق فرعون ومَن معه ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وجاء تحقيقه بعد وقت من الزمان ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ أي: يستضعفهم فرعون ويسخرهم في الخدمة ويسومهم سوء العذاب من بني إسرائيل في ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ أي: في فلسطين وبلاد الشام وهي الأرض ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بإخراج الزروع والثمار وغير ذلك، فقد ورّثهم الله أرضًا غير الأرض التي كانوا يُستخدمون ويُستذلّون فيها، ويذكر بعض المفسرين أن المراد بالأرض: أرض مصر، ويرشح المعنى الأول وصف الله لها بالبركة ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ كما في سورة الإسراء﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

أحاديث في فضل الشام: وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الشام:

١- منها ما جاء عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنا حول رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع (أي: نصل بعضه ببعض) إذ قال: «**طوبى للشام**» قيل له: ولِمَ؟ قال: «**إن ملائكة**

(١) أجمع القراء على قراءة (كلمة ربك) بالإفراد، والمشهور رسمها بالتاء في المصحف، ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء، والباقون بالتاء.

(٢) عدّ جملة (على بني اسرائيل) آية، المدني الأول والأخير والمكي وأسقطها غيرهم من العدد.

(٣) قرأ شعبة وابن عامر بضم الراء من (يعرشون)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

الرحمن باسطة أجنحتها عليها»[(١)].

٢- وعن قُرَّة عن النبي ﷺ قال: «**إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين على الناس، لا يضرهم من خذلهم، حتى تقوم الساعة**»[(٢)].

٣- وعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال: ليُهاجرنَّ الرعد والبرق والبركات إلى الشام[(٣)].

٤- وفي حديث أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ: «**ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام**»[(٤)].

٥- وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ستخرج نار من حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس**» قلنا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «**عليكم بالشام**»[(٥)].

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بالتمكين لهم في الأرض؛ بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومه والمراد بالكلمة، قول موسى ﷺ لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف]

قال تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من المباني والقصور والمزارع والبساتين.

قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان]

---

(١) «المسند» (٢١٦٠٧) بإسناد حسن من أجل الغافقي، (محققوه) وأخرجه الترمذي (٣٩٥٤) وابن أبي شيبة (٥/ ٣٢٥) وابن حبان (١١٤، ٧٣٠٤) والطبراني (٤٩٣٣، ٤٩٣٤) والحاكم (٢/ ٢٢٩) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٠٩٩) و«السلسلة الصحيحة» (٥٠٢). والمشكاة (٦٦٢٤)

(٢) الترمذي (٢١٩٢) وابن أبي شيبة (١٢/ ١٩٠) وابن عساكر (١/ ٣٠٥) و صححه الألباني في صحيح «سنن ابن ماجه» (٦)، وهو عند ابن ماجه (٦) بدون فقرة الشام، وفي السلسلة الصحيحة (١/ ٣/ ١٣٥) وفضائل الشام (٥) وصحيح الترمذي (١٧٨٢)

(٣) ابن أبي شيبة (١٢/ ١٩٠).

(٤) «المسند» (٢١٧٣٣) والبزار (٣٣٣٢) كشف، والطبراني في «مسند الشاميين» (١١٩٨) وأبو نعيم (٦/ ٩٨) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح ورجاله ثقات ، رجال الصحيح، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١) ورقه (٤٩).

(٥) أخرجه ابن عساكر (١/ ٨٣) وقال محققو «المسند» (٤٥٣٦): إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أبو يعلى (٥٥٥١) وابن حبان (٧٣٠٥) والبغوي في شرح السنة (٤٠٠٧) وانظر حديث حذيفة بن أسيد في صحيح مسلم (٢٩٠١)

وقال جل شأنه ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل] وهذه الدروس المستفادة من هذه القصة يعتبر بها كل طاغية،وكل جبار، وكل أمة عتت عن أمر ربها إلى يوم الساعة.

ومن هذه الدروس أن استخلاف بني إسرائيل في أرض الشام كان قبل أن يكتب الله عليهم الذل والتشرد، وقبل انتهاء مدة رسالة موسى بمجيء عيسى فضلاً عن محمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد انتهى هذا الاستخلاف بمجيء الإسلام وفتح عمر بن الخطاب لفلسطين فتحًا إسلاميًا، فلا بقاء مع الإسلام لشريعة من الشرائع، ولا حُكْمَ على بقعة من بقاع الأرض إلا للإسلام بعد البلاغ والإنذار، وهذا فضلا عن أن الله تعالى حرمها عليهم حرمة أبدية عقوبة لهم على عصيان أمر نبيهم في قتال العمالقة.

والذين أورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها هم بنو إسرائيل الذين ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥]

وجاء ذكرهم في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان] من بني إسرائيل

وصرح سبحانه بهؤلاء الآخرين في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾[الشعراء] قوما منهم.

أخرج آدم بن إياس بسنده الصحيح عن مجاهد قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال: ظهور قوم موسى على فرعون، وتمكين الله لهم في الأرض ما ورَّثهم منها، فالكلمة الحسنى التي تمت عليهم هي التمكين المؤقت لهم في أرض الشام، وقد كان ذلك قبل أن يتخاذلوا عن قتال الجبارين ويقولوا لنبيهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فلما فعلوا ذلك عاقبهم الله تعالى بالتيه في صحراء سيناء أربعين عامًا حتى ينقرض جيل التخاذل.

ثم حرم الله عليهم دخول أرض فلسطين تحريمًا أبديًا، كما في قوله تعالى ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦] وهذا وقف لازم، ثم ذكرت الآية بعد ذلك أن مدة التيه أربعين سنة، وقد كتب الله عليهم الشتات في الأرض كلها، فإذا جاء وعد الدار الآخرة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] وبهذا يؤرخ لهم أخوهم يوسف عليه السلام في قوله ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]

والبدو هم الرحّل الذين لا وطن لهم، وقيام الكيان الصهيوني في هذا العصر، مخالفة صريحة لما كتبه الله عليهم، وبهذا تقول طائفة عريضة من اليهود غير الصهاينة[1].

الْجَانِبُ الآخَرُ: قِصَّةُ مُوسَى ﷺ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

بَنُو إِسْرَائِيلَ يَحنُّونَ إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ بَعْد مُعْجِزَةِ العُبُورِ:

١٣٨ - ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ[2] عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾

أي ولما عبر موسى البحر ببني إسرائيل وأراهم الله آية فلْق البحر، مرُّوا وهم في طريقهم على قوم يعبدون أصنامًا، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم أصنامًا، يعبدونها مثل هؤلاء، قال لهم موسى: ما أعظم جهلكم بخالقكم، حيث تسوونه بالأصنام، ولم تعتبروا بالآية التي لم تزل أرجلكم رطْبة من آثارها!! وهي عبور البحر وفلقه.

هذا: والمهمة الأساس التي أرسل الله بها الرسل إلى أقوامهم أن يأمروهم أوَّلًا بتوحيد الله ﷻ، وعبادته وحده جل شأنه، وأن يتركوا عبادة سائر الآلهة والطواغيت.

وإلى جوار هذه المهمة الأساس، توجد مهمات إضافية؛ كمحاربة تطفيف الكيل والميزان، ومحاربة السحر، واللواط، وغير ذلك من المهمات.

وقد كانت المهمة الإضافية لنبي الله موسى ﷺ أن يخلِّص بني إسرائيل من ظلم فرعون، واستعباده واضطهاده لهم، وأن يخرج بهم من مصر إلى الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم مدة صلاحية رسالة موسى ﷺ.

وقد انتسخ ذلك بمجيء رسالة عيسى ﷺ، ثم بمجيء الرسالة العامة للناس أجمعين وإلى يوم القيامة.

وبعد أن فُتحت الأرض المقدسة فتحًا إسلاميًّا صارت بلادًا إسلامية كغيرها من بلاد

---

(١) راجع توضيح ذلك في سورة المائدة [٢٠-٢٦] من هذا التفسير.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بخلف عن إدريس بكسر كاف (يَعكِفُون) وهي لغة أسد، والباقون بضمها، وهو الوجه الثاني لإدريس، وهي لغة بقية العرب.

المسلمين، لا يحق ليهودي ولا لغيره أن يحتل جزءًا منها، وكان موسى قد قام بعدة محاولات مع فرعون وقومه، استمرت نحو ثلاثة وعشرين عامًا؛ لتخليص بني إسرائيل من ظلم فرعون وملئه.

قصة نجاة موسى وقومه وهلاك فرعون وجنده:

ولما خرج موسى بقومه من مصر، ووصل بهم إلى البحر الأحمر عند خليج السويس (عيون موسى) أدركه فرعون بجنوده.

نظر قوم موسى فوجدوا البحر أمامهم والعدو خلفهم؛ فقالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] قال موسى ﷺ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]

وأوحى الله سبحانه إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه، وماذا تفعل العصا في البحر؟ ولكنها المعجزة التي أيد الله سبحانه بها موسى ﷺ.

ضرب موسى البحر بعصاه، فتجمَّد الماء وتراكم بعضه فوق بعض كالجبل الأشم، والطود العظيم، وصار البحر اثني عشر طريقًا يابسًا، الماء متجمد، والطريق يابس، يمشي فيه مَن يمشي، وهذه الطرق بعدد أسباط بني إسرائيل، واجتاز موسى ﷺ البحر ومعه بنو إسرائيل.

ولما وصلوا إلى الجانب الآخر ونجاه الله وقومه من الغرق، أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه مرة أخرى حتى لا يلحقه فرعون، فقال الله تعالى له: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي: اتركه ساكنًا متجمدًا على هيئته وحالته ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] وهذا أمرٌ مراد لله سبحانه.

وأراد فرعون وجنوده أن يجتازوا البحر وراء موسى وبني إسرائيل، ولما كانوا في وسط البحر أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه مرة ثانية، فضربه فانطبق البحر عليهم، وأغرق الله فرعون وجنوده، ونجى فرعون ببدنه؛ ليكون عبرة وعظة لكل طاغية متجبر يأتي بعده، كما قال رب العالمين: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٧٢] إلى الخَلْقِ أجمعين إلى يوم القيامة.

وكانت نجاة بني إسرائيل مع نبيهم موسى ﷺ في يوم عاشوراء، وصام موسى يوم

عاشوراء؛ شكرًا لله سبحانه الذي نجاه ونجى قومه من الغرق ومن ظلم فرعون، وأغرق الله فرعون ومَن معه، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: البحر الأحمر.

وبمجرد أن اجتاز موسى وقومه البحر، وبعد أن رأوا هذه المعجزة التي يُسْلِم لها الكافر، ويلين لها القلب القاسي وبعد أكثر من عشرين عامًا على التوحيد الذي جاءهم به موسى، وبمجرد أن خرجوا من البحر وما زالت رماله الرطبة عالقة بنعالهم عاودتهم طبيعتهم الوثنية حين مرُّوا على قوم يعبدون تماثيل على صورة البقر.

قال ابن عطية: والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أنهم استحسنوا ما رأَوْه من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى، وفي جملة ما يُتقرب به إلى الله، وإلا فَيَبْعُدُ أن يقولوا لموسى: اجعل لنا صنمًا نفرده بالعبادة ونكفر بربك، فعرَّفهم موسى أن هذا جهل منهم، إذ سألوا أمرًا حرامًا فيه الإشراك بالعبادة، ومنه يتطرق إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله ﷻ[1].

قيل: إنهم كانوا من الكنعانيين، ويُسَمَّوْنَ عند متأخري المؤرخين بالفنيقيين، وكان لهم صنم يسمى (بعل) يعبدونه من دون الله، وهذا يدل على أن بني إسرائيل -وهم في مصر- تأثروا بالوثنية الفرعونية، وابتعدوا عن الحنيفية ملة إبراهيم ويعقوب، وهؤلاء الكنعانيون هم الذين أُمر موسى بقتالهم ﴿قَالُوا۟﴾ أي: قال بنو إسرائيل: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ اجعل لنا صنمًا نعبده كهؤلاء، إن الوثنية عالقة في نفوس القوم، حتى بعد أن نجاهم الله وأراهم هذه المعجزة مع رسولهم، فإنهم يطلبون منه عبادة الأوثان بمجرد أن رأوْا ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عظمة الله، ولا تعلمون أن العبادة لا تكون إلا لله وحده.

وهو نفس المعنى الذي تعجَّب منه النبي ﷺ حينما سأله بعض القوم أن يجعل لهم شجرة مماثلة؛ فبين أن ذلك فيه اتباع لسنن اليهود، وأن التقرب إلى الله عن طريق الشجرة وغيرها إشراك بالله تعالى، فيجب تَرك ذلك.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/٤٤٨).

وفي رواية عند أحمد وغيره أن النبي ﷺ كان في طريقه إلى حنين، وأن الشجرة شجرة سدر، وأن النبي ﷺ كبَّر عندما سألوه ذلك، فهم - على هذا القول - قد أسلموا حديثًا في فتح مكة مع رسول الله ﷺ، وكان الإسلام بعد لم يثبت في قلوبهم، وذلك أنهم لما خرجوا مع النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة حنين وجدوا المشركين لهم سدرة (شجرة نبق خضراء عظيمة) ينوطون (يعلقون) بها أسلحتهم، فقالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا شجرة مثل شجرتهم، ننيط بها أسلحتنا كما يفعلون، وسننتصر على عدونا (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) فقال: **«قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة»**[(١)].

وهذا طريق آخر لحديث الشجرة السابق:

عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين، مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال ﷺ: **«سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ والذي نفسي بيده، لَتَرْكَبُنَّ سنة من كان قبلكم سُنَّةً سُنَّةً»[(٢)].

وعن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يارسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»**[(٣)].

قال رجل من اليهود لعلي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليه: إنكم اختلفتم مع نبيكم قبل أن يجف ماء غسله، فرد عليٌّ ﷺ على اليهودي قائلًا له: وأنتم قلتم لموسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قبل أن تجف أقدامكم من ماء البحر الذي اجتزتموه.

---

(١) ورد هذا من عدة طرق، ينظر: ابن جرير (١٣/ ٤٦٤) والترمذي برقم (٢١٨٠) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٥/ ٢١٨) برقم (٢١٨٩٧) بنحوه عن أبي واقد الليثي، وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وهذا لفظه، وفيه زيادة على هذا، وأخرجه الطيالسي (١٣٤٦) والحميدي (٨٤٨) وأبو يعلى (١٤٤١) وابن حبان (٦٧٠٢) والطبراني في الكبير (٣٢٩٢)

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٢١٨٠) وقال: حسن صحيح و«صحيح سنن الترمذي» برقم (١٧٧١) وهذا لفظه، والنسائي في التفسير برقم (٢٠٥) و«المسند» (٥/ ٢١٨) برقم (٢١٨٩٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وابن حبان برقم (٦٧٠٢) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١١٨٥) وهو حديث صحيح، وأخرجه أيضًا ابن أبي شيبة (١٥/ ١٠١) والطبراني (٣٢٩٢) وابن أبي حاتم (٨٩٠٦) والطبري (١٠/ ٤١٠) والمشكاة (٥٣٦٩).

(٣) صحيح البخاري (٣٤٥٦) وصحيح مسلم بنحوه (٢٦٦٩).

ثم إن موسى ﷺ بيّن لقومه أن عبدة الأصنام قوم هلْكى، وأن عبادتهم باطلة فقال:

١٣٩- ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

ثم يكشف موسى لقومه عن مغبة الشرك، وسوء عاقبة التقليد، وأن الانحراف عن الفطرة والتوحيد ومناهج الرسل هلاك وباطل، ينتظره ما ينتظر كل باطل من الهلاك والدمار في نهاية الأمر، فأعلمهم موسى ﷺ بفساد حال أولئك القوم؛ ليزول ما استحسنوه من حالهم، فالعمل باطل وغايته باطلة.

قال البغوي: لم يكن ذلك شكًّا من بني إسرائيل في وحدانية الله تعالى، وإنما معناه: اجعل لنا إلهًا نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى، ظنًّا منهم أن ذلك لا يضر الديانة، وكان هذا لشدة جهلهم؛ فبين لهم موسى ﷺ أنه عمل باطل لا يعود عليهم بنفع ولا يدفع عنهم ضر، وأن العبد يتوجه إلى ربه مباشرة دون التقرب إليه بشيء من خَلْقِه، وهذا هو عين ما عابه القرآن على المشركين في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين يعبدون الأوثان ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: إن شركهم وعبادتهم للأصنام عمل مدمر وباطل، وهم قوم سيهلكهم الله سبحانه؛ لأنهم يفعلون أفعالًا خاسرة وباطلة، فالأصنام لا تدفع عنهم العذاب إذا نزل بهم.

وكيف تتخذون - يا بني إسرائيل - إلٰهًا غير الله، وقد فضَّلكم على غيركم من عبدة الأوثان في زمانكم، وأنتم في الأصل أهل كتاب تؤمنون بالله وبالتوراة التي نزلت على موسى:

١٤٠- ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

قال موسى: أغير الله أطلب لكم معبودًا تعبدونه، وهو الإله الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو خلقكم وفضلكم على عالمي زمانكم، بكثرة الأنبياء فيكم، وإهلاك عدوكم، وما خصكم الله به من الآيات، كالمن والسلوى وتظليل الغمام وفلق البحر،

وبالآيات الباهرات التي لم تحصل لغيركم؟ فينبغي عليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر، وتُفْرِدُوا الله تعالى بالعبادة، وهذا تصعيد من موسى وارتفاع في غِيَرته على التوحيد .

ومعنى تفضيل الله لبني إسرائيل على غيرهم: أنهم كانوا أهل كتاب يدعون إلى وحدانية الله تعالى، وكان سائر الأمم فيها شرك ووثنية، فلا شك أنهم في زمانهم كانوا أفضل من غيرهم.

هذا: وتفضيل الله لبني إسرائيل على العالمين الذي تكرر في القرآن الكريم ليس خاصًا ببني إسرائيل وحدهم، وإنما مناط هذا التفضيل هو التوحيد، فكل أمة يرسل الله سبحانه فيهم رسولًا ليعبدوه ويوحدوه، ويتركوا جميع أنواع الشرك، هذه الأمة الموحدة يفضلها الله سبحانه على سائر الأمم المشركة الوثنية.

وهذه القاعدة ماضية في كل زمان ومكان، فتفضيل الله لبني إسرائيل على العالمين هو تفضيل لهم على مشركي زمانهم من جميع العالمين الوثنيين، وهم قوم أنزل الله عليهم التوراة، وفيها التوحيد قبل أن يحرفوها، وأرسل فيهم موسى يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه، فهم مؤمنون موحدون في زمانهم دون غيرهم، ولهذا فضلهم الله بهذه الرسالة وبهذه الدعوة على الوثنيين المشركين في زمانهم، كما فضل كل أمة موحدة على مشركي زمانها.

وهذا أمر يحدث أيضًا بالنسبة للنصارى قبل أن يقولوا: عيسى ابن الله أو يؤلهوه أو يجعلوه ثالث ثلاثة، حيث يفضلهم الله على العالمين المشركين في زمانهم، ويفضل الله سبحانه أمة محمدٍ ﷺ بالتوحيد على سائر الأمم المشركة الوثنية.

فهذه القاعدة ليست خاصة ببني إسرائيل، إنما هي قاعدة لجميع الأمم مع جميع الرسل.

مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: نَجَاتُهُمْ مِنْ ظُلْمِ فِرْعَونَ

١٤١- ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم[١] مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ[٢] أَبْنَآءَكُمْ

(١) قرأ ابن عامر (أنجاكم) بألف بعد الجيم من غير ياء ولا نون، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ الباقون (أنجيناكم) بياء ونون وألف بعدها على إسناد الفعل إلى الله تعالى.

(٢) قرأ نافع بفتح الياء وسكون القاف وضم التاء من (يقتلون) على الأصل، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشددة؛ للمبالغة.

﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾

يقول الله سبحانه ممتنًا على بني إسرائيل ومعنفًا لهم: كيف تريدون عبادة الأوثان بعد أن نجاكم الله سبحانه من فرعون وكيده؟ ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي من فرعون وآله ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وجاء تفسير سوء العذاب في الآية بقوله تعالى ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ الذكور من الأطفال ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ أي: يستبقون الإناث للخدمة والإهانة، فاذكروا يا بني إسرائيل نِعَمنا عليكم، إذ أنقذناكم من أسر فرعون وآله، وما كنتم فيه من الهوان والذلة؛ من تذبيح أبنائكم، واستبقاء نسائكم للخدمة والاعتداء على أعراضهن بعد ذلك، فهو المقصود من الإبقاء عليهن، وفي حملكم على أقبح العذاب وأسوئه، ثم أنجيناكم من الغرق، ومن كيد عدوكم اختبارًا من الله لكم، ونعمة عظيمة أنعمها عليكم.

إن بني إسرائيل والمصريين قد عاشوا قبل الإسلام في ظل الإرهاب الوحشي الفرعوني البشع، وفي ظل الوثنية الفرعونية، واستمرؤوا حياة الذل والسخرية والمطاردة، وطال عليهم الأمد في عهود الظلم الروماني، ولم ينقذهم من هذا الذل إلا الإسلام، ولم يتذوقوا طعم الحرية إلا حين أطلقهم الإسلام من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد.

ومن مظاهر ذلك أن ابن عمرو بن العاص -فاتح مصر وحاكمها- لمَّا ضرب ابن قبطي من أهل مصر سوطًا واحدًا -وهو ابن حاكم الدولة- غضب القبطي لسوط واحد يصيب ابنه، وسافر شهرًا على ظهر ناقته؛ ليشْكُوَ هذا الأمر إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ في مدينة رسول الله ﷺ -مع أنه كان يصبر على ما هو أكثر وأعظم من هذا السوط في ظل العهد الروماني- فنصره عمر ﷺ، ووجه اللوم إلى فاتح مصر وحاكمها حيث قال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟! فما أجل هذه النعمة العظيمة التي حرر الإسلام بها العباد والبلاد.

هذا: وقد واعد موسى ربه مرتين: مرة لنزول التوراة عليه، ومرة لاعتذار قومه عن عبادة العجل:

الميقَاتُ الأَوَّلُ: نُزُولُ التَّوْرَاةِ عَلَى مُوسَى عليه السلام

١٤٢- ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا[١] مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من ذل فرعون وقهره بخروجهم من البحر، ناجين من الغرق، وبينما هم في طريقهم إلى الأرض المقدسة، لا بد لهم من التربية والإعداد للقيام بأعباء الرسالة.

وذلك أنه لما كان موسى بمصر قبل أن يُغرِق الله فرعون وملأه، قال لقومه: إذا أهلك الله فرعون، ونجانا من كيده، فإن الله سبحانه سينزل عليكم كتابًا، هذا الكتاب فيه أمركم ونهيكم، وفيه بيان ما يجب أن تفعلوه، وما يجب أن تتركوه.

فلما نجَّى الله موسى، وأغرق فرعون وقومه سأل موسى ربه أن يُنْزِل عليه الكتاب الذي وعده به؛ فأمره الله ﷻ أن يتهيأ لنزول التوراة عليه بالطهارة، والعبادة، والصلاة، والصيام، ونحو ذلك؛ استعدادًا لنزول التوراة عليه، وقد أراد الله أن يتم نعمته على بني إسرائيل بإنزال كتاب فيه الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، فقال:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ أي: واعد الله موسى لمناجاة ربه ثلاثين ليلة، يتطهر ويصوم ويتعبد فيها، ويتهيأ لنزول التوراة عليه، ولما قضى موسى مدة المناجاة، ثلاثين يومًا، زادت نفسه تعلقًا ورغبة في مناجاة ربه وعبادته، فزاده ربه عشر ليالٍ؛ وذلك لطرد السآمة عنه في العبادة، وإعداده لتلقي التوراة، وهذه الأربعون ليلة: هي شهر ذي القعدة، وعشرة أيام من ذي الحجة[٢] فتم ما وقَّته الله لموسى لتكليمه أربعين ليلة، كي يتشوق لإنزالها، ويكون لها وقع كبير لديهم.

يقول بعض المفسرين: إن موسى قد استاك في نهاية الثلاثين يومًا، وكانت الملائكة

---

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (ووعدنا) بحذف الألف التي قبل العين، على أن الوعد من الله وحده، وقرأ الباقون بإثبات الألف (وواعدنا) من المواعدة؛ فالله تعالى وعد موسى الوحي، وموسى وعد ربه المجيء.

(٢) جاء هذا عن سليمان التيمي عن رجل حضرمي عند ابن أبي حاتم (٨٩٢١).

تشم منه رائحة كرائحة المسك، فلما تسوَّك ذهبت عنه هذه الرائحة، فأمره الله أن يصوم عشرة أيام زيادة على الثلاثين[1] وسواء أصحَّت هذه الرواية أم لا، فإن الله سبحانه قد زاد موسى عشرة أيام ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ لحكمة أرادها.

ولما عزم موسى على الذهاب إلى جبل الطور، استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد من باب التذكير والتنبيه، وإلا فهارون عليه السلام نبي مرسل كريم عند الله تعالى.

ذهب موسى في الموعد الذي حدده له ربه لمناجاته، واستخلف في قومه أخاه هارون، نبيًّا ورسولًا، أرسله الله ليؤازر موسى ويعضد دعوته، وقال له: كن خليفتي من بعدي في قومي حتى أرجع، وأصلح نفسك وأصلح مَن حولك، وهذا معنى: ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ أي: احمل القوم على طاعة الله ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وهذا من باب التأكيد؛ لأن هارون لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين، والنصيحة تُوجه لكل حاكم، وهي النصيحة التي وجهها موسى لأخيه هارون.

وكانت فتنة بني إسرائيل بعبادة العجل الذي صنعه السامري في هذه الأيام العشر التي زادت على الموعد المضروب بين موسى وقومه، وأكثر المفسرين على أنها عشر ذي الحجة.

مُوسَى يَطْلُبُ رُؤْيَةَ رَبِّهِ

١٤٣- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ[2] أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ[3] ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ٨٤) و«تفسير ابن عطية» (٢/ ٤٤٩) و«تفسير الكشاف» (٢/ ١٥١) وفيه نظر.

(٢) قرأ ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو بخلف عنه بإسكان الراء من (أرني) وقرأ أبو عمرو في وجهه الثاني باختلاس كسرة الراء، وقرأ الباقون بالكسرة الكاملة.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر النون وصلًا، وهو الأصل في التخلص من التقاء الساكنين من (ولكن انظر) والباقون بضمها.

دَكًّا(١) وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا(٢) أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

ولما وصل موسى إلى الميقات بعد تمام أربعين ليلة، وكلَّمه ربه بلا واسطة، وكان هذا الكلام على هيئة يعلمها الله سبحانه، وبعد أن أوحى الله إليه بالأوامر والنواهي تشوقت نفس موسى وتلهفت على رؤية الله سبحانه، والنظر إليه؛ كي يجمع الله له بين الكلام والرؤية، فطلب رؤية الله سبحانه، وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ومَكِّنِّي أن أنظر إلى ذاتك المقدسة.

وهذه الرؤية لله ﷻ أرادها الله سبحانه لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة] وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] **والحسنى**: هي الجنة. **والزيادة**: هي النظر إلى وجه الله الكريم، وهذا بالنسبة للمؤمنين.

أما بالنسبة للكفار فقد قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين] أي: لمحجوبون عن رؤية الله ﷻ يوم القيامة؛ فرؤية الله ﷻ تكون في الدار الآخرة، وهي جائزة عقلًا في الدنيا، ولذلك لما طلبها موسى عليه السلام، أراد الله ﷻ أن يبيِّن له أنه طلب أمرًا عظيمًا لا تَقْوَى عليه الجبال، وهي أشد وأقوى من موسى، فقال سبحانه: ﴿لَن تَرَانِي﴾ لن تقدر على رؤيتي في الدنيا، فإن الله تعالى قد خلق الناس في الدنيا بقُدُرات لا تؤهلهم إلى رؤية الله سبحانه، وجعل هذه القُدْرة خاصة بالدار الآخرة، وهي تفوق نعيم الجنة، ولذا صرف الله نظر موسى عن هذه الرؤية في الدنيا فقال: ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ وهو أشد منك وأقوى ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ حين أتجلَّى له ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ والجبل لم يستقرّ، بل دُكَّ الجبل، وأُغْشِيَ على موسى، وبذلك انتفت رؤية الله تعالى في الدنيا.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بالهمزة المفتوحة بعد الألف وحذف التنوين للمنع من الصرف، أي: أرضا مستوية، وهي في هذه الحالة من قبيل المد المتصل، فكل يمد حسب مذهبه، وقرأ الباقون بحذف الهمزة وعدم المد مع التنوين، على أنه مصدر واقع موقع المفعول به، أي مدكوكا.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف (أنا) وصلًا ووقفًا، ويكون من قبيل المد المنفصل، وكل على حسب مذهبه فيه، وقرأ الباقون بحذف الألف وصلًا وإثباتها وقفًا.

فقد علَّق سبحانه رؤية موسى لربه على استقرار الجبل وثبوته حين يتجلَّى له رب العزة جلَّ في علاه ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ وهو أصم غليظ، دُكَّ الجبل وتفتت، واستوى بالأرض ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ فانهال كالرمل ولم يثبت وزال تماسكه ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مغشيًّا عليه فأدرك أن الجبل إذا لم يثبت لرؤية الله تعالى، فموسى أولى أن لا يثبت، فاستغفر ربه لما صدر منه من سؤال ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من غشيته استغفر موسى ربه، ونزهه عما لا يليق بجلاله وتاب إليه، لا عن معصية فعلها، وإنما تأدبًا مع الله سبحانه.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك عما لا يليق بجلالك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من طلبي رؤيتك في الحياة الدنيا، وتبت من جميع الذنوب ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك من قومي في زماني.

وهذا تجديد للإيمان بعد أن كمل له بمعرفة ما كان يجهله.

فرؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين أمر مقرر شرعًا بنص الكتاب والسنة، وهذه الرؤية جائزة عقلًا في الدنيا، فموسى عليه السلام لم يسأل ربه أمرًا محالًا، وإنما سأله أمرًا جائزًا.

وكما صعق موسى عليه السلام حين تجلى ربه للجبل، فإن الناس جميعًا يُصعَقون في عَرَصَات القيامة، من هول ذلك اليوم، إلا مَن استثناهم الله تعالى في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]

وهذا الصعق معناه: أن يخر المرء مغشيًّا عليه كما حدث لموسى عليه السلام حين طلب رؤية الله تعالى، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من غشيته ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما تجلَّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فصار ترابًا، وخرَّ موسى مغشيًّا عليه[١]. وفي حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**فساخ الجبل** ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾»[٢].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣/٩٧).

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٣٠٧٤) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة، وابن خزيمة (١/٢٥٨) برقم (١٦٢، ١٦٦) و«المستدرك» (٢/٣٢٠) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه ابن كثير في تفسيره للآية، وأخرجه أيضًا ابن أبي حاتم (٨٩٤٠) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٥٨)، وظلال الجنة (٤٨٠) بتصحيح الألباني.

وكلام الله لموسى في الجبل أَحَدُ الأحوال الثلاثة التي يكلم الله بها أنبياءه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]

وهو المراد في قوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ وهكذا كلَّم الله رسوله محمدًا ﷺ ليلة المعراج، ولعل الأحاديث القدسية من هذا القبيل أيضًا.

أما القرآن الكريم فقد نزل بواسطة جبريل عليه السلام، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾

والقسم الأول من الوحي هو: أن يُلْقي الله في رُوعِ الرسول ﷺ ما يشاء من الوحي، كما في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه: **«إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»**[1].

وهذا هو المعبَّر عنه في الآية بقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ .

اصْطِفَاءُ اللَّهِ لِمُوسَى

١٤٤ - ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى[2] ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى[3] وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

ولما منع الله تعالى موسى عليه السلام من رؤيته، مع تشوقه إليها، أعطاه خيرًا كثيرًا، فاختاره للرسالة، واجتباه لمناجاته وكلامه، وفضّله بخصائص ومناقب عظيمة:

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: اخترتك على أهل زمانك وأهلك ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾ إلى خلقي الذين أرسلتك إليهم ﴿وَبِكَلَٰمِى﴾ إياك من غير واسطة، وهذه مزية خص الله بها موسى الكليم وعرف بها في العالمين .

---

(١) أخرجه ابن حبان عن ابن مسعود، «الدر المنثور» (١/ ٤٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٨٦٦) وهو في مسند الشهاب برقم (١١٥١) وأخرجه ابن أبي الدنيا، وصححه الحاكم عن ابن مسعود، ينظر فتح الباري (١/ ٢٠).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني اصطفيتك)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر وروح بحذف الألف التي بعد اللام من (برسالتي) على التوحيد والمراد به: المصدر؛ أي: بإرسالي إياك، وقرأ الباقون بإثبات الألف (برسالاتي) على الجمع، والمراد: أسفار التوراة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: استبَّ رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تخيروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى ممسكًا بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صُعِق فأفاق قبلي، أم كان ممن استثناه الله ﷻ»**[1].

ومعنى لا تخيروني على موسى: لا تفضلوني على الأنبياء.

قال تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أي: خذ ما أعطيتك من الأوامر والنواهي، وتمسَّكْ به، واعمل به كما هو في التوراة أو الألواح ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على ما أنعمت به عليك، فأنت أسوة وقدوة لأهل زمانك، وكأنه تعالى يقول: إن كنت قد منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم يؤتَ أحد من العالمين، فاغتنمها وثابر على شكرها.

وَعْدُ اللهِ لِلْيَهُودِ بِدُخُولِ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ إِنْ تَمَسَّكُوا بِمَا فِي التَّوْرَاةِ

١٤٥- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

وكتبنا لموسى في التوراة من كل ما يحتاج إليه في دينه ودنياه من التشريع والأحكام، موعظة للاعتبار والزجر، والأوامر والنواهي، والحسن والقبيح، وسائر التكاليف الشرعية من العقائد والغيبيات، والأخبار والقصص وتفصيل الأحكام، والحلال والحرام.

وقد كتب الله لبني إسرائيل في هذه الألواح ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ من العقائد والأحكام الشرعية والأخلاق والآداب، وأمره أن يأخذها بحزم وصبر وجلَد ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: خذ التوراة بجد واجتهاد وعزم صادق، وهذا حظ الرسول منها ألَّا يتوانى في تبليغها

(١) «المسند» (٢/ ٢٦٤) برقم (١١٢٨٦، ١١٣٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) والبخاري برقم (٢٤١١، ٣٤٠٨، ٦٩١٧) ومسلم برقم (٢٣٧٣) و«سنن أبي داود» برقم (٤٦٦٨) عن أبي سعيد.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وهذا حظ عموم الأمة منها، أن يتمسكوا بها، ويعضوا عليها بالنواجذ، ويعملوا بما فيها من التكاليف الشرعية الواجبة والمستحبة، فهي الأحسن لهم والأصلح، وأن يأخذوا بأفضل ما فيها، بمعنى أنه إن كان هناك فريضة ونافلة فليأخذوا بأحسنها، أي: من الأوامر الواجبة والمستحبة فيأخذوها بجد وحزم وصبر وجلد فالمراد **بالأحسن**: الأشد والأحوط، والأشق على النفس، فالعزيمة أحسن من الرخصة، وهكذا ويترك المنهيات والمكروهات.

وكل من أشرك بالله تعالى، وخرج عن طاعته، فإن داره في الآخرة نار جهنم وبئس المصير ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري ممن أهلكهم الله وأبقى ديارهم بعدهم؛ يعتبر بها المعتبرون الموفّقون للهداية والاتعاظ.

وسأدخلكم دار العمالقة الجبابرة، وفي هذا وعدٌ لموسى بدخول الأرض التي خرجوا منها، ولم يرجعوا إليها، وفي هذا تحذير من الله سبحانه من الطغيان ومن الضلال؛ حتى لا يكون مصيره ومصير أمته كقوم فرعون، وقوم ثمود، وغيرهم من الأمم الذين أهلكهم الله في الدنيا، ومأواهم النار يوم القيامة.

والألواح هي أصل التوراة الإجمالي، وأول ما نزل على موسى من وحي التشريع، فهي مشتملة على التوراة.

والألواح: جمع لوح؛ وهو قطعة مربعة من الخشب أو الصاج، والألواح التي أُعطيها موسى كانت حجارة، وقد نُقِشت عليها الكتابة نقشًا من عند الله تعالى، من غير فعل إنسان كما في الإصحاح الثاني والثلاثين.

وقد كتب الله فيها لموسى أصول الشريعة والكليات العامة التي أوحى الله بها إليه، وابتدأت شريعة موسى **بالوصايا العشر**:

أكرم أباك؛ لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشتهِ بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك.

وقد فُصِّلت هذه الوصايا في سفر الخروج.

عُقُوبَةُ المُتَكَبِّرِينَ وَصِفَاتُهُمْ الأَرْبَعَةُ

١٤٦ - ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ[(١)] ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ[(٢)] لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

والذين لا يعتبرون بمصارع الغابرين، يصرفهم الله عن فَهْم آياته المقروءة والمنظورة، وهكذا: تأتي عاقبة المتكبرين على الله وعلى الناس، فيبيِّن سبحانه أنه يصرف عن فهم آياته وتدبرها والعمل بما فيها وهم أهل الكبر والغطرسة، المتعالين على طاعة الله وعلى خلق الله؛ فهم لتكبرهم لا يتبعون نبيًّا، ولا يفقهون حجج الله وأدلة عظمته وشريعته.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ أي: سأمنع عن النظر والتفكر في آلاء الله والاستدلال بها، المعرضين عن آيات الله؛ عقوبة لهم على تكبرهم وكفرهم، فلا يفهمون الحجج الدالة على قدرة الله وعظمته، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فمن كان بهذه الصفة حرَمه الله خيرا كثيرًا وخذَله ولم يفْقه من آيات الله ما ينتفع به، وقد تنقلب عليه الحقائق فيستحسن القبيح، وليس هناك كِبْر بحق إلا لله سبحانه، وكل متكبر يكون تكبُّره بغير حق؛ لأن الكبرياء صفة الله ﷻ، يُختَصُّ بها دون خلقه.

ومن شأن المتكبرين أنهم لإعراضهم ومحادتهم لله ورسله إذا رأوا طريقاً فيه صلاح وهداية أو رشد أو خير، ينصرفون عنه، فهم لغفلتهم عن التفكر والنظر في أدلة الكون يتوجهون نحو طرق الضلال والكفر.

هذا: وللآية عَلاقة شديدة الاتصال بالآية التي قبلها، ذلكم أن بني إسرائيل كانوا يخافون ويهابون العمالقة الجبارين، ويخشون دخول الأرض المقدسة عليهم، ولما وعدهم الله بدخولها في نهاية الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أخذوا يتساءلون: كيف تُرينا دارهم وتَعِدُنا إياها ونحن نخاف منهم؟!

---

(١) قرأ ابن عامر وحمزة بإسكان الياء من (آياتي الذين) وصلًا، وفتحها الباقون.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بفتح الراء والشين من (الرُّشْدِ)، والباقون بضم الراء وسكون الشين، وهما لغتان في المصدر، كالبخل والبخل.

فكان الجواب: سأتولى دفعهم عنكم، فأُلقي في قلوبهم الرعب، وأُشتت كلمتهم، وأفُتُّ في عضدهم، وأُهيئ لكم أسباب النصر عليهم، **هذا هو المعنى الأول** لقوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ أي: سأدفع عن تعطيل آياتي وإبطالها بأن أنصركم على هؤلاء المتكبرين المتجبرين.

والمعنى الثاني: كان بنو إسرائيل يتساءلون قائلين: إنا إذا دخلنا أرض العدو فلعلهم يؤمنون ويهتدون، ويتبعون ديننا، فلا نحتاج إلى قتالهم.

فأُجيبوا بأن الله سيصرفهم عن اتباع آياته؛ لأنهم جُبِلوا على الكبر في الأرض، والإعراض عن آيات الله[1].

والآية عامة في اليهود وفي غيرهم من كل متكبر معرض عن آيات الله تعالى.

وفي هذا تعريض بكل كافر مكذب لآيات الله غير مصدق لخاتم المرسلين، بأن من زاغ قلبه عن الإيمان؛ فانصرف عن الحق، واستحب العمى على الهدى، فإنه لن ينتفع بالآيات الدالة على عظيم قدرة الله تعالى، ولن يؤمن ولو جاءته كل آية ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام] ولذلك فهم إن رأوا طريق الحق والهدى وسبيل الرشد لا يتبعوه، وإن رأوا طريق الغي والضلال اتخذوه سبيلًا لهم.

أربعة أوصاف للمتكبرين في الأرض:

ويتبيَّن من هذا أن الله تعالى وصف الذين يصرفهم عن الهداية **بأربعة أوصاف:**

الوصف الأول: أنهم يتعالون في الأرض، ويترفعون على الناس، فيزدرون الناس وينتقصونهم، ويرفضون قبول الحق من الناس، فالكبر بطر الحق وغمط الناس.

الوصف الثاني: أنهم قوم معاندون، جاحدون للحق، رافضون لدلائل التوحيد والنبوة ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾.

الوصف الثالث: أنهم قوم استمرؤوا الضلال والفساد، فصار طبعًا وخلُقًا لهم، فإذا رأوا

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٩/ ١٠٤).

طريق الرشد واضحًا جليًّا لا يتخذونه طريقًا لهم ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ .

الوصف الرابع: أنهم يتجاوبون مع الشر بقدر ما هم سلْبيون مع الخير، فإذا رأوا طريق الغي والضلال سلكوه واتخذوه منهجًا لهم.

فمن اجتمعت له هذه الصفات الأربع، فقد خَتَم الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فهم قوم مطبوعون على الضلال، ولم يُكرَهوا عليه إكراهًا؛ ولذا فقد كذّبوا بآيات الله الدالة على توحيده واشتغلوا بأهوائهم.

وقد بيّن الله سبحانه السبب في هذا الانحراف بأنهم ردُّوا كلام الله وكذّبوا بآياته وغفلوا عما يراد بها فلم يعملوا بما فيها.

الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ

١٤٧- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

ثم بيَّن سبحانه سنته في خلقه إلى يوم القيامة بأن مَن كذَّب بآيات الله ولقائه حبطت أعمالهم وبَطَل ثوابها، كمثل الناقة يصيبها الحبوط، أي: تأكل شيئًا سامًّا فتنتفخ وتموت، ويقال: حبطت الناقة حين يظن صاحبها أن هذا الانتفاخ شحمًا أو لحمًا، ولكنه زيف وانتفاخ زائل، إنه أثر السم.

وهكذا عمل الكافر، مثل: صلة الرحم، والصدق، والإحسان، وحسن المعاملة، فهو يظن أنه على شيء، وهو لا يفعل شيئًا يأجره عليه رب العالمين، بل صارت أعماله هباءً منثورًا بسبب كفره وتكذيبه.

والمعنى: إن الذين كذبوا بآيات الله وحججه ولقاء الآخرة، بطلت أعمالهم بسبب فقد الشرط، وهو الإيمان بالله والتصديق بيوم الحساب والجزاء، وهم سيجزون الخلود في النار يوم القيامة، بسبب كفرهم ومعاصيهم في الدنيا.

ومن لا يؤمن باليوم الآخر لا يرجو ثوابًا على عمله، وليس لها غاية تنتهي إليه.

عِبَادَةُ اليَهُودِ لِلْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ

١٤٨- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

والآيات التي سبقت تُبيِّن صفحة من تاريخ اليهود في حبهم لعبادة الأوثان، ومزاولة الشرك والكفر بالله سبحانه، وتُبيِّن أيضًا أن بني إسرائيل لما اجتاز بهم موسى البحر، وأراهم الله الآية البيِّنة، فأغرق فرعون وملأه أمام أعينهم، بعد ذلك مباشرة رأوا قومًا يعبدون أصنامًا لهم على صورة البقر ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وذلك لأن بني إسرائيل قد تاقت نفوسهم لعبادة الأوثان بسبب مخالطتهم للفراعنة، فقد كانوا يعبدون البقر من دون الله، كما هو حال بعض الناس في الهند وغيرها إلى يومنا هذا، وكان قدماء المصريين إذا ماتت العجول المؤلَّهة يحنِّطونها، ويدفنونها في مقبرة خاصة، وفي مكان خاص، يقال له: (سقَّارة) بمصر.

وتُبيِّن هذه الآيات حب اليهود للأوثان واتخاذهم العجل الذهبي إلهًا معبودًا من دون الله سبحانه.

قصة عجل اليهود: ذلكم: أن موسى عليه السلام لما خرج وفارق قومه متوجهًا إلى جبل الطور لمناجاة ربه، حيث تنزل عليه التوراة، تأخر عن الموعد المضروب بينه وبين قومه عشرة أيام زادها في الصيام، وبينما كان موسى في حضرة ربه، كان بنو إسرائيل يرتكسون وينتكسون في عبادة عجل لا روح فيه.

وذلك أنه خلال هذه الأيام العشر، جاءهم رجل من بني إسرائيل يهودي ضالٌّ، خبيث لئيم، يقال له: موسى بن ظفر السامري، فقال لهم: إن موسى قد خرج، وإنه قد ضل الطريق، ولن يعود إليكم، فما عليكم إلا أن تبحثوا عن إله تتخذونه معبودًا لكم، وأشار عليهم أن يأخذوا معهم الحلي والذهب، وكانت نسوة بني إسرائيل قد استعرْنه من نسوة القبط في مصر في مناسبة عيد لهن، ثم خرجْن به من مصر، وتعذَّر عليهن رده؛ لأن موسى سرى بهم ليلًا، وهذا الحُلِيّ من الكثرة بمكان، فاحتال موسى السامري في أخذ هذا الحُلِيّ، وقال: إنكم استعرتموه من القبط في مصر، وإنه لا يجوز لكم أن تستحلوه؛

لأنه استعارة لا تحل لكم، وحفر حفرة، وجمَع الحلي، وألقاه في هذه الحفرة، وأضرم فيها النيران.

وكان موسى السامري رجلًا صائغًا يصوغ الذهب، فصاغ من الذهب عجلًا بطريقة هندسية، جسدًا بلا روح، يخرج الصوت منه إذا مر فيه الريح ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: له صوت كصوت البقر.

وذكر بعض المفسرين أنه كان لحمًا ودمًا، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، ولكن موسى نسي إلهه وذهب في طلبه، كما جاء ذلك مفصلًا في سورة طه، ويشير إليه هنا قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: بعد أن تركهم إلى جبل الطور؛ لتنزل عليه التوراة ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا﴾ صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول (جبريل).

وكلمة ﴿جَسَدًا﴾ تفيد أنه لا روح فيه، ولكن ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: صوتًا كصوت البقر، فعبدوه واتخذوه إلـٰهًا، ومن أظلم ممن يعبد خلقًا من صنع البشر، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا.

ألم يعلموا أنه لا يخاطبهم ولا يرشدهم إلى خير؟! كيف يكون إلهًا، وهو لا يعقل، ولا يتكلم، ولا يدرك، ولا ينفع ولا يضر؟! ثم بيَّن جلَّ شأنه أنهم مع ذلك أقدموا على هذا الأمر الشنيع ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ معبودًا لهم ﴿وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم واضعين الشيء في غير محله، إذ كيف يشتبه عليهم رب الأرض والسماء بعجل مصنوع ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية ما يجعله إلٰهًا؟ قال تعالى:

١٤٩- ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا[1] رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

أي: ولما أعيتهم الحيل، وندموا على ما فعلوا بعد أن رجع موسى إليهم، ورأوا ما به من غضب ورأوْا توبيخه لأخيه على عبادتهم العجل من دون الله، فلما تبيَّن لهم خطأهم، واتضح لهم ما هم فيه من ضلال واشتدت حسرتهم على عبادتهم للعجل، أخذوا في الإقرار بالعبودية لله سبحانه، واستغفروا وندموا على ما فعلوا، فقال الذين لم يعبدوا

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بتاء الخطاب في (ترحمنا وتغفر لنا) ونصب باء (ربنا) على النداء، وقرأ الباقون بياء الغيبة في الفعلين، ورفع باء (ربنا) على أنه فاعل.

العجل قبل أن تشتد قسوة قلوبهم، كما في قوله تعالى عنهم: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ ويقبل توبتنا ويستر ذنوبنا ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الهالكين الذين ذهبت أعمالهم، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجائهم إلى الله تعالى.

وهكذا: فقد رجع موسى من لقاء ربه، فوجد قومه يعبدون العجل، فغضب، وأخبرهم بضلالهم، فسُقِط في أيديهم من الهمّ والندم على فعلتهم، فتنصّلوا مما حدث منهم، وتضرعوا إلى الله تعالى أن يرحمهم ويغفر لهم ما صدر منهم من عبادتهم للعجل، وإلا فقد خسروا دنياهم وأخراهم.

مُوسَى يَغْضَبُ مِنْ عِبَادَةِ قَومِهِ لِلعِجْلِ وَيَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ

١٥٠- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا[1] خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ[2] أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ[3] إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

لقد أعلم الله سبحانه موسى عليه السلام قبل أن يعود إلى قومه بأنهم اتخذوا العجل معبودًا من دون الله، كما جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥] بعبادتهم للعجل ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ ولكن موسى لم تهتز نفسه كما اهتزت حين رأى القوم وهم مجتمعون حول العجل يطربون ويرقصون له حبًّا وإعجابًا به وبعبادته من دون الله؛ فالمعاينة والمشاهدة حملتْه على شدة الغضب وجعلتْه يُلقي الألواح التي في يده على الأرض حين رأى المنظر، وسمع الجلَبة والضوضاء؛ فارتفع غضبه واشتد أسفه وحزنه، وقد ترتب على شدة انفعال موسى **أمران**:

أحدهما: طرحه للألواح على الأرض.

---

(١) أبدل همزة (بئسما) ياء، ورش وأبو عمرو بخلْف عنه وأبو جعفر، وحمزة عند الوقف، ومثلها (برأس).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (بعدي أعجلتم) والباقون بإسكانها

(٣) قرأ ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الميم من (ابن أم) والباقون بفتحها، وهما لغتان.

وثانيهما: جرُّه لرأس أخيه.

ولما رجع موسى إلى قومه من مناجاة ربه سمع أصوات قوم لاهين، عاكفين على عبادة العجل فغضب وحزن، وكان الله تعالى قد أخبره أن قومه قد فُتِنوا بعبادة العجل، وأن السامري قد أضلهم، فقال لهم موسى: بئس خلافتكم لي بعد غيبتي فأنتم قد عبدتم العجل، وهارون لم يُحسن سياسة الأمة.

وامتلأ قلبه غضبًا وغيظًا عليهم، وقال لهم: بئس ما خلفتموني بعد ذهابي عنكم فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي والشقاء السرمدي.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ [طه]

وكان من أثر هذا الغضب أن ألقى موسى ألواح التوراة، غضبًا على قومه الذين عبدوا العجل، وغضبًا على أخيه هارون وقال ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ﴾ بسبب هذه الأيام العشرة التي جعلتكم تتعجلون الموعد الذي بيني وبينكم، فلم تصبروا حتى أرجع، كأنكم تتعجلون عقاب الله لكم، أو تتعجلون ما وعدكم الله به من إنزال التوراة.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ رماها من الغضب، قيل: إنها كانت عشرة ألواح على أرجح الأقوال، فألقاها بشدة من يده، وأمسك موسى بشعر رأس أخيه هارون وأخذ يجره إليه، وقال له ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه]

وقال هارون لموسى مستعطفًا: يابن أمي إن القوم استذلوني وصيَّروني ضعيفًا، وقاربوا أن يقتلوني فلا تفعل بي ما يسرُّ الأعداء ولا تغضب عليَّ، وتجعلني مع من خالف أمرك وعبد العجل.

وأقبل موسى نحو أخيه هارون الذي استخلفه عليهم وزوَّده بالنصيحة قبل الذهاب لميقات ربه قائلًا له: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أقبل نحوه، وأخذ يجره من لحيته ورأسه، ولكن هارون أجاب موسى قائلًا: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ يستجيش فيه عاطفة الأمومة، فهو ابن أبيه وأمه، ولكنه يأتي له من ناحية الرحم ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: ٩٤]. لقد آثرتُ الوحدة الوطنية

على الفرقة والفتنة الطائفية حتى ترى رأيك.

إن هارون كان قد نصحهم حين عبدوا العجل أن يطيعوه ويعبدوا الله وحده ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه] ولكن القوم أجابوا هارون قائلين: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ أي: على عبادة العجل ﴿عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

قال موسى لهارون وهو يشد شعر رأسه ويجذبه من لحيته ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ [طه: ٩٢] في عبادتهم للعجل من دون الله ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ﴾ فتردُّ شاردهم وضالهم إلى الهدى ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ﴾ [طه: ٩٣، ٩٤] إنني خشيت أن أفرق بينهم فكنتُ مع الذين وحَّدوا الله سبحانه، وظلوا على الحق متبعين لله جلَّ شأنه، وتركتُ الذين ضلوا وعبدوا العجل من دون الله؛ حتى لا أفرق بين القوم إلى أن تأتي إليهم يا موسى.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة، إن الله ﷻ أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يُلقِ الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت**»[1].

وأخرج الطبري بسند صحيح عن عكرمة عن ابن عباس أيضًا قال: لما رجع موسى إلى قومه وكان قريبًا منهم سمع أصواتهم، فقال: إني أسمع أصوات قوم لاهين، فلما عاينهم وقد عكفوا على العجل ألقى الألواح فكسرها، وأخذ برأس أخيه يجره إليه.

١٥١- ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

ولما اقتنع موسى ببراءة أخيه هارون، وأنه قد أدَّى ما أُنيط به من الرسالة، وقام بالواجب

---

(١) «المسند» (١/ ٢٧١) برقم (٢٤٤٧) والبزار (٢٠٠) كشف، وابن أبي حاتم (٨٩٩٨) وابن حبان برقم (٦٢١٣) الإحسان و«المستدرك» (٢/ ٣٢١، ٢/ ٣٨٠) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والطبراني في «الكبير» (١٢٤٥١) وفي «الأوسط» (٢٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٥٣): رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني «مشكاة المصابيح» برقم (٥٧٣٨) وقال محققو «المسند»: حديث صحيح، رجاله ثقات.

الذي عليه وعرَّض نفسه للأذى؛ ليصرف قومه عن عبادة العجل ﴿قَالَ﴾ موسى لما تبيَّن له عذر أخيه، وعلم أنه لم يفرِّط فيما وجب عليه في جنب الله، ولم يقصر في نصح القوم، وأنه بريء مما فعلوه، قال نادمًا على ما صنعه بأخيه: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ غضبي، واغفر ما كان بين أخي وبين بني إسرائيل، فرحمتك أوسع من كل راحم ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ التي وسعت كل شيء ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ بعبادك من كل راحم.

عِقَابُ اللهِ لِمَنْ عَبَدَ العِجْلَ

١٥٢- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾

قال سبحانه مبيِّنًا حال أهل العجل الذين عبدوه، ومبيِّنًا أثر العقوبة التي ينالها اليهود الذين عبدوا العجل، وينالها كل مَن يشركون بالله سبحانه، ممن استمروا على شركهم إلى يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا؛ أي: باشروا عبادته من دون الله ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره، فهم يوم القيامة في مقت الله ولعنته وغضبه الشديد، أما في الدنيا فهم في ذلة وهوان ومسكنة بسبب كفرهم بربهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ المختلقين في دين الله ما ليس منه.

وهكذا: كل من كان هذا شأنه من المفترين المبتدعين في دين الله إلى يوم الساعة، فكل مبتدع ذليل، وله نصيب من غضب الله، وقد نال اليهود غضب الله بسبب عبادتهم للعجل، حيث أمرهم أن يقتل بعضهم بعضًا، ثم تاب عليهم بعد ذلك.

قال سفيان بن عيينة: ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه، وهو في كتاب الله، قالوا: أين هي؟ قال: أما سمعتم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ قالوا: يا أبا محمد، هذه لأصحاب العجل خاصة، قال: كلَّا، اقرأ ما بعدها ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فهي لكل مفترٍ ومبتدع إلى يوم القيامة[1].

وقيل: إن الضعف والذلة كلاهما في الدنيا كما هو منطوق الآية، وقد تحقق ذلك باعترافهم بعبادة العجل، وإسلام أنفسهم للقتل، فقَتَل بعضهم بعضًا توبة من ذنبهم كما

---

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٦).

قال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وتحققت هذه الذلة عليهم في الدنيا بأن حَرَمهم الله من الأرض المقدسة، وكتب عليهم الاغتراب، وأن يعيشوا بلا وطن.

وقيام كيان صهيوني مؤخرًا لهم فيه مخالفة صريحة لنصوص القرآن والتوراة، ويشهد بهذا اليهود غير الصهاينة في العالم.

وعلى مشهد من بني إسرائيل أحرق موسى العجل، وقال للسامري رأس الفتنة: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٧، ٩٨] وبهذا أثبت موسى لقومه أن المستحق للعبادة إنما هو الله رب العالمين.

ثم ذكر سبحانه حكما عامًّا للتوبة يدخل فيه اليهود وغيرهم، فقال:

١٥٣ - ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

أي: إن باب الله مفتوح لكل مَن عصاه سبحانه، حتى من اتخذ العجل إلهًا من دون الله إذا هو تاب وأناب، وأقبل على ربه؛ فإن الله جلَّ شأنه يقبل توبته.

واليهودي والنصراني الذين يقول: عزير ابن الله، أو عيسى ابن الله، أو أنه هو الإله، ثم يتوب ويرجع إلى الله سبحانه؛ فإن الله جلَّ شأنه يقبل توبته، ما لم يُغرغر، والذي يقتل ويسرق ويزني، ثم يتوب إلى الله سبحانه قبل أن يغرغر وقبل أن تطلع عليه الشمس من مغربها، فإن الله سبحانه يقبل توبته.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: جميع المعاصي من شرك وكبائر وصغائر، وهذا يشمل الذنوب الكبيرة والصغيرة، ويشمل الشرك والكفر إذا رجع بعد فعلهما إلى الإيمان والعمل الصالح ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ توبة نصوحًا، بأن ندموا على ما مضى وأقلعوا عن ذنوبهم وعزموا على ألا يعودوا ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾ بالله من قلوبهم، وعملوا صالحا بجوارحهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لكل تائب عائد إليه سبحانه، غير فاضح لأعماله السيئة، مجاهر بمعاصيه.

فالله تعالى يغفر السيئات ويمحوها ولو كانت مليء الأرض، ويرحم عباده التائبين ويوفقهم للخيرات.

وَصْفُ الأَلْوَاحِ وَاشْتِمَالُهَا عَلَى التَّوْرَاةِ

١٥٤- ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

ثم يبيِّن سبحانه أن موسى عليه السلام لَمَّا سكن غضبه، وأخذ يناقش السامري، ويناقش هارون، أخذ الألواح بعدما ألقاها على الأرض، فوجد فيها موعظة وهدى من الضلالة وبيانًا للحق، ورحمة للذين يخشون الله ويخافون عقابه، وجدها تهدي لأحسن الأعمال والأخلاق والآداب، كما قال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]

والمراد: التوراة الحقيقية التي نزلت من عند الله تعالى على موسى عليه السلام، قبل أن يتطرق إليها التحريف والتغيير والتبديل.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ أسلوب بليغ لا يَنْسِبُ الغضب إلى موسى، بل يقرر أن الغضب هو الذي سكت وكفّ عن موسى، وكأن الغضب له وَعْي وإدراك، ثم إن موسى عليه السلام ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي نُسخت من اللوح المحفوظ، وكتبت في الألواح، قيل: إنها كانت سبعة ألواح، أو عشرة، أو أكثر من ذلك، وهل هذه الألواح كانت هي التوراة أو غيرها؟

قال بعض المفسرين: إنها كانت مشتملة على التوراة، فهي أول ما أوتيه موسى من الوحي، وهي أصل التوراة في الجملة.

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ **النسخ**: هو نقل مثل المكتوب في لوح، أو صحيفة أخرى، ومعنى هذا أنه أخذ من الألواح نسخة، وهذا ما يشير إليه الإصحاح الرابع والثلاثون من سفر الخروج. ثم قال الرب لموسى: انحتْ لك لوحين من حجَر مثل الأولين، فأكتبُ أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأوَّلينْ اللذيْن كسرتَهُما. . . .

وقد وصف الله هذه النسخة التي نزلت على موسى عليه السلام، بأن فيها هدى ورحمة لمن يخافون ربهم، ويخشون عقابه وفق ما في الأصل قبل التحريف.

ثم إن رضاض الألواح الأصلية وُضع في تابوت العهد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ

﴿هَـٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُۚ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقد أحرقت بعد ذلك في السبْي البابلي ولم يبق لها أثر، ثم كتب الأحبار بدلًا عنها مِنْ حفظهم وضمَّنوها ما يخدم قضيتهم ويجمع شتاتهم.

هذا: وقد أخرج الطبري بسنده عن قتادة أن موسى ﷺ قال: ربِّ، إني أجد في الألواح خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد، قال: ربِّ، إني أجد في الألواح أمة هي آخر الأمم في الخلق وأولهم في دخول الجنة، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: ربِّ، إني أجد في الألواح أمة إذا همَّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كُتِبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، رب اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: ربِّ، إني أجد في الألواح أمة إذا همَّ أحدهم بسيئة لم تُكتَب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد...[1].

هذا: والهدى الذي في التوراة لا ينقادُ لَه ويتلقاه بالقبول إلا الذين يرهبون ربهم ويخشون عقابه، أما الذين لا يخافون المقام بين يدي الله، فإنهم لا يزدادون إلا عتُوا ونفورا، وتقوم عليهم حجة الله فيها.

الميقَاتُ الثَّانِي بَيْنَ مُوسَى وَرَبِّهِ: الاعْتِذَارُ عَنْ عِبادَةِ العِجْلِ

١٥٥- ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَـٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّـٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: كان الله أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلًا، فبرز بهم ليدْعُوا ربهم، فكان فيما دَعَوا الله، أن قالوا: اللهم اعطنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا، ولا تعطه أحدًا بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة...

(١) يُنظَر الأثر كاملًا في «تفسير الطبري» (١٣/ ١٢٤).

ثم إن الله تعالى جعل لموسى **ميقاتين** للمناجاة كما سبق تفصيله:

الميقات الأول: جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ وذلك بعد مواعدة موسى ربه أربعين يومًا وليلة.

وتذكر التوراة[١] أن الله تعالى أمر موسى أن يصعد طور سيناء، ومعه سبعون من شيوخ بني إسرائيل، ويكون شيوخ بني إسرائيل في مكان معين من الجبل، ويتقدم موسى حتى يدخل في السحاب؛ ليسمع كلام الله، وأن الله لما تجلى للجبل ارتجف الجبل.

وذكر القرآن الكريم أن موسى خر صعقًا، ويتعين أن يكون السبعون قد أصابهم ما أصاب موسى؛ لأنهم كانوا في الجبل أيضًا.

أما الميقات الثاني: فقد كان بعد عبادة بني إسرائيل للعجل في غيبة موسى، وقد كان هذا الميقات الثاني للاعتذار عن عبادة العجل، وطلب العفو والمغفرة عمن فعل ذلك، وقد أخذ معه السبعين المختارين في المرة الأولى، فأخذتهم الرجفة؛ لسكوتهم على عبادة العجل، أو لأنهم طلبوا رؤية الله جهرة، فخشي موسى أن تكون هذه الرجفة أمارة غضب ومقدمة إهلاك، وأطلق لفظ السفهاء على من عبدوا العجل، فسَمَّى الشرك سفهًا؛ لأنه صادر عن نقص عقل ودين.

أراد موسى عليه السلام أن يأخذ من بني إسرائيل الذين لم يعبدوا العجل سبعين رجلًا من خيارهم؛ ليذهب بهم إلى جبل الطور في سيناء، حيث واعده ربه سبحانه في زمان معين ومكان معين ؛ كي يعتذروا إلى ربهم في هذه المرة عن عبادة بني إسرائيل للعجل، ويتوبوا إليه مما كان من سفهائهم، وهم يمثلون بني وفد إسرائيل إلى الله عز وجل، وقد وعدهم الله ميقاتًا يحضرون فيه، فلما حضروا في الموعد المحدد، تجرؤوا على ربهم جرأة كبيرة وأساؤوا الأدب معه، حيث طلبوا من موسى رؤية الله جهرة، فأخذتهم الرجفة فَصُعِقوا و أُهلكوا.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ تَمَّ انتقاؤهم بعناية، الأفضل منهم فالأفضل، فما كان من هؤلاء الصفوة المختارة من بني إسرائيل عند

(١) في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج.

وصولهم ذلك المكان إلا أن قالوا لموسى: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وهم يعلمون أنه قد سبق لموسى في الميقات الأول أن طلب رؤية الله ﷻ بعد أن سمع كلامه، وأن الله تعالى بيَّن له أنه طلب أمرًا لا تَقْوَى عليه الجبال؛ لأن رؤية الله تعالى تكون في الآخرة وليست في الدنيا.

ولذا: فإن الله تعالى علَّق رؤيته على استقرار الجبل، وهو أشد وأقوى ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ والجبل لم يستقر، وموسى لم يقوَ على ذلك بل خرَّ مغشيًّا عليه، ومع ذلك فإن هؤلاء السبعين المختارين الذين أخذهم موسى للقاء ربه، قالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] عِيانًا فإنك قد كلَّمته فأرنا إياه، ولذلك نزلت بهم الصاعقة وهم ينظرون إليها، فمات السبعون عن آخرهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦] أي: أماتهم الله موتًا حقيقيًّا، ثم بعثهم بعد موتهم؛ ليكون ذلك دليلًا على أن الله سبحانه يحيي الناس بعد موتهم، وأن القادر على ذلك قادر على البعث بعد الموت يوم القيامة.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ﴾ موسى وهو يتضرع إلى ربه: ماذا أقول لبني إسرائيل إذا عدتُ إليهم، وأخبرتُهم أنك أهلكت خيارهم، وهم قد حضروا للاعتذار عن قومهم في عبادة العجل، ولو أنك أهلكتهم قبل ذلك وأنا معهم لكان أهون عليَّ وأخف ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ أي: قبل مجيئهم إلى هذا المكان وأنا معهم.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ وهم الذين اجترؤوا على الله سبحانه، وطلبوا رؤيته عِيانًا، فسمَّاهم سفهاء ضعاف العقول، ليس لهم عقول كاملة تردعهم عما قالوه، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ هذا ابتلاؤك واختبارك، لمن طلب الرؤية، ولمن عبد العجل، تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله، وتهدي من تشاء، فالأمور بيديك، تفعل ما تريد، وأنت متولي أمورنا، أنت خير ولي، وخير ناصر، وخير من صفح عن جرم، وستر ذنب. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

تَقْدِيمُ العَذَابِ عَلَى الرَّحْمَةِ، وَشُرُوطُ الرَّحْمَةِ الخَاصَّةِ بِالْمُؤْمِنِينَ

١٥٦- ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ[1] أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

أجاب الله سؤال موسى وأحيا السبعين بعد موتهم وغفر لهم ذنوبهم، وكان يقول في دعائه لربه، بعد أن أمات الله السبعين المختارين من قومه: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ يا رب ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ من العافية والعلم والغنى والعفاف والعمل الصالح والمال والولد والطاعة لله والرسول ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: وفي الآخرة حسنة، مما أعده الله لعباده الصالحين وهي الجنة، واجعلنا ممن كتبت لهم الصالحات من الأعمال في الدنيا والآخرة، إنا رجعنا تائبين إليك ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي رجعنا إليك مقرين بتقصيرنا، منيبين إليك في جميع أمورنا، فمعنى **هدنا**: تبنا، ورجعنا إليك.

قيل: إن اليهود سُمُّوا يهودًا، نسبة إلى قولهم هذا، والأَوْلَى أنهم سُمُّوا يهودًا نسبة لأبيهم (يهوذا) بالذال، وهو ابن يعقوب عليه السلام وأكبر أبنائه، ثم خُفف النطق، فحذفت النقطة التي فوق الذال، فقيل: (يهود) وسواء أكان هذا أم ذاك، فإن الأمر يستوي.

قال سبحانه مجيبًا لموسى عليه السلام: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ مِنْ خلْقي، ممن كان شقيًّا متعرضًا لأسباب الشقاء، كما أصبتُ هؤلاء اليهود من قومك بالرجفة، وأنا قادر على تخصيص العذاب بمن عصى، وأُنَجِّي من لم يقع في العصيان.

والقرآن الكريم من شأنه أن يقدم المغفرة على العقاب، ويقدم الجنة على النار، ويقدم الرحمة على العذاب، ولكنه في هذا الموقف، جاء الرد المناسب لبني إسرائيل بتقديم العذاب على الرحمة ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: وسعت خَلْق الله كلهم، في العالم العلوي والسفلي البر والفاجر، المؤمن والكافر، رحمة عامة، فكل مخلوق وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه.

أما الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، فهي للمتقين، الذين وصفتْهم الآية

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (عذابي أصيب)، والباقون بإسكانها.

بأربع صفات، هي: التقوى، وإخراج الزكاة، والإيمان بآيات الله، واتباع النبي الأمي، وقد جاءت **أحاديث كثيرة في الرحمة**، منها:

١- جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فأناخ راحلته، ثم عقَلها، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما صلَّى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا تشرك في رحمتنا أحدًا، فقال رسول الله ﷺ: «**أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟**» قالوا: بلى، قال: «**لقد حَظَرْتَ، رحمة الله واسعة، إن الله ﷻ خلق مئة رحمة، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلائق، جِنُّها وأنسها وبهائمها، وأخَّر عنده تسعًا وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟**»[1].

٢- وفي صحيح مسلم وغيره عن سلمان الفارسي ﷺ أن رسول الله ﷺ: قال: «**إن لله ﷻ مئة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخَّر تسعًا وتسعين إلى يوم القيامة**»[2].

٣- وأخرج الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لله تعالى مئة رحمة، عنده تسع وتسعون، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها، بين الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليها**»[3].

٤- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يَدْخُلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف، وقالت الجنة: رب يَدْخُلني الضعفاء والفقراء والمساكين، فيقول الله تبارك وتعالى للنار: أنت عذابي أصيب**

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٣٩) برقم (١٨٧٩٩) حديث ضعيف لاضطرابه عن أبي عبد الله الجُشَمي، وهو مجهول الحال عن جندب بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه، وأبو عبد الله الجُشَمي شيخ لسعيد الجريري (محققوه)، وهو في «سنن أبي داود» برقم (٤٨٨٥) والطبراني في الكبير (١٦٦٧).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٣) و«المسند» (٤/ ٣١٢) برقم (٢٣٧٢٠)، إسناده صحيح على شرط الشيخين، واخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٨) والطبراني في الكبير (٦١٢٦).

(٣) «المسند» (٣/ ٥٥) برقم (١١٥٣١) حديث صحيح وإسناده حسن من أجل عاصم بن بهدلة وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، (محققوه) و«سنن ابن ماجه» (٤٢٩٤)، بنحوه، وأخرجه أبو يعلى ٠١٠٩٨) وله شواهد كثيرة في الصحيحين وغيرهما، وانظر السلسلة الصحيحة (١٦٣٤).

بك من أشاء، وقال للجنة: أنت رحمتي وسعت كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فيلقى في النار أهلها. . .» الحديث[1].

٥- وعن سلمان ﷺ قال: **«خلق الله مئة رحمة، فجعل منها رحمة بين الخلائق؛ كل رحمة أعظم ما بين السماء والأرض، فبها تعطف الوالدة على ولدها، وبها يشرب الطير والوحش الماء، فإذا كان يوم القيامة قبضها الله من الخلائق، فجعلها والتسع والتسعين للمتقين، فذلك قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾»**[2].

والمعنى: أن الرحمة التي سألها موسى له ولقومه، وعد الله بإعطائها لمن كان متصفًا بأنه: من المتقين، المؤتين للزكاة، ولمن كان من المؤمنين بآيات الله، وبدلائل صدق خاتم الأنبياء والمرسلين، ووجوب طاعته فيما أمر ونهى.

وهذه الرحمة تشمل من اتقى وآمن وآتى الزكاة من بني إسرائيل ومات قبل بعثة محمد ﷺ.

وتشمل كل من يأتي في المستقبل بعد نزول هذه الآية، ممن آمن بخاتم النبيين، وتشمل أيضًا من يدخل في الإسلام من اليهود والنصارى إلى يوم القيامة، كما أنها تشمل الرسل والأنبياء الذين أخذ الله عليهم العهد والميثاق من الإيمان بمحمد ﷺ .

ولكن هذه الرحمة ليست لكم - أيها اليهود - المخاطَبون في الآية، وإنما كتبها الله سبحانه لمن تنطبق عليه الأوصاف المذكورة فيها، وهذه الأوصاف تُخرِج اليهود، وتُخرِج إبليس، وتُخرِج النصارى، ولا تُدخل إلا من آمن بمحمد ﷺ واتبع هداه.

وهذه الرحمة العامة في الدنيا للبرِّ والفاجر، أما الرحمة الخاصة فهي للذين اتقوا، بشروطها.

---

(١) «المسند» (٢/ ١٣، ٧٨) برقم (١١٠٩٩، ١١٧٤٠، ١١٧٥٤) وابن أبي عاصم في السنة برقم (٥٢٨) وأبو يعلى في مسنده برقم (١١٧٢، ١٣١٣) وابن خزيمة برقم (١١٩، ١٢١، ١٣٤) وابن حبان برقم (٧٤٥٤) وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ٢٣٣) وله شواهد كثيرة في الصحيحين، قال محققو «المسند»: حديث صحيح وهذا إسناد حسن، عطاء بن السائب صدوق.

(٢) رجاله كلهم ثقات، وإسناده صحيح عن سلمان في «مصنف ابن أبي شيبة» برقم (١٦٥٣) والخطيب (٢٢٤) وأخرجه مسلم في التوبة (٤/ ٢١٠٩) مرفوعًا من طريق أبي معاوية عن داود بن أبي هند، عن أبي عثمان، وانظر حديث أبي هريرة (٢٧٥٢) عند مسلم.

قال ابن عطية: ورُوي أن الله ﷻ قال لموسى: قل لبني إسرائيل: أجعل لكم الأرض مسجدًا وطهورًا، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلب، فأخبرهم موسى بذلك، فقالوا: إنما نريد أن نصلي في الكنائس، وأن تكون السكينة كما كانت في التابوت، وألا نقرأ التوراة إلا نظرًا، فقيل لهم: فنكتبها للذين يتقون، يعني: أمة محمد ﷺ[١] لمن جاء وصفهم في الآيات، مع أوصاف النبي الخاتم.

وهذا بمثابة الإنذار، أو البلاغ المبكر لهذه الرسالة الخاتمة على لسان موسى ﷺ، كما أثبتها القرآن الكريم، وقررها في إجابة الله تعالى لموسى ﷺ قبل مجيء محمد ﷺ بآلاف السنين، وهذا على أساس أن كل من على وجه الأرض، بعد بعثة محمد ﷺ لا يقبل الله منهم دينًا غير الإسلام، وأن الذين كتب الله لهم الرحمة هم أتباع هذا النبي.

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله فيوحدونه ولا يشركون به شيئًا، ويمتثلون أمره ويخشون عقابه، فيؤدون فرائضه ويجتنبون نواهيه ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ يؤدونها لمستحقيها ﴿وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بدلائل التوحيد وبراهينه، ويزوّدون بالعمل الصالح، ويطيعون الله ورسوله.

سَبْعَةُ أَوْصَافٍ لِخَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ

١٥٧- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ[٢] الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ[٣] وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ[٤] وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٤٦٢).

(٢) قرأ نافع بالهمزة في (النبي) مع المد المتصل، والباقون بالياء المشددة.

(٣) أمال (التوراة) الأصبهاني وأبو عمرو وابن ذكوان والكسائي وخلف، وأمالها بين بين، الأزرق، ولحمزة وجهان هما: التقليل والإمالة، ولقالون وجهان هما: التقليل والفتح.

(٤) قرأ ابن عامر (ويضع عنهم آصَارهم) بهمزة مفتوحة ممدودة وفتح الصاد بعدها ألف على الجمع، وقرأ الباقون (إصرهم) على الإفراد بكسر الهمزة من غير مد وإسكان الصاد وحذف الألف بعدها، على الإفراد، اسم جنس.

وهؤلاء الذين يخافون الله، ويجتنبون معاصيه، هم ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ الذي لا يقرأ ولا يكتب، نسبة إلى الأمة الأمية وهم العرب ولم يكن لهم قبل القرآن كتاب.

والنبي الأمي: هو محمد ﷺ وجاء وصفه بالأمي العربي لإخراج من عداه من رسل الله الكرام، والسياق في أحوال بني إسرائيل لبيان أن الإيمان بمحمد ﷺ شرط في دخولهم في الإسلام، وأن المؤمنين به المتبعين له هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم ومحمد ﷺ هو ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ موصوفًا في التوراة والإنجيل باسمه وصفته، بإعلام وبلاغ من الله تعالى، سابق على مجيء محمد ﷺ.

ومما جاء في صفة النبي ﷺ في التوراة:

١- ما أخرجه البخاري وغيره عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت له: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق، لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا[١].

وقد جاء ذكر الإنجيل على لسان موسى عليه السلام من باب الإخبار عن ربه بما سيكون.

٢- وعن أبي صخر العقيلي قال: حدثني رجل من الأعراب، قال: جَلبتُ جَلُوبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ فلما فرغتُ من بيعتي قلت: لألْقينَّ هذا الرجل، فلأسمعنَّ منه، قال: فتلقَّاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فَتَبِعْتُهُم في أقفائهم، حتى أتوا على رجل من اليهود ناشرًا التوراة يقرؤها، يعزِّي بها نفسه على ابن له في الموت، كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: **«أُنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي؟»** فقال برأسه: هكذا؛ أي: لا، فقال ابنه: إني، والذي أنزل التوراة، إنا لنجد

(١) البخاري في التفسير (٤٨٣٨) وفي البيوع برقم (٢١٢٥، ٤٨٣٨) والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٧٤) و«تفسير الطبري» (١٣/ ١٦٤) وابن سعد (١/ ٣٦٢).

في كتابنا صفتك ومخرجك،وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال ﷺ: «**أقيموا اليهود عن أخيكم ثم وَلِيَ كفنه، والصلاة عليه**»[١].

وجاءت البشرى ببعثة النبي ﷺ إلى الناس كافة في الأناجيل أيضًا كما جاءت في التوراة.

٣- ففي إنجيل متَّى في الإصحاح الرابع والعشرين: ويقوم أنبياء كذَبة كثيرون، ويضلون كثيرين، ولكن الذي يصير إلى المنتهى -أي: يدوم شرعه إلى نهاية العالم- فهذا يخلص، ويُكَرَّز- أي: يتنبأ- ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة، شهادة لجميع الأمم، ثم يأتي المنتهى. -أي: منتهى الدنيا.

٤- وفي إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر: وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكّسركم بكل ما قلْتُه لكم.

ومعنى باسمي: أي بكونه رسولًا مشرعًا للناس كافة.

أما **صفات هذه الأمة**، كما بيَّن الله سبحانه في هذه الآيات، **فهي أربع**.

لأن التكاليف الشرعية منحصرة في الفعل والترك، **وهذه الصفات هي**:

١- التقوى. ٢- إخراج الزكاة.

٣- الإيمان بآيات الله. ٤- اتباع النبي الأمي.

ثم ذكر سبحانه **صفات النبي الأمي** في هذه الآيات، وأنها **ثلاث**:

أولًا: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: يأمرهم بالتوحيد والطاعة، وكل ما عُرف صلاحُه ونفعُه حُسْنه في الشرع، فيأمرهم بالصلاة، والزكاة والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والإصلاح بين الناس، والصدق، والعفاف، والبر، وحسن الخلق، والحلم والتواضع وما إلى ذلك.

(١) أبو صخر العقيلي هو عبد الله بن قدامة، جزم الشيخان بأن له صحبة، والحديث: أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) برقم (٢٣٤٩٢) وابن سعد (١/ ١٨٥) وقال ابن كثير: هذا حديث جيد قوي، له شاهد في الصحيح عن أنس، وضعَّف إسناده محققو «المسند» قالوا: لجهالة أبي صخر العُقَيْلي، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٣٤) رواه أحمد، وأبو صخر لا أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: ينهاهم عن الشرك والمعصية، وكل ما عُرف قبحه في الشرع، وأنكرته العقول والفطر السليمة، فينهاهم عن الزنى والربا والسرقة والمسكرات، والظلم، والكذب، والفجور، والكبر، وسوء الخلق، وما إلى ذلك. وهذا الأمر والنهي أعظم دليل على أنه رسول الله.

ثانيًا: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المطاعم، والمشارب، والمناكح، والأقوال والأفعال وغيرها، من كل ما لا ضر فيه، وجميع ما حُرِّم على اليهود؛ بسبب بغيهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وهذه الطيبات المحرمة على اليهود أحلها الله تعالى في شريعة محمد ﷺ.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وسائر الأقوال والأفعال: كالدم، والميتة، ولحم الخنزير، وكل ما يستخبثه العقل والشرع؛ كالدخان، والقات، والمعسّل، وسائر المسكرات، والمخدرات، فالمعروف والمنكر، والطيبات والخبائث، والإصر والأغلال، هي علامات ومتعلقات التشريع للنبي الأمي، والخمر أم الخبائث.

أخرج النسائي وغيره بسنده إلى عثمان ﷺ قال: **«اجتنبوا الخمر؛ فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبَّد، فعلِقتْه امرأة غويَّة، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلَق مع جاريتها، فطفقتْ كلما دخل بابًا أغلقتْه دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام وبَاطِيَةُ خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليَّ، أو تشرب من هذه الخمرة كأسًا، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأسًا، فسقته كأسًا، قال: زِيدُوني، فلم يَرِمْ حتى وقع عليها وقتل النفس؛ فاجتنبوا الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليُوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه»**[1].

ثالثًا: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يضع عنهم القيود التي حددها الله سبحانه عقوبة لليهود، هذه القيود يرفعها الله تعالى عن أمة محمد ﷺ. والإصر والأغلال صفتان خاصتان باليهود في التكاليف الشاقة بهم.

---

(١) «سنن النسائي» (٨/ ٣١٥) وابن حبان برقم (٥٣٤٨) مرفوعًا من طريق عمر بن سعيد عن الزهري وقال الدارقطني في العلل (٣/ ٤١): الموقوف هو الصواب، وقال الألباني في صحيح «سنن النسائي» برقم (٥٢٣٦): صحيح موقوف.

ومن صفات هذا الدين: أنه سهل سمح لا إصر فيه ولا إغلال ولا تكاليف شاقة، كما كان عند اليهود:

فالنجاسة عند اليهود مثلًا كانت لا تزول من الثوب أو الجلد إلا إذا قطع مكانها.

والذنب عندهم يُكتب على باب البيت، والغنائم تحرق، والقصاص كان حتمًا على القاتل عمدًا أو خطأ، والعمل محرم في يوم السبت، وهكذا فإن مثل هذه الأمور رفعها الله سبحانه عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وأذهب عنهم ما كلف به اليهود من الأمور الشاقة، فيسَّر الله على هذه الأمة، ولم يؤاخذهم على الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، وما حدَّثوا به أنفسهم، وعلَّمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «**إن الله تجاوز لأمتي ما حدَّثت به أنفسُها ما لم تقل أو تعمل**»[١].

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**إن الله تعالى وَضَع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٢].

وفي نهاية الآية يبين الله سبحانه أن الذين آمنوا بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي نزل عليه هم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة، وأن الذين لا يؤمنون بهذا النبي الأمي ولم يتبعوا النور الذي أنزل معه هم الخاسرون لدنياهم وأخراهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨]

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ثم بيَّن الله سبحانه جزاء الذين يؤمنون بهذا النبي، ويتبعونه، ويعزرونه، ويوقرونه، وينصرونه، ويعملون بسنته في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بما وعد الله به

---

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٢٥٢٨، ٥٢٦٩، ٦٦٦٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧).

(٢) من حديث ابن عباس في «سنن ابن ماجه» برقم (٢٠٤٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤) وفي مشكاة المصابيح (٦٢٨٤) والروض النضير (٤٠٤) وإرواء الغليل (٨٢).

عباده المؤمنين، وهذه رسالة يبلغها الله لبني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام.

ويؤخذ من هذه الآية والتي قبلها أن **الرحمة نوعان**:

١- **رحمة عامة**: وسعت كل شيء في العالمين، مبذولة لكل مخلوق، وهي صفة قديمة أزلية لله عز وجل، يقوم بها أمر العالم، ولولاها لهلك كل كافر وعاص عقب كفره، وفسقه وفجوره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

٢- **رحمة خاصة**: أوجبها الله تعالى على نفسه فضلًا منه وكرمًا، وأثبتها بمشيئته تعالى لمن توافرت فيهم **أربع صفات** وهي:

أولًا: الذين يتقون كل ما يغضب الله تعالى من الشرك والكفر والمعاصي والتمرد على رسل الله تعالى.

ثانيًا: الذين يُخرجون الزكاة من أموالهم، وليس في قلوبهم شحٌ بالمال، ولا فتنة بالدنيا.

ثالثًا: الذين يصدقون بآيات الله الدالة على وحدانيته تعالى وصدق رسله.

رابعًا: الذين يؤمنون بخاتم الرسل، وأنه رسول الله للعالمين، ولا نبي بعده، وأن الإيمان به واجب على أهل كل شريعة سابقة.

عَالَمِيَّةُ الدَّعْوَةِ

١٥٨- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

ثم يأتي بلاغ آخر من الله تعالى في وقت مبكر برسالة مَن يحمل راية الدعوة إلى الناس كافة، وحتى يوم القيامة بعد رسالة عيسى عليه السلام، التي لم تستغرق أكثر من ثلاث سنوات يحكم فيها بشريعة من سبق ، وفيها إخبار لنبيه موسى ﷺ أن يأتي محمد ﷺ وَفْق وعد الله سبحانه لرسله في الميثاق الذي أخذه عليهم، ووفق علمه بالخبر اليقين. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ العربي والعجمي، أهل الكتاب وغيرهم.

كأن الله سبحانه يأمر موسى أن يقول لبني إسرائيل: أنا نبي لكم مؤقت، محدود بزمان ومكان، وعيسى الذي يأتي من بعدي نبي مؤقت، تنسخ رسالته كذلك بمجيء النبي الخاتم.

ويصح أن تكون هذه الآية موجهة إلى النبي ﷺ -على ما يرى بعض المفسرين- من أن الله تعالى أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يقول للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعًا، لا إلى بعضكم دون بعض، ولا إلى العرب دون غيرهم، ولا إلى أهل الجزيرة دون اليهود والنصارى والوثنيين واللادينيين وغيرهم، بل أنا رسول الله إلى الناس كافة.

قال أبو الدرداء: كان بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبًا، فاتَّبعه أبو بكر فسأله أن يستغفر له فلم يفعل، حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلَّم وجلس إلى النبي ﷺ وقص الخبر، فغضب رسول الله ﷺ فقال: **«هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ إني قلتُ: يأيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعًا، فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدقت»**[1].

وهو سبحانه له ملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، لا رب غيره ولا معبود سواه، وهو الذي يحي ويميت، وقد جعل الموت معبرًا يوصل إلى دار البقاء، ولا ينبغي أن تكون الألوهية والعبادة إلا لله جل ثناؤه، فهو القادر على إيجاد الخلق وفنائه وبعثه، يتصرف في هذا الكون بسلطانه وأحكامه الشرعية والدنيوية، ومنها أنه أرسل لكم رسولا يدعوكم إلى التوحيد ويحذركم من الشرك.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ الذي سبق الكلام عنه، وكان فيهم من يؤمن بالله، ومنهم من لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالنبي الأمي، ولهذا جُمع الإيمان بالله والإيمان بالنبي الأمي في طلب واحد؛ ليكون هذا الطلب موجهًا إلى جميع الفرق.

وقد وصف الله هذا النبي بأنه يؤمن بالله ويؤمن بكلماته، وعيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، قد خلقه الله بكلمة ﴿كُن﴾ على غير سبب معتاد، فكان نبيًا ورسولًا، وكلمات الله أيضًا وهي وحيُه وكتبه إلى الرسل كافة، ومحمد ﷺ يؤمن بكل هذا ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ ثم أمرهم باتباعه، ورتب عليها الهداية والفوز والفلاح.

---

(١) البخاري (٣٦٦١، ٤٦٤٠).

قلت: إن هذه الآية في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وعن نبي الله موسى عليه السلام، فوَصْل المعنى بما قبله وما بعده أَوْلَى من قطعه، فلعلها مما أخبر الله به موسى وبني إسرائيل عن النبي الخاتم الذي سيأتي فيما بعد، وهذا هو ما تقرره الآية التي قبلها كذلك.

والأدلة متضافرة على عموم بعثة النبي ﷺ إلى عموم الخلق:

١- كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]

٢- وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]

٣- وقال جل شأنه ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان]

٤- وقال أيضًا ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]

٥- وقال سبحانه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]

٦- وقال ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

ومن الأحاديث في هذا المقام ما جاء:

١- عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجل من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»**[(١)].

٢- وفي لفظ له رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من سمع بي من أمتي، و يهودي، أو نصراني فلم يؤمن بي، لم يدخل الجنة»**[(٢)] وفي لفظ **«دخل النار»**[(٣)].

---

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٣٤) برقم (١٥٣) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٢٤١) وأخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٠) عن أبي هريرة برقم (٨٢٠٣، ٨٦٠٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وهو عند البغوي (٥٦) وأبي عوانه (١/ ١٠٤).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٩٦) برقم (١٩٥٣٦)، قال محققوه: صحيح لغيره، لانقطاع السند بين سعيد بن جبير، وأبي موسى الأشعري، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٥٠٩) والبزار في مسنده (١٦) زوائد، والنسائي في الكبرى (١١٢٤١) وابن حبان (٤٨٨٠).

(٣) عن أبي موسى أيضًا في «المسند» (١٩٥٦٢)، قال محققوه: حديث صحيح لغيره.

٣- وفي حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: **«أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»**[١].

ومجيء هذه الآية في عموم رسالة محمد ﷺ للرد على العيسوية، وهم فرقة من اليهود يتبعون أبا عيسى الأصفهاني اليهودي، القائل بأن محمدًا رسول إلى العرب خاصة لا إلى بني إسرائيل؛ ولذا: لما قال النبي ﷺ لابن صياد اليهودي: **«أتشهد أني رسول الله؟»** قال ابن صياد: أشهد أنك رسول الأميين.

هذا: واليهود فريقان: فريق يزعم أن شريعة موسى لا تنسخ بغيرها، وفريق يزعم أنها لا تنسخ عن بني إسرائيل، ويجوز أن يبعث رسول لغير بني إسرائيل[٢].

فأراد الله سبحانه أن يذكِّر اليهود الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ وزعموا أنه لا رسول بعد موسى، أنه خالق هذا الكون من العدم، وكما أحياهم وأماتهم؛ فإنه سبحانه يحيي شريعة ويميت شريعة، فوجب عليكم الإيمان بهذا النبي الأمي الذي ختم الله به الأنبياء والمرسلين.

ثم ختم الله هذا السياق بأنْ حَصَر الفلاح في الآخرة لمن آمنوا، فصدقوا بالله، وأقروا بوحدانيته، وصدَّقوا برسوله محمد ﷺ النبي الأمي، الذي يؤمن بالله، وما أنزل إليه من ربه، وما أُنزِل على النبيين من قبله، اتبعوا هذا الرسول، والتزموا العمل بما أمركم به من طاعة الله، رجاء أن توفقوا إلى الطريق المستقيم.

وقد وصف الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ في هاتين الآيتين **بسبعة أوصاف**:

الوصف الأول: أنه رسول الله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا.

الوصف الثاني: أنه نبي أوحى الله إليه بشريعة عامة تُصلح الزمان والمكان إلى يوم القيامة.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢) و«صحيح مسلم» برقم (٥٢١) ونحوه في «المسند» عن أبي موسى (٤/ ٤١٦) برقم (٤٢٦٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (٩/ ١٤٠).

الوصف الثالث: أنه نبي أمي، لم يقرأ ولم يكتب، ولم يجلس إلى معلم، ولا أخذ علمه عن أحد ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ قال قتادة: هو نبيكم كان أميًّا لا يكتب[1].

فالأمي: هو الذي لا يكتب، عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسُبُ، وإن الشهر كذا وكذا**»، وضرب بيده ست مرات وقبض واحدة[2].

الوصف الرابع: أن اسمه ونعته مكتوب في التوراة والإنجيل؛ مما يوجب الإيمان به عند بعثته ﷺ، ولكنهم كفروا به حسدًا وبغيًا وعنادًا.

الوصف الخامس: أن هذا النبي الأمي يأمر بالمعروف ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وينهى عن المنكر ومساوئ الأخلاق وأراذلها.

الوصف السادس: أن هذا النبي العربي يحل الطيبات التي حرمها الله على اليهود؛ كالشحوم ولحم كل ذي ظفر، ولحوم الإبل وألبانها، ويحرم عليهم الخبائث؛ كالربا وأكل أموال الناس بالباطل.

الوصف السابع: أنه يرفع عن الأمة كل ما يُثقِّل كاهلها من التشريع في العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب وكل ما يشق عليها.

مِنْ عَظَمَةِ الإِسْلَامِ؛ إِنْصَافُ غَيْرِ المُسْلِمِينَ

١٥٩- ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٥٩﴾

ولَمَّا ذكر سبحانه جملة من معايب اليهود التي تناقض الهداية وتنافي الكمال، ذكر في هذه الآية أن هذا الحكم لا يشمل الجميع، فإن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية، وهم من دخل منهم في الإسلام، فقد بيَّن ﷻ أن بني إسرائيل لم يكونوا كلهم ضالين، بل كان منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، وهذه الطائفة جماعة قليلة، يَهْدُون الناس في تعليمهم إياهم، وفتواهم لهم، ويعدلون في حكمهم بين الناس، قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ

---

(١) ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٨١).

(٢) البخاري (١٩١٣) ومسلم (١٥/ ١٠٨٠) وابن أبي شيبة (٣/ ٨٥) وأبو داود (٢٣١٩) والنسائي (٢١٣٩، ٢١٤٠) وفي «الكبرى» (٥٨٨٤).

أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وفي هذا منقبة لأمة موسى عليه السلام.

وجاز إطلاق لفظ ﴿أُمَّةٌ﴾ عليهم لإخلاصهم في دينهم، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]

وبيَّن جلَّ شأنه أن من بين الأمم أمة ليس فيها هذا التقسيم، بل هي بأكملها تتبع الحق وتعدل به ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف] وهي أمة محمد ﷺ.

وهذه الآية تبيِّن عظمة الإسلام في الحكم على غير المسلمين بما لهم وما عليهم من صفات وسيئات: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ أي: ومن بني إسرائيل من قوم موسى جماعة يستقيمون على الحق، ويهدون الناس به، ويعدلون به في الحكم في قضاياهم؛ فلا يجورون ولا يرتشون، على عُتُوّ بني إسرائيل وفسادهم بوجه عام.

١- كما قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ﴾ [آل عمران: ١٩٩]

٣- وقال جل شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ [القصص]

٤- وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] فهي تنطبق على اليهود من بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، وأنه قد كان منهم فرقة أو طائفة كما وَصَفَهم رب العالمين، يهدون بالحق ويعدلون في الحكم بين الناس.

ولما جاءت رسالة عيسى عليه السلام، كان منهم من آمن به، واستقبل رسالة محمد ﷺ بالقبول والإيمان، وعرفه يقينًا، كما بشَّرت به التوراة والإنجيل من أنه النبي الخاتم، فآمن به واتبعه، وتَرَكَ اليهودية التي نُسخت قبل رسالة عيسى عليه السلام، كعبد الله بن سلام وغيره، أو تَرَكَ النصرانية ديانته، وآمن بمحمد ﷺ كبعض النصارى الذين أسلموا في كل زمان ومكان، سواء على يد رسول الله ﷺ أو بعده، فهؤلاء هم الذين تنطبق عليهم هذه

الآية الكريمة، فيجوز أن يراد بهم كل من آمن بمحمد ﷺ، من بني إسرائيل، بعد إيمانه بموسى في عهده وعيسى في عهده، وعلى هذا فالمراد بهذه الأمة في الآية: أناس كانوا على خير وصلاح في عهد موسى مخالفين لغيرهم من السفهاء، أو المراد بها: من آمن بمحمد ﷺ عند بعثته.

فالآية تخصيص لعموم قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ لئلا يُتوهم أن قوم موسى كلهم عبدوا العجل.

وقوم موسى هم أتباع دينه قبل بعثة عيسى ﷺ وقبل بعثة محمد ﷺ.

فالمتمسك بدين موسى بعد بلوغه دعوة الإسلام، ليس من قوم موسى، بل هو من أمة الدعوة التي يُطلب منها الدخول فيها.

وقد بينت هذه الآية أن كل أمة من الأمم لا تخلو من أهل الحق والعدل.

وتشير آيات القرآن إلى أن أهل الكتاب:

١- منهم من آمن بالنبي ﷺ عند بعثته، فأثنى الله عليهم قبل الإيمان بمحمد ﷺ وبعد الإيمان به في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص]

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء] وبيَّن سبحانه وتعالى أنهم يؤتون أجرهم مرتين، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ القصص: ٥٤].

٢- ومنهم من كان مستقيمًا على دعوة موسى أو دعوة عيسى، ولم يدرك النبي الذي يلي أمته، كما في هذه الآية التي نحن بصددها ممن أثنى عليهم ربهم.

٣- ومنهم من أدرك الإسلام ولم يؤمن به، وظل على ديانته المنسوخة.

والقرآن قد أنصف الجميع، وبيَّن أحوالهم ولم يبخسهم شيئًا.

اللَّهُ تَعَالَى يَمْتَنُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعَمٍ أَرْبَعٍ

١٦٠- ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا

عَلَيْهِمُ(١) ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ(٢) ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه بعض النعم والمنن التي امتن الله بها على بني إسرائيل، كما هي مذكورة في الربع الثالث من سورة البقرة، وذكر منها هنا **أربع**:

١ - يبدؤها جلَّ شأنه بأنه وزَّع بني إسرائيل في الأرض، وجعلهم مشتتين فيها فِرَقًا وأحزابًا، فهم مُفرَّقون في أرجاء الأرض، عقوبة لهم على مخالفة نبيهم في عدم دخول الأرض المقدسة، وتعدّ هذه العقوبة نعمة، لأن الله تعالى لم يهلكهم عن آخرهم، فهو تقطيع محمود، وهذا يشير إلى عدم وجود الوطن الثابت، والمأوى المتكامل لليهود، وهذا معنى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي: قسَّمنا بني إسرائيل من قوم موسى، وجعلناهم اثنتي عشرة قبيلة بعدد الأسباط، **والأسباط**: أولاد يعقوب ﷺ الاثنا عشر، كل ولد كان منه فرقة أو عشيرة كالقبيلة، وكل قبيلة معروفة من جهة نقيبها.

والسبط من ولد إسحاق كالقبيلة من ولد إسماعيل، **والسبط**: وَلَدُ الْوَلَد، فهو الحفيد، وهذا التقسيم ليس فيه ذم لهم، بل هو من محاسن شريعتهم، وَمِنَّةٌ أنعم الله عليهم بها، وهذا التقسيم كان بعد اجتيازهم البحر الأحمر، وقبل انفجار العيون، ولم يقسَّموا إلى عشائر وهم في مصر.

وقد حدث هذا التقسيم في السنة الثانية بعد خروجهم من أرض مصر؛ حيث أمر الله تعالى موسى أن يخص بني إسرائيل، فجمعهم وجعلهم عشائر منتسبين إلى آبائهم، ووضع لهم رؤساء على كل عشيرة من العشائر الاثني عشر نقيبًا.

٢ - ثم يَذْكُر الله سبحانه النعمة الثانية على بني إسرائيل، وذلك أنهم حينما كانوا في صحراء سيناء، مع موسى وهارون عليهما السلام وهم يسيرون في التِّيه، فاشتد بهم العطش وكادوا أن يهلكوا، فطلبوا الماء، فسأل موسى ربه الماء ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ أي: طلبوا منه السقيا حين عطشوا في التِّيه ليشربوا وتشرب مواشيهم،

(١) ،(٢) كسر الهاء والميم من (عليهِمِ الغمام) و (عليهِمِ المن) أبو عمرو، وضمهما معًا حمزة والكسائي ويعقوب وخلف، وكسر الهاء وضم الميم الباقون.

حيث إن الماء يقل وجوده في الصحراء ، فأوحى الله إلى موسى إجابة لطلبهم: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ وكان هارون ﷺ يحمل معه حجرًا مربعًا في أسفاره يتنقل معه، فضرب موسى هذا الحجر بعصاه، فانفجرت منه المياه بكثرة، وأخذ يتدفق منه اثنتا عشرة عينًا من الماء، بعدد الأسباط، وهذا معنى ﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ .

و(أل) في ﴿الْحَجَرَ﴾ يحتمل أن تكون للعهد، فيكون المراد: حجرًا معروفًا معينًا، ويحتمل أن تكون للجنس، فيكون المراد: أي حجر من حجارة الأرض. **والانبجاس**: خروج الماء من مكان ضيق بقلة، والانفجار: خروجه بكثرة، والماء ينبجس أولًا، ثم ينفجر ثانيًا؛ حيث يبدأ ضعيفًا، ثم يتدفق.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي: علمت كل عشيرة أو قبيلة من القبائل الاثنتي عشرة أن لها عينًا في الحجر؛ حتى لا تدخل قبيلة على غيرها، ولا يتقاتلون على الماء، فعرف كل منهم عين الماء الخاصة به، فاطمأنوا واستراحوا من التعب والمزاحمة والمخاصمة، وهذا من تمام نعمة الله تعالى عليهم.

وهكذا أخرج الله لهم الماء أمام أعينهم من الحجر، وفجَّره الله لموسى ﷺ.

٣ - ثم اشتد عليهم حر الشمس في صحراء سيناء، وطلبوا من موسى ﷺ شيئًا يقيهم من حرارة الشمس، فأرسل الله عليهم سحابة تظلهم ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ هو السحاب يسير معهم أينما ساروا يقيهم، ويحفظهم من حر الشمس.

٤ - ثم فقدوا الطعام الذي في أيديهم وهم في التِّيه، فطلبوا من موسى ﷺ طعامًا، فأرسل الله لهم أشهى الأطعمة: العسل والحمام ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾.

وهكذا: جمع الله لهم بين الظلال والشراب والطعام الشهي من الحلوى واللحوم.

والمن: مادة تشبه الصمغ، طعمه كالعسل، أرسله الله سبحانه عليهم، وجعله ينبت كالطَّلِّ فوق أوراق الشجر، ويقطفونه بأيديهم.

ثم أرسل الله عليهم **السلوى**: وهو طير يشبه الطير السماني كالحمام، وكان يغطي وجه الأرض من كثرته، فكانوا يأكلون العسل، ويأكلون اللحم بفضل الله ﷻ عليهم، وقال الله لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وهكذا كان أحدهم ينظر إلى الطير فإن كان سمينًا

ذبحه، وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام، فأين الشراب؟ فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، فشرب كل سبط من عين.

فقالوا: هذا الشراب فأين الظل، فظلل الله عليهم الغمام.

فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتمزق لهم ثوب(١).

فهل شكَر بنو إسرائيل ربهم على ما حباهم به من هذه النعم؛ طعام وشراب، ولباس وظلال من غير جهد ولا تعب؟

وشأن الإنسان المتمرد الجاحد عندما يألف النعمة ويتعودها أن يملَّها ويتطلع إلى غيرها، وهكذا كان بنو إسرائيل، فقد استبدلوا الأدنى بالأعلى، والمفضول بالأفضل، فقالوا لموسى: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وطلبوا أنواع الحبوب والبقول والخضار والفاكهة ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ وعنَّفهم الله تعالى على طلبهم الأدنى، وتمردهم على الأعلى ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] وأجابه الله تعالى إلى مطلبهم بأنه متوفر في سائر الأمصار والأسواق.

وبسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وعصيانهم وعدوانهم، ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله.

وقد ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ حين لم يشكر بنو إسرائيل ربهم على نعمه عليهم، ولم يقوموا بما أوجبه الله عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حين فوَّتوا عليها كل خير، وعرَّضوها للشر والنقمة، وقد كانت هذه الأحداث مدة إقامة بني إسرائيل في التيه.

والآية الستون من سورة البقرة نظير هذه الآية، ولكنها مدنية، وهذه الآية مكية.

أَرْبَعَةُ مَرَاسِمَ لِدُخُولِ أَرْضِ الْجَبَّارِينَ

١٦١- ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٩٧).

وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ[١] خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ[٢] سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾

بعد فترة التِّيه مات موسى وهارون، ودخل بهم يوشع بن نون بيت المقدس، وأمرهم الله - سبحانه - أن يدخلوا بيت المقدس ساجدين شكرًا لله جلَّ شأنه، وهو إشعار بالتواضع في حالة النصر.

كما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح ساجدًا على ظهر دابته شكرًا لله سبحانه، وبعد دُخوله مكة اغتسل وصلَّى ثماني ركعات سماها بعض الفقهاء: صلاة الفتح، واستحب العلماء لمن فتح بلدًا أن يفعل ذلك، كما فعل سعد بن أبي وقاص لما دخل إيوان كسرى:

١- وهكذا أمر الله بني إسرائيل أن يدخلوا قرية بيت المقدس، ويسكنوها.

٢- ويأكلوا من ثمارها وحبوبها ونباتها أين شاؤوا، ومتى شاؤوا.

٣- ويسألوا الله تعالى المغفرة، ويقولوا حُطَّت عنا ذنوبنا ونسأل الله أن يتوب علينا.

وهكذا أمرهم ربهم بالخضوع وسؤال المغفرة، ووعدهم الله على ذلك مغفرة الذنوب والثواب العاجل والآجل، وسيزيد الله المحسنين من خير الدنيا والآخرة.

٤- وحين دخولهم قرية أريحا وهي قرية الجبارين العمالقة أُمِروا أن يدخلوها ساجدين زاحفين على مقاعدهم مع رفع رؤوسهم، حتى يعلنوا عن توبة مَن عبدوا العجل من دون الله، ومن قولهم لموسى: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾.

هذه أربعة أوامر الٰهية، أمر الله بها بني إسرائيل أن يفعلوها حين دخولهم بيت المقدس، ولكن اليهود لم يمتثلوا لواحد من هذه الأربعة، بل خالفوا وغيّروا وبدّلوا، فعاقبهم الله على عصيانهم بالعذاب الأليم.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (تُغفر لكم) بتاء التأنيث والبناء للمفعول، وقرأ الباقون بالنون والبناء للفاعل.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (خطيئاتُكم) بالجمع ورفع التاء على أنها نائب فاعل، وقرأ ابن عامر (خطيئتُكم) بالإفراد ورفع التاء على أنها نائب فاعل لتغفر أيضًا، وقرأ أبو عمرو (خطاياكم) جمع تكسير على أنها مفعول به لنغفر، وقرأ الباقون (خطيئاتِكم) بجمع السلامة ونصب التاء بالكسرة، مفعول به.

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة، فبدَّلوا ودخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شَعَرَة**»[1].

مُخَالَفَاتُ اليَهُودِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عِنْدَ دُخُولِهِمُ الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ

١٦٢- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

فماذا كان من اليهود؟ كيف قابلوا هذه النعم؟ وبماذا أجابوا ربهم على أوامره الأربعة لهم؟ بيَّن سبحانه أن القوم بدل أن يشكروا الله سبحانه، وبدل أن يدخلوا القرية ساجدين معلنين عن توبتهم كما أُمِروا، استخفوا بموسى فيما بينهم، وسخروا منه، ودخلوا القرية يزحفون على مقاعدهم وأدبارهم.

وبدل أن يقولوا: حطة، أي: حَطَّ الله عنا ذنوبنا، ويسألوه قبول التوبة والمغفرة، سخروا من ذلك وقالوا: حنطة أو حبة في شعرة على سبيل الاستهزاء.

فلما عَصوُا الله واستهانوا بأمره، فبدّلوا قوله وما أمرهم بفعله، أرسل الله عليهم عذابًا شديدًا، وما ظلمهم الله بعقابه لهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالخروج عن طاعته.

اثنا عشر فرقًا بين آيتي البقرة ٥٨، ٥٩ والأعراف ١٦١ و١٦٢:

وهذه الآيات التي هنا مكية، وهي في سورة (البقرة) مدنية، وبين السياقين **اثنا عشر فَرْقًا**:

١ - في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بإسناد القول إلى الله تعالى؛ لأنه قُصِد به التوبيخ، وقال هنا: ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ بإسناده للمجهول؛ لظهور أن هذا القول لا يصدر إلا من الله تعالى.

٢ - وفي سورة البقرة: ﴿قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟﴾ وهنا ﴿قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟﴾ بزيادة ﴿لَهُمْ﴾ .

زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

---

(١) أخرجه البخاري، باب: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية برقم (٣٤٠٤، ٤٤٧٩، ٤٦٤١) ومسلم (٣٠١٥) و«المسند» (٨٢٣٠) إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الترمذي (٢٩٥٦) وابن حبان (٦٢٥١) والطبراني في تفسيره (١/ ٣٠٣).

٣ - في سورة البقرة: ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ وقال هنا: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾.

لأن الدخول يكون قبل السكنى، فكل ساكن لا بد له من الدخول أولًا، وتغيير أسلوب القصة في السورتين؛ لتجديد نشاط السامع.

٤ - ولذا فقد جاء بعدها ﴿وَكُلُواْ﴾ بالواو؛ لأن السكنى حالة استمرار، فالأكل يكون متى شاء الساكن، أما في سورة البقرة فقال: ﴿فَكُلُواْ﴾ بالفاء؛ لأن السفر والدخول يقتضي الأكل عقبه مباشرة. وآية سورة البقرة سيقت في مقام الامتنان، وآية سورة الأعراف سيقت في مقام أخذ العبرة.

٥ - وقال هناك: ﴿رَغَدًا﴾؛ لأن الحاجة بعد السفر والدخول إلى الطعام تكون أكثر، ولأن السياق في مقام الامتنان بإعطاء نعم أكثر، ولم يقل هناك ﴿رَغَدًا﴾؛ لأن السكنى والإقامة لا تكون محل حاجة شديدة للطعام، ولأن السياق في مقام الاعتبار.

٦ - وقال في سورة البقرة: ﴿خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ وقال هنا: ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾ إشارة إلى أن قليل الذنوب أو كثيرها يغفره الله تعالى عند التوبة والتضرع إليه بالدعاء.

٧ - وفي سورة البقرة: زاد واوًا في ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ عن سورة الأعراف؛ لأن زيادة الواو فيه وَعْدٌ بالمغفرة، وزيادة المحسنين بالثواب، ولأن الواو لحكاية الأقوال، وحذفها استئناف، يقدر بعده الغفران والزيادة أيضًا.

٨ - وفي سورة البقرة: ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾ وقال هنا: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾؛ لأن الإرسال يُشْعِر بكثرة الإنزال، فكأنه بدأ بالإنزال ثم جعله كثيرًا.

٩ - وجاء في سورة البقرة: ﴿ظَلَمُواْ﴾ وقال هنا: ﴿ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ بزيادة منهم.

١٠ - وفي سورة البقرة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لأنها سيقت في مقام التوبيخ، فناسب الترهيب بها، وقال هنا: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ إشارة إلى أن الظلم لم يقع من الجميع.

١١ - أما وَصْفُهم في سورة البقرة بالفسق، ووَصْفُهم هنا بالظلم فلحصول الأمرين منهم.

ولأن الفسق أعم من الظلم، خُتمت به آية سورة البقرة تأكيدًا لوصفهم بالظلم، واستثقالًا لإعادة لفظ الظلم في قوله: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أما في سورة الأعراف

فقال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ وليس فيها إعادة للفظ.

١٢ - أما ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ فعلى التقديم في البقرة، والتأخير هنا لمجرد التفنن في العبارة.

والمعنى: فغيَّر الذين كفروا منهم ما أمرهم الله به من القول والفعل وقالوا كلامًا لا يليق بجلاله تعالى، فأرسل الله عذابًا عليهم من السماء، وأهلكهم بسبب ظلمهم وعصيانهم.

قِصَّةُ أَصْحَابِ السَّبْتِ

١٦٣ - ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ[1] عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ[2] حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾

ثم تذكر الآيات موقفًا آخر من مواقف المعاصي والتمرد لليهود، وهو موقف أصحاب السبت.

ذلكم: أن اليهود طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل الله لهم يومًا يخصصونه للعبادة، ويستريحون فيه من العمل؛ كصيد السمك، ونحوه من أمور المعيشة، فجعل الله لهم يوم السبت، ونُهوا عن العمل فيه وَفْق طلبهم، ثم ابتلاهم الله بقرية قريبة من ساحل البحر، وهي من قرى بيت المقدس، كانت تطفو وتظهر فيها الحيتان والأسماك بكثرة فوق سطح الماء يوم السبت ابتلاء لهم، فيحتالون في الصيد بحجز السمك في أحواض أو شبك لإمساكه يوم الأحد.

وقصة الصيد في يوم السبت يرويها أحبار اليهود، وهي غير موجودة في كتبهم، والأمر بسؤالهم فيه إشعار لليهود المعاصرين للنبي ﷺ، ومن أتى بعدهم بأن الله تعالى قد أطلع نبيَّه على ما كتموه وحذفوه من كتبهم.

وقيل: إن هذه القصة كانت في عهد داود عليه السلام، أما العمل في يوم السبت فهو محرم من عهد موسى عليه السلام.

---

(١) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة همزة (واسألهم) إلى السين قبلها مع حذف الهمزة في حالتي الوصل والوقف، ووافقهم حمزة عند الوقف عليها، والباقون بعدم النقل.

(٢) أبدل همزة (تأتيهم) ألفا يعقوب، وحققها غيره.

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ وهي قرية العقبة على ساحل البحر الأحمر في حدود مصر، قرب سيناء، وتسمى قديمًا (أيلة) وهي متصلة بخليج من البحر يسمى خليج العقبة وهي القرية ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ اسأل - يا محمد - اليهود في عصرك وعصر دعوتك سؤال توبيخ وتقرير، عن خبر أهل القرية التي كانت بقرب البحر الأحمر، حين كان يعتدي أهلها على حرمات الله بالاحتيال على الصيد فيه، وقد أمرهم الله تعالى أن يعظموه في يوم السبت ولا يصطادوا فيه، فكانت الحيتان تأتي كثيرة في يوم السبت طافية على وجه البحر، وإذا ذهب يوم السبت تذهب الحيتان ولا يرَوْن منها شيئًا.

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يعتدون بالصيد فيه، مخالفين نَهْيَ الله لهم، وكان الله قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه، ولا يعملوا فيه عملًا، ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم الله ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: طافية يوم السبت فوق سطح الماء﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: في غير يوم السبت حيث لا يحرم العمل في بقية الأسبوع ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: لا تظهر الحيتان لهم، حيث تذهب في البحر فلا يرونها، فزيَّن لهم الشيطان أن يتخذوا حياضًا يسوقون إليها الحيتان في يوم الجمعة فتبقى فيها، ولا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيها، ثم يأخذونها في يوم الأحد، احتيالًا عن صيدها يوم السبت.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: وكما وصفنا اليهود في هذا الاختبار والابتلاء بإظهار السمك طافيًا على وجه الماء في اليوم المحرم عليهم صيده فيه، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل لهم صيده فيه، كذلك نختبرهم بسبب فسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، ولو لم يفسُقوا لعافاهم الله، ولَمَا عرَّضهم للبلاء، قال تعالى مبينًا مواقف سائر الفرق اليهودية من هذه القضية فقال:

١٦٤- ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً[1] إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

فماذا كان موقف اليهود تجاه هذا الابتلاء؟ وماذا كان موقفهم من أوامر الله تعالى، وأوامر رسوله موسى لهم؟

---

(١) قرأ حفص بنصب تاء (معذرةً) على أنها مفعول لأجله، وقرأ الباقون برفعها على أنها خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذه معذرة.

١- لقد اعتدتْ منهم فرقة واحتالوا على النصوص، فلم يصطادوا في يوم السبت، وإنما كانوا يضعون للحيتان أحواضًا وحواجز تمنعها من الحركة حتى تبقيها في مكان معين، فيحفرون لها حفائر يوم الجمعة، فإذا جاء يوم الأحد اصطادوها، فتجاوزوا بذلك حدود الله عن تعمد وإصرار.

٢- ونهتْهُم فرقة أخرى عن المنكر، وقالوا لهم: كيف تعتدون في السبت، وتخالفون أمر الله - سبحانه -، فنصحوهم عن تعدِّيهم وفسقهم بالصيد يوم السبت؟

٣- وفرقة ثالثة سكتتْ سكوتًا سلبيًّا، ويئسوا من إصلاح المعتدين في السبت، وقالوا للناهين عن المنكر منهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ في الدنيا بمعصيتهم إياه ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة، كأنهم يقولون: لا فائدة فيمن تجرأ على ما حرم الله، فلم يقبل النصيحة، واستمر في عصيانه، إذ لابد من عقابه.

قال الذين كانوا ينهون غيرهم عن المعصية: كي نُعْذَر عند الله سبحانه؛ حيث نكون قد بلَّغنا وقمنا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولعلهم يخافون الله، وينتهون عما هم فيه، ويتوبون إليه، فهؤلاء قد عللوا نصحهم لهم **بأمرين**:

أحدهما: الاعتذار إلى الله تعالى عن التقصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وثانيهما: الأمل في إصلاح المعتدين بالصيد في يوم السبت، وانتفاعهم بالموعظة؛ كي ينجوا من العقوبة.

وعلى هذا فإن صلحاء القوم كانوا **فريقين**:

١- فريقًا يئس من نجاح الموعظة، وتحقق الوعيد للمخالفين.

٢- وفريقًا لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة مع تكرارها.

فأنكر الفريق الأول على الثاني استمرارهم في الموعظة، واعتذر الفريق الثاني عن الإقلاع عن الموعظة واستمروا فيها.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا**

محارم الله بأدنى الحيل»[١]. قال تعالى مبينًا عقوبة الطائفة المعتدية:

١٦٥- ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ[٢] **بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾**

ثم فصَّل - سبحانه - ما عاقب به المعتدين في السبت من عذاب البؤس والشقاء والفقر في المعيشة: ﴿فَلَمَّآ﴾ لم يعملوا بالنصيحة، ولم ينتهوا عن المنكر، واستمروا في غيهم، ولم يستجيبوا للوعظ والإرشاد، وهي الطائفة المعتدية يوم السبت، نجينا الذين ينهونهم عند الصيد في يوم السبت من عذاب الله، وهي الفرقة التي كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأخذنا الذين ظلموا أنفسهم بالاعتداء على حرمات الله بعذاب شديد بسبب خروجهم عن طاعة الله تعالى.

وهذه سنة الله في خلقه، أن العقوبة إذا نزلت بقوم نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

إذًا فأهل القرية كانوا على **ثلاث فرق**:

١ - فرقة اعتدت في يوم السبت بالصيد، وأصابت الخطيئة قصدًا واحتيالًا بنصب الشباك يوم الجمعة.

٢ - وفرقة نهت عن ذلك الفعل، وحذرت من عقاب الله، ولم ينقطع رجاؤهم في إصلاح القوم.

٣ - وفرقة أمسكت عن الصيد، وسكتت عن موعظة المعتدين، ولاموا الناهين على موعظة قوم لا يتعظون ولا ينزجرون.

---

(١) قال ابن كثير: هذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه، وبقية رجاله مشهورون ثقات، وهو في «تاريخ بغداد» (٩٨/٥) ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيرًا.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بكسر الباء وبعدها ياء مديَّة من غير همز في (بئيس) هكذا (بِيسٍ) على أنها صفة مشبهة، وقرأ ابن عامر بخلف عن هشام (بئس) بباء مكسورة وهمزة ساكنة من غير ياء، صفة مشبهة أيضًا، وقرأ شعبة في أحد وجهيه (بَيْئَسٍ) بباء مفتوحة بعدها ياء ساكنة، بعدها همزة مفتوحة، صفة على وزن (فيْعل)، وقرأ الباقون ومعهم شعبة في وجهه الثاني (بئيس) بباء مفتوحة بعد همزة مكسورة، بعدها ياء مديَّة، صفة على وزن (فعيل).

أما أهل الفرقة التي قالت للناهين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فالظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله تعالى خص الهلاك بالظالمين، ولم يأت وصف هذه الفرقة بالظلم في الآيات، ونصَّت الآيات على نجاة الذين ينهوْن عن المنكر، وسكتت عن هؤلاء، فدل هذا على نجاتهم أيضًا، وقد أبدَوْا غضبهم وشدّة كراهيتهم لفعل المعتدين، وذكروا أن الله تعالى سيعذبهم أشد العذاب، وهذا إنكار منهم عليهم:

روى عكرمة أن ابن عباس ﷺ قال: لا أدري ما فعلت الفرقة الساكتة؟ وجعل يبكي، قال عكرمة: جعلني الله فداك، ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وإن لم يقل الله: أنجيتنا، ولم يقل: أهلكتهم، قال: فأعجبه قولي، ورضي به، وأمر لي ببردين فكسانيهما، وقال: نجت الساكتة[١].

وهذه الآية أشد آية في عقوبة ترك النهي عن المنكر، ومنها حَرَّمَ العلماء الحيل لإسقاط الواجبات، أو انتهاك المحرمات، أما إن كانت للتوصل إلى فعل الواجبات والتخلص من الحرام فهو تحايل محمود. قال تعالى:

١٦٦- ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

أي: ولما لم يقبلوا النصح، وتحايلوا على انتهاك حرمات الله، وتجاوزوا الحدود في التعدي يوم السبت، كانت النتيجة أن الله - سبحانه - مسخ الفرقة المعتدية وجعلهم قردة وخنازير، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة] فمُسِخوا قردة وخنازير، وصاروا مبعدين من كل خير، وكلام القرآن صريح، لا يحتاج إلى تأويل.

قال المفسرون: إنهم بقوا قردة وخنازير ممسوخين مسخًا حقيقيًّا ثلاثة أيام، ثم أهلكهم الله - سبحانه -، وكان الناهون عن المنكر قد أقاموا جدارًا حاجزًا بينهم وبين المعتدين، فلما أصبحوا ولم يروهم، طلُّوا عليهم من فوق الجدار، فوجدوهم قد مسخوا، فكانوا يعرفون أقاربهم من الناهين عن المنكر وهم لا يعرفونهم؛ لأنهم صاروا قردة وخنازير وتغيرت أشكالهم.

---

(١) من تفسير للآية البغوي والخازن (١/ ٢٢٦).

وهذه صفحة من صفحات بعض اليهود قد طويت، وليس هناك عَقِب ولا نسل لمن مُسِخوا قردة وخنازير؛ لأن الله تعالى قد أماتهم بعد بضعة أيام، ولم يُبقِ لهم أثرًا.

اليَهُودُ شَعْبٌ بِلَا وَطَنٍ (حَقِيقَةٌ دِينِيَّةٌ تَارِيخِيَّةٌ)

١٦٧- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

ثم تأتي صفحة أخرى من صفحات اليهود، يؤكد الله - سبحانه - فيها بالقسم أنه جلَّ شأنه يُعْلِم إعلامًا صريحًا للناس جميعًا إلى يوم القيامة من يُهينهم ويُذلُّهم ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أعلم الخلق جميعًا، فأَمَرَ وكَتَبَ، وأكَّد وأقسم على أنه - جلَّ شأنه - ليبعثن على اليهود من يذيقهم سوء العذاب والإذلال إلى يوم القيامة، وقد أعلمهم الله بذلك وتوعدهم به، والآية تشير إلى أن هذا الوعيد متجدد متكرر.

والمسلم لا ينظر إلى الوقت الذي يعيشه فحسب، ولا إلى الظرف المعاصر له فقط، وإنما ينظر إلى التاريخ ككل على أن العصر الذي نَعيشه حقبة من الزمن وفترة منه، ولم تنتهِ الدنيا بانتهاء عصرنا هذا، أو وقتنا الذي نحياه، والمتأمل في التاريخ يجد صدق قول الله سبحانه: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ﴾ فيذلهم ويخزيهم وينكِّل بهم، وقد جاء تفصيل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤- ٨] إلى آخر الآيات؛ حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي: وإن عدتم إلى الإفساد في الأرض، عدنا لنسلط عليكم من يسومونكم سوء العذاب، وهذا أمر مستمر متجدد إلى قيام الساعة، وقد سلط الله عليهم (بُخْتنصَّر) فأبادهم، وأهلك الكثير منهم وقتلهم وشرَّدهم.

وقد ضرب الله عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله، وحبل من الناس:

وحبل الله: هو الدخول في الإسلام، فكل من يدخل منهم في الإسلام، فهو في مأمن من هذه الذلة والمسكنة، وهذا هو الحبل الأول.

والحبل الثاني: حين يدخلون في حمى دولة قوية، وهذا هو حبل الناس، بأن يدخلوا في عهد دولة قوية تحمي بيضتهم، وهذا لن يدوم، فقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ:

«أن الساعة لن تقوم حتى يتقاتل اليهود والمسلمون إلى درجة أن اليهودي يختبئ وراء الحَجَر والشجر عدا شجر الغرقد، فهو من شجرهم، ويقول الشجر: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله».

وَوَعْدُ الله - سبحانه - على لسان رسوله ﷺ لا يتخلف، وقد فعل الله ما توعّدهم به في كتابه، فلا يزالون في ذل وإهانة ولا تقوم لهم راية، ولا يُنصر لهم علَم، وهم في خذلان ورعب وقلق مستمر، وإن تفوّقوا في السلاح والعتاد.

أمثلة لما حل باليهود من البأس الشديد على مدى التاريخ

١- والأسباط الاثنا عشر لليهود، لم يبقَ منهم إلا سبط ونصف السبط، وأُبيد منهم عشرة أسباط ونصف السبط في سبيْ البابليين الآشوريِّين لهم، ولذلك فإن عدد اليهود في وقتنا، هو هذا العدد الضئيل، الذي لا يتجاوز بضع ملايين في العالم، وذلك بسبب ما سلَّط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، ولو كانت الأسباط الاثنا عشر باقية، لكان عددهم الآن من الكثرة بحيث يفوق عدد النصارى والمسلمين.

٢- وبعد بُخْتنصَّر سلط الله عليهم النصارى (الروم)؛ فأذلُّوهم وفرضوا عليهم الجزية يدفعونها عن يد وهم صاغرون.

٣- وبعد النصارى سلط الله عليهم محمدًا ﷺ؛ فأخرجهم من الجزيرة وهم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢].

٤- وسلط الله عليهم في العصر الحديث (هتلر) فشرد الكثير وقتل الكثير منهم، واستباح بيضتهم.

٥- وهكذا سنة الله فيهم، فهي لعنة أبدية، نافذة في عمومها، فبين الحين والآخر يبعث الله عليهم من يذيقهم سوء العذاب، وكلما انتعشوا وانتفشوا جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله عليهم.

ونحسب أن اجتماعهم وتكتلهم في مكان واحد في عصرنا، هو بداية النهاية إن شاء

الله رب العالمين ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن استحقه؛ بسبب كفره ومعصيته، حتى إنه ليُعجِّل له العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ﴾ ذنوب التائبين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، يتقبل طاعاتهم ويثيبهم عليها.

ومن الأمثلة لبعض ما حلَّ باليهود من أولي البأس الشديد على مدى التاريخ:

١ - أن انقسمت مملكة سليمان عليه السلام بعد موته سنة ٩٧٥ ق.م إلى مملكة الشمال في نابلس من عشرة أسباط، ومملكة الجنوب في بيت المقدس (أورشليم) من سبطيْ يهوذا وبنيامين.

وفي سنة ٧٢١ ق.م انقض ملك آشور على مملكة الشمال، فقتل الآلاف منهم، وأسر البقية، وكانت نهاية مملكة الجنوب على يد (بختنصَّر) البابلي سنة ٥٨٦ ق.م.

٢ - وفي الفترة من ٥٣٦ - ٣٣٢ ق.م عادوا إلى فلسطين في ظل حكم الفرس، وفي سنة ٣٢٠ ق.م سار إليهم (بطليموس) خليفة الإسكندر المقدوني فهدَم القدس، ودكَّ أسوارها، وأسر منهم مئة ألف.

٣ - وفي سنة ٦٣ ق.م أغار الرومان على أورشليم فاحتلُّوها، واستمر احتلالهم حتى سنة ٦١٤م وخلال هذا الاحتلال تم تدمير أورشليم، وإحراق الهيكل، وقتْل الآلاف منهم.

٤ - وفي سنة ٢٠ ق.م وقَع اليهود تحت سيطرة السوريين؛ فأنزلوا بهم أشد العقوبات، وقتلوا منهم أربعين ألفًا في ثلاثة أيام، وباعوا عبيدًا منهم، ولم يفلت منهم إلا مَن هرب إلى قمم الجبال.

٥ - ثم سلط الله عليهم نبيه محمدًا ﷺ فأجلى بني النضير وبني قينقاع عن المدينة، وقتل بني قريظة، وأهدر دم كبارهم، كعبد الله بن الأشرف، وسلَّام بن أبي الحقيق، وكان من آخر ما قال ﷺ: **«أخرجوا اليهود من جزيرة العرب، لا يبقى في جزيرة العرب دينان»**[1].

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» باب إخراج اليهود (٣١٦٧) بمعناه و«صحيح مسلم» (١٧٦٥) بلفظ: «أخرجوا المشركين» (٣١٦٨) ويُنظَر: «الموطأ» برقم (٥٧١) من رواية أبي مصعب و«المسند» بلفظ (أخرجو يهود أهل الحجاز وأهل نجران) عن أبي عبيدة (١٦٩١، ١٦٩٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه).

٦ - وفي خلافة عمر ﷺ تم إخراج اليهود من جزيرة العرب[1].

٧- ثم هم في آخر الزمان يكونون أنصارًا للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ﷺ.

هذا: وقد فتحت بيت المقدس فتحًا إسلاميًّا، ولم يعد لليهود ولا للنصارى ولا لغيرهم راية ترفع في أي بلد من بلاد المسلمين بعد مجيء الإسلام.

والمسلمون في شتى أرجاء الأرض آثمون عاصون لربهم طالما بقي في أرض فلسطين حكم وسلطة لغير المسلمين، والإسلام له أحكامه المعروفة في معاملة أهل الذمة.

أما ما حلَّ باليهود على أيدي بعض الدول الأوربية، فقد كان منها في العصور المتأخرة ما يلي:

١- ففي بريطانيا في سنة ١٣٢٨م أصدر الملك إدوارد الأول أمرًا بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية في غضون ثلاثة أشهر، ولكن الشعب البريطاني لم يصبر على وجودهم هذه المدة، فأخذوا يقتلونهم بالعشرات والمئات، وأحرقوا منهم في قلعة بورك أكثر من خمس مئة يهودي، مما اضطر الملك إلى طردهم قبل انقضاء الأشهر الثلاثة، وخلت منهم بريطانيا لمدة ثلاثة قرون، ثم عادوا إليها سنة ١٦٥٦م بعد أن قدَّموا الأموال الطائلة لعودتهم في عهد كرومويل الطاغية.

٢- وفي فرنسا: في عهد (لويس التاسع) أصدر أمرًا بإلغاء ما لليهود على الفرنسيين من ديون، وأمر بإحراق كتبهم المقدسة، وخاصة التلمود.

وفي عهد (فليب الجميل) طُرِدوا من فرنسا نهائيًا، ثم عادوا إليها بعد أن دفعوا له ثلثي الديون التي لهم في فرنسا.

٣- وفي إيطاليا: أُطلِق عليهم الشعب المكروه، وأعملوا فيهم القتل والتشريد، وأصدر البابوات مراسيم تُكَفِّر اليهود، وتُسفِّه ديانتهم القائمة على التلمود، وأصدر البابا (جريجوري) أوامره بإحراقه، فأحرقت جميع نسخه.

وفي سنة ١٥٤٠م قتل الشعب الإيطالي الآلاف من اليهود.

٤- وفي إسبانيا: في عهد الملك (فرديناند) وصلت مَوْجة السخط على اليهود بسبب

---

(١) يُنظَر: «بنو إسرائيل في الكتاب والسنة» للشيخ محمد سيد طنطاوي (٢/ ٣٦٦) وما بعدها.

استيلائهم على اقتصاد البلاد فيها، وإثارة نار الخلافات الدينية بين الطوائف، مما اضطر الملك وزوجته إلى طردهم من إسبانيا نهائيًا.

وفي ٣١ مارس سنة ١٩٥٢، وبناء على تقرير محاكم التفتيش، قرر الملك نفي اليهود ذكورًا وإناثًا خارج حدود مملكته إلى الأبد في مدة أقصاها نصف شهر يوليو من نفس العام، على ألا يحاولوا العودة إلى البلاد في أي ظرف أو سبب.

٥- وفي روسيا: كان نصف يهود العالم تقريبًا يعيش فيها خلال القرن التاسع عشر، وفي عامي ١٨٨١، ١٨٨٢م أوقع الروس باليهود أبرز المذابح؛ بسبب نشاطهم فيها بفتح حانات الخمور، والتعامل بالربا، وقتل الكثير من أبناء الشعب الروسي، واستمر نشاطهم حتى تم القضاء عليه بقيام الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧م، وعندما نَشَرَ الكاتب الروسي نيلوس كتاب (بروتوكولات حكام صهيون) سنة ١٩٠٢م التي تفضح نوايا اليهود الإجرامية تجاه العالم، عمَّت المذابح ضدهم في روسيا، وقتل منهم نحو عشرة آلاف.

٦- وفي ألمانيا: انتشر اليهود في القرن الثامن الميلادي، واستغلوا اقتصاد البلاد حتى صدر الأمر بطردهم من أنحاء ألمانيا فيما بين القرن الثاني عشر والرابع عشر، حتى يكاد لم يبق منهم أحدٌ بعد أن هاج الشعب الألماني ضدهم، واستعمل فيهم القتل والتشريد[1].

ومما يدل على جميع ما سبق من أن اليهود شعب بلا وطن قوله تعالى:

١٦٨- ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

بيَّن جلَّ شأنه في هذه الآية أنه فرق اليهود وشتتهم في الأرض جماعات جماعات بعدما كانوا مجتمعين فقال: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ وهذا تقطيع مذموم، أي: فرقناهم بعد اجتماعهم، حيث نقلهم ملك بابل إلى جبال آشور وأرض بابل في الأسر البابلي سنة ٧٢١ قبل الميلاد، وأسرهم (بختنصر) مملكة يهوذا، وشرد يهود أورشليم سنة ٥٧٨ قبل الميلاد، ولما عادوا إليها أجلاهم عنها ملك الرومان في أوائل القرن الثاني للميلاد، ولم

---

(١) انظر فيما سبق: «اليهودية» للدكتور أحمد شلبي، و«خطر اليهود العالمية على الإسلام والمسيحية» لعبد الله التل، و«تاريخ الإسرائيليين» لشاهين مكاريوس.

يجتمع لهم شمل بعد ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد موسى ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤] و (أل) في الأرض للجنس؛ أي: اسكنوا الأرض كلها بلا مكان محدد ولا وطن ثابت، ولا مأوى، وكما أرَّخ لهم يوسف ﷺ في قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] **والبدو**: هم الرحَّل الذين لا وطن لهم ثابت، وبهذا يقول اليهود غير الصهاينة، فهم يعتقدون كما يعتقد المسلمون أنه لا حق لليهود في فلسطين، وأنهم محتلون غاصبون لدولة الصهاينة الحالية على تراب فلسطين الحبيبة.

ثم قال تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ القائمون بحقوق الله وحقوق العباد، وذلك في زمن رسولهم، وكذا من آمن منهم بعيسى في عهده، ومن آمن منهم بمحمد بعده ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ المقصرون الظالمون لأنفسهم ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالعسر واليسر، بالخير والشر، والنعم والنقم، واختبرناهم بالرخاء والسعة في العيش، واختبرناهم بالشدة، والمصائب والرزايا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: رجاء أن يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا عن معاصيه، ولكنهم لم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد، حتى زاد شرهم وفسادهم بمجيء الخلَف بعدهم:

١٦٩- ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[1] ﴿١٦٩﴾﴾

ماذا كانت النتيجة بعد تشتت اليهود في جوانب الأرض: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: أنشأ الله من ذرية أولئك اليهود بعد زوال الأمة وتفرقها؛ خلفًا جاؤوا بعدهم، ويبدأ هذا الخلْف من عودة اليهود بعد أسر (بختنصر) لهم في حدود سنة ٥٣٠ قبل الميلاد في عهد ملك الفرس (كورش) حين أذن لهم بالعودة لَمَّا فتح بلاد آشور، واستأنفوا مزاولة العمل بالتوراة وتعمير بيت المقدس بعد خرابه.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بتاء الخطاب في (أفلا تعقلون) على الالتفات، وقرأ الباقون بياء الغيبة؛ لمناسبة سياق الآية.

وهذا الخلْف لا ينحصر في جيل ولا قرن، فكان منهم كل يهودي يأتي بعد هؤلاء، ومنهم يهود هذا الزمان، والذين كانوا في عهد النبي ﷺ وكلهم ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة عن آبائهم وأسلافهم بعد أن حُرِّفت وبدِّلت وغيِّرت، فقرؤوها وعلَّموها وخالفوا حكمها فصاروا يتصرفون فيها بأهوائهم، ويُفتون بغير الحق، ويأخذون الرشوة على تغيير أحكام الله ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: يأكلون السحت والرشوة ويتاجرون بالدين، ويحابون في الحكم والفتوى، هذا هو الحكيم الخبير، يخبر سبحانه أن اليهود يأكلون المال من حله وحرامه، من الربا والرشوة، وكل ما يعرض لهم من متاع الدنيا من دنيء المكاسب؛ لشدة حرصهم ونهمهم.

قال ابن زيد: كان يأتيهم المُحِقُّ برشوة، فيُخرِجون له كتاب الله، فيحكمُون له به، فإذا جاء المُبْطل، أخذوا منه الرشوة، وأخرجوا له كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحكموا له، ومع ذلك فهم يتمنون على الله الأماني، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

وهكذا: فكانوا يقرُّون على أنفسهم أنهم مذنبون، وأنهم ظلمة، ويقولون ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وليس في قولهم هذا طلب للمغفرة، وإنما هو أماني، فهم يُمنُّون أنفسهم بالمغفرة!

عن شداد بن أوس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله»**[1].

ويبيِّن النبي ﷺ أن حُكَّامهم وقُضاتهم يأخذون الرشوة، ويتمنون على الله المغفرة والأباطيل، وأن الله تعالى سيغفر لهم ذنوبهم، فإذا قيل لهم: لماذا تأكلون الربا والرشوة؟ فإنهم يقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ولو كان قولهم هذا حقًّا لندموا على ما فعلوا، وعزموا على ألَّا يعودوا، ولكنهم كانوا إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى أخذوها ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ﴾ من أعراض الدنيا، ومن كل رشوة ومتاع زائل محرم، من أي طريق كان ﴿يَأْخُذُوهُ﴾

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وقال: هذا حديث حسن، وقال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وسكت عليه الحافظ في الفتح (٣٤٢/٩) وضعّفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب برقم (١٩٥٩) والحديث في مسند أحمد (١٧١٢٣)(وفيه أبو بكر بن أبي مريم ضعيف وباقي رجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن ماجه (٤٢٦٠) والبغوي في شرح السنة (٤١١٧) والطبراني في الكبير (٧١٤٣) والبيهقي في الشعب (١٠٥٤٦).

ويستحلوه مصرين على ذنوبهم وتناولهم الحرام، فاشترَوْا بآيات الله ثمنًا قليلًا واستبدلوا الحلال بالحرام.

قال تعالى في الرد على زعمهم: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: العهود الموثقة بإقامة التوراة والعمل بما فيها ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وألا يكذبوا عليه، وأن يبيِّنوا ما فيه للناس، ولا يحتالوا، ولا يتأوَّلوا، ولكنهم قالوا على الله غير الحق، اتباعًا لأهوائهم حُبًّا للدنيا، وميلًا إلى مطامعهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولكنهم كتموه وضيعوه بعدما علموه، وخالفوا عهد الله إليهم، واشترَوْا بآيات الله ثمنًا قليلًا ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي: أنهم علموه وفهموه، وتركوا العمل بما فيه عن عمد وإصرار، وهذا أعظم للذنب، وأشد للّوم، وأشنع للعقوبة، وهو من نقص عقولهم وسفاهة رأيهم.

وما قصَّ الله علينا مثل هذه الآيات من أخبار بني إسرائيل، إلا لنعتبر بأحوالهم، ونبتعد عن الذنوب التي أخذهم الله بها، ونعلم أن ما عند الله من حسن الجزاء لأهل التقوى، الذين يتورعون عن أكل الحرام، ويحكمون بما أنزل الله، ويرغبون فيما عند الله ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فيمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه، ويحرِّمون ما حرم الله عليهم، ومنها أخذ الرشوة على الحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من المحرمات ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا يعقل الذين يأخذون دنيء المكاسب أن ما عند الله خير وأبقى للمتقين، فاعتبروا يا أولي الأبصار. أما العقلاء على وجه الحقيقة فهم الذين وصفهم الله بقوله:

١٧٠- ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ[١] بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أن الذين يتمسكون بالكتاب، علمًا وعملًا، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار، ويعملون بما فيه من العقائد والعبادات والأحكام، والأوامر والنواهي،

---

(١) قرأ شعبة بسكون الميم وتخفيف السين من (يمسكون) مضارع (أمسك) المتعدي، والمفعول محذوف، تقديره: دينهم أو أعمالهم، وقرأ الباقون بفتح الميم وتشديد السين، مضارع (مَسَّك) بمعنى تمسك، مثل تمسكت بالحبل.

ويحافظون على الصلاة بحدودها، ولا يضيعون أوقاتها، فإن مصيرهم إلى الجنة، وإلى النعيم المقيم، ولا يضيع الله أعمالهم الصالحة بل يثيبهم عليها.

وقد خص الله الصلاة بالذكر لفضلها وشرفها وكونها فرق الكفر من الإسلام، وهي ميزان الإيمان، وأول ما يحاسب عليه العبد، وإقامتها عنوان على إقامة سائر العبادات.

وفي هذا ثناء من الله تعالى على من يمسك بكتابه فأحل حلاله وحرم حرامه، واعتصم بحبله المتين ونوره المبين، ولم يتقوَّل على الله بغير علم، فإن الله لا يضيع أجره وعمله؛ لأنه أصلح دينه ودنياه، والتمسك بالكتاب وإقامة الصلاة طرفا المنهج الرباني، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ في أقوالهم، مصلحين لأنفسهم ولغيره.

وفي الآية ما يدل على أن الله تعالى قد بعث رسله بالصلاح لا بالفساد وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بُعثوا بإصلاح الدارين، فكل من أصلح من البشر، فهو الأقرب إلى اتباعهم.

قَبُولُ اليَهُودِ لِأَحْكَامِ التَّوْرَاةِ تَحْتَ وَطْأَةِ التَّهْدِيدِ

١٧١- ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

لما أنزل الله - سبحانه - التوراة على موسى، وأمر بني إسرائيل أن يعملوا بما فيها من تكاليف، وشرائع، وأحكام؛ لم يقبلوا العمل بما في التوراة، ورأوْا أنَّ ما فيها شاقٌّ عليهم، فامتنعوا من العمل بما فيها، فكان من الله - سبحانه - أن هددهم على لسان نبيهم موسى عليه السلام، كي يُلزمهم العمل بما فيها وأمر - جلَّ شأنه - جبريل عليه السلام أن يرفع جبل الطور فوق رؤوسهم كأنه سحابة أو مظلة يستظلون بها، هذا معنى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾ أي: رفعنا ﴿ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ وهم تحته، فلما رأوْه بأعينهم وغلب على ظنهم أنه واقع عليهم إن لم يقبلوا أحكام التوراة، أعلنوا امتثالهم لما فيها، وخروا سجدًا لله تعالى، فسجدوا على خدِّهم وحاجِبِهم الأيسر، وهم ينظرون إلى الجبل بالعين اليمنى، ولذلك فإن كل يهودي إلى يومنا هذا يسجد على حاجِبِه وخَدِّه الأيسر، ويقول: هذه السجدة التي رُفِعت عنا العقوبة بسببها[1] .

(١) نقل عن الحسن البصري كما في «تفسير ابن كثير» و(ابن عطية) و(الكشاف) و(القرطبي) وغيرهم للآية.

حينئذ قال تعالى في وقت ارتفاع الجبل: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد وعزم على تحمُّل ما فيه من مشقة، واعملوا بما أنزلنا عليكم في التوراة باجتهاد وعزيمة، واذكروا ما فيها من العهود والمواثيق التي أخذناها عليكم؛ كي تتقوا ربكم فتنجوا من عذابه ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فكان رفع جبل الطور عليهم معجزة لموسى عليه السلام، أيده الله بها تخويفًا لهم، يرونه فوقهم وهم في سفحه؛ ليعقُب ذلك أخذ العهد عليهم بعزيمة العمل بالتوراة، وتصديقًا له فيما يبلغه عن ربه من أحكام.

قال قتادة: نزع الله الجبل من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، فقال: لتأخذوا أمري أو لأرمينكم به[١].

وهذا معنى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤] ومعنى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة] ومعنى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ﴾ [البقرة: ٩٣].

وَرَدَ أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة قال عن الله تعالى: هذا كتاب الله، أتقبلونه بما فيه؛ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم، وما أمركم به وما نهاكم عنه؟ قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة، وحدودها خفيفة قبلناها، قال: اقبلوها بما فيها، قالوا: لا، فراجعهم موسى ثلاثًا، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع وارتفع فوق رؤوسهم، فقال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي: لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل فلما رأوه فوق رؤوسهم خروا ساجدين، فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر، وأخذ ينظر إلى الجبل بعينه اليمنى خوفًا من أن يسقط فوقهم[٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إني لأعلم لِمَ تسجد اليهود على حرف؟ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ قال: لتأخذن أمري أو لأرمينكم به، فسجدوا وهم ينظرون إليه، مخافة أن يسقط عليهم، فكانت سجدة رضيها الله تعالى، فاتخذوها سُنَّة[٣].

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٤٧٣) وابن كثير (٢/ ٤٤٩) و«حاشية الجمل» (٢/ ٣٠٦).

(٣) ابن أبي حاتم (٥/ ١٦١١).

وعن عكرمة قال: أتى ابنَ عباس يهوديٌّ ونصرانيٌّ:

فقال لليهودي: ما دعاكم أن تسجدوا بجباهكم؟ فلم يجبه، فقال: سجدتم بجباهكم لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ فخررتم لجباهكم تنظرون إليه.

وقال للنصراني: سجدتم إلى الشرق لقول الله تعالى: ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾[1] [مريم: ١٦].

قال عطاء: والجبل الذي رُفع على بني إسرائيل هو جبل الطور[2].

حكم الاهتزاز أثناء قراءة القرآن:

وقال أبو بكر بن عبد الله: لما نشر موسى الألواح، وفيها كتاب الله، لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغير ولا كبير تُقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونغض لها رأسه.

وبعض بلاد المسلمين في الأندلس وغيرها يؤدبون أبناءهم إذا قرؤوا القرآن وهم يهتزون ويتمايلون أثناء قراءة القرآن فيمنعونهم ويقولون: هذا تقليد لليهود[3].

لأن اليهود اهتزوا حين سمعوا التوراة، فعُلِم إذًا أن مصدر هذه الهزة وهذا التمايل أثناء قراءة القرآن مأخوذ عن اليهود، وقد أُمِرْنا ألا نتشبه بهم، ومصداق ذلك ما نراه من اليهود المتدينين وهم وقوف على حائط البراق -الذي يسمونه زورًا: حائط المبكى- وبأيديهم أوراق يقرؤون فيها ويتمايلون بشدة، وتتوسط رؤوسهم طاقية صغيرة ترمز إلى التدين اليهودي، ومن هنا فإنه ينبغي على المسلمين ألا يُعَوِّدوا أبناءهم على هذه الهزة وهم يقرؤون القرآن الكريم.

نهاية القصص في السورة:

وإلى هنا ينتهي الحديث عن قصص الأنبياء في سورة (الأعراف) وهم: نوح، وهود،

---

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر» (٦/ ٦٤٦).

(٢) ابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٠).

(٣) يُنظَر عند تفسير هذه الآية: «البحر المحيط» والقرطبي و«الكشاف» وابن كثير وغيرهم.

وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى ﷺ، وقد عرضت السورة قبل دعوة هؤلاء الرسل، إلى قصة آدم وحواء، ونداءات بني آدم، وأحوال السعداء والأشقياء، وتعرضت خلال ذلك إلى قضية التوحيد الذي هو رأس مال الدعوة.

وبدءًا من الآية التالية تمضي السورة في الحديث أيضًا عن قضية التوحيد من زاوية أخرى، وهي زاوية الفطرة والاعتراف بالتوحيد في الكيان البشري نفسه، وأن هذا التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى، فلا عذر لهم في الانحراف عنه إلى الشرك، كما جاء ذلك في قصة الإسرائيلي الذي انحرف عن الفطرة، وانسلخ من الإيمان، وكما جاء في البشر الذين عطَّلوا أجهزة الاستقبال فيهم، حتى هبطوا إلى مرتبة الأنعام، وصاروا وقودًا لجهنم.

مِيثَاقُ الفِطْرَةِ وَالاحْتِجَاجُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ

١٧٢- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ[١] وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟[٢] يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

سورة (الأعراف) تغرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، وتُعلِّمهم أن يعبدوا الله وحده، ولا يشركوا به شيئًا، من خلال قصص الأنبياء والمرسلين، ومن خلال دعوة الرسل إلى أممهم، والمصير الذي يلحق بالأمة المكذبة لرسولها، وفي نهاية هذا القصص يعود القرآن إلى العهد والميثاق الذي أخذه الله على بني آدم جميعًا وهم في أصلاب آبائهم بعد أن فرغ من الحديث عن بني إسرائيل، فهو ردٌّ للعَجُزِ على الصدر.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أخرج من أصلابهم ذريتهم وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنا بعد قرن ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حين أخرجهم من أصلاب آبائهم وبطون أمهاتهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ قررهم بأن الله تعالى هو ربهم وخالقهم ومالك أمرهم، بما أودع فيهم من فطرة التوحيد فأقروا بذلك.

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر (ذريتهم) بالإفراد، والباقون بالجمع.

(٢) قرأ أبو عمرو بياء الغيب في (أن تقولوا) جريًا على نسق الآية، وقرأ الباقون بتاء الخطاب على الالتفات، ومثلها (أو تقولوا) في الآية التالية.

والآية ناطقة بأن ميثاق التوحيد مأخوذ على ذرية آدم وهم نُطَفٌ في أصلاب آبائهم، وأن الله تعالى استخرج أولاد آدم من أصلاب آبائهم، وقررهم بتوحيده تعالى، وأودع في فطرهم أنه ربهم وخالقهم ومليكهم، فأقروا له بذلك واعترفوا، وقد أنطقها الله تعالى ففهمت الخطاب ونطقت، واستشهدها فشهدت، وخاطبها فعقلَت الخطاب بقدرته جلَّ شأنه، وأمرها فالتزمت بما أمرها به، وهي مطالبة بالعمل بمقتضى هذا العهد والميثاق، ومسؤولة عنه يوم القيامة، فكل أحد مفطور على التوحيد، ولكن هذه الفطرة قد تغيرت عند بعض الناس وتبدّلت بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة.

والمعنى: أن الله تعالى أخرج من آدم ذريته، وأخرج من ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض، على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار، وقد أشهد الله بعضهم على بعض بأنهم مُقرُّون بالتوحيد الذي فَطَرَهُم عليه، ويشهد لذلك قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ لأن بني آدم كلهم من ظهر آدم ومن ظهور ذريته.

قال ابن الأنباري: مذهب أهل الحديث وكبراء العلم في هذه الآية أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده، وهم صور كالذر، وأخذ عليهم الميثاق، فاعترفوا بذلك وقبلوه بعد أن ركَّب الله فيهم عقولًا عرفوا بها ما عَرض عليهم، كما جعل للجبال عقولًا حتى خوطبوا بقوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] وكما جعل للبعير عقلًا حتى سجد للنبي ﷺ، وكذلك الشجر، والنجوم، والدواب، سمعت لأمره تعالى وانقادت له، كما سلَّم الشجر والحجر عليه ﷺ، وحن له الجذع.

ووجه الجمع بين الآية والأحاديث أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض، وكلهم بأجمعهم من ظهر آدم الذي هو أصلهم، فإذا أخرجهم الله من ظهر آدم، فقد أخرجهم من ظهور ذريته؛ لأن ذرية آدم كذرية بعضهم من بعض.

وفائدة أَخْذ الميثاق في القدم أن من مات صغيرًا دخل الجنة بإقراره بالميثاق الأول، وهذا على مذهب من يقول: إن أطفال المشركين يدخلون الجنة إذا ماتوا صغارًا.

أخرج البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ رأى إبراهيم الخليل في الجنة وحوله أولاد

الناس، فقالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «**وأولاد المشركين**».[1]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ومن بلَغ وعقَل ولم يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحا لم يُغْنِ عنه إقراره بالميثاق الأول شيئًا، حتى يقرره ويصدقه بالإيمان والعمل الصالح عندما يبلغ ويعقل.

هذا هو إقرار التوحيد والعقيدة، وهو العهد والميثاق الذي أخذه الله - سبحانه - على بني آدم جميعًا قبل وجودهم في الحياة، وهو مقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

فالعبد يُخلق موحدًا بفطرته وسجيته، ولكن العوامل الخارجية هي التي تؤثر فيه فتجعله ينحرف يمنة أو يسرة: «**فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**».

وهذا العهد والميثاق يُسأل عنه العبد في قبره بعد أن يموت، يُسأل عنه الكافر، فيقال له: لو أن لك ما في الأرض جميعًا أموالًا وذهبًا؛ لتفتدي به من عذاب الله يوم القيامة، أكنت فاعلًا؟ فيقول: نعم، فيقال له: لقد طُلب منك في الدنيا ما هو أهون من ذلك، طُلب منك أن تعبد الله وحده ولا تشرك به شيئًا، فأبيت إلا أن تشرك به.

وبهذا العهد والميثاق انتهت سورة (الأعراف) من القصص القرآني الذي جاء فيها، وكلها تدعو إلى توحيد الله سبحانه.

وقد بدأت سورة (الأعراف) بالحديث عن آدم، ونادت ذريته من بعده، وعادت هنا للحديث عن ذرية آدم، وإذا ذُكِر آدم لزم من ذلك ذِكْرُ ذريته.

جملة من الأحاديث في معنى الآية:

وقد وردت آثار وأحاديث عن هذه الآية ذكرها ابن كثير وغيره، بعضها يذكر آدم، وبعضها يذكر ذريته، وبعضها مرفوع، وبعضها موقوف، وبعضها في سنده مقال، وسوف أذكر هنا ما صح منها مما وقفتُ عليه:

١ - عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به؟ قال: فيقول: نعم،**

(١) من حديث طويل عن سمرة بن جندب في البخاري برقم (٧٠٤٧).

فيقول: أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي»[١].

٢- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»**[٢].

٣- وعن عياض بن حمار ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم»**[٣].

٤- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نَسَمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وَبِيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي ربِّ، مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلًا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي ربِّ، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، قال: رب، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي ربِّ، زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملَك الموت، قال: أولم يبقَ من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ وقال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونُسِّيَ آدم فَنُسِّيتْ ذريته، وخَطِئ آدم فخَطِئت ذريته»**[٤].

---

(١) البخاري من حديث شعبة برقم (٣٣٣٤) ومسلم (٤ /٢١٦٠) برقم (٢٨٠٥) وأخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١٢٧) برقم (١٢٢٨٩) وابن أبي عاصم في السنة (٩٩) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣١٥) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٣٩٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٣٨٥) ومسلم برقم (٢٦٥٨) وابن حبان (١٢٨) وأبو يعلى (٦٣٩٤) وأبو داود (٥/ ٧٦) برقم (٤٧١٤) وصحيح أبي داود (٣٩٤٥)، والترمذي (٤/ ٤٤٧) برقم (٢٢٣٧) وصحيح الترمذي (١٧٣٧) بلفظ (يولد على الملة) وأحمد في المسند (٢/ ٢٣٣) برقم (٧١٨١).

(٣) من حديث طويل في «صحيح مسلم» (٤/ ٢١٩٧) برقم (٢٨٦٥) ومسند أحمد (٤/ ١٢٦) برقم (١٧٤٨٤)

(٤) «سنن الترمذي» (٥/ ٢٦٧) برقم (٣٠٧٦) و«المستدرك» (٢/ ٣٢٥) وابن أبي حاتم (١٦١٤) وأبو الشيخ (١٠٢٧) وابن عساكر (٧/ ٣٩٥) وفيه هشام، صدوق له أوهام، قال الحافظ في «التقريب»: لكنه هنا عن زيد بن أسلم، وهو أثبت الناس كما قال الآجري عن أبي داود، فهو حديث صحيح، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٥٩) وفي ظلال الجنة (٢٠٦) وتخريج الطحاوية (٢٢٠).

٥- وعن مسلم بن يسار الجهني، عن يعمر بن ربيعة، أن عمر بن الخطاب ﷺ سئل عن قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «**إن الله تبارك وتعالى خلق آدم، ثم مسح على ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال خلقتُ هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون**» فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله إذا خلق العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار**»(١).

٦ - وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن الله جلَّ شأنه مسح بيمينه على ظهر آدم، وكان ذلك في مكان يقال له: (نَعْمَان) بعرفة، وأخرج جلَّ شأنه من ظهر آدم كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة على صورة الذر، فنثرها بين يديه وخاطبها قائلًا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾**»(٢).

٧- وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: إن الله خلق آدم ﷺ، ثم أخرج ذريته من صلبه مثل الذر، فقال لهم: مَن ربكم؟ قالوا: الله ربنا، ثم أعادهم في صلبه؛ حتى يولد من أُخذ ميثاقه، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم إلى

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٩٩) وأبو داود برقم (٤٧٠٣) والترمذي برقم (٣٠٧٥) وهو في «المسند» (١/ ٤٤) برقم (٣١١) وقد سقط من السند (يعمر بن ربيعة) فحكم بعضهم على الحديث بأنه ضعيف؛ لأن مسلم بن يسار لم يسمع من عمر، ولكن الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٣٣) صرح باسمه في بعض طرقه (محققوه) وهو في «سنن النسائي الكبرى» برقم (١١١٩٠) والحاكم (١/ ٢٧) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٢) وابن حبان (٦١٦٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧١٠) قال الألباني: صحيح إلا مسح الظهر «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٣٦) وفي الطحاوية (٢٦٦) والمشكاة (٩٦) التحقيق الثاني، وفي ظلال الجنة (١٩٦).

(٢) ورَدَ هذا عن ابن عباس عن سعيد بن جبير مرفوعًا وموقوفًا، وهو في «المسند» (١/ ٢٧٢) وتصحيح أحمد شاكر برقم (٢٤٥٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٨): رجاله رجال الصحيح، ورواه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١١٩١) وفي «السنن» برقم (٢١١) والحاكم وصححه وأقره الذهبي في «المستدرك» (١/ ٢٧) و«تفسير الطبري» (١٣/ ٢٢٢) برقم (١٥٣٣٨) قال محققو «المسند»: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كلثوم بن جبر فمن رجال مسلم، ورجح ابن كثير وقفه على ابن عباس.

أن تقوم الساعة.

وقد علم الله في الأزل من سيثْبُت على ميثاق التوحيد فكتب له الجنة، وعلم من سينحرف عنه فكتب له النار، وأخبر - سبحانه - عنهم قبل أن يخلقوا، فعلمهم وعيَّنهم.

٨- أخرج أحمد وغيره عن أبي نَضْرة أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله، دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي، فقالوا له: ما يُبكيك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، فقال: هذه لهذه، وهذه لهذه»** ولا أبالي، فلا أدري في أي القبضتين أنا[١].

والمقصود من هذه الآية: الاحتجاج على المشركين بما أودع الله فيهم من فطرة التوحيد بمعرفتهم لربهم معرفة فطرية لازمة لهم، لزوم الإقرار منهم والاعتراف الموجب لتوحيده بالعبادة، ومخالفة ذلك موجب للعقاب.

وفي الآية دليل على أن الإنسان لو خُلِّيَ ونفسه، وتجرد من العوامل المؤثرة كالأبوين والمجتمع لاختار التوحيد دينًا له؛ لأن هذا مُسْتَقِرٌّ في عقله وفطرته.

فمعرفة الله تعالى ضرورة فطرية، يعترف بها المشركون، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

ولذا: فإن الخلق كلهم يلجؤون إليه وحده عند الشدة.

ففي الترمذي عن عمران بن الحصين ؓ أن النبي ﷺ قال لأبيه: **«يا حصين كم إلهًا تعبد اليوم؟ قال: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء، قال: «فأيهم تُعِدُّ لرغبتك ورهبتك؟»** قال: الذي في السماء[٢].

ولهذا فإن الأبكم والمجنون حين يحلف ويدعو، لا يلجأ إلا إلى الله، ولا يلهج لسانه إلا باسم الله.

---

(١) «المسند» (١٧٥٩٣) و(١٧٥٩٤) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه البزار (٢١٤٢) كشف.

(٢) «سنن الترمذي» وقال: حديث غريب برقم (٣٤٨٣) وقال صاحب التحفة: هذا الحديث من جوامع الكلم (٩/ ٤٢٠) وضعفه الألباني.

ويختم الله - سبحانه - هذه الآية بقوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ أي: أن الله تعالى قد أخذ عليكم ميثاق التوحيد، وعدم الإشراك به وأنتم في أصلاب آبائكم، وأقررتم بذلك وقتها خشية أن تنكروا ذلك يوم القيامة، فلا تقرُّوا بشيء منه، وتزعموا أن حجة الله لم تقم عليكم، وأنكم لا علم لكم بها، بل كنتم عنها غافلين، وقد قامت عليكم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ ليذكروكم بهذا الميثاق الذي أخذه الله عليكم، بعد أن أخرجكم إلى الدنيا من أصلاب آبائكم، وبلَّغتكم رسل الله ذلك وعقلْتم ما يقال لكم؛ وذلك لئلا يقول الكفار يوم القيامة: إنا كنا عن الإيمان بالله ربنا غافلين، فمن أنكر الميثاق، أو لم يعمل به، كان معاندًا ناقضًا للعهد والميثاق.

فاليوم قد انقطعت حجتكم، وثبتت الحجة البالغة عليكم، وحتى لا تحتجون بحجة أخرى، فتعتذون بأنكم حذوتم حذو آبائكم ففعلتم مثلهم:

١٧٣- ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

أو لئلا تقولوا يوم الحساب والجزاء: إن آباءنا قد أشركوا قبلنا، ونقضوا العهد والميثاق، وكنا صغارًا من بعدهم فاقتدينا بهم وقلَّدناهم، وكنا نظن أنهم على حق؛ لأن الرسل قد أُرسلوا إليهم، والكتب قد نَزلتْ عليهم قبلنا، أفتعذبنا بما فعل غيرنا من الذين أبطلوا أعمالهم الصالحة بجعلهم مع الله شريكًا في العبادة، وقد كنا في غفلة عن هذا الميثاق، فلا ذنب لنا؟! والجواب أن الله تعالى قد أودع في فطركم ما يدلكم على باطل آبائكم، وأن الحق ما جاءت به الرسل، ولكن الإعراض عن حجج الله وبيناته تجعل العبد يتصور الحق باطلًا والباطل حقًّا. قال تعالى:

١٧٤- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

وكما فصلنا الآيات ليتدبرها الناس ويستعملوا عقولهم، وبيَّنَّا فيها ما فعلناه بالأمم السابقة التي أشركت بالله تعالى وكذبت رسله، كذلك نفصِّل الآيات ونبينها لقومك - يا محمد - رجاء أن يرجعوا بفطرتهم وعقولهم عن شركهم، وينيبوا إلى ربهم، ويُقبلوا على الإيمان والتوحيد، ويعرضوا عن باطلهم وكفرهم.

وقد يقال: إن العهد والميثاق المأخوذ على بني آدم وهم في عالم الذر، عهد قديم، لا يذْكُره أحد، ولا يخطر له على بال، فكيف يحتج به؟.

وقد أجاب الله تعالى على هذه الشبهة بما في هذه الآية من أن الله تعالى أودع في فطرهم هذا التوحيد وعاهدهم عليه، فهو يجري فيهم مجرى الدم، وهو مركوز في الطباع، ولكن هذه الفطرة حين تخرج للتطبيق العملي، قد تتعرض للمؤثرات الخارجية فتنحرف عن مسارها، أو تسلك طريقها المعتاد.

تَشْبِيهُ مَنْ عَرَفَ الحَقَّ ثُمَّ عَدَلَ عَنْهُ بِالكَلْبِ اللَّاهِثِ

١٧٥- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

ثم يضرب الله ﷻ المثل لمن عُرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه، وهو مثل لكل من علم ولم يعمل بعلمه، من الأفراد والأمم والشعوب، وفي مقدمة ذلك بنو إسرائيل، حيث إن القصة الأخيرة في هذه السورة، كانت تتحدث عنهم، وهذا المثل ينطبق على كل فرد يكفر بعد إيمانه، وعلى كل أمة لا تعمل بما آتاها الله من علم، كما ينطبق بالضرورة على كل من كذب بآيات الله المنزلة على محمد ﷺ مع وضوح دلائلها، فهو كالعالم الذي حُرم ثمرة الانتفاع بعلمه، وقد أُمِر النبي ﷺ أن يقرأ هذا المثل على أمته؛ ليعتبروا ويتعظوا حتى لا يكونوا كالشاة التي ينسلخ عنها جلدها.

والآية عامة في كل من أوتي علمًا ولم يعمل بمقتضاه، بل كفر به ونبذه وراء ظهره.

سبب النزول:

وقد وردت روايات متعددة في أسباب نزول هذه الآية، صح منها **روايتان:**

إحداهما: أنها نزلت في بلعم بن باعوراء، ويقال: ابن آبُر، بضم الباء.

وثانيهما: أنها نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي، وهي تنطبق على أبي عامر الراهب ومن كان مثله.

١- جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن هذه الآية نزلت في بلعام بن باعوراء، فقد ذَكَر علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ أن رجلاً من مدينة الجبارين يقال له:

بلعام، أو بلعم، وكان يعلم اسم الله الأعظم، فلما نزل بهم موسى ﷺ أتاه بنو عمه وقومه، وقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إنْ دعوت الله أن يردَّ موسى ومن معه ذهبتْ دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله مما كان عليه، فذلك قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[1].

وقد ذكر المفسرون أن أهل هذه البلد كانوا كفارًا، وأن موسى قد غزاهم للدعوة، وأن ملكها طلب من بلعام أن يدعو على موسى فامتنع، فأراد صَلبه فدعا ألا يدخل المدينة، فسأل موسى ربه أن ينزع منه اسمه الأعظم فنزعه منه[2].

وفي حديث حذيفة بن اليمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رُئيت بهجته عليه، وكان ردءًا للإسلام انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك**» قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرمي أو الرامي؟ قال: «**بل الرامي**»[3].

٢- **والقول الثاني** أن الآية نزلت في **أمية بن أبي الصلت** الثقفي وكان رجلًا يطلب الحق، ولم يرُق له الشرك، ولم يجد في اليهودية ولا في النصرانية طريق النجاة، ورفض

---

(١) يُنظَر: «زاد المسير» (٣/ ٢٨٧) والقرطبي و«الدر المنثور» (٦/ ٦٧٣) والخازن وابن كثير وغيرهم في تفسير الآية وقد صح أن نزول الآية في بلعم بن باعوراء عند الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٢٥) وعند الطبري برقم (١٥٣٨٩) وعند النسائي في التفسير برقم (٢١٣) وعبد الرزاق في «التفسير» برقم (٢٤٣٢) وابن أبي حاتم برقم (١٣٤٣) والطبراني في «الكبير» برقم (٩٠٦٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٥): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، كما صحح إسناده محقق ابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٧) وقال محقق النسائي: صحيح موقوف.

(٢) يُنظَر: ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٢٨٨) وتَذْكُر التوراة في سفر العدد الإصحاح (٢٢-٢٤) أن بلعام كان من صالحي أهل مدين، وأنه لم يتغير عن صلاحه، وكان في وقت مرور موسى مع بني إسرائيل على أرض (موآب).

(٣) رواه البزار في مسنده برقم (١٧٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٨): إسناده حسن، وقال ابن كثير (٢/ ٥٠٩): هذا إسناده جيد، وفيه الصلت بن بهرام، من ثقات الكوفيين، ولم يُرمَ بشيء سوى الإرجاء، وثقه الإمام أحمد ويحيى بن معين وغيرهما.

عبادة الأصنام وحرم الخمر، وتوخَّى الحنيفية دين إبراهيم، وكان يذكر في شعره الثواب والعقاب، ويذكر أخبارًا من قصص التوراة، ويذكر اسم الله وأسماء الأنبياء، ولما مرض في موته قال: أنا أعلم أن الحنيفية حق ولكن الشك يداخلني في محمد.

وقال عنه النبي ﷺ: «**كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**» وكان قد حصل له علم كثير من الشرائع السابقة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، وكان قد خرج إلى البحرين (الإحساء) بالسعودية، وأقام هناك ثماني سنوات، ولما رجع إلى مكة وجد النبي ﷺ قد بُعث، وكان يتمنى أن يكون رسولًا؛ لأنه كان يقرأ الكتب، فحسد النبي ﷺ وتردد في الدخول في الإسلام.

ثم خرج إلى الشام، ورجع فوصل إلى بدر بعد الموقعة بيوم أو نحوه، فقال: من قتل هؤلاء؟ فقيل: محمد ﷺ فقال: لا حاجة لي بدين مَن قتل هؤلاء، فارتد ورجع، وقال: الآن حلَّت الخمر، وكان قد حرَّمها على نفسه، ورثى من قُتل من المشركين يوم بدر، وخرج إلى الطائف بلاد قومه، فمات كافرًا[1].

فمعنى ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ أنه أُلهم كراهية الشرك، وحُبِّب إليه الحنيفية، فلما انفتح له طريق الحق وأشرق له نور الإسلام كابرَ وحسدَ محمدًا ﷺ وأعرض عن الإسلام، ثم انسلخ من جميع ما يُسِّر له، فارتد؛ وأحل الخمر، وصده الشيطان عن الهدى؛ فكان من الغاوين، ومات كافرًا بمحمد ﷺ.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده إلى نافع بن عاصم قال: سمعت عبد الله بن عمرو ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ قال: هو أمية بن أبي الصلت الثقفي[2].

ومعنى الآية ينطبق على أبي عامر الراهب، فقد تنصَّر في الجاهلية وترهْبَن، ولبس المسوح، وزعم أنه على الحنيفية، فلما قدم النبي ﷺ المدينة دخل عليه، وقال له: ما الذي

---

(١) يُنظَر فيما سبق «تفسير التحرير والتنوير» (٩/ ١٧٤) وابن عطية (٢/ ٤٧٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٩٢) والطبري (١٠/ ٥٧٠) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٦) وابن عساكر (٩/ ٢٨٥).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٣٤٤) و«سنن النسائي» برقم (٢١٢) و«تفسير الطبري» (١٣/ ٢٥٦) برقم (١٥٤٠) وما بعده و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٠٧) ومن رواية شعبة، وهو صحيح كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٥) كما قوَّى إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ١٥٤) وقد رُوي بأسانيد كثيرة عند الطبري وزيد بن أسلم، وقال القرطبي: هو الأشهر.

جئتَ به؟ قال ﷺ: **«جئتُ بالحنيفية دين إبراهيم»**، قال: فإني عليها، فقال النبي ﷺ: **«لستَ عليها، لقد أدخلتَ فيها ما ليس منها»** فكفر وخرج إلى مكة يحرض المشركين على قتال النبي ﷺ إلى أن قاتل في يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج إلى الشام، فمات هناك، قال سعيد بن المسيب: وفيه نزلت الآية[١].

وهو الذي علّمه الله علم كتابه، فصار عالمًا كبيرًا وحبرًا تحريرًا، ولكنه ترك كتاب الله وراء ظهره، ونبذ مكارم الأخلاق، وخلعها كما يُخلع الثياب، فلما انسلخ منها تسلّط عليه الشيطان فأخرجه من حصنه الحصين، فصار في أسفل سافلين، بعد أن كان من الراشدين المرشدين.

والمعنى: اقصص - أيها الرسول - على أمتك خبر رجل من بني إسرائيل، أو من غيرهم أعطيناه حججنا وأدلتنا، فتعلَّمها، ثم كفر بها، ونبذها وراء ظهره، فاستحوذ عليه الشيطان فجعله من الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين، فصار من الضالين الهالكين؛ بسبب مخالفته أمر ربه وطاعته الشيطان، فهو إن تَحْمِله على الحق والهدى لم يُحْمَل عليه، وإن تَرَكْتَه لم يهتدِ لخير، كالكلب إن كان رابضًا لهث، وإن طُرِد لهث. قال تعالى:

١٧٦- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

أي: ولو شاء الله أن يرفع قدر هذا الرجل ودرجاته إلى منازل الأبرار بما آتاه من الآيات والعلم لفعل، ولكنه لم يأخذ بأسباب ذلك، بل ركن إلى الدنيا، ومال إليها واتبع هواه، وآثر شهواته، وآثر دنياه على آخرته، وامتنع عن طاعة الله، وخالف أمره، فمثَلُ هذا الرجل مَثَلُ الكلب حين يندلع لسانه من شدة العطش والحر، من التعب والإعياء، إن تطرده أو تتركه يُخرج لسانه في الحالين لاهثًا، فكذلك الذي انسلخ من آيات الله، يظل على كفره وضلاله، سواء اجتهدت في دعوته وهدايته، أو تركته وأهملته.

قالوا: فعجل الله له العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، وكان من عقوبته في الدنيا أن اندلع

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٩/ ١٧٥).

لسانه على فمه، فأصبحت هيئته كهيئة الكلب وهو يلهث في جميع أحواله، إذا أنت حملت عليه وطاردته يلهث، وإن تركته لم يزل يلهث.

وهكذا قال السدي وغيره: إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه يلهث كما يلهث الكلب، فشُبِّه به صورة وهيئة[1].

فكذلك شأن كل فرد وكل أمة تَضِل وتَخْرُج عن سبيل الله، وكذلك كل من لم يعمل بعلمه، فإن الله ﷻ يذيقه الذل والهوان في الدنيا، فضلًا عن عذابه يوم القيامة ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها بل كذبوا بها وردّوها فهذا الوصف هو وصف القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم -يا رسولنا- بالهدى والرسالة، فاقصص لأمتك أخبار الأمم الماضية، فإن في إخبارك لهم بها أعظم معجزة، لعل قومك يتدبرون فيما جئتهم به فيؤمنوا بك، وفي ضرب الأمثال عبرة وعظة لمن تأمّل فيها فإذا تدبر فيها عمل بما علم.

قال قتادة: هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله. قال تعالى:

١٧٧- ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

لقد قبَّح الله تعالى وذم وصْف هؤلاء القوم الذين شُبِّهوا بالكلاب؛ لقد قبح وساء مَثَلُهم فهم لا هَمَّ لهم سوى تحصيل الأكل والشهوة، وكذا أمثالهم ممن كذب بحجج الله وأدلته المرئية والمقروءة فجحدها، وأقبل على هواه، ولم يعمل بمقتضاها، وبسبب هذا كانوا ظالمين لأنفسهم ضالين عن طريق الحق، راسخين في الغواية؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وأدلته، وعملوا بأنواع المعاصي فمن خرج عن حيز العلم، واتبع هواه، فهو شبيه بالكلب، وبئس المثل مثله، وهذا المثَل قد يراد به شخص معين كما سبق بيانه في أسباب النزول، ويقاس عليه من كان مثله إلى يوم القيامة، وقد يراد به اسم جنس شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها.

ولذا: صح عن رسول الله ﷺ من حديث ابن عباس ﷺ أنه قال: «**ليس لنا مَثَلُ السُّوءِ،**

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٤٧٨) وابن كثير (٢/ ٥٠٩).

العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه»[١].

وفي الآية بيان أن من لم يعمل بعلمه يردّه الله إلى أسفل سافلين، ويسلط عليه الشيطان فيكون سببا لخذلانه والعياذ بالله.

وُقُوعُ الهُدَى وَالضَّلَالِ مِنَ النَّاسِ، وَفْقَ عِلْمِ اللَّهِ الأَزَلِيِّ

١٧٨- ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى[٢] وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

ومن يوفقه الله تعالى للإيمان والطاعة فهو الموفَّق، ومن يخذله الله بالحرمان من الهداية -وفق توجُّهه وانحراف فطرته- فهو الخاسر الهالك، فالهداية والإضلال من الله وحده، وهو المنفرد بالهداية والإضلال، فمن يهده الله يوفقه للخيرات ويعصمه من المكروهات، لأنه أهل للهداية قد آثرها واختارها طريقًا له، ومَنْ آثر طريق الضلال فقد خسر نفسه وأهله وماله، وهو الخسران الحقيقي، **وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:**

١- في حديث ابن مسعود ﷺ: **«إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»**[٣].

٢- وفي حديث جابر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: يحمدُ الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: **«من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أصدقُ الحديث كتاب الله، وأحسنُ الهدْي هدْي محمد، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»** ثم يقول: **«بعثت أنا والساعة كهاتين»**[٤].

---

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» برقم (٢٥٨٩، ٢٦٢٢، ٦٩٧٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٢٢).

(٢) اتفق القراء على إثبات ياء (المهتدي) وصلًا ووقفًا؛ لثبوتها في رسم المصحف.

(٣) مطلع خطبة الحاجة، «المسند» (١/ ٣٩٢) برقم (٤١١٥) حديث صحيح، وفيه انقطاع بين ابن مسعود (أبي عبيدة) وأبيه، حيث لم يسمع منه ولكن أبا الأحوص تابعه، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه أبو يعلى (٥٢٣٣) وعبدالرزاق (١٠٤٤٩)، وأبو داود (١/ ٦٥٩) برقم (١٠٩٧) والنسائي (١٠٤١٣) وابن ماجه (١/ ٦١٠) برقم (١٨٩٢) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٣٥) وقد صححها الألباني في رسالة خاصة، من طريق أبي الأحوص (عوف بن مالك) وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (١٢/ ٥٢٥) عن عبد الرحمن بن عوف.

(٤) مسلم (٨٦٧) والنسائي (١٥٧٧) وابن ماجه (٤٥) بنحوه بنحوه والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٣٧) وهو في صحيح سنن النسائي (٤٨٧) وهذا لفظه وفي صحيح ابن ماجه (٤٥) دون (وكل ضلالة في النار) ولا في صحيح مسلم.

٣- وفي صحيح مسلم عن عائشة ﵂ قالت: دُعِي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال: «**أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق للجنة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»[1].

٤- وفي حديث عبد الله بن عمرو ﵄ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله ﷻ خلق خلقه في ظُلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله عز وجل**»[2].

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ أي: من يُقدِّر الله اهتداءه ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ﴾ ممن حُرِموا التوفيق بعد أن جاءتهم أدلة الهدى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لقد خسروا أنفسهم بخفة موازينهم؛ فألقَوْا بها في نار جهنم، أما المهتدون فقد ربحت تجارتهم وثقلت موازينهم، ففازوا بالنعيم المقيم.

لِمَاذَا كَانَ الكَافِرُ أَضَلَّ مِنَ الحَيَوَانِ؟

١٧٩- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

ثم أخبر الله - سبحانه - أنه خلق لسكنى جهنم والاحتراق بها، كثيرًا من خلقه الغاوين الضالين المتبعين للشيطان والهوى من أهل الكفر والشرك ونفاق العقيدة، وذلك أن الله ﷻ قبل أن يخلق الخلق عَلِم عِلْمًا أزليًا أن (زيدًا) من الناس عندما يكون عبدًا مكلفًا، سيعمل بعمل أهل النار، فهو إذن بمقتضى علم الله تعالى عبد ضالٌّ، وسيكون من أهل النار، فأراد الله له ذلك وقدَّره عليه، وكتبه في اللوح المحفوظ.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٢).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢١٣٠) وفي السنن (٢٦٤٢) و«المسند» (٢/١٧٦) برقم (٦٦٤٤) من حديث طويل بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) وابن حبان برقم (٦١٦٩) و«المستدرك» (١/ ٣٠) والطيالسي (٢٤٠٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٢٩) وله طرق متعددة، وقد أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢٤٤) والبزار (٢١٤٥).

وعَلِمَ الله - سبحانه - أن هذا الإنسان عندما يكون عبدًا مكلفًا، له عقل وإدراك، سيعمل بعمل أهل الجنة، فأراد له ذلك وكتبه أيضًا.

وإرادة الله تعالى لا تُجبر أحدًا على الهدى أو الضلال، وهناك فرق كبير بين الأمر والإرادة، وبين الضلال والإضلال فالله - سبحانه - لا يُضل أحدًا من أهل الهدى، ولا يزيغ قلب أحد مستقيم، إنما الذي يضل، هو الفاسق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وهو الكافر، وهو الظالم؛ لأنه هو الذي اختار الضلال والكفر لنفسه، ولكن الله - سبحانه - نسب هذا الضلال إلى نفسه؛ لأنه - جلَّ شأنه - علم ذلك قبل أن يخلق العبد، وكتبته الملائكة في الصحف وأم الكتاب، وعِلْمُ الله تعالى لا يتخلف.

فالله - سبحانه - لا يضل إلا من اختار طريق الضلال بنفسه، ولا يهدي إلا من اختار طريق الهداية لنفسه، فسلك كل منهما الطريق الذي أراده، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي خلقنا وأنشأنا وأنشرنا في الكون ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ صارت البهائم أحسن حالًا منهم، أي: خلقنا للنار من يستحق عذاب النار، ومن يستحق أن يكون حطبًا لها؛ لأنهم اختاروا أن يعملوا بعمل أهل النار، ولما عَلِمَ الله منهم ذلك، كشف علمه للملائكة، فسجلت ذلك ودونته في اللوح المحفوظ، وعِلْمُ الله لا يتخلف؛ فهم الذين حقت عليهم كلمة ربك الأزلية بالشقاوة.

ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان هناك تكليف للعباد، ولما كان هناك داعٍ للجنة والنار، وللحساب والجزاء، ولو لم يكلفنا الله - سبحانه - بالعبادات والحلال والحرام، لكنا كالبهائم أو الملائكة، صنف آخر غير الإنسان الذي خلقه الله، له عقل وشهوة وإرادة وإدراك، وأرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب، وأمره بالخير ونهاه عن الشر، وأعد له الجنة والنار.

ولكن أهل النار عطلوا أجهزة الاستقبال فيهم؛ فلم تنتفع بشيء من الخير والهدى، وعطلوا عقولهم وأفئدتهم وسمعهم وأبصارهم، فلم ينتفعوا بما جاءت به الرسل من الحق والهدى، فضلوا وأضلوا ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم ولا دعوة، والقلوب التي لا تعقل، هي التي لا ترجو ثوابًا، ولا تخاف عقابًا.

والأعين التي لا تبصر، هي التي لا ترى بعين البصر أدلة الله الكونية، ولا ترى بعين

البصيرة آيات الله المقروءة والمكتوبة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فهم لا ينتفعون بما ترى، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

أما الأُذن فهي لا تسمع آيات القرآن؛ لتتفكر وتتدبر فيها وتهتدي بهداها، فهم لا يسمعون سماعًا يصل معناه إلى قلوبهم ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] وهم لذلك كالبهائم التي لا تفقه ما يقال لها، ولا تفهم ما تبصره، ولا تعقل الخير والشر ولا تميز بينهما، بل هم أضل وأسوأ حالًا من البهائم؛ لأنها تبصر منافعها ومضارها وتَتّبع راعيها، وهم بخلاف ذلك هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته، ولأن الأنعام ليست مزوَّدة إلا بالاستعداد الفطري، وضلالها لا يبلغ بها الوقوع في مهوى الشقاء.

أما الإنسان فهو مزوَّد إلى جانب الفطرة بالقلب الواعي، والعقل المدرِك، والعين المبصرة، والقدرة على اتباع الهدى أو الضلال، ولذلك كان أضل من الحيوان إذا كفر بالله تعالى.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقد بيَّن تعالى أن الكافرين لا ينتفعون بشيء من الجوارح التي خلقها الله لهم، وأنكر عليهم ذلك فقال تعالى في وصفهم: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة].

وشأن المنافق شأن الكافر في عدم الانتفاع بأجهزة الاستقبال فيه، وعدم توظيفها فيما خُلقت من أجله إنهم ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة].

لقد عطَّلوا هذه الجوارح عن تحصيل المنافع ودفع المضار، ولم يستعملوها فيما خُلقت له، وهؤلاء الذين أخبر الله عنهم أنهم وقود جهنم هم المطبوع على قلوبهم ممن استحبوا العمى على الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] لقد اختاروا طريق الضلال بعدما عرفوا طريق الحق.

وهؤلاء الكفار هم الذين قالوا للنبي ﷺ على سبيل التهكم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]

فدلائل الحق قائمة في نفوسهم، ولكنهم ينصرفون عنها بدواعي الشهوة والغضب وغلبة الهوى والشيطان، مما أَضْعَفَ عزيمتهم على مقاومة الشهوات.

واستوى في ذلك الجن والإنس معًا، وكانوا ممن قال الله فيهم: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة: ٧].

وقد ختم الله الآية بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي التي فقدت العقول، وهؤلاء قد عطّلوا عقولهم فآثروا الدنيا على الدين ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾ من البهائم، لأنها مستعملة فيما خُلقت له، والإنسان الكافر لم يستعمل نفسه في العبادة التي خلق من أجلها، والبهائم تدرك مضرتها من منفعتها، والكافر يضر نفسه بعبادته غير الله تعالى، فلذا كانوا أسوأ حالًا منهم، لأنهم غفلوا عن طاعة الله ورسوله، وقد خلق الله الأفئدة والأسماع والأبصار لتكون عونًا للعبد على عبادة الله عز وجل، فإذا لم يستعملوها في ذلك كانوا أهلًا لجهنم والعياذ بالله.

١- عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله قدَّر مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»[١].

٢- وفي حديث عائشة السابق ﷺ عن رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلًا، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلًا، وهم في أصلاب آبائهم**»[٢].

٣- وفي حديث ابن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ: «**ثم يبعث الله الملَك، فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي، أو سعيد**»[٣].

التَّوَسُّلُ بِأَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى

١٨٠- ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ[٤] فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

(١) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠٤٤) برقم (٢٦٥٣).
(٢) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠٥٠) برقم (٢٦٦٢).
(٣) البخاري (١٣/ ٤٤٠) برقم (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٧٤٥٤) ومسلم (٤/ ٢٠٣٦) برقم (٢٦٤٣).
(٤) قرأ حمزة بفتح الياء والحاء من (يلحدون) مضارع (لحد) الثلاثي، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء مضارع (ألحد) الرباعي، وهما بمعنى الميل.

تهجَّد النبي ﷺ ذات ليلة بمكة، فجعل يقول في سجوده: **«يا رحمن، يا رحيم»**، فقال المشركون: كان محمد يدعو إلهًا واحدًا، فهو الآن يدعو إلهين اثنين: الله، والرحمن، ما نعرف إلا رحمن اليمامة، يعنون: مسيلمة(١).

وقال رجل في صلاته: يا ألله، يا رحمن، فقال أبو جهل: يزعمون أنهم يعبدون ربًّا واحدًا، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾(٢).

ومقولة المشركين بالأمس يقولها النصارى، مشركوا اليوم، يقولون: إنكم تُثلِّثون، فتدعون في البسملة ثلاثة آلهة: الله، الرحمن، الرحيم، على حدِّ جهلهم في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ①﴾ يقولون: وأنتم توحدون، وتقولون: إله واحد، فهي مقولة قديمة قالها المشركون، ويقولها مشركو اليوم أيضًا.

دعاء العبادة ودعاء المسألة:

والله ﷻ يقول: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] ادعوه دعاء العبادة: بأن تعبد الله تعالى بمقتضى هذه الأسماء، فتتوب إليه لأنه تواب، وتذكره لأنه سميع، وتستغفره لأنه غفار، وهكذا.

وتدعوه دعاء المسألة، فتقدم بين يدي الدعاء شيئًا من أسمائه، كأن تقول: يا غفور اغفرلي، يا رحيم ارحمني، يا رزاق ارزقني، يا تواب تب عليّ وهكذا.

والعبد يبدأ دعاءه بحمد الله تعالى وتمجيده وتعظيمه، ويختم دعاءه بشكره وحمده والثناء عليه، ويصلي ويسلم على نبيه أولًا وآخرًا.

١- **الاسم والصفة:** ومن هذه الأسماء ما هو عَلَمٌ على الذات العليا باعتبار دلالتها، مثل: الله، الرحمن، الرحيم.

٢- ومنها ما هو صفة من صفات الله تعالى، باعتبار معانيها، مثل: الخالق، الرازق، العزيز، الحكيم، الغفور.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (١٥/ ١٨٢) عن مكحول، وهو مرسل.

(٢) «تفسير القرطبي» (٧/ ٣٢٥) وابن عطية (٢/ ٥٨١) وغيرهما.

٣- ومنها ما لا يطلق إلا على الله تعالى، مثل: الحي، الغني.

٤- ومنها ما لا يحسُن الاتصاف به إلا في جنب الله تعالى مثل: المتكبر، الجبار.

قال الشيخ ابن سعدي في تفسير الآية:

وضابطه: أنه كلّ اسمٍ دالٌّ على صفةٍ كمالٍ عظيمة، وبذلك كانت حسنى.

فإنها لو دلّت على غير صفة، وكانت علمًا محضًا، لم تكن حسنى، ولو دلّت على صفة، ليست صفة كمال، بل كانت صفة نقص، أو صفة منقسمة بين المدح والقدح، لم تكن حسنى.

فكل اسم من أسمائه تعالى دال على الصفة التي اشتق منها مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو (العليم) الدال على أن له سبحانه عِلْمًا مُحيطًا عامًّا لجميع الأشياء، لا يخرج عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

و (الرحيم) يدل على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء.

و(القدير) يدل على أن له قدرة عامة لا يعجزها شيء، ومن تمام كونها حسنى أنه لايُدْعى إلا بها، انتهى بتصرف.

ليس لأسماء الله عدّ ولا حصر:

ولما كانت أسماء الله تعالى لا تدخل تحت عدّ ولا حصر، ولم يرد نص صحيح يحصر عددها، لذلك فقد اجتهد السلف والخلف في استنباطها من الكتاب والسنة حتى يظفروا بما وعد الله به مِنْ أنَّ مَنْ أحصاها دخل الجنة.

والمراد بالإحصاء في الحديث: إحصاء عددها وألفاظها وفهم معانيها ومدلولاتها، ودعاء الله تعالى وسؤاله بها، والتوسل بها إلى الله عز وجل.

وفي الحديث عن عائشة ﵂ في صحيح مسلم (٤٨٦) «**لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**».

والعلم بأسماء الله تعالى وصفاته، هو أشرف العلوم وأفضلها، لأنه يتعلق بأشرف معلوم هو الله تعالى، فهو أصل العلوم وأصل الإيمان.

وفي القرآن الكريم من أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله ما لا تكاد تخلو منه آية.

قال ابن تيمية: والقرآن فيه من ذِكْر أسماء الله وصفاته وأفعاله؛ أكثر مما فيه من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنة، والآيات المتضمنة لذكْر أسماء الله وصفاته أعظم قدرًا من آيات المعاد.

وقال ابن القيم: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها؛ أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات إما أن تكون خلقًا لله تعالى، أو أمْرًا له، فهي إما عِلْم بما كوّنه الله تعالى، أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى.

أسماء الله تعالى من قبيل المحكم:

وأسماء الله تعالى كلها من قبيل المحكم، وليست من المتشابه، لأن معانيها معروفة في لغة العرب وليست مجهولة، وإنما المجهول هو الكُنْه والكيفية فقط.

أسماء وأعلام وصفات:

وأسماء الله تعالى دالة على صفاته ومشتقة منها، فهي أسماء وأعلام باعتبار دلالتها على ذات الله تعالى، وهي صفات باعتبار معانيها، وبذلك كانت حسنى، أي بالغة في الحسن غايته، لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالًا ولا تقديرًا، فالنقص مستحيل على الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

الصفات أوسع من الأسماء:

وباب الصفات أوسع من باب الأسماء، لأن الوصف يتضمن ثلاثة أمور هي:

١- ثبوت ذلك الاسم لله تعالى.

٢- وهذا الاسم يتضمن ثبوت الصفة التي تضمنها لله عزوجل.

٣- ويتضمن ثبوت حكمها ومقتضاها.

فالسميع -مثلًا - يتضمن إثبات اسم السميع لله تعالى، ويُثْبت صفة السمع له سبحانه، ويُثبت حكم ذلك، ومقتضاه من أن الله تعالى يسمع السر والنجوى.

وهكذا (الحي) يثبت هذا الاسم لله تعالى، ويثبت صفة الحياة له سبحانه.. الخ.

وأفعال الله تعالى وأقواله لا نهاية لها، ومن ذلك أننا نصفه بالمجيء والنزول والاستواء والإتيان والأخذ والبطش، ولا نسميه بها.

أنواع الصفات:

١- ومن الصفات ما هو قائم بذات الله تعالى وملازم له لا ينفك عنه، ولا يتعلق بالمشيئة والإرادة والوجه واليدين والسمع والبصر والحياة والقدرة.

٢- ومنها صفات الأفعال التي تتعلق بمشيئة الله تعالى وإرادته، كالاستواء والمجيء والنزول لفعل القضاء.

٣- ومن الصفات ما لا يطلق إلا على الله تعالى، ومن ذلك: الرحمن، الخالق، الرزاق، الباريء.

٤- ومنها ما يطلق على الخلْق بصيغة التنكير كالرحيم والكريم والحكيم.

٥- ومن الصفات ما هو ثبوتيّ كالعلم والحياة والقدرة.

٦- ومنها ما هو سلْبي نفاها الله تعالى عن نفسه، فنُثبت لله ما أثبته لنفسه، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه، ونُثبت له الضد، كما في قوله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]

فنفيُ الموت عنه سبحانه يتضمن كمال حياته.

كما أن نفْي الظلم عن الله تعالى يتضمن كمال عدله، ونفْيُ العجز عنه يتضمن كمال قدرته وعلمه.

وبذلك خُتمت الآية بقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]

فصفات السلْب المحض لا تدخل في أوصافه تعالى إلا إذا كانت متضمنة للثبوت، كصفة (السلام) المتضمنة لبراءته تعالى من كل نقص.

وهكذا نؤمن بأسماء الله تعالى وصفاته الواردة إلينا عن طريق السماع فنثبتها ونُقِرُّبها ونصدِّقها دون تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل.

صحة الحديث بدون عدّ الأسماء:

وجاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة، وهو وَتْرٌ يحب الوَتْرَ**»[١].

زاد الترمذي بعد قوله: «**يحب الوتر، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعال، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور. فمن أحصى عددها وحفظها، وآمن بها وعظَّمها، ودعا الله بها، واعتبر بمعانيها دخل الجنة**»[٢].

---

(١) البخاري (١١/ ٢١٤) برقم (٢٧٣٦، ٦٤١٠) و(٧٣٩٢) ومسلم (٤/ ٢٠٦٢) برقم (٢٦٧٧) و«المسند» (٧٥٠٢، ١٠٦٨٦) حديث صحيح ورجال ثقات، ومحمد بن إسحاق قد توبع والترمذي (٣٥٠٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٥٩) وابن حبان (٨٠٧) وابن ماجه (٣٨٦٠) والطبراني في «الأوسط» (٩٨١، ٤٩٠٠).

(٢) «سنن الترمذي» (٥/ ٥٣٠) برقم (٣٥٠٧) وقال: هذا حديث غريب، والبيهقي في الأسماء ص١٥، وابن حبان (٨٠٨) والطبراني في الدعاء (١١١) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٨٦١) قال البوصيري في «زوائد ابن ماجه»: طريق الترمذي أصح شيء في هذا الباب، وفي إسناد طريق ابن ماجه ضعف؛ لضعف عبد الملك بن محمد الصنعاني، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/ ١٦) قال الألباني: ضعيف بسرد الأسماء كما في «ضعيف سنن الترمذي» (٦٩٦) وقال في ضعيف ابن ماجه (٨٤٢): صحيح دون عدّ الأسماء، وفي المشكاة أيضًا (٢٢٨٨) التحقيق الثاني.

وهذه الزيادة المذكورة في هذا الأثر مدرجة من بعض الرواة ولا يصح رفعها للنبي ﷺ

قال ابن تيمية: وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين - أي رواية الترمذي والبيهقي[1] - ليستا من كلام النبي ﷺ، وإنما كل منهما من كلام بعض السلف، فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين، كما في مجموع الفتاوى (٨/ ٩٦ و٢٢/ ٤٨٢)

وكل ما وصف الله تعالى بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسوله ﷺ- أسماء توقيفية، لا يجوز العدول عنها إلى غيرها، فلا يقال: يا كامل، أو يا عالم... إلخ؛ لعدم ورود ذلك.

ومن يدعو بأسماء الله الحسنى عليه أن يستحضر عظمة الله تعالى في قلبه، وأن يُخْلص له النية في الدعاء، ويراعي حسن الأدب فيه.

وقد وصف الله تعالى أسماءه بالحسنى في أربع آيات من القرآن الكريم:

١- قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ وهي الآية التي معنا من سورة الأعراف ١٨٠.

٢- وقوله سبحانه ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]

٣- وقوله جل شأنه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]

٤- وقوله عز وجل ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤]

والحسنى تأنيث الأحسن، كالكبرى والصغرى تأنيث الأكبر والأصغر.

وأسماء الله تعالى لا تنحصر في هذه التسعة والتسعين، وإنما هناك أسماء أخرى في كتاب الله تعالى، مثل: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وفي سنة رسول الله ﷺ مثل دعاء النبي ﷺ: «**يا حنَّان، يا منَّان**» وهناك أسماء في علم الله تعالى لا نعلمها.

وجاء في الأثر: «**ما أصاب أحدًا قط همٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به**

(١) قلت: وأخرجه أيضًا: ابن حبان، وابن ماجه، والطبراني، والحاكم، كما سبق في تخريجه.

في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرجا»[١].

وهذا الأثر مع ما فيه من مقال، نص صريح في عدم حصر أسماء الله الحسنى، وكلها تدل على كمال الله تعالى وعظمته.

الإلحاد في أسماء الله: وكل اسم من أسماء الله تعالى حسن، وليس فيها حَسَن وأحسن، فاطلبوا بأسمائه ما تريدون، ولا تغيروها، ولا تُسمُّوا بها من لا يستحقها ولا تتغنَّوا بها، ولا تسْخَروا منها، ولا تهزؤوا بها، ولا تلحنوا فيها، ولا تُسَمُّوا بها أصنامًا ولا شيئًا غير لائق بالذات العلية، ولا تكتبوها على شيء يُمتهن؛ ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، فإن لهم عقوبة وعذابًا على إلحادهم في أسمائه.

والإلحاد: هو الميل والانحراف والتغيير، والتأويل، أو التعطيل، أو التشبيه، والإلحاد في أسماء الله تعالى أيضًا: هو الزيادة، أو النقصان، أو التحريف.

ومن ذلك ما كان يفعله المشركون؛ من العدول بها إلى تسمية الأوثان والآلهة الباطلة حيث يصوغون من اسم الجلالة (الله) اسم اللات، ومن (العزيز): العُزَّى، ومن (المنان) مناة.

وهكذا فألفاظ: اللات، والعزى، ومناة، مأخوذة من أسماء صحيحة لله ﷻ، غيَّرها المشركون، وحرَّفوها وبدَّلوها، ومن يفعل شيئًا من ذلك، فسوف يجزى بعمله السيئ في الدنيا والآخرة لقاء ما عمل، وفي هذا وعيد بعذاب الله تعالى.

ومن الإلحاد في أسماء الله وصفاته ما يصفه به اليهود من قولهم: (إن الله فقير) وقولهم: (يد الله مغلولة) وزعمهم أن الله تعالى استراح من الخلق يوم السبت.

ومن الإلحاد: تعطيل الأسماء وجَحْد حقائقها، والقول بأنها مجرد أعلام لا تتضمن صفات ولا معاني، وهو قول الجهمية.

---

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في «المسند» (١/ ٣٩٢) برقم (٣٧١٢) بإسناد ضعيف لجهالة أبي سلمة الجهني، وهو غير أبي موسى الجهني (محققوه) وهو في صحيح ابن حبان برقم (٢٣٧٢) «موارد»، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٥٣) وأبي يعلى (٥٢٩٧) والبزار (٣١٢٢) زوائد والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢) وفي الدعاء (١٠٣٥) والحاكم (١/ ٥٠٩).

ومن الإلحاد: تشبيه صفات الله تعالى بصفات المخلوقين، ونحو ذلك.

أسماء الله توقيفية:

ولا يجوز أن يشتق له تعالى أسماء من الأفعال التي وردت مقيدة في الكتاب والسنة، كما قيّد سبحانه الانتقام بقوله ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة] فلا يقال: المنتقم، ولا من ضلال الفاسقين في قوله ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة] فلا يقال: المضل، فهذه أفعال مخصوصة ومقيدة، لا يجوز اشتقاق الأسماء منها على وجه الإطلاق.

فأسماء الله تعالى غيبية توقيفية يجب الوقوف فيها على ما جاء في الكتاب والسنة، وليس فيها قياس ولا اجتهاد، فلا يقاس على (الغني) السخي، ولا على (القوي) الجلْد، ولا على (القادر) المطيق، وهكذا.

مِنْ أَوْصَافِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُمْ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ

١٨١- ﴿وَمِمَّنْ[1] خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

قال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ كان حين يقرأ هذه الآية، ويقول: **«هذه لكم»** أي: هذا الوصف لأمة محمد ﷺ **«وقد أعطي القوم»** يعني: بني إسرائيل **«مثلها»**. ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾[2].

والمعنى: ومن جملة الذين خلقهم الله تعالى جماعة فاضلة كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، تقوم بالحق قولًا وعملًا، وتدعو إليه وتهتدي به، وتقضي به بين الناس، وهم أئمة الهدى، يعلمون الحق ويعملون به، ويعلّمونه لغيرهم، ويدْعون إليه وإلى العمل به، وهم المنعَم عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الطائفة المنصورة الظاهرة على الحق الذين لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم إلى يوم القيامة، وهذه الأمة القائمة، هم أهل الجنة الموصوفون بالاعتدال والتوسط.

فالمراد بالأمة في الآية: أمة محمد ﷺ كما في الحديث عن ثوبان ﷺ أن رسول الله

---

(١) قرأ أبو جعفر بإخفاء النون عند الخاء من (وممن خلقنا)، والباقون بإظهارها.

(٢) الطبري (١٣/ ٢٨٦) وهو مرسل.

ﷺ قال: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»** وفي رواية: **«وهم بالشام»**[١].

وهذه الطائفة ليست في زمن معين، ولا في مكان معين، بل هي إلى قيام الساعة، ويدخل فيها كل داعٍ يدعو إلى الحق من أهل الإيمان والهداية والاستقامة، وهي أمة تعدل بين الناس إذا حكموا في الأموال والدماء والأعراض والحقوق وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى ومصابيح الدجى، مراتبهم متفاوتة كل بحسب حاله وعُلوِّ منزلته، وهم أمة محمد ﷺ في الجملة.

عُقُوبَةُ المُكَذِّبِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ

١٨٢، ١٨٣- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

وإذا كان أهل الجنة يهدون بالحق، ولا يعدلون عنه إلى غيره، فإن أهل النار الذين كذبوا بآيات الله ولقائه، فجحدوها ولم يعملوا بها، ستفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا شيئًا فشيئًا؛ حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء، ثم يعاقبهم الله تعالى على غِرَّة فيضرون أنفسهم من حيث لا يعلمون ولا يتوقعون، وهذه عقوبة من الله تعالى على التكذيب بحججه وآياته.

وفي الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»**[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام].

وهؤلاء الذين كذَّبوا بآيات الله يمهلهم الله تعالى، فيطيل لهم في الأجل، ويزيد لهم في النعم والأرزاق؛ فتنة واستدراجًا لهم؛ حتى يظنوا أنهم لا يعاقبون فيزدادوا إثمًا وكفرًا وطغيانًا، وبذلك يزداد لهم العذاب ويتضاعف، وليس هذا تجنيًا عليهم، ولا انتقامًا منهم، بل هو جزاء من جنس العمل؛ فإن الله تعالى قد قلَّب قلوبهم وأفئدتهم، فلم يجد فيها خيرًا،

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧١، ٣٦٤٠، ٧٤٦٠، ٣٦٤١) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٢٠، ١٩٢١)

(٢) من حديث أبي موسى في البخاري برقم (٤٦٨٤) ومسلم برقم (٢٥٨٣).

ولم يجد فيها إلا الكيد والعناد والإصرار على الكفر، فعاملَهم بالمثل، وكاد لهم عقوبة لمكرهم وكيدهم وحيلهم، وعقوبة الله تعالى لا تُدفع بحيلة ولا قوة. ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾.

دَعْوَةُ الإِسْلَامِ إِلَى إِعْمَالِ العَقْلِ وَالفِكْرِ

١٨٤- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

والمكذبون بخاتم المرسلين يزعمون أن من يدَّعي من البشر أنه مرسل من عند الله مجنون، وقد قيل: إن النبي ﷺ صَعِدَ على الصفا يومًا، وأخذ يدعو قريشًا فخذًا فخذًا: «**يا بني فلان، يا بني فلان**» فحذَّرهم بأس الله، ووقائع الدهر، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوِّت حتى أصبح، فأنزل الله تعالى توبيخًا لهم: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾[1]، والقارئ يقف هنا، ثم يبدأ بنفي ما ذكروه ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾.

أي: أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أنه ليس بمحمد من جنون؟ بل هو رسول الله حقًّا وصدقًا، وما هو إلا نذير لكم من عقاب الله إن كفرتم ولم تؤمنوا، وهو لكم ناصح أمين، كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ] والآية باعثة على التفكير في أمر محمد ﷺ حتى يظهر للناظر نور الرسالة، وهدي النبوة، ووحدانية الخالق، فلينظروا في أخلاقه وهديه وصفاته، وينظروا فيما دعا إليه من عقيدة وعبادة وأخلاق وآداب، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الآداب إلا أتمها، وهو يدعو لكل خير وينهي عن كل شر، قال تعالى:

١٨٥- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ[2] حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

وبعد أن حثَّ سبحانه خلْقه على النظر والتدبر، بيَّن في هذه الآية المنظور فيه والمتفكر فيه؛ فإن الصنعة تدل على الصانع، فإذا دنا الأجل وماتوا قبل أن يتأملوا فقد فات أوان

---

(١) رُوي هذا عن قتادة بن دعامة بسند مرسل «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٨٩) و«زاد المسير» والخازن والبغوي وابن عطية وابن كثير.

(٢) قرأ الأصبهاني عن ورش بإبدال همزة (فبأي) ياء وصلًا ووقفًا، ولحمزة وقفًا تحقيق الهمزة وإبدالها ياء.

الاستدراك، وحقت عليهم كلمة الله؛ إذ لا عمل بعد الموت، أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله العظيم، وسلطانه القاهر في هذا الكون ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ في هذه الكائنات كلها فيتعظوا ويعتبروا ويُدْركوا أنها دالة على وحدانية الله تعالى، وعلى علمه وقدرته، ونفوذ مشيئته، وكلها تدل على تفرده بالخلق والتدبير، وتوجب صرف العبادة له وحده.

وقد قسَّم الله تعالى النظر في الآية إلى **قسمين**:

أحدهما: النظر في ملك الله تعالى كالسموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والجبال والشجر والدواب، والبحار والأنهار، وما إلى ذلك.

وثانيهما: النظر في مخلوقات الله تعالى، ودقائق أحوالها الدالة على عظيم قدرة الله تعالى، وأنه المتفرد بالخَلْق والتصرف والإيجاد والصنع.

وإذا نظر الخلق في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء، علموا أن الله تعالى هو الخالق لهذا الكون ومالكه، وأيقنوا أنه الواحد الأحد، وفي هذا تصديق لما جاء به رسول الله ﷺ في القرآن العظيم.

وهناك نظر **ثالث** دعت إليه الآية، وهو النظر في توقع قرب الأجل، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ فيهلكوا بسبب كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ فبأي تخويف وتحذير بعد تحذير القرآن يصدقون ويعملون؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

لا مطمع لأحد في هداية من أضل الله

١٨٦- ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ(١) فِى طُغْيَٰنِهِمْ(٢) يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

يختم الله - سبحانه - هذا المقطع من السورة ببيان أن من يضله الله عن طريق الرشاد

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (ونذرهم) بالنون ورفع الراء على الاستئناف، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بالياء على الغيب وجزم الراء عطفًا على محل (فلا هادي له) وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء ورفع الراء.

(٢) أمال (طغيانهم) دوري الكسائي وحده.

فلن يهديه أحد، ولا سبيل لهدايته، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أي: ويتركهم في كفرهم يتحيرون ويتخبطون فلا يخرجون منه ولا يصلون إلى حق، لأن ضلالهم أمر قدَّر الله تعالى دوامه، فلا مطمع لأحد في هدايتهم؛ لأن من اتصف بالتكذيب، وعدم التفكر في ملكوت الله تعالى، وفي شأن خاتم الرسل ﷺ، وفي توقّع قرب انتهاء الأجل، كان من غير المهتدين، وهم أهل الضلال.

لَا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمِنْهُ قِيَامُ السَّاعَةِ

١٨٧- ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

ولما ذكر - سبحانه - توقع اقتراب الأجل، ناسب ذلك الحديث عن قيام الساعة، وقد كان المشركون ينكرون البعث، ويتهكمون بالنبي ﷺ حين يحدثهم عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ [سبأ]

وكانوا كثيرًا ما يسألون النبي ﷺ عن يوم القيامة من باب التعجيز، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ].

والمكذبون بآيات الله السابق ذكرها، يسألون - على وجه الإنكار - متى تأتي الساعة؟ والقرآن يجيب الجميع: لا يعلم وقت قيامها إلا رب العالمين، فهي تأتي فجأة وبغتة، وقد خفى علمها على أهل السموات والأرض، وهذا معنى ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: خفي علمها على الجميع وعزّ عليهم معرفة وقت مجيئها.

وقد ورد كثير من الأحاديث تُبيِّن أن علم قيام الساعة عند رب العالمين:

١- من ذلك ما جاء في حديث جبريل المعروف أنه سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال:

«ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[(١)].

٢- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس، آمنوا أجمعون، فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، ولَتقومَنَّ الساعة، وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولَتَقُومَنَّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحَته فلا يطعمه، ولَتَقُومَنَّ الساعة، وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولَتَقُومَنَّ الساعة والرجل قد رفع اكُلَتَه إلى فيه فلا يَطعمها»**[(٢)].

٣- وفي لفظ آخر عن أبي هريرة ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال: **«تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة، والرجلان يتبايعان الثوب، فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم»**[(٣)].

٤- قال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسرَّ إلينا متى الساعة؟ فقال له الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي: حريص على استقصائها والعلم بها، كما أن اليهود تحدَّوْا النبي ﷺ قائلين: إن كنت نبيًّا فأخبرنا متى تقوم الساعة.

٥- وقد سأل أعرابي النبي ﷺ بصوت جهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: **«هاء»** -على نحو صوته- قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: **«ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددتَ لها؟»** قال: ما أعددتُ لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: **«المرء مع من أحب»** فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث[(٤)].

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٥٠، ٤٧٧٧) ومسلم (١/ ٣٧) برقم (٩) عن أبي هريرة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٦) وانظر: (٨٥) و«صحيح مسلم» (١٥٧، ٢٩٥٤) مختصرًا.

(٣) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٢٧٠) برقم (٢٩٥٤) والبخاري (٦٥٠٦، ٧١٢١).

(٤) له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، فيُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٦١٦٩) عن ابن مسعود، و (٦١٧٠) عن أبي موسى ومسلم (٤/ ٢٠٣٢) برقم (٢٦٣٩) عن أنس رضي الله عنه و (٢٦٤٠) عن ابن مسعود، و (٢٦٤١) عن أبي موسى، و«سنن الترمذي» عن صفوان بن عسال برقم (٣٥٣٥).

٦- وفي حديث عائشة ﵂ قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: **«إن يعش هذا لم يدركه الهرَم حتى قامت ساعتكم»**(١) أي: أن الموت يؤدي إلى البرزخ والدار الآخرة.

٧- وفي حديث أنس ﵁ أن رجلًا سأل النبي ﷺ قال: متى الساعة؟ وعنده غلام من الأنصار يقال له: محمد، فقال رسول الله ﷺ: **«إن يعش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرَم حتى تقوم الساعة»**(٢).

والمعنى في هذا وأمثاله: أن الإنسان إذا مات قامت قيامته.

٨- وعن حذيفة ﵁ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: **«عِلْمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن أُخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة وهَرْجًا»** قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فالهرج ما هو؟ قال: بلسان الحبشة: **«القتل»**، قال: **«ويُلقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد أن يعرف أحدًا»**(٣).

٩ - وصح عن رسول الله ﷺ من حديث أنس ﵁: أنه قال: **«بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين، وقرن بين إصبعيه، السبابة والتي تليها»**(٤).

١٠ - وعن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»**(٥).

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٢) و«صحيح البخاري» برقم (٦٥١١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٣).

(٣) «المسند» (٥/ ٣٨٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٠٩): رجاله رجال الصحيح ورقمه في «المسند» (٢٣٣٠٦) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات، رجال الصحيح، لكن إياد بن لقيط لم يدرك حذيفة وله شواهد عن أبي موسى في الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٢٤) وعن ابن مسعود بإسناد صحيح في «المسند» (٣٦٩٥) وعن أبي هريرة (٧١٨٦) كذلك، وانظر: البخاري (٧٠٦١) وابن ماجه (٤٠٥٢).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٤) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٥١) عن أنس والبخاري برقم (٤٩٣٦، ٥٣٠١، ٦٥٠٣) ومسلم برقم (٢٩٥٠) عن سهل بن سعد.

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٤٩).

وكثيرًا ما كان الناس يسألون النبي ﷺ عن موعد قيام الساعة الذي يتوعد فيه المشركين بالعذاب، فيقولون على وجه التكذيب والاستبعاد: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨، والملك: ٢٥] والله ﷻ يوجه رسوله دائمًا أن يجيبهم بأن عِلْم قيامها إلى الله، ولا يعلم ذلك نبي مرسل، ولا ملَك مقرب.

يسألك - أيها الرسول - هؤلاء المكذبون بالساعة : متى قيامها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ قل لهم: يا محمد، علم قيامها عند الله، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

وقد بيَّن - سبحانه - أن آخر أيام الدنيا هو أول قيام الساعة في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات] لا يعلم وقتها إلا الله، فانتهاء عمر الدنيا عند الله، ولا يعلمه أحد من الخلق؛ ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ثقل وقتها وخفي على جميع الخلق في العالم العلوي والسفلي، فلا يعلم وقت قيامها إلا الله، ولا تأتي الساعة إلا فجأة، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ على غفلة من الناس، وحين تأتي تكون شاقة وثقيلة على أهل السموات والأرض، فتنشق السموات، وتنتثر النجوم، وتكوَّر الشمس، وتسيَّر الجبال، وتزلزل الأرض والجبال، وهذا من ثقلها على الناس؛ حيث إنها تهيِّجهم، فالرجل قد يذهب إلى السوق فلا يعود إلى بيته، والناس يختصمون في شؤون الحياة فلا تتم الأمور بينهم. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ﴾ أي كأنك حريص ومهتم بمعرفة وقتها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يعرفها نبي مرسل ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، فاقتدوا بنيكم وكفوا عن السؤال عنها واعملوا لها فإن هذا هو الأهم.

قال قتادة: ذُكِر لنا أن النبي ﷺ قال: «**إن الساعة تهيج بالناس والرجل يُصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه**»[١].

فالساعة ستقوم، وفي يد الإنسان اللقمة فلا يبتلعها ولا تصل إلى فيه، وتقوم الساعة

---

(١) حديث مرسل ذكره الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٩٧) والثعلبي كما في تخريج أحاديث «الكشاف» للزيلعي (١/ ٤٧٥)، وابن كثير (٢/ ٢٧٢).

والرجلان ينشران الثوب بينهما في البيع والشراء فلا يتم البيع بينهما ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يس] أي: وهم يختصمون يختلفون في الأسواق في البيع والشراء ونحوهما ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: أن من لم يكتب وصيته لايجد أمامه وقتًا ليكتبها، ولا يتمكن من العودة إلى بيته ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠] حيث تقوم الساعة وتدركه قبل أن يعود إلى أهله؛ وذلك لأن قيام الساعة من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمه، فلم يُطْلِعْ عليه أحدًا من خلقه، وذلك لمصلحة العباد وإقامة العدل بينهم، وأكثر الناس لا يعلمون ما فيه نفعهم، ولذلك فهم يحرصون على ما لا ينبغي الحرص عليه، ويتركون السؤال عن الأهم ويسألون عما لا يَهُمّ.

ومن حكمة الله - سبحانه - أنه أخفى عنَّا أشياء لمصلحة البشر؛ منها قيام الساعة، وانتهاء الأجل، وساعة الإجابة في يوم الجمعة، وليلة القدر في شهر رمضان، واسم الله الأعظم في القرآن، وغير ذلك مما لم يطلع عليه أحد من البشر، والرسول ﷺ بشر له خصائص البشر، ولا يبلِّغ عن الله إلا ما أوحى إليه به.

والإعداد لقيام الساعة هو الأهم بالنسبة للمخلوق ؛ ولذا فإن النبي ﷺ لفت نظر الرجل الذي سأله عن موعد قيام الساعة إلى ما هو أهم، فقال له: «**ماذا أعددت لها؟**» هذا هو السؤال الذي ينبغي أن يهتم به السائل، هب أن الساعة تقوم الآن أو غدًا، فماذا أعددت لها؟ فقال الرجل: ما أعددتُ لها كبير صلاة ولا صيام، بالنسبة للنوافل، فهو يؤدي الفرائض وبعض النوافل، قال: ولكني أحب الله ورسوله، ومحبة الله ورسوله تعني: السير على منهج الله ورسوله، والامتثال لأمر الله، والانتهاء عما نهى عنه، فبين عليه الصلاة والسلام أن المرء يحشر يوم القيامة مع من أحب.

وهذه نقطة هامة في حياة المسلم؛ أي: أن العبد إذا أحب الكافر، أو الظالم، أو الفاسق، أو الفاجر، أو المبتدع، فإنه يحشر معه، وإذا أحب الصالح المؤمن المهتدي فإنه يحشر معه. قال تعالى:

١٨٨- ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ

ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ(١) إِنْ أَنَا۠(٢) إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

قل - أيها الرسول - لمن يسألون عن الساعة : إني فقير إلى الله، لا أجلب لنفسي خيرا، ولا أدفع عنها ضرا، ولا علم لي إلا ما علمني الله، ولو كنت أعلم شيئًا من الغيب لفعلت ما فيه مصلحتي ومنفعتي وتجنبت ما فيه ضري ومساءتي..

ذكر البغوي بسنده عن ابن عباس ﷺ: أن أهل مكة قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو، فتشتريه فتربح فيه عند الغلاء، وبالأرض التي يريد أن تجدب، فترتحل منها إلى التي قد أخصبت؛ فأنزل الله هذه الآية.

وفيها بيَّن - سبحانه - أن النبي ﷺ بشر، لا يملك نفعًا ولا ضرًّا لنفسه ولا لغيره، إلا ما شاء الله له، ولو كان ﷺ يعلم الغيب لاستكثر لنفسه من الخير وما مسه السوء، ومهمة الرسول ﷺ هي البلاغ والإنذار لمن ينتفع بالذكرى ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: أني لا أقدر على جلب خير لنفسي، ولا على دفع شر يحلُّ بها، ومن كان كذلك فهو حريٌّ ألا يعلم غيبًا ولا يدَّعيه، إلا ما أطلعه الله عليه من أمور الغيب ويسَّره له، فالأمر مفوض إليه سبحانه ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] وكذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تُكثر لي المصالح والمنافع، وقد كان عمل النبي ﷺ دِيمَةً(٣)، ينظر إلى الله تعالى في جميع أحواله، وهو سبحانه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ومعرفتي للغيب على سبيل الفرض يجعلني أجتنب الشر وأتَّقيه قبل أن يقع، ولكن هذا لم يحدث.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوًا خالصة، وبتسهيلها بيْنَ بيْنَ، والباقون بتحقيقها.

(٢) قرأ قالون بخلف عنه بإثبات ألف (أنا) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها وصلًا وإثباتها وقفًا، وهو الوجه الثاني لقالون.

(٣) يُنظَر حديث عائشة رضي الله عنها في «صحيح مسلم» برقم (٢١٧، ٧٨٣) والبخاري (٦٤٦٦) و«المسند» (٢٤١٦٢، ٢٤٢٨٢) وأبو داود (١٣٧٠) وابن خزيمة (١٢٨١) وابن حبان (٣٢٢، ٣٦٤٧) وغيرهم.

وما أنا إلا رسول الله إليكم، أخوِّف من عقابه من عصاه، وأبشِّر بثوابه من آمن به؛ فصدقه وعمل بشرعه ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ لكل من يُطلب منهم الإيمان، ويُدْعَوْنَ إليه، فأبشر الطائعين وأنذر العاصين، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧] وهذه البشرى ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالنبي ﷺ كسائر البشر، إلا أن الله تعالى اصطفاه لرسالته وخصه بالوحي وبعض الخصائص النبوية.

ولا يجوز التجاوز على حدود الله تعالى بإطراء نبيه ﷺ، أو رفعه فوق منزلته، بطلب المدد والنظرة منه ﷺ أو من أصحاب القبور، أو الاستعانة والاستغاثة به، وإقامة المولد له ﷺ أو لغيره من الصالحين بما يشتمل عليه من المنكرات؛ كاجتماع الرجال والنساء والتدخين وغيره، أو قراءة قصيدة البردة، وفيها من الغلو والإطراء ما فيها، وإذا بحثْت عمن يتشنج في الدفاع عن مثل هؤلاء، ربما تجده ممن لا يحافظ على صلاة الجماعة، سِيَّمَا صلاة الفجر، ويخالف النبي ﷺ في عدم متابعته في الكثير من سنته، ثم يتمسك بما لا أصل له في الإسلام، ولا يعود عليه بشيء، مع التهاون حتى في أركان الإسلام.

هٰذا: وعند عَتَبَةِ الغيب، تقف الطاقة البشرية، ويقف العلم البشري، وتقف قدرة البشر، وتنفرد الذات الإلهية، بخصائص لا يشاركها فيها بشر، ولو كان هذا البشر محمدًا ﷺ، فإنه ليس بيده شيء من الأمر، لا ينفع إلا فيما أرسله الله به من البشرى والإنذار، وهذا النفع يفوق نفع الآباء والأمهات والإخوان والأخلاء، ففيه الحث على كل خير والتحذير من كل شر.

التَّحْذِيرُ مِنْ صُوَرِ الإِشْرَاكِ بِاللهِ فِي ذُرِّيَّةِ بَنِي آدَمَ

١٨٩- ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾

لقد كانت القصة الأولى في سورة (الأعراف)، هي قصة آدم وحواء وإبليس، وجاء الربع الأخير من السورة في بدايته؛ ليتحدث عن نسلهما.

ولما كان موضوع السورة يتناول جانب التوحيد في دعوة الرسل، فقد جاء الربع الأخير منها يحذِّر من الشرك بالله ﷻ، ويبيِّن سَفَهَ عقول المشركين، ويفنِّد مزاعمهم، ويوضح لهم من يُعبَد، و ما لا يُعبَد من دون الله؛ من إنس أو جن، أو صنم أو وثن، ليس

بإمكانه أن ينفع أو يضر.

وفي عالمنا الفسيح، لا يزال يوجد في بعضه من يعبد الحجارة والتماثيل والبقر، وما إلى ذلك، وهذا هو الذي كان يحدث في الجاهلية، ويخاطب القرآن به جميع المشركين إلى يوم القيامة.

وكل مجتمع مسلم لا يعرف هذه الأوثان والأصنام، بحكم عدم وجودها فيه، ولكنها موجودة على وجه الأرض هنا وهناك في بعض الدول التي تنطبق عليها هذه الآيات، والقرآن الكريم لا يخص قومًا دون قوم، ولا مكانًا دون مكان، ولا زمانًا دون زمان، فهو دين كل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

وكما بدأت سورة (الأعراف) في أول آية منها بعد حروف التهجي بالحديث عن القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ كان ختام السورة أيضًا بالحديث عن القرآن ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ .

ويبدأ هذا الربع بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي آدم ﷺ، أو المراد بهذه النفس: ذرية آدم، وهو جنس الإنسان إلى يوم القيامة، من الرجال والنساء المنتشرون في الأرض على كثرتهم وتفرقهم وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]

وقد خلق الله حواء من آدم؛ ليسكن إليها ويألفها ويطمئن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

والمعنى: الله الذي خلقكم - أيها الناس - من نفس واحدة في طبيعة التكوين، وإن اختلفت وظيفتها بين ذكر وأنثى ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هي حواء خلقها من آدم زوجة له، ليسكن إليها وينقاد كل منهما إلى الآخر بزمام الشهوة.

قال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة: إن الله تعالى خلق آدم في الجنة وحده، ثم نام فانتزع الله أحد أضلاعه، فخلق منه حواء، خلقها الله من آدم زوجة له ليسكن إليها، وينقاد كل منهما إلى الآخر بزمام الشهوة.

ويعضده قول النبي ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها. وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرُها طلاقها**»[(١)].

أو المراد بالنفس الواحدة: زوج كل رجل من بني آدم.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الزوج فيأنس ويطمئن، وهذا الإيناس؛ كي لا يجفو الرجل المرأة حتى ينساق إلى غشيانها، ولو جعل الله التناسل حاصلًا بغير دواعي الشهوة لكانت نفس الرجل غير حريصة على الاستكثار من النسل، فلا تنصرف إليه إلا بعد تردد وتأمل كما ينصرف الإنسان إلى شرب الدواء.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: جامعها، قدّر الله تعالى أن يوجد النسل بينهما من هذا الجماع حملت به، والمراد بالضمير في ﴿تَغَشَّاهَا﴾: جنس الزوجين وليس خصوص آدم وحواء ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ هو ماء النطفة وبداية الحمل ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت عليه دون تعب، وذلك في أشهر الحمل الأولى، وهي مرحلة النطفة والعلقة، حيث يخف الجنين، وتخف بطن الأم، فتتحرك وتقوم وتجلس ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ وهذه مرحلة الحمل الثانية، أي: فلمَّا كبر وظهر بطنها، وتقدمت بها أشهر الحمل، وقرُب وقت ولادتها، صار في قلبها وقلب أبيه الشفقة على الولد، وعلى خروجه حيًّا صحيحًا سالمًا معافى، وعندئذ:

﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: دعا الزوجان ربهما عند قرب مجيء المولود ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا﴾ ولدًا ﴿صَالِحًا﴾ أي: بشرًا سويًّا مثلنا، ومولودًا تامًّا صالحًا في خِلْقته، وصالحًا في فطرته، وصالحًا في عمله، وصالحًا في خُلُقه ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك على إنعامك.

وقد صدر ذلك الخطاب بتذكير الناس جميعًا بنعمة خَلْقِهم من نفس آدم الذي تولَّدت منه البشرية ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة] وحين تَحْمِل الأنثى بالجنين، فإن كل أبوين يدعوان الله تعالى أن يجعل هذا الجنين صالحًا سويًّا ويتمنيان ذلك، وينذُران لله تعالى بلسان الحال أو المقال: لئن رزقهما الله مولودًا صالحًا ليشكُران الله تعالى عليه، ولكنّ المشركين من بني آدم لا يقابلون هذه النعمة بالشكر كما قالوا، بل يشركون بالله تعالى في هذا المولود بصورة أو أخرى.

---

(١) عن أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٤٦٨) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٣١، ٥١٨٤).

وهذه الآية تخاطب المشركين من بني آدم الذين أخذ الله عليهم الميثاق بتوحيد الخالق سبحانه، ونبذ الإشراك به؛ لإقامة الحجة عليهم بفساد عقولهم في إشراكهم وإشراك آبائهم.

فقد قيل: إن هذه الآية نزلت في قُصيٍّ بن كلاب، تزوج امرأة من خزاعة، فلما آتاهما الله أولادًا أربعة ذكور، سمَّى ثلاثة منهم: عبد مناف، وعبد العزى، وعبد الدار، وسمى الرابع (عبدًا) بدون إضافة، وهو الذي يُدْعى بعبد قُصي، وهذا من صور الإشراك بالله تعالى، وعلى هذا فالخطاب في الآية ليس لآدم وحواء، بل لمن أشرك بالله من ذريته.

وصح عن الحسن البصري فيما يرويه الطبري بسنده أنه قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم[1].

وقال في الآية: عُني بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بَعْدَه[2]. قال تعالى:

١٩٠- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ[3] فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ مولودًا كاملًا صالحًا في خلقه وخلقته، ورزقهما الله الولد بشرًا سويًّا، فبدل أن يشكروا الله سبحانه ويعبدوه ويوحدوه على ما أنعم به عليهم بإعطائهم المولود السوي الصالح في عقله وفطرته وخلقته وخلقه ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ أي: جعل الزوجين شركاء لله في هذا الولد، بأن سمياه عبدًا لغير الله، ولم يشكرا الله عليه بل نسبوه لغيره:

١- فهذا الشرك الذي في الآية وقع من ذرية آدم، ممن أشرك منهم بعده، كما قال الحسن. لا من آدم وحواء أنفسهما، بدليل أن الله تعالى قال في ختام الآية: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولم يقل (عما يشركان) فالمراد: ذرية آدم وحواء إلى يوم القيامة.

٢- وورد في الأثر بإسناد صحيح عن الحسن البصري أنه قال: المراد بذلك اليهود والنصارى، رزقهم الله الأولاد فهوَّدوهم ونصَّروهم[4].

---

(١)، (٢) «تفسير الطبري» (١٣/ ٣١٤).

(٣) قرأ نافع وشعبة وأبو جعفر (شِرْكًا)، والباقون (شُرَكَاءَ).

(٤) «تفسير الطبري» (١٣/ ٥١٣).

واليهود والنصارى من ذرية آدم رزقهم الله الذرية، وكان من المفروض وَفْقًا للفطرة، وللميثاق الذي أخذه الله على بني آدم، وعلى بني إسرائيل أن يعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، ولكنهم هوَّدوهم ونصَّروهم، وهذا هو الشرك.

٣- وقال ابن كيسان: هم الكفار، سَمُّوا أولادهم بعبد العزى، وعبد شمس، وعبد الدار، ونحو ذلك، وكان هذا قبل مبعث النبي ﷺ؛ حيث أشركوا بالله في مواليدهم، فبدل أن يسموهم عبد الله، وعبد الرحمن، سموا أبناءهم عبد العزى، وعبد شمس، وعبد الدار، وعبد مناف، وهذا إشراك بالله سبحانه.

قلت: ولا يزال هذا الشرك موجودًا في الناس إلى يومنا، حيث يسمون أبناءهم: عبد النبي، وعبد الرسول، وعبد الحسين، وعبد الرضى، وبعضهم ينذر مولوده للآلهة أو لخدمة المعبد أو لشيخ الطريقة، ونحو ذلك.

وجاء في بعض التفاسير أحاديث وآثار في معنى الآية غير صحيحة، وأغلب الظن أنها إسرائيلية، منها ما روي عن الترمذي والإمام أحمد وغيرهما أن حواء كان لا يعيش لها ولدٌ، فطاف بها إبليس وقال: سمِّيه عبد الحارث، فسمته فعاش[1].

وهذا كلام لا يصح؛ لأن آدم كان نبيًّا معصومًا من الشرك.

وقيل عن مجاهد: كان لا يعيش لآدم وامرأته ولد، فقال لهما الشيطان: إذا وُلِدَ لَكُما ولد، فسمياه عبد الحارث، وكان اسم الشيطان قبل ذلك الحارث ففعلا[2]. والله أعلم بصحة هذا.

---

(١) يُنظَر الحديث في «المسند» (٥/ ١١) برقم (٢٠١١٧) عن سمرة بن جندب، بإسناد ضعيف، لأن في رواية أبا حفص البصري عن قتادة ضعف، والحسن مشهور بالتدليس ولم يذكُر سماعه من سمُرة، وقد أعلَّه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٩) بثلاث علل، هي:
أ - أن أبا حفص البصري مختلف فيه.
ب - وأن الحديث ليس مرفوعا كما نقله الطبري عن سمُرة نفسه أنه قال: سمَّى آدم ابنه: عبدالحارث
جـ - وأن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا كما ذكر أعلاه، وقال الذهبي في «الميزان»: إنه من منكرات عمر بن إبراهيم، ورواه أيضًا الترمذي وقال: حسن غريب، وأخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٤٦) والحاكم (٢/ ٥٤٥) والطبراني في الكبير (٦٨٩٥)، وضعَّفه ابن العربي في «أحكام القرآن»، والقرطبي في تفسيره، وغيرهم.

(٢) «زاد المسير» في تفسير الآية .

وورد غير ذلك من الآثار حول هذا المعنى تفيد أن المولود سيكون مشوهًا، أو يموت، أو يكون حيوانًا، وقال ابن كثير: يظهر أنها من آثار أهل الكتاب.

وقد صح في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: **«إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»**(١).

وذكر أن ما وافق منها الدليل من الكتاب والسنة فهو صحيح، وما خالفهما فهو كذب، وما سكت عنه الشرع فهو المأذون في روايته:

كما في الحديث عن عبدالله بن عمرو ﷺ: **«حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»**(٢).

أي: فلا يصدق ولا يكذب؛ لقوله ﷺ: **«فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»**.

والنفْس الواحدة التي خلق الله منها البشر هي آدم، وجاءت آثار تفيد أن حواء خُلقت من ضلع، منها ما جاء عن ابن عباس ﷺ قال: **«خلقت المرأة من الرجل، فجعلت نَهمتُها في الرجل، وخلق الرجل من الأرض، فجَعل نَهْمته في الأرض، فاحبسوا نساءكم»**(٣) **والنهمة**: هي الحاجة.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا»**(٤).

ولا يوجد في الحديث تصريح بأنه ضلع آدم، ولكنه أمر معلوم؛ حيث لم يكن موجودًا قبل حواء إلا آدم.

والآية تشهد لهذا بمقتضى المفهوم المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة برقم (٤٤٨٥، ٧٣٦٢، ٧٥٤٢) والنسائي في «الكبرى» (١١٣٨٧) وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» برقم (١٠١٦٠، ٢٠٠٥٩) عن أبي نحلة الأنصاري، وكذا أحمد في «المسند» (١٧٢٢٥، ١٧٢٢٦) بإسناد حسن والبيهقي في «السنن» (٢/ ١٠) و«الشعب» (٥٢٠٦).

(٢) الحديث في البخاري عن عبد الله بن عمرو برقم (٣٤٦١).

(٣) ابن المنذر (١٣٠٤) وابن أبي حاتم (٤٧١٨) والبيهقي في «الشعب» (٧٧٩٨).

(٤) البخاري في بدء الخلق (٤/ ١٦١) برقم (٣٣٣١، ٥١٤٨، ٥١٨٦) ومسلم في الرضاع (٤/ ١٧٨) برقم (١٤٦٨) وأحمد في «المسند» (٥/ ٨).

وبعضهم يقول: إن (من) للجنس، أي خلق من جنس آدم حواء.

والمعنى الصحيح: أن الشرك وقع من ذرية آدم، ووقع من اليهود والنصارى، والنصارى وهم أكبر سكان العالم، ووقع من سائر الكفار والمشركين في أرجاء المعمورة، وقد بدأت الآيات بالكلام عن آدم وحواء، ثم انتقلت إلى الكلام عن الجنس، نظرا لوقوعه كثيرا في الذرية.

تَفْنِيدُ مَزَاعِمِ المُشْرِكِينَ فِي آلِهَتِهِمُ المَزْعُومَةِ

أولا: الأوثان مخلوقة وليست خالقة قال تعالى:

١٩١- ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾

ثم إن الله ﷻ يفند مزاعم المشركين، ويخاطبهم، ويسفِّه عقولهم، وينكر عليهم شِرْكهم بالله تعالى؛ إذ كيف تعبدون ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون؟!

أليس الذي أوجد الذرية في بطون الأمهات، ثم أخرجهم خلقا سويا صحيحًا فأتم عليهم النعمة، أفلا يستحق أن يُعبد وحده، فيُخلَص له الدين، ولا يُشرك معه أحد في عبادته.

فهذا الذي يعبد من دون الله مخلوق مثلكم، سواء أكان إنسيًّا، أم جنيًّا، أم كوكبًا، أم صنمًا، أم وثنًا، فكيف يصلح أن يكون معبودًا وهو لا يقدر على خلْق شيء؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر]

﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات].

ثانيا: الأوثان لا تدفع الضر عن نفسها ولا عن غيرها: قال تعالى:

١٩٢- ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾

وكيف يشرك مع الله ما لا يستطيع أن ينصر نفسه، أو يدفع عنها الضر والأذى، فضلًا

عن أن ينصُر مَن عبَده، واتخذه إلهًا مع الله؟ إن هذا أظلم الظلم، وأسفه السفه، فمن لا ينصر نفسه، فأحرى به ألا يدفع شيئًا عن غيره؛ لأنه في غاية العجز والذلة، فالآلهة لا ينصرون مَن عبدهم إذا احتاج لِنَصْرِهم، ولا ينصرون أنفسهم إن اعتدى عليهم أحد.

قصة عمرو بن الجموح: ومما يذكر في هذه الآية: قصة عمرو بن الجموح قبل أن يُسْلِم، فقد كان يعبد صنمًا، وكان يغسِّله ويطيِّبه، فكان ابنه (معاذا) ومعاذ بن جبل، يأتيانه ليلًا ويلطِّخانه بالقاذورات والنجاسة، وينكِّسان رأسه، ثم يأتي عمرو بن الجموح في الصباح ليغسِّله مرة ثانية، ويطيِّبه، فهو إلهه الذي يعبده ويحترمه! ثم يضع السيف عنده، ويقول له: انتصر، انتصر لنفسك، دافع عن نفسك، فيأتي الصحابيان مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، وينكسان رأسه، ويلطخانه بالنجاسة، وهكذا، وفي المرة الأخيرة جاء الصحابيان وربطا هذا الصنم مع كلب ميت، وألقياه في بئر، فجاء عمرو بن الجموح، ولَمَّا لم يجد إلهه قد دفع الضر عن نفسه، أخذ ينشد بيتًا من الشعر يقول فيه:

تَـاللَّـهِ لَـوْ كُـنْـتَ إِلَـهًـا مُـسْـتَـدَنْ ... لَمْ تَكُ وَالْكَلْبَ جَمِيعًا فِي قَرَنْ

فهو يقول: إن هذا الصنم لا يصلح أن يكون إلهًا؛ لأنه قد سلَّحه ووضع عنده السيف، ومع ذلك فهو يلطخ بالأذى، ويُربط مع كلب ميت، ويلقى به في بئر، ولم يدفع شيئًا عن نفسه؛ فأسلم عمرو، وحسن إسلامه، وقُتِل يوم أحد شهيدًا.

ثالثًا: الأوثان لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل: قال تعالى:

١٩٣- ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ[(١)] سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

والمشركون قد خَتَمَ الله على قلوبهم؛ لأنهم أهل فسق وأهل ضلال، لا تنفع فيهم دعوة ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] فالإنذار وعدمه يستويان؛ لأنهم لا يقبلون هدى، ولا ينتفعون بموعظة.

ويصح أن يكون المعنى: وإن تدعوا أيها المشركون هذه الأصنام التي عبدتموها إلى الهدى

---

(١) قرأ نافع (لا يتبعوكم) بسكون التاء وفتح الباء، والباقون بتشديد التاء مع فتحها وكسر الباء.

لا تسمع دعاءكم ولا تتبعكم، يستوي دعاؤكم لها وسكوتكم عنها؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، وليس لها حواس ولا إدراك، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢] فهي أصنام لا تسمع دعاء من دعاها، فدعاؤكم لها وصمتكم عنها يستويان، والعاقل يحزم ببطلان إلهيَّتها وسفاهة مَن عبدَها.

رابعًا: مَنْ يُعبَدُونَ مِنْ أَرْبَابِ الْعُقُولِ، عِبَادٌ للهِ مِثْلَ غَيْرِهِمْ قال تعالى:

١٩٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

لفظ ﴿عِبَادٌ﴾ لا يطلق على الجمادات، وعليه فالآيات السابقة تتحدث عن الأصنام والأوثان، وهذه الآية تتحدث عمَّن يُعبد من دون الله، كالملائكة والجن والإنسان.

والمعنى: إن الذين يُعبدون من دون الله، سواء أكان عزيرًا، أو المسيح أو عليًّا، عند بعض الفرق الضالة، وكذا الجن والملائكة... إلخ، هم عباد لله، خلقهم الله لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله، مملوكون له، خلقهم الله كما خلقكم، فهم مخلوقون ومربوبون لله سبحانه، ومملوكون له ﷻ، وهم مسخرون ومذللون لخدمتكم، ولا يملكون لكم نفعًا ولا ضرًّا، فإن كنتم تزعمون أنها تستحق العبادة، فادعوهم في جلب نفع لكم، أو دفع ضر عنكم فإن أجابوكم فهم آلهة، وإلا فأنتم كاذبون مفترون.

خامسا: هيئة الأصنام تدل على أنها لا تنفع ولا تضر: قال تعالى:

١٩٥- ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ[١] بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ[٢] ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ[٣] فَلَا تُنظِرُونِ[٤] ﴿١٩٥﴾﴾

---

(١) قرأ أبو جعفر بضم طاء من (يبطُشون) مضارع بطش يبطُش، كخرج يخرج، وقرأ الباقون بكسرها مضارع بطش يبطِش، كضرب يضرب.

(٢) قرأ عاصم وحمزة ويعقوب بكسر اللام وصلًا من (قل ادعوا)، والباقون بضمها.

(٣) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات ياء (كيدون) وصلًا وحذفها وقفًا، وقرأ يعقوب وهشام بخلف عنه بإثبات الياء وصلًا ووقفًا، وقرأ الباقون بحذفها في الحالين، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٤) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا من (فلا تنظرون)، وقرأ الباقون بحذفها في الحالين، وللأزرق عن ورش ترقيق الراء وتفخيمها، والباقون بالتفخيم.

ثم بيَّن سبحانه أن الإنسان المشرك مميز عن الأصنام التي يعبدها، بما أوجد الله فيه من حواس، وفاقد الشيء لا يعطيه، ومع أن بعض هذه الأصنام على صورة الآدميين، فهي صورة جامدة، لا مطمع لأحد في أن يكون لها حس أو إدراك فكيف تفضلونها على أنفسكم؟ وهذه الأوثان ليس لها عقول وأنتم لكم عقول، وفيكم حياة ولا حياة فيها، فهي لا تمشي، ولا تسمع، ولا تبصر، ولا تتحرك.

والسبب في تخصيص هذه الجوارح أن قدرة الإنسان تكون بحواسه الأربع: الرجل، واليد، والعين، والأذن، فهي التي يستعين بها في كل أموره، وهذه الأصنام ليس لها شيء من هذه الأعضاء، فهي عاجزة لا تضر ولا تنفع، فهل لهذه الآلهة أرجل تسعى بها معكم في حوائجكم؟ أم لها أيدٍ يدفعون بها عنكم وينصرونكم على من يريد بكم شرًّا أو مكروهًا؟ أم لها أعين ينظرون بها فيخبرونكم بما لا ترونه؟ أم لها آذان يسمعون بها ما لم تسمعونه فيخبرونكم به؟

فإن كانت آلهتكم ليس لها شيء من هذه الجوارح، فما وجه عبادتكم لها وهي خالية من آلات النفع والضر، وما وجه عبادة البوذيين لتمثال بوذا، وما وجه عبادة بعض الهنود للبقر، واليونان والهندوس وجنوب السودان لآلهتهم، إن هذه الأوثان والأصنام ليس لها هذه الأعضاء الحسية التي تميز الإنسان من الحيوان، فكيف تُعبَد من دون الله؟

والله سبحانه يأمر رسوله أن يتحدى المشركين أن يضروه بأصنامهم فيوقعوا به السوء والمكروه؛ حتى يتبين لهم عجزها، فادعوا هذه الأصنام واعبدوها، ثم استنجدوا بهم ودبِّروا المكيدة لقتلي، ولا تمهلوني لحظة؛ فإني غير مبالٍ بكم، وقد كان المشركون يخوِّفون النبي ﷺ بآلهتهم.

والغرض من هذه الآية بيان جهل المشركين وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تضر ولا تنفع، ولا تقي ولا تدرك، وأنهم لو استغاثوا بهم؛ كي يتخلصوا من صاحب الدعوة فإنهم لم ينفعوهم شيئًا.

اللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ وَيَخْذُلُ أَعْدَاءَهُ

١٩٦- ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ[1] ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

ثم بيَّن جلَّ شأنه أن المشركين إذا استعانوا بآلهتهم للتخلص من حامل لواء الدعوة، فإن ذلك لن يجدي شيئًا؛ لأن الله تعالى هو القادر على كل شيء، فهو الذي ينصر أولياءه ويخذل أعداءه، فالله هو الذي نزَّل عليَّ هذا القرآن، فيه الهدى والنور، والشفاء للأبدان والأرواح ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ١٥٧] فيه الهدى والنور والشفاء للأبدان والأرواح.

والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور وهو الذي ينصرني ويحفظني، وهو الذي يتولاني ويرعاني، وينفعني ويضرني، وهو الذي يتولى الصالحين من عباده، وينصرهم على من خذلهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج:٣٨] لأنهم لا يعصون الله، ولا يعدلون به إلى غيره.

والتاريخ يسجل أمثلة حية من كيد المشركين لأولياء الله الصالحين الذين تربَّوْا في حجر رسول الله ﷺ وقد تولَّاهم الله بنصره وتأييده؛

وهذه ثلاثة أمثلة من كيد أولياء الشيطان لأولياء الرحمن:

أ - هذا أكرم مَنْ أقلَّته الأرض بعد رسول الله ﷺ إنه أبو بكر الصديق ﷺ، تناوله المشركون بالأذى الشديد، والضرب العنيف، فكان يقول: ربِّ ما أحلمك! ربِّ ما أحلمك! ربِّ ما أحلمك! لقد كان واثقًا أن ربه لا يعجزه تدمير أعدائه، وكان واثقًا أن ربه لن يتخلى عنه، وكان يعرف أن وراء هذا الأذى الشديد حلم ربه سبحانه.

ب - وهذا عبد الله بن مسعود ﷺ كان يُسمع المشركين القرآن وهو في جوار الكعبة، فكانوا يضربونه ويؤذونه حتى يتركوه يترنَّح، لا تُصْلَب له قامة، وكان يقول: والله ما كانوا أهون عليَّ

---

(١) قرأ السوسي في أحد وجهيه (ولي الله) بياء واحدة مشددة، مع الفتح والكسر فيها، وعلى الفتح يفخم لفظ الجلالة، وعلى الكسر يرقق، ويحذف الياء الأخرى، وقرأ الباقون بياءين: الأولى مشددة مكسورة، والثانية مخففة مفتوحة، وهو الوجه الثاني للسوسي.

منهم حينذاك، لقد كان يوقن أن من يُهِنْ أولياء الله، فهو أهون الناس على الله.

ج - وهذا عبد الله بن مظعون لم يسمح لنفسه أن يحتمي في جوار مشرك يكف عنه الأذى، وله إخوة في الله يعذبون، وكان يعلم أن جوار ربه أعز إليه من جوار العبد، لقد كان من قبل في جوار عتبة بن ربيعة المشرك، فلما ترك جواره، اجتمع المشركون على عتبة حتى فقد عينه، وكان عتبة بعد ذلك يدعوه إلى العودة إلى جواره فيقول له: لقد كانت عينك في غنى عمَّا أصابها.

فهذا وأمثاله يمثل نهاية التحدي من أولياء الله لأعداء الله، ويمثل نصر الله لأوليائه ودفاعه عنهم، فإنهم لمَّا لم يتولّوا أعداء الله تولاهم الله بعنايته ورعايته.

سادسًا: الأوثان لا تملك نفعًا ولا ضرًّا لنفسها ولا لغيرها: قال تعالى:

١٩٧- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾

تقدم نظير هذه الآية، والفرق بينهما أن الآية السابقة كانت على سبيل التقريع والتوبيخ، وهذه الآية تفرِّق بين من تجوز له العبادة، وهو الله رب العالمين الذي يتولى الصالحين بعنايته ورعايته، فيحفظهم وينصرهم، وبين من لا تجوز له العبادة من الأوثان والأصنام، وكل ما يُعبَد من دون الله، من كل ما لا يعقل ولا يستجيب، ولا قدرة له على دفع الضر عن نفسه ولا عن غيره، فتبيَّن أن الذين تدعونهم - أيها المشركون - لدفع ضر عنكم أو جلب نفع لكم، لا يمكنهم أن ينصروكم إن وقعتم في شدة أو كرب أو لقاء عدو، فضلًا عن أنهم لا يقدرون على نصر أنفسهم.

سابعًا: من الأوثان ما هو على صورة حيوانات بلا حياة ولا حركة قال تعالى:

١٩٨- ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أن الأصنام لا يتأتى منها اتباع ولا اهتداء ولا استجابة؛ فهي لا تنفع ولا تضر، ولا تنصر ولا تخذُل، فإن دعوتموهم إلى الهدى أو عبدتموهم، فإنها لا تستجيب لكم؛ لأنها جمادات لا تعقل ولا تشعر، ولا تسمع ولا تبصر ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فمنها التماثيل المصورة على صورة الإنسان، مثل: هُبَل، وذي

الكفين، وكعيب، كانوا على صورة رجل، ومثل سواع كان على صورة امرأة وهكذا، وفيها أعين مثل الإنسان، ولكن ليس فيها حياة، فلا ترى ولا تسمع ولا تبصر، فإذا رأيتها تصوّرت أن فيها حياة. وبعد التأمل ترى أنها جمادات لا حياة فيها ولا حركة، وهذه الجمادات اتخذها المشركون آلهة مع الله!

وُجُوبُ الأَخْذِ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ

١٩٩- ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

هذه وصية من الله تعالى لجميع الأمة أن يأخذوا بمكارم الأخلاق، ويقبلوا القليل من أقوال الناس وأفعالهم ومعاشرتهم، فهي آية جامعة لحسن الخلق مع الناس وما ينبغي التعامل به معهم، والله ﷻ يعلِّم رسوله ﷺ كيف يتأدب بآداب الإسلام، ويتخلق بأخلاق الإسلام، وكيف يتعامل مع الناس؛ فيقول:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي خذ ما سمحتْ به نفوس الناس من الأعمال والأخلاق ولا تكلفهم مالا تسمح به طبائعهم، فخذ ما سهل منهم، و عامل به الناس، واجعله وصفًا لك، واقبل اليسير من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم ولا تكن جافيا قاسياً، والعفو هو اليسير من الفضل.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهو المعروف، والصفح عن ذنب المذنب، ولا تؤاخذه بذنبه، وخذ من الناس اليسير من أخلاقهم، ولا تتطلع إلى الكثيرفاقبل أنت وأمتك الميسور من أخلاق الناس من غير تكلف ولا تجسس، واقبل اعتذارهم، ولا تستقص أحوالهم، ولا تطلب منهم ما فيه مشقة عليهم فينفروا منك، وأمرهم بالعرف، أي: بالأمر العادي من القول الحسن والفعل الجميل من كل ما حسنه الشرع.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ اصفح عنهم، وقابل السيئة بالحسنة، ولا تنازع السفهاء، ولا تماري الجهلة الأغبياء، وترفَّع عن التعامل بالمثل، وتجاوز عن تقصير بعضهم، وغُضَّ الطرْف عنه ولا تتكبر على ناقص عقل، ولا على صغير أو فقير، وعامل الناس بما تنشرح له صدورهم.

ولما نزلت هذه الآية سأل النبي ﷺ جبريل عليه السلام عن معناها، فقال جبريل للنبي عليه

الصلاة والسلام: «**إن الله أمرك أن تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك**»[١] لا تعامل الناس بالمثل.

فإذا أعطيت من أعطاك فهذا من باب المكافأة، ولكن أخلاق الإسلام تدعوك إلى أن تعطي من حرمك، وتتفضل عليه، وتكون أعلى وأكرم منه.

وإذا وصلتَ من وصلك، فهذه معادلة شحيحة؛ لأنها معاملة بالمثل، ولكن أخلاق الإسلام تطلب منك أن تصل من قطعك.

وإذا عفوْتَ عمَّن عفا عنك، فهذه معاملة بالمعروف، وهو أمر طبيعي، ولكن أخلاق الإسلام تأمرك أن تعفو عمَّن ظلمك، وتُحسن إلى من أساء إليك، هذا هو الإسلام.

روى البخاري وغيره عن ابن عباس ﷺ قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه، الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يُدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لِعُيَيْنة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله[٢].

وقد أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس[٣].

ففي حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ عن عقبة بن عامر ﷺ قال: لقيت رسول الله ﷺ

---

(١) «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٨) وقد أخرجه ابن أبي الدنيا (٢٥) والطبري (١٠/ ٦٤٣) وبنحوه عند ابن مردويه كما في تخريج «الكشاف» (١/ ٤٧٧) و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٥٩) و«فتح الباري» (١٣/ ٢٥٩)، وانظر حديث عقبة بن عامر الآتي فهو بلفظه ومعناه.

(٢) البخاري برقم (٤٦٤٢) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٩) والبيهقي (٨٣١٤).

(٣) البخاري في التفسير (٤٦٤٢) والنسائي في التفسير (١٢١٥) وأخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٧) والطبراني (١٢١٦) والحاكم (١/ ١٢٤) وقال الهيثمي: رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٥) والبيهقي والطبراني في «الأوسط» كما قال الهيثمي (٧/ ٢٨).

فابتدأته فأخذت بيده فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال؟ فقال: «**يا عقبة، صِلْ من قطعك، وأعطِ من حرمك، وأعرضْ عمن ظلمك**»[1].

قال بعض العلماء: الناس رجلان: إما رجلًا محسنًا، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته، ولا ما يُخْرِجه، وإما رجلًا مسيئًا، فمُرْه بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمَرَّ في جهله، فأعرضْ عنه، فلعل ذلك أن يردَّ كيده، قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون]

وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت].

وقد أثنى الله تعالى على رسوله ﷺ؛ لأنه ليِّن الجانب، لا يعاقب من أساء إليه، ولا يقابله بمثل صنيعه، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذه الآية على قِصَرِها تشتمل على مكارم الأخلاق، وقد جاءت في هذه السورة بعد حديث طويل عن دلائل وحدانية الله تعالى، وإبطال الشرك والشركاء؛ لتبين للناس أن التحلي بمكارم الأخلاق يأتي نتيجةً لإخلاص العبادة لله وحده.

وجاء ذلك في ثلاث كلمات تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات:

فقد اشتملت كلمة ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ على الأمر بصلة القاطع، والعفو عن المذنب، والرفق بالمؤمن.

واشتملت كلمة ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ على الأمر بصلة الأرحام، وتَقْوَى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

واشتملت كلمة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ على الأمر بالكف عن سفه السفهاء والأغبياء، وأهل الظلم والجهل.

---

(١) «المسند» (٤/١٤٨) و«سنن الترمذي» برقم (٢٤٠٦) والبيهقي (٨٠٧٩) قال محققو «المسند» (١٧٣٣٤): حديث حسن، وهو حديث طويل، وفي إسناده ضعف، لضعف علي بن يزيد، وجاء أيضًا برقم (١٧٤٥٢) وفيه ابن لهيعة، وقد توبع، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٢٢) وفي الكبير ١٧/(٨١٣) وابن ماجه (٢٢٤٦) والحاكم (٢/٨).

وفي هذه الآية تأديب لخلقه باحتمال مَنْ ظَلمهم واعتدى عليهم، وليس بالإعراض عمن جهل حق الله الواجب عليه، ولا بالصفح عمن كفر بالله، وحَارَب المسلمين، واغتصب ديارهم ومقدساتهم.

التَّحَصُّنُ بِاللهِ

أمَّا ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن فقد جاء في قوله تعالى:

٢٠٠- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

وهذه وصية من الله تعالى لعباده أن يلجؤوا إلى الله تعالى في دفع وسوسة الشيطان وهمزه ونفخه ونزغه.

والنزغ: حركة فيها فساد، تستعمل غالبًا في فعل الشيطان، ومن فعل الشيطان أن يشير الإنسان إلى أخيه بسلاح، أو بحديدة، ونحوها.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**يا رب، كيف بالغضب؟**»[1] فأنزل الله هذه الآية.

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء].

ومن صيغ الاستعاذة قوله ﷺ فيما يرويه جبير بن مطعم ﷺ: «**أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه**»[2] **ونفثُه**: الشِّعر، **ونفخه**: الكبر، **وهمزه**: الموتة.

والآية مرتبطة بما قبلها، وكأن الله تعالى يقول: إن ألقى إليك الشيطان ما يخالف الأخذ بالعفو، والأمر بالعرف، والإعراض عن الجاهلين، بأن سوَّل لك المعاملة بالمثل،

---

(١) الطبري (١٣/ ٣٣٣) و«الدر المنثور» (٣/ ١٥٤) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٢) من حديث جبير بن مطعم في «سنن أبي داود» برقم (٧٦٤) و«المسند» (٤/ ٨٥) برقم (١٦٧٣٩) وهو حديث حسن لغيره، وفيه إبهام الراوي عن نافع بن جبير (محققوه) والطبراني برقم (١٥٦٨) وابن خزيمة برقم (٤٦٨) وابن حبان برقم (١٧٧٩) «الإحسان» و«المستدرك» (١/ ٢٣٥) والترمذي برقم (٢٤٢) وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٢/ ٥١) وفي صحيح «سنن ابن ماجه» (٦٥٨) عن ابن مسعود، وفي «المسند» أيضًا عن أبي أمامة (٢٢١٧٩) وهو حديث حسن لغيره وفيه إبهام الراوي عن أبي أمامة. (محققو المسند).

أو ترك الأمر بالمعروف غضبًا عليهم أو يأسًا مِنْ هُداهم، فاستعذ بالله؛ ليدفع عنك هذا الحرج، ويشرح صدرك لمحبة ما أُمرت به.

والعوذ: هو الالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء؛ للعصمة من كيد الشيطان ومكره، ومع عصمة الرسول ﷺ من الذنوب فإنه كان يشكر الله تعالى، ويُظهر الحاجة إليه فيداوم على الاستغفار؛ لأن الشيطان لا ييأس من الوسوسة حتى إلى الأنبياء؛ طمعًا منه في صدور زلة منهم.

جاء في صحيح مسلم عن الأغر المزني ﷺ -وكان له صحبة- أنه ﷺ قال: **«إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة»**[1].

ونزغ الشيطان: وسوسته ونخسه في القلب، وتثبيطه للإنسان عن الخير، وحثه على الشر، فإذا شعرت بشيء من ذلك، كأن عرض لك إشارة منه، أو وسوس إليك الشيطان، وأراد أن يجرك إلى معصية، أو يجعلك سيئًا في أخلاقك وفي معاملتك مع الناس؛ فارجع إلى الله سبحانه والجأ إليه، فاستعذ به، فإنه يقيك ويحميك ويعصمك من الشيطان؛ لأنه سميع لكل قول، ومنه وسوسة الشيطان للإنسان، وهو سبحانه عليم بكل فعل، يعلم ما يريده الشيطان من الإنسان.

وليس للشيطان سبيل على الصالحين من عباد الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] والأنبياء معصومون من نزغ الشيطان.

والخطاب في الآية يراد به الأمة، كما أن قوله تعالى خطابٌ للرسول ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] يراد به الأمة أيضًا، وكما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل].

ففي الحديث عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما منكم من أحد إلا وقد وُكِل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة»** قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: **«وإياي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بحق»**[2].

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٢).

(٢) «المسند» (٣٦٤٨) وهذا لفظه، قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الجعد فمن رجال مسلم، وهو في صحيح مسلم (٢٨١٤) وعند أبي يعلى (٥١٤٣) والدارمي (٣٠٦/٢) والطبراني في الكبير (١٠٥٢٢) وابن حبان (٦٤١٧)، وقد جاء هذا الحديث من طرق وروايات متعددة بألفاظ متقاربة.

وقد ورَد: «**فأسلمَ**» بفتح الميم؛ أي: أسلم القرين وصار مؤمنًا فلا يأمره إلا بخير، ورُوي: «**فأسلمُ**» بضم الميم، أي: أسلم من شره وفتنته، وفي الحديث تحذير من فتنة الشيطان وإغوائه وكيده ووسوسته.

قال أحد من السلف لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سوَّل لك الخطايا؟ قال: أجاهده، وأعادها ثلاثًا وهو يقول: أجاهده، وشيخه يقول له: إن هذا يطول، ثم قال له: لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ماذا تصنع؟ قال: أكابده ما رده جهدي، قال: هذا يطول عليك، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك.

وفي الحديث أن رجلين تسابَّا في حضرة النبي ﷺ فغضب أحدهم، حتى احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه فقال ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» فقيل له، فقال الرجل: هل ترى بي من جنون؟[1].

تَبَايُنُ حَالِ أَهْلِ التَّقْوَى وَأَهْلِ الضَّلَالِ تِجَاهَ نَزغَاتِ الشَّيْطَانِ

٢٠١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ[2] مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾

ثم بيَّن سبحانه حال المتقين عند الإحساس بالذنب ونزغ الشيطان، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ ربهم بترك المعاصي والإشراك به، العائذين بالله عند وسوسة الشيطان لهم، من عباد الله المتقين الصالحين، الذين أدوا فرائضه، واجتنبوا نواهيه ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: إذا مسهم غضب وزَيَّن الشيطان لهم ما لا ينبغي، بأن وسوس إليهم وأراد أن يجرهم إلى معصية، **فالطائف**: هو الشيء الذي يلم بالإنسان ويطوف به فيزين له العمل، عندئذ ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أمر الله ونهيه، وعقابه وسخطه، وبحثوا من أي مدخل دخل عليهم كي يتجنبوه، وتذكروا ما وجب عليهم من طاعته تعالى والرجوع إليه ﴿فَإِذَا هُم

(١) البخاري برقم (٣٢٨٢، ٦٠٤٨، ٦١١٥) ومسلم (٤/ ٢٠١٥) برقم (٢٦١٠) وأبو داود (٥/ ١٤٠) برقم (٤٧٨١) من حديث سليمان بن صُرَد، و«صحيح سنن أبي داود» (٣٩٩٩) و«صحيح سنن الترمذي» (٣٦٩٦).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمر والكسائي ويعقوب (إذا مسهم طيف) على وزن (ضيف) مصدر من طاف يطيف، بحذف الألف بعد الطاء بعدها ياء ساكنة، والباقون (طائف) اسم فاعل، بألف بعد الطاء بعدها همزة مكسورة من غير ياء، من طاف يطوف.

﴿مُّبۡصِرُونَ﴾ حيث يرد الله إليهم صوابهم، ويقلعون عن المعصية، فينتهون عن الخطأ، ويبصرون طريق الحق، ويَعْصَوْن الشيطان، ويتجهون إلى الحق بعد أن تبيَّن لهم طريقه، فاستغفروا الله واستدركوا ما فرط منهم بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة.

أخرج البخاري وغيره بسنده إلى عطاء بن رباح، قال: قال لي ابن عباس ﷺ: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: «**إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوت الله أن يعافيك**» فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي ألا أتكشف، فدعا لها[١]، وهذه المرأة تكنى أمَّ زُفر.

وذكر ابن عساكر في تاريخه أن شابًّا كان يتعبد في المسجد، فأحبته امرأة، فدعتْه إلى نفسها، وما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ فخرَّ مغشيًّا عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات، فجاء عمر فعزَّى فيه أباه، وكان قد دُفِن ليلًا، فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر، فقال: يا فتى ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن] فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي ﷻ في الجنة مرتين[٢].

وقد أَرشدتْ هذه الآية إلى أن الاستعاذة من سمات المتقين، وأن الإخلال بها من سمات الضالين، وأن المتقين سرعان ما يرجعون إلى الله تعالى ويستجيرون به إذا مسهم طيف من الشيطان، وأن مسه لهم لا يؤثر فيهم؛ وذلك لأن مس الشيطان يَغْلِق بصيرة الإنسان عن كل خير، والتقوى هي التي تفتح البصيرة، وتجعل الإنسان دائمًا يتعظ، متذكرًا لأمر الله تعالى ونهيه، فينتصر على وساوس الشيطان وهمزاته.

أما إخوان الشياطين وأولياؤهم فإنهم يقعون في الذنب بعد الآخر، لأن الشياطين قد طمعت فيهم لمَّا قادتهم بسلاسة، قال تعالى:

٢٠٢- ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ[٣] فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ۝٢٠٢﴾

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٦٥٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٦) و«المستدرك» (٤/ ٢١٨).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٤١١) مخطوط و«مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور (١٩/ ١٩٠).

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر بضم الياء وكسر الميم من (يمدونهم) مضارع أمد، والباقون بفتح الياء وضم الميم مضارع مد.

وبعد أن وصف سبحانه حال المتقين مع الشياطين، يصف حال من لم يتقوا الله تعالى ولم يلجؤوا إلى حماه عند نزغات الشيطان؛ فإن إخوان الشياطين في الغي والضلال يختلفون عن الإخوان في الله، فالشياطين يمدون إخوانهم من الإنس بوسائل الفساد والهلاك، ولا يقصرون في إغوائهم، فلا يزالون يوقعونهم في الذنوب، فيجدونهم لا يقصرون في ارتكابها.

ومدُّ الشيطان لأتباعه في الغي هو التزيين والإغواء:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم] وقال سبحانه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨] أي: من إضلالهم وإغوائهم.

فأهل الضلال وإخوان الشياطين يقودون إخوانهم أهل الضلال من الإنس، وهم مستمرون في إغوائهم وإفسادهم، فهم يمدونهم في الغي ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: لا يتركون جهدًا يبذلونه في سبيل إغوائهم وإضلالهم، ولا يدخرون وسعًا في مَدِّهم بالغي، كما أن شياطين الإنس لا يدخرون وسعًا في العمل بما يوحي به إليهم شياطين الجن، وهذا بخلاف المؤمن التقي، فإنه لا يستمر في طريق الشيطان، بل يكف عن الضلال، وينزع ويتوب، ولا يسترسل في آثامه.

القُرْآنُ أَعْظَمُ مِنَ المُعْجِزَاتِ الكَوْنِيَّةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا المُكَذِّبُونَ

٢٠٣- ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم[1] بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

ومن مقالات الجاهلين التي أُمر النبي ﷺ أن يعرض عنها، طلبهم لخوارق العادات، أو نزول آية من القرآن فيها مدح لهم ولأصنامهم، وربما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ أحيانًا، فكان المشركون يقولون له إذا تأخر الوحي:

ألست نبيًّا؟ هلَّا اخترت، أو اختلقت لنا آية، فأتنا بقرآن من عند نفسك، أو ائتنا بمعجزة خارقة، ائتنا بالآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية، وهم يزعمون أن كل ما يأتي به

(١) أبدل همزة (تأتيهم) ألفًا رويس، والباقون بهمزة ساكنة.

النبي ﷺ هو من عند نفسه.

وكان المشركون يتعنتون بسؤالهم لرسول الله ﷺ ويطلبون منه الخوارق؛ كناقة صالح، وعصا موسى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وكانوا لا يقنعون بمعجزة القرآن: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] فكانوا يسألونه معجزة حسية مثل هذه المعجزات.

والله سبحانه يجيبهم ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ إذا لم تأت - يارسولنا - هؤلاء المشركين بآية كونية، كالعصا واليد، أو لم تأتهم بآية من القرآن- وكل ذلك محتمل، فلفظ آية يشمل المعنيين معًا - فإذا لم يجبهم إلى ما طلبوه، اتهموه ولم ينقادوا له، وزعموا أن بإمكانه أن يأتي بها؛ لأنها من عنده ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يعني: هلَّا أتيت بها من عندك هلا اختلقتَها وافتعلتها؟ ألسْت برسول؟

فأمره الله ﷻ أن يجيبهم بأنَّ ما يأتي به الرسول يرجع الأمر فيه إلى الله ﷻ، فهو الذي يُنزِّل الوحي متى شاء، لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء]

﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ فأنا عبد مُتَّبع، والله هو الذي ينزل عليّ الآيات:

قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين: ما أنا إلا رسول، ما أنا إلا عبد يوحى إليه، والآيات التي تطلبونها إنما هي من عند الله، ولا أملكها، وأنا مأمور باتباع الوحي، أليس في هذا القرآن كفاية لكم؟

ثم أرْشِدْهم - أيها الرسول - إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأصدق الحجج، وأوضح الدلالات، وكان النبي ﷺ لا يطلب آية غير ما أوحى الله به إليه، كما صح في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: **«ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**[1].

---

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٥٢) و«صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١، ٧٢٧٤).

وكأنَّ النبي ﷺ يقول: أنا أنتظر ما يوحى إليَّ، ولا أستعجل نزول القرآن إذا تأخر.

ثم وصف الله هذا القرآن بأنه علامات يُهتدى بها، وأنوار تضيء القلوب، وحجة لا تبطل في جميع الأوقات ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ تكشف وتنير وترشد إلى الحق؛ ويُستبصر بها في جميع الأمور الدينية والدنيوية والمقاصد الإنسانية، فإن هذا القرآن فيه الهدى والنور، والحجج والبراهين، وتنوير العقول والقلوب ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤] فيه هدى من الضلالة ورحمة من العذاب للمؤمنين خاصة ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالمؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه، ومن لم يؤمن به ضال شقي في الدنيا والآخرة.

هذه مراتب ثلاث هي: البصائر، والهدى، والرحمة، وكلها درجات للمؤمنين، وطرق متفاوتة لدخول الجنة، وهي ما يسميه بعض أهل العلم: عين اليقين، وعلم اليقين، وحق اليقين:

أ - أما عين اليقين وهي أعلى مراتب المؤمنين، فهي لمن بلغ الغاية في إخلاص التوحيد لله، فهو كالمشاهِد الذي يعبد الله كأنه يراه، وهؤلاء هم السابقون، أهل البصائر.

ب - وأما علم اليقين فهم أهل النظر والاستدلال، يعبدون الله تعالى كأنه يراهم، وهم على هدى من الدليل والاستنارة، وهم أهل اليمين، وأهل الهدى.

ج - أما حق اليقين فهم أهل الرحمة من عامة المؤمنين المسلمين، المستسلمين بعقولهم وقلوبهم لله رب العالمين.

أما غير المؤمنين فالقرآن عليهم عمى عقوبة لهم من الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وُجُوبُ الإِنْصَاتِ عِنْدَ اسْتِمَاعِ القُرْآنِ قَصْدًا

٢٠٤- ﴿وَإِذَا قُرِئَ[1] ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

جاء في **أسباب نزول هذه الآية** ما يلي:

---

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (قرئ) ياء مفتوحة وصلًا وساكنة وقفًا، ومثله حمزة وهشام بخلف عنه في حالة الوقف، والباقون بهمزة مفتوحة وصلًا وساكنة وقفًا.

١- عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: نزلت في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة[١].

٢- وعن أبي هريرة وقتادة قالا: كانوا - أي الناس - يتكلمون في صلاتهم بحوائجهم، ويصيحون عند آيات الرحمة وآيات العذاب في أول ما فرضت - يعني الصلاة - وكان الرجل يجيء يقول لصاحبه: كم صليتم وكم بقي؟ فيقول: كذا وكذا، فأُمِروا بالإنصات في الصلاة[٢].

٣- وقال الزهري: نزلت في فتى من الأنصار، كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئًا قرأه، فنزلت الآية[٣].

٤- وقال ابن عباس ﷺ: إن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة المكتوبة، وقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم، فخلَّطوا عليه، فنزلت الآية[٤].

٥- وعن سعيد بن المسيب قال: كان المشركون يأتون رسول الله ﷺ إذا صلَّى، فيقول بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[٥].

٦- وعن ابن مسعود ﷺ: أن ناسًا كانوا يقرؤون مع الإمام، وآخرون كان يسلم بعضهم على بعض في الصلاة، فنزلت الآية[٦].

هذه طائفة من أسباب النزول، كلها تشير إلى أن هذه الآية نزلت بصفة عامة في وجوب الاستماع والإنصات حال قراءة القرآن، وفي منع الكلام أثناء الصلاة على وجه الخصوص؛ حيث كان الكلام مباحًا في الصلاة في بدء فرضيتها، كما أن المشركين كانوا

---

(١) «زاد المسير» (٣/ ٢٠٣).

(٢) «زاد المسير» (٣/ ٣١٢) و«الدر المنثور» (٣/ ١٥٥) والطبري (١٣/ ٣٤٥) وانظر: ابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٨) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٤٥) والبيهقي في «السنن» (٢/ ١٥٥).

(٣) «تفسير الطبري» (١٣/ ١١١) والقرطبي (٧/ ٣٥٣) والبيهقي (٢٨١) في كتاب القراءة في الصلاة.

(٤) «تفسير الطبري» (١٣/ ٣٤٤) والبيهقي في القراءة (٢٨٠).

(٥) «تفسير القرطبي» (٧/ ٣٥٢).

(٦) «تفسير الطبري» الموضع السابق.

يحرضون الناس على اللغو وعدم الإنصات إلى القرآن حين يُتلى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]

والقول بأن الآية نزلت في وجوب الإنصات حال خطبة الجمعة لا يصح؛ لأن هذه الآية مكية، وقد فرضت صلاة الجمعة في المدينة.

إذن فقد كان المشركون الكبار، يرسلون غيرهم إذا قرأ الرسول ﷺ القرآن؛ ليشوشوا عليه، وكان بعض المسلمين يتكلمون أثناء الصلاة في بداية الدعوة؛ فأنزل الله سبحانه آية عامة تأمر بوجوب الإصغاء والسكوت التام عند تلاوة القرآن في الصلاة الجهرية، وفي القراءة الجهرية أيضًا خارج الصلاة، ووجوب تدبره وتفهم معانيه؛ رجاء رحمة الله تعالى.

﴿وَإِذَا قُرِئَ﴾ عليكم ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ في مجلس، أو من مذياع، أو في حفل، أو في الصلاة، أو في خطبة الجمعة، أيًا ما كان الأمر ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ إذ ليس المطلوب مجرد استماع فحسب، إنما المطلوب الإنصات أيضًا، والإنصات أبلغ من الاستماع، وهو أقوى وأكبر أثرًا في التدبر والتأمل.

والفرق بين الإنصالات أو الاستماع، والسماع: أن السماع يكون بدون قصد الاستماع، فهو في الظاهر، يكون بترك التحدُّث وعدم الاشتغال عنه بأمرٍ مًا.

أما الاستماع فيكون بحضور القلب وتدبّر ما يستمع، فهو يستمع عن قصد، ومَنْ فَعَل هذا نال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا متجددًا، وهُدًى متزايدًا، وبصيرة في دينه ودنياه. وقد دلت الآية على أن من لم يستمع ولم يُنصت أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «... **إذا صليتم فأقيموا صفوفكم...، وإذا قرأ فأنصتوا...**»[1].

﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ والله سبحانه علَّق رحمته جلَّ شأنه حال الاستماع للقرآن على الإنصات له والعمل بما فيه، وتدبر معانيه.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٠٤).

وللعلماء في وجوب السكوت والاستماع أثناء قراءة القرآن **أقوال أربعة**:

الأول: أنه يجب الاستماع إلى القرآن على العموم في أي وقت، وفي أي موضع تُلي فيه القرآن جهرا، بقصد الاستماع من المستمع، أما إذا كان القرآن يُتلى جهرا، وهو لا يقصد الاستماع، كأن سمعه في الطريق أو في مكان عام فلا يلزم.

وفي الأثر: «من استمع إلى آية من كتاب الله كُتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة»(١).

الثاني: أن المراد بذلك هو تحريم الكلام في الصلاة، فالمراد بالقرآن في الآية: القراءة في الصلاة، وقد كان المسلمون يتكلمون بحوائجهم في الصلاة، وكان بعضهم يسلم على بعض، فأمروا بالسكوت والاستماع.

الثالث: أن المراد بالإنصات في الآية: ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام.

وقد ذكر ابن مسعود وأبو هريرة ﷺ أن المسلمين كانوا يقرؤون مع الإمام جهرًا بأصواتهم في الصلاة، فنُهُوا عن ذلك.

الرابع: أن المراد: هو السكوت والإصغاء في خطبة الجمعة.

قلت: ومع أن الآية مكية وصلاة الجمعة قد أقيمت بالمدينة إلا أن الآية تشمل ذلك بعد نزولها، والسنة توضح ذلك كما في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: **«إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت»**(٢).

وأقول: إن الآية عامة، تشمل كل ما ذُكِرَ من وجوب الاستماع للقرآن قصدًا، وفي الصلاة وأثناء الخطبة، وقد بيَّنت السنة أن الصلاة لا يجوز فيها الكلام، وكذا المأموم لا يقرأ شيئًا أثناء جهر الإمام بالفاتحة أو القراءة.

أما قراءة المأموم للفاتحة في ركعتي الجهر فالذي يرجحه جمهور أهل العلم: أن يقرأ

---

(١) تفرد به أحمد في «المسند» (٢/ ٣٤١) برقم (٨٤٩٤) والبيهقي في «الشعب» (١٩٨١) عن أبي هريرة، عن الحسن البصري، ولم يسمع من أبي هريرة؛ ولذا ضعفه محققو «المسند».

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٩٣٤) ومسلم برقم (٨٥١).

المأموم الفاتحة في سكتات الإمام؛ خروجًا من الخلاف، وجمعًا بين الأدلة التي تأمر بوجوب الإنصات في هذه الآية.

ومثلها حديث أبي موسى ﷺ: «**إنما جُعِل الإمام ليؤتمَّ به، فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا**»[1].

مع حديث عبادة بن الصامت: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[2].

وإن ابتدأ المأموم في قراءة الفاتحة، ثم شرع الإمام سريعًا في قراءة القرآن، فليكمل المأموم الفاتحة، فقراءتها لا تستغرق لحظات.

وُجُوبُ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى فِي كُلِّ حَالٍ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ

٢٠٥- ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾

ثم وجه الله سبحانه رسوله ﷺ وأمته من بعده إلى وجوب ذكره تعالى وتسبيحه وتقديسه والثناء عليه بمحامده في جميع أجزاء الليل والنهار، فقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ والخطاب عام لسائر المكلفين، والذكر في النفس أبعد عن الرياء، وأقرب للإخلاص، والذكر يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح ويكون بالجميع، ثم ذكر سبحانه **ثلاث حالات** للذكر:

أولها: ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: تذللًا وخشوعًا وتواضعًا واستكانة مع تكرار أنواع الذكر باللسان.

وثانيها: ﴿وَخِيفَةً﴾ أي: تخوفًا من عذاب الله سبحانه بحضور قلب واستشعار لعظمة الله سبحانه.

وثالثها: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: إذا أردت أن ترفع صوتك فلا تنادي بصوت عالٍ، فأنت لا تدعو أصمًّا، ولا غائبًا إنما تدعو سميعًا بصيرًا.

ولما سأل بعض الصحابة رسول الله ﷺ فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ أنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٠٤، ٤١١، ٤١٢، ٤١٧) و«صحيح البخاري» برقم (٣٧٨، ٨٠٥، ١١١٤) و«المسند» (٨٨٨٩، ٩٤٣٨) وأبو داود (٦٠٤) وابن ماجه (٨٤٦) والنسائي (٩٢٠).

(٢) من حديث عبادة بن الصامت في «صحيح البخاري» برقم (٧٥٤) وانظر: (٦٨٠) و«صحيح مسلم» برقم (٤١٩).

ومما جاء في التوسط بالصوت في الدعاء ما جاء عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كنا في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال ﷺ: **«أيها الناس، اربَعُوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم»**[1].

واسأل ربك بصوت متوسط ليس فيه ارتفاع ولا انخفاض، في أول النهار وآخره، وهذا معنى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ حيث يأمرنا ربنا أن نذكره سبحانه صباحًا ومساء، وفي جميع الأوقات، وأن نكثر من ذكره جلَّ شأنه على وجه الخصوص في هذين الوقتين: الغدو، والآصال.

وهذان الوقتان: أول النهار وآخره، فيهما تُرفع الأعمال إلى رب العالمين، كل يوم بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر، والمراد أول النهار وآخره؛ لأن الآية مكية، فهي شاملة لكل أنواع الذكر.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ اللاهين عن ذكر ربك في سائر الأوقات، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق]. فلا تكن ممن نسوا الله فحرموا أنفسهم خير الدنيا والآخرة، وأقبلوا على أسباب الشقاء والتعاسة.

وأقول: إن المراد من الآية الحث على ذكر الله تعالى بتلاوة القرآن وتسبيحه وتحميده وتهليله وتكبيره وما إلى ذلك في جميع الأوقات، وفي جميع الحالات والمواضع:

اذكره جهرًا بصوت مرتفع بخشوع واستكانة، وهذا ما تعنيه كلمة ﴿تَضَرُّعًا﴾.

واذكره سرًّا في نفسك خوفًا من الله تعالى، وهو المراد بقوله: ﴿وَخِيفَةً﴾.

واذكره بين الجهر والإسرار، وهذا هو معنى: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

فاذكر الله في خلوتك كما تذكره في جلوتك.

وكلمة ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ أول الآية، تنصبُّ على الجميع، وتخاطب الرسول ﷺ وأمته.

وجميع الكلام يخرج من النفْس والصدر، أي: في نفسك وصدرك، والذكر يشمل القرآن وغيره.

---

(١) هذا اللفظ لمسلم ورقمه (٢٧٠٤) ورواه البخاري برقم: (٢٩٩٢، ٤٢٠٢).

ويؤخذ من الآية أن للذكر آدابًا منها:

١- أن الذكر في النفس مع تحريك اللسان ومواطئته للقلب أقرب إلى الإجابة، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى حسن التفكير.

٢- أن يكون الذكر على سبيل التذلل والخضوع لله تعالى، والاعتراف بالتقصير، والشعور بالندم.

٣- أن يكون الباعث على الذكر خشية النفس، وخضوع القلب، خشية من الله تعالى وخوفًا منه، والطمع في جنته والبعد عن ناره.

التَّأَسِّي بِالمَلَائِكَةِ فِي التَّسْبِيحِ وَالعِبَادَةِ

وهذا صنف من المخلوقات، عبادتهم مستديمة، وتسبيحهم لا ينقطع، قال تعالى:

٢٠٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

ثم يذكرنا رب العالمين في نهاية السورة أن نتشبه بملائكته الكرام، الذين لا يغفلون عن ذكر الله ﷻ لحظة من اللحظات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة الكرام، ومنهم حملة العرش والحفظة، كلهم منقادون لأوامر الله تعالى، غير متعالين ولا متكاسلين، فهم يسبحون الله في الليل والنهار، وينزهونه عما لا يليق به، ويسجدون له وحده لا شريك له، على علوِّ مرتبتهم وشرفهم وعصمتهم، وهم خاضعون لعظمته تعالى.

وأعمال العباد تنقسم إلى **قسمين**:

أعمال القلوب؛ وهي عقيدة التوحيد، وتنزيه الله تعالى عن كل نقص، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾

وأعمال الجوارح، ومنها السجود المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

فينبغي على القارئ والمستمع أن يسجد عند هذه الآية وأمثالها؛ ليوافق الملائكة المقربين في عبادتهم، ومن **الأحاديث في هذا** ما جاء:

١- في الصحيحين عن عبد الله بن عمر ﵄ أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن، فيقرأ سورة

فيها سجدة، فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد بعضنا موضعًا لمكان جبهته[(١)].

٢- وفي صحيح مسلم وغيره، عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويلي، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمِرت بالسجود فأبيت فلي النار»**[(٢)].

٣- وعن ثوبان ﷺ مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«عليك بكثرة السجود؛ فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة»**[(٣)].

٤- وعن عائشة ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن بالليل: **«سجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته، فتبارك الله أحسن الخالقين»**[(٤)].

سجود التلاوة:

وهذه أول سجدة في القرآن، وفي القرآن الكريم خمسة عشر موضعًا للسجدات، منها ثلاث في المفصل في آخر سورة النجم، والانشقاق، والعلق، وفي الحج سجدتان [١٨، ٧٧]، وفي آخر سورة الأعراف، وفي الرعد [١٥]، وفي النحل [٥٠]، والإسراء [١٠٩]، ومريم [٥٨] والفرقان [٦٠]، والنمل [٢٦]، والسجدة [١٥]، وفصلت [٣٨]، وص [٢٤].

واختلف في بعضها على النحو التالي:

المالكية والحنفية: لم يَعُدًّا آخر سورة الحج.

ولم يعد المالكية آخر سورة النجم والانشقاق والعلق.

ولم يعد الحنابلة والشافعية سجدة سورة ص.

فعدد السجدات عند المالكية: إحدى عشرة سجدة، وعند البقية أربع عشرة سجدة[(٥)].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٧٥) و«صحيح البخاري» برقم (١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٩) وأبو داود (١٤١٢) والبيهقي (٢/ ٣١٢)

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣٣) وابن ماجه (١٠٥٢) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٣١٢) وفي «الشعب» (١٤٨٧)

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٤٨٨).

(٤) «المسند» (٢٤٠٢٢) دون (فتبارك الله..) قال محققوه: وهو حديث صحيح، وفيه رجل مبهم بين ابن مهران وأبي العالية، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٠) وأبو داود (١٤١٤) والترمذي (٥٨٠، ٢٤٢٥) والنسائي (١١٢٨) والدارقطني (١/ ٤٠٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١٢٥٥)، بتصحيح الألباني له.

(٥) من بحث كامل في سجود التلاوة للمؤلف في كتاب «فن الترتيل وعلومه» (١/ ٤٠٧) وما بعدها.

وقيل في سبب نزول هذه الآية: إن كفار مكة قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ فنزلت الآية؛ لتخبر أن الملائكة وهم أكبر شأنًا، لا يتكبرون عن عبادة الله تعالى.

جاء في الحديث: عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضع جبهته ساجدًا لله**»[١].

وفي الحديث عن جابر بن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ: «**ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأول، ويتراصُّون في الصف**»[٢].

في فضل الذكر:

أ - وذكر العبد لربه في نفسه فيه إشعار بقربه منه وفضله وإحسانه عليه، وهذا هو (مقام الرجاء).

ب - فإذا تذكر العبد إنعام الله عليه، قَوِيَ في نفسه مقام الرجاء، ودعا ربه تضرعًا وخيفة، وهو (مقام الخوف) .

ج - فإذا قوي في قلب العبد داعي الخوف والرجاء قوي إيمانه، وكان بين الخوف والرجاء، فيتغلب عليه جانب الخوف وهو في حال الصحة والغنى، ويتغلب عليه جانب الرجاء إذا دنا أجله.

عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك؟**» قال: أرجو الله يا رسول الله، وأخاف ذنوبي، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف**»[٣]، والمراد بهذا الموطن: ساعة النزع الأخير.

تم تفسير (سورة الأعراف) ولله الحمد والمنّة

---

(١) من حديث أبي ذر في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٨٨٢) وقال الترمذي: حديث حسن غريب، ورواه أحمد برقم (٢١٥١٦) وهو حديث حسن لغيره وابن ماجه في صحيح سننه برقم (٤١٩٠) وحسّنه الألباني، وهو عند البزار (٣٥٢٤).

(٢) من حديث جابر بن سمرة في «صحيح مسلم» برقم (٤٣٠).

(٣) «سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٦١) و«سنن الترمذي» (٩٩٤) وقال: حديث حسن غريب وإسناده حسن كما قال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٧٨٥) وصحيح «سنن ابن ماجه» (٣٤٣٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٠٥١) وفي مشكاة المصابيح (١٦١٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الأَنْفَالِ (٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأنفال هي السورة الثامنة في ترتيب المصحف، والتاسعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة آل عمران وقبل سورة الأحزاب، وهي خمس وسبعون آية في العدد الكوفي(١).

وعدد كلماتها: ألف وست مئة وإحدى وثلاثون كلمة.

وعدد حروفها: خمسة آلاف ومئتان وأربعة وتسعون حرفًا.

وسورة الأنفال سورة مدنية، نزلت في غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة، بعد تسعة عشر شهرًا من الهجرة، وبعد تحويل القبلة بشهرين، ابتدأ نزولُها قبل قسمة غنائم بدر، واستمر نزولها إلى الانصراف من بدر، وهي ثاني سورة ابتدأ نزولها بالمدينة بعد نزول بعض سورة البقرة، وانتهى نزولها بعد نزول بعض آى سورة آل عمران.

وقد عُرِفت هذه السورة باسم (سورة بدر)، وعُرِفت أيضًا باسم (سورة الأنفال)، وغلبت هذه التسمية عليها بعدما كُتِبت أسماء السور في المصاحف في عهد الحجاج.

ووضْعُها في هذا المكان من المصحف هي وسورة براءة أَمْرٌ توقيفي كسائر السور على الأرجح.

مَوْضُوعُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ

نزلت سورة بدر؛ لتوجِّه المؤمنين، وتبيِّن لهم عوامل النصر على العدو في خوضهم للمعارك المستقبلية معه، وجاء ذلك في **نداءات ستة موجهة للمؤمنين**، هي بمثابة التربية والإعداد للمعارك:

١ - فحذَّرت من الفرار عند لقاء العدو؛ فإن ذلك من كبائر الموبقات، وتوعَّدت الفارِّين

---

(١) وست وسبعون آية عند أهل مكة والمدينة والبصرة، وسبع وسبعون عند أهل الشام، والآيات المختلف في عددها ثلاث هي: (ثم يغلبون)[٣٦] عدها الشامي والبصري وتركها غيرهما، (كان مفعولا) [٤٢] تركها الكوفي وعدها غيره، (وبالمؤمنين)[٦٢] تركها البصري وعدها غيره.

بأشد العذاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾.

٢- وأمرت بالسمع والطاعة، والبعد عن المعاصي والذنوب، فإن ذلك من أهم عوامل النصر على العدو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾.

٣ - وبينت أن سرعة الاستجابة لأوامر الله ورسوله فيها عز الدنيا وسعادة الآخرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [٢٤].

٤- كما بينت أن الحرب خدعة؛ ولذا: فإن أسرار الخطط الحربية، وإفشاء سر المسلمين، وبيان توجُّهاتهم ونيَّاتهم، وتحركاتهم للعدو، خيانة عظمى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾.

٥- وحثت على تقوى الله تعالى في السر والعلن، وامتثال أمره واجتناب نهيه، وتحكيم شرعه، والخوف من لقائه، وبيَّنَتْ أن ذلك من أكبر عوامل النصر على العدو، ومن أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [٢٩].

٦- و يأتي النداء السادس في سورة الأنفال؛ ليحدد سبعة أسس هي مفاتيح النصر على الأعداء، وهي:

(أ) الثبات في مواجهة العدو وعدم الفرار من ساحة القتال ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [٤٥].

(ب) الإكثار من ذكر الله تعالى وطلب النصر منه، ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾.

(ج) طاعة الله والرسول؛ لأن الاستواء في المعصية مع العدو تجعله يفوقنا بقوة السلاح، وينتصر علينا ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [٤٦].

(د) وحدة الصف ووحدة الكلمة بين الأمة الإسلامية في مواجهة العدو ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وهذا من لوازم عدم الفرقة.

(هـ) عدم الفرقة، وعدم الاختلاف والتنازع فيما بين المسلمين؛ فهو سبب الفشل، وذهاب القوة ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [٤٦].

(و) الصبر عند لقاء العدو، وتحمل المشاق، والمصابرة، والمرابطة ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾.

(ز) عدم الغرور بالنفس، وعدم الفرح والبطر والتكبر؛ فإن الغرور يحصد النصر على العدو، ويؤدي إلى الهزائم والنكسات ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [٤٧].

جاءت هذه التوجيهات السبعة في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ والآيات بعدها.

وكما تحدثت السورة عن المؤمنين تحدثت عن غير المسلمين الذين يكرهون الجهاد في سبيل الله، ويستهزئون بالإسلام وأهله، ويُمْعِنُون في الجحود واللَّغَط عند تلاوة القرآن الكريم، ويسارعون إلى إنفاق أموالهم في وجوه الشر، وصد الناس عن دين الله، والتآمر على الإسلام وأهله. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ [الأنفال: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

وقد شبههم القرآن بالصم البكم الذين لا يعقلون ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ﴾ فهم خونة؛ ينقضون عهدهم في كل مرة.

وقد أمر الإسلام بقتالهم، ومعاملتهم بالمِثْل في نبذ عهودهم، وإعداد العدة المستطاعة لهم؛ حتى يستسلموا ويطلبوا الصلح ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [٦١]. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ﴾ [الأنفال:٥٨]

سورة بدر:

وموضوع سورة الأنفال هو الجهاد؛ ولذا فإنها تبدأ بالحديث عن تقسيم غنائم المعركة من العدو، وتُفصِّل ما أجملته في أولها بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [٤١].

وتُثْنِي بأوصاف المؤمنين المستحقين للنصر على العدو، وتذكُر عوامل النصر في جميع المعارك، وتبيِّن أن المحادِّين لله والرسول ليسوا أهلًا للنصر، وتصف غزوة بدر بالتفصيل، وتبيِّن وجوب الإعداد للعدو في كل زمان ومكان، وتَذْكُرُ حكم الأسرى، وحكم الولاء والبراء في الإسلام.

والجهاد ركن عظيم من أركان الإسلام، وهو ذروة سنام الإسلام (أعلى شيء فيه)، وهو الذي يحمي الحق ويدعمه، ويقيم العدل بين الناس في الأرض، وبالجهاد تنتشر

دعوة محمد ﷺ، وبالجهاد يُنصَر الحق، ويُدفَع عدوان العدو.

ويوم يتخلَّى المسلمون عن الجهاد، وتُحذف هذه الكلمة المباركة من مناهج تعليم الأبناء تكون بطن الأرض خيرًا لهم من ظهرها.

هذا: وقد كف الله المسلمين عن قتال المشركين في مكة، ثم أَذِن لهم بالقتال في المدينة، ثم فَرَضَ عليهم القتال لمن قاتلهم، دون من لم يقاتلهم، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة، فكان القتال ممنوعًا في بدء الدعوة، قبل قيام الدولة الإسلامية، ثم أذن الله لهم به دَفعًا للظلم، ثم أَمر به لمن بدأ بالقتال، ثم أمر به بصفة عامة؛ لنشر الدعوة، وإزالة العقبات من طريقها، وقبل غزوة بدر وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وقعت مناوشات وسرايا بين المسلمين وغيرهم، لم يحضرها رسول الله ﷺ، وكانت هذه السرايا بمثابة جس النبض واستطلاع قوة العدو.

وسورة الأنفال تتحدث عن أول وأعظم معركة في الإسلام، ولذا: سماها بعض الصحابة سورة بدر، فقد نزلت في أعقاب أحداث غزوة بدر، وقد كان النصر الذي أعطاه الله ومنَحَهُ للمؤمنين في هذه الغزوة المباركة؛ مُكافأةً من الله سبحانه على الأذى الذي لقيه المستضعفون في الأرض من ضعاف المؤمنين طوال مدة تزيد على عشر سنوات؛ حيث اضطُهدوا في مكة، وأُخرجوا من ديارهم وأموالهم، فكانت مكافأة الله تعالى لهم بعد هذا الصبر الطويل أن أعطاهم هذا النصر العظيم، وكان هؤلاء الجنْد هم أدوات النصر، مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] قال تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [١٧]

وقال سبحانه: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [١٢]

وقال جل شانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

وقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [٢٦].

ولتبيِّن أيضًا الجهد البشري الذي قام به هؤلاء الرجال في الجهاد في سبيل الله، وتخاذل غيرهم ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ [٦، ٧].

أسباب النزول

١ - عن محمد بن عبد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: لما كان يوم بدر قُتل أخي عُمير، وقَتلْتُ سعيد بن العاص، وأخذتُ سيفه، وكان يُسمَّى ذا الكَتِيفَةِ، فأتيت به النبي ﷺ، فقال: «**اذهب فاطرحه في القبَض**» قال: فرجعتُ وبي ما لا يعلمه إلا الله مِنْ قَتْل أخي، وأخْذ سلَبي، فما جاوزتُ إلا يسيرًا حتى نزلتْ سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «**اذهب فخذ سيفك**»[١].

والقبَض بفتح الباء: ما جُمع من الغنيمة قبل أن تُقسَّم.

والسلَب: ما يأخذه المحارب ممن يقاتله.

٢ - وعن عكرمة، عن ابن عباس ﷺ قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «**من فعل كذا وكذا، فله كذا وكذا، فذهب شباب الرجال، وجلس الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت الغنيمة جاء الشباب يطلبون نفْلهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإنا كنا تحت الرايات، ولو انهزمتم كنا لكم ردءًا، فأنزل الله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِ﴾** فقسَّمها بينهما بالسواء»[٢].

---

(١) «مسند أحمد» (٣/ ٧٨) برقم (١٥٥٦) و«تفسير الطبري» (٩/ ١١٧) وفيه انقطاع؛ لأن محمد بن عبد الله الثقفي لم يرَ سعدًا، وقال الحافظ ابن حجر: الصواب أنه العاص بن سعيد بن العاص، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٣٧٠) وابن مردويه، وقال محققو «المسند»: حسن لغيره، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أن فيه انقطاعًا، وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٦٨٩) وأبو عبيد في الأموال (٧٥٦).

(٢) «سنن البيهقي» (٦/ ٢٩١) و«سنن النسائي الكبرى» (١١١٩٧) و«المستدرك» للحاكم (٢/ ٣٢٦) وصححه، و«سنن أبي داود» برقم (٢٧٣٧) و«تفسير الطبري» (١٣/ ٣٦٧) برقم (١٥٥٢، ١٥٦٥٠) بتصحيح أحمد شاكر وابن حبان في الإحسان برقم (٥٠٩٣) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٣٧٦، ٢٣٧٧) وابن المنذر في «الأوسط» (١١/ ١٤٦) والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٣٥) وقوله: كذا وكذا، أي: أن من قتل قتيلًا فله سلبه، ومن أسر أسيرًا فله كذا.

٣ - وعن عطاء بن رباح ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من دابة، أو عبد، أو أَمَة، أو متاع، فهو نفْل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء[١].

وهذا يعني أن المراد بالأنفال: الفيء، وهو ما أُخذ من الكفار من غير قتال.

٤ - وأخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدتُ معه بَدْرًا فالتقى الناس، فهزم الله العدو، فانطلقتْ طائفة في آثارهم يهزمون ويقتُلون، وأكبَّتْ طائفة على العسكر يحْوُونه ويجمعونه، وأحدقتْ طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غِرَّةً، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفيْنا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقْنا برسول الله ﷺ، وخفْنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلْنا به؛ فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ فقسَّمها رسول الله ﷺ بين المسلمين[٢].

٥- في صحيح مسلم وغيره أن سعدًا قال: نزلتْ فيَّ أربع آيات، وذكر منها أنه أصاب سيفًا فأتى به النبي ﷺ، وطلب منه أن يأخذه لنفسه -ثلاث مرات- والرسول ﷺ يقول له: **«ضعه من حيث أخذْته»** فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[٣].

والآيات الثلاث الباقية في بر الوالدين، والوصية بالثلث، وتحريم الخمر.

٦- وعن ابن عباس ﷺ قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: **«من قتل قتيلًا فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا»** فجاء أبو الْيَسَر بن عمرو الأنصاري بأسيرين، فقال: يا رسول الله، وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن أعطيتَ هؤلاء

---

(١) وهذا الأثر في «تفسير الطبري» (١٣/ ٣٦٥) بسند صحيح وعند ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٢٦) والنحاس ص ٤٥٧.

(٢) «المسند» (٢٢٧٦٢) وقال محققوه: حسن لغيره، ورواه الترمذي برقم (١٥٦١) وقال: حديث حسن، وكذا ابن ماجه برقم (٢٨٥٢) وكلاهما من حديث سفيان الثوري، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، و«المستدرك» (٢/ ١٣٦) و«صحيح ابن حبان» في الموارد برقم (١٦٩٣) وسعيد بن منصور (٩٨٢) و«سنن الدارمي» (٢٤٨٢) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٥٦).

(٣) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٦٢٨، ١٧٤٨) والبخاري (٢٤) و«مسند الطيالسي» برقم (٢٠٥) والبيهقي في «الشعب» (٧٩٣٢).

لم يبقَ لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الآخرة، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخاف أن يأتوك من ورائك فتشاجروا، ونزل القرآن ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ونزل ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾[١].

وجاءت روايات أخرى في أسباب نزول الآية وما بعدها، وعلى كلٍّ فإن جمهور العلماء على أن الآية نزلت في غنائم بدر لما اختلف الصحابة فيها، فقال بعضهم: نحن الذين حرزنا الغنائم، وقال آخرون: نحن الذين تتبعنا العدو فهزمناه وقتلناه، وقال غيرهم: نحن أحدقْنا برسول الله حتى لا يمسه العدو، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله الآية.

وصح عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ في صلاة المغرب بسورة الأنفال في الركعتين[٢].



(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» برقم (٩٤٨٣) عن الثوري وابن عساكر (٢٠/ ٢٥٠)وانظر حديث ابن عباس السابق.

(٢) يُنظَر: حديث أبي أيوب عند الطبراني (٣٨٩٢) وحديث زيد بن ثابت عند الطبراني أيضًا (٤٨٢٤) كلاهما بسند صحيح كما قال الهيثمي فيهما «مجمع الزوائد» (٢/ ١١٨).

تَفْسِيرُ السُّورَة

إِصْلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ فِي مَغَانِمِ بَدْرٍ

١- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾

بدأت سورة الأنفال بالسؤال عن حكم الغنائم المعبر عنها في الآية بالأنفال، وهي الغنائم التي جمعها المسلمون المنتصرون من الأعداء المنهزمين، والسؤال عنها له **معنيان**: إما أن يراد السؤال عن كيفية توزيعها على المجاهدين، وإما ان يكون السؤال بمعنى الإعطاء والطلب؛ أي: يطلبون من الرسول أن يعطيهم الأنفال، وحقيقة السؤال هو الطلب، فإذا عُدِّي بعن فهو لمعرفة الحكم فيها؛ وذلك لأن الذين قاتلوا مع النبي ﷺ يوم بدر، كانوا **ثلاث فرق**:

١- فرقة أقامت مع النبي ﷺ في العريش الذي صُنع له، وهم الشيوخ وكبار السن.

٢- وفرقة أحاطت بمعسكر العدو وما فيه من غنائم تحرسها.

٣- وفرقة قاتلت العدو وأَسَرتْه.

وكان النبي ﷺ قد قال في بداية المعركة: «**من قتل قتيلًا، أو أسر أسيرًا فله سلَبُه**»، ولذلك فقد سارع الشباب إلى الجهاد، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما انتهت المعركة، رأت كل فرقة أنها أَوْلَى بالغنائم، وتنازعوا واختلفوا في ذلك فنزلت الآية، كما قال عبادة بن الصامت: فينا أهل بدر نزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه فينا على السواء[1].

فرضي المسلمون وسلَّموا؛ فأصلح الله بينهم، ورد عليهم غنائمهم.

والنفل: هو ما يعطيه الحاكم لمن يراه من المجاهدين مكافأة له، زيادة على قسمته من الغنيمة، كأن يعطيه فرسًا، أو سلاحًا، أو درعًا، أو رتبة، ونحو ذلك.

ومعنى النفل في الأصل: الزيادة، وهو في الآية بمعنى: العطية والمنحة الزائدة على النصيب

---

(١) يُنظَر الحديث في «المسند» (٥/ ٣٢٢) برقم (٢٢٧٥٣) وهو حديث حسن لغيره (محققوه) وأخرجه الحاكم (٢/ ١٣٦) والبيهقي (٦/ ٢٦٢) والطبري في تفسيره (٩/ ١٧٢).

من القسمة، ومن هنا قيل لصلاة التطوع: نافلة؛ لأنه زيادة عن الفرض، وقيل لولد الولد: نافلة؛ لأنه زيادة عن الولد، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢].

ويطلق النفل على الغنيمة؛ باعتبار أنه زائد على الفرض الذي شُرع له الجهاد وهو إعلاء كلمة الله، أو لأن الله تعالى خص به هذه الأمة، ومنحه إياها من غير وجوب.

والأنفال في الآية بمعنى: الغنائم، كما ورد عن جمع من الصحابة والتابعين:[١]

١- قالت عائشة ﵂: لَمَّا انصرف النبي ﷺ من بدر، وقدم المدينة أنزل الله عليه سورة الأنفال، فعاتبه في إحلال غنيمة بدر، وذلك أن رسول الله ﷺ قسمها بين أصحابه؛ لِمَا كان بهم من الحاجة إليها، واختلافهم في النفل، فردَّها الله على رسوله، فقسمها بينهم على السواء، فكان في ذلك تقوى الله وطاعتُه، وطاعةُ رسوله، وصلاح ذات البَيْن[٢].

٢- وعن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ بعث سريَّة قِبَلَ نجد، فغنموا إبلًا كثيرًا، فصارت سُهْمانُهم اثنيْ عشر بعيرًا، ونُفِّلُوا بعيرًا بعيرًا[٣].

٣- وقال ابن عباس ﵄: **الأنفال**: المغانم كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها شيء، فمن حبس إبرة أو سِلْكًا فهو غلول، فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئًا فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قل: الأنفال لي، جعلتُها لرسولي، ليس لكم فيها شيء، ثم أنزل الله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [٤١] ثم قسم ذلك الخُمُس لرسول الله ﷺ ولذي القربى واليتامى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء: للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، وللراجل سهم[٤].

والمعنى: يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر، كيف تُقسَّم؟ ومَن المستحِق لها؟ قل لهم: الأنفال لله، يحكم فيها الرسول بحكم الله؛ لأنه هو الذي يقسمها وَفْق أمر الله تعالى، فالحكم فيها مختص بالله تعالى، والرسول يحكم فيها على ما تقتضيه حكمته تعالى وعليكم أن ترضَوْا بحكم الله وتُسلِّموا الأمر له.

والذي يؤخذ في الحروب من العدو -من الأموال والمتاع- ثلاثة أشياء؛ هي: المغنم والنفل

(١) منهم ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ١٢).

(٣) «الموطأ» (٢/ ٤٥٠) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٥٦) والبخاري (٣١٣٤، ٤٣٣٨) ومسلم (١٧٤٩).

(٤) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١١/ ١٩) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٥٣) والبيهقي (٦/ ٢٩٣).

والفيء، وهذا الأخير هو الذي قال الله فيه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [الحشر: ٦] وكان ذلك في أموال بني النضير التي أُخِذت من العدو دون قتال، وكانت الغنائم قبل محمد ﷺ محرمة على الأنبياء، تنزل نار من السماء فتحرقها، وقد أحلها الله تعالى لرسوله محمدا ﷺ، وهي من خصائصه ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه جابر بن عبد الله ﷺ: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي**» فذكر منها: «**وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي**»[1].

وكان أصحاب النبي ﷺ قد خاضوا معركة بدر، فقاتَل الشباب، ووقف الشيوخ تحت الرايات، وقاتل بعضٌ من المهاجرين والأنصار، ولما أحرزوا هذه الغنائم تساءلوا فيما بينهم: لمن تكون هذه الغنائم؟ مَن يأخذها؟ ولمن تقسم؟ ومن يحكم فيها؟ أهي للمهاجرين أم للأنصار؟ أهي للشباب، أم للشيوخ، أم هي للجميع؟ فأنزل الله سبحانه يُصَدِّر هذه السورة بالحديث عن الغنائم ويبيِّن حكم الله فيها، وهذه الغنائم ثمرة من ثمرات الجهاد، والنصر ثمرة من ثمرات الإيمان، الذي تحلَّى به هؤلاء المؤمنون الصادقون، أما ثمرة الآخرة بالنسبة لأهل بدر، فقد بيَّنها النبي ﷺ في قوله وهو يخاطب بعض الصحابة: «**وما يدريكم لعل الله يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[2].

فلأهل بدر عند الله تعالى منزلة مميزة، ومكانة عظيمة في الدنيا والآخرة.

وجاء اسم الجلالة في الآية الأولى ثلاث مرات؛ لزرع المهابة في قلوب العباد، كما ذُكر الرسول ﷺ مرتين في الآية؛ لتعظيم شأنه ﷺ وإظهار شرفه، وبيان أن طاعته ﷺ طاعة لله تعالى ومخالفته مخالفة لأمر الله ﷻ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟ ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ فهي ملكه ورزقه ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: أن الحُكم فيها يرجع إلى الرسول ﷺ، فهي لله من حيث هو مالكها ورازقها، وهي للرسول من حيث هو مبيِّن للحكم فيهان فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله.

وقد حَكَم فيها النبي ﷺ بما فصَّله الله سبحانه في الآية التي تأتي في وسط السورة ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا

(١) رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله، كما في «صحيح مسلم» برقم (٥٢١) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢).

(٢) من حديث علي ﷺ في «صحيح مسلم» برقم (٢٤٩٤) و«صحيح البخاري» برقم (٣٠٠٧، ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٨٧٤).

غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وهذه الآية تقضي بأن تقسم الغنائم **خمسة أخماس**: أربعة منها للغزاة، والخُمُس الخامس لله والرسول، يصرفه الحاكم المسلم بعد وفاة النبي ﷺ في مصالح المسلمين، فنصيب الله ورسوله واحد يعود على المسلمين، وقد أعطى النبي ﷺ أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين في سبيل الله الذين اشتركوا في بدر، من شبان وشيوخ ومهاجرين وأنصار، والحديث عن الغنائم في بداية السورة هو من براعة الاستهلال.

ثم ذكر الله سبحانه في ختام الآية ثلاث علامات لا بد منها لإصلاح الجماعة المؤمنة؛ وهي:

١ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. امتثلوا أمره واجتنبوا نهيه.

٢ - ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾. اصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر بالتوادّ والتحاب والتواصل حتى يزول ما بينكم من تخاصم وتنازع.

٣ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. فإن إيمانكم يدعوكم إلى هذه الطاعة، ومن لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن، ومن نقصت طاعته لله والرسول، نقص إيمانه.

فتقوى الله سبحانه، وطاعة الرسول ﷺ، وإصلاح ذات البَيْن، هذه الثلاثة لا بد منها لإصلاح الجماعة المسلمة.

وإصلاح المتخاصمَيْن من الناس له منزلة كبيرة عند رب العالمين؛ لأن الخصام وبال على المتخاصمين، فالصلاة اليومية التي يصليها المسلم لا تُقبَل ولا تُرفَع إلى رب العالمين من متشاحنَيْنِ متخاصمَيْنِ حتى يصطلحا.

وذات يوم ضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، فقال عمر: يا رسول الله، ما يضحكك؟ قال عليه الصلاة والسلام: **«رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة عزّ وجلّ في علاه، قال أحدهما: يا رب، خذ لي مظلمتي من هذا، قال الله ﷻ: أعطه مظلمته، قال الرجل: إن حسناتي قد نفدت، ولم يبقَ لي شيء من حسناتي حتى أعطيه، فقال صاحب المظلمة: فليتحمل عني من أوزاري»** فبكى النبي ﷺ وقال: **«هذا يوم عظيم، يحتاج فيه الناس إلى من يتحمل عنهم أوزارهم»** ثم قال الله ﷻ لصاحب المظلمة: **«ارفع رأسك، فرفع رأسه ونظر إلى السماء، فرأى مدائن وقصورًا وجنات، قال يا رب: لمن أعددت هذا؟»** لأي نبي، لأي شهيد، لأي صِدِّيق؟ قال الله تعالى على لسان رسوله ﷺ: **«هذا بعفوك عن أخيك»**.

قال: عفوت عن أخي، قال الله تعالى: «**خذ بيد أخيك فادخلا الجنة**»[١].

هذا هو الثمن، هذا هو الأجر والمثوبة عند رب العالمين، إذا عفوت عن أخيك وسامحته في المظلمة التي لك عنده، فإن هذا أجرك وجزاؤك عند رب العالمين.

وقد ذُكر الأمر بإصلاح ذات البَيْن بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة؛ لإظهار كمال العناية بالإصلاح بين الناس، وبيان أنه داخل تحت طاعة الله والرسول.

والمعنى: يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم يوم بدر، كيف تقسمها بينهم؟ قل لهم: إن أمرها إلى الله ورسوله، فالرسول يتولى قسمتها بأمر ربه، فاتقوا عقاب الله، ولا تقدموا على معصيته، واتركوا المنازعة فيها.

وقد خُتمت الآية بالأمر بطاعة الله والرسول، وعلَّقت ذلك على الإيمان، وجعلته شرطًا لكمال إيمان العبد؛ تنشيطًا وحثًّا له على امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ولمَّا كان الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ومنه الإيمان الكامل والإيمان الناقص، ذكر الله سبحانه صفات أهل الإيمان الكامل في الآيات الثلاث التالية:

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِأَهْلِ الإِيمَانِ

٢-﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾

هذا الإيمان الذي نصر الله به أصحاب رسول الله ﷺ في غزوة بدر، والذي هو مقياس الأمة في النصر على عدوها، صُدِّرت به السورة في الحديث عن الحرب والجهاد، فهناك أمارات للمؤمن الحق، الذي يستأهل النصر من الله تعالى، ويستأهل أن يَهزِم الله عدوه.

وهذا الإيمان يرتفع حتى يبلغ بالعبد درجة التقوى، ومن لوازمه طاعة الله والرسول، وإصلاح ذات البَيْن.

وهذا الإيمان وصفَه ربنا **بخمس صفات**: **ثلاث** من أعمال القلب، **واثنتين** من أعمال الجوارح.

---

(١) هذا معنى حديث رواه أبو يعلى في «مسنده» عن سعيد بن أنس عن أنس ﷺ، كما في «المطالب العالية» (٥١٥٩) و«تفسير ابن كثير» للآية، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٧٦) من طريق عبد الله بن بكر السهمي، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: عباد بن شيبة الحبطي، عن سعيد، والأول ضعيف، وشيخه لا يعرف.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حقًّا المستغرقون لجميع شعب الإيمان، هم الذين يستحقون النصر على العدو، في كل زمان ومكان كأهل بدر الذين اتصفوا بهذه الصفات

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ من أوصاف المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

استشعروا عظمة الله تعالى، ففزعت قلوبهم، واضطربت أرواحهم؛ خوفًا من الله سبحانه، وحين يقرؤون الوعد والوعيد، والأمر والنهي ترتجف قلوبهم رهبة وخشية من الله سبحانه، فتركوا محارم الله خوفًا من عقاب الله، لقد منعتهم خشية الله تعالى من ارتكاب الذنوب، فهم ليسوا في غفلة ولا لهو، كمن يُذْكَر على مسامعهم الوعد والوعيد، والأمر والنهي، وكأن شيئًا لم يكن، كأنهم لم يسمعوا، أو سمعوا ولم يعقلوا، أو عقلوا ولم يعملوا.

فالمؤمنون الصادقون في إيمانهم تخضع قلوبهم، وترقُّ وتَوْجَل، وتنقاد لأمر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

واطمئنان القلب يكون باليقين، وشرح الصدور يكون بنور المعرفة والتوحيد، وهذا حال المؤمن بين الخوف والرجاء، فالمؤمن يخاف عقاب الله ويرجو ثوابه، وبهذا يحصل اطمئنان القلب، وقد جمع الله الأمرين معًا في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

وذِكْرُ الله تعالى يكون بِذكْرِ اسمه، وذكر عقابه، وذكر رحمته وثوابه، وكل ذلك يحصل معه الوجل في قلوب المؤمنين، واستشعار عظمة الله تعالى، وشدة بأسه وسعة ثوابه، بما يبعث في نفس المؤمن الاستكثار من الخير، وترك ما لا يرضي الله تعالى.

وأهل الدرجة العالية في التقوى يخافون من عظمة الله تعالى وهيبته، أكثر من خوف العصاة من عقاب الله تعالى، فالخوف بهذا على نوعين، والخشية هي شدة الخوف.

والوجل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هو حالة وجدانية تنتاب المؤمن، فينتفض لها قلبه، وترتعش لها جوارحه، فيتمثل المؤمن عظمة الله تعالى، إلى جوار تقصيره، فيبعثه ذلك على العمل والطاعة.

وقد ذكرتْ أم الدرداء أن للوجل قُشعريرة، فإذا وجد العبد ذلك من نفسه فليدْع الله عند

ذلك؛ فإن الدعاء يستجاب عند ذلك[١]، والمنافق لا يدخل في قلبه شيء من ذلك عند ذكر الله تعالى، ولا عند تلاوة القرآن، ولا عند أداء فرائضه، فالمنافق لا يصلي إذا غاب عن الناس، ولا يؤدي زكاة ماله، ولا يُؤتمن على أموال الناس وأعراضهم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

قال ثابت البُناني: إني لأعلم متى يستجاب لي، إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي، وفاضت عيناي؛ فذلك حين يستجاب لي[٢].

الْوَصْفُ الثَّانِي: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾

أي: وإذا تليت آيات القرآن على المؤمنين زادتهم هدى على هداهم، وإيمانًا على إيمانهم، بزيادة الطاعات وترك المحرمات فازداد يقينهم وقوىَ إيمانهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد] إنهم ألْقوْا بأسماعهم إلى القرآن، وتدبّروه، وعملوا بما فيه، فأحدث في قلوبهم رغبة فيما عند الله، واشتياقًا إلى دار كرامته، وإعراضًا عن الذنوب والمعاصي خوفًا من العقاب.

فالإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، يزيد كلما قرئ عليهم آيات القرآن، فيجدد في إيمانهم شيئًا يزدادون به هدى وتقوى، وكلما جاءهم شيء من عند الله آمنوا به، فيزدادون بذلك إيمانًا وتصديقًا؛ لأن زيادة الإيمان تكون بزيادة التصديق وكثرة العمل الصالح، فتزداد معرفتهم بالله تعالى، وَيقْوَى يقينهم بكثرة الدلائل على وحدانية الله تعالى.

وكلما تجدد تكليف من الله تعالى صدَّقوا به، وقاموا بما كلفهم الله به من فعل الأوامر وترك النواهي، وهذا مبني على أساس أن **الإيمان** تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح والأركان، وكل هذا يدخل في معنى الإيمان.

ولذا: جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[٣].

---

(١) ذكر ذلك الحكيم الترمذي (١/ ٣٧٩) والطبري (١١/ ٢٩) وغيرهما.

(٢) الحكيم الترمذي (١/ ٣٧٩).

(٣) مسلم برقم (٣٥) من حديث أبي هريرة.

ففيه بيان أن الإيمان فيه أعلى وفيه أدنى، من الناحية القولية والعملية.

قال عمير بن حبيب[١]: للإيمان زيادة ونقصان، قيل: فما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله ووحَّدْناه وحَمِدْناه، فذلك زيادته، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن للإيمان فرائض، وشرائع، وشرائط، وحدودًا، وسننًا، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ [الفتح: ٤]

وقال ﷻ: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾ [المدثر: ٣١].

فالإيمان موجود في قلب المؤمن ابتداءً، فإذا تلي عليه القرآن زاده إيمانًا؛ ولهذا قال عبد الله بن عمر ﭭ: كنا نُؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن.

قال أبو حيان: أخبر عنهم باسم الموصول في **ثلاث مقامات عظيمة**؛ وهي: مقام الخوف، ومقام الزيادة في الإيمان، ومقام التوكل على الله[٢].

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه، ويستعينون به وحده، ويعتمدون على الله وحده في جلب المصالح ودفع المضار، بعد الأخذ بالأسباب، فيفوضون أمرهم لله، ولا يخشون غيره، ولا يدعون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يقصدون غيره، ويعتقدون أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، وهم في الوقت نفسه لا يتواكلون، ولا يتركون الأخذ بأسباب النصر، أو العلاج، أو الرزق، وما إلى ذلك.

والمؤمن إذا كان واثقًا بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره، وهذا التوكل درجة عالية، ومرتبة شريفة، والاتكال على الله تعالى لا يمنع اتخاذ الأسباب،

---

(١) كان له صحبة.

(٢) «البحر المحيط» (٤/ ٤٥٧).

فيما يأمر الله به من اتخاذها، والأسباب والنتائج كلها من الله تعالى، ولا يلزم من فعل السبب تحقيق النتيجة المطلوبة، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وهذه **الصفات الثلاث** للمؤمنين هي:

١ - ذكر الله تعالى.

٢ - وزيادة الإيمان عند الاستماع إلى القرآن أو تلاوته.

٣ - والتوكل على الله تعالى، من أعمال القلوب.

ثم أتبعها سبحانه **بصفتين** من صفات الجوارح فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي يؤدون الصلوات الخَمْس، فرائضها ونوافلها، بأعمالها الظاهرة والباطنة، بخشوع وخضوع لله رب العالمين، وهذا الوصف من أعمال الجوارح.

وإقامة الصلاة المفروضة بالمداومة عليها، شُرعت في الأمن والخوف، والسلم والحرب، والصحة والمرض، والسفر والإقامة، وإقامتها يعني: المحافظة عليها تامة بأدائها في أوقاتها وتحقيق شروطها وأركانها وواجبتها وسننها ومستحباتها.

والإيمان: هو ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، والصلاة دلالة عملية ظاهرة للعيان، تشهد بالوجود الفعلي للإيمان، وأداؤها الكامل يتحقق في وقفة العابد بحضرة المعبود سبحانه، بحضور قلب وخشوع جوارح.

الوصف الخامس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

والنفقة تشمل: الزكاة، والصدقة، والنفقة الواجبة والمستحبة، والمال مال الله استخلفنا فيه، وجعله أمانة في أيدينا، ومال الإنسان هو ما قدَّمه لنفسه في أخراه، ومال غيره ما تركه لورثته، وسوف يُسأل الإنسان عن مصدره ومورده، ولن تزول قدمه من عند ربه يوم القيامة، حتى يُقَدِّمَ كشفًا عن المصدر والمورد: فيم أنفقه؟ ومن أين جمعه؟

ومن شقاء الإنسان أن يشقى بجمْع المال في دنياه، ويشقى به في قبره وفي أخراه.

والزكاة كالصلاة، كلاهما حق من حقوق الله تعالى، وكلمة النفقة أعم من الزكاة، فهي تشمل النفقة في الحج والجهاد ومصالح المسلمين، والنفقة على النفس، والنفقة على الوالدين إذا كانا محتاجين، والنفقة على الزوجة، وفي تربية الأبناء وتعليمهم... إلخ.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك»**(١).

والأهل: هم الزوجة والأبناء، وهذا المال لم يوجده الإنسان بنفسه، وإنما هو رزق ساقه الله إليه واستخلفه عليه كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]

وقال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

والمسلم حين ينفق مما رزقه الله، فهو ينفق بعضًا مما رزقه الله، وحين تُنْفَق الأموال في وجوه الطاعة في حياة الإنسان، فإن ما بقي منها يكون للورثة الصالحين.

كما جاء في الحديث عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لأن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»**(٢).

مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِأَهْلِ الإِيمَانِ الحَقِّ

٤ -﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

أولئك الموصوفون بما ذكر الذين تحقق فيهم صفات الإيمان الصادق، فجمعوا بين الإسلام والإيمان، وبين الأعمال الظاهرة والباطنة، وجمعوا بين العلم والعمل، وبين أداء حقوق الله وحقوق العباد، لهم منزلة عظيمة عند ربهم، ومغفرة للذنوب، ورزق كريم عند خالقهم، قد أعده لهم في دار كرامته.

والآية تشير إلى المؤمنين الذين اتصفوا بهذه **الصفات الخمس**، وهي:

---

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٩٩٥).

(٢) من حديث طويل أخرجه البخاري (٨٧٤٢) ومسلم (١٦٢٨).

١- الخوف من الله. ٢- الإخلاص له. ٣- التوكل عليه.

٤- إقامة الصلاة. ٥- الإنفاق في وجوه الخير.

وهؤلاء هم المؤمنون حقًّا -ظاهرًا وباطنًا-بما أنزل الله عليهم، قد جمعوا بين اعتقاد القلب وعمل الجوارح وذكر اللسان، ولهم عند الله منازل عالية، وعفو عن الذنوب، ورزق كريم هو الجنة، فإيمانهم حق لا شك فيه، وهم برآء من الشرك، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وهذه الأمور الخمسة -المذكورة هنا- يعْلَمُها الإنسان من نفسه، فيمكنه أن يصف نفسه بالإيمان، أما كونه مؤمنًا بالله حق الإيمان وأكمله وأصدقه وأصوبه، فعِلْمُ ذلك عند الله تعالى.

سأل رجل الحسن البصري ﷺ: أمؤمن أنت؟ قال: إن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والجنة والنار، والبعث والحساب، فأنا مؤمن، وإن كنت تسألني عن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ فلا أدري أنا منهم أم لا.

والإيمان الحق لا يتحقق إلا بحسن الخاتمة والموت عليه، ومفهوم المخالفة لهذه الآية أن المنافقين لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله تعالى عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلُّون إذا غابوا عن أعين الناس، ولا يؤدون زكاة أموالهم، ولا ينفقون منها شيئًا في وجوه الخير.

والإيمان الحق له **علامات**؛ فقد أخرج الطبراني بسنده إلى الحارث بن مالك الأنصاري أنه مرَّ برسول الله ﷺ فقال له: «**كيف أصبحتَ يا حارثة؟**» قال: أصبحتُ مؤمنًا حقًّا يا رسول الله، قال: «**انظر ماذا تقول: فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**» فقال: عزفتْ نفسي عن الدنيا، فأسهرتُ ليلي، وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغوْن فيها، قال ﷺ: «**يا حارثة، عرفت فالزم، ثلاثًا**»[1].

وقد أعد الله سبحانه لأهل الإيمان فضلًا عظيمًا يشتمل في هذه الآية على **نقاط ثلاث**:

الأولى: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: مراتب، بعضها فوق بعض، على قدر أعمالهم

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٣/ ٢٦٦) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٥٧): فيه ابن لهيعة وغيره.

وتفاوت أحوالهم؛ فمراتب الجنة متفاوتة.

جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «**إن أهل عليين ليراهم من هو أسفل منهم، كما ترون الكوكب الطالع في أفق من آفاق السماء**» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم، فقال: «**بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين**»(١).

وفي الحديث عنه ﷺ: «**إن أهل الجنة ليتراؤون أهل الدرجات العلى، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنْعَمَا**»(٢).

الثانية: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ للذنوب وتجاوز عن السيئات، كما وصفهم ربنا في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

الثالثة: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو ما أعد الله لهم في الجنة من المنزلة العالية، والرزق الذي يأتيهم، دون كسب ولا كدٍّ ولا تعب ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة].

وفي هذا دليل على أن من لم يصل إلى درجة الإيمان الكامل - وإن دخل الجنة - فإنه لن ينال مثل ما ينالون من كرامة الله التامة.

أَحْدَاثُ غَزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَى

٥- ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾﴾

أي: وكما وصف الله المؤمنين بما تستقيم به أحوالهم وتصلح أعمالهم، وكما وصف إيمانهم الحق، وجزاءهم الذي وعدهم به، كذلك أخرج الله رسوله للقاء المشركين يوم

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٥٦، ٦٥٥٦) ومسلم (٤/ ٢١٧٧) برقم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) من حديث أبي سعيد الخدري بنحوه في «المسند» (٣/ ٦١) برقم (١١٢٠٦) و(١١٥٨٨) وأبي يعلى (١٢٧٨) و«سنن أبي داود» برقم (٣٩٨٧) و«سنن الترمذي» برقم (٣٦٥٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٩٦) وهو حديث صحيح لغيره، لضعف مجالد، وباقي رجال الإسناد ثقات. (محققو المسند)

بدر بالحق، فكره فريق منهم لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وكثير من المؤمنين لم يكره لقاء العدو، وانقاد الجميع للجهاد، وثبتهم الله، وقيض لهم من الأسباب ما هيأ لهم النصر المبين.

بعد هذه المقدمة تبدأ السورة بالحديث عن غزوة بدر، التي كان فيها هذه الأنفال، واختلفوا في تقسيمها؛ فانتزعها الله منهم، وجعل تقسيمها لرسول الله ﷺ.

وملخص غزوة بدر: أن المسلمين قد هاجروا من مكة إلى المدينة، وتركوا في مكة أرضهم وديارهم وأموالهم.

ولما علم المسلمون بأن تجارة لقريش قادمة من الشام برئاسة أبي سفيان، ومعه أربعون رجلًا من قريش، ولا بد أن هذه العير في غدوِّها ورواحها ستحمل أموال المسلمين التي خلَّفوها في مكة، ولذلك فإن النبي ﷺ أوعز إلى أصحابه أن يتعرضوا لهذه العير، لعلهم يأخذون بعض ما أُجْبِروا على تركه في مكة، ومع أن أبا سفيان قد نجا بالعير والتجارة؛ حيث غيَّر طريقه وسار بمحاذاة البحر، إلا أنه قد أرسل إلى أهل مكة واستنفرهم، فاستنفر أبو جهل الناس من فوق الكعبة، وجمعوا جموعهم، ولما قيل له: إن العير قد نجت، قال: والله لا نعود حتى ننحر الجزور، ونشرب الخمور، وتعزف القينات ببدر، فيسمع بنا العرب جميعًا.

ولما علم النبي ﷺ بذلك استشار أصحابه، فكره كبار السن أن يخرجوا إليهم وهم على غير استعداد لقتالهم، وكان من رأي الشباب أن يخرجوا لقتالهم، وأعلن المهاجرون والأنصار استعدادهم لخوض المعركة، وكان مما قالوه: والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، فقال لهم النبي ﷺ: «**سيروا على بركة الله وأبشروا؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، إما العير - القادمة من الشام - وإما النفير - القادم من مكة - والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**».

ودارت المعركة في بدر بين ثلاث مئة وثلاثة عشر من المسلمين، وتسع مئة وخمسين من المشركين، وأسفرت المعركة عن نصر غير مسبوق للمسلمين، وقتل فيها صناديد الكفر، فقُتِل منهم سبعون، وأُسِر مثلهم.

عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة، وبلَغه أن عيرَ أبي سفيان أقبلت فقال: «**ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويُسلِّمنا؟!**» فخرجْنا فسِرْنا يومًا أو يومين، فأمرنا رسول الله أن نتعادَّ ففعلنا، فإذا نحن ثلاث مئة وثلاثة عشر، فقال: «**ما ترون فيهم؟**» فقلنا: يا رسول الله، ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجْنا للعير، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فأنزل الله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾[1]

أي: كارهون القتال، وخارجون له على كُرْهٍ، كما كَرِهَ بعضهم تقسيم الغنيمة قبل حكم النبي ﷺ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦] وهذا الكُره للقتال، والكره لتقسيم الغنائم لفئة خاصة من المؤمنين، وليس لكلهم.

أخرج البخاري بسنده إلى طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود ﷺ يقول: شهدتُ من المقداد بن الأسود مشهدًا، لأن أكون صاحبه أحبُّ إليَّ مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال المقداد: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك ومن خلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرَّه[2]؛ يعني: قوله.

والدعاء من أكبر عوامل النصر كما علَّمنا النبي ﷺ؛ فقد صح في حديث ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «**اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم**» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححْتَ على ربك وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: «﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾» [القمر].[3]

وهكذا كان النبي ﷺ يستغيث بربه، كما روى ابن إسحاق في سيرته أنه ﷺ قال: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادلك وتكذِّب رسولك، اللهم فنصرك**

---

(١) من حديث طويل أخرجه ابن أبي حاتم (٥/١٦٥٩) والطبري مختصرًا (١١/٤٧) وابن مردويه، و«أسباب النزول» للسيوطي (١٢٦) ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤/١٧٤) برقم (٤٠٥٦) والبيهقي في «الدلائل» (٣، ٧٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٧٤): إسناده حسن.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٩٥٢) وانظر: رقم (٤٦٠٩).

(٣) صحيح البخاري (٤٨٧٧، ٤٨٧٥) وانظر (٢٩١٥).

الذي وعدتني»[(١)].

والقرآن يقرر أن خروج النبي ﷺ للمعركة كان حقًّا لا بد منه، وكان بوحي وأمر من الله تعالى، فقد أمره ربه بالخروج من المدينة للقاء عير قريش، وواجه فريق منهم المعركة كارهًا، كما أن فريقًا منهم كره تقسيم المغانم وتنازع فيها، وقد ردها الله تعالى إليه وإلى رسوله؛ ليمتنع التنازع وتخلُص النفوس إليه، والذين كرهوا قسمة الغنائم بالسوية هم الشباب الذين قاتلوا أكثر من غيرهم، والذين كرهوا الخروج لقتال العدو بعد نجاة العير هم الشيوخ.

فالمعنى: وكما مضيْت لقتال الأعداء وإن كره بعضهم ذلك، فامض لأمر ربك في تقسيم المغانم وإن كره بعضهم ذلك، فإنه الحق.

وسبب كراهية بعضهم للقتال، كان لقلة عددهم وعدَّتهم، وكثرة عدد الكفار وعدتهم.

كما أن سبب اختلافهم في تقسيم الغنائم أنها أول واقعة، ولم يكن لهم عهد سابق بتقسيمها.

وكان بعضهم يظن أن حيازة الغنائم، تدل على شدة القتال في سبيل الله والحرص عليه، فكان يجب أن يكون له هذا الشرف، وأكثر الصحابة على أن لرسول الله ﷺ أن يضعها حيث شاء، ولم يلتفتوا إليها، قال تعالى:

٦-﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

ثم بيَّن سبحانه ما حدث من الفريق الكاره للقتال، ومجادلتهم للنبي ﷺ في شأن القتال، بعد إعلام الرسول لهم، أن الله سينصرهم على عدوهم، وأنه قد وعد رسوله إما النصر على العدو، وإما الظفر بالغنيمة ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ هذا شأن بعض الناس يرى الحق واضحًا أمامه، وهو مع ذلك يماري ويكابر ويعاند ولا يعترف بالحق.

وقد وصف ربنا من يجادلون في الحق بعد وضوحه وبيانه، بمن يُجَرُّون إلى القتل وهم ينظرون، ويروْن الموت وهم يشاهدونه بأعينهم، ومع ذلك لا يعترفون به ولا يقرون، وهكذا شأن من كره الخروج مع النبي ﷺ في غزوة بدر.

فالله تعالى يقول لرسوله في هذا السياق: يجادلك -يا محمد- فريق من المؤمنين في

---

(١) ينظر: فتح الباري (٧/ ٢٨٩) وهو عند ابن إسحاق وابن هشام في غزوة بدر.

شأن القتال، من بعد ما تبين لهم أن ذلك أمر واقع، وأيقنوا أن القتال حاصل لا محالة، فكرهوا ذلك، وقالوا: لو كنا نعلم أنَّا نلقى العدو فنستعد لقتاله؟ وإنما خرجنا لطلب العدو، فكان هذا جدالهم؛ حيث لم يبقَ لهم خيار إلا لقاء الطائفة الأخرى، بعد أن أفلتت العير من أيديهم.

قال البيضاوي: أي يكرهون القتال، كراهةً من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه؛ وذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزَعهم وَرُعْبهم[(١)].

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال في الآية: أقبلت عير أهل مكة من الشام، فبلغ أهل المدينة ذلك، فخرجوا ومعهم رسول الله ﷺ يريدون العير، فبلغ ذلك أهل مكة، فسارعوا السير إليها؛ حتى لا يتغلب عليها النبي ﷺ وأصحابه، فسبقت العير رسول الله ﷺ، وكان الله وعدهم إحدى الطائفتين، فكان لقاؤهم للعير أحب إليهم وأيسر شوكة وأسرع مغنمًا، فلما سبقت العير وفاتت رسول الله ﷺ سار رسول الله ﷺ بالمسلمين يريد المشركين، فكره المسلمون مسيرهم لشوكة في المشركين.

وأخرج الترمذي عن ابن عباس ﷺ قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من بدر، قيل له: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو في وثاقه: لا يصلُح، فقال له النبي ﷺ (لم؟) قال لأنّ الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك[(٢)].

ثم قال تعالى يصف المجادلين للرسول في الخروج للغزوة: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليه عيانًا؛ لشدة كراهيتهم له، كمن يُجَرُّ إلى القتل ويساق إلى الموت، وهو ينظر إليه ويعلم أنه آتيه.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال في أهل بدر: **«وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**[(٣)].

---

(١) «تفسير البيضاوي» ص ٢٠٩ .

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٣٠٨٠) وقال: حسن صحيح، و«المسند» بتصحيح أحمد شاكر برقم (٢٨٧٣) و«المستدرك» (٢/ ٣٢٧) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وجوّد ابن كثير إسناده عند تفسيره للآية.

(٣) من حديث طويل عن علي ﷺ في البخاري برقم (٣٠٠٧، ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٨٧٤) ومسلم (٤/ ١٩٤١) برقم (٢٤٩٤).

ويرى بعضهم أن الآية ليست في أهل بدر:

قال ابن زيد: هذه الآية في المشركين الذين جادلوا الرسول في الحق وهو يدعوهم إلى الإسلام، قال: وليس هذا من صفة الآخرين (أهل بدر)، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر[١].
قلت: وهذا لا يتناسب مع منطوق الآية ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾.

الْعِيرُ أَوْ النَّفِيرُ

٧-﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾

لقد أمر الله ورسوله بالتصدي للمشركين في المعركة التي فُرضت عليهم بغتة، وكان النبي ﷺ مؤملًا في أن الله تعالى لن يَرُدَّ المسلمين خائبين، وقد أراد الله لهذه الأمة أن تكون لها قوة وسلطانٌ، بعد أن كانت ضعيفة مستضعفة في مكة، وأراد سبحانه أن يلقن المسلمين درسًا في أن النصر ليس بالعدد ولا بالعدَّة فحسب، وإنما هو إلى جوار ذلك بمقدار اتصال قلوبهم بالله تعالى، وقد أراد الله تعالى أن يتمَّ ذلك بتجربة عملية واقعية؛ لتوقن الأمة المسلمة بأنها تملك في كل زمان ومكان أن تغلب خصومها على قلة عددها وعدتها مع توافر صدق اليقين، وإخلاص العقيدة، واتصالها بالله تعالى، وتخلصها من الضعف الذاتي، مع إعداد القوة المعادلة لقوة العدو، وهذه الموازين والقيم دائمة ما دامت السموات والأرض، طالما بقيت جماعة مسلمة على وجه الأرض تجاهد عدوًّا من أعداء الله فيها.

ولذا: فإن الله تعالى يذكِّر هؤلاء الذين جادلوا النبي ﷺ حين أراد منهم الخروج لقتال المشركين يوم بدر، بأن الله قد وعدهم أن يظفروا بإحدى الطائفتين: العير وما تحمله من أرزاق، أو النفير؛ وهو قتال الأعداء والانتصار عليهم، وبيَّن سبحانه أن بعض المسلمين يحبون الظفر بالعير دون قتال، والله تعالى يريد أن يعلي أمره بقتال العدو، ويهلك الكفار ويستأصلهم.

---

(١) الأثر في «تفسير الطبري» (١٣/ ٣٩٥) وسنده صحيح، وابن زيد هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

الرسول يستشير أصحابه:

عن ابن عباس ﷺ، وغيره أن رسول الله ﷺ لما سمع بأبي سفيان مقبلًا من الشام في عير مُحَمَّلة بالمتاع، ندب المسلمين للخروج إليها وقال: **«هذه عير قريش فيها أموالكم»** فخفَّ بعضهم وثقُل بعضهم، وكان أبو سفيان يتحسس الأخبار خوفًا على القافلة، فعلم أن الرسول ﷺ قد استنفر أصحابه، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، وبعثه إلى مكة؛ ليخبرهم أن عيرهم في خطر؛ وعلم رسول الله بأن قريشًا قد خرجت من مكة لتمنعه من العير، فاستشار أصحابه، فقال أبو بكر وعمر: بلغنا أنهم كذا وكذا، ثم خطب رسول الله ﷺ في الناس وهم بالروحاء، فقال: **«ماذا ترون؟»** فقال المقداد بن عمْرو: يا رسول الله، امضِ لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لئن سرت بنا إلى بَرْك الغِماد لجالَدْنا معك مَنْ دُونه حتى تبلغه، فدعا له الرسول بخير.

وقال سعد بن معاذ: لعلك تكون قد خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامضِ له، فصِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعادِ من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر فخُضْته لخُضناه معك، ما تخلَّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غدًا، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك ما تقرُّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشَّطه ذلك، ثم قال: **«سيروا وأبشروا؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»**[1].

إلى أرض المعركة:

قال ابن شهاب وموسى بن عقبة: فخرج رسول الله ﷺ في شهر رمضان على رأس

---

(١) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (١/٦٠٦) وما بعدها، والطبري في «التفسير» (١١/٣٦) وما بعدها، وفي التاريخ (٢/٤٢٧) وانظر: ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/٣٥٥) عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبيه عن جده.

ثمانية عشر شهرًا من مقدمه المدينة، ومعه المسلمون لا يريدون إلا العير، خرجوا على الإبل، يتعاقب كل ثلاثة منهم على بعير واحد، وكان زميلىْ رسول الله ﷺ عليٌّ بن أبي طالب، ومَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغنَويّ[١].

ونزل المسلمون في مكان؛ بينهم وبين الماء أرض رملة تغوص فيها الأقدام، وبها شدة الحر، فأصاب المسلمين ضعف شديد، واعتراهم شيء من النعاس، فاحتلم بعضهم فوسوس لهم الشيطان: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وكيف تُصلُّون وأنتم جنُب؟ فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهَّروا، وتلبَّدتِ الأرض تحت أقدامهم، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وأمدهم بالملائكة، وأخذ الرسول ﷺ يضرع إلى ربه بالدعاء، فقال له جبريل: خُذ قبضة من التراب فارمِ بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصابه شيء من تلك القبضة[٢].

في بداية الأمر؛ أي: قبل المعركة، بشَّر الله رسوله ﷺ بالنصر، وأعطاه النتيجة التي سوف تسفر عنها المعركة، قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾. إما أن تظفروا بقافلة التجارة، وإما أن تظفروا بالنصر على عدوكم، فأحبوا الأول (العير) لأنه لا قتال فيه، ولكن الله تعالى أحب لهم النفير، فقد أرادوا أمرا وأراد لهم أمرا آخر، أراد لهم أن يظفروا بالنصر والغنيمة، فالعير، والنفير هما الطائفتان:

الطائفة الأولى: أبو سفيان ومن معه، ومعهم التجارة فيها الأموال الآتية من الشام في طريقها إلى مكة، وهذه الأموال هي أموال المسلمين في الحقيقة؛ حيث خرجوا من مكة وتركوا أموالهم وديارهم، فاستولى عليها المشركون، ولذلك فإن النبي ﷺ حث المسلمين وحضَّهم على القتال، وقال: هذه أموالكم، في هذه التجارة، في طريقها من الشام إلى المدينة مع مشركي مكة، تعرَّضوا لها، لعل الله يمنحكم إياها ويعيدها لكم.

وكان أبو سفيان قد نجا بها، حيث غيَّر اتجاه رحلته، محاذيًا للبحر، ونجا بما معه من تجارة.

---

(١) من حديث طويل للبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٠١) وما بعدها.

(٢) يُنظَر: ابن مردويه و«تفسير الطبري» (١١/ ٤٥) وما بعدها وابن المنذر عن ابن عباس.

والطائفة الأخرى: أبو جهل ومن معه، ممن قَدِموا من مكة لقتال المسلمين في بدر، بعدما أرسل أبو سفيان (ضمضم بن عمرو الغفاري) إلى مكة، يخبرهم بأن النبي ﷺ سيتعرض لهم، فجاءت قريش ليقاتلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، فوعد الله المسلمين أن يفوزوا بإحدى الحسنيين، إما أن يأخذوا الغنائم (التجارة) وإما أن يقتلوا المشركين.

وكان الأمر الثاني -وهو قتل المشركين- هو الذي تحقق لهم باستئصال رؤوس الكفر، ونصر الإسلام والمسلمين، رغم أنوف المجرمين، وكان بعضهم لا يودُّ قتال المشركين، قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ والمراد: الغنيمة بدون قتال ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فيظهر دينه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بقتال المشركين، فهو الأمر الذي أراده رب العالمين؛ لإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

والمعنى: لقد أردتم الغنيمة، وأراد الله إظهار دينه، وحصْد شوكة عدوكم، وإن كان ذلك يحرمكم الغنى العارض، وكنتم تظنون أنكم لا تستطيعون هزيمة عدوكم. قال تعالى:

٨-﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه الحكمة في اختيار ذات الشوكة لهم، ونصرتهم عليهم؛ وذلك ليثبِّت دين الإسلام، ويظهره على جميع الأديان، ويمحق ما عليه المشركون من باطل.

فيحق الحق بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، ويبطل الباطل بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه.

ولسنا بصدد سرد أحداث غزوة بدر، فهي معلومة في كتب السيرة، وإنما نمرُّ على الآيات ونلقي مجمل الضوء عليها، وهي لا تترك شيئًا من أحداث الغزوة إلا استوعبته.

ومعنى الآية: ليعز الله الإسلام وأهله، فيثبتهم ويقوي إيمانهم، ويظهره للخَلْقِ أجمعين، وفي الوقت نفسه يبطل الشرك وأهله، فيذهبه ولو كره المشركون ذلك، ويقمع رؤساء الباطل ويقهرهم ويذلهم.

والمراد بإحقاق الحق في الآية السابقة: تثبيت ما وعد الله به المسلمين من الظفر والنصر.

والمراد به في هذه الآية: تقوية هذا الدين في نفوسهم وإظهاره على جميع الشرائع ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

دَوْرُ المَلَائِكَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَالحِكْمَةُ مِنْهُ

٩-﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ[١] رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ[٢] ﴿٩﴾﴾

اذكروا - أيها المؤمنون - نعمة الله عليكم، حين استغثتم بربكم عند لقاء عدوكم، وطلبتم منه أن يعينم وينصركم، فأغاثكم بعدة أمور:

١- منها: نزول الملائكة عليكم متتابعة لتبشركم وتطمئنكم.

٢-ومنها: إنزال النعاس عليكم ليذهب ما في قلوبكم من الرعب.

٣-ومنها: نزول المطر ليثبت الرمال تحت أقدامكم، ويطهركم، ويثبت قلوبكم وأبدانكم.

٤-ومنها: أن الله أوحى للملائكة أنه معكم بالعون والنصر، حتى يثبِّتوكم فتجرؤوا على لقاء العدو.

٥- ومنها: إلقاء الرعب في قلوب الكفار لينهزموا ويتم لكم النصر.

هذا: **والاستغاثة**: طلب الغوث والإعانة من الله تعالى على رفع الشدة والمشقة، ولما كان المسلمون في شدة، وهم في مواجهة عدوهم، طلبوا النصر من الله تعالى على عدوهم، وقد وعد الله تعالى بإغاثتهم وإجابة دعائهم في قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ لقد نظر النبي ﷺ إلى الأعداء، فوجد عددهم زهاء ألف (ثلاثة أضعاف المسلمين)، والمسلمون ثلاث مئة وثلاثة عشر، ووجد عُدّتهم سبعين ضعفًا مما مع المسلمين، فماذا يفعل الرسول ﷺ والعدو يفوقه في العدد والعُدَّة؟ لقد لجأ إلى الله سبحانه بالدعاء والتضرع.

وهكذا ينبغي للمسلمين أن يفعلوا ذلك في الشدة والرخاء، سيما عند لقاء العدو.

توجَّه النبي ﷺ إلى ربه ورَفع يديه، وأخذ يضرع ويستغيث بالله ﷻ، ويجأر إليه بالدعاء

(١) أدغم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف العاشر، الذال في التاء من (إذ تستغيثون)، وأظهرها الباقون.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب بفتح الدال من (مردَفين) اسم مفعول؛ أي: مردفين بغيرهم، وقرأ الباقون بكسر الدال اسم فاعل؛ أي: مردفين مثلهم.

حتى سقط رداؤه ﷺ من كثْرة دعائه، ويأتي أبو بكر ﷺ ليرفع رداء الرسول ﷺ ويثبِّته فوق كتفيه، وهو يشفق عليه من كثرة الدعاء، ويطمئنه على نصر الله تعالى له، فلم يفرغ النبي ﷺ من دعائه حتى أطلعه رب العالمين على مصارع القوم، ماثلة أمامه في أرض بدر، أبو جهل سيكون هنا مصرعه، فلان سيقتل هنا.

وفي صحيح مسلم وغيره عن أنس بن مالك ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ حدَّثه عن أهل بدر قال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: **«هذا مصرع فلان، غدًا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان، غدًا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان، غدًا إن شاء الله»** قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدها رسول الله ﷺ[1].

وهكذا أطلعه الله تعالى على الأماكن التي سيقتل فيها صناديد القوم وحدَّدها له، وأنزل تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ مُكَثِّركم ومُقَوِّيكم، والإمداد يكون في الخير ويكون في الشر، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥] وقوله تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي: متتابعين متلاحقين، وبعد استغاثة رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ، نظر النبي ﷺ ورأى كثرة العدو وكثرة عُدتهم، فطمأنه الله تعالى بأن أمده بألف من الملائكة، خمس مئة مع جبريل مُجَنَّبة، وخمس مئة مع ميكائيل مجنبة[2].

وقاتل الملائكة مع رسول الله ﷺ واشتركوا معهم فعلًا في غزوة بدر، ولم يقاتلوا في غزوة سواها:

١- فعن ابن عباس ﷺ قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم (حَيْزُوم) فنظر إلى المشرك أمامه، فخرَّ مستلقيًا، فنظر إليه، فإذا هو قد خُطم أنفه، وشُق وجهه كضربة

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٧٤) و«المسند» (١٣٢٩٦، ١٣٧٠٣) و (١٨٢) عن عمر، بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير حمّاد بن سلمة فمن رجال مسلم، (محققوه) وأخرجه أبو يعلى (٣٣٢٦) وابن حبان (٤٧٢٢) وأبو داود (٢٦٨١) والبيهقي في السنن (١٤٧/٩) وفي الدلائل (٤٦/٣).

(٢) كما رواه علي بن طلحة عن ابن عباس كما في «تفسير الطبري» وابن كثير وغيرهما للآية.

بالسيف، فاخضَرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة**» فقَتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين[١] و (حيزوم) اسم الملَك المشارك في المعركة.

٢- وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما كان يوم بدر، نظر النبي ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مئة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدَّ يده، فجعل يهتف بربه ويقول: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»

فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأمده الله بالملائكة[٢].

٣- وأخرج البخاري بسنده عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزُّرَقي، عن أبيه ﷺ -وكان أبوه من أهل بدر- قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «**من أفضل المسلمين**» -أو كلمة نحوها- قال: «**وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة**»[٣].

٤- وفي البخاري عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب**»[٤].

٥- وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: نزل جبريل في ألف ملَك على ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف ملَك في الميسرة وأنا فيها[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٣٨٣) برقم (١٧٦٣) من حديث طويل عن عمر ﷺ عن سماك الحنفي (أبو زميل) وابن هشام في «السيرة» (١/ ٦٣٣).

(٢) وهذه رواية مسلم برقم (١٧٦٣) وهو في «المسند» (١/ ٣٠) برقم (٢٠٨، ٢٢١) إسناده حسن ورجاله رجال الصحيح وأبو داود برقم (٢٦٩٠) والترمذي برقم (٣١٨١) و«تفسير الطبري» (١٣/ ٤٠٩).

(٣) انفرد به البخاري برقم (٣٩٩٢، ٣٩٩٤).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٣٩٩٥).

(٥) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٥٠٥) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٠) عن الطبري، قال ابن كثير: وهذا يقتضي -لو صح إسناده- أن الألف مردفة بمثلها، كما في قراءة فتح الدال.

٦- وعنه أيضًا ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ ولأبي بكر يوم بدر: «**مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم، يشهد القتال، أو يكون في القتال**» أو قال «**يشهد الصف**»(١).

والملائكة في غير يوم بدر لم تقاتل، بل كانت مجرد مدَد وعَوْن، وقد وعد الله المسلمين يوم أُحُد أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة، وعلَّق ذلك على الصبر والتقوى ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران].

وقد حدث ما يخالف الصبر والتقوى حين خالف بعض الرماة أمر النبي ﷺ ونزلوا يتتبعون الغنائم، فكان الدرس والابتلاء.

أما في يوم بدر، فالأحاديث السابقة ناطقة بمشاركتهم في المعركة، بدليل الرجل المشرك الذي ضُرب بالسوط فخُطم أنفه وشُق وجهه.

قلت: هذه الأحاديث فيها نص صحيح وصريح للرد على من أنكر قتال الملائكة في المعركة يوم بدر، وقال: إن الإمداد بهم كان لمجرد البشرى وتثبيت القلوب، وأنه لا يوجد فيها تصريح بقتالهم.

لقد كان الصحابي يمشي وراء المشرك يريد أن يقتله، فيجد أن رأسه قد سقطت أمامه قبل أن يمتد إليه سيفه، فاذكروا - أيها المسلمون-نعمة الله عليكم يوم بدر، إذ تطلبون النصر على عدوكم فاستجاب الله لدعائكم قائلا: بأني ممدكم بألف من السماء، من ملائكة الله، يتبع بعضهم بعضًا.

ونصْرُ المسلمين في بدر، له أبعاد تتجاوز الجزيرة العربية والأرض كلها، وتمتد عبر السماوات، وتتناول الملأ الأعلى، فهو نصر من تدبير الله تعالى. قال تعالى:

---

(١) «المختارة» للضياء المقدسي برقم(٦٣٣، ٦٣٦) وابن أبي شيبة (١٢/١٦) وأبو يعلى في «مسنده» برقم (٣٤٠) و«المستدرك» (٣/٦٨) والبزار في «البحر الزخار» (٢/٣٣) برقم (٧٢٩) وابن أبي عاصم (١٢١٧) صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/٨٢) عن أحمد والبزار، وصحح إسناده أحمد شاكر في «المسند» برقم (١٢٥٧) وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي صالح الحنفي، فمن رجال مسلم، وصححه محقق «مسند أبي يعلى» ومحقق «المختارة».

١٠-﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

ثم بيَّن سبحانه الحكمة من إمداد المجاهدين بالملائكة؛ إذ كان يكفي ملَك واحد لحصد المشركين حصدًا، ملَك واحد يكفي لهذه المهمة، فلماذا الألف؟ ولماذا الإمداد بالملائكة أصلًا؟

يقول سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: وما جعل الله هذا الإمداد بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ﴾ أي: أن إنزال هذا العدد من الملائكة للبشرى وتطمين القلوب وسكونها، فقد ذكر الله سبحانه عدد الملائكة وكثَّرهم؛ ليوافق عدد المشركين، ولكي يثبت الله المؤمنين فيطمئنوا، ويثقوا في أن حقيقة النصر من عند الله، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فليس النصر بالملائكة أو غيرهم، إنما النصر من عند الله.

فخذوا جاهدين بأسباب النصر، ولا تعتمدوا على قوتكم وشدة بأسكم، ولا تغتروا بعددكم وعدتكم، واعلموا أن الله لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب، ولا ينازعه منازع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: بدون حرب ولا قتال ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾ [محمد: ٤] فالأمر كله لله، وسعي المرء لا يغني عنه شيئًا ما لم يساعده القدَر.

فمن حِكَم الجهاد ابتلاء المجاهدين واتخاذ شهداء منهم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران] ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ونصر الله يستحقه من نَصَرَ دين الله، فأقام شرعه ومنهجه في أرضه، وأحسن الخلافة عنه فيها ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ [الحج: ٤٠] ومن ينصر دين الله، هو المؤهل للخلافة عن الله في أرضه، والتمكين له فيها، واستبدال خوفه أمنًا، وإخضاع أعناق الأعداء من الكفار والمشركين له ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ﴾ [النور: ٥٥].

وهذه هي مقومات هذا التمكين في الأرض، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو الفارق المميِّز لدولة الإسلام عن غيرها، فالإعلام فيه إسلامي، والمنهج الذي تقوم عليه البلاد إسلامي، والتعليم إسلامي، والمظهر العام إسلامي، والحكم بين الناس إسلامي، والولاء والبراء يكون لله وحده.

وقد تقدم نظير هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران] وفيها:

أولًا: زيادة ﴿لَكُمْ﴾ عن هذه الآية؛ نظرًا لوجودها هنا في الآية التي قبلها ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فكأنها أغنت عنها، ولأن آية آل عمران سيقت في سياق الامتنان، وهذه الآية سيقت في سياق العتاب.

ثانيًا: في سورة آل عمران أُخِّر لفظ ﴿بِهِۦ﴾ وقُدم هنا، والتقديم هنا لإفادة الاختصاص والاهتمام، والتأخير في آل عمران؛ لأن الوعد بنزول الملائكة في غزوة أُحُد مجرد بشرى واطمئنان.

ثالثًا: خُتمت الآية هنا بقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وفي آل عمران بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنها في آل عمران نعت، وهنا خبر مؤكد، فهي جملة مستأنفة.

والعزيز هو الذي لا يُقهر ولا يُغالب، والحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويقدّر الأمور بأسبابها.

دَوْرُ النُّعَاسِ وَالمَطَرِ فِي النَّصْرِ عَلَى العَدُوِّ

١١-﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ[١] أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ[٢] عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (يَغْشَاكم) بفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وألف بعدها، مضارع غشى و (النعاس) بالرفع فاعل، وقرأ نافع وأبو جعفر (يُغْشِيكم) بضم الياء وسكون الغين، وكسر الشين وياء بعدها، مضارع أغشى، و (النعاس) بالنصب مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الغين وكسر الشين مشددة، و (النعاس) بالنصب مفعول به أيضًا.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف زاي (وينزل) مضارع أنزل، والباقون بتشديد الزاي، مضارع نزل.

ثم ذكر سبحانه منَّة أخرى أنعم بها على المؤمنين استجابة لاستغاثتهم، قبل أن يلتحموا مع أعدائهم في القتال، وهي نعمة النعاس ونزول المطر، **فالمدد الأول هو النعاس**: وهو النوم الخفيف، بدون استغراق فيه، كهيئة المتمكن من مقعده، حين تغفل عيناه لحظات أو دقائق، وكثيرًا ما يحدث هذا للإنسان إذا كان متعب البدن، أو يمرُّ بحالة توتر، أو قلق أو ضيق، فإذا أخذتْه هذه السِّنَة من النوم، استيقظ إنسانًا آخر، ساكن النفس، مطمئن القلب، هادئ البال، قرير العين، وهذا التحول المفاجئ في نفسية الإنسان رحمة من الله تعالى بعباده، وسر عظيم في تحول النَّفْسِيَّة وإلقاء السكينة فيها بما لا يعلم حقيقته إلا رب العالمين.

ولا يمكن لعلماء النفس على مرِّ العصور علاج مثل هذه الأزمة، وتظهر أهمية هذه الحالة، حينما يكون الإنسان في ساحة القتال عند تربص العدوِّ والتحام الصفوف ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ فيذهب ما في القلب من الخوف والوجل.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: النعاس في القتال أَمَنَةٌ من الله، وفي الصلاة من الشيطان[(١)].

وقال عليٌّ ﷺ: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم، إلا رسولَ الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح[(٢)].

وقد استفاد المسلمون من هذا النعاس اليسير **فائدتين**:

إحداهما: أن الله تعالى قوَّاهم بهذه الاستراحة في النعاس؛ لتجديد النشاط، والقدرة على القتال من الغد.

ثانيهما: أن الله تعالى أزال الرعب عنهم، وأمَّنهم من خوفهم.

---

(١) وفيه أن أبا رزين الناقل له لم يسمع من ابن مسعود، ولكنه موافق لمنطوق الآية، وأخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق عن سفيان الثوري بسند صحيح.

(٢) مسند أبي يعلى (١/ ٢٤٢) برقم (٢٨٠، ٣٠٥) وابن خزيمة (٨٩٩) وابن حبان (٢٢٥٧) ومسند أحمد (١/ ١٢٥) من طريق عبد الرحمن بن مهدي برقم (١٠٢٣، ١١٦١) قال محققوه: إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير حارثة بن مضرب، فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة.

وقد وصف الله النعاس بأنه ﴿أَمَنَةً﴾ لأنهم لما ناموا ذهب عنهم الخوف، فالخائف إذا نام ذهب عنه الخوف، وإذا استيقظ وجد نشاطًا وقوة أعصاب والنعاس يزيل عن الإنسان فتور الأعصاب.

وقد علَّمنا النبي ﷺ أن الإنسان إذا أتاه النعاس، فعليه أن يستريح ويُتمَّ نومه.

ففي صحيح البخاري وغيره عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «**إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقُد، حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس، لا يدري لعله يستغفر فيسبَّ نفسه**»[1].

وفي حديث أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: «**إذا نعس أحدكم في الصلاة فلْيَنَمْ حتى يعلم ما يقرأ**»[2].

والفائدة في كون النعاس أمنة في القتال: أن الخائف على نفسه لا يأخذه النوم، فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلًا على الأمن وإزالة الخوف.

وقيل: إن المسلمين لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدد المشركين وعدَّتهم، وقلة عدد المسلمين وعُدَّتهم، ألقى الله عليهم النعاس حتى حصلت لهم الراحة، وزال عنهم الكلل والعطش، وتمكنوا من قتال العدو، وكان هذا النوم نعمة عليهم؛ لأنه كان خفيفًا بحيث لو قصدهم العدو لأدركوا قدومه، وتمكنوا من دَفْعِه.

وحصول النعاس في وقت واحد لعدد يزيد على الثلاث مئة شخص أمر خارق للعادة، فهو في حكم المعجزة.

وقد تكرر هذا النعاس للمسلمين عند مواجهة العدو في يوم أُحُد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أُحُد، ولقد سقط السيف من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحجف[3].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢١٢) و«صحيح مسلم» برقم (٧٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢١٣).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٢).

وقد كان هذا النعاس سجية ونعمة تفضل الله بها على عباده في شدة البأس في أكثر من موطن؛ لتطمئن قلوبهم بنصر الله تعالى.

ولذا: فإن النبي ﷺ لما كان معه الصِّدِّيق تحت العريش في يوم بدر، أخذتْه سِنَةٌ من النوم، ثم استيقظ مبتسمًا، فقال ﷺ: «**أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع**»، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر][(١)] وهي آية مكية فُسِّرت يوم بدر، وكان نزولها من قبيل الإخبار بالغيب.

والمدد الآخر المطر: وبعد هذا المدد الإلهي بإلقاء النعاس على أهل بدر؛ لتأمينهم من خوف عدوهم أن يغلبهم، يأتي المدد الآخر في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ وكان ذلك قبل وصول المسلمين إلى الماء، فنزول المطر عليكم في هذا الوقت بالذات؛ ليطهركم الله به طهارة حسية وباطنية، ويذهب عنكم وساوس الشيطان، ويشدَّ على قلوبكم بالصبر عند القتال، ويلبِّد الأرض الرملية تحت أقدامكم بالمطر حتى تَثْبُت أقدامكم في أرض المعركة ولا تنزلق.

قال مجاهد: أنزل الله المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبَّدت به الأرض، وطابت نفوسهم، وثبتت به أقدامهم[(٢)].

وروى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء، وكان الوادي دهْسًا، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبَّد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه[(٣)].

وبذلك نرى أن إنزال الماء على أهل بدر كان خيرًا على المؤمنين وشرًّا على الكافرين؛ لأن المسلمين كانوا في مكان يصلحه المطر، وكان الأعداء في مكان لا يصلحه المطر، ويؤذي مَن فيه، كما يتضح ذلك من أثر عروة.

قال أهل السير: كان المسلمون حين اقتربوا من بدر قصدوا أن يسبقوا جيش المشركين

---

(١) ينظر: البخاري (٤٨٧٧، ٤٨٧٥) وفتح الباري (٧/ ٣١٣) وهو عند ابن إسحاق في السيرة.

(٢) الطبري (١١/ ٦٦) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٦٥).

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦١٩).

إلى ماء بدر، وكان طريقهم رملًا ليِّنًا تسوخ فيه الأرجل، فشق عليهم إسراع السير إلى الماء، وكانت أرض طريق المشركين ملبدة، فلما أنزل الله المطر، تلبَّدت الأرض، فصار السير أمكن لهم، واستوحلت الأرض للمشركين، فصار السير فيها متعِبًا، فأمكن للمسلمين السبق إلى الماء من بدر؛ فنزلوا عليه، وادَّخروا ماء كثيرًا من ماء المطر، وتطهروا وشربوا.

وقد ترتب على نزول هذا المطر **أربع نعم** ذكرتْها الآية:

النعمة الأولى: جاءت في قوله تعالى: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: من الحدث الأصغر والأكبر؛ لأن المسلم يستقذر نفسه إذا كان جُنُبًا فيضطرب قلبه، وتغتم نفسه، ويظل في خمول وكسل حتى يغتسل.

النعمة الثانية: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: يزيل عنكم وسوسته وتخويفه لكم بالطهارة الحسية، وإزالة الظمأ، والعطش، ويذهب عنكم أيضًا ما يلقيه في نفوسكم من الظنون والأوهام بالطهارة المعنوية.

والرجز: هو القذارة والنجاسة الحسية، والرجز **المعنوي**: هو الحدث والجنابة، وفقد الماء يجعلهم في بقاء من هذا الرجز الحسي والمعنوي.

النعمة الثالثة: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يقويها بالثقة في نصر الله، ويوطنها على الصبر والطمأنينة، ويزيدهم ثباتًا ورباطة جأش، ومجالدة للأعداء، وهذه هي شجاعة الباطن.

النعمة الرابعة: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ حتى لا تسوخ في الرمال، ويسهل المشي عليها، وينطفئ غبارها، ويجعلكم تتمكنون من السير في الرمال، وهذه شجاعة الظاهر.

وقد جاءت روايات عدَّة، تفيد في مجموعها أن المسلمين نزلوا بدرًا، على كثيب من الرمل، تسوخ فيه الأقدام، وحوافر الدواب، وأصبح بعضهم محدِثًا، وبعضهم جُنُبًا، وقد أصابهم العطش، فوسوس لهم الشيطان وقال: تزعمون أنكم على الحق، وفيكم نبي الله، وأنكم أولياؤه، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلُّون محْدِثين وجُنُبًا، فكيف

ترجون أن تظهروا على عدوكم؟! فأنزل الله سبحانه ماء سال منه الوادي، فشرب منه المسلمون، واغتسلوا، وتوضؤوا، وسقوا الركاب، وملؤوا الأسقية، وأطفؤوا الغبار، ولبَّد المطر الأرض حتى تثبت عليها الأقدام، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، وعظمت النعمة من الله عليهم، وكانت دليلًا على حصول النصر والظفر[١].

والظاهر أن المسلمين نزلوا أول ما نزلوا بدرًا على أول ماء وجدوه، وأن الحباب بن المنذر، أشار على النبي ﷺ بتغيير الموقع الذي نزل فيه إلى موقع أقرب إلى الماء الكثير، وأن النبي ﷺ نزل على مشورته[٢].

ومعنى هذا أن المشركين لم يغلبوا المسلمين على الماء ولم يسبقوهم إليه، ولكن المسلمين هم الذين غلبوهم وسبقوهم.

تَثْبِيتُ المُؤْمِنِينَ وَإِلْقَاءُ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ

١٢-﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ[٣] فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

ويحدثنا القرآن عن نعمة خفية في غزوة بدر لها أثر عظيم في نصر المسلمين، ولا يتسنَّى لنا الاطلاع عليها، أنعم الله عليهم بها استجابة لاستغاثتهم، وهي وحي الله تعالى إلى الملائكة التي تقاتل مع المسلمين في غزوة بدر ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾، أعينكم وأنصركم، فَقَوُّوا عزائم المؤمنين، وثبتوهم بقتالكم المشركين معهم، وبشروهم بالنصر والظفر؛ فإني سأُلقي في قلوب الكفار الخوف والرعب الشديدَيْنِ، والذلة والصغار.

وإلقاء الرعب في قلب العدو سلاح عظيم خفي، هو من أقوى عوامل النصر

---

(١) «لباب التأويل في معاني التنزيل» للخازن (٢/ ١٧٢) وقد جاءت هذه المعاني في أحاديث وآثار وكتب السيرة، ومن أصحها ما رواه ابن جرير عن علي ﷺ بسند صحيح في تفسيره (١٣/ ٤٢٢) وما جاء عن عروة مرسلًا وعن ابن عباس وغيرهم.

(٢) القصة في «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٢٠) ورواه الحاكم في «المستدرك»، والواقدي في المغازي (١/ ٥٤) وفي سنده مَن لا يُعرَف، وذكره ابن كثير في «البداية» عن الكلبي، وهو كذاب، فهو ضعيف لا يصح.

(٣) قرأ ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بضم العين من كلمة (الرُّعُب)، والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

للمسلمين، على ما في عدوه من قوة وبأس وبطش شديد، مهما كانت قوته وعتاده وأعداده، وهو سلاح لا يملكه إلا رب العالمين، خَصَّ به محمدًا ﷺ من بين الرسل؛ حيث قال ﷺ من حديث جابر ﷺ: «**نُصِرت بالرعب مسيرة شهر**»[١] فيكون بين النبي ﷺ وبين عدوه سفر شهر على الإبل، ويُلْقي الله الرعب في قلب عدوه مع بُعد هذه المسافة.

ثم أمر الله المؤمنين أو الملائكة أن يضربوا رؤوس الكفار، ويضربوا كل طرف ومفصل فيهم ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وما فوق الأعناق هي الرؤوس، أما **البنان**: فهي أطراف أصابع اليدين، وخُصت بالذكر؛ لأن الإنسان يقاتل بها، ويُمسك بها السلاح، والرأس أشرف الأعضاء، وفي ضربها إتلاف للجسد، والبنان أضعف الأعضاء، وفي ضربها إبطال لصلاحية اليدين.

والمقاتل إذا ضُربتَ أصابعه تعطلتْ يداه وأمكن أسره وقتله، ويدخل في ذلك كل عضو في الجسد، وفيه تعطيل لحركة الإنسان عن العمل، والبنان تُشَكِّل أطراف الأيدي والأرجل، فتتعطل الرِّجْل أيضًا عن المسير، قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

مبارزة: ولما التقى المسلمون والمشركون في أرض المعركة، بارز حمزة بن عبد المطلب شيبة بن ربيعة، فقتله حمزة، وبارز علي بن أبي طالب الوليد بن عتبة، فقتله عليٌّ، وقام عبيدة إلى عُتْبة، فجَرَح كل منهما الآخر، وكرَّ حمزة وعليٌّ على عتبة بن ربيعة سيد المشركين فقتله عليٌّ، فقام النبي ﷺ فقال: «**اللهم ربنا أنزلت عليَّ الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني النصر، ولا تخلف الميعاد**» فأتاه جبريل فأنزل عليه: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] وأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فقُتِل أبو جهل في تسعة وستين رجلًا، وأُسر عقبة بنُ أبي معيط فقُتِل صبرًا، فوفَّى ذلك سبعين، وأُسر سبعون.

وهذه أمثلة من مشاركة الملائكة في معركة بدر:

أ- ما ورد عن أبي داود المازني -وكان ممن شهد بدرًا-قال: إني لأتْبع رجلًا من

---

(١) جزء من حديث جابر في الصحيحين: البخاري (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢) ومسلم (٥٢١).

المشركين لِأَضْرِبَه؛ إذْ وَقع رأسه قَبْل أن يصل إليه سيفي، فعرفتُ أنه قتَله غيري، ومعلوم أن الإنسان لا يرى الملَك.

ب- وعن سهل بن حنيف قال: لقد رأيتُنا يوم بدر، وإن أحدنا ليُشير بسيفه إلى المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

ج- والفضل ما شهد به الأعداء: فهذا أبو سفيان قبل إسلامه، يسأله أبو لهب، قال: يابن أخي، أخبرني كيف كانت أحوال الناس، قال: وايم الله ما لمتُ الناس، لقيت رجالًا بيضًا، على خيل بُلْق بين السماء والأرض، والله لا يتلقاهم شيء، ولا يقوم لهم شيء، قال أبو رافع: تلك والله الملائكة، فرفع أبو لهب يده، فضرب وجهي ضربة شديدة فثاورتُه، فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك على صدري، وكنت رجلًا ضعيفًا، فقامت إليه أم الفضل بعمود، فضربتْه ضربة فلقت بها رأسه، فوالله ما عاش بعدها إلا سبع ليالٍ[١].

د- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن أبا جهل سأله يوم بدر: من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمعه ولا نرى شخصًا؟ فقال: من الملائكة، فقال: أبو جهل: هم إذن غلبونا لا أنتم[٢].

هـ - وقال ابن عباس ﷺ: كانت سِيمَا الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء، ويوم أُحُد عمائم خضراء، ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى بدر.

و- ومن ذلك قول أبي أسيد، مالك بن ربيعة، وكان قد شهد بدرًا: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بَصَري، لأريتكم الشِّعب -أي: الطريق في الجبل- الذي خرجتْ منه الملائكة، لا أشك ولا أُماري[٣].

ويبدو أن قتال الملائكة مع المؤمنين في غزوة بدر كان وفق سنن البشر، وليس بقوة الملائكة؛ لأن ملَكًا واحدًا يكفي لإهلاك أهل الأرض، كما فعل جبريل بقوم لوط.

ز- أخرج ابن إسحاق وابن المنذر، عن حبان بن واسع بن حبان، عن أشياخ من قومه أن رسول الله ﷺ عدَّل صفوف أصحابه يوم بدر ورجع إلى العريش، فدخله ومعه أبو بكر، وقد

---

(١) «تفسير الخازن» (٢/ ١٧٣).

(٢) «معالم التنزيل» للبغوي (١/ ١٠).

(٣) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٩٢).

خفق رسول الله خفقة وهو في العريش ثم انتبه، فقال: «**أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع**»[١].

ومسألة اشتراك الملائكة بالقتال في غزوة بدر استبعدها بعض أهل العلم، ورأوا أن مهمة الملائكة كانت منحصرة في تثبيت قلوب المؤمنين وتقوية عزائمهم، وأن آيات القرآن لم تصرح باشتراكهم الفعلي في المعركة، وقالوا: إن ما ورد في السنة من ذلك على ضعفه فهو غير صريح في قتال الملائكة مع المؤمنين يوم بدر.

قلت: لقد جاء اشتراك الملائكة في قتال يوم بدر في أحاديث ثابتة في الصحيحين وصريحة في المعنى، ذكرتُ بعضها في الآية التاسعة.

وهذه الآية تُفصِّل عمل الملائكة يوم بدر، وما خاطبهم الله به استجابة لاستغاثة النبي ﷺ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ والوحي إلى الملائكة يكون عن طريق إلقاء الأمر في نفوسهم من الله تعالى.

وتثبيت المؤمنين يكون بإلهامهم أنهم منصورون بإذن الله، وبإزالة الاضطراب الذي في نفوسهم.

وإلقاء الرعب في قلوب الكفار لم يكن بواسطة الملائكة؛ لأنهم المخاطَبون في الآية، وكل ما يقع في العالم هو من تقدير الله تعالى على حسب إرادته، وفي عدم إسناد إلقاء الرعب إلى الملائكة إشارة إلى أنه رعب شديد قدَّره الله تعالى على كيفية خارقة للعادة.

والمعنى: اذكر يا محمد وقت أن أوحى ربك إلى الملائكة الذين أمدَّ الله بهم المسلمين يوم بدر، أنه سبحانه معهم بتأييده وعونه ونصره، فاملْؤوا نفوسكم ثقة بالنصر، وصححوا نياتكم في الجهاد، وقد أعطيتكم - أيها المؤمنون - من وسائل النصر ما أعطيتكم، فهاجموا أعداء الله بقوة وغلظة، واضربوهم على أعناقهم ورؤوسهم، ومواضع الذبح فيهم، واضربوهم على كل أطرافهم حتى تُشلُّوا حركتهم، فيصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم. قال تعالى:

١٣ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾

والذي حدث للكفار يوم بدر؛ من ضرب الرؤوس، والأعناق والأطراف، والقتل

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٢٦).

والأسر؛ كان بسبب أنهم حادُّوا الله ورسوله، وكذَّبوه وخالفوا أمره، وجانبوا دين الله، وضادُّوه في أمره ونهيه.

وهذا شأن كل من يخالف الله ورسوله، فإنه يَلْقَى مصيره بالهلاك والعذاب في الدنيا، وهو عقاب عاجل، ولهم في الآخرة عذاب آجل، أشد ألمًا وأنكى عقوبة.

وفيه تحذير وتنبيه لخلق الله أجمعين؛ حتى لا يحل بهم ما حلَّ بغيرهم؛ لأن هذا قاعدة، وسنة عامة، والآية تشير إلى أن الرعب دبَّ في قلوب المشركين، فاختلَّت صفوفهم تحت مطارق هزيمة لم تخطر لهم على بال؛ بسبب كفرهم وشركهم، وأن النصر قد تحقق للمسلمين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فأحبوا الموت على الحياة، وآثروا ما عند الله على حظوظ أنفسهم، وهذا لا يمنع أن الباطل قد يروج، وينتصر أحيانًا في ظروف معينة؛ لحكمة يعلمها علام الغيوب، كتمحيص عباده إذا استوَوْا في معصية الله مع عدوهم، فإنه يتفوَّق عليهم في هذه الحالة بقوة السلاح. قال تعالى:

١٤-﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

ثم وجه الله خطابه إلى الذين شاقوا الله ورسوله، فتوعَّدهم بسوء المصير، وأن هذا العذاب الذي عجله لهم في الدنيا -من القتل والأسر- هو المناسب لطغيانهم وعنادهم، وهو المناسب لكل من خالف أمر الله ورسوله، بالإضافة إلى العذاب الآجل في الآخرة، وهو أشد وأنكى.

وبهذا فإن هذه الآيات تُذكِّر المؤمنين بأن من **عوامل النصر** على العدو ما يأتي:

أولًا: المقاتل في سبيل الله يفوز بإحدى الحسنيين، إما النصر والغنيمة، وإما الشهادة والجنة، وقد وعد الله المؤمنين يوم بدر العير أو النفير، وقد وفَّى بوعده تعالى فنصرهم على عدوهم.

ثانيًا: الدعاء من عوامل النصر، وقد استغاث المسلمون بربهم يوم بدر؛ فأمدهم الله بالملائكة.

ثالثًا: إلقاء النعاس على المجاهدين قبل القتال، فيه أمان لهم، وراحة لأبدانهم.

رابعًا: نزول المطر على المجاهدين فيه طمأنينة لقلوبهم، وتثبيت لأقدامهم، وطهارة لظاهرهم وباطنهم.

خامسًا: غرس الثقة في النفس، بنصر الله تعالى، والاستهانة بالعدو.

سادسًا: إلقاء الرعب والفزع والجزع في قلب العدو، بحيث ينهزم أمام المسلمين، وتذهب معنوياته وتخور قواه.

سابعًا: إن ما يصيب العدو من هزيمة وخسران وقتْل وأسْر سببه مضادة الله ورسوله.

فاحذروا - أيها المسلمون - عقاب الله وسخطه، وأعدوا العدة للقاء عدوكم بالنصر على أنفسكم، والقرب من ربكم، وَوَحْدة كلمتكم، ومضارعته في السلاح والعتاد، وهكذا أجاب الله دعوة نبيه والمؤمنين لَمَّا استغاثوه بما ذكره من الأسباب، فقَوَّى إيمانهم، وثبَّتَ أقدامهم، وأزال عنهم وساوس الشيطان، وتحقق وعد الله تعالى لهم بالنصر ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [آل عمران].

سِتُّ نِدَاءَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي السُّورَةِ؛ النِّدَاءُ الأَوَّلُ: عَدَمُ التَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ

١٥ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾

والإسلام في تعاليمه يمنع تزكية النفس ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] ويمنع مدح الآخرين، كبارًا كانوا في مناصبهم أو صغارًا، سواء أكان المدح في وجوههم أو في المجتمعات العامة، أو في وسائل الإعلام، ويأمر الإسلام بحثْو التراب في وجوه المادحين؛ لأن ذلك من باب النفاق والتملق، ولا يجيز الإسلام للممدوح مهما كان شأنه أن يقبل مَدْح غيره له، وعليه أن يستنكر ذلك، وألا يحضر المجالس التي يُمدح فيها، ويمنع نشرها وإعلانها كلما أمكنه ذلك.

والمنتصرون من المسلمين في غزوة بدر نزل في شأنهم القرآن الكريم في أعقاب الغزوة، فكانت طبيعة هذا القرآن أنك لا تجد فيه شيئًا من المديح أو الثناء، أو تمجيد البطولات وتعدادها، أو الإشادة برجالها، أو استعراض عسكري بصحبة حفل سنوي، وخُطب حماسية؛ لتذكير الأجيال والعالم أجمع بهذا النصر.

ونصر المسلمين في بدر حقيقة ثابتة، وليست نصرًا مزيّفًا ولا مبالغًا فيه، بل هي آيات بينات فيها شدة وصرامة، وفيها توجيهات إسلامية رفيعة، وفيها قمع للغرور، وقمع للزهو وللحديث عن النفس، وبيان ما يستفاد من دروسها لكافة المسلمين في سائر شؤون الحياة على غرار التوجيهات التي أعقبت نصر المسلمين في يوم بدر، فإن للغرور حصادًا عاقبته وخيمة، ونتائجه أليمة.

وعليه: فإن الأجدر بالطالب الذي نجح بنسبة ٩٥٪ أن يبحث عن أسباب التقصير التي نتج عنها فقده لـ ٥٪ من الدرجات.

والأجدر بالجيش المنتصر بنسبة ٩٠٪ أن يدْرس الثغرات التي لم تحقق له كامل النصر، وهكذا.

هذا: والمسلمون في غزوة بدر وفي غيرها من الغزوات لم يفروا من المعركة، أمام عدوِّهم مهما كان عدده، ومهما كانت عدته، ومع ذلك فإن الله سبحانه يوجه نداءات ستّ إلى المؤمنين المنتصرين في هذه السورة، ويخاطب بها أهل بدر والمسلمين إلى يوم القيامة.

وهذه **النداءات الستة** جاءت في هذه الآيات:

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾.

٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٣ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

٤ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٥ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

٦ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

هذه التوجيهات موجهة إلى المنتصرين في غزوة بدر، بهذه الشدة وهذه الصرامة مع ما عليه أصحاب رسول الله ﷺ من قيم وفضائل، ولم يحدث شيء من التقصير بين صفوف المسلمين المنتصرين في بدر، وإنما هي درس إلى عباده المؤمنين إلى يوم القيامة يتسلحون به في مواجهة عدوهم، حيث يخاطب الله المؤمنين قائلًا: إذا تقابلتم مع الكفار وكنتم في ساحة المعركة عن قرب والتحام، فلا تولُّوهم ظهوركم ولا تُوجهوا إليهم أدباركم منهزمين، بل اثبتوا واصبروا وصابروا، ولا تفِرُّوا سواء أكان جيشكم قليلًا أم كثيرًا، فإن الله معكم وناصركم.

وقد حرَّم الله تعالى التولي يوم الزحف؛ لأن الإسلام في حروبه لا يعرف إلا **أمرين**: إما النصر على العدو، وإما أن يُستَشهَد العبد في سبيل الله ﴿وَمَن يُقَـٰتِلۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ﴾ أي: يُستَشهَد ﴿أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ أي: ينتصر ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤] ولا يعرف الإسلام الفرار ولا الهزيمة.

والتولي يوم الزحف من السبع الموبقات، أي: من الكبائر الذنوب التي ذكرها النبي ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ في قوله: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[1].

وجواز الفرار أمام العدو، وضَع القرآن له حدودًا قرب نهاية السورة، وذلك أنه إذا كان عدد العدوّ وعدَّته عشرة أضعاف المسلمين، فإن على المسلمين في هذه الحالة أيضا أن يثبتوا وألَّا يفروا وألَّا ينهزموا أمام عدوهم، وهذا من باب الرخصة عند ارتفاع قوة الإيمان لدى المسلمين، والاستعداد التام بالعدة والعتاد، ذلكم قول الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [٦٥]

فإن كان هناك ضَعْف في العتاد والعدَد، وضَعْف في تهيئة النفوس، فقد خفف الله عنكم، وأوجب عليكم من باب العزيمة والوجوب، ألَّا يفر المسلم أمام العدد إذا كان

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٧٥) ومسلم (١/ ٩٢) برقم (٨٩) عن أبي هريرة ﷺ.

عدد العدوّ وعُدَّته ضِعْف عدد المسلمين، وهذا قول الله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ على القول بعدم النسخ بين هذه الآية والتي قبلها، وقد قال به بعض أهل العلم: وإعمال الآية أوْلَى من إهمالها وتعطيلها، ما دام هناك وجه للجمع بينهما كما بيَّنَّا وقال أكثر أهل العلم بأن الآية الثانية ناسخة للأولى.

فالتولي يوم الزحف مقيد بالآيات التي ذكرناها، وقد عفا الله عما حدث من بعضهم في يوم أُحُد، بعد أن عنفهم، كما قرره القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران] والتقاء الجمعين كان في يوم بدر.

وكما حدث في يوم حنين حين فروا عن النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. قال تعالى:

١٦-﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ(١) فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ(٢) جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ(٣) ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

استثنت هذه الآية من الفرار والتولي يوم الزحف حالتين:

الحالة الأولى: إذا أراد الجندي أن يوهم العدو أنه يفر أمامه؛ ويتظاهر بهذا كي يكيد له ويمكر به، فيختبئ هنا أو هناك، أو ينحرف من جهة إلى أخرى ليتمكن أكثر من قتال عدوه، أو ليخدعه ثم ينقضّ عليه من جديد، فهذا ليس من باب الفرار وإنما هو من باب التحرف للقتال.

الحالة الثانية: إذا ترك المقاتل جماعته المختصة باستخدام سلاح معين؛ كي يلتحق بسلاح آخر أو جماعة أخرى هي أحوج إليه؛ فإن هذا أيضًا ليس من باب الفرار، إنما هو منْ باب خِدَع الحرب ومكايدها.

---

(١) أبدل أبو جعفر همزة (فئة) ياء خالصة، وحقق همزها الآخرون.

(٢) أبدل همزة (مأواه) ألفًا، أبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر، وأثبتها غيره عدا حمزة عند الوقف.

(٣) أبدل همزة (وبئس) ياء، ورش وأبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر، وحققها غيرهم.

وهذان الأمران تشير إليهما هذه الآية، **والفئة**: هي الجماعة من الناس؛ لأن بعضهم يفيء، أي: يرجع إلى بعض، وفئة المؤمنين وقت نزول الآية هو: رسول الله ﷺ، ومن معه وبعد ذلك قائد الجيش أو الكتيبة أو الفرقة.

والآية عامة في كل مؤمن ولَّى ظهره عند زحف الكفار عليه؛ لأن الله تعالى يخاطب المؤمنين عمومًا، فلا يجوز الفرار عند زحف العدو على المؤمنين بحال، أما إذا كان المؤمنون على النِّصْف من عدد العدو وعُدَّته، وما فوق ذلك إلى عشرة أضعاف فهو من باب الرخصة، وعلوِّ الهمة، وكمال الإيمان.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن فرَّ من رجلين فقد فرَّ، وإن فرَّ من ثلاثة فلم يفر، فيجب على سبيل الفرض جهاد العدو إذا كان ضعف المسلمين في قوتهم عددًا أو عدة.

والمعنى: ومن يولهم يومئذ ظهره وقت الزحف إلا منعطفًا لمكيدة، أو منحازًا إلى جماعة المسلمين حاضري الحرب حيث كانوا، والمتولي يوم الزحف في غير هاتين الحالتين يستحق الغضب من الله، ومقامه جهنم، وبئس المنقلب والمصير مصيره.

وعلى هذا: فإن تَرَك الجندي المسلم موقعه ليقاتل على جبهة أخرى، أو ليلحق بفريق آخر، أو ليدير آلة حربية أخرى يجيد إدارتها، أو ليوهم العدو بالفرار، ثم ينحاز إلى فئة أخرى، فإن هذا من باب التفنُّن في قتال العدو، وهو كرٌّ لا فرٌّ، وهو الذي قال الله تعالى عنه: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ ليعاونهم ويعاونوه، وكذا لو فرَّ إلى قائده الأدنى أو الأعلى، أو عرَض له مرض أو جرح، وليس المراد ينحاز إلى جماعة مستريحين أو متخاذلين.

في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة -وكنت فيمن حاص- فقلنا: كيف نصنع وقد فررْنا من الزحف وبُؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتْنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة، وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغد، فخرج، فقال: «**مَن القوم؟**» فقلنا: نحن الفرارون، فقال: «**لا، بل أنتم العكَّارون**

-أي: العطافون- أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين»، قال: فأتيناه حتى قبَّلْنا يده.[(١)]

وليس هذا فرار، إنما هو انحياز إلى فئتهم بالمدينة.

والآية نزلت في أهل بدر، وهي عامة في كل من فرَّ يوم الزحف، فهو من السبع الموبقات.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: أكبر الكبائر الشرك بالله والفرار من الزحف.

ويؤخذ من الآية وجوب مصابرة العدو، والثبات في وجهه عند القتال، وتحريم الفرار منه.

والخطاب في الآية عام في جميع الحروب لكل المؤمنين في كل زمان ومكان؛ لأن سورة الأنفال نزلت بعد الفراغ من غزوة بدر لا قبل الدخول فيها، فهي عامة في كل من ولَّى الدبر عن العدو منهزمًا، وهي تأخذ صفة العموم، وليست خاصة بيوم بدر، فحكمها عام شرعه الله للمسلمين بسبب هذه الغزوة.

وهذا معنى قول ابن عمر في رده على نافع: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ولا ندري من الفئة: إمامنا، أو عسكرنا؟ فقال لي: الفئة رسول الله ﷺ فقلت: إن الله يقول: ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ قال: إنما أنزلت هذه الآية لأهل بدر، لا قبلها ولا بعدها[(٢)]، وهو أيضا معنى قول أبي سعيد: إنها نزلت في أهل بدر[(٣)].

فهذا الحكم نزل في غزوة بدر، ولم ينزل قبلها ولا بعدها.

وعلى هذا: فإن التقى الجيشان وجب على المؤمنين الثبات والصبر للقتال ولو كانوا

---

(١) «المسند» (٢/ ٧٠) برقم (٥٣٨٤، ٥٥٩١) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف يزيد بن أبي زياد ولم تذكر بعض الروايات تقبيل يد النبي ﷺ، و الحديث في «سنن أبي داود» برقم (٢٦٤٧) و«سنن الترمذي» برقم (١٧١٦) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٧٠٤)، وابن سعد في الطبقات (٤/ ١٤٥).

(٢) إسناده حسن برقم (١٦٤) في «تفسير ابن أبي حاتم» وبرقم (٢٢٠) في تفسير النسائي والبخاري معلقًا في «التاريخ الكبير» (٣/ ١٨٨).

(٣) صححه الألباني في «صحيح أبي داود» برقم (٢٤٠٦) وهو في تفسير النسائي برقم (٢٢٤، ٢٢٣) و«تفسير الطبري» برقم (١٥٧٩٨، ١٥٨٠١) وصححه الحاكم (٢/ ٣٢٧).

أقل من جيش المشركين، فإما أن ينتصروا عليهم، وإما أن يستشهدوا، وقبل لقاء العدو، على المسلمين أن ينظروا في كفاءة الجيْشين، وهل يستطيعون الثبات في وجهه، أم لا؟ فإن رأوْا إمكانية النصر عليهم متاحة، وأقدموا على قتالهم وجب عليهم الثبات وعدم الفرار،

وقد صح عن رسول الله ﷺ في حديث عبدالله بن أبي أوفى أنه قال في يوم الأحزاب: **«ياأيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»**[1].

النَّصْرُ بِيَدِ اللهِ وَالمُسْلِمُ أَدَاتُهُ

١٧-﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ[2] ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ[2] وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

في أعقاب غزوة بدر، لما انهزم المشركون وقتل المسلمون منهم سبعين، خاطب الله المؤمنين الذين تفاخروا بأنهم فعلوا كذا وكذا يوم بدر، فبيَّن لهم فضله عليهم؛ ليشكروه ويزدادوا له طاعة، ويعلموا أن الله تعالى لا يحب تزكية النفس ومدحها، فلا يقول الإنسان: أنا فعلت، أنا فعلت.

ولما قال بعض المسلمين عقب الانتصار في غزو بدر: أنا قتلت فلانًا، وأنا قتلت فلانًا، أنزل الله سبحانه يبيِّن أن يد الله هي المدبرة لكل شيء، وهي التي كانت تدير المعركة، فأنتم أيها المؤمنون لم تقتلوا المشركين يوم بدر، لم تقتلوهم بقوتكم، ولكن الله قتلهم بنصره لكم، وإمداده ومعونته إياكم، وإلقاء الرعب في قلوبهم.

ولكن الله رمى:

١- وفي يوم بدر نزل المشركون خلف كثيب من الرمال يُسمَّى بالعدوة القصوى،

---

(١) من حديث أبي النضر، عن عبد الله بن أبي أوفى في «صحيح مسلم» برقم (١٧٤٢) و«صحيح البخاري» برقم (٢٨١٨) و(٢٨٣٣، ٢٩٦٥).

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر نون (ولكن الله قتلهم) (ولكن الله رمى) على أنها مخففة من الثقيلة، مع رفع لفظ الجلالة بعدهما، على أنه مبتدأ، والفعل بعده خبر، وقرأ الباقون بتشديد النون فيهما على أنها عاملة، ونصب لفظ الجلالة على أنه اسم لكن، والفعل خبرها

فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام يستفسر عن عدد المشركين، قالوا: إنهم كثير، قال: «**كم عددهم؟**» قالوا: لا نعرف، قال: «**كم يذبحون في اليوم؟**» قالوا: يذبحون عشرًا من الإبل، ويومًا تسعًا، قال عليه الصلاة والسلام: «**القوم بين التسع مئة والألف**»، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ فيهم من أشراف قريش؟**» قالوا: فلان وفلان، وعدَّدوا أشراف قريش، فرفع النبي عليه الصلاة والسلام يديه إلى السماء، وأخذ يضرع إلى ربه ويقول: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلها وفخرها وخيلائها، تجادلك وتكذِّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني**» فأتاه جبريل بحفنة من تراب، قال له: «**خذ قبضة من تراب، فارمهم بها**»، فلما التقى الجمعان تناول النبي ﷺ كفًّا من الحصباء عليه تراب، ورمى بها في وجوه القوم، وقال: «**شاهت الوجوه**»، فما بقي رجل منهم إلا وقد أصابه شيء من هذه الحفنة من التراب في عينيه وأنفه وفمه، فشُغلوا بأنفسهم، ولحقهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

وليس في وسع أحد أن يرمي كفًّا من الحصى في وجوه جيش قوامه ألف شخص، فلا تبقى عين إلا وقد دخل فيها شيء من ذلك الحصى، ليست هذه قوة بشر مهما كان، ولكنه النبي عليه الصلاة والسلام رمى بيده هذه الحفنة من تراب، مؤيَّدًا من الله تعالى: فهو سبحانه الرامي في الحقيقة، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ حيث أوصل الرمية التي رميتها إلى وجوه المشركين.

٢- وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﷺ قال: رفع رسول الله ﷺ يده يوم بدر فقال: «**يا رب، إن تُهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبدًا**» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب، فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين[١].

٣- وعن حكيم بن حزام: لما كان يوم بدر سمعنا صوتًا وقع من السماء إلى الأرض، كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله ﷺ تلك الحصاة، فانهزمنا، فذلك

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ٤٤٥) برقم (١٥٨٢٧) و«تفسير ابن أبي حاتم» بإسناد جيد يحتج به، وذلك في تفسير سورة الأنفال برقم (١٧٤) وحسَّن الهيثمي إسناده إلى الطبراني في «مجمع الزوائد» (٦/ ٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[(١)].

٤- وعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لعلي ﷺ يوم بدر: «**أعطني حصبًا من الأرض**»، فناوله حصبًا عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، فلم يبقَ مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم ردفهم المؤمنون يقتلون ويأسرون، وأنزل الله الآية[(٢)].

قَتْلُ أُبيّ بن خلَف وابن أبي الحقيق:

وقد نزلت هذه الآية في غزوة بدر، وشملت بعمومها ما حدث مثل ذلك في غير هذه الغزوة فيما رواه سعيد بن المسيب عن أبيه أن أُبيَّ بن خلف أقبل على النبي ﷺ يوم أُحُد يريد قتله، فاعترضه بعض الصحابة، فقال ﷺ: «**خلوا سبيله**» فطعنه النبي ﷺ بحربته، فسقط من على فرسه، وأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أعجزك، إنما هو خدش؟ فذكر لهم قول النبي ﷺ: «**بل أنا قاتله**» فمات أُبيٌّ إلى النار، فسحقًا لأصحاب السعير[(٣)].

ومن ذلك ما رواه عبد الرحمن بن جبير من أن النبي ﷺ رمى ابن أبي الحقيق في حصن خيبر بقوس طويلة، فأقبل السهم يهوي عليه فقتله وهو على فراشه[(٤)].

والرامي في الحقيقة هو الله سبحانه.

والمعنى: إنكم - أيها المؤمنون - لَمْ تقتلوا المشركين في بدر بقوتكم وشجاعتكم، ولكن الله هو الذي نصركم عليهم بحوله وقوته، فخذلهم وقذف في قلوبهم الرعب، وقوَّى قلوبكم وأمدكم بالملائكة، وأذهب عنكم الخوف والفزع، وهو الذي أوصل الحصباء إلى أعينهم حين رماها رسول الله ﷺ حتى بلغت ما بلغت، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنًا

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ٤٤٣) و«المعجم الكبير» للطبراني (٣/ ٢٠٣) وحسَّن إسناده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٨٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٠) والأثر عند الطبراني في «الكبير» (١١٧٥٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٤): رجاله رجال الصحيح.

(٣) قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي «المستدرك» (٢/ ٣٢٧).

(٤) «تفسير الطبري» (١٣/ ٤٤٦) قال ابن كثير (٤/ ٣١): وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ورواه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٣).

فيوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، ويُعرِّفهم نعمته عليهم فيشكروه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ودعائكم، ويعلم ما أسررتم وما أعلنتم به ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأجر والغنيمة، ويعلم ما فيه صلاحكم سعادتكم. قال تعالى:

١٨-﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ[1] كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

أي: ذلكم الذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق، والغرض منه إضعاف وتوهين قوى أعداء الإسلام، وأن الله مُضْعف كيد الكافرين، ومضعف تدبيرهم، حين يُلْقي الرعب في قلب العدو، وينصر المسلمين بأوهن وأدنى الأسباب، فلا مجال للخوف منهم، ولا للإرهاب منهم، فإنكم لن تُنصَروا بكثرة العتاد، إنما الله قادر أن ينصركم بأوهن الأسباب وأضعفها، بعد أن تأخذوا الأسباب في تقوية الإيمان، وهذه بشرى أخرى للمؤمنين في كل زمان ومكان؛ فأمْرُ أعدائهم في تبار ودمار، والعاقبة للمتقين، والنصر للمؤمنين إن شاء الله.

تَهْدِيدُ الْمُكَذِّبِينَ بِمُعَاوَدَةِ الْهَزِيمَةِ

١٩-﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ[2] شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ[3] ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

يراد بالاستفتاح: طلب الحُكْم والفصْل بين المسلمين وغيرهم، أو يراد به طلب النصر على العدوّ، وهذه الآية تخاطب المشركين وتُصَوِّر حالهم قبل معركة بدر، وذلك أنه لما أراد المشركون -وفيهم أبو جهل-أن يخرجوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه تعلقوا بأستار الكعبة، وذكروا أنهم سكَّان بيت الله الحرام، وأنهم يَسْقُون الحجيج، ويقومون على

---

(١) قرأ ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (موهن) بسكون الواو، وتخفيف الهاء وتنوين النون، على اسم فاعل من أوهن، مع نصب (كيد) مفعول به، وقرأ حفص بسكون الواو وتخفيف الهاء، على أنه اسم فاعل، مع حذف التنوين للإضافة، وخفض (كيد) على الإضافة وقرأ الباقون بفتح واو (موهن) وتشديد الهاء والتنوين، اسم فاعل، من وهن، ونصب (كيد) مفعول به.

(٢) أبدل أبو جعفر همزة (فئتكم) ياء وحمزة وقفًا وأثبت الهمزة الآخرون.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح همزة (وأن) على تقدير اللام؛ أي: ولأن، وقرأ الباقون بكسرها على الاستئناف.

حراسة بيته، وأنهم يكرمون الضيوف، ويصلون الأرحام، وأن محمدًا ﷺ فرّق الجماعة، وقطّع الرحم، وسفّه الآباء، ثم سألوا الله تعالى أن يحكم بينهم وبين النبي ﷺ فينصر المحق، ويهلك الظالم، فكان حكم الله فيهم أن أهلكهم ونصر نبيه، وكان أبو جهل يدعو في محافل قريش، ويقول: اللهم أقْطَعُنا للرحم فأهلِكْه واجعلْه المغلوب، وكان المشركون يقولون: ربنا افتح بيننا وبين محمد.

أخرج النَّسائي وغيره بسند صحيح إلى عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر قال: كان أبو جهل المستفتح يوم بدر، وإنه قال حين التقى القوم: اللهم أيُّنا كان أقطع للرحم، وأتى بما لا نعرف، فأحنه الغداة، وكان ذلك استفتاحه؛ فأنزل الله ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾[1]. ومعنى (أحنه) أي أهلِكْه ولا توفقه للرشاد.

فهم إذن يطلبون من الله تعالى أن يقضي ويفصل بينهم وبين محمد ﷺ عدوِّهم، وأن يوقع بأسه وعقابه بالمعتدين الظالمين، هذا هو المعنى الأول للآية، ويأتي المعنى الثاني قريبًا.

فحكَم الله بينكم - أيها الكفار - وبيْن رسوله ﷺ، وإنجازه لكم ما طلبتم، أوقع بكم عقابه، ونكَّل بكم؛ لتكونوا عبرة لغيركم.

وكان مما مُني به المشركون في هذه الغزوة قتل صناديدهم، وعلى رأسهم من طلب الاستفتاح، وهو أبو جهل.

وهذه الآية خطاب للمشركين كما يفيد السياق، و الآية التي بعدها تخاطب المؤمنين.

مصرع أبي جهل:

في الصحيحين عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: إني لواقف في الصف يوم بدر، فنظرتُ عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانُهما، فتمنيت أن أكون بين أضْلع منهما، فغمزني أحدهما فقال: أي عمِّ، هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم،

(١) تفسير النسائي (١/٥١٨) برقم (٢٢١) و«المسند» (٥/٤٣١) برقم (٢٣٦٦١) و«تفسير الطبري» (٩/ ٢٠٨) برقم (١٥٨٣٩) و«تفسير ابن أبي حاتم» برقم (١٨٣) وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/٣٢٨) وهو في سيرة ابن هشام (٢/٢٨٠) وعبد الله بن ثعلبة له رؤية ولم يثبت سماعه للنبي ﷺ، وله شاهد حسن عند الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

فما حاجتك إليه يابن أخي؟ قال: أُخبرتُ أنه يَسُبُّ رسول الله ﷺ فوالذي نفسي بيده: لئن رأيته، لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبتُ لذلك، قال: وغمزني الآخر، فقال لي مثلَها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته فقال: **«هل مسحتما سيفكما؟»**، فقالا: لا، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: **«كلاكما قتله»** وقضى رسول الله بسلَبه لهما، والرجلان هما: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء[1].

وكان أبو جهل قد بقي به رمق، فمرَّ به عبد الله بن مسعود، فوجده في آخر رمق فعرفه، قال: فوضعتُ رجلي على عنقه، فقلت: هل أخزاك الله يا عدوَّ الله؟ ثم سأله: لمن الدولة؟ قال ابن مسعود: لله ورسوله.

وورد أن أبا جهل قال لابن مسعود: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رُوَيْعِيَ الغنم، قال ابن مسعود: ثم احتززت رأسه، ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل، فقال: **«آلله الذي لا إله غيره؟»** فقلت: نعم، والذي لا إله غيره، ثم ألقيتُه بين يدي رسول الله، فحمد الله تعالى، لقد قُتِل أبو جهل، وكان يظن أنه على صواب في محاربة محمد وصحبه.

العدو قديمًا وحديثًا يقاتلنا عن تديّن:

وهكذا عدونا يقاتل معتقدًا أنه على صواب، واليهود اليوم يقاتلون أهل فلسطين، وهم يعتقدون أنهم أصحاب حق، كالمشركين في عهد النبي ﷺ.

فقد وقف أهل قريش ومن معهم صبيحة يوم بدر متعلقين بأستار الكعبة يقولون: اللهم إنك تعلم مَنْ مِنَّا أقطع للرحم، اللهم انصر أهدى الجُنْدَين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين[2] يعني هم،

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣١٤١، ٣٩٦٤، ٣٩٨٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٥٢).

(٢) جاء هذا بإسناد صحيح عن ابن شهاب، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر، وعن عطية في «المسند» (٢٣٦٦١) حديث صحيح، وإسناده حسن من أجل ابن إسحاق وقد توبع، وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٥٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٠١) والطبرى (١١/ ٩١) والحاكم (٢/ ٣٢٨) والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٧٤).

أو محمد صلوات الله وسلامه عليه، فكان هذا استفتاحًا منهم بطلب النصر على محمد وصحبه، فجاءهم الفتح بالهزيمة قتلًا وأسرًا، والمشركون بهذا الاستفتاح يعتقدون أنهم أهلٌ للنصر وأنهم جديرون به، وهذا هو شأن العدو في القديم والحديث، وهو ينطبق على الصهيونية العالمية، وعلى اليهود الذين يتعلقون بحائط البراق، ويرفعون التوراة بأيديهم، ويطلبون النصر على المسلمين، معتقدين أنهم أصحاب حق في الأرض والدين.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ يراد بالفتح في الآية:

١- طلب الحكم والفصل والقضاء بينهم وبين محمد ﷺ كما سبق بيانه، وهو الأَوْلَى.

٢- وقد يراد به: طلب النصر على العدو، أي: إن تَطْلُبوا النصر على المسلمين فقد جاءكم الفتح، أي الهزيمة، وفيه تهكم وسخرية واستهزاء يجاريهم ربنا عليه على حد قولهم.

فالمراد بالفتح على المعنى الثاني: هو النصر، ولكنه هنا بمعنى الهزيمة، من باب السخرية والتهكم والاستهزاء، كما قال تعالى عمن يستحق عذاب النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان] فهذا الذي يذوق ألوانًا من العذاب في نار جهنم، هل هو في عزة وكرامة؟ لا والله، إنه في ذلة ومهانة، إذن فهي سخرية وإهانة وتوبيخ وتقريع له ولأمثاله.

والمعنى: إن تطلبوا النصر على عدوكم فقد جاءتكم الهزيمة.

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ أيها المشركون عن الكفر بالله، وعن عداوة محمد ﷺ وقتاله، وعن طلب الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دينكم ودنياكم لأنه ربما أمهلكم ولم يعجل لكم العقوبة ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ إلى الحرب، وقتال محمد ﷺ وأصحابه ﴿نَعُدْ﴾ إلى هزيمتكم كما هُزمتم يوم بدر ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾ الفئة هي الجماعة، وهي لا تنفع ولو كثرت من أهل الشرك كما حدث لكم يوم بدر؛ أي أن أعوانكم وأنصاركم الذين تعتمدون عليهم في قتالكم لن ينفعوكم شيئا، ومهما كثر عدد العدو وعدته فإنه لا ينبغي لأحد أن يرهب إلا الله ﷻ، طالما كان الإيمان قويًا، مع الأخذ بالأسباب والإقبال على الله سبحانه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بتأييده ونصره، ومن كان الله معه فهو المنصور وإن كان ضعيفًا، وكانت هزيمة المسلمين يوم أُحُد عقوبة لهم؛ لمخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ، وهكذا حين يخالف المسلمون تعاليم الإسلام ولا يأخذوا بأسباب النصر المادية والمعنوية فإن العدو يهزمهم.

هذا: ولَمَّا أخبر الله تعالى أنه مع المؤمنين، أمرهم في الآية التالية أن يقوموا بمقتضى هذا الإيمان حتى يدركون به معيّته.

النِّدَاءُ الثَّانِي: طَاعَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ

٢٠-﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا[1] تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ثم يوجِّه القرآن نداء آخر إلى أهل بدر، وإلى المنتصرين على عدوهم في كل زمان ومكان؛ فيبيِّن لهم أن النصر على العدو يترتب على طاعة الله ورسوله، وإعداد العدة المكافئة لقتال العدو، فإن أطعتم الله وأطعتم رسوله، ولم تتشبهوا بالكفار، ولم توالوهم، ولم تكونوا مثلهم في عدم الانتفاع بالقرآن والسنة، فإنكم حينئذ أهل للنصر على العدو.

﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بامتثال الأوامر واجتناب النواهي في كل أحوالكم ولا تقصروا في طاعة الله والرسول، وأن تبذلوا النفس والنفيس للجهاد في سبيل الله، ورفع راية الإسلام، ونشر الدعوة، ورد العدوان.

﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ولا تتركوا طاعة الله والرسول وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم في القرآن من الحجج والبراهين سماع تدبر واتعاظ، فإن من لم ينتفع بما يسمع بمثابة الذي لم يسمع أصلًا. قال تعالى:

٢١-﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: ولا تكونوا - أيها المؤمنون - في مخالفة الله والرسول، كالمشركين والمنافقين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم لا ينتفعون ولا يتعظون به، بل يقولون: سمعنا بآذاننا، وهم في الحقيقة لا يتدبرون ما سمعوا، ولا يفكرون فيه، فهم لا ينتفعون به، وفي هذا نهي عن التشبه بأهل الكفر والضلال والنفاق، وعدم الاكتفاء بمجرد الدعوى الجوفاء الخالية من الحقيقة، فليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

---

(١) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا مع المد المشبع، وقرأ الباقون بالتخفيف مع القصر.

وهذا الأمر بالطاعة رجوع إلى ما افتتحت به السورة في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما يرجع الخطيب إلى المقدمة، وذلك بعدما أراهم نتيجة امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

وكانوا قد كرهوا الخروج للقاء العدو، وتبيّن لهم كيف أن الله تعالى نصر الحق وخذل الباطل لمَّا انخلعوا من هواهم، وأطاعوا الله والرسول، وأنه هزم أعداءهم؛ لأنهم شاقوا الله والرسول.

ثم بيّن سبحانه صفة من لم تُفد فيهم الآيات والنذُر، ممن تولى وأعرض عن طاعة الله والرسول فقال:

٢٢-﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

والإنسان له قلب يتدبر، وعقل يفكر، وعدم قيامهما بوظيفتهما أمر قبيح مستنكر؛ حيث يشارك الإنسان وهو دابة تمشي على الأرض، سائر الدواب من الأنعام وغيرها، في فقد الحواس كالسمع، والبصر، مثل البهائم تمامًا.

لقد أعطى الله الإنسان سمعًا وبصرًا وفؤادًا ليستعملها في طاعة الله، فاستعملها في معاصيه، وبدَل أن يكون خير البرية، أبى إلا أن يكون شر البرية.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنَّ مِنْ شَر ما يدُب على وجه الأرض مِنْ خَلْقِ الله عند الله في حكمه وقضائه، منْ وصفهم الله تعالى بهذه الأوصاف الثلاثة: فهم ﴿ٱلصُّمُّ﴾ الذين انسدت آذانهم عن سماع الحق، فلا يسمعون الهدى والخير، وهم ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ الذين خرست ألسنتهم عن النطق به، فلا ينطقون ولا يقولون كلمة الحق، وقُدِّم الصم على البكم؛ لأن النطق بالحق فرع عن سماعه.

لقد نفى الله عنهم السمع النافع، والنطق المفيد، وقامت الحجة عليهم بما سمعوه وتكلموا به في غير الوظيفة المنوطة بهما وهي طاعة الله والرسول.

ثم وصفهم الله وصفًا ثالثًا فبيَّن أنهم فاقدون للوعي والإدراك، وأنهم قد بلغوا الغاية في سوء الحال؛ لأنهم من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يفقهون عن الله أمره ونهيه، فهم لا يفهمونه ولا يقبلون عليه، والأصم الأبكم، ربما فهم بعض الأمور، أما هؤلاء فقد فقدوا جميع المشاعر والقوى، فلم ينتفعوا بالعقل ولا بالسمع ولا باللسان، ولم

يستعملوها فيما خُلقت له، بل آثروا الغي على الرشد، والضلال على الهدى، والله تعالى لا يمنع الخير إلا عمن لا خير فيه. قال تعالى:

٢٣- ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ[1] خَيْرًا[2] لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

والسبب في ذلك أن الله تعالى لا يعلم فيهم خيرًا ولا قبولًا للهدى، ولا رغبة في الحق، فقد فسد فيهم جهاز الاستقبال، فأغلقت قلوبهم.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ واستعدادا للإيمان ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أسمعهم مواعظ القرآن والسنة سماع تدبر وانتفاع؛ حتى يعقلوا عن الله أمره ونهيه وحججه وبراهينه، ولكن الله تعالى حجب عنهم خيره بسبب عدم استعدادهم وقبولهم له.

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: ولو أن الله تعالى أسمعهم آياته وحججه على سبيل الفرض والتقدير، ما استجابوا وما فتحوا عقولهم وقلوبهم له، وأعرضوا عن الإيمان قصدًا وعنادًا بعد فهمهم له، وجحدوا الحق بعد ظهوره ولم يلتفتوا إليه، كما قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة] فترفَّعوا - أيها المسلمون - عن هذا الدرك الذي هوى إليه أعداؤكم، واستجيبوا لله والرسول.

صح عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في نفر من بني عبد الدار[3]، قالوا: نحن صم بكم عما جاء به محمد ﷺ فلم يُسلم منهم إلا رجلان: مصعب بن عمير، وسويبط بن حرملة، وبقيتهم قُتلوا جميعًا في أُحد، وكانوا أصحاب اللواء في الجاهلية.

وقد بيَّن سبحانه أن جِبلَّة هؤلاء لا تقبل دعوة الخير والهدى، فانتفى عنهم الانتفاع بما يسمعون من الحكمة والموعظة والإرشاد، ولو علم الله في نفوسهم قابلية للخير؛ لتعلقت به إرادته، وكل من مات على غير الإسلام؛ فهو على غير هدى، وكل من مات على الإسلام؛ فهو ممن علم الله فيهم خيرًا.

---

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من (فيهم)، والباقون بكسرها.

(٢) رقق الأزرق راء (خيرًا) وصلًا، وفخمها وقفًا.

(٣) كما في البخاري (٤٦٤٦) عن ابن عباس والطبري (١١/ ١٠١) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٧).

النِّدَاءُ الثَّالِثُ: الاسْتِجَابَةُ لِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ

٢٤-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

وبعد الأمر بطاعة الله وتقواه، تأتي مرتبة المؤمنين الكُمَّل بامتثال ما أمر الله به، والاستجابة لدعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم؛ فإن فيها حياة النفوس، وحياة القلوب والأرواح، سواء أكانت هذه الدعوة للإقبال على رسول الله ﷺ وهو حي، أم كانت دعوة لفعل أمر أو ترْك نهي مما في كتاب الله وسنة رسوله بعد موته.

وفي هذا توجيه للمسلمين، وبيان أن النصر على العدو متوقف على الاستجابة لأوامر الله تعالى، وأوامر الرسول ﷺ، واجتناب النواهي، وتحليل ما أحل الله، وتحريم ما حرم الله، وإقامة حدود الله في أرضه، وموالاة المسلمين من بين العالمين، وإعداد العدة العسكرية لمواجهة العدو.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة والانقياد اختيارًا منكم، ففي هذه الاستجابة إصلاح حياتكم في الدنيا والآخرة، وفي ذِكْر أحدهما مع الآخر توكيد له، وظاهر الأمر للوجوب، ففي الاستجابة لدعوة الله والرسول السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الله ورسوله ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾ ففي هذه الدعوة حياة الأرواح والأبدان، وفيها عبودية الله تعالى، ولزوم طاعته وطاعة رسوله، وهذا هو مقتضى الإيمان وملازمة الاستجابة.

والإسلام يدعوكم إلى توحيد الله، وإقامة شرعه ومنهجه وحكمه، والجهاد في سبيله، فانتهزوا الفرص حين ترق القلوب وتلين، وحينما تأتي مواسم الطاعات والخيرات، وساعات النفحات والبركات.

استَغِلْ هذه الأوقات - أيها المسلم - قبل أن يأتي الأجل، وتحول الموانع والحواجز ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فهو المتصرف في جميع الأحوال والأشياء، فاحذروا أن تردّوا أمر الله تعالى أوّل ما يأتيكم، فيُحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم عليه، فإن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه، وهو سبحانه يقلب القلوب

كيف شاء ويُقرفها أنى شاء.

وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية.

١- كان من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام «**اللهم ثبت قلبي على دينك**»[١].

٢-ومن ذلك ما جاء أن عبد الله بن عمرو ﷺ سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرِّفها كيف يشاء**» ثم قال ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب، إصرف قلوبنا إلى طاعتك**»[٢].

فلا تحوُّل عن معصية الله إلا بإذنه، ولا قوة على طاعة الله إلا بإذنه.

٣-وفي حديث النبي ﷺ لأبي مسعود الأنصاري ﷺ حين رآه يضرب عبدًا له: «**اعلم أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام**»[٣].

٤-ولما سمع عمر بن الخطاب ﷺ غلامًا يقول: اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه، فحُلْ بيني وبين الخطايا فلا أعمل بشيء منها، فقال له عمر: رحمك الله، ودعا له بخير[٤].

٥- وعن النواس بن سمعان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه**».

٦-وكان ﷺ يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك**» وقال: «**والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه**»[٥].

---

(١) من حديث أنس بن مالك في سنن ابن ماجه (٣٨٣) وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٤٥) برقم (٢٦٥٤) وأحمد (٢/ ١٦٨) برقم (٦٥٦٩) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٧٨٦١) وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٢، ٢٣١) وابن حبان (٩٠٢).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٦٥٩).

(٤) رواه أحمد في كتاب «الزهد» ص ١١٤ .

(٥) «المسند» (٤/ ١٨٢) برقم (١٧٦٣٠) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وابن حبان (٩٤٣) وابن ماجه (١/ ٧٢) برقم (١٩٩) وهو حديث صحيح، وهو في «سنن النسائي الكبرى» برقم (٧٦٩١)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٩) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٥) والسلسة الصحيحة (٢٠٩١) وظلال الجنة (٢١٩، ٥٥٢).

٧- وفي حديث عائشة ﷺ قالت: دعَواتٌ كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**» قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء، فقال: «**إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه**»[1].

٨- زاد في رواية أم سلمة ﷺ: «**فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب**» قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: بلى، قولي: «**اللهم رب النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني**»[2].

٩- وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كثيرًا ما كان النبي ﷺ يحلف: لا، **ومقلب القلوب**[3].

فالمسلم يغتنم حياته قبل موته، وشبابه قبل كبره، وغناه قبل فقره، وصحته قبل مرضه؛ استجابة لله والرسول، قبل أن يأتي وقت يحول الله سبحانه فيه بين المرء وقلبه، فيمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، والعكس صحيح، والله سبحانه قادر على أن يحول بين الإنسان وبين ما يشتهيه قلبه، فهو جلَّ شأنه الذي يستجاب له؛ إذ بيده ملكوت كل شيء، وجميع الخَلْق راجعون إليه، فيجازي كلًّا بعمله ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فقلوبكم بين يديه، وأنتم محشورون إليه، فلا مفر منه إلا إليه.

ومعنى الحيلولة بين المرء وقلبه أن الله تعالى أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بين العبد وبين ما يتمناه من شهوات الدنيا ومتاعها، وهو سبحانه يحول بين المؤمن وبين

(١) «المسند» (٦/ ٩١) برقم (٢٤٦٠٤) صحيح لغيره، لأن حسن البصري لم يسمع من عائشة، وبقية رجاله ثقات وهو في «سنن النسائي الكبرى» (٧٦٩٠) وعند ابن أبي عاصم (٢٢٤) والآجري ص ٣١٧ والطبراني في مسند الشاميين (٢٧٠١).

(٢) «المسند» (٦/ ٣٠١) برقم (٢٦٥٧٦) وأوله (اللهم مقلب القلوب) وبعضه صحيح بشواهده لضعف شهر بن حوشب وبقية رجاله ثقات (محققوه)، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٣ (٧٨٥) وعبد بن حميد في المنتخب (١٥٣٤). والترمذي برقم (٣٥٢٢) من طريق شهر بن حوشب، قال الترمذي: حديث حسن.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٣٩١، ٦٦٢٨، ٦٦١٧).

الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، فلا يستطيع العبد أن يؤمن أو يكفر إلا بإذنه تعالى، كما أن الموت يحول بين الإنسان وبين ما يريد أن يفعل في المستقبل ويؤمل، فبادروا إلى اغتنام الأوقات، وانتهاز الفرص، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله قبل أن يفاجئكم الموت، فإنكم راجعون إليه سبحانه، فيحاسبكم على ما قدمتم من خير أو شر، ويجازي كل إنسان بما يستحق.

هذا: وإن أبا سعيد بن المعلَّى الصحابي الجليل كان يصلي، فناداه النبي ﷺ، وظن الرجل أنه ما دام في الصلاة فلا يجوز له أن يقطع صلاته، وأن يجيب الرسول ﷺ، ولكن الله سبحانه يعلمنا أن طاعة الرسول وإجابته لا تقل شأنًا عن استمراره في الصلاة.

فعلى من شرُف بهذا النداء في حضرته عليه الصلاة والسلام أن يقطع صلاته؛ استجابة لرسول الله ﷺ، ولكن أبا سعيد -على حد عِلْمه- لمَّا صلَّى أقبل على النبي ﷺ فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «**ما الذي منعك أن تجيبني حين دعوتك؟**» قال: يا رسول الله، كنت أصلي، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ألم تقرأ قول الله سبحانه**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾» ثم قال له النبي ﷺ: «**لأعلمنَّك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج**»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكر له أبو سعيد ما قال له، فقال: «﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[(١)].

وهذه الإجابة مختصة بالنبي ﷺ، فلا يجوز لأحد أن يقطع صلاته ليجيب أحدًا من الخَلْقِ بعد رسول الله ﷺ.

العَوَاقِبُ الوَخِيمَةُ لِلسُّكُوتِ عَلَى المُنْكَرِ

٢٥- ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾

حذَّر ﷻ جميع المؤمنين من التراخي في طاعة الله والرسول، وحذَّرهم من التراخي في تغيير المنكر، وألَّا يُقِرُّوا المنكر بين أظهرهم؛ فيعمهم الله بعقاب، كما حذَّرهم من

(١) يُنظَر: لفظ الحديث في البخاري برقم (٤٦٤٧) وانظر (٤٤٤٧) وغيرهما عند تفسير سورة الفاتحة وآية سورة الحجر [٨٧]، من هذا الكتاب.

القعود عن الجهاد في سبيل الله، وحذَّرهم من فتنة عامة إذا وقعت لا تخص الظالمين وحدهم، بل تصيب كل ظالم وبريء.

فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ احذروا -أيها المؤمنون- فتنة فيها ابتلاء واختبار ومحنة، لا تخص من يباشر الذنب وحده، ولا تقتصر على الظالم فحسب، بل تعم وتشمل أهل المعاصي والمساوئ، وغيرهم من الصالحين الموجودين بين أظهرهم، القادرين على تغيير المنكر ولم يغيروه، بمقدار قدرتهم على تغييره: باليد أو اللسان أو القلب، بل أقَروه وسكتواَ عنه، فاتقاء الفتنة يكون بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، بحيث لا يُمَكنون من الظلم والمعاصي ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره ونهيه، **ومن الأحاديث في ذلك:**

١- ما جاء عن حذيفة بن اليمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم»**(١).

٢- وعن عائشة ﷺ تبلُغ عن النبي ﷺ: **«إذا ظهر السوء في الأرض، أنزل الله بأهل الأرض بأسه»** قالت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: **«نعم»**، ثم يصيرون إلى رحمة الله»(٢).

٣- وفي حديث ابن عمر مرفوعًا **«إذا أراد الله تعالى بقوم عذابًا أصاب العذاب مَنْ كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم»**(٣).

والمراد بمن كان فيهم: من ليس على عملهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ الأنفال: ٢٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨) ورجاله كلهم ثقات، سوى عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل، فإنه مقبول، ورقمه في «المسند»: (٢٣٣٠١، ٢٣٣٢٧) قال محققو «المسند»: حسن لغيره، وأخرجه الترمذي (٢١٦٩) والبيهقي في «الشعب» (٧٥٥٨) والبغوي (٤١٥٤) وغيرهم.

(٢) «المسند» (٦/ ٤١) برقم (٢٤١٣٣) وهو حديث ضعيف، لإبهام المرأة التي روى عنها الحسن بن محمد بن الحنفية، ولاضطرابه، (محققوه) وأخرجه الحميدي (٢٦٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٠٨) ومسلم (٢٨٧٩) والمسند (٤٩٨٥) والبغوي (٤٢٠٤) وابن حبان (٧٣١٥).

٤- وفي الحديث عن النعمان بن بشير ﷺ: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا اسْتَقَوْا الماء مرُّوا على مَن فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقًا، فاستقينا منه، ولم نؤذِ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا**»[1].

٥ - وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، مَنْ تشرَّف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذًا فليعذ به**»[2].

٦- وعن أم سلمة ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ظهرت المعاصي في أمتي، عمَّهم الله ﷻ بعذاب من عنده**»، فقلت: يا رسول الله، أَمَا فيهم يومئذ أناس صالحون؟ قال: «**بلى**»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «**يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان**»[3].

٧- وعن زينب بنت جحش ﷺ أنها سألت رسول الله ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثُر الخبث**»[4].

٨- أخرج الإمام أحمد وغيره بسند صحيح أنه قيل للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيَّعتم الخليفة حتى قُتل، ثم جئتم تطالبون بدمه، قال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٩٣، ٢٦٨٦) والترمذي (٤/ ٤٧٠) برقم (٢١٧٣) و«المسند» (٤/ ٢٦٩) برقم (١٨٣٦١، ١٨٣٧٠، ١٨٣٧٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٦) و«صحيح البخاري» (٣٦٠١، ٧٠٨١، ٧٠٨٢).

(٣) «المسند» (٦/ ٣٠٤) برقم (٢٦٥٩٦) فيه لَيْث بن سُليم وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير خلف بن خليفة وهو صدوق، قاله محققوه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦٨): رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح، وله شواهد أخرى، منها ما صححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرك» (٤/ ٥٢٣) وصحح إسناده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٦٠).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠) والبخاري برقم (٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥).

لم نكن نحسب أنَّا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت[1].

أي: حتى طُبِّقت علينا هذه الآية، فدخلنا في معناها الشامل.

والمراد بالفتنة في الآية: العذاب الدنيوي؛ كالأمراض، واضطراب الأحوال، ورفع الأمان، والهزائم، وتسلط الظلمة.

قال السُّدِّي: نزلت هذه الآية في أهل بدر خاصة، فأصابهم يوم الجمل فاقتتلوا، وبهذا تأوَّل الآية الزبير ﷺ فقال: لقد قرأت هذه الآية زمانًا، وما أرانا من أهلها، فإننا نحن المعنيُّون بها.

والآية عامة تشمل ما حدث في يوم بدر، وما حدث في يوم الجمل وصفين، وتشمل كل ما يحدث للمسلمين من محن وفتن في كل زمان ومكان، وهي تأمر بالبُعد عن المعاصي والمنكرات التي تفضي بهم إلى العذاب الدنيوي، والعقوبة لا تكون خاصة بمن وقع منهم المعاصي، بل تشمل الجميع، فالفتنة إذا عمت هلك الكل، ومع أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، إلا أن الراضي بمنزلة الفاعل، والساكت عن الحق شيطان أخرس؛ ولذا انتظم معه في العقوبة، فالفتنة تكون عقابًا من الله تعالى في الدنيا؛ لأن المسلمين لم يكونوا على درجة واحدة في الاستجابة لله والرسول، وكان من نتائج ذلك أن دبَّ فيهم الاختلاف، واضطراب الأحوال، واختلال النظام، وصاروا شيعًا وأحزابًا.

أَهْلُ الاسْتِجَابَةِ هُمْ أَهْلُ النَّصْرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ

٢٦- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

لما أمر الله المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله، وحذَّرهم من الفتنة، ومخالفة أمر الله ورسوله، ذكَّرهم بنعمة الله عليهم، حيث كانوا قلة مستضعفة في مكة، يخافون من الكفار أن يأخذوهم على غرة، فجعل لهم مأوى يأوون إليه -هو مدينة رسول الله ﷺ- وقوَّاهم

(١) «المسند» بتصحيح أحمد شاكر برقم (١٤١٤) وإسناده جيد وقال الهيثمي (٧/ ٢٧): رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح، وأخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٨٧٢) وقال محققه: إسناده حسن وأخرجه البزار (٩٧٦).

بنصره يوم بدر، وأعزهم بالإسلام، وأحل لهم الغنائم، فجعلها طعامًا حلالًا طيبًا، بعد أن كانت محرمة على مَنْ قبلهم من الأمم.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قليلو العدد في أرض مكة، مقهورون تحت حكم غيركم، فأنعم عليكم بنعم كثيرة، منها هذه النعم الثلاث؛ وهي: الإيواء، والنصر، وكثرة الرزق ﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وكل هذا لتشكروا نعمة الله عليكم على ما رزقكم وأنعم عليكم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على مَنِّه وفضله وإحسانه، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا.

قال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًا، وأشقاه عيشًا، وأجوعه بطنًا، وأعراه جلودًا، وأبينه ضلالًا، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات منهم رُدِّي في النار، حتى جاء الله بالإسلام، فمكَّن به في البلاد، ووسَّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس، فبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله تعالى[1].

وقال عمر ﷺ: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمتى ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله.

وفي الآية بيان أن الله جلَّ شأنه هو القادر على نَصْر المسلمين في كل زمان ومكان، وقادر على إخراجهم من الذل والمهانة التي يعيشون فيها، إذا تابوا ورجعوا إلى الله ﷻ.

والمسلمون الأوائل، كمسلمي هذا اليوم، سواء بسواء، فاذكروا هذه النعمة - أيها المسلمون - في مشارق الأرض ومغاربها، وتمثَّلوها، وأطيعوا الله ورسوله، واستجيبوا لله ورسوله، يخرجكم مما أنتم فيه من الذل والمهانة، ويُلْحِق بكم ما لحق بإخوانكم المسلمين من النصر في غزوة بدر وغيرها.

ففي هذه الآية تذكير بنعمة الأمن والنصر والعزة والتمكين في الأرض بعد القلة والضعف والخوف، وفيها امتنان من الله تعالى على المؤمنين بنعمة توفير الرزق من الحلال الطيب.

(١) بتصرف من «تفسير الطبري» (١٣/ ٤٧٨).

وهذه المعاني تصدق على المسلمين في كل زمان ومكان، في العصور السابقة واللاحقة، وعندما ينحرف المسلمون عن دين ربهم، ويتفرقون ويختلفون، تكون الدروس والعبر.

ولهذا: فإن النبي ﷺ ينبه المسلمين إلى طريق عزهم ومجدهم، ويحذرهم من مغبة الخلاف والفرقة والبُعد عن منهج الله تعالى.

ففي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء**»[1].

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دَخَن**» قلت: وما دخَنُه؟ قال: «**قوم يهدون بغير هَدْيي، تَعْرف منهم وتُنكر**»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم. دعاة إلى أبواب جهنم، مَن أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. فقال: «**هم من جِلْدتنا ويتكلمون بألسنتنا**»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك اليوم؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، قلت: فإن لم يكن لهم إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»[2].

النِّدَاءُ الرَّابِعُ: النَّهْيُ عَنْ خِيَانَةِ الأَمَانَةِ

٢٧-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، ينهاهم فيه عن جميع الخيانات قليلها وكثيرها، ويحذرهم من إظهار الطاعة وإبطان المعصية، كما يحذِّر من إظهار الامتثال لأمر الله ورسوله وإبطان الخيانة، فالإيمان والطاعة لله والرسول عهدان بين المؤمن وبين ربه، وكما حذَّر الإسلام من المعصية العلنية، حذَّر من المعصية الخفية، وكل معصية خفية تدخل في هذا النهي، وهكذا يأمر الله عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٤٥)

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٦٠٦، ٧٠٨٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٤٧).

أوامره، ونواهيه التي حملها الإنسان بعد أن أبى حملها السموات والأرض والجبال، فَمَنْ أدى الأمانات استحق الثواب الجزيل، ومن خانها استحق العقاب الوخيم:

ومن أسباب النزول:

أن رجلًا من المنافقين كتب إلى أبي سفيان يخبره بشيء من أخبار الرسول ﷺ.

١- عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رجلًا من المنافقين كتب إلى أبي سفيان: إن محمدًا يريدكم، فخذوا حِذْركم؛ فأنزل الله ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[1].

٢- ومن ذلك أن قومًا كانوا ينقلون إلى المشركين ما يتعلق بالنبي ﷺ ويحدِّثونهم به.

٣- وقد كان بعض المسلمين يسمع الكلام الذي يقال سرًّا من رسول الله ﷺ لأصحابه، سِيَّمَا ما يتعلق بالغزو، فيرسله إلى المشركين.

قصة أبي لبابة:

٤- واشتهر بين المفسرين وأهل السير أن هذه الآية نزلت في أبي لبابة مبعوث النبي ﷺ إلى بني قُرَيْظَة، وهي حادثة وقعت بعد بدر بنحو ثلاث سنوات؛ حيث حاصر النبي ﷺ يهود بني قُرَيْظَة إحدى وعشرين ليلة، فلما اشتد عليهم الحصار، أرسلوا يطلبون من النبي عليه الصلاة والسلام أن يصالحهم كما صالح بني النضير من قبل، على أن يخرجوا من المدينة، فأبى النبي ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا ذلك، وطلبوا منه أن يرسل لهم أبا لبابة، فلما ذهب أبو لبابة إليهم، وكان حليفًا مناصرًا لهم، وله عندهم أولاد وأهل وأموال؛ فهو يصانعهم؛ لأنه يخاف منهم على أهله وعلى ماله وأولاده لديهم، فلما سألوه: هل ينزلون على حكم سعد؟ أشار إلى حلقه؛ أي: إنهم إذا نزلوا على حكم سعد، فسيكون الحكم هو: الموت والذبح.

قال أبو لبابة: والله ما زالتْ قدماي في مكانهما حتى عرفتُ أني خُنت الله ورسوله، ثم انطلق على وجهه وقال: والله لا أَطْعَمُ طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى أموت، أو يتوب الله عليَّ، وأخذ على نفسه عهدًا بذلك، وربط نفسه بسارية من سواري المسجد،

---

(١) أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ كما قال السيوطي في الدر (٧/ ٩٠) وأخرجه الطبري (١١/ ١٢١).

فلما علم النبي ﷺ بذلك قال: «**لو جاءني لاستغفرت له، أما وقد فعل ما فعل، فلا أُطْلِقه حتى يتوب الله عليه**»، فمكث سبعة أيام حتى خرَّ مغشيًّا عليه، ثم تاب الله عليه.

فقال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أَهْجُر دار قومي التي أصبتُ فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**يجزيك الثلث أن تتصدَّق به**»؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية التي معنا.

ولما ذهبوا ليحلوا وثاقه أبى، وقال: حتى يحلّني رسول الله ﷺ فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وحلَّ وثاقه[١].

وسواء صحت هذه الرواية أم لا، فإن الآية عامة.

قصة حاطب بن أبي بلتعة:

٥- ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن حاطب بن أبي بلتعة، أنه أرسل -قُبيل فتح مكة- كتابًا إلى قريش يخبرهم فيه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قادم إلى فتح مكة، وكان لحاطب أيضًا أهل وأموال وأولاد بين المشركين يخاف عليهم، وتاب الله على حاطب من سقطته هذه.

ولما أراد عمر أن يضرب عنقه قال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «**وما يدريك يا عمر، لعل الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»، وكان حاطبٌ منهم[٢].

خيانة الأمانة: والأمانات: الأسرار والعهود والودائع وغير ذلك مما يكون بين الإنسان وغيره، مما يجب أن يُصَان ويُحفَظ.

والأمانة: اسم لما يحفظه المرء عند غيره، ولها شأن عظيم في استقامة أحوال المسلمين، وفيها دليل النزاهة والاعتدال، وقد حذَّر الإسلام من إضاعتها والتهاون فيها.

---

(١) يُنظَر الطبري (١٣/ ٤٨١) وهو من مراسيل الزهري، و«المسند» عن الحسين بن السائب، وهو يَرْوِي عن أبيه المراسيل، وفي «تفسير القرطبي» (٧/ ٣٩٤) و«زاد المسير» (٣/ ٣٤٣) وأخرجه مختصرا سعيد بن منصور (٩٨٧) تفسير، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٤).

(٢) لفظ الحديث أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٧، ٣٩٨٣) ومسلم (٤/ ١٩٤١) برقم (٢٤٩٤) عن علي ﷺ.

وقرب قيام الساعة تُرفَع الأمانة، حيث ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، ويظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض ويبقى أثرها، ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، ويقال للرجل: ما أعقله وما أجلده! وليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان.

وخيانة الله: ترك فرائضه وأوامره التي كلف بها العباد، وانتهاك حرمات الله التي نهى عنها.

وخيانة الرسول: إهمال سننه التي جاء بها وأمرَنا أن نتعبد بتعاليمها.

وأصل **الخيانة**: من الخون وهو النقص؛ لأن من خان شيئًا فقد نقصه، والخيانة ضد الأمانة وضد الوفاء، كما في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**أدِّ الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك**»[1].

أي: لا تخونوا الله بترك فرائضه، ولا تخونوا الرسول بترك سنته، ولا تخونوا الأمانات التي بينكم وبين الله بالتخلي عن التكاليف الشرعية، وترك ما وجب عليكم أو فعل ما نُهيتم عنه، ولا تفرطوا فيما ائتمنتُم عليه من صحة الاعتقاد، وإقامة منهج الله تعالى في حياتكم، ولا تخونوا الودائع والأسرار التي بينكم وبين الناس، لا تخونوا هذه الأمانات وغيرها ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك أمانة يجب الوفاء بها.

والآية وإن صح سبب النزول فيها، فالعبرة بعموم اللفظ عند الجمهور.

ولَمّا كان العبد ممتحنًا بأمواله وأولاده، فربما حمله ذلك على تقديم هوى النفس على أداء الأمانة، ولذلك أخبر الله تعالى في الآية التالية أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنهما عارية مستردة، تُردُّ لمن استودعها حتى لا تُفتن النفس بهما.

---

(١) أخرجه أبو دواد (٣٥٣٥) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٠١٩) والترمذي (١٢٨٧) وقال: حديث حسن غريب، وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٠١٥) قال الألباني: حسن صحيح، وصححه أيضًا في مشكاة المصابيح (٢٩٣٤) والسلسلة الصحيحة (٤٢٣٠) والروض النضير (١٦).

فِتْنَةُ الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ

٢٨-﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾

ولما كان حب الأموال والأولاد والاشتغال بهم من أهم دواعي الإقدام على الخيانة، نبَّه سبحانه على ذلك، فقد يضعف الإنسان عن الوفاء بالأمانة، ويقعد عن القيام بتكاليفها؛ بسبب الخوف على الأولاد، أو البخل بالمال، وهذا من أعظم الفتن والابتلاءت، فيجب على المؤمن أن يتقي فتنة المال بكسبه من وجوه الحلال، وإنفاقه في وجوهه المشروعة، وإخراج زكاته والتصدق منه، وعليه أن يتقي فتنة الولد بحسن التربية على الدين والفضائل وتجنب المعاصي والرذائل.

وقويُّ الإيمان لا يشغله ماله وولده عن طاعة الله والرسول، وضعيف الإيمان يكون عبدًا لأمواله مطيعًا لأولاده وزوجاته، وقد يحمله هذا الحب على اقتراف الذنوب والآثام؛ ولذا حذَّر الإسلام من الوقوع فيما لا يرضي الله ورسوله؛ بسبب الأموال والأولاد والزوجات.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ التي استخلفكم الله فيها ﴿وَأَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ التي وهبكم الله إياهم ﴿فِتۡنَةٞ﴾ ابتلاء من الله تعالى واختبار منه لعباده؛ ليعلم -علم ظُهور- أيشكرون الله عليها، ويطيعونه فيها، أو يشتغلون بها عنه، أو يُقدِّمون الحرص والخوف عليها على طاعة الله والرسول، كما فعل أبو لبابة، وكما فعل حاطبٌ حين قالا ما قالاه؛ خوفًا عليهم.

فيجب على العاقل أن يحذر من المضار الدينية التي تترتب على حب المال والولد، فلا يكن قلبه مشغولًا ولا محجوبًا عن الله بسببهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي: واعلموا أيضًا أن الله عنده خير وثواب كبير لمن اتقاه وأطاعه.

وفي هذا تنبيه على أن سعادة الآخرة أفضل من سعادة الدنيا بالمال والولد. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون]

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: ١٤]

وقال جل في علاه: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وقد وجدنا تطبيقًا عمليًّا من واقع الحياة لهذه الآيات، فوجدنا الابن -أحيانًا - هو العدو اللدود لأبيه، وقد يقْدم على قتله، ووجدنا الأب -أحيانًا- عدوّ لابنه ووجدنا الزوجة التي تقتل زوجها، وتقطع جثته وتضعها في أكياس، وهكذا.

وقد أخبر الله سبحانه أن المال والولد لا يقرِّبان العبد من ربه دون الإيمان بالله والعمل الصالح، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما... الحديث**»[١].

وبيَّن ﷺ وجوب تقديم محبة الله ورسوله على محبة النفس والمال والولد فقال ﷺ من حديث أنس: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده**»[٢].

وقند ختم الله الآية بأنه ينبغي على العبد أن يُؤثر فضل الله العظيم على حظوظ الدنيا ومتاعها، فالعاقل يُقدّم ما يبقى على ما يفنى، ويُؤثر اللذة الباقية على اللذة الفانية.

النِّدَاءُ الخَامِسُ لِلمُؤْمِنِينَ: الحَثُّ عَلَى تَقْوَى اللهِ تَعَالَى

٢٩-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

هذا نداء رباني يرسم المنهج، ويبيِّن الزاد والعدة، التي تهدي إلى سبيل الخير والفلاح في الدنيا والآخرة، ويكشف الوساوس، ويزيل الشكوك والشبهات، وينهض بالقلوب، ويثبِّت الأقدام على طريق النصر على النفس، والنصر على العدو، فإن من اتقى الله تعالى

---

(١) جزء من حديث متفق عليه من حديث أنس بن مالك ﷺ في البخاري برقم (١٦، ٢١، ٤١، ٤٩، ٦٠٤١) وفي مسلم برقم (٤٣).

(٢) حديث متفق عليه من حديث أنس أيضًا، وكلاهما في كتاب الإيمان من الصحيحين في البخاري (١٤، ١٥) ومسلم (٤٤).

بفعل أوامره وترك نواهيه، وفَّقَهُ الله لمعرفة الحق من الباطل، ومعرفة الفَرْق بين الحجة والشبهة، ويجعل له من كل ضيق فرجًا، ومن كل هَمٍّ مخرجًا، وينصره على عدوه، ويرزقه من حيث لا يحتسب.

وقد جاء في هذه الآية الترغيب في تقوى الله تعالى بعد التحذير من معاصيه، والتنبيه على سوء عواقبها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ صدَّقوا بالله معبودًا واحدًا، ومحمد نبيًّا ورسولًا، وعملوا بمقتضى هذا الإيمان ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تطيعوه في السر والعلن، وتصونوا أنفسكم عن كل ما يبغض الله ورسوله فلكم عند الله أجر عظيم يتمثل في **أربع جوائز**:

أولها: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ الفرقان هو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال والحق والباطل، والحلال والحرام، والسعادة والشقاء.

أي يجعل لكم مخرجًا ونجاة في الحياة الدنيا، وهداية ونورًا تفرقون بهما بين الحق والباطل، ويجعل لكم نصرًا يعزُّ الله به المؤمنين ويخذل به الكافرين.

وثانيها: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ يمحو ويزيل عنكم ما سلف من ذنوبكم وخطاياكم باجتناب الكبائر وكثرة النوافل والمحافظة على الفرائض.

وثالثها: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يستر عليكم معاصيكم، فلا يؤاخذكم بها، ولا يفضحكم في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا يشمل صغائر الذنوب وكبائرها، فقد يكون المراد **بالسيئات** كبائر الذنوب، **وبالمغفرة** صغائرها، أو العكس.

ورابعها: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ عليكم وعلى جميع خلقه، فيثيبكم الأجر العظيم والثواب الجزيل على تقوى الله تعالى، وإيثار رضي الله تعالى على هوى النفس.

ومن فضله سبحانه أنه يعفو عن السيئات ويغفر الزلات، وهذا وعد من الله للمؤمنين مشروط بالتقوى والطاعة.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد]

فاللهم لا تحرمنا فضلك وإحسانك وعطاءك.

التَّآمُرُ عَلَى قَتْلِ الرَّسُولِ ﷺ

٣٠-﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾

ومن جملة تعداد نِعَم النصر التي أنعم الله بها على رسوله وعلى المؤمنين نصر الله تعالى لرسوله ليلة الهجرة، فبعد الحديث عن الأنفال وغزوة بدر، يأتي الحديث عن أعداء الإسلام الذين دبَّروا المكايد له، وحاربوا الله ورسوله، فيستعرض القرآن ماضِيَ المشركين وهم يتآمرون على قتل النبي ﷺ قبل غزوة بدر، ويستعرضه وهم يجمعون المال لحرب رسول الله ﷺ في الغزوة ذاتها، وصوَّر القرآن ذلك في صورة الحدث الحاضر؛ ليبيِّن فضل الله تعالى في نصر عباده على ضعفهم وقلتهم، ثم يفتح الباب للتوبة في وجه العدو إن أعلن إسلامه واستسلامه.

وفي سورة الأنفال آيات تُشْبه في أسلوبها وخصائصها القرآن الذي نزل في مكة على رسول الله ﷺ، ولذلك فإن بعض المفسرين يقولون: إن هذه الآيات من [٣٠-٣٥] آيات مكية، والصواب أنها مدنية، شأنها شأن السورة كلها، ولكن هذه الآيات تربط بين ماضي المؤمنين في مكة، وهم مع المشركين، وبين حاضرهم في المدينة، بعد أن أعزهم الله سبحانه بنصره في غزوة بدر.

فيمتنُّ الله سبحانه في هذه الآيات على المؤمنين المنتصرين في غزوة بدر؛ بأنه نصرهم وأعزهم وأمدهم بالقوة، بعد أن كانوا قلة أذلة مستضعفة، ويذكِّر سبحانه رسوله محمدًا ﷺ ببعض نعمه عليه، حين تآمر القوم على قتله قبل الهجرة، وهو في مكة، ولكن نزول هذه الآيات بالمدينة كان تذكيرًا وربطًا للحاضر بالماضي، فيذكُر الله سبحانه في هذه الآية وقت أن ائتمر المشركون على النبي ﷺ في دار الندوة، بعد أن شاع أمره، وانتشرت دعوته؛ للنظر في: ماذا يفعلون للقضاء عليه وعلى دعوته؟

١- فمنهم من اقترح أن يحبسوه، ويربطوه في وثاق، وينتظروه حتى يموت، كما قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] فيرد قائلهم: إن له أتباعًا وأنصارًا يأتون إليكم، ويقاتلونكم ويَفُكُّون أسره، فلم يرتضَوْا هذا الحل؛ لكونه ليس علاجًا ناجعًا في نظرهم.

٢- ويقترح آخر أن يُنفوه من البلاد، ويَطْرُدوه بعيدًا عن مكة، ثم لا يبالوا ماذا يفعل؟

ويستبعدون أيضًا هذا الاقتراح؛ لكونه ليس علاجًا ناجعًا في نظرهم، فيقولون: ألم تروا إلى حلاوة كلامه، وطلاوة لسانه، وأخذه للقلوب بما يُسمع من حديثه؛ أي: أن دعوته ستخرج من وراء الباب.

٣- فيجتمعون في النهاية على رأي إبليس الذي جاء متنكرًا في صورة شيخ نجدي، على أن يقتلوا محمدًا ﷺ ولا يقتله شخص واحد حتى لا يُدان فيه، وإنما يختارون من كل قبيلة فتى شابًا قويًا جلدًا صارمًا، بيده سلاح بتَّار، والجميع يضربون محمدًا ﷺ ضربة واحدة، فيتفرق دمه، ويضيع هدرًا بين جميع القبائل، ولا تستطيع عشيرته أن تثأر له ﷺ.

وصاحب القول الأول هو: البختري، وصاحب القول الثاني هو: هشام بن عمرو، وصاحب القول الثالث هو: أبو جهل.

نجاة النبي ﷺ من التآمر على قتله:

وكان أن نجاه الله ﷻ من كيدهم وتآمرهم على قتله، فلم ينم ﷺ في منامه هذه الليلة، وخرج من بين ظهرانيهم إلى الغار، ثم إلى المدينة[1]

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤].

ورد أن النبي ﷺ توضأ، ثم خرج إلى المسجد، فلما رأوه طأطؤوا رؤوسهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «**شاهت الوجوه**»، فما أصاب رجلًا منهم حصاة من حصياته إلا قُتِل يوم بدر كافرًا[2].

وقد نفّض كل منهم التراب عن رأسه وأعمى الله أبصارهم، حيث خرج ﷺ من بين أظهرهم بوحي من الله تعالى بعد أن أذن الله له في الخروج إلى المدينة، فخرج ﷺ من ليلته بعد أن طلب من عليٍّ ﷺ أن يلتفَّ في بُرْدِه الحضرميِّ وينام في مكانه، فإنه لا يضره شيء؛ إذ ليس للقوم حاجة في عليٍّ ﷺ.

(١) لفظ الحديث في «تفسير الطبري» (١٣/ ٤٩٤) وفي «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٨٠) وهو عن عكرمة وعبد الله ابن أبي نجيح، وابن إسحاق.

(٢) من حديث حسن لغيره، رواه الحاكم (١/ ١٦٣) وصححه على شرط مسلم وابن حبان (٨/ ١٤٨) عن ابن عباس في «الموارد» برقم (١٦٩١) وانظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٦٩).

وحَرَسَ الفتيان المكان ينتظرون خروج النبي ﷺ ليقتلوه، فلما استبطؤوه جاءهم آت وقال: خيبكم الله، لقد خرج محمد وذرّ على رؤوسكم التراب، وفوجئوا بأن الخارج عليهم هو عليٌّ ﵁؛ فضاعت آمالهم، وأحبط الله كيدهم، حيث أخذ بأبصارهم؛ فلم يروا رسول الله ﷺ حين خرج من بينهم وهو يتلو سورة يس إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس].

ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة فهاجر، وأيده بالمهاجرين والأنصار:

قال ابن عباس ﵄: تشاورتْ قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات عليٌّ ﵁ على فراش رسول الله ﷺ، وخرج ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًّا يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا عليًّا ردَّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقتفوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فمرُّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليالٍ[١].

والمعنى: اذكر - أيها الرسول - وقت أن كنت في مكة قبل تغيُّر الحال، وتبدُّل الموقف، حين كاد لك مشركو قومك وهم يتآمرون عليك ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ يحبسوك ويربطوك فلا تَقْدِر على الحركة ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ يلقوك بعيدًا وينفوك عن بلدك أو يقتلوك ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ يكيدون لك، ويحتالون، ويدبرون أمر قتلك ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ حيث رد مكرهم عليهم؛ جزاء عملهم، وسُمِّي الجزاء مكرًا من باب المقابلة بالمثل ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ حيث أظهر أمر نبيه، ونجَّاه من مكرهم بفعله وتدبيره.

---

(١) حسَّن إسناده ابن كثير، قال: وهو أجود ما رُوي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، كما في «البداية والنهاية» (٣/ ١٨١) وحسَّن إسناده أيضًا ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٣٦) وخرجها ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٢٧) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٦٨) والطبري في «التفسير» برقم (١٥٩٦٥) و«المسند» برقم (٣٢٥١) وهو في الطبعة الأخرى (١/ ٣٤٨) وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٧): فيه عثمان بن عمرو الجزري، وثَّقه ابن حبان وضعَّفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحاح، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٣٩٦) و«زاد المسير» (٣/ ٣٤٦) وهو في «مصنف عبد الرزاق» (٩٧٤٣) والطبراني (١٢١٥٥) وأبو نعيم في «الدلائل» (٥٤) والخطيب (١٣/ ١٩١) وقد ضعَّف إسناده محققو «المسند». لضعف عثمان الجزري.

مَوْقِفُ المُكَذِّبِينَ بِالوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ مِنَ الدَّعْوة

٣١- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

ما ذكر في الآية السابقة هو جانب من مكر المشركين برسول الدعوة صلوات الله وسلامه عليه، فماذا كان مكرهم تجاه القرآن؟ وكيف مكروا به؟ الله سبحانه يذكِّر رسوله، ويذكِّر المؤمنين بعد انتصارهم في بدر بموقف المشركين من القرآن، حين كانوا أذلة مستضعفين في مكة.

قيل: إن النضر بن الحارث كان معروفًا بالنبل والفهم، وإذا قال قولًا اتبعوه واقتفوا أثره، -وهو ممن حارب النبي ﷺ بعناد وتكبُّر وإصرار- كان يكذب القرآن ويصفه بأنه أكاذيب وحكايات وأساطير، وكان قد سافر إلى أرض فارس والحيرة في الجاهلية، واستمع منهم إلى أخبار ملوكهم مثل: رستم، وإسنديار، وإلى القصص والحكايات القديمة، وكان يمر بالعبَّاد من اليهود والنصارى، فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل، ويتعبدون ويبكون.

ولما قدم إلى مكة، وجد دعوة النبي عليه الصلاة والسلام قد ظهرت، ورآه يصلي ويقرأ القرآن، فكان بعد أن يفرغ الرسول ﷺ من قراءة القرآن على القوم، يجلس مكانه ويقصُّ عليهم من أخبار ملوك فارس وحكاياتهم، ويقول لهم: أليس هذا خيرًا مما جاء به محمد ﷺ؟ ومع ذلك فأنا لا أدَّعي النبوة، ولا أدَّعي أن هذا قرآن من عند الله.

وقد قُتِل النضر بن الحارث يوم بدر بعد أن وقع في الأسر بأمر النبي ﷺ؛ لِمَا كان يقوله في القرآن.

وكان المقداد بن عمرو قد أسره، فلما أمر النبي ﷺ بقتله قال: أسيري يا رسول الله، فقال ﷺ: **«إنه كان يقول في كتاب الله ما قد علمتم»**، ولما أعاد مقالته، قال ﷺ: **«اللهم اغنِ المقداد من فضلك»** فقال المقداد: هذا الذي أردت. وقُتِل يوم بدر أيضًا عقبة بن أبي معيط، وطُعيمة بن عدي[1].

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٥٢) وفيه انقطاع في السند، فهو مرسل، والمرسل ضعيف، وانظر: «تفسير ابن عطية» وابن كثير وغيرهما للآية.

قال سعيد بن جبير: قَتل النبي ﷺ يوم بدر صبرًا: عقبة بنَ أبي معيط، وطُعَيْمةَ بن عديٍّ، والنضر بن الحارث، وكان المقداد أسَرَ النضْر، فلما أُمر بقتله قال المقداد: يا رسول الله، أسيري، فقال ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول» وفيه أنزلت هذه الآية[١].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: وإذا تتلى آيات القرآن على هؤلاء الكفار، وهي تدل على صدق محمد ﷺ ﴿قَالُوا﴾ جهلًا وعنادًا منهم للحق: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ هذا من قبل، وسمعنا مثله من أخبار فارس، ولو نشاء لقلنا مثله، ولذلك تحدَّاهم الله تعالى أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بمثل عشر سور منه فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا.

يقول الله تعالى على لسان النضر: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ أي: القرآن، وما هذا القرآن الذي يتلوه علينا إلا أكاذيب الأولين ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذه أخبار وحكايات وخرافات قديمة، يأتيكم بها محمد ﷺ، وهذا مجرد دعوى، يكذبها الواقع، فالنضر يعلم أن محمدًا ﷺ أمي لا يكتب ولم يدرس أخبار السابقين، وإنما أنزل الله كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وقد تكرر قول المشركين عن القرآن: إنه أساطير الأولين في كثير من الآيات، منها قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان] قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان].

وهذه المقولة حلقة من حلقات خداع الناس وإلهائهم عن القرآن، وصرْف أنظارهم عنه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت].

وأعداء الإسلام يكررون ذلك على مر العصور في صورة أو أخرى، ومن ذلك التشريعات البشرية التي استبدلوها بكتاب الله تعالى في التحاكم إليها في شؤون الحياة، وتلقِّي القيم والمفاهيم والقوانين، من مصادر غربية، أو من بني جلدتنا.

ومع ذلك فإن القرآن لم يزل يلوي أعناق أعدائه في الأرض كلها، فجعلوه مادة إذاعية

---

(١) الطبري (١١/ ١٤٣) وابن مردويه.

في أغلب محطات العالم المسموعة والمرئية، يذيعه اليهود والنصارى وعملاؤهم المتسترون تحت أسماء المسلمين، وهو الذي قال عنه ألد أعدائه (الوليد بن المغيرة): إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو وما يعلى، وما هو بقول بشر.

ثم إن أبا جهل أو النضر بن الحارث وأضرابه إلى قيام الساعة لا يطلبون الهداية من الله تعالى إن كان ما جاء به محمد ﷺ حقًّا وصدقًا، بل إنهم لفرط جهلهم وعنادهم يطلبون الهلاك ونزول العذاب بهم، وهذا من طمس البصيرة وفساد الفطرة.

الْكَافِرُ يُفَضِّلُ نُزُولَ الْعَذَابِ عَلَى الْهِدَايَةِ

٣٢-﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ[1] أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

وهذا نوع آخر من مكر المشركين المكذبين بالقرآن والوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ، فهم يصفون القرآن بأنه سحر، أو حكايات وخرافات، وبدلًا من أن يطلبوا الهداية من الله تعالى يطلبون منه أن يعجل لهم نزول العذاب إن كان ما يقوله محمد حقًّا.

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ الذي يدعو إليه محمد ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: إن كان ما جاء به محمد هو الحق فإننا نستعجل نزول العذاب، فصُبَّه علينا صبًّا، فنحن نستعجل العقوبة التي يتوعدنا بها محمد ﷺ كما عُذِّبت الأمم السابقة، فنهلك مثلهم؛ حتى لا ننتظر نصر محمد ولا ظهوره علينا.

وطلبوا نوعًا خاصًّا من العذاب؛ حيث قالوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ثم عمَّموا فطلبوا أيَّ عذاب حيث قالوا: ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والمراد: عذاب في الدنيا؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة.

قال أهل التفسير: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وهو الذي قال: إن كان ما

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية ياء متحركة من (السماء أو)، والباقون بتحقيقها.

يقوله محمد حقًّا ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١].

والصحيح أن الآية نزلت في أبي جهل كما في الصحيحين[٢]

والإنسان حين يقع في حيرة، أو شك، أو ارتياب من أمر، عليه أن يقول: اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، اللهم اهدنا إلى الحق، فإن كان هذا الأمر حقًّا فوفقنا واهدنا إليه، ولكن عنَت الكفار وعنادَهم وكبرياءهم يحملهم على الاستمرار في الإلحاح، وتصعيد الخصام، وتفضيل نزول العذاب بهم على الاعتراف بالحقيقة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]

وكما قال قوم شعيب عليه السلام، له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء].

قال معاوية لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملَّكوا عليهم امرأة! فقال الرجل: أجْهلُ من قومي قومك، فقد قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له[٣].

وهكذا النفوس عندما تنغمس في الأحقاد، وتتمادى في الجحود، تأخذها العزة بالإثم، وترى الحق باطلًا والباطل حقًّا.

لقد علم الله سبحانه أن الذين يقولون مثل هذا القول، سفهاء، أغبياء، جهلة، ظالمون لأنفسهم، ولو أن الله تعالى عاجلَهم بالعقوبة لَمَا أبقى منهم باقية،ولكنه سبحانه رفع عنهم عذاب الاستئصال، بسبب وجود النبي ﷺ بين أظهرهم وهو حيّ، ووجود قرآنه وسنته فيهم بعد موته، ومع أن المشركين كانوا يقولون هذه المقالة على رؤوس الأشهاد، إلا أن أنهم كانوا يدركون قُبحها، ويخافون من وقوعها، ولذا فإنهم كانوا يستغفرون الله تعالى وهذا ما تقرره الآية التالية:

---

(١) «تفسير الطبري» (٩/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: تفسير الآية التالية.

(٣) «تفسير الكشاف» (٢/ ٢١٦).

رَفْعُ عَذَابِ الاسْتِئْصَالِ عَنْ هَذِهِ الأُمَّةِ

٣٣-﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أن سبب عدم نزول العذاب العاجل بالمكذبين بالرسالة؛ هو أن الله تعالى رفع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة **لأمانين**:

أحدهما: وجود النبي ﷺ بين ظهرانيهم؛ فإن وجوده ﷺ بينهم أمان لهم من نزول العذاب المدمر بهم، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، فكذبوا محمدا وماجاء به من عند الله، وصدّوا النبي ﷺ وصحبه الكرام عن المسجد الحرام وهم أولى الناس به.

ثانيهما: أن توبتهم من الكفر؛ واستغفارهم من الذنوب كلما ألمُّوا بها، أمان آخر يرفع الله عنهم بسببه عذاب الدنيا، واستغفار المؤمنين المستضعفين يدفع الله به العذاب الدنيوي عن الكافرين المقيمين بينهم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت، ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، ويقولون: غفرانك، غفرانك؛ فأنزل الله الآية، فقال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ، وبقي الاستغفار(١).

ويشبه هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وفي الآية دعوة للمشركين بالدخول في الإسلام، والاستغفار من كفرهم وشركهم والرجوع عنه، فالطريق مفتوح أمامهم إذا تابوا واستغفروا.

---

(١) حديث حسن، رواه الطبراني (١٣/ ٥١١) و«تفسير الطبري» (١٣/ ٥١١) من طريق أبي حذيفة موسى بن مسعود، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩١) والبيهقي في «السنن» (٥/ ٤٥) والحديث في «صحيح مسلم» (١١٨٥) دون قولهم: غفرانك إلى آخره، وأوله (كان المشركون يقولون..).

عن أنس ﷺ أن أبا جهل قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فهذه الآية نزلت في أبي جهل، كما جاء في الصحيحين(١).

وهو أصح من القول بأنها نزلت في النضر بن الحارث من حيث الرواية(٢).

والمراد بهذا العذاب: عذاب الاستئصال والإبادة الجماعية، وهي العقوبة المقررة للأمم المكذِّبة بأنبيائها، ممن جاء ذكرهم في القرآن الكريم؛ كقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون، وغيرهم:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

وذلك لأن هذه الأمم لها وقت محدد، وأجل معين، وكل رسول رسالته محددة بزمان ومكان، أما رسالة محمد ﷺ فهي قائمة إلى يوم الساعة، ولذلك فإن هذه الأمة لا تُباد كما أُبيدتِ الأمم السابقة، بل تبقى بقاء الرسالة وبقاء القرآن إلى يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ والخطاب في الآية للنبي ﷺ، والضمير يعود على المكذبين بخاتم الرسل ﷺ، والمراد بالعذاب: عذاب الإبادة في الدنيا بالقضاء عليهم.

وعليه: فقد أعطى الله هذه الأمة **أمانين** من هذا العذاب:

الأمان الأول: وجود محمد ﷺ وهو حي في الناس بين ظهرانيهم، ووجود رسالته وقرآنه بعد موته ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالرسالة قائمة، والقرآن موجود، والوحي كأنه يتنزل اليوم، فهو متجدد بأحوال الناس إلى يوم الساعة.

والأمان الثاني: هو الاستغفار، ما دام هناك فئات من المسلمين يستغفرون الله ﷻ؛

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٣٧١، ٤٦٤٨) ومسلم (٤/ ٢١٥٤) برقم (٢٧٩٦) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩١) والبيهقي (٣/ ٧٥).

(٢) قلت: ليس بينهما تعارض، فلا يمنع نزول الآية فيه أيضًا كما يقتضيه سياق الآيات.

فالاستغفار سبب لرفع العذاب، وسبب لنزول الأرزاق، ومنها نزول الأمطار:

١- أخرج الحاكم وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: كان فيكم أمانان، مضى أحدهما وبقي الآخر، وقرأ الآية[(١)].

٢- وفي المسند وغيره عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك، لا أبرح أُغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»**[(٢)].

٣- وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أنزل الله عليَّ أمانيْن لأمتي:** ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»[(٣)].

٤- وعن عبد الله بن بُسر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«طوبى لمن وَجَدَ في صحيفته استغفارًا كثيرًا»**[(٤)].

صَدُّ النَّاسِ عَنِ المَسَاجِدِ وَالعَبَثُ فِيهَا مُوجِبَانِ لِعَذَابِ اللهِ تَعَالَى

٣٤-﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾

---

(١) «المستدرك» (١/ ٥٤٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٥٤).

(٢) «المسند» (٣/ ٢٩، ٤١) برقم (١١٢٣٧، ١١٢٤٤) وأبو يعلى (١٣٩٩) والبغوي في شرح السنة (١٢٩٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٦٥) و«المستدرك» (٤/ ٢٦١) بتصحيح الحاكم وموافقة الذهبي، قال محققو «المسند»: حسن لغيره، وحسّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٤).

(٣) رواه الترمذي برقم (٣٠٨٢) قال الترمذي: هذا حديث غريب، وفي إسناده إسماعيل بن مهاجر مُتكلَّم فيه، وقد أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٣٤٦) والحاكم (١/ ٥٤٢) وابن عساكر (١٧/ ٤) والطبري (١١/ ١٥٢).

(٤) «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٧٨) وابن ماجه (٣٨١٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٨٩) والحكيم الترمذي (٢/ ١٣٤) عن الأغرّ المزني، وصححه الألباني أيضًا في مشكاة المصابيح (٢٣٦) والتعليق الرغيب على الترغيب والترهيب (٢/ ٢٦٨).

ولما نفى الله سبحانه وقوع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة في الدنيا أثبت سبحانه أن هذا لا يعني عدم عذاب مشركي هذه الأمة الذين ماتوا على الكفر، فهم قد ظلموا أنفسهم بالشرك، فكيف لا يعذبهم الله في الآخرة، وهم مستحقون له؟!

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي شيء يمنعهم من عذاب الله وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وكيف لا يستحقون عذاب الله، وهم يمنعون أولياء الله المؤمنين، من الطواف بالبيت والصلاة فيه؟

ثم نفى سبحانه ولاية الكفار على المسجد الحرام، وأثبتها للمتقين، وبين جلَّ شأنه السبب في ذلك: وهو أن الكفار يمنعون الناس من الطواف ببيت الله الحرام؛ زعمًا منهم أنهم أصحاب الولاية عليه والنفوذ فيه، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي قريش، فقد كانوا يقولون: نحن أولياء البيت، سدنته وخدامه، نمنع من نشاء، ونُدخل من نشاء، ولذلك فقد صدوا عنه رسول الله ﷺ عام الحديبية ومنعوه أن يصل إلى البيت الحرام.

فبيَّن سبحانه في هذه الآية أنهم جديرون بعذاب الله الأخروي يوم القيامة، وهو سبحانه يعذبهم في الدنيا بالقتل أو السلب، ونحو ذلك مما هو دون الإبادة والاستئصال؛ لأنهم يرتكبون أبشع الجرائم بدعوى أنهم وُلاة أمر البيت الحرام.

ثم بيَّن سبحانه المستحقين لولاية المسجد الحرام فقال: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ من عباد الله الصالحين، الذين يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه، ويفردونه بالعبادة، ويخلصون له الدين، ويتبعون ما جاء به رسوله الأمين:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أوليائي يوم القيامة المتقون، وإن كان نسب أقرب من نسب، فلا يأتيني الناس بالأعمال وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم، فتقولون: يا محمد، فأقول هكذا وهكذا: لا**»[١].

٢- وعن رفاعة بن رافع ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن أوليائي منكم المتقون، فإن كنتم**

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» برقم (٨٩٧) وقد حسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٦٨٨).

أولئك فذاك، وإلَّا فانظروا، لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة، وتأتون بالأثقال، فيُعرَض عنكم»[١].

٣- وعن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أَوْلَى الناس بي المتقون، مَنْ كانوا، وحيث كانوا»**[٢].

والبيت ليس ميراثًا يورَّث فتختص ولايته بهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقد ادَّعى الكفار لأنفسهم أمرًا، غيرهم أولى به، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥].

أخرج ابن جرير عن ابن أبزى قال: كان النبي ﷺ بمكة فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: وكان أولئك البقية من المؤمنين الذين بقوا فيها يستغفرون -يعني: بمكة- فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: فأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم به.

وقد بيَّن سبحانه أن غير المسلمين الذين يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله هم المتقون من عباد الله الصالحين إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]

والمعمرون لبيوت الله هم المؤمنون بالله ورسوله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

فغير المسلمين ليسوا أهلًا لولاية البيت الحرام في الماضي والحاضر والمستقبل، وليسوا أهلًا لأن يكونوا أولياء الله؛ بسبب كفرهم وجحودهم، وإنما المستحقون لذلك هم المتقون من عباد الله.

---

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٥٥) والطبراني (٤٥٤٤، ٤٥٤٧) والحاكم (٤/ ٧٣).

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح (٢٢٠٥٢)، وأخرجه البزار في مسنده (٢٦٤٧) وابن حبان (٦٤٧) والطبراني في الكبير ٢٠ (٢٤١).

وكان المشركون في مكة يصدون الناس عن المسجد الحرام ويعلنون ذلك.

ومن ذلك ما جاء في البخاري أن سعد بن معاذ ﷺ كان صديقًا لأمية بن خلف، ينزل كلٌّ منهما ضيفًا على الآخر، وكان سعد في المدينة وأمية في مكة، وبعد الهجرة نزل سعد على أمية يريد العمرة، فقال له: انظر لي ساعةَ خَلْوة، لعلِّي أطوف بالبيت، فخرج في منتصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال لسعد: أراك تطوف بالبيت آمنًا، وقد آويتم الصُّبَاة، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان -أمية- ما رجعتَ إلى أهلك سالمًا... الحديث.

ثم إن البيت الحرام وبيوت الله بشكل عام، جعلها الله لإقامة دينه وإخلاص العبادة له، فليست مكانًا للّهو ولا للعبث. قال تعالى:

٣٥- ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً[1] فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

ومن جملة قبائح المشركين وصدهم عن البيت الحرام، أنهم كانوا يُشَوِّشُون على المصلين والطائفين والعاكفين، فقد كانوا يطوفون حول البيت عرايا، وكانوا يُشبِّكُون بين أصابعهم، ويُصَفِّرون ويُصَفِّقون، وكانوا يتعمدون ذلك حين يصلي محمد ﷺ، وحين يقرأ القرآن؛ ليخلطوا عليه الأمر، ليَلْغوا في هذا القرآن، ويصرفوا الناس عنه، فالمشركون ليس من شأنهم إعمار بيوت الله ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧].

وبيوت الله أفضل البقاع وأشرفها فلا يليق بها الصفير والتصفيق ونحو ذلك.

١- قال مجاهد: كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي ﷺ في الطواف، ويستهزئون به، ويُدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون، يخلطون عليه صلاته[2].

وبنو عبد الدار هم سدنة الكعبة، وأهل عمارة المسجد الحرام، فلما فعلوا ذلك سُمِّي فعلُهم صلاة من باب المشاكلة اللفظية؛ لأن المشركين لا تُعرَف لهم صلاة، ولا يعد المكاء والتصدية كفرًا إلا إذا كان من باب السخرية والاستهزاء بالنبي ﷺ وبالدين.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي ورويس وخلف بإشمام الصاد صوت الزاي (وتصدية)، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

(٢) الطبري (١١/ ١٦٥) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٥).

٢- قال ابن عباس ﷺ: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يُصَفِّرون ويُصَفِّقون[١].

٣- وقال مقاتل: كان النبي إذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه يُصَفِّران، ورجلان عن يساره يُصَفِّقان؛ ليخلطوا عليه صلاته وهم من بني عبد الدار.

وقال قتادة: **المكاء**: ضرب بالأيدي، **والتصدية**: الصياح.

٤- وقال سعيد بن جبير: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستهزئون به، يُصَفِّرون ويُصَفِّقون.

قال ابن عمر ﷺ: كانوا يطوفون بالبيت ويصفِّقون -ووصف التصفيق بيده- ويصفِّرون -وَوَصَفَ صَفِيرَهم- ويَضَعُون خدودهم بالأرض[٢].

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

المكاء: الصفير، وهو اسم لطائر يُسمَّى مكاء، له صوت حسن.

والتصدية: التصفيق، ولذلك يُمنع هذا الصفير والتصفيق في بيوت الله وعندها، فقد ذمَّه الله تعالى في هذه الآية، وهو وَصْف وَصَف الله به المشركين والمنافقين.

فليس المشركون أولى ببيت الله من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون، فلا جرم أن الله أورثهم بيته ومكّنهم منه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

ثم بيَّن تعالى عقابهم فقال: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب جحودكم وكفركم وأفعالكم.

والمعنى: إن صلاة المشركين عند البيت الحرام لم تكن إلا تصفيرًا وتصفيقًا، وهَرْجًا ومرجًا، لا وقار فيها، ولا استشعار لحرمة البيت، ولا خشوع لجلال الله تعالى، وكانوا يسيئون إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، وهو يصلي، وهو يطوف بالبيت، وهو يؤدي شيئًا من شعائر الإسلام، وإذا سمعوا القرآن رفعوا أصواتهم بالصياح والغناء؛

(١) ابن أبي حاتم (١٦٩٦/٥) والضياء (١١٦).

(٢) راجع في هذا «تفسير ابن جرير» والشوكاني وابن كثير والبغوي والقرطبي وابن الجوزي للآية.

ليمنعوا الناس من سماعه. والصفير والتصفيق نوع من اللهو واللعب، يسميه القرآن صلاة، مشاركة في اللفظ.

بَذْلُ المَالِ لِحَرْبِ الإِسْلَامِ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابٌ فِي الآخِرَةِ

٣٦-﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

في كل زمان ومكان يبذل أعداء الإسلام الأموال الكثيرة لمحاربة الإسلام وصرف الناس عنه وإخراج أهله منه، وتشكيك الناس فيه، وتشويهه في نظرهم.

وكما كان المشركون يصدون الناس عن الصلاة والطواف وقراءة القرآن باللغو والتشويش كانوا يصدونهم أيضًا ببذل الأموال، فقد كانوا ينفقون أموالهم، ويعطونها أمثالهم من المشركين؛ ليمنعوا الناس عن الإيمان بالله تعالى، ويحاربوا الإسلام وأهله.

ففي غزوة بدر كان أبو جهل ينحر على نفقته الخاصة عشرة من الإبل، وكان هناك اثنا عشر رجلًا من قريش يقال لهم: المُطْعِمون؛ لأنهم يُطعِمُون الكفار، كل واحد منهم يذبح عشرة من الجزور في كل يوم، للذين يقاتلون محمدًا ﷺ يوم بدر فينفقون أموالهم على الجيش مقابل محاربة المسلمين[1].

ولما هُزمت قريش يوم بدر، ذهب وفد منهم إلى أبي سفيان ومن نجا معه بالعير، يطلبون أموال التجارة التي نجت للاستعانة بها على قتال محمد ﷺ ففعلوا[2].

وفي غزوة أحد استأجر أبو سفيان ألفين من الأحباش لمقاتلة محمد ﷺ، وأنفق أربعين أوقية من ذهب في هذا الصدد[3].

وعلى مدى التاريخ: فإن الكفار ينفقون أموالهم لحرب الإسلام وأهله، ماديًا ومعنويًا، عسكريًا واقتصاديًا، ثقافيًا وفكريًا، وغير ذلك، في صورة قنوات فضائية ووسائل إعلام

(١) «أسباب النزول» للواحدي (١٩٨) والسيوطي (١٣١) و«تفسير ابن الجوزي» (٩/ ٣٥٥).

(٢) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٥٣٢) و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٠).

(٣) «تفسير الطبري» (٩/ ١٦٠) وابن هشام (٢/ ١٣٤) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٧) عن سعيد بن جبير والحكم بن عتيبة.

مقروءة ومسموعة ومرئية، واتصال مباشر، وعبر وسائل الاتصالات المختلفة، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ في الشرور والعدوان ﴿لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليحاربوا محمدًا ودعوته، ويمنعوا الناس من الدخول في الإسلام ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾، ثم يتحسرون عليها ويندمون؛ لأن أموالهم تذهب سُدًى، ولا يظفرون بما يؤمِّلون، من إطفاء نور الله والصد عن دينه، ومع هذا يهزمهم المسلمون، فلا تأتي نفقة هذه الأموال بفائدة، كما قال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] وهذا إخبار بما سيكون في المستقبل.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران] ستغلبون في الدنيا، وتهزمون أمام المسلمين، وفي الآخرة تحشرون إلى جهنم وبئس المصير.

فما الفائدة من إنفاق أموالكم هذه؟ إنهم سيتحسرون عليها ويندمون ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثم تكون الدائرة عليهم ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ هكذا يخبرنا الله ﷻ كما قال جلَّ شأنه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾ [المجادلة: ٢١] وعقابهم ينتظرهم في الدار الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ ويعذبون فيها، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه، ومن قُتِل منهم أو مات، فإلى جهنم وبئس المصير.

وفي هذا إنذار دائم لكل كافر يقاتل مسلمًا إلى يوم القيامة، فإن له فيمن سبقه عبرة وعظة، فالآية عامة في كل من ينفق مالًا لمحاربة الدعوة وصد الناس عنها.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف].

وجهنم التي وعدها الله لمن ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله هي دار الخبثاء، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويُكتب ذلك في صحف الملائكة، لتقوم الحجة على كل فريق منهم ويُجزى بعمله إن خيرًا فخير وإن شرا فشر. قال تعالى:

٣٧- ﴿لِيَمِيزَ[١] ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بضم الياء الأولى وفتح الميم وكسر الياء الثانية مشددة (لِيُمَيِّز) مضارع ميَّز يميِّز، وقرأ الباقون بفتح الياء الأولى وكسر الميم وسكون الياء الثانية مخففة، مضارع ماز يَمِيز.

﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٣٧﴾

أي والكافر ينفق ماله ليؤلِّب الباطل على الحق، والمؤمن ينفق ماله؛ ليدفع به الباطل، ويُعْلي به راية الإسلام، ويوم القيامة يميز الله بينهما؛ فيُحشر الكافرون إلى جهنم، ويحشر المؤمنون إلى الجنة، وهذا معنى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ فيفرق بين الحق والباطل، و الإيمان والكفر، والسعادة والشقاء، والجنة والنار، ويجعل المال الحرام و الأشخاص الخبثاء والأعمال الخبيثة، وحدة واحدة، بعضها فوق بعض، كومة واحدة، فيجعلها في جهنم، وهؤلاء هم الخاسرون، الذين خسروا دنياهم وأخراهم، واشتروا بأموالهم عقاب الله تعالى.

فما ينفقه الكافرون من أموال؛ للصد عن سبيل الله، هو من باب الخبيث، وما ينفقه المؤمنون من أموال؛ لإعلاء كلمة الله، هو من باب الطيِّب، ويوم القيامة يخذل الله الكافرين ويحشرهم إلى جهنم، ويؤيد المؤمنين فيفوزون برضوان الله تعالى، وإذا تمايز الخبيث من الطيب، جُعل الخبيث متراكمًا بعضه فوق بعض من كل قول سيئ، ومن كل فعل سيئ، ثم يُقذف به في جهنم، وهكذا يفصل الله بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ويفصل بين الخبيث والطيب، والخير والشر، ويَلْقَى أصحاب كل منهما جزاءه، إما في الجنة وإما في النار.

قَبُولُ التَّوْبَةِ مِنَ الْكَافِرِ

٣٨-﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ[1] ٱلْأَوَّلِينَ ٣٨﴾

ثم أمر الله رسوله أن يَعْرِضَ الإسلام على المشركين من باب الرحمة الواسعة، وفضل الله الكبير، يعرض عليهم التوبة، والدخول في الإسلام، والإعراض عما هم فيه من كفر أو شرك؛ فالفرصة أمامهم سانحة لينتهوا عما هم فيه من الكفر، ومحاربة الإسلام، وصد الناس عن دين الله، والطريق أمامهم مفتوح للتوبة والعودة عما هم فيه من الشرك

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب على (سنة) بالهاء على لغة قريش، ووقف الباقون بالتاء على لغة طيىء وأدغم التاء في السين من (مضت سنة) أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف العاشر وهشام بخلف عنه.

والجحود والعناد، وهذا من لُطف الله تعالى ورحمته بعباده، حيث يدعو الكفار والمشركين منهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم، فبحثهم على التوبة والرجوع إلى الله تعالى قبل ظهور علامات الساعة وقبل أن تصل أرواعهم إلى الحلقوم، فباب الله مفتوح لكل تائب حتى لو كان كافرا مشركًا ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٤] فإن تابوا من شركهم وكفرهم غفر الله لهم كفرهم وشركهم به، غفر لهم قولهم: عيسى ابن الله، وعزير ابن الله، فما أحلمك يارب، وما أعظم عفوك!!.

جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخِذ بالأول والآخر»**(١).

فإن أسلم الكافر لم يلزمه قضاء العبادات الدينية والمالية.

فعن عمرو بن العاص ﷺ قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي، أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلت: ابسط يدك لأبايعك، فبسط يمينه، فقبضت يدي، قال: **«ما لك؟»** قلت: أردت أن أشترط، قال: **«تشترط ماذا؟»** قلت: أن تستغفر لي، قال: **«أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله»**(٢).

وهذا معنى ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: إن ينتهوا عن كفرهم وشركهم، فالإسلام يجُبُّ ما قبله، والتوبة تجُبُّ ما قبلها، وهذا من رحمة الله تعالى وفضله.

﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى قتال المسلمين، وصد الناس عن دين الله، أو إن يعودوا بعد التوبة والإيمان إلى ما كانوا فيه من الكفر والعداوة للمسلمين والاستمرار على ذلك، والإصرار على ما هم فيه من العناد، فها هم قد رأوا سنة الله في الأمم الماضية من هلاك أعدائه ونصر أوليائه، وسنة الله لا تتخلف، وفي هذا تهديد ووعيد لكل من كان كذلك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٩٢١) ومسلم (١/ ١١١) برقم (١٢٠) وابن ماجه (٢/ ١٧)، برقم (٤٢٤٢) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٨) برقم (١٧٨٢٧) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه مسلم في الإيمان (١/ ١١٢) برقم (١٢١)، ضمن حديث طويل، وابن خزيمة (٢٥١٥) وابن سعد (٤/ ٢٥٨) وأبو عوانة (١/ ٧٠).

وبعد أن خاطب الله تعالى الكفار في هذه الآية، يخاطب المؤمنين في الآية التالية كي يعلّمهم كيف يتعاملون مع أعدائهم، فيأمر بقتالهم حتى يخلُص الدين لله:

القِتَالُ لِمَنْعِ الفِتْنَةِ فِي الدِّينِ

٣٩-﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ[1] بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

ثم يأمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار؛ حتى لا تكون فتنة في الأرض بالشرك في دين الله، والصد عن سبيل الله، فلا يُعبد إلا الله وحده، وحتى يرتفع البلاء عن عباد الله، وتكون العبادة خالصة لله، وحتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض، ولا يُفتَنُ مؤمن عن دينه، وحتى تبطل الشرائع الأخرى، ولا يبقى إلا الإسلام وحده، فإن انزجر الكفار عن فتنة المؤمنين في دينهم، وعن الشرك بالله، وأصبحوا إخوة لكم في الدين الحق، فإن الله لا يخفى عليه ما يعملون من ترك الكفر والدخول في الإسلام؛ والله تعالى مجازيهم خيرًا ومثيبهم على إيمانهم.

فالمراد بالفتنة إذن: الشرك والكفر، بمعنى: قاتِلوا الكفار إذا استمروا في كفرهم وعداوتهم لكم، وحالوا دون وصول دعوة الله إلى الناس، أو اضطهدوا المسلمين بألوان الأذى لإخراجهم من دينهم، قاتلوهم حتى يزول الشرك، وتُكْفَل حرية نشر الدعوة، وتأمنوا على دينكم، وتعيشوا أحرارًا في مباشرة تعاليم دينكم، ولا يجرؤ أحد على فتنتكم في عقيدتكم وعبادتكم، ويكون الدين كله خالصًا لله، فلا يُعبد في الأرض غيره.

وهذه جملة من الآثار في معنى الآية:

١-كتب عبد الملك بن مروان إلى عروة يسأله عن الفتنة، وعن خروج رسول الله ﷺ من مكة، فأرسل يشرح إليه مراحل الدعوة التي مر بها رسول الله ﷺ وذَكر له ما كان من فتنة من اتَّبع دين الله، قبْل هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة التي بسببها كانت

---

(١) قرأ رويس بتاء الخطاب في (يعملون)؛ لمناسبة (فاعلموا)، وقرأ الباقون بياء الغيب؛ لمناسبة (قل للذين كفروا).

الهجرتان، ثم ذكر عوْدتهم إلى مكة بعد أن تكاثر عدد المسلمين وازداد، ثم ذكر ما أصاب المسلمين من جُهد شديد، وفتنة في الدين، جعلت النبي ﷺ يأذن لهم في الهجرة إلى المدينة بعد كثرة الأنصار هناك، ثم قال: وهي الفتنة الأخيرة التي أنزل الله فيها الآية[١].

٢-وعن نافع عن عبد الله بن عمر ﷺ، أن رجلًا سأله عن قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا، وكان الرجل يُفتن في دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يوثِقوه؛ حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة[٢].

فقد بيَّن ابن عمر أن الفتنة في الدين: تكون بالقتل، أو الحبس، أو ألوان التعذيب التي تقع بالمسلم، حتى يخرج من دينه.

٣-وعن نافع عن ابن عمر، أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم عليَّ دم أخي المسلم، قالوا: أولم يقل الله ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله[٣].

٤-وقال أسامة بن زيد ﷺ: لا أقاتل رجلًا يقول: لا إله إلا الله أبدًا، قال: فقال سعد بن مالك: وأنا والله، لا أقاتل رجلًا يقول: لا إله إلا الله أبدًا، فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فقالا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله[٤].

٥-وفي البخاري عن سعيد بن جبير قال: خرج علينا ابن عمر، فقال رجل: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان

(١) يُنظَر النص الكامل في «تفسير ابن جرير» (١٣/٥٣٩- ٥٤٢).

(٢) من حديث طويل أخرجه البخاري برقم (٤٦٥٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/٥٦).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤/٥٦).

الدخول عليهم فتنة، وليس كقتالكم على المُلْك[1].

٦-وفي حديث عمران بن حصين ﷺ قال: شهدت رسول الله ﷺ وقد بعث جيشًا من المسلمين إلى المشركين، فلما لقوهم، قاتلوهم قتالًا شديدًا، فمنحوهم أكتافهم، فحمل رجل من لُحْمتي على رجل من المسلمين بالرمح، فلما غشيه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، إني مسلم، فطعنه فقتله، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت، قال: **«وما الذي صنعت؟ مرة أو مرتين. فأخبره بالذي صنع، فقال له رسول الله ﷺ: «فهلا شققتَ عن بطنه فعلمت ما في قلبه؟»** قال: يا رسول الله، لو شققتُ بطنه لكنت أعلم ما في قلبه، قال: **«فلا أنت قبلت ما تكلَّم به، ولا أنت تعلم ما في قلبه»**[2].

٧-وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله ﷻ؟ فقال: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ﷻ»**[3].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة].

وقتال المشركين في بداية الدعوة، كان دفاعًا عن النفس، عما ينال ضعفاء المسلمين من أذى، فأمروا بقتالهم والتضييق عليهم حيث كانوا، كما قال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] أي: أن فتنة الناس في دينهم بخروجهم من الإسلام، أو منعهم من الدخول فيه أعظم من القتل، وقد أوجب الإسلام قتال غير المسلمين إذا وقفوا في وجه الدعوة، وحالوا دون وصولها إلى الناس بطريقة من الطرق.

والمعنى: إذا استمر الكافرون في كفرهم وعداوتهم وقاتلوكم واعتدوا عليكم، فقاتلوهم بشدة وغلظة، وداوموا

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٥١).

(٢) حسنه الألباني في صحيح «سنن ابن ماجه» (٢/٣٤٨) برقم (٣١٧٥) وهو في «السنن» برقم (٣٩٣٠) وقال البوصيري: هذا إسناد حسن.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٨١٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٠٤).

على قتالهم حتى يزول الشرك، وتعيشوا أحرارًا في مباشرة تعاليم دينكم دون أن يجرؤ أحد على فتنتكم في عقيدتكم أو عبادتكم، وتصير كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فإن حدث مثل هذا في كل زمان ومكان وجب على المسلمين قتال الكافرين؛ ليخلص الدين لله.

فقتال غير المسلم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله؛ للدفاع عن المسلمين المستضعفين، والدفاع عن أرضهم ومقدساتهم، وتأمين حرية نشر الدعوة، فالمقصود من الجهاد في سبيل الله، دفع شرور غير المسلمين، وفسح الطريق أمام الدعوة، وإزالة المعوقات حتى تصل إلى أرجاء المعمورة.

وكل من نطق بالشهادة وأعلن إسلامه، لا يقاتَل بحال، وإن كانت سريرته مخالفة لعلانيته.

ففي الصحيحين أن أسامة بن زيد ﷺ لمَّا علا رجلًا بالسيف فقتله بعدما قال: لا إله إلا الله، قال عليه الصلاة والسلام: **«أقتلْتَه بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟»** قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوُّذًا، قال: **«هلَّا شققتَ عن قلبه؟ وجعل يقول ويكرر عليه: «كيف تصنع بـ لا إله إلا الله يوم القيامة؟»** قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم[(١)].

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ﷻ»**[(٢)].

فالإسلام يأخذ بالظاهر، وحساب الباطن على علام الغيوب، وليس لنا أن نبحث عما في صدور الناس، والمراد بالناس في الحديث هم غير المسلمين، فمن أسلم منهم ولو بلسانه، فقد عصم دمه وماله.

وأنا أُشفق على من يتجسَّسُون على عقائد بعض الناس، فيفترضون فيهم الشرك والبدعة

---

(١) البخاري برقم (٤٢٦٩، ٦٨٧٢) ومسلم (١/ ٩٦) برقم (٩٦، ٩٧) وأبو داود (٣/ ٣١) وأحمد (٥/ ٢٠٧) برقم (٢١٧٤٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن حبان (٤٧٥١) والبزار في مسنده (٢٦١٢) والنسائي في الكبرى (٨٥٩٥) والطيالسي (٦٢٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢) عن عبد الله بن عمرو عن جابر برقم (٢١).

لا لشيء بدا منهم، ولكن لانتمائهم لبلد معين ونحو ذلك، فيظلمون أنفسهم، ويقولون: نحن لا ندري عن عقيدته! ويعممون في الحكم على الناس بالكفر، أو الشرك، أو البدعة، فما دمت لا تدري، لا تظلم نفسك وتتأل عن الله! قال تعالى:

٤٠-﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

فإن انتهى غير المسلمين عما هم عليه من الظلم، وعن عداوتكم فكفوا عن قتالهم، وإن أعرضوا عما دعوتموهم إليه من الإيمان بالله ورسوله وترك قتالكم، وأبوا إلا الإصرار على الكفر والقتال، فأيقنوا أن الله معكم ناصركم ومعينكم، ونعم المعين والناصر لأوليائه على أعدائه، ومن كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه.

تَقْسِيمُ الغَنَائِمِ

٤١-﴿۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

تأتي هذه الآية لتجيب بالتفصيل عن الغنائم والأنفال التي سأل عنها المسلمون رسول الله ﷺ في مطلع السورة، فيبيِّن سبحانه أن الغنائم، هي الأموال والمتاع الذي يؤخذ قهرًا من الكفار المغلوبين المهزومين بعد أن حاربهم المسلمون، وانتصروا عليهم بقتال أو دون قتال.

وهذه الغنائم تختلف عن الفيء؛ **فالفيء**: ما يكون بدون قتال، يفيء الله به على المسلمين دون حرب ولا قتال، يحْصُلُون عليه بالمصالحة أو المهادنة مع العدو، أو بوفاة من لا وارث له.

يقول الله تعالى في الفيئ: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي: أنه قد آل إليكم بدون حرب ولا قتال ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [الحشر: ٦].

فهو يحصل دون حرب ولا قتال، ولا مشقة، أما الغنيمة فتكون بمقتضى حرب وقهر ينال العدو.

والانتفاع بالغنائم من خصائص هذه الأمة، وقد كانت محرمة على الأمم قبلنا، تنزل نار من السماء فتحرقها.

جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله ﷺ: «**وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي**»(١).

والأخذ من الغنائم قبل التقسيم غلول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وفي الحديث عن أبي قتادة: «**من قتل قتيلًا له عليه بينة فله سلَبه**»(٢).

والسلَب: ما خلَّفه المقتول من فَرس وسلاح وملابس، ولا تؤول هذه الأشياء ونحوها إلى من قتله إلا بعد أن يأذن له في ذلك ولي أمر المسلمين، بعد إقامة البينة والشهادة على أنه القاتل له، ولا يدخل هذا السلَب في تخميس الغنيمة العامة على الأصح.

وقد بيَّن الله سبحانه أن الغنائم تُقسَّم خمسة أخماس: أربعة أخماس منها للجنود المقاتلة، للراجل سهم، وللفارس سهمان: سهم لفرسه، وسهم له، وخُمْسٌ واحدٌ لخمسة أنواع ذَكَرُهُم الله تعالى في الآية، وهذا على أن سهم الله وسهم رسوله، سهم واحد، وجعلهما بعضهم سهمين، فتكون الأنواع ستة.

١- كان النبي ﷺ إذا بعث سرية فغنموا، خمَّس الغنيمة، فضرب ذلك الخُمُس في خَمْسة، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحدًا(٣).

٢- وقد سأل رجل رسول الله ﷺ ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «**لله خمسها، وأربعة أخماسها للجيش**»(٤).

٣- وتناول النبي ﷺ وَبَرَة بين أُنْمُلَتَيْهِ من الغنائم فقال: «**إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم، إلا الخُمُس، والخُمُس مردود عليكم، فأدُّوا الخيط والمخيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تَغُلُّوا؛ فإن الغلول نار وعار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهِدُوا الناس في الله، القريب والبعيد، ولا تُبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في الحضر والسفر، وجاهدوا في سبيل الله؛ فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم،**

---

(١) من حديث جابر في «صحيح البخاري» برقم (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢) و«صحيح مسلم» برقم (٥٢١).

(٢) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (٣١٤٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٥١).

(٣) جاء هذا عن ابن عباس والحسن البصري وقتادة والشعبي وإبراهيم النخعي والحسن بن الحنفية وعطاء بن أبي رباح وعبد الله بن بريدة وغيرهم، كما في «تفسير ابن كثير» للآية.

(٤) البيهقي بسند صحيح (٦/ ٣٢٤) عن رجل من بلقين عن عبد الله بن شقيق.

ينجي الله به من الهم والغم»(١).

٤- وعن أبي العالية: أن رسول الله ﷺ كان يقسم الغنيمة على خمسة: أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخُمُس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذي قَبَضَ كفه، فيجعله للكعبة وهو سهم الله، ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم، فيكون سهمًا للرسول ﷺ وسهمًا لذوي القربى، وسهمًا لليتامى، وسهمًا للمساكين، وسهمًا لابن السبيل(٢).

والمعنى: واعلموا أيها المؤمنون أن ما ظفرتم به من عدوكم بالجهاد في سبيل الله يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فأربعة أخماسه للمقاتلين الذين حضروا المعركة، للفارس ثلاثة أسهم، سهمان لفرسه، وللراجل سهم، والخُمُس الباقي يقسم خمسة أجزاء، الأول لله والرسول، فسهم الله وسهم رسوله واحد.

٥- عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس، فأربعة منها بيْن من قاتل عليها، وخُمُس واحد يقسم على أربعة، فربع لله والرسول ولذي القربى يعني قرابة النبي ﷺ فما كان لله والرسول فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبي من الخُمُس شيئًا، والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث للمساكين، والربع الرابع لابن السبيل(٣).

ومنهم من يرى أنه يقسم إلى ستة أقسام فجعل سهمًا لله مستقلًا وسهمًا للرسول ﷺ مُستقلًا.

ومنهم من يرى أنه لا يلزم تقسيمه إلى خمسة أقسام أو ستة، وإنما هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده.

ومنهم من يرى غير ذلك، ولكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفروع.

وذِكْرُ الله تعالى في مقدمة الآية من باب التبرك وبراعة الاستهلال، وحُسْن الافتتاح.

---

(١) رواه أحمد عن عبادة بن الصامت (٥/٣١٦) برقم (٢٢٦٩٩، ٢٢٧٧٦) حديث حسن، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٨٦٦) والبزار في مسنده (٢٧١٢) وابن ماجه (٢٨٥٠) والطبراني في الشاميين (١٥٠٢).

(٢) «تفسير الطبري» (١٣/ ٥٥٠) وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠٣) وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٢٩).

(٣) «تفسير الطبري» (١٣/ ٥٥١).

ومما سبق يتبين أن أكثر العلماء يرون أن خُمُس الغنيمة يقسم إلى **خمسة أقسام**.

على أساس أن سهم الله وسهم رسوله واحد:

السهم الأول: هو سهم الله ورسوله يُنفَق على المصالح العامة للمسلمين، وفي مقدمتها الكعبة، وبيوت الله في أرضه، وذلك بعد أن مات النبي ﷺ.

والسهم الثاني: يصرف إلى: أقارب النبي ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم أقارب النبي ﷺ أغنياء وفقراء من بني هاشم، وبني المطلب إلى يوم القيامة، للذَّكرِ مثل حظ الأنثيين، وجعل الله لهم الخُمُس، مكان الصدقة فإنها لا تحل لهم.

سهم ذوي القربى لمن يصرف؟

١-عن قيس بنِ مسلم الجدَليِّ قال: سألت الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية عن قول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ فقال: هذا مفتاح كلام لله الدنيا والآخرة ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فاختلفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ في هذين السهمين.

قال قائل: سهم ذي القربى، لقرابة رسول الله ﷺ.

وقال قائل: سهم ذي القربى لقرابة الخليفة.

وقال قائل: سهم النبي للخليفة من بعده.

٢- واجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدَّة في سبيل الله تعالى، فكان كذلك في خلافة أبي بكر وعمر ﵄[١].

٣- وكتب نجدة إلى ابن عباس ﵄ يسأله عن ذوي القربى الذين ذكرهم الله، فكتب إليه إنَّا كُنَّا نرى أنَّا هم، فأبى ذلك علينا قومنا، وقالوا: قريش كلها ذَوُو قُربى[٢].

وفي لفظ آخر عن جبير بن مطعم ﵁ قال: قسَّم رسول الله ﷺ سهم ذي القربى على

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٩٤٨٢) وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٣١) والطبري (١١/ ١٨٧) وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠٢) والحاكم (٢/ ١٢٨).

(٢) مسلم (١٨١٢) وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٤٥٥) وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٧٢).

بني هاشم وبني المطلب، قال: فمشيتُ أنا وعثمان بن عفان حتى دخلْنا عليه، فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخوانك من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله به منهم، أرأيتَ إخواننا من بني المطلب، أعطيتهم دوننا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب؟ فقال ﷺ: «**إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام**»(١).

صح عن جبير بن مُطعِم أنه قال: أتيت أنا وعثمان بن عفان رسول الله ﷺ نكلمه فيما قسم من الخُمُس من بني هاشم وبني المطلب، فقلت: يا رسول الله، قسمتَ لإخواننا بني المطلب، ولم تعطنا شيئًا، وقرابتنا وقرابتهم واحدة، فقال: «**إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد**»(٢).

ونسب رسول الله ﷺ يرجع إلى هاشم، أما بنو المطلب فهم وبنو عبد شمس وبنو نوفل في رتبة واحدة من قرابة رسول الله ﷺ؛ لأن آباءهم هم أبناء عبد مناف، وإخوة لهاشم.

وقرابة النبي ﷺ الذين حرم الله عليهم الصدقة هم: آل العباس وآل جعفر، وآل عقيل، وولد الحارث بن عبد المطلب، وأدخل بعضهم بني المطلب فيهم.

والسهم الثالث: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم قبل أن يبلُغوا، وليس عندهم ميراث يكفي حاجاتهم، فيُصرف لهم خمس الخمس، رحمة بهم لعجزهم عن القيام بمصالحهم، وفَقْد من يقوم بها.

والرابع: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وهم أهل الحاجة والفاقة من المسلمين، وهم الفقراء شديدو الفقر، من صغار وكبار، ذكور وإناث.

والخامس: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المنقطعين في السفر عن أهليهم من النفقة، قبل أن يصل إلى بلده، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وفي حديث عمرو بن عَبَسَة ﷺ أن رسول الله ﷺ صلَّى بهم إلى بعير من المغنم، فلما

---

(١) البخاري (٣١٤٠) و«المسند» (١٦٧٤١) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٦٠) وأبو داود (٢٩٧٨) وابن ماجه (٢٨٨١) والنسائي (٤١٤٧).

(٢) رواه البخاري برقم (٣١٤٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٥٨٠).

سلَّم، أخذ وبَرة من ذلك البعير ثم قال: **«ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخُمُس، والخُمُس مردود فيكم»**[١].

فأربعة أخماس الغنيمة يُقسَّم على أفراد الجيش المقاتل، والخُمُس الباقي يُقسَّم خمسة أقسام: قسم لله والرسول، وهما سهم واحد، يصرف على بيوت الله وفي المصالح العامة، وسهم لمن بقي من قرابة النبي ﷺ والثلاثة الأسهم الباقية لليتامى والمساكين وابن السبيل.

وقال بعضهم: سهم النبي ﷺ يُصرَف على من ولي أمر المسلمين، وسهم قرابة النبي ﷺ يُصرَف إلى أقارب ولي أمر المسلمين.

هذا ترتيب للغنائم في وقت كان المقاتل فيه يُعِدُّ نفسه، ويتطوع، وليس له راتب من الدولة، ويشتري سلاحه بنفسه، ويأخذ زاده من ماله، ويترك لأبنائه النفقة من ماله الخاص.

ثم أصبح للجنود في وقتنا جيوش منظمة، تأخذ رواتب، ويُشترى لها السلاح، وتُضمَّد الجراح، وتُصرف النفقات لأسرهم وأبنائهم، فتقسيم الغنائم والأنفال في هذه الحالة يعود إلى بيت مال المسلمين، يصرفه ولي أمر المسلمين في الإنفاق على وجوه الخير، وفي شراء الأسلحة وتصنيعها ونحو ذلك مما يقاتل به العدو، ومما هو منصوص عليه في الآية.

وقد خضعت الغنائم في عهد عمر لتقسيمات يراها الحاكم المسلم مناسبة لأوضاع المسلمين، وكان من آخرها ما حدث في مصر والسودان وغيرهما عند الفتح الإسلامي لهذه البلاد.

وتقسيم الغنائم من أصول الإيمان بالله واليوم الآخر؛ و﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ وآمنتم بالآيات التي نزلت على رسول الله يوم بدر، وآمنتم بالمدد والنصر الذي أيدكم الله به، فانقادوا لأمر الله ورسوله، وسلِّموا بهذه القسمة للغنائم التي أعطاكم الله إياها يوم أن فرق بين الحق والباطل، ويوم أن ﴿أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ آيات بينات في يوم بدر، وسُمِّي يوم الفرقان؛ لأن الله تعالى فرَّق فيه بين الحق والباطل، وبين عهد الصبر

---

(١) أبو داود برقم (٢٧٥٥) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٩٣) وأخرجه النسائي.

والمصابرة، وعهد القوة والجهاد، وبين عهد تحطيم سلطان الباطل وعلو سلطان الحق، وهو اليوم الذي تَجَمَّعَ فيه أهل الكفر وأهل الإيمان في موقعة بدر ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وهما الجمع المؤمن والجمع المشرك.

قال ابن عباس ﷺ: يوم الفرقان: يوم بدر؛ لأن الله فرَّق فيه بين الحق والباطل.

ويوم التقاء الجمعين كان يوم السابع عشر من شهر رمضان، وكان المشركون بقيادة عتبة بن ربيعة سيدهم، وأكبرهم سنًّا، وكان عددهم بين التسع مئة والألف، والمسلمون ثلاث مئة وثلاثة عشر، ففرَّق الله بين الحق والباطل، ونصر الله المسلمين على قِلَّتهم وخذل الكافرين على كثرة عددهم وعدتهم، ونتج عن ذلك تقسيم الغنائم، وعُدَّ ذلك من أصول الإيمان.

جاء في حديث وفد عبد القيس أن النبي ﷺ قال: **«وآمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله، ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخُمُس من المغنم»**[1].

فجعل الإسلام أداء الخُمُس من جملة الإيمان ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

أَمَاكِنُ الفَرِيقَيْنِ يَوْمَ بَدْرٍ

٤٢-﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ[2] ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ[2] ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ[3] عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

ثم يعود السياق إلى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان؛ ليعرض علينا صورًا من مشاهد

---

(١) من حديث وفد عبد القيس عن ابن عباس، أخرجه البخاري في «فتح الباري» (١/ ١٥٧) ورقمه في الصحيح: (٥٣) ومسلم (١/ ٤٦) برقم (١٧).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر العين من (بالعِدوة) في الموضعين، والباقون بالضم فيهما، وهما لغتان.

(٣) قرأ نافع والبزي وشعبة وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر وقنبل بخلف عنه بفك الإدغام من (حيِيَ) مع كسر الياء الأولى وفتح الثانية، وباقي القراء بياء مشددة مفتوحة وهو الوجه الثاني لقنبل، والقراءتان لغتان في كل ما كان آخره ياء مشددة من الفعل الماضي.

ومواقف الغزوة وأحداثها، ويبيِّن لنا الأماكن التي نزل فيها كل من الفريقين:

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ اذكروا أيها المسلمون هذا اليوم حين كنتم على جانب الوادي الأقرب إلى المدينة، وهو العدوة الدنيا، وكان العدو يقابلكم بجانب الوادي الأبعد الأقرب إلى مكة، وهو العدوة القصوى وبينكما ربوة فاصلة، وقد جمعكما واد واحد.

وكان أهل العُدوة القصوى أسعد حظًّا، لقربهم من الماء، فأرسل الله المطر على أهل العدوة الدنيا فسقاهم، ولبَّد الأرض تحت أقدامهم، وعطَّل أهل العُدْوَة القصوى عن الرحيل، فوصل المسلمون إلى بدر قبلهم.

وكانت التجارة التي نجا بها أبو سفيان في مكان أسفل من الجيشين إلى ساحل البحر الأحمر، وكان مع أبي سفيان سبعون راكبًا، وكل من الفريقين لا يعرف موقع الآخر، وإنما جمعهما الله على جانبي الجبل المرتفع لأمر يريده.

وقد أناخ العدو رحله في أرض ثابتة قريبة من الماء، ونزلتم في أرض تسوخ فيها الأقدام من كثرة الرمال، وليس بها ماء، والركب أسفل منكم، أي: وركب أبي سفيان بالعير أسفل منكم أيها المسلمون على بعد ثلاثة أميال من بدر، ولم يكن بينكم اتفاق على اللقاء، ولو حاولتم ذلك لاختلفتم ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وإياهم على اللقاء في الزمان والمكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ بالزيادة أو النقص أو اختيار مكان النزول لقلتكم وكثرتهم، ولكن هذا قضاء الله وقدره، وأنتم أداة تحقيقه.

﴿وَلَٰكِن﴾ جمعكم الله على هذه الحال ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وهذا الأمر هو أن الله جمعكم في هذا المكان على غير ميعاد؛ لينصر الله أولياءه ويخذل أعداءه، ولو عرفتم قبل اللقاء كثرة عددهم، وقلة عددكم، ما لقيتموهم، وإنما خرجتم للظفر بالعير بعد أن قللهم الله في أعينكم، وخرجوا ليمنعوها منكم فجمع الله بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد:

١- أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قال: أبو سفيان وأصحابه مقبلون من الشام تُجّارًا لم يشعروا بأصحاب بدر، ولم يشعر محمد ﷺ بكفار قريش، ولا كفار قريش بمحمد وأصحابه، حتى التقى على ماء بدر من

يسقي لهم كلهم فاقتتلوا، فغلبهم أصحاب محمد ﷺ فأسروهم[١].

٢- وفي حديث كعب بن مالك ﷺ قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[٢].

٣- وعن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر لا يشعر هؤلاء بهؤلاء، حتى الْتقتِ السقاة، ونهَدَ الناسُ بعضهم لبعض[٣].

إصرار أبي جهل على القتال: ومع أن عير أبي سفيان قد نجت، وأشار من فيها بالمضي إلى مكة، إلا أن أبا جهل أصرَّ على القتال فقال: والله لا نرجع حتى نأتي بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا: نطعم الطعام، وننحر الجزور، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدًا، وكانت بدرُ سوقًا من أسواق العرب.

فقال الأخنس بن شُريق: يا معشر بني زُهرة، إن الله قد نجَّى أموالكم، ونجَّى صاحبكم فارجعوا، فأطاعوه، فرجعت بنو زُهرة، فلم يشهدوها ولا بنو عدي[٤].

التعرف على عدد الفريقين: ولما اقترب النبي ﷺ من مكان بدر، أرسل علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتعرَّفون على عدد المشركين، فأصابوا سقاة لقريش (غُلامين) فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ فسألهما النبي ﷺ عن عدد القوم، فقالا: لا نعرف، قال: «**كم ينحرون كل يوم؟**» قالا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا، فقال ﷺ: «**القوم ما بين التسع مئة إلى الألف**»، ثم سألهما عمن فيهم من أشراف قريش، فذكرا له كبار القوم، فقال: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**»[٥].

حكمة اللقاء بينهما: ثم بيَّن سبحانه السبب في أن الله تعالى جمع بين الفريقين على غير

---

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ٢٠٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٩٥١) وانظر: رقم (٢٧٦٩) و«صحيح مسلم» برقم (٧١٦).

(٣) «تفسير الطبري» (٣/ ٥٦٧).

(٤) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦١٧).

(٥) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٣٢٨).

موعد؛ حتى يفرق بين أهل الكفر وأهل الإيمان، فيهلك الكفار بعد قيام حجة ثابتة عليهم لا شبهة فيها، فيموت من قُتل منهم عن بينة رآها، وعبرة عاينها؛ ليقطع عليهم أعذارهم في الآخرة، ويعيش من عاش منهم عن حجة قامت لله عليه، فيتحمَّل تَبِعَةَ استمراره في الكفر، وبالكفر تموت القلوب، وبالإيمان تحيا وتسعد، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وهو مثل مضروب للمؤمن والكافر، ذلكم قوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: عن كُفر وحجة وبصيرة، فهم أهل لذلك ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ وهم مَنْ حَيِيَ من أبناء المسلمين بالإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوال الفريقين، لا يخفى عليه أي شيء ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وجميع أحوالهم ما ظهر منها وما خفي، وما غاب وما شوهد.

رُؤْيَا الرَّسُولِ الْمَنَامِيَّةِ قَبْلَ الغَزْوَةِ

٤٣- ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

نزلت هذه الآية في رؤيا رآها رسول الله ﷺ منامًا؛ حيث رأى فيها عدد الكفار قليلًا، فأخبر بذلك أصحابه، فقويت نفوسهم، وعزموا على اللقاء[1].

قال مجاهد: أرى الله النبي ﷺ كفار قريش في منامه قليلًا، فأخبر بذلك أصحابه فقالوا: رؤيا النبي حق، القوم قليل، فصار ذلك سببًا لجرأتهم وقوة قلوبهم، وقد امتن الله على رسوله والمؤمنين بهذه الرؤيا، حيث كانت من أسباب النصر، فقد زال الخوف من نفوسهم، وأقدموا على لقاء عدوهم[2].

فهذه الآية تتحدث عن رؤيا منامية للنبي ﷺ حيث يمضي السياق؛ ليكشف تدبير الله تعالى في المعركة، بأن يُري رسوله في منامه عدد الكافرين قليلًا، لا قوة لهم ولا وزن، فيخبر الرسول ﷺ أصحابه برؤياه، فيفرحوا ويستبشروا ويتشجَّعوا على لقاء العدو،

---

(١) قاله مجاهد وأخرجه عبد الرزاق (٢٥٩١١) والطبري (٢٠٩) وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠٩).

(٢) «تفسير الفخر الرازي» (٥/ ١٦٩) والأثر أخرجه عبد الرزاق (١/ ٢٥٩) والطبري (٢٠٩) وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠٩).

لعلمهم أن رؤيا الأنبياء حق ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ فكان هذا تثبيتًا لهم، وتقوية على حرب عدوهم.

ورؤيا الأنبياء حق وصدق، فهي لا تخطئ، وقد كان النبي ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، كما رأى ﷺ ليلة غزوة أحد بقرة تُذبح، فكان تأويل ذلك: استشهاد حمزة وبعض أصحاب النبي ﷺ، كما رأى ﷺ أن في سيفه ثَلَمًا فكان تأويله ما حدث لهم من الهزيمة يوم أُحُد.

وقد يمسك النبي ﷺ عن تعبير الرؤيا لحكمة، فلو أن النبي ﷺ أخبر أصحابه أنهم منتصرون لآمنوا بذلك إيمانًا يمنعهم من الأخذ بالأسباب، ولو لم يخبرهم بالرؤيا لتهيَّبُوا المشركين وخافوا من لقائهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا﴾ وأخبر أصحابه بذلك ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم ومنكم لا يرى ذلك، أي: ولو أراك الله إياهم على عددهم الحقيقي لجبنتم وفشلتم وتنازعتم وترددتم في لقائهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ فلطف بكم من الفشل والتنازع ونجاكم من عاقبة ذلك ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إنه عليم بخفايا القلوب وطبائع النفوس، يعلم ما فيها من الثبات والجزع والصدق والكذب.

تَقْلِيلُ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ فِي عَيْنِ الْآخَرِ أَثْنَاءَ الْمَعْرَكَةِ

٤٤-﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ[1] ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

وهذه الآية تتحدث عن الرؤيا في اليقظة، وهي تقليل عدد المؤمنين في نظر أعدائهم وتقليل عدد الكفار في نظر المؤمنين، وذلك في ساحة المعركة حين التقى الجيشان، وكان هذا تأكيدًا للرؤيا المنامية، التي رآها النبي ﷺ وذلك أنه لما كانت المعركة، والتقى الجمعان وجهًا لوجه، تأكد في اليقظة ما رآه النبي ﷺ في منامه، فقلَّل الله عدد الكفار في أعين المسلمين؛ ليجترئوا عليهم، وزاد على ذلك بأن قلل عدد المسلمين في أعين

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بفتح التاء وكسر الجيم من (تَرجِع) على البناء للفاعل، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الجيم على البناء للمفعول.

الكفار؛ ليتركوا الاستعداد لحربهم، فقلل الله كلًّا من الفريقين في عين الآخر، وكان هذا من بشائر النصر، وهو معنى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ أي أن الله تعالى أرى عدد المشركين في أعين المؤمنين قليلا.

قال ابن مسعود: نظرت إلى المشركين يوم بدر فقلت إلى من بجواري: إنهم سبعون، قال: أراهم مئة، فأسرْنا رجلًا منهم، فقلنا: كم كنتم؟ قال: كنا ألفًا(١).

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: في أعين الكفار؛ ليغري كلًّا من الفريقين بلقاء الآخر، وقد فعل ما فعل من تقليل كل فريق في عين الآخر ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وهو نصر المؤمنين وخذلان الكافرين، وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم، ليتحقق وعد الله بالنصر والغلبة للمؤمنين، ولتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ومصائر الخلق أجمعين إلى الله، فيجازي كلًّا بعمله، ويحكم بين الخلائق بحكمه العادل.

أي: ولما وقعت المعركة بالفعل، ودارت رحى الحرب، وأمد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، رأى المشركون المسلمين ضعف عددهم، ورأى المسلمون المشركين أقل من عددهم، فازداد المسلمون جرأة على المشركين، وازداد المشركون هيبة ورهبة من المسلمين ذلكم قول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران] يعني: أن المشركين ينظرون إلى المسلمين فيرونهم في أعينهم ضعف عدد المشركين ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وكان ذلك من أسباب النصر وآياته التي يمد الله بها أولياءه ويخذل أعداءه، وبهذا جمع العلماء بين الآيتين.

والأمر المفعول الذي انتهت به الآية السابقة، هو نصر المؤمنين على الكافرين بالقهر والغلبة، والأمر المفعول الذي ختم الله به هذه الآية، هو تقليل عدد الكافرين في أعين المؤمنين، وتقليل عدد المؤمنين في أعين الكافرين، وذلك للحكمة التي قضاها.

---

(١) ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٧٤) والطبري (٥/ ٢٥١) وابن أبي حاتم (٥/ ١٧١٠).

النِّدَاءُ السَّادِسُ: إِلَى الْمُؤْمِنِينَ عَقِبَ انْتِصَارِهِمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ

٤٥ -﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً[1] فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾

هذا النداء موجه إلى المؤمنين إلى يوم الساعة، وهو يشتمل على ستة أمور، هي عوامل النصر على العدو، وهي تعني: أن الكثرة العددية، والعُدَّة المادية لا يعنيان بالضرورة تحقيق النصر، ولا تقرير مصير المعركة، وعلى المؤمنين أن يتمسكوا بهدْي القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ في الأخذ بأسباب النصر المادية، والاتصال القوي بصاحب العون والتدبير، وتجنُّب أسباب الهزيمة ماديًا ومعنويًا.

عَوَامِلُ النَّصْرِ

العَامِلُ الأَوَّلُ: الثَّبَاتُ فِي مُوَاجَهَةِ العَدُوِّ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾

ابتدأت هذه النداءات بلفظ الإيمان، المتضمن امتثال الأوامر واجتناب النواهي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]

وهذا هو العامل الأول من عوامل النصر على العدو، وهو الثبات في مواجهة العدو عند لقائه، وعدم الفرار من المعركة، أو عدم التولي يوم الزحف.

وقد تبيَّن لنا فيما سبق أن التولي يوم الزحف من أكبر الذنوب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥﴾

وهو من السبع الموبقات التي جاء ذكرها في حديث المصطفى ﷺ: **«اجتنبوا السبع الموبقات»** وذَكَر منها **«التولي يوم الزحف»**

والله جلَّ شأنه قد توعَّد مَنْ يفر يوم الزحف من ساحة المعركة بأن مأواه جهنم، وغضب الله عليه، وبئس المصير، مستثنيًا ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ .

---

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة ياء وصلًا ووقفًا ومثله حمزة في ثلاث كلمات وهي (فية، الفيتان، رياء الناس) والباقون بتحقيق الهمزة.

والرسول ﷺ وهو قدوتنا ومَثَلُنا في حربه وسلمه قد ثبت، ولم يفر في جميع معاركه؛ لا في بدر، ولا في أحد، ولا في الأحزاب، ولا في حنين، ولا في غيرها.

فقد ثبت عليه الصلاة والسلام في يوم أُحُد ومعه تسعة فقط من أصحابه، وكان قد أُشيع أن النبي ﷺ قد قُتِل، لمَّا وقع في الحفرة التي أعدها له المشركون، وأصيب عليه الصلاة والسلام فيها بشجٍّ وجهه وكَسْر رباعيته، وشيء من الأذى وسيل الدماء، ومع ذلك فقد وقف ﷺ ثابتًا صامدًا وحوله تسعة من أصحابه، وهو ينادي المسلمين، ويقول: «**إليَّ أيها الناس**».

وفي غزوة حنين التي يقول الله تعالى للمسلمين فيها: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ثبت ﷺ ومعه عشرة من بين اثني عشر ألف مقاتل، ووقف عليه الصلاة والسلام ثابتًا صامدًا في مكانه، وهو ينادي المسلمين قائلًا لهم: «**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**»[١].

وهكذا ثبت عليه الصلاة والسلام في جميع مواقعه وحروبه، ومن بعده الخلفاء الراشدون، والصالحون من الأمة، على مدى الأزمنة وفي جميع الأمكنة.

فيا أيها الذين صدَّقوا بالله، واتبعوا رسوله: إذا لقيتم جماعة من الكفار، قد استعدوا لقتالكم، فاثبتوا في مواجهتهم، ولا تنهزموا أمامهم، فقد أمر الله بالثبات عند قتال الأعداء، والصبر على مبارزتهم، وعدم النكول عن قتالهم، أو الجبن أمامهم.

ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «**يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**» ثم قال: «**اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم**»[٢].

---

(١) من حديث طويل للبراء في «صحيح مسلم» برقم (١٧٧٦) و«صحيح البخاري» برقم (٤٣١٦، ٤٣١٧).

(٢) في البخاري (٢٩٣٣، ٢٩٦٦) ومسلم (٣/ ١٣٦٢) برقم (١٧٤٢) و«فتح الباري» (٦/ ١٤٠) وعبدالرزاق في «المصنف» (٩٥١٨) وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٦١).

والثبات في مواجهة العدو، هو بداية الطريق إلى النصر، فَعَدوُّ الله يُعاني كما نعاني، ويألم كما نألم، ولكنه لا يرجو من الله ما نرجو، فلا مدد له من الله يثبِّت قدمه وقلبه، ولو ثبت بعض الوقت فسرعان ما ينهار وينهزم؛ لأن المؤمن واثق من إحدى الحسنيين، إما النصر على العدو، وإما الشهادة في سبيل الله، بينما العدو لا أمل ولا رجاء له وراء هذه الحياة، ولا حياة له سواها في زعمه ﴿۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء].

العَامِلُ الثَّانِي: الإِكْثَارُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى

فإن من عوامل النصر على الأعداء، الإكثار من ذكر الله تعالى عند لقاء العدو ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي استعينوا على قتال أعدائكم بالإكثار من ذكر الله تعالى، ففيه طمأنينة القلب وسكينة النفس واستدرار النصر.

والذكر في ساحة القتال يكون سرًّا بصوت خفي، قال قيس بن عباد: كان أصحاب رسول الله ﷺ يستحبُّون خفض الصوت عند ثلاث: عند قراءة القرآن، وعند الجنازة، والقتال[(١)].

فيا أيها المسلمون: اذكروا الله كثيرًا داعين مبتهلين لإنزال النصر عليكم والظفر بعدوكم؛ لكي تفوزوا وتفلحوا، وذِكْرُ الله تعالى مطلوب من المسلم في سلمه وفي حربه، وهو يواجه العدو وهو لا يواجهه، ولكنه في مواجهة العدو أوقع.

فالمسلم حين يقاتل عدو الله سبحانه يكون مضطرب القلب والفؤاد، خائفًا قلقًا، وتثبيت قلبه يكون بذكر الله ﷻ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والمؤمن يذكر الله سبحانه بقلبه، فيثبت قلبه ويطمئن.

ويذكر الله ﷻ بلسانه، فيتغلب على شيطانه الذي يوسوس له، أو يُضعف من عزيمته في مواقف القتال، فهو يذكر الله سبحانه في جميع أحواله.

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يقف في جميع المعارك، مستغيثًا بربه، لاجئًا إليه،

---

(١) ابن أبي شيبة (٣/ ٢٧٤) وعن الحسن (١٠/ ٥٣٠) وأخرجه أبوداود (٢٦٥٦) وهو صحيح موقوف على قيس بن عبادة، كما في «صحيح سنن أبي داود» (٢٣١٤) والحاكم (٢/ ١١٦) عند القتال فقط.

متصلًا به جلَّ شأنه.

ويعلمنا عليه الصلاة والسلام أن نكون كذلك، فنتصل بربنا حين لقائنا بعدونا، ونضرع إليه سبحانه أن ينصرنا عليه، وندعوه بقلوبنا، ونلهج إليه بألسنتنا.

كما وقف عليه الصلاة والسلام في غزوة بدر حين لقي المشركين فانتظر حتى مالت الشمس ثم قال: **«لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، واذكروا الله، فإن أجلبوا وصخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت»**(١).

وقال عليه الصلاة والسلام وهو يدعو ربه: **«اللهم يا منزل الكتاب ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»**(٢).

وأخذ عليه الصلاة والسلام يدعو ربه، حتى سقط رداؤه وهو في دعائه يلهث بذكر الله سبحانه، ويقول: **«اللهم إن هذه قريش قد أتت بفخرها وخيلها وخيلائها تجادلك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني»** فأجاب الله دعاءه، وأمده بالملائكة.

وذِكْرُ الله تعالى عند لقاء العدو فيه توجيه دائم للمؤمن بالإكثار من الذكر بالقلب واللسان، والاستمرار على ذلك في جميع الأحوال، فقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقد سجَّل القرآن دعاء عدد من القلة المؤمنة الذين نصرهم الله تعالى على أعدائهم:

أ- من ذلك قوله تعالى في شأن السحرة الذين آمنوا بالله وواجهوا طغيان فرعون، دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

ب- وكذلك دعا حواريو عيسى في مواجهة الكفرة: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران].

ج - وهكذا شأن عباد الله الصالحين مع رسل الله في كل زمان ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟

---

(١) البخاري (٧٢٣٧) ومسلم (١٧٤١، ١٧٤٢) و«مصنف عبد الرزاق» عن عبد الله بن عمرو (٥/ ٢٥٠) برقم (٩٥١٨) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١٥٣) من طريق ابن وهب، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٢/ ٤٦٣) من طريق عبد بن سليمان، وكلاهما عن عبد الرحمن بن زياد.

(٢) البخاري برقم (٢٩٣٣، ٢٩٦٥، ٢٩٦٦) ومسلم (٣/ ١٣٦٢) برقم (١٧٤٢).

رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران].

د- وكذا أصحاب طالوت الذين قاتلوا جالوت وجنوده، قالوا هذا الدعاء الذي سجله القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

وذِكْرُ الله تعالى بقلب خالص عند لقاء العدو اتصال بالقوة التي لا تغلب، وتقرير لألوهية الله في أرضه، وثقة بالله في نصر أوليائه.

وشدة البأس من مواطن إجابة الدعاء كما في حديث سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ثنْتان لا تُردان: الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلْحم بعضهم بعضًا**»(١).

وفي الحديث: «**اطلبوا إجابة الدعاء عند القتال، وإقامة الصلاة، ونزول الغيث**»(٢).

وقد رتب الله سبحانه الفوز والفلاح والنصر على العدو على الصبر والثبات والإكثار من ذكر الله تعالى فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

العَامِلُ الثَّالِثُ: طَاعَةُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ

٤٦-﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾

طاعة الله ورسوله هي العامل الأول والأخير في جميع الأحوال، وهي مطلوبة من المسلم كل طرفة عين، وهو يواجه العدو، وهو لا يواجه العدو، ولكنه حين يواجه عدوه تكون الطاعة أوجب.

فالتزموا أيها المؤمنون طاعة الله والرسول في جميع أحوالكم بقلوب نقية، ونفوس صافية، ولا تستووا مع عدوكم في المعاصي فيغلبكم بقوة السلاح.

---

(١) صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٢١٥) وهو في أبي داود (٢٥٤٠) والحاكم (١٩٨) ويُنظَر: «السلسلة الصحيحة» (١٤٦٩).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢/٥٣٦) والحديث بتحسين الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٦٩) ج٣ ص٤٥٣).

هذا عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه، وهو يوجِّه الوصايا والنصائح إلى المسلمين الذين ذهبوا لقتال الفرس، يقول لهم: والله ما أخشى عليكم عدوكم بقدر ما أخشى عليكم تسلل المعاصي إليكم؛ فإنكم إذا استويتم مع عدوكم في المعصية، تغلَّب عليكم عدوكم بقوة السلاح، أي: إذا استوينا مع عدونا في المعاصي والذنوب فإنه يغلبنا بقوة السلاح.

وهذه الطاعة لله والرسول تكون بفعل الأوامر وترك النواهي في الأقوال والأفعال، في السر والعلن.

أطيعوا ولاة الأمور، وقادة الجنود في غير معصية الله سبحانه، واتبعوا أحكام القتال المشروعة، ولا تخالفوا أمراء الجيوش، ولا تَخْرُجوا عليهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النساء] فعند التنازع والاختلاف ترجعون إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ وتُحكِّمون شرع الله بينكم.

العَامِلُ الرَّابِعُ: وَحْدَةُ الصَّفِّ الإِسْلَامِيِّ

﴿وَلَا[(١)] تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾

أي: أن التنازع والفُرقة سبب للفشل وذهاب القوة، **والفشل**: انحطاط القوة وعدم مغالبة العدو.

فاستمروا على ذكر الله وطاعته عند لقاء العدو، ولا تنازعوا تنازعًا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ولا تختلفوا ولا تختصموا، فإن ذلك يؤدي بكم إلى الفشل والضعف، وظهور عدوكم عليكم، وتفرق قوتكم، ورفع ما وعدكم الله به من النصر على عدوكم.

وعدم التنازع يقتضي: التفاهم والتشاور، وعدم الاستبداد بالرأي.

فالوحدة والاعتصام بحبل الله تعالى، وجمْعُ كلمة المسلمين، ودفاعهم تحت لواء واحد، بُغْيَةَ نشر الإسلام والدفاع عنه وعن أبنائه ومقدساته، هو سبيل النصر بعد طاعة الله والرسول ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

(١) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا مع المد المشبع لالتقاء الساكنين من (ولا تنازعوا)، والباقون بالتخفيف مع القصر، وهو الوجه الثاني للبزي.

هذا رجل بدوي حين أشرف على الموت، جمع أبناءه حوله وأراد أن يلقنهم درسًا في الوحدة وعدم التفرق والتشتُّت، فأمسك بحزمة من حطب وأعطاها لكل واحد منهم، وطلب منه أن يَكْسِرها، فما استطاع أحد منهم أن يكسرها وهي مجتمعة، ولم يقوَ أحدهم على ذلك، ثم أخذها عودًا عودًا وفرَّقها، وأعطى الحزمة لأصغرهم سنًّا، فكسَرها ثم قال لأبنائه: هكذا ما دمتم مجتمعين فالعدو لا ينال منكم شيئًا، وإذا تفرقتم وتنازعتم واختلفتم يكون الضعف والهزيمة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وكان التنازع والعصيان سبب الهزيمة يوم أُحُد.

وهكذا شأن الأمة الإسلامية إذا اجتمعت على كلمة الله، وعلى الجهاد في سبيل الله، فإنه ليس بإمكان قوة في الأرض أن تغلبها.

وهذه الوحدة كانت محققة في الصدر الأول من الإسلام، أي: في الثلاثين عامًا التي أعقبت رسول الله ﷺ حيث كان المسلمون دولة واحدة في الأرض جميعًا، ففتحت البلاد، وحررت العباد، ونشرت الدعوة، فالحاكم واحد، والتوجيه واحد، ليس هناك اختلاف ولا تفرق، بل راية واحدة، وكلمة واحدة.

ويمكن أن يحصل مثل هذا في عصرنا، وليس بالضرورة أن تكون الدول الإسلامية كلها دولة واحدة، لاتساع رقعة الإسلام وكثرة أعداد المسلمين وتباعد ديارهم، على خلاف ما كانوا عليه في الصدر الأول، وإذا استحال هذا الأمر، فلا أقل من أن يكون هناك جيش إسلامي موحد يتحرر المسجد الأقصى على يديه بإذن الله تعالى، وعلى يديه بإذن الله ينتصر المسلمون لإخوانهم الضعفاء في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد فتح المسلمون البلاد شرقًا وغربًا في الأعوام التي تلت رسول الله ﷺ فظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ودان لهم الفرس والروم والترك والحبشة والبربر والصقالبة وغيرها؛ لأن القيادة كانت واحدة، والتوجيه كان واحدًا، وكان هناك اعتصام وتمسك بحبل الله ﷻ.

ومنذ أن تفرقت الأمة الإسلامية، من الحكم العثماني إلى عصرنا، وقد عمل اليهود على هذا التفرق لصالحهم، وها هم يَجْنُون الثمرة، فقد تفرق المسلمون إلى دويلات،

وجماعات، ومن داخل الدويلات: أحزاب وفرق، فحصل الضعف والعجْز، وهذا هو الذي يؤدي بالمسلمين إلى التهلكة، وهو ما يريده عدوهم.

فالمسلمون جميعًا يشكلون أكثر من ربع العالم، ولو أنهم ذهبوا بدون سلاح على أقدامهم إلى المسجد الأقصى ما استطاع العالم أن يقف في وجوههم أو أن يبيدهم جميعًا، وعدم القيام بمثل هذا سببه اختلاف الصف، وعدم الوحدة، وهذا معنى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ فالفرقة والتنازع سبب الفشل.

والله سبحانه يربط النتائج بالمقدمات، والأسباب بالمسببات، والفشل مُرتَّب على التنازع.

في يوم أُحُد لما اختلف بعض المسلمين، وعصوا رسول الله ﷺ فيما يتعلق بالغنائم وجمْعها، وخالف الرماة أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت الهزيمة التي مُني بها المسلمون بعد الانتصار في غزوة بدر، فقد ذهبت ريحهم وتبددت طاقاتهم، وهذا معنى: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ أي: تذهب قوتكم بسبب الخلاف والفرقة فتضعفوا.

العَامِلُ الخَامِسُ: الصَّبْرُ فِي سَاحَةِ القِتَالِ

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

فلا ثبات في مواجهة العدو إلا بالصبر، فهو صفة لا بد منها لخوض المعركة، فصبر الجندي في ساحة المعركة: صبر على طاعة الله، وصبر على أقدار الله، وصبر على تحمل المكاره، وصبر على ترك محارم الله، وصبر على الجهاد في سبيل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران] والله سبحانه في معية الصابرين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يمدهم بعونه ونصره ومدده وتأييده، ولا يخذلهم، وهذا ضمان للصابرين بالفوز.

في غزوة بدر وقف النبي عليه الصلاة والسلام قائلا لأصحابه: **«والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتَل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»**[1] فيسمع

---

(١) ينظر: التمهيد لابن عبدالبر (٢٢/ ٩٩) وذكره ابن إسحاق في الغزوة، وانظر حديث أبي قتادة في صحيح مسلم (١٨٨٥) كتاب الإمارة.

الصحابة هذه البشرى من رسول الله ﷺ، وكان عُمَيْر بن الحمام يمسك بيده عددًا من التمرات يأكلها، وبقيت بقية، فيقول: والله لئن عشت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة. ويُلقي بالتمرات من يده، ويقاتل العدو، فيسقط شهيدًا في ساحة القتال، صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، فالإسلام لا يعرف الهزيمة، ولا يعرف إلا النصر أو الشهادة ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء].

العَامِلُ السَّادِسُ (الأَخِيرُ): الإِخْلَاصُ

٤٧- ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

والإخلاص شرط في الجهاد الإسلامي: بأن يكون القتال في سبيل الله، ليس عصبيَّة ولا قبليَّة، ولا حميَّة، ولا شجاعة، ولا انتصارًا لحكم مَّا، ولا جريًا وراء مطامع الدنيا وحطامها، ولا رياء وذكرًا بين الناس، ولا طلبًا لعلوِّ مرتبة، إنما يكون القتال في سبيل الله، بُغية إعلاء كلمة الله، ونشر دينه ورد عدو الله، وهذا ما تشير إليه هذه الآية.

وقد كان خروج المشركين يوم بدر بطرًا ورئاء الناس وصدًّا عن سبيل الله، هذا شأن المشركين يوم بدر، حيث تحققت فيهم هذه الصفات الثلاث: فقد نجا أبو سفيان بالعير، وأبلغ قريشًا أنه لا حاجة للقتال، فقد نجونا بالعير والقافلة، ولكن أبا جهل وحزبه أصروا على القتال، وقدموا من مكة ومعهم المغنيات والخمور، والطبول والمعازف والدفوف والنساء، وقالوا: والله لا نرجع حتى نصل بدرًا، فنقيم فيها ثلاثة أيام، ننحر الجزور، ونشرب الخمور، وتعزف القيان، حتى يسمع بنا العرب فيهابونا أبدًا.

ولذلك فإن النبي ﷺ دعا ربه قائلًا: **«اللهم إن قريشًا قد أقبلت بفخرها وخيلائها تجادلك وتكذب رسولك اللهم فاحْنها الغداة»** أي: اهزمها، فحذَّرنا الله تعالى أن نكون مثلهم في البطر والأشر والفخر والكبرياء؛ حتى لا يكون مصيرنا مثل ما أصابهم من الذل والانكسار والهزيمة.

أي: فلا تكونوا مثل المشركين الذين خرجوا من بلدهم كبرياء ورياء؛ ليمنعوا الناس

من الدخول في دين الله، والمراد بالذين خرجوا من ديارهم بطرًا: هم قريش، حين خرجوا من مكة بالقيان والمغنيات والمعازف لملاقاة العير والحفاظ عليها.

فلما وصلوا الجُحفَة، بعث (خفاف الكناني) بهدايا إلى صديقه أبي جهل مع ابن له، فلما أتاه قال: إن أبي يُنعمك صباحًا، ويقول لك: إن شئت أن أَمُدَّك بالرجال أمددْتك، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت، فقال أبو جهل: قل لأبيك: جزاك الله والرحم خيرًا، إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله طاقة، وإن كنا إنما نقاتل الناس، فوالله إن بنا على الناس لَقُوَّة، والله ما نرجع عن قتال محمد حتى نَرِد بدرًا، فنشرب فيها الخمور، ونعزف فيها القيان؛ فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوقًا من أسواقهم، وحتى تسمع العرب بمخرجنا، فتهابنا أبد الدهر.

قال المفسرون: فَورَدُوا بدرًا، وشربوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان[١].

فكونوا - أيها المؤمنون - ثابتين عند لقاء الأعداء، مكثرين من ذكر الله وطاعته، وكونوا صابرين في كل المواطن، واحذروا أن تشبَّهوا بكل أَشِر بَطِر، مغرور متغطرس، صادٍّ للناس عن دين الله.

والله تعالى محيط بشؤون خلقه، لا يغيب عنه شيء، ولا يفوته شيء، ولا تعجزه قوة، وقد أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تتشبهوا بهم، فليكن قصدكم من خروجكم وجه الله تعالى وإعلاء كلمته، وهو سبحانه يجازي كلًّا بعمله، والنفاق هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر، أما الرياء فهو: إظهار الطاعة وإبطان المعصية.

الغُرُورُ وَضَعْفُ الإِيمَانِ مِنْ عَوَامِلِ الهَزِيمَةِ

٤٨-﴿وَإِذْ[٢] زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ[٣] وَإِنِّي

(١) «تفسير الفخر الرازي» (٥/ ١٧٢).

(٢) أدغم الذال في الزاي من (وإذ زين) أبو عمرو وهشام وخلاد والكسائي، وقرأ بقية القراء بالإظهار.

(٣) قرأ الدوري عن أبي عمرو بالفتح والإمالة في لفظ (الناس)، والباقون بالفتح.

جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ[١] مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ[٢] أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

تشير هذه الآية إلى تتمة وصف حال المشركين حين خرجوا لقتال المسلمين، فتذكُر سببًا من أسباب نصر المسلمين وخذلان المشركين، وهو إغواء الشيطان لهم بالنصر، ثم تبرؤه منهم لما انتصر المسلمون عليهم.

فاذكروا - أيها المؤمنون - حين حسَّن الشيطان للمشركين ما جاؤوا له، وما هموا به من قتال النبي ﷺ وأصحابه، وقال لهم: لن يغلبكم أحد اليوم، وإني ناصركم، فلَمَّا تقابل الفريقان: المشركون ومعهم الشيطان، والمسلمون ومعهم الملائكة، رجع الشيطان مدبرًا وتبرأ من المشركين وقال: إني أرى ما لا ترون من الملائكة، إني أخاف الله، فخذلهم وتبرأ منهم.

والشيطان يزيِّن إلى أعداء الله ما هم فيه من عمل سيئ، فيحببهم فيه ويمنيهم ويغريهم، بأنهم سوف ينتصرون على المسلمين، حتى تطمئن نفوسهم ويقدموا على لقاء عدوهم، ثم يتبرأ منهم.

وقد جاء في الأثر: إن الشيطان ما رؤي في يوم هو أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، إلا ما رؤي يوم بدر، من تنزل الملائكة والنصر للمسلمين[٣].

الشيطان في صورة سراقة ينصح المشركين

وقد جاءت آثار[٤] تفيد أن الشيطان قد تمثل لقريش في صورة سراقة بن مالك، سيد

---

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة ياء، وإدغام الياء في الياء التي قبلها وصلًا ووقفًا من (بريّ)، ولحمزة عند الوقف الإدغام مع السكون المحض والرَّوْم والإشمام.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من كلمتي (إني أرى) و (إني أخاف)، والباقون بإسكانها.

(٣) وهو خبر مرسل عن طلحة بن عبد الله بن كَرِيز، أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٤٢٢) وفيه عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون وهو ضعيف، وانظر كلام ابن عبد البر عنه في: التمهيد (١/ ١١٥).

(٤) عن ابن عباس وقتادة وعروة بن الزبير والحسن ومحمد بن كعب القرظي، والسُّدِّي والضحاك والحسن البصري وغيرهم.

بني مدلج من قبيلة كنانة، وقال لقريش: أنا جاركم، وناصح لكم، فلا تخافوا فإني مجيركم من بني كنانة، وكان بين قريش وبين قبيلة كنانة حروب وعداوة، فقال لهم: إني مجيركم من كنانة، فكان هذا من أسباب عزم قريش على الخروج للقتال، ولمّا أوردهم الموارد نكص على عقبيه وتبرأ منهم:

ومن ذلك ما أخرجه الطبري بسند حسن إلى ابن عباس ﵄: أنه لما انهزم المشركون يوم بدر، حين رمى رسول الله ﷺ بقبضة من التراب في وجوه الكفار، أقبل جبريل ﷺ إلى إبليس، فلما رآه إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده، ثم ولّى مدبرًا، فقال له الرجل: يا سراقة، تزعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ ثم ذهب حين رأى الملائكة[1].

وقد أسلم سراقة يوم فتح مكة، وكان الشيطان قد وسوس إلى سراقة أن يأتي في جيش من قومه لنصرة المشركين، فألقى الله في روع سراقة من الخوف ما جعله يتراجع وينخذل هو ومن معه.

وفي رواية محمد بن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح: أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقة بن مالك بن جُعشم، فلما حضر القتال، ورأى الملائكة نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ فتشبث به الحارث بن هشام أخي أبي جهل، فنخر في وجهه، ودفعه في صدره، فخر صعقًا، فقيل له: ويلك يا سراقة، على هذه الحال تخذلُنا وتبرأ منا!؟ فقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وكان النبي ﷺ قد أغفى ساعة، بشره الله فيها بإمداده له بالملائكة، وخذلان الشيطان وأعوانه.

وكان الشيطان قد جاء في صورة سراقة يوم بدر في جند من الشياطين معه.

ولما نزلت الملائكة ورآها إبليس، أوحى الله إليهم: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فكان الملَك يأتي إلى أحدهم في صورة رجل يعرفه، ويقول له: أبشر، فإنهم ليسوا بشيء والله معكم، فلما رآهم إبليس وهو في صورة سراقة فرَّ هاربًا، فأقبل أبو جهل

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» للآية و«تفسير ابن عطية» (٢/ ٥٣٩) وانظر: «المغازي» للواقدي (١/ ٧٠) و«المعجم الكبير» للطبراني (٥/ ٤٢) وابن أبي حاتم (٥/ ١٧١٥) والبيهقي (٣/ ٧٨).

على أصحابه يحضهم ويقول لهم: لا يهولنكم خذلان سراقة لكم، فإنه كان على موعد مع محمد وأصحابه، ثم قال: واللات والعزى، لا نرجع حتى نقرن محمدًا وأصحابه في الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذًا[١].

وهكذا زيَّن الشيطان للمشركين أعمالهم في ملاقاة المسلمين ﴿وَقَالَ﴾ لهم لن يغلبكم أحد ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وسوف تنتصرون على المسلمين ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ معينكم ضد عدوكم، ومجير لكم إن أطعتموني وخرجتم لقتالهم ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: التقى الجمعان: المسلمون ومعهم الملائكة، والكفار ومعهم الشيطان ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: رجع الشيطان وفر هاربًا، وكان قد وضع يده في يد الحارث بن هشام، وهو في صورة سراقة، فسلَّ يده منها وانصرف مدبرًا، فسأله: لماذا؟ أفرارًا من المعركة؟ فلم يَرُدّ عليه، ووقعت المعركة وانتصر المسلمون عليهم، وعندئذ قال الشيطان: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ وقد رجعتُ عما ضَمِنْته لكم من الأمان والنصر ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ من الملائكة، وهي تتنزل بنصر الله على المؤمنين، ولا قبل لأحد بقتال الملائكة.

وحين رأى الشيطان جبريل والملائكة فرَّ هاربًا، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي: أخاف عقوبته ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، ولم يتب توبة نصوحًا وهو كاذب فيما قال، ولما بلغ هذا الخبر سراقة، قال: والله ما علمتُ بخبركم، ولا رأيتكم إلا حين جاءني خبر هزيمتكم.

قال الحسن: رأى إبليس جبريل يقود فرسه بين يدي النبي ﷺ وهو معْتجِرٌ بِبُردة، وفي يده اللجام[٢].

وهكذا ألقى الشيطان في نفوس المشركين أنهم سيُنصرون على المسلمين، وخيَّل لهم أنهم لن يُغلَبوا لكثرة عددهم وعدتهم، وأوهمهم أنه مجير لهم وحافظهم من السوء، وأن النصر سيكون لهم عند لقائهم بعدوهم.

وهذه الآثار وغيرها يُستأنَس بها في حمل الآية على ظاهرها، وأن الشيطان قد زيَّن للمشركين لقاءهم بالمسلمين في صورة حسية وأنه تمثل لهم في صورة إنسان، وقال لهم

(١) يُنظَر «تفسير الطبري» و«تفسير ابن كثير» للآية.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٥٣٩).

ما ذكرته الآية[١].

فالحاصل أن الشيطان قد غرَّهم وخدعهم حتى أوردهم المهالك، ثم تبرأ منهم، وهذا شأن الشيطان مع الإنسان، كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦].

وكما قال سبحانه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء].

وكما حكى الله تعالى قول الشيطان في خطبته البتراء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ونحن نؤمن بما نطق به القرآن، من أن الشيطان قد زيَّن للمشركين أعمالهم، ولكنا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها؛ لأن الشيطان من الأمور الغيبية.

والذي عليه جمهور المفسرين أن الشيطان قد تمثل في هذه الموقعة بصورة سراقة بن مالك، وأن هذا التزيين كان حسيًّا في صورة إنسان، كما نطقت بذلك الآثار التي أشرنا إليها.

قلت: ولهذه الآثار شاهد آخر، هو تمثُّل الشيطان في صورة شيخ نجدي ليلة التآمر على قتل النبي ﷺ في دار الندوة في حادث الهجرة النبوية.

ومن المعلوم شرعًا أن الملائكة تتمثل في صورة رجال، وأن الجن والشياطين يتمثلون في صورة مخلوقات عدة، والله أعلم.

وبعد ذكر موقف الشيطان يأتي ذكر موقف المنافقين ومرضى القلوب من المسلمين في غزوة بدر، فيقول تعالى:

٤٩- ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ[٢] غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

---

(١) وقد استبعد بعض المفسرين أن الشيطان قد تمثل لهم في صورة إنسان، وقالوا: إن تزيين الشيطان كان وسوسة، ومنهم أصحاب المدرسة العقلية كصاحب «تفسير المنار».

(٢) أخفى التنوين في الغين مع الغنة أبو جعفر من كلمة (مرض غير) حال الوصل، وقرأ الباقون بالإظهار.

وبعد أن ذكر سبحانه العدو الرئيس للمسلمين وهم المشركون، ذكر في هذه الآية صنفين من أعداء الإسلام، وهما: المنافقون، الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، والذين في قلوبهم مرض.

وذلك أنه بينما كان الشيطان يخدع المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس؛ ليشجعهم على الخروج، ثم يتركهم إلى مصيرهم البائس، كان المنافقون يظنون الظنون بالمؤمنين الذين يواجهون جحافل المشركين، وهم قليلو العدد، ضعيفو العدة وقد كشف الله سترهم وفضح حالهم في هذه الآية.

فاذكروا - أيها المؤمنون - حين يقول أهل الشك والنفاق، ومرضى القلوب، وهم قوم من أهل المدينة، وبعض من أسلم حديثًا من أهل مكة، ولم يدخل الإيمان في قلبه، وكان ذلك لمَّا اقترب المسلمون والمشركون بعضهم من بعض يوم بدر، وقلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون وهم يشيرون إلى المسلمين: غرَّ هؤلاء المسلمين دينهم وأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، فأوردهم الموارد حيث أقدموا على قتال قوم يفوقونهم في العدد والعدة.

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض، قلَّل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلَّل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غرَّ هؤلاء دينهم، أي أن الدين الذي هم عليه أوردهم المهالك، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك.

فالآية تشير إلى أن قومًا من المنافقين خرجوا مع المسلمين إلى بدر مثل قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو القيس بن الفاكه، والحارث بن زمعة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن أمية، وعتبة بن ربيعة، فلما رأوا قلة عدد المسلمين قالوا هذه المقالة[١].

أما الذين في قلوبهم مرض، أي شك وشبهة، فهم ضعفاء الإيمان ممَّنْ أسلم حديثًا.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/٥٣٩) و«تفسير ابن كثير» (٤/٧٦) عن الشعبي ومجاهد عند ابن إسحاق وابن أبي حاتم (٥/١٧١٦).

وهذان الصنفان اللذان تحدثت عنهما الآية، هم جماعة من المنافقين من أهل المدينة، وجماعة ممن أسلم حديثًا من أهل مكة ولم يهاجر، ولم يشهد بدرًا مع المسلمين، فسُمُّوا منافقين وفي قلوبهم مرض؛ لأنهم قالوا فيمن شهد بدرًا من المسلمين: إنهم قوم اغتروا بإسلامهم فأوقعوا الضر بأنفسهم، وهم يتوهمون النفع لهم، ومعلوم أن ذلك كان قبل أن تظهر نتيجة المعركة، ولهؤلاء المنافقين نظائر كثيرة في عصرنا، وفي كل زمان ومكان، ممن تبدو البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.

ثم بيَّن سبحانه أن الله قد خيب ظنونهم وأن هؤلاء المشركين لم يدركوا أن من يعتمد على الله ويثق بوعده، فإن الله لن يخذله؛ لأنه سبحانه عزيز لا يعجزه شيء، حكيم في صنعه وتدبيره، وقد توكل المسلمون على الله فأعزهم ونصرهم على عدوهم.

وَصْفُ حَالِ الكَافِرِ عِنْدَ خُرُوجِ الرُّوحِ

٥٠- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى[1] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾

هذه الآية تتضمن التعجب مما حل بالكفار يوم بدر وقد أشتد بهم القلق وعظم الكرب عند قبض أرواحهم، وهو وصف عام يتناول جميع الكفار إلى يوم القيامة؛ ليعلم المؤمنون ويرتدع الكافرون، ويعتبروا بما حدث لغيرهم فيؤمنوا، ويقلعوا عما هم فيه من الكفر. يقول سبحانه مبيِّنًا حال الكفار حين تقبض الملائكة أرواحهم عند الموت سيما في يوم بدر حين قتلهم المسلمون، إنك لو عاينت ذلك وشاهدته- أيها الرسول - لرأيت أمرًا عظيمًا، ومنظرًا فظيعًا تقشعر منه الأبدان، ورأيت عذابًا شديدًا ينالهم عند قبض أرواحهم، والملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وقد يكون المراد: ضرب جميع الجسد من الأمام والخلف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

---

(١) قرأ ابن عامر بتاء التأنيث في (إذ تتوفى)، والباقون بالياء على التذكير، وجاز تأنيث الفعل وتذكيره؛ لكون الفاعل مؤنثًا تأنيثًا مجازيًا.

فالملائكة تُبسَط أيديهم إلى الكافرين بالضرب عند الموت، وتُخرج أرواحهم من أجسادهم قهرًا، ويبشرونهم بعذاب الله وغضبه، ويقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم ممتنعة مستعصية على الخروج لما ترى أمامها من سوء المصير:

كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أن ملك الموت يأتي للكافر عند الاحتضار للموت في صورة منكرة، فيقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، إلى سَمُوم وحميم، وظل من يحموم، فيخرجونها من جسده كما يخرج السَّفود من الصوف المبلول[1].

فتنتزع ملائكة العذاب أرواح الكفار انتزاعًا، وهم يضربون وجوههم حال إقبالهم، ويضربون أدبارهم حال فرارهم، جزاء وفاقًا؛ لبطرهم وكبريائهم، وجزاء موافقًا لما قدموه في الدنيا وما عملوه، تقول لهم الملائكة: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ذوقوا العذاب الشديد المحرق كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد].

وفي وصف عذابهم يوم لقاء الله يقول تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج] قوله سبحانه:

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[إبراهيم: ٣٠].

وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٩و٥٠].

٥١- ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

أي وهذا العذاب الذي أصاب الكفار يوم بدر عند خروج أرواحهم، ويصيب كل كافر إنما هو بسبب أعمالهم السيئة، وما كسبتْه أيديهم من الكفر والمعاصي ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فالله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بجرم اقترفه، ولا يظلم مثقال ذرة، بل هو الحكم العدل﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾فلا ظلم ولا جوْر، وإنما هو بما قدمت أيديهم من المعاصي، مع أنهم في ملكه وتحت قدرته، يتصرف فيهم كيف يشاء.

---

(١) يُنظَر الحديث بطوله في: «المسند» (٢٨٧/٤) برقم (٨٧٦٩، ٢٥٠٩٠) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وأخرجه ابن ماجه (٤٢٦٢،٤٢٦٨) والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢) وبنحوه مختصرًا في صحيح مسلم (٢٨٧٢).

وهو سبحانه القائل في الحديث القدسي من حديث أبي ذر ﷺ: «**يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظَّالموا، يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه**»[١].

هذا: وهلاك المكذبين بذنوبهم سنة جارية في الأولين والآخرين، ومنهم آل فرعون، ومن تقدّمهم من الأمم كماجاء ذكره في الآية التالية:

سُنَّةُ الله في عِقَابِ الكَافِرِينَ لَا تَتَغَيَّرُ

٥٢- ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

وسنة الله في عباده لا تتخلف، والقاعدة مضطردة لا تتبدل، وإن اعترتها بعض الدروس والعبر على مدى التاريخ الطويل في بعض أحقابه، فإن هذا لا يغير من المصير المحتوم لأعداء الله الذي جرت به سنة الله في الكون، كما حدث للأمم السابقة.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أن شأن الكفار في أمة محمد ﷺ، وعادتهم كعادة الكفار في الأمم السابقة قبلهم، فهم مثل: قوم ثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم نوح، وفرعون وقومه، فما أصاب الكفار في يوم بدر من القتل والأسر، هو عقاب الله للطغاة في كل زمان ومكان، عندما يكذِّبون رسل الله ويجحدون آياته.

وكذا كل من يوجد على وجه الأرض، ولم يؤمن برسالة محمد ﷺ فهو جدير بعقاب الله تعالى إن عاجلًا أو آجلًا، كما لحق بالأمم السابقة، وخص فرعون بالذكر؛ لأنه كان أشد الطغاة طغيانًا، وآله: هم أعوانه وبطانته الذين زينوا له السوء، وحرضوه على البطش بموسى ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وقد وصف الله قوم فرعون بتفاهة العقل، وهوان الشخصية ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] وقد عاقب الله فرعون وغيره بما يستحق ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا

(١) مسلم (٤/ ١٩٩٤) برقم (٢٥٧٧).

عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] وما أصابهم كان بسبب ذنوبهم، والله تعالى قوي لا يقهر، شديد العقاب لمن عصاه ولم يتب.

وهو سبحانه يعطينا العبرة، ويبيِّن لنا أن ما لحق بهم من جزاء عادل، بسبب ما قدمته أيديهم، فاحذروا أن تكونوا مثلهم.

وأنتم -أيها المخاطبون بهذه الآيات- مثل غيركم من الأمم السابقة التي كذَّبت وكفرت بآيات الله سبحانه.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران]

والفرق بين الآيتين من **ثلاثة وجوه**:

الأول: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هنا، وفي آل عمران ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

الثاني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هنا، وفي آل عمران ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

الثالث: زيادة لفظ ﴿قَوِىٌّ﴾ هنا عن موضع آل عمران.

وقد بدأت هذه الآية بالكفر؛ لأنه الأفظع، وكان قوم فرعون مشاركين له في الكفر، أما هناك فقد بدأت الآية بتكذيب الآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ من المكذبين لخاتم الرسل، وقوم فرعون شاركوهم في هذا التكذيب.

أما التأكيد هنا بحرف ﴿إِنَّ﴾ فلأن المقصود هو التعريض بالمشركين، وهم ينكرون قوة الله عليهم، وأنه شديد العقاب، فلزم التأكيد هنا، أما في آل عمران فالمقصود مجرد الإخبار بأن الله شديد العقاب إذا عاقب، فلم يحتج إلى تأكيد.

وزيد لفظ ﴿قَوِىٌّ﴾ هنا للمبالغة في تهديد المشركين المقصودين بالإنذار وهذا المعنى ليس مطلوبًا في موضع آل عمران.

النِّعَمُ تَتَحَوَّلُ إِلَى نِقَمٍ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ

٥٣- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

أي وهذا العذاب الذي أنزله الله بالأمم المكذبة، وترتب عليه إزالة ما هم فيه من نعم، إنما هو بسبب ذنوبهم وتغيير أحوالهم،

وهكذا: يخبر سبحانه أنه إذا أنعم على قوم نعمة فإنه لا يغير هذه النعمة بل يُبقيها ويزيدهم منها إن ازدادوا لها شكرا حتى يتغير حال أهلها من الأحسن إلى الأسوأ، ومن الطاعة إلى المعصية، فإذا كفروا وعصوا ربهم، انتقم الله منهم، وعاقبهم عليها، فسلبهم إياها، وغيّرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم، وهذه سنة الله في خلقه، فإنه سبحانه لا يسلب قومًا نعمة أعطاها لهم؛ كالأمن، والرخاء، والعافية، وغير ذلك إلا بسبب تردِّيهم، وانقلاب أوضاعهم، وتغير أحوالهم من الطيب إلى الأسوأ، فإذا هم رجَعوا إلى ربهم أمدهم الله بعون منه، ونصرٍ مِنْ عنده، والمتأمل في أحوال الأمم يجد صدق ذلك.

فبنو إسرائيل مثلًا كانوا في ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدخان] فلما كفروا بالله، ولم يصدقوا رسول الله، سلبهم الله هذه النعم، وأورثها قومًا آخرين، وعلى هذا فقوم موسى المشار إليهم في الآية كانوا في نعمة، فحوَّلها الله إلى نقمة، لما كفروا بموسى عليه السلام.

وأهل مكة الذين ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤] بعد أن كانوا في أمن وطمأنينة، يأتيهم رزقهم رغدًا من كل مكان، ولما قابلوا هذه النعم بالجحود وعدم الشكر، فغيَّروا ما بأنفسهم، وكذَّبوا رسول الله محمدًا ﷺ سلَب الله منهم هذه النعم، وعاقبهم على تكذيبهم فأذاقهم ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

قال السُّدِّي: أنعم الله على أهل مكة بمحمد ﷺ فكفروا به، فحوَّل الله هذه النعمة إلى الأنصار، والمراد: إقامته ﷺ بينهم، وإلا فالرسالة عامة.

وبنو إسرائيل كلما علَوْا وطغَوْا وبغَوْا سلط الله عليهم عبادًا له أولي بأس شديد؛ ليسوؤوا وجوههم، ويذيقوهم ألوان العذاب.

وحين يغيِّر المسلمون حالهم إلى أحسن، فيشتد اتصالهم بالله تعالى، ويُخْلِصون الولاء

له وحده، ويقيمون شرعه في أرضه، ويعتصمون بحبل الله جميعًا، فإن الله تعالى سينصرهم على الصهاينة والصليبيين وسائر الملل والنحل.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]

وهكذا كل من بدَّل نعمة الله كفرًا ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم].

وقد بيَّن الله سبحانه أن ما حلَّ بالأمم المكذبة لرسل الله من العذاب إنما كان بسبب تغيُّر أحوالهم إلى ما هو أسوأ، وأن الله تعالى عادل في حكمه، لا يعاقب إلا بذنب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]

وقال جل شأنه: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم].

والآية عامة في كل قوم أنعم الله عليهم بنعمة فتسببوا لأنفسهم في زوال هذه النعمة كما قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص]

وقال ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

وقال ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج]

وقال ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود]

فإذا أراد الله إصلاح قوم أرسل إليهم من يهديهم فإذا اهتدوا، استمرت عليهم النعم، وإذا كفروا وبطروا النعمة غيَّر الله ما بهم من النعم إلى النِّقَم، وهكذا إذا تركوا العبادة والشكر وبدَّلوها بالفسق والكفر ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

فإن استمر نزول النعم بهم مع كفرهم ومعاصيهم، فهذا استدراج وإمهال من الله تعالى، وهو من باب: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» والله تعالى سميع لأقوال خلقه، عليم بمن يستحق العقاب منهم، سواء منهم من أسر القول ومن جهر به، فلا يخفى عليه شيء، يعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وما تخفيه السراء، ويجازي كلًّا بعمله.

سُنَّةُ الله فِي عِقَابِ المُكَذِّبِينَ لَا تَتَخَلَّفُ

٥٤- ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

وكما أن من سُنن الله في خلقه، أن يعاقب الذين كفروا بآيات الله وجحدوها، كما في الآية [٥٢] فإن من سنته أيضًا أن يعاقب الذين كذبوا بآيات الله، ولم يؤمنوا بها.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: مَثَلُ الكفار من أمة محمد ﷺ مَثَلُ آل فرعون الذين كذبوا نبي الله موسى ﷺ ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح، وقوم هود، والذين كذبوا رسلهم من الأمم السابقة ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ التي جاءت لهداية البشر وسعادتهم، فكانت النتيجة أن الله تعالى أهلكهم بسبب ما ارتكبوه من ذنوب ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم الله بسبب ما اقترفوه من كفر ومعاصٍ ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ وهم أهل الكفر والبطر والطغيان، بسبب تكذيبهم لنبي الله موسى ﷺ.

وكما أغرق الله فرعون وآله بسبب طغيانه وجبروته يهلك سبحانه كل طاغية، وكل أمة خرجت عن منهج الله ﴿وَكُلٌّ﴾ من الأقوام المذكورين ومَنْ على شاكلتهم في الكفر والضلال ﴿كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: أن كلًّا منهم فعل ما لم يكن له فعله، من جحود آيات الله وتكذيب رسله، وإشراكهم مع الله غيره في عبادته، فما ظلمهم الله حين عاقبهم بذنوبهم، وما أخذهم بغير جرم اقترفوه، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفتهم أمر الله ونهيه، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تشابهوهم في الظلم والطغيان حتى لا يحل بكم من عقاب الله مثل ما حل بهم.

وهذه الآية فيها ضَرْب المثل بفرعون وقومه، وكذلك الآية التي سبقتها، ولكن هذه الآية زادت عليها بأنها تُفصِّل وتبيِّن العذاب الذي لحق بفرعون وهو الغرق الذي أجملته الآية السابقة، كما أن هذه الآية تبيِّن عقوبة من كذَّب بآيات ربهم، زيادة على كفران النعم وجحود الحق كما في الآيتين قبلها.

فكل من الآيات الثلاث -الآيتين هنا وآية آل عمران ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران] كل منها يؤدي معنى

مستقلًا، وليس بينها تكرار، كما أن آية ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ السابقة، كانت في شأن مَنْ هلك بعد أن كفر، وهذا دأبهم، وهذه الآية في شأن من لم تُغيِّر نعمتهم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، وهذا دأبهم.

مُحْتَوَيَاتُ الْمَقْطَعِ الأَخِيرِ مِنَ السُّورَةِ

ويأتي المقطع الأخير من السورة ليتضمن كثيرًا من قواعد التعامل مع العدو في السلم والحرب، والتنظيم الداخلي للمجتمع المسلم وعلاقاته الخارجية، واحترام الإسلام للعهود والمواثيق، ورابطة العقيدة بين جميع أفراد المجتمع الإسلامي.

ومجمل هذه القواعد في هذه النقاط:

أ - الذين ينقضون العهود والمواثيق، هم شرُّ من يدبُّ على وجه الأرض، فيجب على المسلمين تأديبهم، ومعاملتهم بالمثل، بنبذ عهودهم، وإضمار الشرِّ لهم.

ب - يلزم المسلمون استكمال القوة، وإعداد العدة الممكنة لإرهاب العدو ودحره في كل زمان ومكان.

ج - إذا طلب العدو الصلح مع المسلمين، فلا مانع من ذلك، أما المسلم فلا يهون ويطلب السلم ابتداء.

د - على المسلمين مواجهة عدوهم، ولو كانوا يفوقونهم في العدد والعدة عشرة أضعاف، ويلزمهم الثبات وعدم الفرار إذا كان العدو ضعف المسلمين في قوتهم وعددهم.

هـ - أسْرُ العدو، لا يكون إلا بعد تدمير قوته والإكثار من قتل جنوده.

و - كانت الغنائم محرمة على الأمم السابقة، وقد أحلها الله لهذه الأمة، بما فيها فدية الأسرى.

ز - إذا فقد المسلمون شيئًا من أنفسهم وأموالهم، فإن الله تعالى سيعوضهم خيرًا مما أُخذ منهم.

ح - جِمَاعُ الأخوَّة في الإسلام هو العقيدة، وليس الجنس ولا الوطن ولا اللغة.

النَّاقِضُونَ لِلعَهْدِ شَرُّ الدَّوَابِّ

٥٥- ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾

وبعد أن شرح الله سبحانه أحوال الكافرين الذين أهلكهم، شرع في بيان أحوال كفار آخرين بينهم وبين المؤمنين عهود ومواثيق، وذلك أنه لما قدم النبي ﷺ إلى المدينة كان الكفار معه على **ثلاثة** أقسام:

١- أهل صلح وهدنة. ٢- وأهل حرب. ٣- وأهل ذمة.

وكان ممن صالحهم طوائف اليهود **الثلاث**: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قُرَيْظَة.

ولما نزلت سورة براءة أمره الله أن يجاهد الكفار بالسيف، ويجاهد المنافقين باللسان والحجة، وأن يقاتل من ينقض عهده ولم يستقم عليه.

وكان هؤلاء اليهود ممن نقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ وهذا شأنهم في كل زمان ومكان، لا عهد لهم ولا ذمة، وكذلك بعض الأعراب الذين حول المدينة، وهكذا المنافقون على مدى التاريخ.

والقرآن يبيِّن أن الذين ينقضون عهودهم، ولا يطمئن أحد إلى عهدهم ووعدهم، هم شر الدواب عند الله؛ لأنهم تجرَّدوا من خاصية الإنسان، وانطلقوا من كل قيد، ففسدت فطرتهم، وأصبحوا شرًّا من البهيمة؛ لأنها مقيدة بضوابط فطرتها، فهم شر الدواب عند الله.

وفي هذا تفضيل للدواب الذميمة؛ كالخنزير، والكلب العقور، على الكافر الذي علم الله أنه لن يؤمن، وقد وصفه الله بشر الدواب؛ لأن دعوة الإسلام أظهر من دعوة الشرائع السابقة، ومعجزة الرسول أسطع، ولهذا كان من يجحدها أشبه بمن لا عقل له، وكان شرُّ ما يدب على وجه الأرض هم الكفار المصرون على كفرهم، فهم لا يصدِّقون رسل الله، ولا يقرُّون بوحدانيته، ولا يتبعون شرعه، وهؤلاء قد كفروا قبل الإسلام واستمروا على كفرهم بعد سماع دعوة الإسلام، فلا يرجى منهم إيمان.

شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ

٥٦- ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾

وصفت هذه الآية الذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم، فبيَّنت أنهم يهود بني قُرَيْظَة، وكعب بن الأشرف ومن معه، وأنهم كلما عاهدوا عهدًا نقضوه، وكلما أكدوا عهودهم

بالأيمان الموثقة نكثوها، فهم لا يؤمنون ولا يتقون، ولا يخافون الله في شيء.

وقد وصفهم الله تعالى بأربعة أوصاف هي: الكفر، ونقض العهود، والخيانة، وعدم التقوى، وعدم الخوف من عقاب الله سبحانه.

وتفيد الآية أن الغدْر يتكرر منهم، فهم لا يثبتون على عهد، وهم شر من الحمير، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع منهم، وكانت بنو قُرَيْظَة قد عاهدوا النبي ﷺ على ألا يحاربوه ولا يُعينوا عليه عدوًّا.

فلما اجتمعت الأحزاب على النبي ﷺ غلب على ظنهم أن النبي ﷺ مغلوب ومستأصل، فغدروا، ووالوا قريشًا وأمدوهم بالسلاح والدروع، فلما انتهت هذه الحالة أمر الله نبيه بالخروج إليهم، فحكَّم فيهم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بالقتل، وقال له النبي ﷺ: **«لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد»**، فضرب أعناقهم بعد أن حاصرهم وكانوا أكثر من ثمان مئة، وسبى ذريتهم.

وهكذا أمر الله تعالى بالإغلاظ على العدو كلما كان في ذلك مصلحة إرهاب للغادرين، وصدٌّ لأمثالهم عن نكث العهود، وفي ذلك رحمة بهم لئلَّا يحدث لهم ما حدث لغيرهم، ويتأكد ذلك بالنسبة إلى شرار الخلق، وهم اليهود الذين دخلوا معك -يا محمد- في معاهداتٍ على ألا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك أحدًا، ثم ينقضون عهدهم ويمالئون الكفار، ويؤلبونهم عليك، المرة تلو المرة، فهم لا يخشون الله، ولا يخافون عقابه، فقد جمعوا بين الكفر ونقض العهود، فصاروا شر الدواب، وهؤلاء اليهود أعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال الرسول ﷺ بعد العهد الأول، وتحزبوا ضده يوم الخندق بعد العهد الثاني فنقضوا كُلًّا منهما.

وُجُوبُ التَّنْكِيلِ بِنَاقِضِي العَهْدِ

٥٧- ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه ما يجب على المؤمنين نحو الناقضين للعهود والمواثيق دون أن ينظروا في عواقب الأمور، فإذا ظفرت -أيها الرسول- ويا أيها المسلم بمن ينقض عهده، وواجهْته في معركة من المعارك، فأنزِلْ به من العذاب الشديد ما يُدخل الرعب في قلوب الناكثين للعهد، بما

يثبتهم على المواثيق؛ حتى لا يجترئوا على نقضها كما فعل هؤلاء وهم لا عهد لهم ولا ميثاق، ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: تجدهم في ساحة القتال ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ نكِّل بهم مَن بعدهم، وعِظْ بهم مَن سواهم مِن الناس، وأغلظ عقوبتهم، وأكثر فيهم من القتل؛ حتى يرتدع غيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون بما شاهدوا فيكونوا عبرة لغيرهم، فلا يجرؤ أحد كائنًا من كان بعد ذلك على التفكير من قريب أو بعيد في نكث العهود ونقض المواثيق؛ حتى يأمن المجتمع، وتستقر أوضاعه.

وقيدت الآية هذه العقوبة بأنها تخص الكافر المحارب، وأن من أُعطى عهدا من غير المسلمين لا يجوز خيانته وعقوبته.

المُبَادَرَةُ بِأَخْذِ العَدُوِّ عَلَى غِرَّةٍ

٥٨- ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه حكم المُصِرِّين على كفرهم، الناقضين لعهودهم، بيَّن حكم من يُخشى منهم الخيانة وتكرار نقض العهود، فوجَّه الله نبيه إلى ما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه غدرًا وخيانة، وذلك بعد ما حدث تكرار لغدر بني قُرَيْظَة، فأمر الله نبيَّه وقواد المسلمين من بعده بأن يعاملوا من يتحسسون منهم الخيانة بالمثل والحذر، عند ظهور الأدلة والقرائن، فإن التزموا بعهودهم وإلا حاربوهم كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

ومعنى ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي أخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم، حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك الغدر بهم قبل أن تخبرهم، وهذا عند ظهور بوادر الخيانة منهم، فإذا لم يوجد ما يدل على خيانتهم فلا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء به إلى مدته.

روى أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال: **«قد وضعتَ السلاح، وما زلتُ في طلب القوم؟ فاخرج، فإن الله قد أذن لك في بني قُرَيْظَة،**

وأنزل فيهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾»[١].

وكان رسول الله قد عاهد يهود بني قُرَيْظَة ألا يحاربوه، ولا يعاونوا عليه المشركين، فنقضوا العهد، وأعانوا عليه كفار مكة بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، فعاهدهم مرة أخرى، فنقضوا العهد وتحالفوا مع الكفار يوم الخندق[٢].

وهذا يقتضي أن لا نقاتل من كان بيننا وبينهم عهد وميثاق؛ لئلا يكون ذلك غدرًا وخيانة، فإن وجدت منه خيانة محققة، فإنه يقابل بالمثل، ولا يلزم نبذ العهد إليه، لأن الخيانة قد عُلِمت وتحقَّقت، فلا يُوفَّى له عهده ونبذ العهد معناه الإخبار بنقضه.

والآية عامة في الحذر من كل من يتكرر منه نقض العهد، والوفاء لكل من يفي بعهده ووعده، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة].

وقد رتَّب الله نبذ العهد على خوف الخيانة دون وقوعها؛ لأن شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون، ولا يُنتظر تحقق وقوع الأمر المظنون؛ لأن التريُّث في هذه الأمور يعرِّض الأمة للخطر، والتورُّط فيما لا يُحمد عقباه، ولا تُدارُ سياسة الأمة بما يُدار به القضاء في الحقوق؛ لأن مصالح الأمة إذا فاتت تمكن منها عدوها، فلذلك علَّق الله سبحانه نبذ العهد على توقع الخيانة.

ومن أمثال العرب: خذ اللص قبل أن يأخذك. إذا علمت أنه لص[٣].

وعلى ذلك فإن من يُتوقع منه الخيانة ونقض العهود، وعدم احترام المواثيق، وظهرت بوادر ذلك عليهم، فانبذ عهدهم القائم واطرحه جهرًا وعلانية، وصارحهم بأنك نَفَّضْت يدك من عهودهم، وليس بينك وبينهم أمان؛ حتى يستوي الطرفان في العلم بأنه لا عهد بينهم بعد اليوم، فلا تستمر على عهدهم فتكون معاهدًا لمن لا يحبهم الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٣٣) و«زاد المسير» (٣/ ٣٧١).

(٢) «تفسير الفخر الرازي» (١٥/ ١٦٢).

(٣) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٠/ ٥٢).

﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ بل عاملهم بالمثل واطرح عهودهم، بعد علمك من القرائن والأدلة بإضمار الخيانة لك؛ حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء.

فالإسلام يعلِّم أبناءه صيانة العهود وحفظ المواثيق، وألا يبيِّت أحدهم نية الغدر بالآخرين، والله تعالى لا يحب الخائنين لعهودهم، الناقضين لها حتى ولو كان مع الكفار.

كان بين معاوية وبين الروم عهد إلى مدة، فأراد معاوية أن يسير إليهم، حتى إذا انقضت المدة التي بينه وبينهم غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، إن رسول الله ﷺ قال: **«من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلَّنَّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء، قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا الشيخ عمْرو بن عَبَسَة ﷺ**[1].

قال أهل العلم في حكم الآية:

أ - إن الحاكم المسلم إذا ظهر له نقضُ عهدِ العدوِّ ظهورًا مستفيضًا مقطوعًا به فلا حاجة له في نبذ العهد، بل يفعل بهم كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة، لمَّا نقضوا العهد بقتل خزاعة الذين كانوا في ذمة رسول الله ﷺ حيث فاجأهم النبي ﷺ بجيشه على بُعد أربعة فراسخ من مكة، بمرِّ الظهران.

ب - أما إذا ظهرت آثار نقض العهد بأمارات غير مستفيضة وغير مقطوع بها، فعليه أن ينبذ عهدهم ويُعْلِمَهم بالحرب، كما حدث من بني قُرَيْظَة لما تعاونوا مع مشركي مكة على قتال النبي ﷺ بعد عهدهم معه، فخاف من غدْرِهم به وبأصحابه[2].

---

(١) يُنظَر: «المسند» (٤/ ١١١) برقم (١٧٠١٥، ١٩٤٣٦) وأبو داود الطيالسي (١٥٧) برقم (١١٥٥) وأبو داود (٣/ ١٩٠) برقم (٢٧٥٩) والترمذي برقم (١٥٨٠) وقال: حسن صحيح، وهو في «تحفة الأحوذي» (٥/ ٢٠٣) والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٢٣) برقم (٨٧٣٢) وابن حبان (٧/ ١٨٢) و«سنن النسائي» برقم (٨٧٣٢) وصحح الألباني إسناده في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٢٨٥) وقال محققو «المسند»: حديث صحيح بشاهده.

(٢) يُنظَر: «تفسير البغوي» للآية و«الخازن» وغيرهما.

نَصْرُ العَدُوِّ سَحَابَةُ صَيْفٍ

٥٩- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ[١] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ[٢] لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يعدُ الله المسلمين بالنصر، ويهوّن عليهم أمر عدوهم، فيبيّن سبحانه أن غدر الكفار وخيانتهم لن يمنحهم فرصة التفوق والسبق، فلن يترك الله المؤمنين وحدهم، والكفار أضعف من أن يُعجِزوا الله سبحانه، فإن الله لهم بالمرصاد، ولله الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، فلا يظنن ظانٌّ أنهم سبقوا الله فنجَوْا من عقابه، ولا يظن ظانٌّ أنهم سبقوه سبحانه بخيانتهم للمسلمين، بل هم في قبضة الله تعالى، وتحت قهره وتصرفه، ولن يفلتوا من عذابه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت]

وقال سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور: ٥٧]

وقال جلَّ شأنه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ۚ﴾ [آل عمران].

كما أن سبْقهم في السلاح والعتاد لا يعني نصرهم في النهاية.

قيل: إن الآية نزلت فيمن أفْلت من كفار قريش يوم بدر.

والمعنى: لا تظننَّ أن الكافرين بربهم، المكذبين بآياته، أنهم ناجون من عذاب الله، بل هم في قبضته وتحت قهره وقدرته فلا يعجزوه، وهو قادر على إهلاكهم وتعذيبهم في كل وقت، وإن نجاتهم من القتل أو الأسر في الدنيا، لن تنفعهم من العذاب المهين في الآخرة، وهذا على قراءة الياء ﴿يَحْسَبَنَّ﴾.

---

(١) قرأ ابن عامر وحفص وحمزة وأبو جعفر وإدريس بخلف عنه بياء الغيب في (ولا يحسبن) و (الذين كفروا) فاعل، والمفعول الأول محذوف تقديره أنفسهم، و (سبقوا) في محل نصب مفعول ثانٍ، وقرأ الباقون بتاء الخطاب، والمخاطب هو النبي ﷺ دل عليه (الذين عاهدت منهم) و (الذين كفروا) مفعول أول، و (سبقوا) مفعول ثانٍ، وهو الوجه الثاني لإدريس وقرأ ابن عامر وقرأ عاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٢) قرأ ابن عامر بفتح الهمزة من (أنهم لا يعجزون) على إسقاط لام العلة، وقرأ الباقون بكسرها على الاستئناف.

أما على قراءة التاء، فالمعنى: ولا تحسبن أيها الرسول أن الكفار قد سبقونا بخيانتهم لك، أو أفلتوا من عقابنا، وصاروا في مأمن منا فنحن لا يعجزنا شيء.

والمقصود من الآية: قطع أطماع الكافرين من النجاة، وتقنيطهم من الخلاص، فكأنه سبحانه يقول لهم: إن من لم يصبه عذاب الدنيا فسوف يصيبه عذاب الآخرة، لا مفر لهم من ذلك، ما داموا قد استحبوا الكفر على الإيمان، أما المؤمنون فهم في تأييد الله ونَصْرِه في الدنيا ولهم حسن العاقبة في الآخرة.

وهذه الآية تشمل كل ما حدث من خيانة بني قُرَيْظَة، ومن عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول وغيرهم، وهي عامة في جميع المناوئين للإسلام، المتربصين به إلى يوم القيامة.

وُجُوبُ إِعْدَادِ العُدَّةِ المُكَافِئَةِ لِقِتَالِ العَدُوِّ

٦٠-﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ[1] بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ[2] ﴿٦٠﴾﴾

أمر سبحانه في هذه الآية بإعداد وسائل القوة التي ينتصر بها المسلمون على عدوهم، فبعد أن هوَّن الله تعالى من شأن الكافرين، أمر عباده المؤمنين أن يُعِدُّوا العدة لأسباب النصر، بجميع أنواع الأسلحة والآلات البرية والبحرية والجوية، وتقوية الحصون والمعاقل، وتأمين الحدود، وكل ما يمكنكم من عتاد وعُدة، بما يناسب أسلحة العصر الذي تعيشونه من طائرات، ودبابات ورشَّاشات وصواريخ، وترسانة نووية، وأجهزة إنذار مبكر واستطلاع، وغير ذلك من متطلبات العصر؛ كي تُواجهوا عدوكم وتُرعبوه، وتَحْموا جناب التوحيد، وتنشروا دعوة الله في أرضه، وتقاوموا أي عدوان عليكم، وتَصدُّوا كل قوة تعتدي عليكم، وتبذلوا أقصى ما في طاقاتكم من قوة؛ لتكونوا مرهوبين في الأرض، وتُخيفوا من لا تظهر لكم عداوتُهم في الوقت الحاضر.

---

(١) قرأ رويس بتشديد الهاء من (ترهِّبون) مضارع رهَّب المضعف، وقرأ الباقون بتخفيفها، مضارع أرهب.

(٢) قرأ الأزرق عن ورش بتغليظ اللام الثانية وترقيقها من (لا تظلمون)، والباقون بترقيقها.

من معاني القوة في مواجهة العدو:

وقد كانت القوة في صدر الإسلام تتمثل في الرمي ورباط الخيل:

ولذا: **فُسِّرت القوة في الحديث** بأنها الرمي:

١-**«ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»**[١].

٢- وفي حديث سلمة بن الأكوع ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم يتناضلون في السوق -أي: يتسابقون بالرمي-فقال: **«ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا، ارموا وأنا مع بني فلان»** لأحد الفريقين، فأمسَكُوا بأيديهم، فقال: **«ارموا»** قالوا: يا رسول الله كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ قال: **«ارموا وأنا معكم كلكم»**[٢].

٣- وفي حديث عمرو بن عَبَسَة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من رمى العدوَّ بسهم فبلغ سَهْمُه العدو أو أصاب أو أخطأ، فيعْدِلُ رقبة»**[٣].

٤- وعن عمرو بن عَبَسَة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نورًا يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله كان له عِدْلُ رقبة»**[٤].

٥- وفي الحديث عن عقبة بن عامر ﷺ: **«إن الله ﷻ لَيُدخِل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في عمله الخير، والرامي به، ومنبله»**[٥].

---

(١) من حديث عقبة بن عامر، أخرجه أحمد (٤/ ١٥٦) برقم (١٧٤٣٢) إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، (محققوه) ومسلم (٣/ ١٥٢٢) برقم (١٩١٨) وفيه الجملة الأخيرة ثلاثًا، وهو في «سنن أبي داود» برقم (٢٥١٤) و«سنن ابن ماجه» (١٣/ ٢٨) برقم (٢٨١٣) وفي «سنن الترمذي» برقم (٣٠٨٣) والطبري (١١/ ٢٤٥) وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٢٢)و أبو يعلى (١٧٤٣) وابن حبان (٤٧٠٩).

(٢) البخاري (٢٨٩٩، ٣٣٧٣، ٣٥٠٧) و«المسند» (١٦٥٢٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٣٢٦٤).

(٣) صحيح «سنن ابن ماجه» (٢٢٦٨) والحاكم (٢/ ٩٦)، وابن ماجه (٢٨١٢) والتعليق الرغيب (١٧٧٢).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٤، ٩٥٤٤) وقال محققو «المسند» (٢٨/ ٢٤٢): برقم (١٧٠٢٠، ١٧٠٢٢) وهو حديث صحيح بنحوه، وأخرجه أبو داود (٣٩٦٦) والنسائي في الكبرى (٤٣٥٣) وابن ماجه (٢٨١٢) والحاكم (٢/ ٩٦) والطبراني في الأوسط (٣١٨٩).

(٥) أخرجه أبو داود عن عقبة بن عامر برقم (٢٥١٣) وابن ماجه (٢٨١١) والحاكم (٢/ ٩٥) والبيهقي في «الشعب» (٤٣٠١) وقد ضعَّف الألباني إسناده في ضعيف «سنن أبي داود» (٥٤٠) وفيه زيادة.

٦- وعن عطاء بن أبي رباح أن جابر بن عبد الله، وجابر بن عمير الأنصاري ﷺ كانا يرتميان فملَّ أحدهما فجلس، فقال الآخر: كسِلْتَ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كل شيء ليس من ذكر الله فهو لهو وسهو إلا أربع خصال: مشْيَ الرجل بين الفرَضَيْن، وتأديبَ فرسه، وملاعبتَه أهله، وتعليمَ السباحة»**[1].

٧- وعن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهو في ثلاثٍ: تأديبك فرسك، ورميِك بقوسك، وملاعبتك أهلك»**[2]. وهذا من اللهو المباح الذي حث عليه الإسلام.

وكل لهو باطل، وليس من اللهو: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه، وتفسير القوة بالرمي: هو على سبيل المثال؛ لأن الرمي كان في ذلك الوقت أقوى ما يُتقوَّى به في ساحة القتال، وهو لا ينفي اعتبار غيره من أنواع القوة، كما قال ﷺ: **«الحج عرفة»**[3] فهو لا ينفي سائر أعمال الحج.

ولفظ: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يشمل كل عدو للإسلام وأهله في كل زمان ومكان.

وسئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر فقال: **«ما أنزل الله عليَّ فيها شيئًا إلا هذه الآية الجامعة الفذَّة** ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾»[4] [الزلزلة].

رباط الخيل:

وقد وردت **أحاديث كثيرة في الخيل ورباطها** في سبيل الله لجهاد العدو، من ذلك:

---

(١) النسائي في الكبرى (٨٩٣٨- ٨٩٤٠) والبزار في «الكشف» (١٧٠٤) والطبراني في «الكبير» (١٧٨٥) وفي «الأوسط» (٨١٤٧) والبيهقي (١٠/ ١٥) و«السلسلة الصحيحة» (٣١٥).

(٢) «صحيح الجامع» (٥٣٧٤).

(٣) من حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر الديلي في «سنن الدارقطني» برقم (٢٥١٦، ٢٥١٧) وأبي داود (١٩٤٩) وابن ماجه (٣٠١٥) والترمذي (٨٨٩) والنسائي (٥/ ٢٥٦) وأحمد (٣٠٩، ٣٣٥)، وهو في صحيح سنن ابن ماجه (٢٤٤١) وصحيح سنن أبي داود (١٧٠٣) وصححه الألباني أيضًا في إرواء الغليل (١٠٦٤) ومشكاة المصابيح (٢٧١٤).

(٤) البخاري برقم (٢٣٧١، ٣٦٤٦، ٤٦٥٩) ومسلم برقم (٩٨٧) واللفظ له عن أبي هريرة، و«الموطأ» (٢/ ٤١٤) من طرق متعددة.

١- ما رواه عروة بن أبي الجعد البارقي أن رسول الله ﷺ قال: **«الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»**(١).

٢- وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أنها: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فهي أجر لمن ربطها في سبيل الله، وهي ستر لرجل ربطها تعفُّفًا ولم ينس حق الله فيها، وهي وزر على رجل ربطها فخرًا ورياء(٢).

٣- وفي حديث أبي هريرة أيضًا **«ومن احتبس فرسًا في سبيل الله، فإن شِبَعَهُ وَرِيَّهُ ورَوْثَه وبَوْلَهُ في ميزانه يوم القيامة حسنات»**(٣).

ولفظ ﴿قُوَّةٍ﴾ في الآية عام في القوة المعنوية والمادية، والعقلية والبدنية والاقتصادية والعسكرية، وكل قوة تجدُّ وتحدُث في كل عصر ومصر، ومنها رباط الخيل لإرهاب العدو، وكل من تسوَّل له نفسه قتال المسلمين.

وخُصَّت الخيل بالذكر؛ لأنها كانت الأصل في الحروب سابقًا، وهي التي عُقد في نواصيها الخير، وفي ذلك تشريف لها وتعظيم لشأنها، ويقاس عليها أعظم القوى في الوقت المعاصر، وفي كل عصر ومصر إلى قيام الساعة.

فأعدوا لقتال عدوكم ما تستطيعون إعداده من وسائل القوة على اختلاف أصنافها وألوانها؛ لاتِّقاء بأس العدوِّ وهجومه، وللدفاع عن الدين والوطن والمقدسات، ولإزالة العقبات من طريق نشر الدعوة، وللدفاع عن المسلمين المستضعفين في أرجاء المعمورة، ولتحرير ما هو محتلٌّ من بلاد المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة]

---

(١) في «صحيح البخاري» برقم (٢٨٥٠، ٢٨٥٢) و«فتح الباري» (٦/٦٦)بزيادة على هذا في«المعجم الكبير» للطبراني (٦/٩٨) وهو في مسلم (١٨٧٣) والترمذي (١٦٩٤) والنسائي (٣٥٧٦) وفي «الكبرى» (٤٤١٦) وابن ماجه (٢٧٨٦).

(٢) يُنظَر الحديث في: «الموطأ» (٢/٤١٤) عن أبي هريرة والبخاري (٢٣٧١، ٧٣٥٦) ومسلم (٩٨٧) والبيهقي في «الشعب» (٤٣٠٤).

(٣) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٢٨٥٣) والنسائي (٣٥٨٤) وفي «الكبرى» (٤٤٢٣) والحاكم (٢/٩٢) والبيهقي (١٠/١٦).

وقال سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة] وذلك لأن القتال في الإسلام يكون لرد العدوان ولحماية الدعوة من التطاول عليها من كل عدوٍّ للمسلمين واضح العداوة، وأخذ الأهبة والحيطة لحالات المباغتة والمفاجأة من كل من يتربص بنا، كما أشار إليهم ربنا في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

الجهاد بالمال:

والجهاد في سبيل الله يكون بالنفس والمال واللسان، كما جاء في الحديث عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»[1].

وإعداد العدة لحرب العدو، يحتاج إلى الجهاد بالمال.

ولذا: فقد ختمت الآية بالحث على الجهاد بالمال، والجهاد بالمال جاء في القرآن مقارنًا للجهاد بالنفس في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

والذين يبذلون أموالهم للدفاع عن الإسلام وأهله يُخْلِفُه الله عليهم في الدنيا، ويدَّخر لهم ثوابه في الآخرة أضعافًا مضاعفة، ولا ينقصون شيئًا من أجورهم.

ومَثَلُهم: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] والإنفاق في سبيل الله يعني: الجهاد والغزو بالدرجة الأولى، وهو عام بعد ذلك في جميع وجوه الخير والبر.

---

(١) «المسند» (١٢٢٤٦، ١٢٥٥٥، ١٣٦٣٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات، وأخرجه أبو داود (٢٥٠٤) والنسائي في الكبرى (٣٠٩٦، ٣١٩٢) والحاكم (٢/ ٨١) و«صحيح سنن أبي داود» (٢١٨٦). والضياء في المختار (١٩٠٥) والدارمي (٢٤٣١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

إِجَابَةُ العَدُوِّ إِلَى طَلَبِ السَّلَامِ وَإِنْ كَانَ يُضْمِرُ شَرًّا

٦١-﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ[1] فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾

لَمَّا أمر الله المؤمنين بإعداد العدة، ومحاربة العدو إذا هو نقض العهد، وظهرت عليه أمارات الخيانة، وأمرهم أن يقاتلوه، ردًّا للعدوان، وتطهيرًا للأرض من الظلم والطغيان، وضمانًا لحرية الدعوة، ونشرًا للإسلام، وصيانة للعزة والكرامة.

فإنْ مال العدو المقاتل إلى السلم، وسأل الصلح وترك القتال، وكان هناك مصلحة ظاهرة للمسلمين في هذا الصلح، فإنه يجوز للحاكم المسلم أن يصالح الكفار، وأن يهادنهم مدة معينة، يكون فيها مصلحة راجحة للمسلمين، سيما إن كان هو البادىء بالعدوان.

ومن المصلحة في ذلك: أن يتم استعدادكم وجمْع قواكم، واستحضار آلات الحرب المكافئة لملاقات العدو في أية لحظة، ومن المصلحة ترغيب الناس في الإسلام بحسن التعامل، وعدم الرغبة في القتال.

فمعنى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ أي: إنْ مال العدو إلى الصلح، ورغِب في مسالمتكم، فميلوا إلى ذلك.

وفوِّض أمرك إلى الله -أيها الحاكم المسلم- وثِقْ بعونه ونصره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم ونيَّاتكم.

وكان النبي ﷺ قد عقد صلحًا مع اليهود والمشركين أول مَقْدمِه المدينة، وعقد صلح الحديبية مع مشركي قريش على وضع الحرب بينهما عشر سنوات، سنة ست للهجرة.

أصناف الناس بالنسبة للإسلام: ولما نزلت سورة براءة سنة ثمان من الهجرة، تضمَّنت أن الناس بالنسبة إلى الإسلام **أصناف ثلاثة**:

أ- **مسلمون** تحكمهم شريعة الله، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

ب- **مُحاربون**، يُحارِبون ردًّا للعدوان، وضمانًا لحرية العقيدة، وحماية للأوطان والمقدسات.

---

(١) قرأ شعبة بكسر السين من لفظ (السِّلم)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

ج - **أهل ذمة**، إذا استقاموا على عهدهم، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من حقوق وواجبات، بما في ذلك من المشاركة في حماية الأوطان ودفع ما يفرضه الحاكم على المواطنين من أموال وغيرها.

الجزية: ومعلوم أن الجزية لم تفرض إلا بعد السنة الثامنة من الهجرة، بمقتضى قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

وهذه الجزية فرضها الإسلام على أهل الكتاب المقيمين في بلاد المسلمين، مقابل الانتفاع بالمرافق العامة، وانتفاعهم بالأمن والدفاع عن الوطن، دون مشاركتهم في ذلك، فإذا انخرطوا في الجيش، وساهموا في الحفاظ على الأمن، ودفعوا ما عليهم من ضرائب للدولة، فلا جزية عليهم والحالة هذه.

وقد كان النبي ﷺ إذا بعث بعثًا أمره أن يعرض الإسلام على القوم، فإن أجابوه، وإلا دفعوا الجزية، فإن أبوا فليقاتلهم.

عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على سريَّة أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا، وقال: **«اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيتَ عدوَّك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوك إليها، فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار الإسلام، فإن أبوْا فأعلمهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، وليس لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوْا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أبوْا فاستعن بالله وقاتلهم»**[1].

---

(١) يُنظَر الحديث في: «صحيح مسلم» (١٧٣١) و«المسند» (٢٢٩٧٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم، واللفظ له مع تصرف يسير، وقد ورد هذا الحديث بطرق شتى مطولًا ومختصرًا، انظر: أبا داود (٢٦١٢) والترمذي في «العلل الكبير» (٢/ ٦٩٣) وابن عبد البر في «التمهيد» (٢/ ٢١٧) والبغوي (٢٦٦٨) وابن ماجه (٢٨٥٨) والنسائي في «الكبرى» (٨٧٦٥) وابن أبي شيبة (٩/ ٤٢٤) وغيرهم.

فرق بين طلب الصلح وبين الموافقة عليه:

وليس في هذه الآية نسخ ولا منافاة، ولا تخصيص لغيرها، فهي آية عامة في كل عدو للإسلام وأهله، وهي تقرر مبدأ عامًّا هو إجابتهم إلى الهدنة والمسالمة، إن هم طلبوا ذلك، وكان فيه مصلحة راجحة للمسلمين.

ولا يجوز للمسلمين أن يطلبوا الصلح مع العدو، إذا كانوا في مركز قوة؛ لأن فيه وَهَنًا وضعفًا لهم أمام عدوهم، وقد نهى الله تعالى عن ذلك كما جاء في قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾[محمد].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران].

فهناك فرق بين إجابة العدو إلى السلم، وبين طلبه منه، فإن كانت قوة العدو عشرة أضعاف قوة المسلمين عددًا وعدة، جاز لهم مهادنة العدو؛ حتى يستعيد المسلمون قوتهم ويتأهَّبوا للقاء العدو.

عن علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه سيكون بعدي اختلاف، فإن استطعت أن تكونَ السِّلْمَ فافعل**»[1].

وهذه الآية عامة في كل من ناصب الإسلام العداء، من أي ملَّة أو نحلة، فتجوز إجابتهم إلى السلم والهدنة، في وقت معين لظرف معين، ولا يقتضي استمرار الهدنة معهم إذا كانوا معتدين مغتصبين لأرضنا، بل الهدنة تكون إلى أن يشتد عود المسلمين وتقوى شوكتهم، أو يذهب الجيل المتخاذل ويأتي جيل آخر، ويعيش الناس أحرارًا في دينهم وأوطانهم.

والحاكم المسلم هو المخوَّل بالنظر إلى ما فيه صلاح الإسلام وأهله من سلم أو حرب.

فإن أراد أعداء الإسلام المهادنة وكانوا أقوياء لا نستطيع منازلتهم، فلا مانع من ذلك.

وقد أمر سبحانه بالتوكل عليه عند الأمر بالجنوح إلى السلم؛ ليكون المسلم مفوضًا أمره

---

(١) زوائد «المسند» (١/ ٩٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣٤): رجاله ثقات وهو في «المسند» برقم (٦٩٥) إسناده ضعيف، لأن فيه فضيل بن سليمان وإياس بن عمرو متكلّم فيهما. (محققوه).

إلى الله، معتمدًا عليه في جميع شؤونه؛ ولتكن مدة السلم مدة تقوية واستعداد، حتى يكفيه الله شر العدو إذا نقض العهد.

وقد ذكَّر الله سبحانه في نهاية الآية بأنه سميع لكلامهم في العهد، عليم بما في ضمائرهم، فهو يعاملهم بما يعلم منهم.

والتوكل على الله يكون مع بذل الجهد في الأخذ بأسباب النصر والقوة.

ولا يخفى أن الجنوح إلى السلم يكون في حالة تحقيق مصلحة المسلمين، فإذا كان المسلمون في قوة وعزة ومنعة فلا يلزم إجابة العدو إليه.

وقد صالح النبي ﷺ أهل خيبر، وصالَح أُكيدر دَومة، وصالَح أهل نجران، وهادن قريشًا لعشرة أعوام حتى نقضوا العهد، ووادع الضَّمْري.

ولا بأس أن يبتدئ المسلمون بطلب الصلح إذا كان في هذا جلب منفعة لهم، أو دفع مضرة عنهم، يدل على ذلك أن النبي ﷺ همَّ بمصالحة عُيَيْنة بن حصين ومَن معه، على أن يعطيهم نصف ثمار المدينة، ثم عدَل النبي ﷺ عن ذلك بعد أن قال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ في جماعة الأنصار: لا نعطيهم إلا السيف.

فقبول الهدنة أو المبادرة بها يكون عند اقتضاء حال المسلمين، وحاجتهم إلى تجديد أمورهم، وترشيد قوتهم، ولا يخشى المسلمون من الصلح إلا في حالة ما إذا كان الكافر يقصد خداعهم، وانتهاز الفرصة فيهم، وفي هذه الحالة أخبر الله سبحانه بأنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ضرر ذلك سيعود عليهم، قال تعالى:

٦٢- ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

أعلم الله رسوله بأن العدوَّ قد يطلب الصلح ليخدع المسلمين، ثم يأخذهم على غِرَّة، فإذا أظهر العدوُّ ميله إلى السلم ورغبته فيه، فعلى المسلمين أن يحذروا، ويمضوا في طريق الصلح أيضًا أخذًا بالظاهر؛ لأن مبادئ الإسلام تقتضي ذلك، فإن كان يضمر لنا خيانة وخداعًا، فإن الله تعالى قد تكفَّل لمن وفَّى بعهده أن يقيه شر الخائنين، فهو كافيه وناصره، كما نصر المسلمين وهم ضعفاء في مواطن كثيرة فأن ظهرت لنا قرائين الخيانة أعلمناهم بالحرب عليهم عملاً بالآية ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨].

وهكذا أمَّن الله المسلمين من خداع أعدائهم الذين يُبيِّتون الغدر بالمسلمين من وراء الجنوح للسلم، فإن كان هؤلاء الذين جنحوا للسلم، يريدون المكر بك، وأخذك على غرة وخيانة، فإن الله كافيك مكرهم ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي كافيك ما يؤذيك ويؤذي المؤمنين.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ ﴾ أي: أمدك ﴿ بِنَصۡرِهِۦ ﴾ وأعانك وقوَّاك بالأسباب الباطنة غير المعلومة ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: وأيدك أيضًا بالأسباب الظاهرة المعلومة وهي تأييد المؤمنين لك من مهاجرين وأنصار، والخطاب في الآيات للنبي ﷺ وقت التنزيل، وهو لجميع قادة المسلمين بعده إلى قيام الساعة. قال تعالى:

٦٣-﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾

وهو سبحانه الذي جمع بين قلوب عباده بعد التفرق ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ بعد الحمية والعصبية، والقبلية والضغينة، والعداوة التي استمرت بين الأوس والخزرج في حروب بُعاث مئة وعشرين سنة، لا يكاد يأتلف منهم قلبان، فلما بُعِث ﷺ وهاجر إلى المدينة انقلبت تلك الحال، فتحول البغض إلى حب، والتخاصم إلى مودة، والتفرق إلى اتحاد، فاجتمعوا وائتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، وصاروا كالنفْس الواحدة بعد أن كانوا متنازعين متفرقين، فوحَّدهم الله، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين فائتلفت قلوبهم، وأُبدِلت تلك العداوة بالمحبة والمودة والألفة، وكانت عداوتهم قد بلغت مبلغًا بحيث ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ من الأموال والمتاع ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ بعد تلك النّفرة والفرقة الشديدة، ولم يكن هذا بسعى أحد ولا بقوة أحد، إنما هو بقدرة الله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بفضله ورحمته، فجمع بين قلوبهم، ووحد كلمتهم، وأزال ما بينهم من ضغائن وأحقاد بقدرته تعالى، معجزة لرسول الله ﷺ.

قال القرطبي: وكان تأليف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب، من آيات النبي ﷺ ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يُلطَم اللطمة فيقاتِل عليها، وكانوا أشد خلق الله حميَّة،

فألف الله بينهم بالإيمان حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين[١].

أحاديث في معنى الآية:

١-وفي الحديث عن عبد الله بن زيد بن عاصم أن النبي ﷺ قال: **«يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلَّالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي»**[٢].

وفي هذا دليل على أن الألفة والمحبة تحصل بسبب الإيمان واتباع الرسول ﷺ، ولهذا قال ابن مسعود: نزلت هذه الآية في المتحابين في الله إذا تراءى المتحابان فتصافحا وتضاحكا تحاتتْ خطاياهما[٣].

٢-وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«المؤمن مألَفٌ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»**[٤].

٣-وعن سلمان الفارسي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتَتْ عنهما ذنوبهما كما يتحاتُّ الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحر»**[٥].

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وبعزته يَقْهَرُ من يخدعونك، وبحكمته ينصر من يتبعونك.

وبهذه الوحدة يذكِّر الله عباده بهذه النعمة العظيمة فيقول: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٨/ ٥٣).

(٢) البخاري برقم (٤٣٣٠) انظر: (٧٢٤٥) كتاب المغازي ومسلم (٣/ ١٠٨) برقم (١٠٦١) كتاب الزكاة من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٥٤٨) أخرج النسائي إلى (في الله) في «السنن الكبرى» برقم (١١٢١٠) وصححه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٢٩) وورد شطره الثاني عن مجاهد في «تفسير الطبري» (١٤/ ٤٦).

(٤) «المسند» (٩١٩٨) والطبراني في الأوسط بإسناد حسن (٥٧٨٣) والحاكم (١/ ٢٣) والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٣٦) وفي الشعب (٨١١٩) والبزار (٣٥٩١) كشف الأستار.

(٥) «المعجم الكبير» للطبراني (٦/ ٢٥٦) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٣٧): رجاله رجال الصحيح غير سالم بن غيلان، وهو ثقة.

ثم وعد الله عباده المؤمنين المتبعين لرسوله بالكفاية والنصر على الأعداء فقال:

٦٤-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾

وتمضي الآيات فتثبِّت قلوب المؤمنين، وتبيِّن أن الله تعالى كافيهم وناصرهم على عدوهم، وتبيِّن أن القلة منهم تغلب الكثرة بإذن الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي: إن الله كافيك وكافي الذين معك من المؤمنين شر أعدائكم، وناصرك ومؤيدك على أعدائك وإن كثر عددهم وقلَّ عددكم، والواو من ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمعنى: مع، أي: أن الله يكفيك ويكفي من اتبعك، فلا يحتاجون إلى أحد غير الله، ومن كان الله حسبه وكافيه فليس بحاجة إلى نُصرة أحد، لا من المؤمنين، ولا من غيرهم.

وقد نزلت هذه الآية بالبيداء قبل القتال في غزوة بدر، وكان عدد المسلمين الذين نصرهم الله في هذه الغزوة ثلث عدد الكفار، وكانت القوة وقتها بكثرة العدد، فقد قوَّى الله رسوله، ونصره في بدء الدعوة، ونصره حين أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلًا، وست نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله عن الجميع، وكفاه الله شر مشركي مكة، وفي هذا المعنى أنزل الله هذه الآية[(١)].

وفي رواية أخرى أنه لما أسلم تسعة وثلاثون رجلًا وامرأة، ثم أسلم عمر فصاروا أربعين، فنزلت الآية[(٢)].

وهكذا ينصر الله المؤمنين في كل زمان ومكان، إن نصروا دين الله، وحققوا شرط الإيمان، والإخلاص في العقيدة، واتباع سيد المرسلين ﷺ، وأعدوا العدة المكافئة لعُدة عدوهم.

مَتَى يَثْبُتُ المُؤْمِنُ أَمَامَ العَدُوِّ؟

٦٥-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ

(١) جاء هذا عن سعيد بن جبير عند ابن أبي حاتم (١٧٢٨/٥).

(٢) جاء هذا عن ابن عباس عند الطبراني (١٢٤٧٠) وأبو الشيخ وابن مردويه.

﴿وَإِن يَكُن[1] مِّنكُم مِّائَةٌ[2] يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

هذا أمر بتحريض المؤمنين وحثهم على الجهاد في سبيل الله، لتقوى عزائمهم وتنشط هممهم، بعد الأمر بإعداد العدة وتهيئة النفوس للجهاد، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ أي حُثَّهم على قتال عدوهم، فرغِّبهم فيه، وزيِّنه لهم، وزهِّدهم في الدنيا، واذكر لهم فضائل الشجاعة والصبر، ومضار الجبن والتخاذل، وما يترتب على ذلك من خيري الدنيا والآخرة:

كما قال ﷺ لأصحابه يوم بدر حين صفَّهم للقتال: **«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»** فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟ قال: **«نعم»** قال عمير: بخ بخ، فقال ﷺ: **«ما يحملك على قولك: بخ بخ»** قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال ﷺ: **«فإنك من أهلها»** فتقدم الرجل، فكسر جفْن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيَّتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن، إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ﷺ[3].

والخطاب موجه لكل قائد مسلم بأن يُحرِّض جنوده على مواجهة العدو ومناجزته، **والتحريض** هو: المبالغة في الحث والطلب ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ﴾ على شدائد الحرب ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ من أعدائهم، - الواحد من المسلمين مقابل عشرة من الكفار - فقاتلوا أعداءكم - أيها المؤمنون - بشجاعة وإقدام، وصبْر واحتساب، وإن قل عددكم وعدتكم، وكثُر عددهم وعدتهم، فإن قوة الإيمان، وطلب الشهادة تصنع العجائب، وفي هذا بشرى بنصر أهل الإيمان القويِّ، المتصلين بربهم جلَّ وعلا، وإن زاد عدوُّهم عليهم في عدده وعدته عشرة أضعاف.

وقد قيَّد القرآن هذا النصر بالصبر والثبات والاحتساب فقال: ﴿عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ﴾.

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بياء التذكير في (يكن)، والباقون بتاء التأنيث؛ لأن تأنيث (مائة) مجازي، وللفصل بينهما بشبه الجملة، أما (يكن) التي قبلها فليس فيها إلا التذكير.

(٢) أبدل أبو جعفر الهمزة من (مائة) و (مائتين) ياء خالصة وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بتحقيق الهمزة.

(٣) يُنظَر: «صحيح مسلم» (٣/ ١٥١١) برقم (١٩٠١) من حديث أنس ﷺ.

و﴿مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ ووصف الكفار ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أن أعداءكم لا يقاتلون لطلب ثواب من الله وخوف من عقابه، بل يقاتلون من أجل العلُوّ في الأرض والفساد فيها، وأنتم تقاتلون لإعلاء كلمة الله، وحصول الفوز العظيم عند الله.

ومقابلة العشرين بالمئتين، والمئة بالألف؛ لزيادة الاطمئنان، وبيان أن النصر للقلة المؤمنة الصابرة، لا يختلف ولا يتغير مع قلة العدد وكثرته، وفي الآية وعد كريم من الله تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم.

ثم أنزل الله تعالى يخفف عن المؤمنين هذه المعادلة، فقال:

٦٦-﴿الْآنَ[(١)] خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا[(٢)] فَإِن يَكُن[(٣)] مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

ونسبة واحد إلى عشرة هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين والكافرين، وفي أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة تكون: واحدًا إلى اثنين، فالواحد لا يفر أمام العشرة في حالة القوة، ولا يفر الواحد أمام الاثنين بحال.

فالحالة الأولى: بمثابة العزيمة. **والحالة الثانية**: بمثابة الرخصة.

وإعمال الآية أولى من إهمالها، أو القول بالنسخ،

وذهب بعض المفسرين إلى أن ثبوت الواحد للعشرة إنما كان على جهة ندب المؤمنين إليه، ثم حطَّ ذلك عنهم حين ثَقُل عليهم، إلى ثبوت الواحد للاثنين[(٤)].

---

(١) قرأ ورش وابن وردان بخلف عنه بنقل حركة همزة (الآن) إلى اللام قبلها مع حذف الهمزة، والباقون بعدم النقل ومعهم ابن وردان في الوجه الثاني، وقرأ الأزرق عن ورش بالقصر والتوسط والطول في مد البدل.

(٢) قرأ أبو جعفر بضم الضاد وفتح العين والفاء بعدها ألف، وبعد الألف همزة مفتوحة من غير تنوين في لفظ (ضعفاء) جمع ضعيف، وقرأ عاصم وحمزة وخلف العاشر بفتح الضاد وسكون العين والتنوين (ضَعْفًا)، وقرأ الباقون مثل هذه القراءة إلا أنهم ضموا الضاد (ضُعْفا) وهما مصدران بمعنى واحد، وقيل: الفتح في العقل والرأي، والضم في البدن.

(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بالتذكير في (فإن يكن)، والباقون بالتأنيث، وليس في (يكن) التي بعدها إلا التذكير.

(٤) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٥٥٠).

وفي البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: لما نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ كُتب عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ولا عشرون من مئتين، ثم نزلت ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ فكُتب ألا يفر مئة من مئتين[1] فلفظ (عنكم) يدل على أنه كان عزيمة لا ندبًا.

وإذا كان الله مع الصابرين بعونه ونصره وتأييده وقوته، فاحرصوا أن تكونوا منهم أيها المسلمون، لتنالوا السعادة في الدنيا والآخرة؛ لأن من كان الله معه لا يُغلب.

وفي الآية ترغيب في الثبات، وتبشير بالنصر، بشرط الصبر والثبات عند اللقاء.

وليس في ذكر المئة مقابل المئتين، ما يُغني عن ذكر الألف مقابل الألفين، إذ ليس بينهما تكرار؛ لأن المئة قد لا تغلب المئتين، ولا الألف يغلب الألفين، ويقال مثل ذلك في الآية قبلها.

وهكذا: فقد أمر الله المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد في ساحة القتال لا يجوز له أن يفر أمام العشرة من غير المسلمين، ثم خفف عنهم ذلك بأنه لا يجوز فرار الواحد من المسلمين أمام الاثنين من غيرهم، فإن زادوا على المثلين في العدد والعدة جاز لهم الفرار، وقد جاء الأمر بلفظ الخبر في الآية: تقوية لقلوب المؤمنين، وبشرى لهم بأنهم سيغلبون الكافرين، وفي تقييد العدد بالصبر، حث لهم على الشجاعة والصبر.

عِتَابُ اللهِ لِلمُؤْمِنِينَ فِي شَأْنِ أُسَارَى بَدْرٍ

٦٧- ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ[2] لَهُۥٓ أَسْرَىٰ[3] حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

هذه الآية تتضمن عتابًا من الله ﷻ إلى أصحاب النبي ﷺ على رأيهم في شأن أُسَارَى

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٤٦٥٢، ٤٦٥٣) والنحاس في ناسخه ص (٤٧٠) والبيهقي في «السنن» (٧٦/٩).

(٢) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بتاء التأنيث في (أن يكون) مراعاة لمعنى جماعة الأسرى، وقرأ الباقون بياء التذكير، مراعاة لمفرد الأسرى، وهو أسير.

(٣) قرأ أبو جعفر (له أُسَرَى) بضم الهمزة وفتح السين وألف بعدها (أُسارى)، والباقون بفتح الهمزة وإسكان السين من غير ألف (أَسْرَى) وهما جمع أسير.

بدر، حيث أسَر المسلمون سبعين من المشركين، وأبقوهم في الأسْر لأجل الفداء، وكان رأي عمر ﷺ قَتْلَهم واستئصالهم، وذلك أن الإسلام يهدف إلى قوة المسلمين وإضعاف شوكة أعدائه بأي سبيل من السبل، وكان رأى أبي بكر ﷺ أخذ الفدية منهم مقابل فك أسرهم.

قصة أساري بدر: وفي غزوة بدر لمَّا قُتل سبعون من المشركين، وأُسر سبعون منهم جيء بهؤلاء الأسرى إلى النبي ﷺ فجمع صلوات الله وسلامه عليه كبار أصحابه: أبا بكر، وعمر، وعليًّا، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن معاذ، وأخذ يستشيرهم في شأن هؤلاء الأسرى ماذا يفعل بهم؟ حيث لم ينزل في شأنهم حتى هذه اللحظة حُكْم من الله سبحانه.

١- فأشار أبو بكر ﷺ على النبي ﷺ قائلًا: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، اسْتَبْقِهِم؛ لعل الله يتوب عليهم، وخُذْ منهم الفدية نتقوَّى بها على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فيكونوا لك عضدًا، وقد مال النبي ﷺ إلى هذا الرأي.

٢- وقال عمر: يا رسول الله، هؤلاء صناديد الكفار وأئمتهم كذبوك، وكفروا بك، وأخرجوك من ديارك وقاتلوك، فالرأي عندي أن تُمكِنَني من فلان -قريب له-وتمكن عليًّا من (عقيل) فيقتله، وأن تمكن (حمزة) من (العباس) فيقتله حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، وكان العباس عم النبي ﷺ ضمن الأسرى.

٣- وقال عبد الله بن رواحة: انظر واديًا كثير الحطب، فأضرِمْه نارًا ثم ألْقِهم فيه. فقال ﷺ: «**إن الله لَيُلَيِّنُ قلوب رجال حتى تكون ألْين من اللبن، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، ثم قال ﷺ: مثلُك يا أبا بكر، كمثل إبراهيم ﷺ حين قال:** ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم]

وكمثل عيسى ﷺ حين قال عن قومه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة].

ومثلُك يا عمر، كمثل نوح حين قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

وكمثل موسى حين قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وأخذ النبي ﷺ برأي أبي بكر، فقبل منهم الفداء.

فلما كان من الغد، جاء عمر، فوجد النبي ﷺ وأبا بكر يبكيان، قال: ما يبكيك يا رسول الله، لعلي أبكي معكما إذا عرفتُ السبب، أو أتباكى كبكائكما إن لم أجد بكاء، فقال النبي ﷺ: **«أبكي للذي عرض عليَّ أصحابُك من الفداء، وقد كان عذابهم أقرب إليَّ من هذه الشجرة»**، وأشار إلى شجرة قريبة منه، فأنزل الله سبحانه هذه الآية من سورة الأنفال يَذْكُر فيها رأي عمر ومن معه، ويترك رأي أبي بكر الذي مال إليه النبي ﷺ.

ويبيِّن الله ﷻ أن المسلمين في هذه المرحلة، ما دام عددهم قليلًا وعدد الكفار أكثر، فإن الواجب عليهم إضعاف شوكة المشركين بالإكثار مِنْ قتلهم؛ حتى يقْوى المسلمون، وتقْوى دعوتهم إلى الله ﷻ[1].

إذ ربما أضمر المشركون بعد رجوعهم إلى مكة أن يتأهَّبوا لقتال المسلمين فيما بعد، أو يعودوا لقتالهم من موضع قريب، فينقلب انتصار المسلمين إلى هزيمة، كما حدث يوم أُحُد، ولأجل هذا أنزل الله التخيير في شأن الأسرى.

قال ابن العربي: روى عبيدة السلماني عن علي ﷺ، أن جبريل أتى النبي ﷺ يوم بدر فخيره بين أن يُقرِّب الأُسَارى فيضرب أعناقهم، أو يَقْبَل منهم الفداء، ويُقْتل منكم في العام المقبل بعدَّتهم، فقالوا: يا رسول الله، نأخذ الفداء، فنقْوى على عدونا، ويُقتل منا في العام المقبل بعدَّتهم، ففعلوا»[2].

(١) يُنظَر نص الحديث عن ابن مسعود ﷺ في «المسند» (١/ ٣٨٣) برقم (٣٦٣٢) قال محققوه: وفي إسناده ابن عبدالله بن مسعود لم يسمع من أبيه، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأبي داود برقم (٢٦٩٠) والترمذي (٢/ ١٣٤) برقم (١٧١٤، ٣٠٨٤) وحسّنه والطبري (١٤/ ٦٣) وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠٢٥٧) و«المستدرك» (٢/ ٣٢٩) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا ابن أبي شيبة (١٢/ ٤١٧). ولبعضه شاهد من حديث عمر في صحيح مسلم (١٧٦٣).

(٢) صححه الحاكم على شرط الشيخين، يُنظَر: «المستدرك» (٢/ ١٤٠) والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٣٩) ورواه الطبري في تفسيره مرسلًا (١٤/ ٦٧) وانظر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٠/ ٧٢) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٨٩) من طريق سفيان الثوري عن ابن سيرين.

والكلام في الآية موجه للذين أشاروا بالفداء، وليس موجهًا إلى النبي ﷺ؛ لأنه لم يفعل إلا ما أُمر به من مشاورة أصحابه لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] يدل عليه قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ فإن الذين أرادوا عرض الدنيا هم الذين أشاروا بالفداء.

وقد أنكر الله على رسوله أن يمُنَّ على الأسرى بإطلاق سراحهم؛ لأن هذا ينافي الغاية، وهي ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فتعيَّن أن يكون المقصود قتل الأسرى نظرًا لضعف المؤمنين وقوة المشركين.

والإثخان معناه: حتى يتمكن سلطانه وأمره في الأرض، ويكثر من جراح العدو، وتكون له الغلبة عليه، وحَصْد شوكته وقوته كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وهو مسلك سياسي عارض، يخالف ما بُني عليه الإسلام من التيسير والرفق.

والآية تعتب على المسلمين أنهم آثروا الفداء على القتل، والإثخان في الأرض، فقد كان الأولى بهم أن يبالغوا في قتل أعدائهم، ولا يقبلوا منهم فداء؛ حتى يُذِلّوهم ويُعجِزوهم عن معاودة الكرة.

وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: على أن الحاكم مخيَّر بين ثلاثة أشياء:

١-القتل، كما حدث لبني قُرَيْظَة.

٢-أو الفدية بالمال، كما حدث لأسرى بدر، أو الفدية بأسرى المسلمين، كما حدث للجارية وابنتها اللتيْن كانتا في سبْي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما، وأخذ في مقابلَيْهِما من المسلمين الذين كانوا في أسر المشركين.

٣- وإن شاء الحاكم استرقَّ الأسْرى وأبقاهم عنده.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ هذا نفي بمعنى النهي، معناه: ما ينبغي، ولا يستقيم، ولا يصح لنبي أن يحبس الأسرى من الكفرة، ويستبْقيهم عنده ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُكثر من جراح الأعداء، ويغلبهم ويقهرهم؛ ليُدْخِل الرعب في قلوبهم ويوطِّدَ دعائم الدين؛ حتى يقوى جانب الإسلام، ويضعُف جانب المشركين.

قال سبحانه لجمهور من شارك في غزوة بدر من المسلمين: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾

بأخذ الفداء الذي يَفتدي به المشركون أنفسهم وهو عَرَض زائل، وقد فُرض على كل أسير أن يدفع أربعين أوقية، والأوقية: أربعون درهمًا، يدفعها فداء فكه من الأسر.

وفيه عتاب على أخذ الفداء لحرص بعض المسلمين على المال، كقول المقداد حين أُمر الرسول بقتل عقبة بن أبي معيط: أسيري يا رسول الله، وقول مصعب بن عمير للذي يأسر أخاه: شُدَّ يدك عليه، فإن له أُمًّا مُوسِرة، إلى غير ذلك. وبكاء الرسول وأبي بكر كان على الميل لهذا الرأي.

وكان سعد بن معاذ في نفر من أصحابه يحرسون عريش رسول الله الذي كان فيه يوم غزوة بدر، فرأى ﷺ في وجهه الكراهية لما يصنع الناس، فقال ﷺ: «**والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟**» فقال: أجل والله يا رسول الله، كانت هذه أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحب إليَّ من استبقاء الرجال[(١)].

وكان هذا رأي عمر أيضًا، كما سبق ولكن انتصار النبي ﷺ في الغزوة جعله يُغلِّب جانب استبقاء الرجال على قتلهم قبل أن يخيره الله فيهم.

وقد بيَّن سبحانه لأصحاب هذا الرأي أنهم يحبون منافع الدنيا، والله تعالى يحب لهم ثواب الآخرة ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: والله يريد إظهار دينه، الذي يدرك به ثواب الآخرة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُقهَر ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه وتدبيره.

وكان النبي ﷺ قد مال إلى رأي أبي بكر؛ لأنه لم يوحَ إليه في أمر الأسرى بشيء، وَوُكِل إلى اجتهاده، فاستشار أصحابه، وكان ﷺ إذا خُيِّر بين أمرين اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثم.

وكان من ثمرة اجتهاده ﷺ في الأخذ بأيسر الأمرين: أن أسلم سهيل بن بيضاء، وكان ابن مسعود يقول عنه للنبي ﷺ: إنه يذكُر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، قال ابن مسعود: فما رأيتُني في يوم أخوف أن تقع عليَّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال ﷺ: «**إلا سهيل بن بيضاء**» فأنزل الله الآية، وأسلم بعده العباس، وغيره.

هذا: ولما كانت غزوة بدر هي المعركة الأولى، وكان المسلمون لم يزالوا قلة أمام

---

(١) من رواية ابن إسحاق، في «الروض الأنف» للسهيلي (٥/ ١٠٦).

المشركين، وكان الله تعالى يريد أن يثبِّت في قلوب المسلمين ما قاله عمر: حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، فإنه لَمَّا كَثُر المسلمون، واشتد سلطانهم نزلت آية تُخيِّر المسلمين بين المنِّ على الأسرى وإطلاق سراحهم، وبين أخذ الفداء منهم وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤][1]. قال تعالى:

٦٨-﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

وفي تحليل فداء أسرى بدر وإلحاقه بالغنائم: ما أخرجه ابن أبي حاتم وغيره بسنده عن خيثمة قال: كان سعد جالسًا ذات يوم، وعنده نفر من أصحابه، إذ ذكَر رجلًا، فنالوا منه، فقال: مهلًا عن أصحاب رسول الله، فإنا أذنبنا مع رسول الله ذنبًا فأنزل الله ﷻ ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ فكنا نرى أنها رحمة من الله سبقت[2].

وأخرج الترمذي وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لم تَحِلَّ الغنائم لأحد، سُودِ الرؤوس مِنْ قَبْلِكُم كانت تنزل نارٌ من السماء فتأكلها»** قال سليمان بن الأعمش: فمن يقول هذا إلا أبو هريرة الآن، فلما كان يوم بدر، وقعوا في الغنائم قبل أن تَحِلَّ لهم، فأنزل الله تعالى ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾[3].

وفي الصحيحين وغيرهما عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نُصِرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصَلِّ، وأُحِلَّت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي،**

---

(١) يُنظَر: «زاد المسير»، والفخر الرازي والبغوي والخازن وغيرهم في تفسير الآية وقد أخرج الطبري هذا المعنى بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» لسورة الأنفال (٥/ ١٧٣٤) حديث برقم (٦٦٠) وابن عساكر (٢٠/ ٣٥٨) وانظر: «المطالب العالية المسندة» ق.(١٦٦)/أ وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٣٢٩) من طريق عبد الله بن عمر مطولًا، وإسناده حسن.

(٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث الأعمش، «سنن الترمذي» برقم (٣٠٨٥) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٦٣) وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٢١٥٥) وصححه أحمد شاكر في «تفسير الطبري» برقم (١٦٣٠١، ١٦٣٠٢) وأخرجه ابن حبان في صحيحه: الإحسان برقم (٤٨٠٦).

وأُعطِيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعِثت إلى الناس عامة»[1].

قال ابن عباس: كانت الغنائم محرمة على الأنبياء والأمم قبل الإسلام، فإذا أصابوا مغنمًا جعلوه للقربان، فكانت النار تنزل من السماء فتأكله، فلما كان يوم بدر، أسرع المؤمنون في أخذ الغنائم والفداء، فأنزل الله تعالى هذه الآية، أي:

١- لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ أنه لا يعاقب أحدًا على خطئه في اجتهاده.

٢- ولولا كتاب من الله سبق به القضاء والقدر بإباحة الغنيمة وفداء الأسرى لهذه الأمة.

٣- ولولا أن الله تعالى قضى ألا يعذب أحدًا بذنب إلا بعد النهي عنه.

٤- ولولا حكم من الله سبق ألا يعذب أحدًا ممن شهد بدرًا بذنب.

٥- ولولا كتاب من الله سبق به القضاء والقدر أن الله تعالى قد رفع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة.

والجواب عن هذه الخمس:

أي: لَنالَكُم عذاب عظيم، بسبب أخذكم الغنيمة والفداء قبل أن ينزل فيهما تشريع.

والآية تشمل هذه المعاني الخمسة.

وكان الله تعالى قد أحل الغنائم لهذه الأمة قبل غزوة بدر، في السَّرِيَّةِ التي قُتِل فيها عمرو بن الحضرمي، وقد منَّ الله على المسلمين في هذه الآية بإلحاق فدية الكفار بالمغانم التي سبق تحليلها، وهي أول غزوة كبرى يحدث فيها تحليل الغنائم، ولذا: كان التعويل عليها.

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»** وهي من خصائص هذه الأمة ولم تحل لأحد قبلنا.

ولمن حضر غزوة بدر من الصحابة منزلة خاصة، فهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٥٢١) وعن أبي هريرة في صحيح النسائي (١٢٥٧) وإرواء الغليل (٢٨٥) وللحديث طرق أخرى.

وهو يخاطب عمر ﷺ: **«وما يدريك لعل الله تعالى اطَّلع على أهل بدر وقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**.

فالله تعالى لن يعذب أهل بدر على ذنب اقترفوه، ولا يعذب منهم مجتهدًا أخطأ في اجتهاده.

وقال محمد بن إسحاق: لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرًا، إلا وأحبَّ الغنائم، إلا عمر بن الخطاب، فإنه أشار بقتل الأسرى، وسعد بن معاذ، فإنه قال: يا رسول الله، كان الإثخان في القتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال، فقال ﷺ: **«لو نزل عذاب من السماء ما نجا غير عمر وسعد بن معاذ»** وكان سعد قد كره الفداء من الأسرى[1].

وفي الأثر **«لو نزل عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر»**

والعذاب المتوعَّد به في الآية، هو عذاب الدنيا وهو غير مسبوق بغضب الله؛ لأن عذاب الآخرة يكون على مخالفة أمر الله، ومغانم بدر لم يسبق فيها نهي من الله تعالى. قال تعالى:

٦٩-﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

ولما نزلت آية حكم الأسرى كفَّ المسلمون أيديهم عن الفداء، وامتنعوا من قبوله حتى أنزل الله هذه الآية، وفيها أن الله تعالى أباح لرسوله وأباح لأمته أكل الغنائم وأخذ الفدية من الأسرى بعد أن كانت محرمة على الأمم السابقة.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ هذا حِلٌّ بعد تحريم، حيث كانت الغنائم محرمة قبل ذلك على الأمم قبلنا، ونَصٌّ على إباحة المال الذي أُخذ من الكفار وإلحاقه بالمغانم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جميع أموركم في المستقبل والحاضر، وحافظوا على أحكام دينه وتشريعاته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لعباده إذا تابوا وأنابوا إليه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، حيث أباح لهم الغنائم وجعلها حلالًا طيبًا.

وقد غفر الله لكم ما أقْدمتم عليه من ذنب، ورحمكم، وكان العباس وبعض أهل مكة جاؤوا إلى النبي ﷺ حين بُعث، وقالوا له: نريد أن ندخل في الإسلام، ونشهد أن لا إله

---

(١) «الروض الأنف» في شرح «سيرة ابن هشام» (٥/١٠٦) و«تفسير الطبري» (١٠/٤٨).

إلا الله، وأنك رسول الله، ولكنا نخاف من هؤلاء القوم الذين لم يهاجروا، وبقوا في مكة حين هاجر المسلمون إلى المدينة، وهم الذين قال الله تعالى في الذين قتلوا منهم يوم بدر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء].

ومعنى الآية: لقد عفوت عنكم - أيها المؤمنون - ما وقعتم فيه من تفضيلكم أخْذ الفداء من الأسرى على قتلهم، وأبحتُ لكم الانتفاع بالغنائم، فكلوا مما غنمتم من أعدائكم حلالًا طيِّبًا لا شبهة في أكله ولا ضرر، واتقوا الله في كل أحوالكم واخشوه وراقبوه؛ فإن الله غفور لمن فرط منكم، وهو واسع الرحمة والمغفرة لمن اتقاه ورجع إليه.

مَنْ يَفْقِدْ مَالَهُ بِسَبَبِ مِحْنَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ يُعَوِّضْهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ

٧٠-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ[1] إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾

نزلت هذه الآية في شأن بعض الأسرى الذين ظهر منهم رغبة في الإسلام قبل غزوة بدر، ومنهم العباس، وعقيل، والحارث، ونوفل، وغيرهم، لترغِّبهم في الإسلام في المستقبل.

وكان بعضهم قد ادعى أنه أسلم قبل ذلك فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله هذه الآية جبرًا لخاطرهم، ومن كان على مثل حالهم، وهي عامة في كل من يفقد ماله بسبب دخوله في الإسلام.

قصة العباس ﷺ: قال العباس: فِيَّ نزلتْ هذه الآية حين أَخبرتُ رسول الله ﷺ بإسلامي فسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقيَّة التي أُخذتْ مني يوم بدر، فأبى رسول الله ﷺ فأعطاني الله بالعشرين أوقيَّة عشرين عبدًا كلهم تاجر يضرب بمالي مع ما أرجو من مغفرة الله ورحمته[2].

---

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر (من الأسرى) بضم الهمزة وفتح السين وألف بعدها (الأُسَارى)، وقرأ الباقون بفتح الهمزة وإسكان السين من غير ألف (الأسرى) وهما جمع أسير.

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده كما في «المطالب العالية» (٣٩٩٣) وأخرجه الطبري (١/ ٢٨٤) وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٣٧) والطبراني (٨١٠٧).

ولما قال العباس ﷺ: إني كنت مسلمًا يا رسول الله، قال: **«الله أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول فالله يَجزيك، فافْدِ نفسك وابنَيْ أخويْك: نوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب، وحليفك عتبة بن عمرو. قال العباس: ما ذاك عندي يا رسول الله، قال: فأين المال الذي دفَنْتَ أنت وأم الفضل، فقلتَ لها: إن أُصِبْتُ فهذا المال لبنِيَّ: الفضل، وعبد الله، وقُثم؟»** فقال: والله يا رسول الله إني أشهد أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما عَلِمَهُ أحد غيري وغيرها، فاحْسب لي يا رسول الله ما أصَبتم مني، عشرين أوقية من مال،كانت معي، فقال ﷺ: **«أفعل»** ففدى العباس نفسه وابنيْ أخويْه وحليفه، فنزلت الآية، فقال العباس: فأعطاني مكان العشرين أوقية في الإسلام عشرين عبدًا، كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله تعالى[(١)].

والآية وإن كانت قد نزلت في العباس فهي عامة في كل من ينطبق عليه المعنى.

وكان العباس بن عبد المطلب -عم النبي ﷺ- ضمن أسرى بدر، وكان أحد عشر رجلًا تكفلوا بإطعام جيش المشركين الذي خرج من مكة لحرب النبي ﷺ، وكان العباس قد أخذ معه عشرين أوقية من ذهب؛ ليُطعم بها المشركين عند مجيء نَوْبته، فكانت نوبتُه يوم الغزوة نفسها، حيث اقتتل الفريقان، ولم يُطعم شيئًا، فلما وقع في الأسر، أُخذ منه المال، فكلَّم النبي ﷺ أن يحسب هذه العشرين أوقية من فدائه، فأبى رسول الله ﷺ وقال: **«أمَّا شيء خرجتَ به لتستعينَ به علينا فلا أتركه لك»** وكلفه فداء ابني أخويْه: عقيل، ونوفل. فقال العباس: يا محمد، تتركني أتكفف ما بقيت؟ فقال رسول الله ﷺ: **«فأين الذهب الذي دفَنْتَه أم الفضل وقت خروجك من مكة، وقلتَ لها: إني لا أدري ما يصيبُني في وجهي هذا، فإنْ حدث لي حدث، فهو لكِ، ولعبد الله، وعبيد الله، والفضل، وقُثَم»** يعني أبناءه، فقال العباس: وما يدريك يابن أخي؟ قال: **«أخبرني به ربي»** قال العباس: أشهد أنك صادق، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، لم يطَّلع على

---

(١) صححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ٢٣) والبيهقي (٦/ ٣٢٢) وأصل الحديث في «سنن أبي داود» برقم (٢٦٩٢) وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» برقم (٢٣٤١) وأخرجه الطبري بسنده الحسن إلى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وله شاهد في «المعجم الكبير» للطبراني برقم (١١٣٩٨) وفي تفسير ابن أبي حاتم برقم (٦٨٣).

ما قلته أحد إلا الله، وأمر العباس ابنيْ أخويْه: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، فأسلما، فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ أي: الذين أسرْتُموهم يوم بدر، ومنهم العباس.

ولما بَعث العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ بمال من البحرين ثمانين ألفًا، لم يأت رسول الله ﷺ مال أكثر منه، فَنُثِرتْ على حصير في المسجد، وجاء الناس، فجعل رسول الله ﷺ يعطيهم، وما كان يومئذ عدد ولا وزن، فجاء العباس، فقال: يا رسول الله، إني أعطيت فدائي وفداء عقيل يوم بدر، أعطني من هذا المال، فقال: «**خذ**» فحثَا في خميصته، ثم ذهب ينصرف فلم يستطع، فرفع رأسه وقال: يا رسول الله ارفع عليَّ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال له: «**أعد من المال طائفة، وقم بما تطيق**» ففعل وأخذ يقول وهو منطلق: أمَّا إحدى اللتين وعدنا الله، فقد أنجزنا، وما ندري ما يَصنع في الأخرى، وقرأ الآية، ثم قال: فهذا خير مما أُخذ مني، ولا أدري ما يُصْنَع في المغفرة[1].

قل لهم: لا تأسَوْا على الفداء الذي أُخذ منكم ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ أي: إيمانًا وتصديقًا ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ أي: يعطكم أفضل من الفداء والمال الذي أُخذ منكم، ويشرح صدوركم للإسلام ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ذنوبكم التي سلفت قبل أن تُسلموا ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه ﴿رَّحِيمٞ﴾ بأهل طاعته.

قال العباس: فأبدلني الله عشرين عبدًا، يتاجر أدناهم في عشرين ألف درهم، وأعطاني زمزم، وما أحبُّ أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي.

ومن الذين أُسروا يوم بدر، المستضعفون الذين تركوا الهجرة خوفًا من المشركين فهم يرجون رحمته سبحانه.

ولما قال العباس: إني كنت مسلمًا، قال عليه الصلاة والسلام: «**الله أعلم بحقيقة إسلامك**» ولكن الذي يظهر لنا أنك خرجت ضدنا مع المشركين الذين قالوا: لا يبقى أحد منا في مكة، ولا يخرج إلى بدر، ومن لم يخرج سنهدم بيته ونستحل أمواله، فخرج هؤلاء

---

(١) ابن سعد (٤/ ١٥) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ٣٢٩) وانظر: «صحيح البخاري» برقم (٤٢١، ٣٠٤٩، ٣١٦٥) عن أنس.

-ومنهم العباس- مكرهين للقتال مع المشركين ضد المسلمين، ولم يكن في قلوبهم نية الخروج، ولذلك أنزل الله سبحانه في شأن العباس: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: إن كنت صادقًا في أنك كنت مسلمًا، فإن الله سيعوضك خيرًا في الدنيا والآخرة، وقد كان.

وفي هذا جاء الأثر عن ابن عباس مرفوعًا: «**إني قد عرفت أن أناسًا من بني هاشم وغيرهم قد خرجوا كُرهًا لا حاجة لهم في قتالنا، فمن لقي منهم أحدًا فلا يقتله**»[1].

إطلاق أبي العاص من الأسر:

وعن عائشة ﵂ قالت: لما بَعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثتْ زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص، وبعثتْ فيه بقلادة كانت خديجة أدخلَتْها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ رقَّة شديدة، وقال: «**إن أردتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها فافعلوا**» قالوا: نعم يا رسول الله.

تَكْرَارُ غَدْرِ العَدُوِّ

٧١-﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

في هذه الآية تحذير من خيانة النبي ﷺ في كل زمان ومكان وبيان أنه تعالى قادر على من يخون رسوله، وأنه تحت قبضته وتصرفه، ثم إنْ كان هؤلاء الذين أطلق النبي سراحهم من الأسر، يُضمرون الغدر برسول الله ﷺ مرة أخرى، فلا تيأس منهم يا محمد؛ لأنهم قد خانوا الله من قبل، فحاربوك ونصرك الله عليهم،

وفي هذا تطمين للمسلمين بأن يمكنهم الله من عدوهم مرة أخرى إن عادوا إلى خيانتهم، وأنهم لن يضروهم بحول الله، ما داموا في معية الله تعالى ناصرين دينه.

وفي الآية خطاب للنبي ﷺ لبيان أنه إن كان هؤلاء الأسرى يظهرون الإسلام نفاقًا، فقد خانوا الله قبل يوم بدر، حين خرجوا مع المشركين، وحين كفروا بالله، فأمكنك الله من رقابهم، وصاروا أسرى تحت يدك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما تنطوي عليه الصدور

---

(١) ابن سعد عن ابن إسحاق (٤/ ١٠)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٧).

﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شؤون عباده، يضع الأشياء في مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام، وتكفل بكفايتكم شر عدوكم إن أراد خيانتكم.

أَنْوَاعُ النَّاسِ وَقْتَ التَّنْزِيلِ، أَوَّلًا: الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ

٧٢-﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾

هذه الآية وما بعدها تبيِّن منازل المهاجرين والأنصار، ومنازل المؤمنين الذين لم يهاجروا والكفار، والمهاجرين بعد الحديبية، وقدَّمت الآيات المهاجرين ثم الأنصار، ثم الذين لم يهاجروا، ثم الكفار، ثم المهاجرين مؤخرًا، فهؤلاء **أربعة أنواع**، و**ثلاث مراتب** للذين أسلموا، فيها علاقة المسلمين ببعضهم، وعلاقتهم بغيرهم، والأحكام المنظِّمة لهذه العلاقات.

وذلك أنه قد نشأ عن قول العباس بن عبد المطلب حين أُسر يوم بدر أنه مسلم، وأن المشركين أكرهوه على الخروج إلى بدر، وأن بعض المسلمين قد عطفوا عليه وعلى أمثاله، وظنوا أنهم أولياء لهم.

فأخبر الله المسلمين بحكم التعامل مع من آمن واستمر على البقاء بدار الشرك، وبيَّن منزلة المهاجرين قبل صلح الحديبية وبعده من المؤمنين الذين لم يهاجروا، وذكر ولاية الكفار لبعضهم.

فبيَّن ﷻ أن الموالاة والمحبة والنُّصرة بين المسلمين سبب رئيس في نصرة المسلمين على عدوهم، وبيَّن جلَّ شأنه حكم من يوالي المسلم ومن يوالي الكافر؛ ليعلم المؤمن من يوالي ومن يعادي، حتى يكون ذلك سببًا قويًّا في نصرتهم على المشركين.

وقد قسَّم الله سبحانه الناس وقت تنزيل الآيات حتى يوم القيامة إلى **أربعة أقسام**:

منهم قسمان في الآية الأولى، وهم المهاجرون والأنصار والذين لم يهاجروا.

والقسم الثالث وهم الكفار في الآية الثالثة.

والقسم الرابع وهم أهل الهجرة بعد صلح الحديبية في الآية الأخيرة.

المُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ:

وهم المؤمنون المهاجرون المجاهدون بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله وإقامة دينه، وقد وصفهم الله تعالى **بثلاثة أوصاف**: الإيمان، والهجرة والجهاد بالنفس والمال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المهاجرون الأولون الذين تركوا أوطانهم وديارهم في مكة، ولحقوا بالمدينة لنصرة الإسلام وأهله.

وفي الآية تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، كما في كثير من آيات القرآن لأهمية الجهاد بالمال في التسليح الحربي وإعداد العدة دفاعًا عن النفس وإعلاء لكلمة الله، ووصفهم ربنا بالإيمان الصادق، والخروج من أوطانهم وأموالهم وتقديم أنفسهم رخيصة في سبيل الله.

أما الأنصار، فهم المسلمون من أهل المدينة، الذين آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم، ونَصَرُوا الله ورسوله بالقتال معه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ كل منهما أحق بالآخر؛ لأن الأنصار فتحوا بيوتهم لإخوانهم المهاجرين، ولم يكن في صدورهم حقد ولا حسد، وقاسموهم أموالهم وديارهم، بل وأرادوا أن يقاسموهم نساءهم بالحكم الشرعي والزواج المشروع، وقد آخى الإسلام بين كل اثنين منهما، وأخذوا يتوارثوّن إرثًا مقدما على القرابة، حتى نُسِخ بآيات المواريث، والله تعالى هو العليم الخبير، عالم الغيب والشهادة، وهو الذي يقول لنا ذلك.

وقد وصف الله تعالى الأنصار بوصفين:

أحدهما: الإيواء لإخوانهم المهاجرين، وهو يتضمن معنى التأمين من الخوف، فكانت المدينة مأوىً وملجأ للمهاجرين، وكان أهلها مثالًا للكرم والإيثار.

وثانيهما: النصرة لإخوانهم المهاجرين؛ لأن أهل المدينة قد نصروا الرسول ﷺ، ونصروا المهاجرين بكل ما يملكون من وسائل التأييد والمؤازرة، فقد قاتلوا مَنْ قاتلوهم، وعادَوا مَنْ عادَوهم.

والمراد بالولاية في الآية: الولاية العامة وهي تتناول التناصر والتعاون والتوارث. والموصوفون بالإيواء والنصرة يتولى بعضهم بعضًا، ويحب بعضهم بعضًا.

وقد ابتدأت الآية ببيان الفريقين من المهاجرين والأنصار؛ لأن أحكامهم في الولاية والنصرة واحدة؛ لأنهم بمنزلة فريق واحد، فالمهاجرون امتازوا بالسبق إلى الإسلام، وتكبَّدوا مفارقة الوطن، والأنصار امتازوا بإيواء المهاجرين وإيثارهم على أنفسهم، وتبرأ الفريقان من الشرك وأهله، واشتركا في الإيمان والجهاد، واختص المهاجرون بالهجرة، واختص الأنصار بالإيواء والنصرة.

وقد أثنى الله تعالى على المهاجرين والأنصار في مثل قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

وقوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ﴾ [الحشر: ٨، ٩]

ثم أثنى سبحانه على من جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان.

وهذه الموالاة بين الفريقين هي موالاة ومودة وتوارث؛ فالنبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، وبين الأوس والخزرج بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة، وبيَّن عليه الصلاة والسلام أن الرابطة الوحيدة للمجتمع المسلم هي رابطة العقيدة، والأخوة في الدين، وأن رابطة الدم، لا عبرة بها، ورابطة الوطن والأرض والجنسية، لا عبرة بها، ورابطة اللغة والاقتصاد والتاريخ، لا عبرة بها، ورابطة القومية والبعثية والحزبية والعلمانية، وما يشبه هذا، لا عبرة بكل ذلك، فالإنسان والحيوان يشتركان في هذه الروابط، في البلد الواحد، واللغة الواحدة، والمكان الواحد، والجنسية الواحدة، والقومية الواحدة، يشترك في ذلك الإنسان والحيوان، أما الرابطة الوحيدة بين المسلمين فهي رابطة الإيمان والعقيدة.

وفي هذه الآية عقد موالاة ومحبة، عقدها الله تعالى بين المهاجرين الذين تركوا أوطانهم وجاهدوا في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووْا رسول الله وأصحابه، وأعانوهم بأموالهم وأنفسهم وديارهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض لكمال إيمانهم وتمام الاتصال بينهم.

وعلى هذا: فقد ظل المسلمون قرونًا متوالية هم القوة الوحيدة في الأرض، حين كانوا يدًا واحدة، يوالي المسلم أخاه المسلم على اختلاف الجنسية واللغة واللون والأرض والوطن، ليس هناك رابطة إلا هذه الرابطة.

فلما تفرق المسلمون، وصارُوا دويلات عديدة، تُميِّز كل دولة راية وعلَم، يُميِّزها من الأخرى، وحُدُودًا تفْصل بينهم، أصبحوا لا حول لهم ولا قوة.

ولا سبيل إلى النصر على العدو إلا بالعودة لدين الله سبحانه، والعودة إلى التآخي بين المسلمين جميعًا، وترْك موالاة غير المسلمين، وعدم اتخاذهم بطانة من دون المسلمين، والأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية.

ثانيًا: مَنْ لَمْ يُهَاجِرْ مِنَ المُسْلِمِينَ

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم[1] مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا من دار الكفر، فلستم أيها المؤمنون مكلفين بحمايتهم ونصرتهم، وعليكم أن تتبرؤوا من ولايتهم، وتقاطعوهم حتى يهاجروا، وليس بينكم وبينهم حكم التوارث، لانهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إليهم، فلَمَّا لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أي: وإن وقع عليهم ظلم من الكفار، وطلبوا نصرتكم، فاستجيبوا لهم، ما لم يترتب على هذه الاستجابة نقض عهد أو ميثاق بينكم وبين غيركم من أهل الشرائع الأخرى، وهذا معنى ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ فهؤلاء المسلمون المستضعفون الذين لم يهاجروا خوفًا من المشركين، هم قوم عصاة وليسوا كفارًا، وهم أقل رتبة من

---

(١) قرأ حمزة بكسر الواو من (وِلايتهم) والباقون بفتحها، وهما لغتان بمعنى واحد، وقيل: الفتح من النُّصرة والنسب، والكسر من الإمارة.

المهاجرين، ومع أنهم مسلمون إلا أن مقاطعتهم مطلوبة، حتى يكون ذلك باعثًا لهم على الهجرة، وهم الذين أسلموا وظلوا مستضعفين في مكة تحت سلطان الكفر.

وحكمهم يشبه حكم الأقليات الإسلامية المضطهدة في العالم، ممن يعيشون في ديار غير المسلمين ولا يمكنهم إظهار دينهم، وقد فضلوا البقاء في ديارهم كي يتمتعوا فيها بحرية العقيدة، فهؤلاء يعاقبون من الله تعالى لأنهم رضوا بالبقاء تحت الحكم الكافر.
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)﴾ [النساء]

وليس لهؤلاء حق الموالاة والمحبة، وليس لهم في المغانم نصيب إلا ما حضروا فيه القتال، إنما لهم حق واحد هو نصرهم والدفاع عنهم، وهذا الحق الواحد مقتضاه:

أنهم إذا فُتنوا في دينهم، وطلبوا النُّصرة من أجل عقيدتهم، فإنه يجب على المسلمين أن ينصروا إخوانهم في العقيدة، ضد أعدائهم الذين يفتنونهم عن دينهم ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾.

ما لم يكن هذا النصر لهم على دولة غير مسلمة لها عهد وميثاق؛ فالإسلام لا يحب نقض العهود والمواثيق ما دام الطرف الآخر مستقيمًا وثابتًا على عهده وميثاقه.

وهذا معنى الاستثناء في الآية: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وعن هذا القسم الثالث يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ فليس بينكما تواد ولا محبة ولا توارث ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ كغيرهم، فهم درجة أدنى ممن هاجر أولًا ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ لقتال من قاتلهم من أجل دينهم ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي: وإن طلبوا النصرة في الدين والعقيدة فعليكم النصر وجوبًا إلزاميًا ومن ذلك القتال معهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ فلا تنصروهم عليهم احترامًا لما بينكما من عهد

وميثاق. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما فيه صلاحكم وسعادتكم.

ثَالِثًا: مُوَالاَةُ الْكُفَّارِ لِبَعْضِهِمْ:

٧٣-﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾﴾

وبمناسبة ذكر الموالاة بين المهاجرين والأنصار، تتحدث الآيات عن ولاية الكفار بعضهم لبعض، في التعاون والنصرة والتوارث.

وفي أسباب النزول أن رجلًا قال: نورِّث أرحامنا المشركين؟ فنزلت الآية[١].

فبيَّن سبحانه أن الكفار ينصر بعضهم بعضًا، ويوالي بعضهم بعضًا، فلا يواليهم إلا كافر، وإن لم تكونوا مثلهم ينصر بعضكم بعضًا ويوالي بعضكم بعضًا - أيها المؤمنون - وتقدمون صلة الإسلام على صلة القرابة ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ أي لا توالُوا المؤمنين وتُعادوا الكافرين، فإن واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ أي: إذا أنتم تركتم إخوانكم في الدين والعقيدة، وواليتم غير المسلمين، فإن هذا يسبب الفتنة عن دين الله، ويسبب الفساد العريض بالصد عن سبيل الله، وتقوية دعائم الكفر، وتفويت كثير من مقاصد الشرع كالجهاد والهجرة، ويختلط الحق بالباطل، والإيمان بالكفر.

وفي الآية تحذير شديد للمؤمنين من عدم التناصر والتواصل فيما بينهم؛ لأنهم إذا لم يصيروا يدًا واحدة على أعدائهم، أصبحوا لُقمةً سائغة لغيرهم.

والفتنة تكون بإضعاف المسلمين وتقوية الكافرين، وتكون أيضًا بفتنة العقيدة، فيلتبس الأمر، ويختلط المؤمن بالكافر، ويقع بين الناس فساد عريض؛ حيث يضعُف شأنكم، وتذهب ريحكم، ويتطاول عليكم أعداؤكم، وتعجزون عن الدفاع عن دينكم ووطنكم وعِرْضِكم.

فالاحتلال لا يكون احتلال أرض فحسب، وإنما يشمل تغيير المعتقدات، والغزو الفكري، وهو يغيِّر أحوال الناس، ويحوِّل عقولهم وعقائدهم، وفي هذا قطع للموالاة بين

(١) أخرجه الطبري وأبو الشيخ عن السُّدِّي عن أبي مالك، كما في «تفسير الطبري» (١٠/ ٣٩).

المؤمنين والكفار، وفي الحديث عن أسامة بن زيد ﷺ أن رسول الله ﷺ وقال: **«لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»**[١].

وفي لفظ له: **«لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافرًا ولا كافر مسلمًا»**، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[٢].

ومن الفساد في الأرض أن لا يزوِّج العبد ابنته إلى صاحب الخلق والدين، كما في الحديث عن أبي حاتم المزني: **«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»** قالوا: يا رسول الله، وإن كان فيه- أي إن كان صاحب مال وجاه؟- قال: إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات[٣].

ولفظ أبي هريرة: **«إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»**[٤].

الثَّنَاءُ عَلَى المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَثَوَابُهُمْ عِنْدَ اللهِ

٧٤-﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

أثنى الله سبحانه على القسمين الأولين دون القسم الثالث فضلًا عن الرابع، فبيَّن جلَّ شأنه أن المؤمنين الذين تركوا ديارهم، وجاهدوا لإعلاء كلمة الله، والذين نصروا

---

(١) أخرجه البخاري عن أسامة بن زيد، «فتح الباري» (١٢/ ٥١) ورقمه في البخاري (٦٧٦٤) ومسلم (٣/ ١٢٣٣) وبرقم (١٦١٤).

(٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، «المستدرك» (٢/ ٢٤٠) وأصله في الحديث السابق.

(٣) رواه أبو داود في المراسيل عن أبي حاتم المزني برقم (٢٢٤) والترمذي في «السنن» برقم (١٠٨٥) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وأبو حاتم المزني له صحبة، ولا نعرف له عن النبي ﷺ غير هذا الحديث، وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠٣٢٥).

(٤) «سنن الترمذي» (١٠٨٤)، قال أبو عيسى، حديث أبي هريرة، قد خولف عبد الحميد بن سليمان في هذا الحديث، فرواه الليثُ بنُ سعد عن ابنه عجلان، عن أبي هريرة عن النبي مرسلا، قال أبو عيسى: وحديث الليث أشبه، ولم يعُد حديث عبدالرحمن محفوظا.

إخوانهم المهاجرين وواسوهم بالمال وأيّدوهم، هم أهل الإيمان حقًّا وصدقًا لأنهم قاموا بالهجرة والنصرة والجهاد والموالاة ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ومحو لسيئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ واسع في جنات النعيم، وهو رزق دائم مستمر لا ينقطع ولا ينقضي، وقد حصل لهم من ا لثواب العاجل ما تقربه أعينهم.

وهذه الآية تُثْني على المهاجرين والأنصار، فتمدحهم وتبيِّن ثوابهم عند الله تعالى، وتشهد لهم بصدق الإيمان وحُسن الجزاء، فقد مدحتْهم بثلاثة أمور: صدق الإيمان، ومغفرة كاملة للذنوب، دفعًا لعقابهم في الآخرة، والرزق الدائم، والثواب الجزيل وجلب الخير لهم. أما الآية التي قبلها فهي لبيان وجوب ولاية المؤمنين بعضهم لبعض.

رَابِعًا: أَهْلُ الهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ

٧٥- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، والهجرة من بلاد الكفر إلى دار الإسلام قائمة إلى قيام الساعة، والأسبقية للمهاجرين الأولين، ثم الذين أتوا بعدهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ﴾ أي: بعد نزول آيات غزوة بدر، أو بعد صلح الحديبية، فألحق الله تعالى المهاجرين المتأخرين في كل زمان ومكان من ديار الكفر، بالمهاجرين السابقين قبلهم، وهذا معنى: ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ في سبيل الله ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ أنتم منهم، وهم منكم، وهم أهل الفضل الأول، ومَنْ بعدهم مُلْحق بهم، وحكمهم حكم المؤمنين السابقين في الأجر والمثوبة، لهم مالكم وعليهم ماعليكم.

وكان من مقتضى الموالاة الإيمانية في أول الهجرة إلى المدينة، أن آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، يترتب عليها التوارث فيما بينهم، وهذا غير الأخوة الإيمانية العامة.

ثم نسخ الله سبحانه التوارث الذي كان حاصلًا لغير الأقارب بين المهاجرين والأنصار، نسخه بآيات المواريث وبقوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦] من

عامة المسلمين في الميراث ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في قرآنه وحكمه الذي بيَّنه في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦] فهي مقيدة بما جاء فيها من أحكام، فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض، فإن لم يوجد فأقرب الأقارب من ذوي الأرحام.

قال ابن عباس: كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية.

وأولو الأرحام: هم الذين يجمعهم رحم واحدة في الغالب، وفي الفرائض: هم الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب، والولاية بينهم ولاية نسب، وبين المؤمنين ولاية إيمان، ولكل منهما حقوق في الإسلام.

وعن ابن عباس ﷺ قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وورث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب[1].

والآية تفيد أن ولاية ذوي الأرحام تشمل الصلة والنصرة وحسن الصحبة من باب أولى، وفيها رد صريح على عدم تقديم ذوي الأرحام من الرحم المَحْرَم كالخال والخالة، على أبناء الأعمام في الميراث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ويعلم ما يُصلح عباده من توريث بعضهم من بعض في القرابة والنسب، دون التوارث بالحِلْف الذي كان في أول الإسلام:

في أسباب النزول:

١-أخرج ابن جرير عن الزبير قال: كان الرجل يعاقد الرجل: ترثني وأرثك، فنزلت ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[2].

٢-وأخرج ابن سعد من طريق هشام بن عروة عن أبيه ﷺ قال: آخى رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام، وبين كعب بن مالك، قال الزبير: لقد رأيت كعبًا أصابته الجراح بأحد، فقلت: لو مات فانقطع عن الدنيا وأهلها لورثتُه فنزلت الآية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ فصارت

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي (٢٦٧٦) والطبراني (١١٧٤٨) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣١) ورجاله رجال الصحيح.

(٢) «أسباب النزول» للسيوطي (١٣٥) و«تفسير الطبري» (١٠/ ٤١) و«زاد المسير» (٣/ ٣٨٧) و«تفسير القرطبي» (٨/ ٩١).

المواريث بعد للأرحام والقرابات، وانقطعت تلك المواريث في المؤاخاة[١].

٣-وفي لفظ: قال الزبير بن العوام ﷺ: فينا نزلت هذه الآية ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ قد آخى بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فلم نشكَّ أنَّا نتوارث لو هلك كعب وليس له من يرثه، فظننت أني أرثُه، ولو هلكتُ كذلك يرثُني، حتى نزلت ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[٢].

٤-وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع: «**إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، الولد للفراش، وللعاهر الحجَر، وحسابهم على الله...**»[٣].

وقبل نسخ هذا التوارث، كان المهاجري إذا مات ولم يكن له وارث من المهاجرين ورثه أخوه الأنصاري.

وكان هذا الإرث مقدمًا على صلة القرابة حتى نُسِخ بآيات المواريث، وكان المسلم الذي لم يهاجر ليس بينه وبين قريبه المهاجر ولاية ولا توارث، واستمر الأمر كذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بعده على أساس الرحم والنسب.

هذا: وقد جاء التذكير بالأرحام في الآية إشارة إلى أن ولاية الأرحام قائمة، وأنها أرجح من ولاية المؤمنين لبعضهم، ومن ولاية المؤمنين للذين لم يهاجروا، ثم تداركوا أمرهم وهاجروا.

والرحم في الأصل: مقرُّ الولد في بطن أمه، وأولو الأرحام، هم أهل القرابة الناشئة عن الأمومة، وصلة الرحم تشمل أقارب العصب والنسب.

---

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٣٥) و«تفسير الطبري» (١٠/ ٤١) و«زاد المسير» (٣/ ٣٨٧) و«تفسير القرطبي» (٨/ ٩١).

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي «المستدرك» (٤/ ٣٤٤).

(٣) صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٧٢١) وقال الترمذي: حديث حسن (٦٧٠) وله شاهد بعده في الترمذي برقم (٢١٢١) وهو في «المسند» (٥/ ٢٦٧) برقم (٢٢٢٩٤)، بإسناد حسن، والطبراني في الكبير (٧٦٢١) وأبو داود (٢٨٧٠) وابن ماجه (٢٠٠٧).

وقد جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى لمَّا خلق الرحم، أخذت بقائمة من قوائم العرش وقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى، قال: فذاك لك**»[١].

ولم تكن ولاية الدين والأُخوَّة في الله معروفة في الجاهلية، وقد بيَّن الإسلام أن رابطة العقيدة أقوى من أواصر الجسد والنسب.

واختلف العلماء: هل تشمل ولاية الأرحام، ولاية الميراث، أم لا؟ فقال مالك بن أنس والشافعي وبعض الصحابة: ولاية الأرحام، ولاية نصرة وصحبة ومؤازرة، وليست ولاية مواريث.

وقال آخرون: إنها تشمل ولاية الميراث، وأن الأرحام مقدَّمون على أبناء الأعمام وهو قول أبي حنيفة وفقهاء الكوفة، فهي مقيدة لآيات المواريث[٢].

من أحكام التجويد: إذا وصل القارئ آخر الأنفال بأول براءة فله **ثلاثة أوجه**:

الأول: وصل آخر الأنفال بأول براءة مع الإتيان بالغنة حال قلب التنوين من ﴿عَلِيمٌ﴾ ميمًا لوقوع حرف الباء من ﴿بَرَآءَةٌ﴾ بعده، وذلك دون بسملة.

والوجه الثاني: السكت على ميم ﴿عَلِيمٌ﴾ الساكنة للوقف، بدون تنفس والبدء ببراءة دون بسملة كذلك.

والوجه الثالث: الوقف على آخر الأنفال مع التنفس، والبدء بأول براءة.

فإذا ابتدأ القارئ بأول ﴿بَرَآءَةٌ﴾ دون وصلها بآخر الأنفال فليس له إلا الاستعاذة في أول السورة دون بسملة.

وإن ابتدأ التلاوة في أثناء سورة التوبة فله أن يستعيذ ويبسمل، أو يستعيذ فقط.

تم تفسير (**سورة الأنفال**) ولله الحمد والمنة

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٣٠، ٥٩٨٧، ٧٥٠٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٤).

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٦٠/ ٩٢).

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
	سُورَةِ الأَعْرَافِ، مقدمة السورة - أسلوب التذكير والتخويف	٥
١	التَّفْسِيرُ- الْحُرُوفُ الْهِجَائِيَّةُ فِي أَوَائِلِ السُّورِ	١١
٣،٢	خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَخِطَابٌ لِلْبَشَرِ	١٢
٥،٤	الْإِشَارَةُ إِلَى مَصِيرِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِ اللهِ	١٥
٧،٦	سُؤَالُ الرُّسُلِ وَالْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	١٨
٩،٨	الرِّبْحُ وَالْخَسَارَةُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ - أحاديث عن الميزان ومنها حديث البطاقة	٢٠
	حقيقة الميزان - الأعمال هي التي توزن:	٢٣
١٠	قِصَّةُ الْوُجُودِ الْبَشَرِيِّ	٢٥
١١-١٥	آدَمُ وَإِبْلِيسُ	٢٦
١٦-١٨	إِبْلِيسُ يَقْعُدُ لِابْنِ آدَمَ بِكُلِّ طَرِيقٍ	٣١
١٩-٢٥	آدَمُ وَحَوَّاءُ يَأْكُلَانِ مِنَ الشَّجَرَةِ	٣٦
٢٦	أَرْبَعُ نِدَاءَاتٍ إِلَى بَنِي آدَمَ - النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: وُجُوبُ سَتْرِ الْعَوْرَةِ	٤٢
٢٧-٣٠	النِّدَاءُ الثَّانِي: فِي التَّحْذِيرِ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَمَكْرِهِ	٤٦
٣١	النِّدَاءُ الثَّالِثُ: التَّزَيُّنُ لِلْعِبَادَةِ وَالطَّوَافِ وَالتَّمَتُّعِ بِالْحَلَالِ دُونَ إِسْرَافٍ - أحاديث في المعنى	٥٥
٣٢	الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ حَرَّمَ الطَّيِّبَاتِ	٦٠
٣٤،٣٣	تَحْرِيمُ الْفَوَاحِشِ وَالشِّرْكِ وَالْقَوْلِ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ	٦٢
٣٦،٣٥	النِّدَاءُ الرَّابِعُ: أَخْذُ الْعَهْدِ عَلَى بَنِي آدَمَ بِتَصْدِيقِ الرُّسُلِ	٦٦
٣٧	الْمُشْرِكُونَ وَالْمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللهِ يَأْخُذُونَ حَظَّهُمْ فِي الدُّنْيَا - حال الكفار عند قبض الأرواح	٦٧
٣٩،٣٨	الْكُفَّارُ يَتَلَاوَمُونَ وَهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ - محاولاتهم للخروج من النار	٧٠
٤١،٤٠	اسْتِحَالَةُ دُخُولِ الْجَنَّةِ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ	٧٧
٤٣،٤٢	دُخُولُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ وَنَزْعُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ ضَغَائِنَ - أحاديث وآثار	٨٠
٤٥،٤٤	ثَلَاثَةُ حِوَارَاتٍ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ - الْحِوَارُ الْأَوَّلُ: أَهْلُ الْجَنَّةِ يُحَاوِرُونَ أَهْلَ النَّارِ	٨٨
٤٦-٤٩	الْحِوَارُ الثَّانِي: حِوَارُ أَهْلِ الْأَعْرَافِ - من هم أهل الأعراف؟	٩١
٥٠	الْحِوَارُ الثَّالِثُ: أَهْلُ النَّارِ يُحَاوِرُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ	١٠٠
٥١	مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ النَّارِ	١٠٢
٥٣،٥٢	عَدَمُ إِعْذَارِ الْكُفَّارِ فِي دُخُولِ النَّارِ	١٠٣
٥٤-٥٧	أَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ وَمُقْتَضَاهُ	١٠٥
٥٨	مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ	١١٥
٥٩	ستة من قصص المرسلين في السورة: أولًا: قِصَّةُ نُوحٍ عليه السلام مَعَ قَوْمِهِ	١١٧
	نُبْذَةٌ تَارِيخِيَّةٌ عَنْ رِسَالَةِ نُوحٍ ﷺ - أول رسول: - أطول رسالة - ثمرة دعوة نوح الطويلة	١١٨
	الطوفان وسفينة النجاة: - أولاد نوح: نجاة أهل السفينة يوم عاشوراء	١٢٣
٦٠-٦٢	شرح الآيات - نُوحٌ يَصِفُ نَفْسَهُ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ	١٢٧

❀ ❀ ❀